مشاهير قادة الاسلام

قادة فتح بلاد الشام والعراق



تأليف

بسّام العسليّ

المكتبة التاريخية

مشاهير قادة الإسلام

قادة فتح بلاد الشام والعراق

١ ـ أبو عُبيدة بن الجراح.
٢ ـ خالد بن الوليد.
٣ ـ سعد بن أبي وقاص.
٤ ـ معاوية بن أبي سفيان.
٥ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي.

تأليف

بسام العسلي

دار النفائس

قادة فتح بلاد الشام والعراق
تأليف: بسام العسلي
© جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى: 1433هـ ـ 2012م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 485 - 2

نشر Publisher



DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com



دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان

Web Site: WWW.alnafaes.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

صدرت عن «دار النفائس» في منتصف عقد السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٥م) مجموعة «مشاهير قادة الإسلام»؛ والتي ضمت سِيَر وأعمال نخبة من قادة الجهاد في سبيل الله؛ والذين أمكن لهم بجهدهم وجهادهم ضمَّ مشرق العالم القديم إلى غربه؛ ما بين سمرقند وطشقند وحدود الصين؛ حتى أقصى المغرب وشبه الجزيرة الأندلسية؛ خلال فترة زمنية لم تتجاوز الثمانية عقود من عمر الزمن.

كان ذلك إنجازاً رائعاً لم يعرف تاريخ الشعوب نظيراً له ولا مثيلاً من قبل، على ما عرفه العالم القديم من امبراطوريات ودول عظمى تشكَّلت معظمها على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، واحتفظ هذا الإنجاز بقيمته وأهميته رغم تقادم الزمن وتطور المجتمعات الإنسانية.

وكان تطور فن الحرب؛ في كل مستويات الحرب؛ (الاستراتيجية والعمليات والتكتيك) بمثابة مدرسة متكاملة لتعلم فنِّ الحرب واستخلاص دروسه وتجاربه التي تجاوزت ميادين القتال لتشمل بناء مجتمعات ما بعد الحرب وللوصول إلى بلوغ كل أهداف الحرب.

وهكذا صدرت مجموعة «مشاهير قادة الإسلام» في منتصف عقد السبعينات، ولم يكن إصدارها في تلك الفترة أمراً غريباً ولا مباغتاً؛ ذلك أن الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة (نكسة ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧م)، وكذلك الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة (العاشر من رمضان ـ السادس من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣م) قد ألقت بكل ثقلها على كاهل الإنسان العربي، والإنسان المسلم بصورة عامة وشاملة. فقد أكدت نتائج الحربين خطورة التحديات الوافدة مع كل ريح تعصف من الغرب أو من الشرق. وبالتالي؛ لم يكن مباغتاً أن تظهر دراسات وأبحاث في بغداد والقاهرة؛ تركزت بمجموعها على بعث الموروث العربي ـ الإسلامي من رقاده؛ وأن تنقله من بطون كتب التاريخ إلى نور الدنيا في (الأزمنة الحديثة). غير أن تنوع وتباين القراءات والاجتهادات في قراءة

التجارب التاريخية، وتحليلها العلمي؛ واستخلاص دروسها الثمينة؛ خلال تلك الحقبة؛ لم يكن إلا البرهان الواضح على مدى حاجة الإنسان العربي للعودة إلى جذوره الأصيلة؛ وورود المناهل التي لا تنضب من معين الحياة المتدفقة والمتجددة باستمرار؛ والتي ستبقى في تياراتها المتواصلة؛ وفي قوة اندفاعها، خالدة ما دامت هناك حياة على أرض الدنيا. ولئن كانت هذه الظاهرة هي تعبير واضح وتأكيد ثابت على استجابة الإنسان العربي في مواجهة التحديات استجابة صحيحة؛ فقد كانت استجابة الشعب العربي والإسلامي، وفي كل الأقطار العربية والإسلامية؛ مثيرة للتقدير والإعجاب. إذ أن استقبال الشعب العربي لما يعيده إلى أمجاده التي هو جدير بها؛ بقدر ما هي جديرة به ـ وكل الأجيال المؤمنة بحقها في الوجود والعيش الكريم ـ تحت شمس الدنيا التي لم تدخل أشعتها الدفء إلا إلى قلوب المؤمنين الصادقين. وهنا، وعلى الرغم من أن مؤلف (المجموعة) ودار النشر التي أصدرتها قد انطلق عملهما من هذه القاعدة المشتركة التي تشكلت في ظروفها المكانية والزمانية؛ إلا أنهما كانت لهما أيضاً خصوصيتهما في تحقيق الهدف. فقد كان مؤلف المجموعة وصاحب دار النشر؛ ينتميان إلى مدرسة فكرية عسكرية واحدة. فهما من مدرسة (الكلية العسكرية في حمص)، وهما من ضباط (الحرس القديم ـ ما قبل العام ١٩٦٣م). ولهذا كان الحافز الأول لهذا العمل ـ بالنسبة لكليهما ـ هو أننا نعمل في جيش عربي وفي محيط إسلامي، ونحن نجهل الكثير الكثير من تاريخنا العسكري. فقد فرضت برامج التعليم دراسة معارك (أوسترليتز وفالمي وتاريخ الحروب النابوليونية، والحروب الأهلية الأمريكية وغيرها) وكنا لا نعرف إلا النذر اليسير من (القادسية واليرموك وفتح الفتوح، ونهاوند). أما عن قادة الفتوح؛ وأما عن تلك الإبداعات التي سارت في ركاب المجاهدين في سبيل الله، وما اقترن بها من جهد وتضحيات لا تحيط بها إحاطة؛ ولا يمكن مقارنتها بأشباه لها، لأنها أعمال أكبر من كل تقويم. إنها الإعجاز، وهل يحيط بالإعجاز إلا من خلق الإعجاز؟.

وهكذا، ومن خلال الإرادة الصلبة والرغبة الصادقة في العمل من أجل الحقيقة، بدأ العمل، وكان واضحاً أن ما يوجه إلى (فن الحرب الإسلامي) من سهام حاقدة مسمومة (من نماذجها القول بأن ما يقال عن المعجزة العربية ـ الإسلامية إنما هو عمل حدث في غفلة من الزمن؟ أو القول بأن الامبراطوريتين

العالميتين الكبيرتين آنذاك (الفرس والروم) كانتا مستنزفتين بالحروب المتتالية، كل ضد الآخر، مما ساعد العرب المسلمين على تدميرهما، أو الأهم من ذلك أن تاريخ فن الحرب الإسلامي لا يستحق جهد الدراسة لأنه لا قيمة لدروسه القديمة والتي تجاوزها الزمن بتأثير الثقافة والحداثة والتطور في تنظيم الجيوش؛ وإدارة الحروب). ولا ريب أن كل باحث عربي أو مسلم حرص على بذل جهد صادق للتعريف بفن الحرب الإسلامي، قد جابهته صدمات كبيرة هدفها الواضح ـ والمعلن بأشكال مختلفة ـ هو بتر الشعب العربي والشعوب الإسلامية من جذورها، وحرمانها من الورود إلى مناهل عزتها وكرامتها وحقها بالحياة الحرة التي تمتلك مفاتيحها. وجاءت (الحروب الحديثة ضد ما يسمى الإرهاب) لتجعل من تاريخ العرب المسلمين تاريخاً للإرهاب يجب عدم التعرض له، إلا من قِبَل الاختصاصيين من (خبراء) التاريخ في عواصم العالم الكبرى.

من هنا؛ كان الهدف الواضح للعمل هو نشر المعرفة لأمجاد هذه الأمة؛ التي كانت خير أمة أُخرجت للناس؛ عبر التعريف بصانعي الأحداث وقادة الحروب مع مراعاة المبادئ التالية:

أولاً: التعرض لسيرة القائد (موضوع البحث)؛ بصورة وجيزة وفي حدود ما يتعلق بدور العامل الفردي بممارسة القيادة.

ثانياً: إبراز دور العقيدة الإسلامية في تكوين الفكر العسكري الإسلامي (وصياغة المذهب العسكري)، إلى جانب التطبيقات العملية في ميادين القتال من خلال التجارب الأولى (الغزوات والبعوث والسرايا والحروب في زمن النبوة).

ثالثاً: إظهار دور القيادة الاستراتيجية (الخليفة أو أمير المؤمنين) في إدارة الحرب، وهو دور يتطابق كل التطابق مع دور القيادة الاستراتيجية في الأزمنة الحديثة (الاحتفاظ باحتياط استراتيجي من القوات ـ تنسيق التعاون بين الجبهات القتالية المختلفة والمتباعدة).

رابعاً: إبراز كفاءة قادة الحروب (قادة الأعمال القتالية على مسارح العمليات أو قادة الجيوش)، إذ كان لكل مسرح من مسارح العمليات خصوصيته. فأبناء الصحارى من جيوش المجاهدين في سبيل الله لم تكن لهم معرفة بخوض غمار الحروب ضد جيوش نظامية كبرى تمتلك خبرات قتالية واسعة، ولديها جيوش ضخمة وقدرات قتالية كبيرة، كذلك لم تكن لديهم خبرة بالقتال في المدن، ولا معرفة بفنون الحصار؛ ولا في قتال الجبال والمناطق الصعبة؛ ولا في بلاد

معادية... إلخ. وكان لكل موقف من هذه المواقف صعوباته وتحدياته؛ فكان لزاماً التعرض لإبداعات القادة في التعامل مع كل ما هو غير متوقع من مباغتات الحروب.

خامساً: وكان لزاماً أيضاً على الباحث التعرض لدور المجاهدين في سبيل الله وانضباطهم الرائع، واستجاباتهم الصحيحة لأوامر قادتهم ونواهيهم، وقدرتهم العالية على تحمل المشاق والصعوبات في سيرهم الطويل وفي قتالهم الصعب وفي الصبر على البلاء، وفي تصميمهم الثابت لانتزاع النصر.

سادساً: وكان لا بد أيضاً من دور (العامل المعنوي) أو (الإيمان) في تحقيق هدف الحرب وانتزاع النصر، إذ كانت كل حروب الفتح ـ أو معظمها على الأقل ـ في غير صالح المسلمين من حيث القدرة العددية وتوافر الوسائط القتالية والإمداد الإداري... إلخ، ولكنهم، رغم كل الصعوبات، كان وضوح الهدف وكفاءة القيادة والثقة بنصر الله، كافية لقلب موازين القوى التقليدية (فكانت نسبة المسلمين العددية، بالمقارنة مع أعدائهم، هي في حدود واحد على عشرة في معظم المعارك).

لم يبق بعد ذلك إلا اختيار وسيلة إيصال المعرفة إلى القارئ الكريم. ففي عصر الثقافة؛ وفي زمن الانصراف عن القراءة إلى الوسائل السمعية البصرية الحديثة، كان اللجوء إلى اختيار حجم (الكتيبات) هو الخيار الأفضل، وقد ظهر أن هذا الخيار كان مناسباً ـ بفضل من الله ـ.

ذلك؛ ولئن كان الهدف الأول لمجموعة (مشاهير قادة الإسلام) هو نشر المعرفة بتاريخ فن الحرب الإسلامي، مما يرفد جند الوطن العربي والشعوب الإسلامية بما هو ضروري لتطوير الفكر العسكري، إلا أن حدود المعرفة قد تجاوز حدود (العسكر) لتصل إلى كل إنسان عربي ومسلم يبحث عن جذوره، ولم يكن مباغتاً بالتالي أن تصل ردود فعل كثيرة، ولله الحمد، ومن شرائح اجتماعية متنوعة لتؤكد في كل مرة على أهمية وفائدة تقسيم محتوى كل باب إلى قسمين: (١ ـ السيرة القيادية. ٢ ـ تحليل الأعمال القتالية والدروس المستخلصة استراتيجياً وقتالياً وتكتيكياً). وكان البرهان الواضح هو الصعود المستمر لانتشار مجموعة مشاهير قادة الإسلام على امتداد ٣٥ عاماً من عمر الزمن (١٩٧٥ ـ ٢٠١١م). غير أن حقيقة ثانية رافقت هذا الانتشار وهو تجمع عدد كبير من المقترحات من أقطار عربية كثيرة تطلب إعادة إصدار هذه المجموعة في إطار

(مجلدات)، حفظاً لها؛ ورغبة في التعامل مع مضمونها في إطار عمل موسوعي، وعلى هدى هذه المقترحات البنّاءة والصادقة سار الإنجاز العلمي الذي أخذت به دار النشر (دار النفائس).

* * *

يمكن بعد ذلك الانتقال إلى ما تتضمنه دفتا المجلد الأول من هذه المجموعة (قادة فتح بلاد الشام والعراق)، حيث ضم هذا المجلد أعمال وإنجازات خمسة من كبار القادة ـ قادة الفتوح ـ، ولكن هل هؤلاء هم كل أفراد (أو قادة) الجيوش التي شكلت الخطوط الثابتة والمبادئ الواضحة لما يمكن تسميته (مدرسة فن الحرب الإسلامي)؟.

لعل الظاهرة المثيرة هي أن (هذه المدرسة) هي التي وضعت قواعد وأسس (سياسات الفتوح)، وهي المدرسة الأولى التي جابهت كل أنواع التحديات التي لا بد من توقعها عند العمل في بلاد معادية، وعلى تراب مناطق جغرافية صعبة؛ في عصر كانت فيه القلاع الشاهقة والحصون المنيعة والأنهار الجارفة والجبال الوعرة وقتال جيوش معادية، تمتلك رصيداً كبيراً من الخبرات والقدرات القتالية؛ وتعمل في بلاد تقع تحت سيطرتها. وتظهر سيرة هذه النخبة من القادة ما توافر من الكفاءة للتعامل مع كل ما هو جديد؛ وما هو ضروري، من تطوير التنظيم القتالي لتلبية متطلبات حرب الحركة، ومن إتقان أعمال الحصار؛ ومن عزل للأهداف، ومن اختيار صحيح لتنظيمات الأمن والاستطلاع لتجنب المباغتات، ومن الاهتمام الكبير بتطبيق مبادئ الحرب، التي لم تكن تحمل اسم (المباغتة) غير أنها كانت ملازمة لكل عمل قتالي، وعلى كل الصعد والمستويات القتالية. ويظهر أن موروث حروب الجاهلية من الأعمال القتالية الصغرى (حرب الكر والفر والإغارات والكمائن) كانت له استطالاته في فن الحرب الإسلامي الذي حددت حروب فتح الشام والعراق اتجاهاته الأولى والثابتة، ليس ذلك فحسب؛ بل إن باستطاعة القارئ الكريم إجراء مقارنة بين إنجازات قادة فتوح بلاد الشام والعراق، حيث يظهر بوضوح التمايز بين القادة في التعامل مع الأهداف المختلفة، والتي كان كل واحد منها يشكل تحدياً كبيراً، ولكن هذا التمايز بين القادة يؤكد حقيقة ثابتة وهي قوة الانضباط في الخضوع لقرار الحرب ومخطط الحرب. ففي اليرموك كما في القادسية، كان قرار الحرب هو نتاج بحث بين قادة الجيوش مما يمكن مقارنته (بهيئة الأركان

الحديثة) حيث (الشورى) هل التي حددت موقع المعركة، ومنطقة الحشد والتنظيم للمعركة؛ وإدارة المعركة ودور كل قوة من القوى الخمس (المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والمؤخرة) علاوة على تنظيم قوة الفرسان (القوة الضاربة وقوة الحسم). وتظهر هنا أيضاً أهمية التنسيق الكامل بين قيادة العمليات (قادة الجيوش) وبين القيادة الاستراتيجية (أمير المؤمنين في المدينة المنورة)، وكذلك بين قادة العمليات (والمجموعات التعبوية ـ التكتيكية) لتنفيذ الإغارات وأعمال الالتفاف والتطويق واقتحام المناطق المحصنة، وجمع المعلومات والحصول على أسرى... إلخ. وعلى سبيل المثال: فقد كان دور أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) ﷺ واضحاً في (فتح القدس) وفي تنسيق التعاون بين جيوش فتح الشام وجيوش فتح العراق، سواء لدعم جيش العراق بقيادة خالد بن الوليد لدعم جيوش بلاد الشام في معركة اليرموك الخالدة، أو في سنة ١٧هـ، عندما جرى تحريك قوات من العراق ـ إلى حمص وإلى الجزيرة على امتداد نهري دجلة والفرات ـ عندما تحرك الروم وأنصارهم من الغرب لتنفيذ هجوم مضاد كبير يهدد المسلمين في (حمص) بقيادة «أبو عبيدة بن الجراح» وخالد بن الوليد، والأمثولات كثيرة.

وخلاصة القول: إن تطور فن الحرب الإسلامي انطلاقاً من دروس (حروب العهد النبوي) وحروب فتح بلاد الشام والعراق، ما هو إلا البرهان على تطور ذلك الفكر العربي المبدع والقادر على العطاء عندما تتوافر له ظروف الإبداع والعطاء. ولقد كان طريق الفتوح شاقاً وصعباً؛ لا سيما عند تقييد عمل الجيوش وقادتها بقيود متطلبات بناء المجتمع لما بعد الحرب، مما كان يحدُّ من القدرة على ممارسة العمل العسكري بحرية (يرغب كل قادة الحرب بامتلاكها حتى في الأزمنة الحديثة للحصول على نصر عسكري حاسم)، ولكن هل كان النصر العسكري في تاريخ فن الحرب العالمي هو وسيلة بناء مجتمعات جديدة؟ أم كان فكر التعاون الحضاري الذي التزم به قادة الحرب وأمراء الجيوش الإسلامية طوال عهود الفتوحات هي التي دعمت الوجود العربي والانتشار الإسلامي حتى اليوم، والذي سيبقى بإذن الله ما دامت الحياة على أرض الدنيا؟

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ والحمد لله رب العالمين.

بسام العسلي

البَابُ الأوّل

أبو عبيدة بن الجراح

(٤٠ق.هـ ـ ١٨هـ/٥٨٤هـ ـ ٦٣٩م)

أبو عبيدة في كلمات

قال رسول الله ﷺ: (لكل أمة أمين؛ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)[1]، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «أصبحُ الناس وجوهاً وأحسنهم خلقاً وأشدهم حياء ثلاثة: أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة»[2]. وعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام عام ١٥هـ، تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: «أين أخي؟» فقالوا: مَنْ؟ قال: «أبو عبيدة!» قالوا: «يأتيك الآن!». . . فجاء أبو عبيدة على ناقة مخطومة بحبلٍ، فسلم عليه، فقال عمر للناس: «انصرفوا عنه!» ثم التفت إلى «أبو عبيدة»؛ وقال له: «اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة». فقال: «وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليَّ». ودخل عمر فلم ير في البيت شيئاً، إلا سيفه وترسه، فقال عمر: «فأين متاعك؟ لا أرى إلا لبداً وصفحة وشناً ـ والشن: القربة الخلق ـ وأنت أمير! أعندك طعام؟». فقام أبو عبيدة إلى جونة ـ سلة مستديرة ـ فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر؛ فقال له أبو عبيدة: «قلت لك: إنك ستعصر عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين! يكفيك من الزاد ما بلغك المحل!!» فقال عمر: «غيَّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة!»[3].

وفي عام ١٨هـ؛ انتشر الوباء ـ طاعون عمواس ـ في الشام؛ وأراد عمر بن الخطاب أن يستخرج «أبو عبيدة» من منطقة الوباء بعد اشتداده؛ فكتب إليه: «سلام عليك. أما بعد. فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا، ألا تضعه من يدك حتى تقبل». فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر؛ فكتب إليه: «يا أمير المؤمنين. قد عرفت حاجتك

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ٧/ ٧٣، ٨/ ٧٤.

(٢) الإصابة ٤/ ١٣.

(٣) أسد الغابة، ابن الأثير ٣/ ٨٦.

إليَّ، وإني في جند المسلمين لا أجد نفسي رغبة عنهم؛ فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه؛ فخلني من عزيمتك». ومات أبو عبيدة بالطاعون ورثاه معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي بقوله: «إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله إني رأيت من عباد الله قط أقل حقداً؛ ولا أبر صدراً؛ ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة عنه؛ فترحموا عليه»[1]. وقال عنه أمير المؤمنين عمر: «أتمنى ـ لو كان لي ـ بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح... ولو أدركتُ أبا عبيدة بن الجراح لأستخلفته وما شاورت؛ فإن سئلت عنه قلت: استخلفت أمين الله وأمين رسوله»[2].

وقال ـ أبو عبيدة ـ عن نفسه: «وددت أني كبش؛ فذبحني أهلي؛ فأكلوا لحمي وحسوا مرقي»[3]. وقال: «ألا رُبَّ مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه! ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين غداً! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات». وبلغ معاذ بن جبل أن بعض أهل الشام استعجز «أبو عبيدة» ـ أيام حصار «دمشق» ورجح «خالد بن الوليد» ـ فغضب معاذ وقال: «أبأبي عبيدة يُظن؟! فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة؟! ... والله إنه لمن خير من على الأرض»[4].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، العسقلاني ٤/ ١٢، ١٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٣.

(٤) الإصابة ٤/ ١٢، وطبقات ابن سعد ٣/ ٤١٤.

الوجيز في حياة «أبو عبيدة بن الجراح»

جدول توقيت الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الحدث
٤٠ق.هـ	٥٨٤	ولادة «أبو عبيدة بن الجراح».
٢ق.هـ	٦٢٠	الهجرة إلى الحبشة «الهجرة الثانية».
١هـ	٦٢٢	الهجرة إلى المدينة.
٢هـ	٦٢٣	موقعة بدر الكبرى وقتل «أبو عبيدة» المسلم لأبيه المشرك
٣هـ	٦٢٤	موقعة أُحد؛ وفيها نزع أبو عبيدة بأسنانه حلقتين غرزتا في وجه الرسول.
٦هـ	٦٢٧	قيادة سرية «ذي القصة».
٨هـ	٦٢٩	قيادة قوة الدعم في غزوة «ذات السلاسل».
٨هـ	٦٢٩	«غزوة الخبط»
١١هـ	٦٣٢	وفاة الرسول الأعظم ﷺ؛ والبيعة لـ«أبو بكر».
١٣	٦٣٤	موقعة اليرموك.
١٤	٦٣٥	وفاة الخليفة «أبو بكر»؛ وولاية أمير المؤمنين عمر؛ وتعيين «أبو عبيدة» قائداً لقوات المسلمين في الشام.
١٤	٦٣٥	فتح دمشق؛ وغزوة فحل؛ وموقعة «مرج الروم».
١٥	٦٣٦	فتح بعلبك؛ وفتح حمص؛ وقنسرين، وحلب.
١٦	٦٣٧	فتح أنطاكية؛ واللاذقية؛ ومدن الساحل.
١٧	٦٣٨	فتح بيت المقدس؛ وإحباط هجوم الروم ضد حمص؛ وفتح الجزيرة وغزوات ما وراء الدروب.
١٨	٦٣٩	وفاة «أبو عبيدة» في فحل من الأردن؛ ودفنه ببيسان.

الفصل الأول

شخصية «أبو عبيدة» وحروبه

أبو عبيدة بن الجراح.

١ ـ الموقف العام.

٢ ـ الطبيعة الجيو ـ استراتيجية.

٣ ـ موقف الروم «البيزنطيين».

٤ ـ أبو عبيدة في الشام.

٥ ـ وقعة «مرج الروم».

٦ ـ فتح بعلبك وحمص وقنسرين.

٧ ـ فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم.

٨ ـ فتوح الساحل.

٩ ـ هجوم الروم حتى حمص وإحباطه.

١٠ ـ فتح الجزيرة.

١١ ـ غزوات «ما وراء الدروب».

١٢ ـ النهاية.

أبو عبيدة بن الجراح

«...لا نعصيك ولا نخالفك، ولا نقطع دونك أمراً، فأنت سيد المسلمين لا يُنكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك».

«خالد بن الوليد»

لم يكن حدثاً أو غراً يوم أقبل على الإيمان، حتى يقال إنه غرر به، فقد أشرف على الأربعين من عمره، وبلغ مرحلة النضج؛ ولهذا فقد أقبل على الإيمان بعقله وقلبه، وأسلم؛ والمسلمون قلة مستضعفون في الأرض، يناصبهم العداء كل من حولهم، ويكيد لهم كل من عرف أنهم آمنوا وأسلموا. ولم يكن - وهو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام - يطمح إلى قيادة جيوش فتح الشام، أو يطمع في ممارسة قيادة تتبدل لها طبيعة الدنيا، وينقلب لها وجه التاريخ. كان كل هدفه - من الحياة - أن يقضي ما بقي من رحلة العمر، في نصرة الحق الذي حمله الدين الجديد، وتجنب التعذيب والبلاء ممن آلوا على أنفسهم التصدي لرسالة السماء، ومحاولة إطفاء نور الله بألسنتهم وأيديهم. فهاجر إلى الحبشة مع من حملتهم ريح الهجرة الثانية ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مكة المكرمة ليقف إلى جانب الرسول الأعظم ﷺ ولينا صره ويؤيده، ويخلص له في القول والعمل. وعرف فيه الرسول نموذجاً للإيمان، ومثالاً للإسلام، وعرف فيه أيضاً خصائص وطباعاً ما عرفها في غيره - كالإخلاص والتجرد والصدق والأمانة وغيرها من الفضائل - وكان المسلمون من تلاميذ مدرسة الإسلام كلهم نماذج في هذه الفضائل، فكان ظهوره عليهم إنما يعني أنه فوق الفضائل كلها، ولهذا أحبه الرسول وقربه، وأطلق عليه: «أمين الأمة».

ذلك هو أبو عبيدة بن الجراح[1] الذي سار في طريق الإسلام منذ بدايته.

---

(١) **أبو عبيدة**: هو عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، وأمه أميمة بنت غنم. =

ولما أذن الرسول بالهجرة إلى المدينة، هاجر أبو عبيدة مع من هاجر من المسلمين إليها، فآخى النبي بينه وبين سعد بن معاذ[1]. وفي السنة الثانية للهجرة، حدثت موقعة بدر الكبرى، وقاتل فيها أبو عبيدة بشجاعة، وتصدى له والده ـ وكان في صف المشركين ـ يريد قتله، وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قَصَدَه وقَتَلَهُ، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة/٢٢]. وفي السنة التالية حدثت وقعة أُحد، وفيها أبلى أبو عبيدة أحسن البلاء، وصمد حين تفرق الناس، وأسرع إلى الرسول يقف إلى جانبه في قلّة من الأصحاب. ويذكر أبو بكر الصديق ما كان من أمر «أبو عبيدة» في ذلك اليوم فيقول: «لما كان يوم أُحُد، ورمي رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حَلْقتان من المغفر ـ الدرع من الزرد ـ فأقبلتُ أسعى إلى الرسول، وإنسانٌ قد أَقْبَل من قبل المشرق يطير طيراناً، فقلتُ: اللهمَّ اجعله طاعة، حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بَدرني، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله. فتركته، فأخذ أبو عبيدة بثنيته ـ أحد قواطعه الأربعة ـ وأمسك بإحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره، وسقطت ثنية ـ قاطع ـ «أبو عبيدة»، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى، فسقطت: فكان أبو عبيدة في الناس أثرم»[2].

وفي السنة السادسة للهجرة، أسرى رسول الله ﷺ سرية «أبو عبيدة بن الجراح» إلى ذي القصة في شهر ربيع الآخر في أربعين رجلاً، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا ذا القصة مع عماية الصُبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا نعماً ورجلاً واحداً، فأسلم، فتركه رسول الله ﷺ[3]. وفي السنة الثامنة للهجرة وجَّه الرسول سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى أرضَيْ «بلي» و«عذرة» في

= طبقات ابن سعد ٣/ ٤٠٩، والإصابة ٤/ ١١. ولد سنة (٤٠ق.هـ/ ٥٨٤م)، وتوفي سنة (١٨هـ/ ٦٣٩م).

(١) وفي طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٠: أنه آخى بينه وبين سالم، مولى أبي حذيفة، وفي رواية بينه وبين محمد بن مسلمة.

(٢) طبقات ابن سعد ١٣/ ٤١٠.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٦٤١.

غزوة ذات السلاسل، ووجد عمرو بن العاص أن قوة أعدائه كبيرة، فأرسل إلى الرسول ﷺ يستمده، فأرسل إليه الرسول «قوة من المهاجرين الأولين وفيها أبو بكر وعمر وبقيادة «أبو عبيدة بن الجراح»، وقال الرسول لـ«أبو عبيدة» حين وجهه: «لا تختلفا». فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم على عمرو بن العاص قال له عمرو: إنما جئت مدداً لي، فقال له أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله قد قال لي: لا تختلفا، وأنت إن عصيتني أطعتُك، قال: فأنا أميرٌ عليك، وإنما أنت مددٌ لي، قال: فدونك! فصلى عمرو بن العاص بالناس»[1]. وفي هذه السنة ذاتها قاد أبو عبيدة بن الجراح سرية من المهاجرين والأنصار تضم ثلاثمائة مقاتل في «غزوة الخبط»[2]، «وسار أبو عبيدة في اتجاه جهينة ـ بالقبلية ـ وبينها وبين المدينة خمس ليال، وأصاب المسلمون جهد كبير حتى اقتسموا التمر عدداً، وحتى أكلوا الخبط ثلاثة أشهر، ونحر لهم قيس بن سعد تسع ركائب، ثم نهاه أبو عبيدة. وخرجت دابة من البحر يقال لها: العنبر ـ نوع من الحيتان الضخمة ـ فمكث المسلمون عليها ثلاثة أيام يأكلون منها ويقدِّدون ويغرفون شحمها. ثم انصرف أبو عبيدة بالمسلمين من دون أن يلقوا كيداً»[3]. وفي السنة الثامنة للهجرة، أقدم الرسول ﷺ على فتح مكة «وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي الرسول»[4]. وجاء وفد نجران إلى الرسول ﷺ وقالوا له: «ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضاً». فقال لهم رسول الله ﷺ: (ائتوني العشيَّة أبعث معكم القويَّ الأمين)، فكان عمر بن الخطاب يقول: «ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجراً، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، سلَّم ثم نظر يمينه ويساره، فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى «أبو عبيدة بن الجراح»، فدعاه، فقال: (اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه) قال عمر: «فذهب بها أبو عبيدة»[5].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢.

(٢) **الخبط**: ورق العضاة من الطلح ونحوه، يُخبط ويُضرب بالعصا فيتناثر ثم يُعلف به الإبل، وسميت هذه الغزوة بغزوة الخبط، لأنهم أكلوا الخبط حتى كأن أشداقهم أشداق الإبل.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣.

(٤) المرجع السابق ٣/ ٥٧.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٥، ٢١٦.

ومضى الرسول للقاء ربه في بداية السنة (١١) للهجرة، وبينما المسلمون منصرفون لمصابهم، علم أبو بكر أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لمبايعة سعد بن عبادة، فخرج أبو بكر للاجتماع بهم، ولقي عمر بن الخطاب و«أبو عبيدة بن الجراح». ومضى الثلاثة مسرعين إلى السقيفة، وكاد يحدث خلاف، فوقف أبو عبيدة في الناس وقال: «يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بَدَّلَ وغيَّر». وقال أبو بكر: «هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا». فقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضلُ دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك! ابسط يدك نبايعك. وكانت البيعة[١].

ووقف أبو عبيدة بعد ذلك إلى جانب الصديق، يخلص له النصح بمثل ما كان يخلصه للرسول، ويعمل على جمع كلمة المسلمين، حتى إذا ما انتهت حروب الردة وعادت للعرب المسلمين وحدتهم، أخذ الصدِّيق في تجهيز الجيوش لفتح الشام والعراق، وكان من نصيب «أبو عبيدة» قيادة جيش من جيوش فتح الشام.

تظهر المواقف السابقة مجموعة من المميزات القيادية التي كوَّنت شخصية «أبو عبيدة بن الجراح»، وهي مميزات ستظهر بوضوح أكبر عند ممارسة الأعمال القيادية الكبرى في الفتح، وستبرز هذه المميزات ـ بصورة خاصة ـ من خلال التحديات التي جابهت قوات العرب المسلمين وقياداتهم أمام جيوش عريقة في تنظيمها، غنية بخبراتها، وفيرة في عددها، قوية في عدتها. وقد يكون من السابق لأوانه ـ هنا ـ عرض تلك المميزات، أو إبراز خصائص قوات المسلمين ونقاط قوتها، أو شرح أسس السياسة الاستراتيجية التي تم تطبيقها، ولكن من المهم الإشارة إلى نقطة واحدة ـ والبحث متعلق بالقائد «أبو عبيدة بن الجراح» ـ وهي الدور الذي مارسه لا كقائد، ولا كجندي مقاتل، وإنما كنموذج للإنسان القائد المقاتل والمؤمن المسلم، فكان بذلك مصدر إشعاع لمن حوله، وقدوة مثلى لأقرانه ومرؤوسيه، ولعله في ذلك أفضل من يمثل المقولة الشهيرة: «إن الحياة في حاجة لقلوب كبيرة أكثر مما هي في حاجة لعقول كبيرة»، وقد اجتمع للقائد «أبو عبيدة» كلاهما: العقل الراجح، والقلب الكبير، فكان بدهياً له أن يسيطر على عقول الناس وقلوبهم، وكان في ذلك النصر.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢١٩ و٢٢١.

١ ـ الموقف العام

كان الروم ـ البيزنطيون ـ أو بنو الأصفر، كما كان يسميهم العرب المسلمون، هم القوة التي تتهدد قاعدة المسلمين في الجزيرة العربية، وكان ذلك سبباً في توجيه الغزوات الاستطلاعية والحملات الوقائية إلى أطراف الجزيرة في عهد رسول الله ﷺ. فكانت غزوة دومة الجندل في السنة الرابعة للهجرة، وكانت غزوة ذات أطلاح، بعدها، ثم كانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة، وتبعتها غزوة ذات السلاسل، وجاءت غزوة تبوك أو غزوة العسرة في السنة التاسعة للهجرة، وحشد الرسول في هذه الغزوة (٣٠) ألف مقاتل، وقاد الغزوة بنفسه حتى «إيلة» القدس.

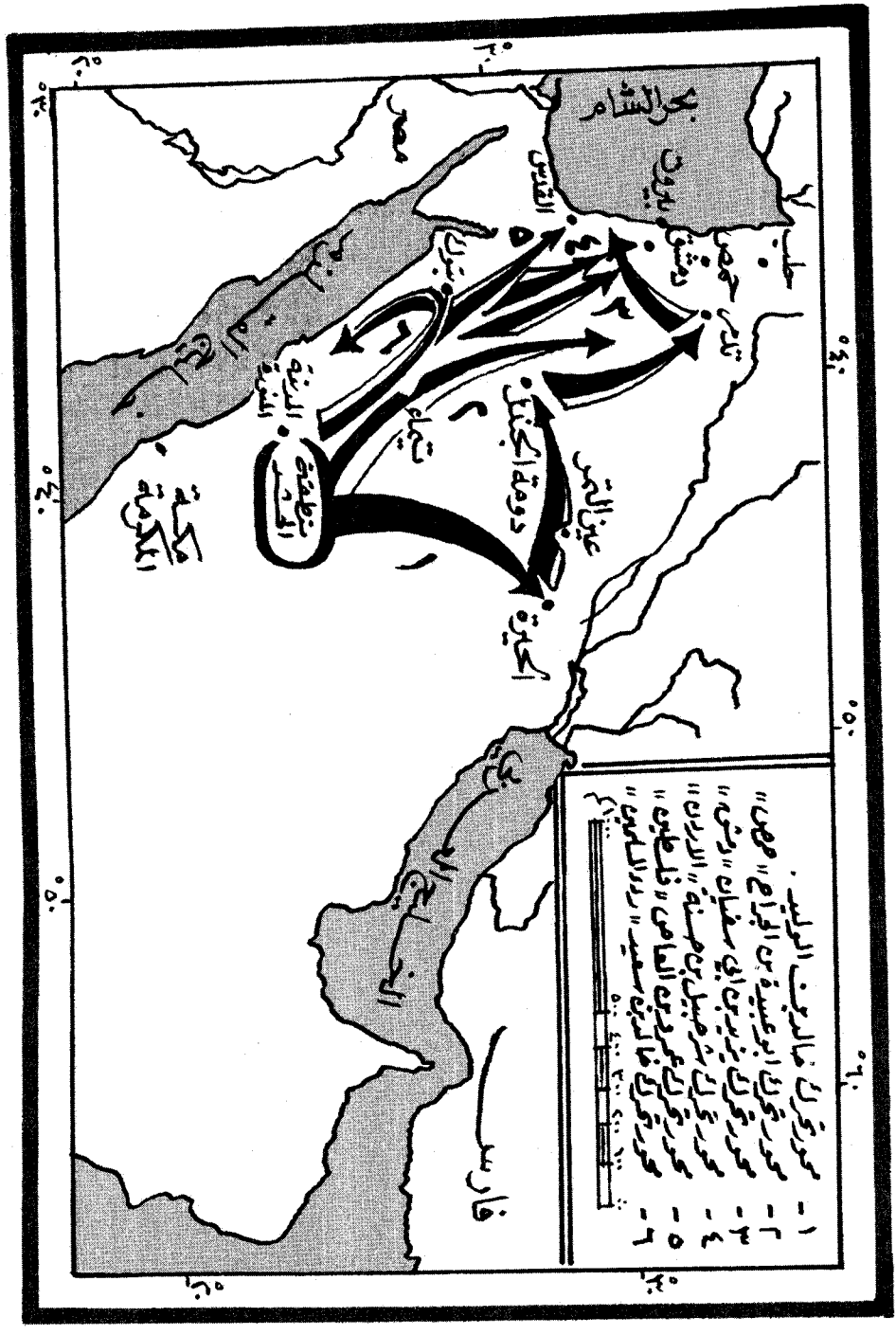
وعند توفي الرسول، كان على وشك توجيه الغزوة السادسة بقيادة أسامة بن زيد لغزو «يبنى وابل الزيت». وانتفضت الجزيرة، واهتزت من أقصاها إلى أقصاها، وأصبح المسلمون قلة تكاد تتخطفهم الطير.

وحاول بعض الصحابة، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، إقناع الخليفة «أبو بكر» بالاحتفاظ بجيش أسامة، ولكن موقف الخليفة كان حازماً، عندما أجاب ابن الخطاب فقال له: «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه، والذي لا إله إلا هو، ما رددت جيشاً وجهه رسول الله، ولا حللت لواء عقده رسول الله»[1].

ولقد كان لهذه الغزوة الاستطلاعية نتائج كبيرة، إذ كانت بمثابة هجوم إجهاضي أو هجوم وقائي بمفهومه الحديث، وأعاقت الروم عن التدخل في شؤون الجزيرة خلال أخطر فترة مرت بها جزيرة العرب، واستطاع الخليفة تركيز الجهد للحرب الأهلية التي أشعل نارها المرتدون. ومضت السنة الحادية عشرة للهجرة في حروب داخلية صعبة استنزفت كثيراً من قدرة العرب المسلمين، ولكن تلك التضحيات كانت من الأمور الطبيعية لإقامة كيان داخلي قوي وسليم يمكن له مجابهة التحديات الخارجية.

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/١٢٦، ١٢٧.



مخطط تحرك قوات المسلمين لفتح الشام ١٣هـ/٦٣٤م

كانت المشكلة الأساسية بالنسبة للعرب المسلمين هي اختيار الأسلوب الملائم للتعامل مع الروم، لا سيما وأن التعامل الطويل مع هؤلاء، وخضوع العرب الطويل للروم قد ترك في نفس العرب نوعاً من الخضوع الذي بات يتطلب، قبل كل شيء، اكتساب الثقة بالنفس، وضمان القدرة على المجابهة. وعقد أبو بكر مؤتمراً لطرح الموقف ومناقشته، وكان هناك ثمة تضارب في وجهات النظر مثّلها عبد الرحمٰن بن عوف في مقولته: «**يا خليفة رسول الله؛ إنها الروم وبنو الأصفر، حدٌّ حديد وركن شديد، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً، ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك مراراً وأضروا بهم وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوهم، ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك، ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم**».

وهكذا كان من رأي عبد الرحمٰن بن عوف إرسال الإغارات الاستطلاعية بصورة متتابعة بهدف اكتساب المعرفة الجيدة بقوات الروم وتنظيماتهم، مع اكتساب معرفة جيدة بالأرض والطبيعة السكانية «التكون الديموغرافي»، واستنزاف قوة الروم قبل كل شيء وإعداد الموقف لإزالة حالة الخضوع النفسي، ما يساعد على خوض المعركة الحاسمة التي يتم لها حشد كل القوات الممكنة، من أقاصي اليمن حتى أقاصي حدود بلاد الشام مع الجزيرة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد برهنت الغزوات الاستطلاعية المتتالية على وجود حالة من التمزق الداخلي في كيان الامبراطورية البيزنطية لا سيما في مجال العلاقات العربية ـ البيزنطية، إذ على الرغم من إسراع عرب الشام لدعم الروم ضد قوات المسلمين إلا أن عقد الاتفاقات مع قادة المسلمين، برهنت على توفر إمكانات لتحييد العرب ومنعهم من تقديم الدعم للروم ـ البيزنطيين، إلى جانب توفر إمكانات اكتساب بعض من قوة عرب الشام للعمل مع قوات المسلمين. ومهما كان عليه الموقف، فقد كان هناك تصميم عام لغزو الروم في الشام والفرس في العراق، ولم يكن هناك اختلاف في حتمية الصراع مع قوى الدولتين العظميين، ولو أن هناك ثمة اختلافاً في أسلوب خوض هذا الصراع، وقد ترك الأمر بكامله للخليفة «أبو بكر» يعالجه كيف يشاء.

في الوقت الذي كان الجهاد ضد المرتدين يحتل المرتبة الأولى، كانت حماية الجزيرة ضد كل تدخل خارجي هدف الخليفة «أبو بكر»، الذي وجه مجموعتين متتاليتين وفي تواقت واحد: الأولى، للتعامل مع الفرس بقيادة المثنى بن حارثة

الشيباني، والثانية، للتعامل مع الروم بقيادة خالد بن سعيد[1] وأوصى الخليفة قائده خالداً بأن ينزل بتيماء على حدود بلاد الشام، وألا يبرحها، وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره. وأقام خالد بن سعيد في تيماء فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشأم إليهم فكتب خالد إلى الخليفة بذلك، وبنزول من استنفرت الروم ومن انضم إليهم من عرب بهراء، وكلب، وسليم، وتنوخ، ولخم، وجذام، وغسان، وسواهم، فكتب إليه الخليفة أبو بكر «أن أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك».

وفي الوقت ذاته تابع أبو بكر حشد القوات، ووجه أربعة جيوش لفتح الشام، فأراد خالد إحراز نصر يدعم من مكانته، فتقدم، وأوغل، وعمل الروم على إمساك محاور العمليات، ووقع خالد في الكمين الذي أعده الروم بإحكام، فهرب خالد مع بعض قواته حتى وصل ذا القصة في حين قاد عكرمة قوات خالد لإيقاف الروم وحماية المسلمين الذين هربوا مع خالد، وعندما علم أبو بكر غضب وأرسل إلى خالد يأمره بالبقاء في ذي القصة حفاظاً على الروح المعنوية للمسلمين، وجرده من قواته، ووجَّهها بقيادة شرحبيل بن حسنة ومعاوية بن أبي سفيان لدعم جيوش الشام، ثم أذن إلى خالد بن سعيد بدخول المدينة.

أفاد الروم من هذا النصر في العمليات، وظنوا أن باستطاعتهم القضاء على قاعدة الإسلام في الجزيرة، ولكن جيوش المسلمين في هذه الفترة كانت تسلك محاور العمليات المختلفة وهي تتوجه إلى أهدافها في الأردن وفلسطين والشام وحمص.

٢ ـ الطبيعة الجيو ـ استراتيجية

لم تتبدل الطبيعة الجغرافية لبلاد الشام كثيراً بين ما كانت عليه أيام الفتح، وبين ما هي عليه اليوم، ومن المعروف أن العامل الجغرافي هو أكثر العوامل ثباتاً في

---

(١) **خالد بن سعيد بن أمية** بن عبد شمس، أبو **سعيد** الأموي، من الصحابة الأوائل في الإسلام. كان من العشرة الذين اكتسبوا شرف السبق للإسلام، وهو صبي صغير، وهاجر إلى الحبشة وعاد إلى المدينة بعد موقعة «بدر الكبرى» وعمل كاتباً للرسول ﷺ، واشترك في غزوات الرسول، وكان موضع ثقة الرسول فعينه على صدقات جموع: «فراد، وزبيد، ومذحج، في اليمن» فأقام في صنعاء حتى وفاة الرسول، حيث عاد إلى المدينة، فعينه أبو بكر لقيادة قوة بفحل ردءاً للمسلمين وحماية لهم على حدود الشام، ولكن خالداً توغل في الشام، فقطع الروم خطوط مواصلات خالد فهرب مع قوة من الفرسان حتى وصل «ذي المروة» فعزله أبو بكر إلا أن خالد تطوع مقاتلاً في جيوش الشام مع أهله، وقاتل تحت قيادة شرحبيل بن حسنة، واستشهد في معركة مرج الصفر (١٣هـ/ ٦٣٤م).

مجموعة العوامل التي تؤثر على مسرح الأعمال القتالية. وتتزايد درجة الثبات بالنسبة لبلاد الشام نظراً لعدم تعرض المنطقة لتغيرات جذرية، فحتى بعض الهزات الأرضية التي حدثت لم تغير كثيراً من ظاهر القشرة الأرضية، بسبب استقرار القشرة الأرضية في هذه المنطقة، وعلى هذا فقد كانت محاور التقدم ومحاور العمليات مماثلة لما هي عليه اليوم، فكان هناك المحور الساحلي الذي تنفرج عنه الصحراء من المدينة المنورة إلى تبوك حتى الساحل عند غزة، ثم يتجه شمالاً مع امتداد الساحل إلى بيروت فاللاذقية حتى أنطاكية، حيث جبال طوروس. وهناك المحور الداخلي الذي ينفرج من الصحراء جنوباً ليمر بالأردن فدمشق ومنها إلى بعلبك فمدينة حمص وحتى حلب. وهناك بعد ذلك المحور الصحراوي الذي يفصل بين بلاد الشام وبلاد العراق. وكانت محاور التحرك الفرعية بين هذه المحاور الرئيسة تسير بصورة عرضانية عبر الثغرات الجبلية، تماماً على نحو ما هي عليه اليوم. فهناك المحور الذي يصل بين الأردن وفلسطين مروراً بالقدس، وهناك محور دمشق الساحل عن طريق بعلبك، وهناك أيضاً محور حمص ـ اللاذقية وحلب ـ أنطاكية. وكانت جبال طوروس تشكل الحد الفاصل بين بلاد الروم البيزنطيين وبين بلاد العرب، وكان الاتصال عبر هذه الجبال يخترق المحاور التقليدية التي أطلق عليها العرب اسم «الدروب»، وكانت هذه الدروب هي الخوانق لكل تحرك على مستوى العمليات أو على المستوى الاستراتيجي. وكان من أبرز هذه الخوانق محور أنطاكية ـ مرعش، الضيق والوعر، ومحور الجزيرة الذي تسير فيه مجاري دجلة والفرات، وقد أطلق العرب على هذا المحور اسم الدروب الجزرية، نسبة إلى الجزيرة الشامية الواقعة بين النهرين.

ولكن؛ وبقدر ما كان العامل الجغرافي ثابتاً، فقد كان عامل المناخ أو البيئة متبايناً، ومن المعروف أن منطقة بلاد الشام تزحف نحو المنطقة القارية، ولهذا، وبحسب الشواهد المتوافرة، فقد كانت بلاد الشام أكثر برودة في فصل الشتاء، وكان المناخ أكثر قسوة، كما كانت القشرة الأرضية مكسوة بالنباتات في الجبال والسهول على حد سواء، وكانت الغابات والسهول مرتعاً للحيوانات المفترسة، ويبرهن ذلك على صعوبة التحرك بقوات كبيرة خارج محاور التحرك الرئيسة، ولكنه كان يضمن في الوقت ذاته الموارد الحياتية للقوات القليلة والمجموعات المقاتلة الصغرى، ولم تكن الأنهار والعوائق المائية تشكل سدوداً في جميع الحالات، ولو أن الروم أفادوا من بعض هذه العوائق المائية ونظموها جيداً

لدعم مواقعهم الدفاعية، على نحو ما فعلوه في معركة فحل أو بيسان.

لقد كان العامل الجيو ـ استراتيجي في مصلحة الروم أكثر مما هو في مصلحة العرب المسلمين، ذلك أن قوات الروم كانت قد عرفت طبيعة بلاد الشام بعد إقامتها الطويلة فيها، كما أنها أكثر قدرة على التكيف مع طبيعة بلاد الشام من العرب الذين ألفوا المناخ الصحراوي. وعلاوة على ذلك فقد كانت استعدادات الروم جيدة للعمل في هذه الأجواء في حين كانت قوات العرب المسلمين محرومة من كل ضرورات الحياة، وكان عليها حتى تضمن لنفسها القدرة على الصمود والاستمرار، أن تنتزع من قبضة خصومها ما كانت تحتاج إليه.

٣ ـ موقف الروم ـ البيزنطيين

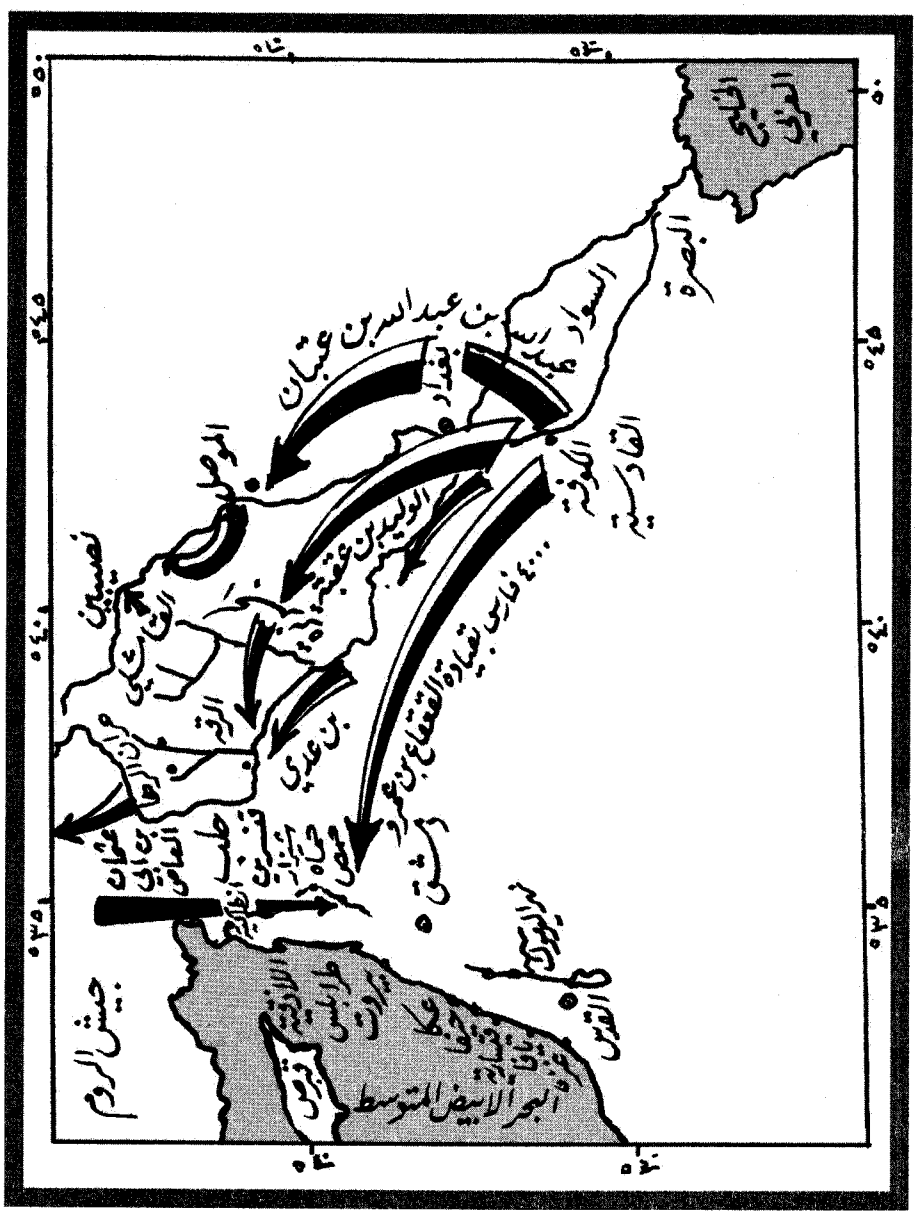
كان الروم في صراع دائم مع الفرس، وكانت الحروب بين الدولتين العظميين لا تكاد تنقطع، وكانت الدولة البيزنطية ـ الروم ـ تعتمد في حروبها على استراتيجيتها القارية ـ البحرية، في حين كانت استراتيجية الفرس قارية بالدرجة الأولى، وكان من المحال على أية دولة إحراز نصر حاسم على الدولة الأخرى بسبب توازن القوى بينهما، فكان النصر يتناوب بين الطرفين، مرة يقف إلى جانب الفرس، ومرة إلى جانب الروم، ونتج عن ذلك إقامة نوع من التنظيم العسكري يتوافق مع طبيعة هذه الحروب. فقد نظم الروم ـ البيزنطيون ـ دفاعهم في المدن، وعملوا على تحصينها تحصيناً قوياً، وفي كثير من الأحيان كان يتم تنظيم الدفاع بأسوار مزدوجة تحيط بها الخنادق العميقة مع تجهيز المدن بأدوات الحرب الضرورية للحصار (مجانيق)، وكان يتم شحن المدن بمواد غذائية وتموينية تكفي لحصار طويل. وكان الهدف الأول من التحصينات الدفاعية هو امتصاص قوة هجوم الخصم، واستنزاف قدرته القتالية وتوفير الظروف المناسبة لتدخل القوات المتحركة، التي تدفعها الدولة البيزنطية لإحباط العدوان. وكانت هذه القوات المتحركة تعتمد، بالدرجة الأولى، على قوة الصدمة المتمثلة بالفرسان، وكان باستطاعة الامبراطورية البيزنطية حشد قوات مقاتلة ضخمة، لكن هذه القوات كانت بطيئة الحركة لعاملين:

أولهما، اعتمادها على تموينها الإداري الذي كان يشكل ذيلاً ثقيلاً يشد إليه القوات ويفقدها مرونتها.

والثاني، هو أن ضخامة القوات كانت تتطلب قيادة وتنظيماً دقيقين.

وكان من الصعب دائماً توفير الشروط المناسبة، فكان التحرك البطيء للقوات عاملاً في إضعاف موقف القوات البيزنطية. ولكن، وبقدر ما كان التحرك

القاري ـ أو التحرك للعمليات ـ بطيئاً بقدر ما كان التحرك البحري للدعم بالقوات أو تأمين الإمداد سريعاً ومنظماً، وكانت الهيمنة البحرية للبيزنطيين عاملاً مساعداً لإجراء كل التحركات بحرية تامة، وبدون خوف من أي تدخل خارجي.



مخطط العمليات الذي وضعه الخليفة عمر
لمجابهة هجوم الروم ووصولهم حمص ١٧هـ/٦٣٨م

لقد كانت «الليجيونات» البيزنطية هي رمز قوة الامبراطورية، وكانت الفرسان الثقيلة التي تقف كالجدار الصلب كافية لتدمير كل قوة تصطدم بها، ولكن هذه «الليجيونات» تعرضت لبعض نقاط الضعف، بسبب الحروب المتواصلة التي استنزفت تلك النوعية الممتازة، وأحلّت محلها نوعية من المرتزقة أقل كفاءة وأقل إخلاصاً مما كانت عليه الكتائب والليجيونات التي شيدت مجد الامبراطورية. وإلى جانب ذلك، فقد كانت الحدود الغربية للامبراطورية مع أوروبا معرضة باستمرار لهجمات البرابرة، ممن دمروا، من قبل، الامبراطورية الرومانية الغربية، فكانت الامبراطورية البيزنطية مرغمة على الاحتفاظ بعدد من ليجيوناتها للدفاع عن حدودها الغربية، ودعم تحصيناتها الدفاعية هناك.

مهما كان عليه الموقف، فقد كان باستطاعة الدولة البيزنطية حشد قوات ضخمة، وتأمين وسائط كافية لخوض حروب طويلة، وكانت سوريا ومصر تشكلان المجال الحيوي الذي يدعم القدرة البيزنطية ويزيد من قوتها القتالية، كما كان هذا المجال الحيوي هو الذي يساعد الدولة البيزنطية على خوض الحروب بعيداً عن حدودها، ولم تكن الدولة البيزنطية، وهي تعتمد على مثل هذه القوة، تخشى منافسة العرب أو خوض الصراع ضدهم، إذ كانت تؤهل نفسها باستمرار للحرب ضد القوة العظمى المنافسة (الفرس)، وكانت تعتمد على تمزق العرب بين مناذرة مناصرين للفرس وغساسنة مناصرين للروم، لإضعاف العرب بصورة عامة، وعدم السماح أبداً بتعاظم القوة العربية إلى درجة تزيد عن حدود دعم القدرة البيزنطية.

٤ ـ أبو عبيدة في الشام

قرر أبو بكر توجيه أربعة جيوش لفتح الشام واستعمل «أبو عبيدة بن الجراح» وأمَّره على حمص، وخرج معه وهما ماشيان، والناس معهما وخلفهما، وأوصى كل واحد منهما صاحبه. «وسلك أبو عبيدة طريق التبوكية وبلغ الروم ذلك، فكتبوا إلى هرقل امبراطور الروم. وحشد هرقل قواته، وعبى لهم العساكر، وأراد إشغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو بن العاص في فلسطين أخاه لأبيه وأمه، واسمه «تذارق»، فخرج هذا في تسعين ألفاً، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ـ المؤخرة ـ في «ثنية جلق» بأعلى فلسطين، وبعث «جرجة بن توذرا» نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بإزائه،

وبعث «الدراقص» فاستقبل شرحبيل بن حسنة، وبعث أيضاً «الفيقار بن نسطوس» في ستين ألفاً نحو «أبو عبيدة بن الجراح»، ولم تكن قوته تزيد على سبعة آلاف، فهابهم المسلمون، وجميع فِرَق المسلمين واحد وعشرون ألفاً، سوى عكرمة في ستة آلاف، ففزعوا جميعاً بالكتب، وقرروا الاجتماع في الجولان. وأعاد الروم تجميع قواتهم التي بلغ عدد أفرادها ٢٤٠ ألفاً، منهم ثمانون ألفاً مقيد وأربعون ألفاً منهم مسلسل للموت، وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم، وثمانون ألفاً من الفرسان، **والمسلمون سبعة وعشرون ألفاً ممن كان مقيماً إلى أن قدم عليهم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفاً**»[١]. «لم تكن طريق «أبو عبيدة» إلى اليرموك خالية من العوائق، وفارغة من المقاومة، فقد اصطدم أبو عبيدة مع وصوله إلى البلقاء بقوات الروم وحامية المدينة، ونجح في القضاء على المقاومة، وطلب أهل البلقاء الصلح فعقد أبو عبيدة معهم اتفاقية، كانت أول عقد للصلح مع المسلمين ـ في الشام ـ»[٢].

أخذت الأحداث في التفاعل بسرعة، فقد مضت فترة غير قصيرة والمسلمون ينالون من الروم باستمرار ويستنزفون قوتهم، وأخذ قادة الطرفين المتحاربين يبحثون عن الحسم في الصراع المسلح. وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة «أبو بكر» يشرح له تطورات الموقف، ويستشيره فيما يجب على المسلمين عمله، فوافق على تجمع القوات في الجولان. وكان في رسالة الخليفة لـ«أبو عبيدة»: «**بث خيلك في القرى والسواد، وضيِّق عليهم بقطع الميرة والمادة، ولا تحاصرنَّ المدائن حتى يأتيك أمري... فإن ناهضوك، فانهدْ لهم واستعنْ بالله عليهم، فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثلهم أو ضعفيهم**»[٣].

وأصدر الخليفة أبو بكر أوامره إلى خالد بن الوليد، وكان بالعراق، من أجل التوجه إلى الشام، وكتب إلى «أبو عبيدة»: «قد ولَّيت خالداً قتال العدو بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع، وإني لم أبعثه عليك أن لا تكون خيراً منه، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب، أراد الله بنا وبك خيراً، والسلام». وكتب خالد بن الوليد إلى «أبو عبيدة» بعد أن وصلته رسالة الخليفة: «أتاني كتاب

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٤.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٢/ ٢٨٠.

(٣) فتوح الشام، الواقدي ١/ ٤٢.

خليفة رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها، ووالله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وُلِّيته... فأنت على حالك الذي كنت عليه، لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً، فأنت سيد المسلمين، لا يُنكر فضلك، ولا يُستغنى عن رأيك».

تحرك خالد من العراق ومعه نصف القوات التي كانت في العراق، ووصل إلى الشام، ونظم قوات المسلمين في اليرموك، وتولى أبو عبيدة بن الجراح قيادة قوات «الكراديس في القلب» وكان خالد يرجع إلى «أبو عبيدة» في كل أموره، وانصرف أبو عبيدة إلى جند الله، يستثير حماستهم للحرب، ويحرضهم على الجهاد، وكان مما قاله لهم: «**عباد الله! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، عباد الله! اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار. لا تتركوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدأوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح واستتروا بالأرق، والزموا الصمت إلا مِنْ ذكر الله ﷻ في أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله**»[1].

انتهت معركة اليرموك بانتصار المسلمين، وتوفي خليفة رسول الله، أبو بكر الصديق، وتولى عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين، وكان أول ما فعله أن عزل خالد بن الوليد وعيَّن «أبو عبيدة» لقيادة جيوش الشام[2]، فعمل أبو عبيدة على تعيين بشير بن كعب بن أبي الحميري بمهمة حماية قواته «كي لا يغتال بردة؛ ولا تقطع الرؤم عليه مواده». وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر وهو يريد اتباع ـ الفالة ـ فلول العدو ولا يدري أيجتمعون أو يفترقون، فأتاه الخبر بأنهم أرزوا إلى «فحل»، وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ، أم بفحل من بلاد الأردن، فكتب إلى الخليفة عمر يستشيره، فأجابه الخليفة عمر: «أما بعد:

١ ـ فابدؤوا بدمشق فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم.

٢ ـ واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص.

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/ ١٦٢.

(٢) هناك ثمة اختلاف في المصادر العربية بالنسبة لموعد وصول أنباء وفاة الخليفة «أبو بكر» وتعيين «أبو عبيدة»؛ إذ تذكر بعض المصادر أن ذلك قد حدث في اليرموك، في حين تشير بعض الشواهد ـ وهي الأكثر ثباتاً ـ بأن ذلك قد حدث في أعقاب اليرموك مباشرة.

٣ ـ فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق مَنْ يمسك بها.

٤ ـ ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل.

٥ ـ فإن فتح الله عليكم، فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالأردن وفلسطين.

٦ ـ وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته».

انطلق أبو عبيدة إلى دمشق، بعد أن سرح عشرة قواد إلى فحل، ونظم أبو عبيدة عملية الحصار، فكلف خالد بن الوليد بحصار قطاع الباب الشرقي، وعمرو بن العاص لحصار باب توما، وشرحبيل بن حسنة لحصار قطاع باب الفراديس، ويزيد بن أبي سفيان لحصار قطاع باب الصغير، وتولى هو حصار قطاع باب الجابية. وأرسل قوة من الفرسان بقيادة ذي الكلاع الحميري بمهمة العمل بين دمشق وحمص لمجابهة كل قوات يرسلها الروم لدعم حامية دمشق، كما أرسل قوة أخرى من الفرسان أيضاً بقيادة علقمة بن حكيم للقيام بالمهمة ذاتها على محور فلسطين ـ دمشق، «واستمر الحصار لفترة ٧٠ يوماً»[١]، تخللها قتال ضار واشتباكات كثيرة وأعمال قصف بالمجانيق، وكانت الحرب فيها سجالاً أصاب المسلمين من الخسائر بمثل ما أصاب الروم. وحاول الروم أثناء حصار دمشق إرسال دعم لحاميتها، لكن قوة ذي الكلاع دمرت قوات الدعم، ولما طال الحصار، من دون أن تصل الإمدادات، بدأت الروح المعنوية للحامية المدافعة عن دمشق بالتدهور. وبدأت الاتصالات مع «أبو عبيدة بن الجراح» ثم اقتحم خالد الباب الشرقي عنوة، وأسرع قائد حامية دمشق لفتح باب الجابية، وتدفقت جموع المسلمين، والتقى هؤلاء الذين دخلوا صلحاً مع قوات خالد التي دخلت هرباً في منطقة من دمشق ـ عند سوق النحاسين ـ وتم الاتفاق على إمضاء الصلح لكل أهل دمشق. ووافق أمير المؤمنين عمر على الصلح مع أهل دمشق[٢].

---

(١) في تهذيب ابن عساكر ١/ ١٤٦، استمر الحصار أربعة أشهر. وفي الطبري ٣/ ٤٣٨ ذكر أن مدة الحصار هي سبعين يوماً، والاحتمال الأرجح هو أربعة أشهر وفقاً لما جاء في الأشعار التي سجلت أحداث المعركة والتي يمكن اعتمادها كوثائق ثابتة، لا سيما عندما تتوافق نصوص هذه الوثائق مع بقية الشواهد. انظر: قراءات (٢).

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٥ ـ ٤٤٢، وابن الأثير ٢/ ٢٩٣، ٢٩٤. وانظر في نهاية هذا الباب: موضوع اتفاقية الصلح بين أهل دمشق و«أبو عبيدة بن الجراح».

عندما كانت جيوش الشام تحرز النصر تلو النصر، كانت الأحداث على جبهة العراق تتفاعل بصورة مغايرة: وما أن تم فتح دمشق حتى وصلت رسالة من أمير المؤمنين عمر إلى «أبو عبيدة بن الجراح» وفيها: «أن اصرف جند العراق إلى العراق وأمرهم بالحث إلى سعد بن مالك». فعمل أبو عبيدة فوراً على فصل جند العراق، وإعدادهم للتحرك بقيادة هاشم بن عتبة، وتولى القعقاع بن عمرو التميمي قيادة المقدمة، وانطلق جند العراق إلى العراق وعلى المجنبتين عمرو بن مالك الزهري وربعي بن عامر.

استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان ومضى إلى فحل، حيث وضع قواته تحت تصرف شرحبيل بن حسنة الذي قاد معركة فحل، وبعد الانتصار الحاسم للمسلمين في هذه المعركة، مضى أبو عبيدة إلى حمص ودفع خالد بن الوليد على مقدمته[1].

٥ ـ وقعة مرج الروم[2]

بقي ذو الكلاع الحميري مع قوة الفرسان على محور دمشق ـ حمص وذلك لإحباط كل محاولة يقوم بها الروم للتسلل في اتجاه دمشق بهدف إثارة الاضطراب في إقليم لا زال حديث العهد بالتعامل مع المسلمين. وهكذا، فعندما انتهت معركة فحل مع نهاية السنة الرابعة عشرة للهجرة، أعاد أبو عبيدة تنظيم قواته، وترك شرحبيل بن حسنة في الأردن، وعمرو بن العاص في فلسطين، ثم توجه نحو الشمال حتى نزل على ذي الكلاع، وكان هرقل قد بعث البطريق «توذرا» حتى نزل بمرج الروم وغربها، ثم ترك قسماً منها هناك وتوجه نحو دمشق ببقية القوة. وعمل أبو عبيدة على مجابهة هذا الموقف بأن نظم قواته على شكل مجموعتين قتاليتين: قاد هو مجموعة منها ضد قوات مرج الروم، التي كان يقودها «شنس»، في حين تولى خالد بن الوليد قيادة المجموعة الثانية واتجه بها لمطاردة الروم المتجهين إلى دمشق بقيادة «توذرا».

وبلغ يزيد بن أبي سفيان خبر تحرك قوة من الروم ضد دمشق، فخرج منها

---

(١) في الباب الثاني من هذه المجموعة، خالد بن الوليد، تظهر صورة العلاقة بين القائدين العظيمين: «أبو عبيدة بن الجراح» وخالد بن الوليد، على اعتبار أنهما اشتركا معاً في حروب فتح الشام ـ أكثرها ـ.

(٢) **مرج الروم**: هو سهل البقاع، قاموس الجغرافيا القديمة، أحمد زكي باشا.

ومعه قوة من جيشه، وبدأت المعركة بين جيش يزيد وجيش «توذرا». ودارت معركة ضارية، ووصل خالد بن الوليد في الوقت المناسب، فانقض على مؤخرة جيش «توذرا» الذي وقع بين الجيشين المسلمين، وتحولت المعركة إلى عملية إبادة لم ينجُ منها إلا قليل من الروم، وغنم المسلمون مغانم كثيرة قسمها يزيد بين جيشه وجيش خالد. وعاد يزيد إلى دمشق في حين قاد خالد قواته على الفور للوصول إلى مرج الروم، حيث كانت المعركة الضارية بين قوات «شنس» وقوات «أبو عبيدة». وهنا أيضاً تكررت العملية، فقد حاصرت قوات المسلمين قوات الروم، وتحول القتال إلى عملية إبادة، بحيث قتل من الروم مقتلة عظيمة حتى امتلأ مرج الروم بجثث القتلى، وأرسل أبو عبيدة قوة من الفرسان لمطاردة أولئك الذين أفلتوا من المعركة واتجهوا إلى حمص[1].

٦ ـ فتح بعلبك وحمص وقنسرين

تابع أبو عبيدة تقدمه، فوصل بعلبك، وهناك التقت قوات المسلمين بقافلة من الإمدادات والمواد التموينية كانت تتجه نحو بعلبك بأمر من هرقل الروم، وأسرعت مفرزة من فرسان المسلمين فاستولت على القافلة، وأبادت قوة الحراسة المرافقة للقافلة. وعندما وصلت قوات المسلمين إلى بعلبك جابهتها قوة من سبعة آلاف مقاتل بقيادة حاكم بعلبك البطريق «هربيس». ودارت معركة قصيرة وحاسمة انتصر فيها المسلمون، وأصيب «هربيس» بجراح، واضطر أن ينسحب بجنده إلى القلعة للإفادة من أسوارها المنيعة، ولدعم المدينة التي أصبحت مكتظة بحشود اللاجئين الذين وفدوا إليها من القرى المحيطة ببعلبك. ونظم أبو عبيدة الحصار حول المدينة، وطلب من أهل بعلبك إيقاف الحرب والامتناع عن المقاومة، وعرض عليهم الصلح. وحدث انقسام في الرأي بين أهل بعلبك، بعضهم يطلب الحرب وبعضهم ينشد السلم، وتغلب دعاة الحرب، ووقف أبو عبيدة يحرض جيشه على الجهاد ويقول لهم: «اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيتْ كانت وبالاً على من صالحتم، ولا تقدرون على سفر ولا على غيره». وحصلت قوات المسلمين على بعض الأسرى، وأحضروهم إلى «أبو عبيدة»، ولدى استجوابهم تبين أن الروح

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣/٥٩٨، ٥٩٩، وابن الأثير ص٣٤٠.

المعنوية في بعلبك متدهورة، وأن هناك حشداً كبيراً يتطلب كميات كبيرة من المواد الغذائية، وهي غير متوافرة بما يكفي حاجة المدينة.

ودارت معركة اليوم الأول بدون التحام، فكان المسلمون يرمون بالسهام، والمجانيق، ويجيبهم المقاتلون من فوق الأسوار بأسلوب مماثل. وفي اليوم الثاني، كان البرد شديداً، فطلب أبو عبيدة من جنده أخذ وجبة طعام ساخنة، وقال لهم: «على كل رجل من المسلمين ألا يبرز لحرب هؤلاء القوم حتى ينفذ رحله، ويصلح له طعاماً حاراً يأكله ليكون بذلك شديداً على لقاء العدو». وكان ذلك سبباً في تأخر المسلمين عن الهجوم، فظن قائد قوات بعلبك «هربيس» أن هناك سبباً أعاق المسلمين عن الهجوم، وقرر مباغتتهم بهجوم مفاجئ. وانطلق بجيشه؛ فجابهته قوة الحماية وفيها عمرو بن معديكرب، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر، وربيعة بن عامر، ومالك بن الأشتر، وضرار بن الأزور، وذو الكلاع الحميري. وقاتلت هذه القوة بعناد وتصميم، وأسرع المسلمون إلى أسلحتهم، وانضموا إلى قوة الحماية، وتعاظمت قوة المسلمين ما أرغم قوة الروم على الانسحاب من جديد حتى القلعة، بحثاً عن الحماية وراء جدرانها القوية.

قرر أبو عبيدة، نتيجة لهذه المعركة، الانسحاب بعيداً عن القلعة حتى مسافة كافية، وجمع قادته وقال لهم: «**اعلموا أن من الرأي أن نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالاً لخيلكم، ومنعة لحريمكم**». ثم نظم أبو عبيدة مجموعات قتالية على النحو التالي:

١ ـ مجموعة فرسان من خمسمائة فارس بقيادة سعيد بن زيد ومعها قوة من المشاة تتكون من ثلاثمائة مقاتل بقيادة عمرو بن نفيل بمهمة التوجه إلى الوادي، وإحكام الحصار على المنافذ الخلفية للمدينة.

٢ ـ مجموعة فرسان من خمسمائة مقاتل ومعها مائة مقاتل من المشاة بقيادة ضرار بن الأزور، ومهمته التحرك حتى باب الشام لإحكام الحصار، وقتال من يخرج إليه.

كان اليوم الثالث من القتال يوماً حاسماً، زجَّ فيه «هربيس» أكبر قسم من قواته، وانطلق بهم لمجابهة قوات «أبو عبيدة». ودارت رحى معركة طاحنة لم يتمكن خلالها أحد من إحراز النصر. وكان سهل بن صباح العبسي جريحاً، فتسلق منذ بداية المعركة المرتفع المشرف على السهل، وأخذ يتابع القتال، وعندما شاهد قوة هجوم الروم وصمود المسلمين، وعدم تمكنهم من انتزاع

النصر، أخذ في جمع ما وجده من أخشاب وأعشاب وأحرقها، وعندما رآها ضرار بن الأزور وسعيد بن زيد اعتقدا أن «أبو عبيدة» يطلب إليهما الالتحاق به، فنظما قواتهما، وانطلقا بسرعة إلى ميدان المعركة، ووصلا إلى مؤخرة قوات جيش «هربيس»، واعتقد الروم أن هناك قوات دعم جديدة قد وصلت للعرب المسلمين، فانسحبوا من المعركة، وانتظموا على شكل حلقة دفاع دائري، وعندما أدركوا أنه أصبح من العسير عليهم الرجوع إلى القلعة، توجهوا شمالاً واعتصموا بإحدى القرى الحصينة، فضرب سعيد بن زيد نطاقاً حولهم من قوة المشاة، وعاد إلى «أبو عبيدة بن الجراح».

واستدعى أبو عبيدة قائديه، ضراراً وسعيد، واستوضح منهما سبب مخالفتهما لتعليماته، وتركهما المواقع المحددة لهما، وأجاب ضرار: «وقفت حيث أمرتني، ورأيت دخاناً فأسرعت». واستعلم أبو عبيدة فقيل له أن سهل العبسي هو الذي أحرق النار، فاستدعاه وسأله عن السبب الذي دفعه إلى إشعال النيران، فذكر له ما حدث معه، فقال له أبو عبيدة: «لقد وفقك الله تعالى، ولكن إياك بعدها أن تُحدث حديثاً من غير إذن أميرك». وحاولت قوة الروم المحاصَرة، بعد ذلك، شق طريقها، فجابهتها مجموعة الحصار، وحدثت معركة ضارية في ظروف غير متكافئة، وأسرع مراسل فأعلم «أبو عبيدة» بالموقف، فانطلق سعيد وضرار ومعهما قوة من الفرسان، وأحاطوا بجيش «هربيس»، وانسحب هذا بقوته إلى القرية وسقط من قوة المسلمين (٧٠) رجلاً. وعندما انتهت المعركة النهارية لليوم الثالث وجه أبو عبيدة أمره إلى سعيد بن زيد: «**الحذر... الحذر... واجتهد ألا يفوتك من الروم أحد، ولا تفسح لهم قدماً واحداً فيخرج منهم أحد...**». وشدد سعيد قبضته على القوة المحاصرة في القرية، ونظم الشؤون الإدارية بحيث تنطلق كل مجموعة من مائة مقاتل لجلب الأخشاب وإشعال النيران وتأمين متطلبات المقاتلين، وجعل ذلك مناوبة فيما بينهم. وحاول «هربيس» الاتصال بحاكم عين الجوز و«جوسيه»، وعندما يئس من ذلك تقدم في اليوم التالي وطلب الصلح من «أبو عبيدة». ونصت اتفاقية الصلح على ألّا يحمل أهل المدينة سلاحاً ضد المسلمين، وألا يتصلوا بملك أو أحد، وعليهم إعلام المسلمين عن كل أخبار تتعلق بعدوهم. واشترط «هربيس» أن يبقى المسلمون خارج قلعة بعلبك وألا يدخلوا إليها، وأن تُحمل إليهم الجزية. ووافق أبو عبيدة، ولكن حدث خلاف بعد ذلك بين «هربيس»

وأعوانه من جهة وبين مواطني بعلبك من جهة أخرى، وعمل أهل بعلبك على قتل «هربيس» واتفقوا على دعوة العرب المسلمين للإقامة بينهم، ووافق أبو عبيدة على دخول المسلمين إلى بعلبك والإقامة بين أهلها. وعندما سقطت بعلبك تقدم حاكم «جوسيه» من «أبو عبيدة» وعقد الصلح معه.

فتح حمص: استخلف أبو عبيدة على بعلبك رافع بن عبد الله، ونظم جيشه للمسير، وتوجه إلى حمص بعد أن دفع مقدمة من الفرسان تضم أربعة آلاف مقاتل بقيادة خالد بن الوليد. وعند وصول خالد إلى حمص عقد حاكم حمص معه هدنة لمدة سنة بهدف كسب الوقت، ومضى خالد إلى ريف حمص في حين كان أبو عبيدة يتحرك بقواته نحو المدينة حمص. وعندما وصل إلى الزراعة ـ قريباً من المدينة ـ توقف فيها؛ ودفع ميسرة بن مسروق العبسي ومعه خمسة آلاف فارس، وعندما عرف أن ميسرة قد وصل إلى حمص، وجه مجموعة أخرى بقيادة ضرار بن الأزور تضم خمسة آلاف فارس أيضاً، ثم وجه بعد ذلك عمرو بن معديكرب الزبيدي ولحق به ببقية الجيش.

كان هرقل قد عمل، بعد موقعة مرج الروم، على دعم حاكم حمص، وقال له: إنه بلغني أن طعام المسلمين هو لحوم الإبل، وشرابهم ألبانها، وهذا الشتاء، فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد، فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد... وعندما نزل المسلمون حمص أخذ أهلها يغارُّونهم ويراوحونهم في كل يوم بارد، ولقي المسلمون بها برداً شديداً والروم حصاراً طويلاً، فأما المسلمون فصبروا ورابطوا، وأفرغ الله عليهم الصبر، وأعقبهم النصر حتى اضطرب الشتاء، وإنما تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلك الشتاء قوات المسلمين. وكان أهل حمص يتواصون فيما بينهم ويقولون: تمسكوا فإنهم حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون. فكانت الروم تتراجع من حربها، وقد سقطت أقدام بعضهم في خفافهم، وإن المسلمين في النعال، ما أصيب أصبعُ أحد منهم، حتى إذا انخنس الشتاء، قام فيهم شيخ لهم يدعوهم إلى مصالحة المسلمين. قالوا: كيف والملك في سلطانه وعزه، ليس بيننا وبينهم شيء! فتركهم؛ وقام فيهم آخر فقال: ذهب الشتاء، وانقطع الرجاء فما تنتظرون؟ فقالوا: البرسام، فإنما يسكن في الشتاء ويظهر في الصيف. فقال: إن هؤلاء قوم يعانون، ولأن تأتوهم بعهد وميثاق خير من أن تؤخذوا عنوة، أجيبوني محمودين قبل أن تجيبوني مذمومين! فقالوا: شيخ خَرِف، ولا

علم له بالحرب[1].

ما أن نزل أبو عبيدة على مدينة حمص، حتى اتصل بحاكمها، وحاول إقناعه بالجنوح إلى السلم والالتزام بالصلح الذي اتفق عليه مع خالد، لكن حاكم حمص أظهر نكثه وصمم على القتال، معتمداً على وعود هرقل بالدعم، فعمل أبو عبيدة على تنظيم الحصار، وقسم قواته إلى أربع مجموعات متتالية:

١ ـ مجموعة بقيادة المسيب بن نجية الفزاري، للتمركز عند باب الجبل.

٢ ـ مجموعة بقيادة المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي الوقاص، للتمركز عند باب الرستن.

٣ ـ مجموعة بقيادته، ونزل على باب الشام.

٤ ـ مجموعة عند باب الصغير بقيادة خالد بن الوليد.

وكان خالد بن الوليد قد أنهى جولته في الريف المحيط بمدينة حمص وتوغل في تقدمه حتى شيزر[2]، ثم وجه قوة من خمسمائة مقاتل للإغارة على قنسرين. وتابع خالد تحركه حتى كفرطاب والردة ودير سمعان، ورجع من جولته بعد أن غنم كميات كبيرة من المواشي والأطعمة والغنائم بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الأسرى، وأحسن أبو عبيدة معاملة الأسرى، ورد إليهم أموالهم ونساءهم بعد أن اتفق معهم على دعم قوات العرب المسلمين ومساندتها، وتقديم المعلومات لها عن نشاط العدو.

عندما بلغ أهل قنسرين ما فعله أبو عبيدة أرسلوا وفداً منهم إلى «أبو عبيدة» وعقدوا معه صلحاً لمدة سنة أيضاً.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٩٩ ـ ٦٠١، وفيه حول فتح حمص: «أثاب الله المسلمين على صبرهم أيام حمص أن زُلزل بأهل حمص، وذلك أن المسلمين ناهدوهم، فكبَّروا تكبيرة زلزلت معها الروم في المدينة، وتصدعت الحيطان، ففزعوا إلى رؤسائهم وإلى ذوي رأيهم ممن كانوا يدعونهم إلى المسألة، فلم يجيبوهم وأذلوهم بذلك، ثم كبَّروا الثانية، فتهافتت منها دور كثيرة وحيطان، وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم، فقالوا: ألا ترون إلى عذاب الله! فأجابوهم: لا يطلب الصلح غيركم، فأشرفوا فنادوا: «الصلح ـ الصلح»! ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم، وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم، لا ينزلونه عليهم، فتركوه لهم، فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام، على كل جريب أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر طاقته، إن زاد ماله زيد عليه، وإن نقص نُقِص، وكذلك كان صلح دمشق والأردن: بعضهم على شيء إن أيسروا وإن أعسروا، وبعضهم على قدر طاقته، وَولوا معاملة ما جلا ملوكهم عنه». ومن المحتمل تفسير توافق حدوث الزلزال مع صيحة المسلمين بالتكبير، بما هو معروف بحادثة «الطنين» الفيزيائية؟ كما أنه من المحتمل حدوث توافق بين التكبير وبين الزلزال الطبيعي، ولكن يبقى صمود المسلمين وشدة بأسهم هو العامل الحاسم في فتح حمص.

(٢) شيزر: قلعة قرب المعرة، بينها وبين حماة مسيرة يوم.

استمر حاكم حمص في عناده، معتمداً على ما أعده لحرب المسلمين من تحصين للمدينة، ومن استعداد للقتال، مع حفظ كميات كبيرة من الأغذية للحصار، وأخذ ينتظر وصول قوات الدعم، لكن جيش المسلمين صمد لظروف القتال الصعبة، واحتمل قسوة الطبيعة وثلجها وعواصفها في موسم الشتاء. وعندما علم أمير المؤمنين عمر بحصار حمص وامتناع أهلها، واحتمال قيام العرب المتنصِّرة من «غسان» و«لخم» بدعمهم، أصدر أوامره إلى سعد بن أبي وقاص بتوجيه قوة إلى هيث وقرقيساء لفتحهما. ولما اشتد أمد الحصار، ولم تصل قوات الدعم المنتظرة، أخذت إرادة القتال تضعف لدى الجند في حمص. وأخيراً وضع أبو عبيدة مخططه للهجوم الكبير، فتظاهر بالانسحاب تاركاً المواشي والغنائم في المؤخرة، وعندما ابتعد عن المدينة، طمعت حامية حمص في ضرب مؤخرة المسلمين والاستيلاء على الغنائم، وأسرع جيش حمص لمطاردة جيش المسلمين، وأسرع الفرسان المسلمون لتطويق أعدائهم، ومنعهم من العودة إلى قاعدتهم في المدينة، وبعد معركة حاسمة انهارت المقاومة، وتمزق الروم، وطاردهم فرسان المسلمين، وتابع أبو عبيدة تقدمه حتى المدينة، وعرف أهل حمص أنه لم يبقَ لهم أمل في المقاومة، فخرج منهم من يطلبون الصلح. ودخل أبو عبيدة المدينة وأقام فيها، وأعاد تنظيم قواته، ثم استخلف في حمص عبادة بن الصامت لحمايتها، مع قوة كافية، وتوجه بجيشه نحو الشمال لمتابعة الفتوح، وذلك بعد أن أنزل في حمص بعض قبائل العرب المسلمين.

فتح قنسرين: ما إن فرغ أبو عبيدة من تنظيم أمور حمص حتى دفع قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد لفتح قنسرين، فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم، وعليهم «ميناس»، وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد «هرقل»، فالتقوا بالحاضر، فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها، ومزقت قوات جبلة بن الأيهم (انظر ملاحق هذا الباب ـ ٣). وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنهم حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم. وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه، فقال: «إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم إلينا». فنظروا في أمرهم، ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص، فأبى خالد إلا على خراب المدينة، فأخربها، فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية (انظر ملاحق هذا الباب ـ ٣). وخرج أبو عبيدة متوجهاً نحو الشمال، فصالحه أهل حماة نحو شيزر فخرج أهلها وطلبوا الصلح على مثل ما صالح، ومضى أهل حماة، ثم سار أبو عبيدة

إلى معرة حمص[1] فأذعن أهلها بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص[2].

٧ ـ فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

فما إن فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا أو غدروا فوجه إليهم السمط الكندي فحصرهم وفتحها، وأصاب فيها بقراً وغنماً، فقسم بعضه في جيشه وجعل بقيته في المغنم. ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب[3] فصالح أهلها على الجزية، وأتى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فتحصن أهلها، وحصرهم المسلمون، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم، وقيل: إن «أبو عبيدة» لم يصادف بحلب أحداً لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وراسلوا في الصلح، فلما تم ذلك، رجعوا إليها. وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها، فلما فارقها لقيه جمع العدو فهزمهم فألجأهم إلى المدينة، وحاصرها من جميع نواحيها، ثم أنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعض وأقام بعض، فأمنهم ثم نقضوا، فوجه إليهم أبو عبيدة قوة مقاتلة بقيادة عياض بن غنم[4] وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول. وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين، فلما فتحت كتب أمير المؤمنين عمر إلى «أبو عبيدة» «أن رتِّب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء». وبلغ «أبو عبيدة» أن جمعاً من الروم بين معرة مصرين

---

(١) هي: **معرة النعمان**، ونسبت بعد إلى النعمان بن بشير الأنصاري.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٣، ٣٤٤، والطبري ٣/ ٦٠١، ٦٠٢.

(٣) **حاضر حلب**: قريباً من حلب، وكان يضم أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم، فصالح أبو عبيدة أهلها على الجزية بعد فتح قنسرين ثم أسلموا بعد ذلك. فتوح البلدان، للبلاذري (١هـ)، والكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٤.

(٤) **عياض بن غنم الفهري**، قائد فتح الجزيرة (٤٠ق.هـ ـ ١٩هـ/ ٥٨٣ ـ ٦٤٠م)، أسلم قبل الحديبية، واشترك في الجهاد وغزوات الرسول ﷺ، وانتقل إلى العراق حيث شارك خالد بن الوليد في فتحها سنة (١٣هـ)، وعندما تحرك خالد إلى الشام، كان عياض معه. وقاد كردوساً من كراديس الميسرة في معركة اليرموك. وكان عياض على الخيل عند فتح دمشق، ثم سار مع «أبو عبيدة» في فتوحاته حتى وصل حلب ثم رجع إلى العراق فاشترك في معركتي المدائن وجلولاء. وفي عام (١٧هـ)، قاد عمليات فتح الجزيرة، وقام بغزو ما وراء الدروب. وعندما توجه أبو عبيدة إلى الجنوب استخلف عياضاً على حرب أهل حمص، ولما توفي أبو عبيدة أقر أمير المؤمنين عمر القائد عياض بن غنم على حرب حمص وولايتها، وتوفي عن عمر يناهز الستين، ودفن في مدينة حمص، وهو خال «أبو عبيدة» وابن عمه.

وحلب، فسار إليهم، فلقيهم فهزمهم، وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم، وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بوقا، وفتحت قرى الجومة وسرمين وبيرين وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية.



أبو عبيدة بن الجراح وفتح الشام

٨ ـ فتوح الساحل

توجه أبو عبيدة إلى اللاذقية، فتصدت حامية المدينة لقوات المسلمين، وجابهتها بمقاومة ضارية، ولكن قوات المسلمين استطاعت تحقيق انتصار على قوات الروم، واضطرتها للانسحاب، وأحكم أبو عبيدة حصار المدينة، وخشي أبو عبيدة أن يطول أمد الحصار، لا سيما وأن باستطاعة الحامية استقبال الدعم عن طريق البحر الذي لم يكن للمسلمين سيطرة عليه، وعلى هذا وضع أبو عبيدة مخططاً للخداع في العمليات، فأمر بحفر حفر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس مع فرسه، وأمكن تمويه (إخفاء) أعمال الحفر بحيث لم تشعر بها الحامية المدافعة عن اللاذقية. وعندما انتهت الأعمال الهندسية قام «أبو عبيدة» بتنظيم تظاهرة خداعية، هدفها إقناع مراقبي العدو بانسحاب قوات المسلمين، وعندما هبط الليل عادت قوة الفرسان واحتلت الحفر التي سبق إعدادها بالقرب من أسوار المدينة، وأصبح أهل اللاذقية، وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم. وكان للمدينة باب عظيم، يفتحه جمع من الناس، فعمل أهل اللاذقية على فتح الباب، وأخرجوا مواشيهم ودوابهم للرعي، وانتشروا بظاهر البلد، فلم يشعروا إلا والمسلمون يصيحون بهم، ودخلوا معهم المدينة، وملكت عنوة، وهرب قوم من النصارى، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدونه، قلوا أو كثروا، وتركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً، بناه عبادة بن الصامت ثم وسِّع فيه بعد ذلك[١]. وتوقف أبو عبيدة في اللاذقية ريثما ينظم أمورها، ويضع دعائم المجتمع الجديد.

لما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة[٢] من الروم عنها، وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت[٣] .....

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٢، والطبري ٤/ ٢٨٨.

(٢) جبلة: كانت مدينة حصينة، وكانت تتصل بالبحر، فكان الروم يغيرون عليها بعد الفتح، وعندما تولى معاوية بن أبي سفيان إمارة المؤمنين، بنى حصناً خارج الحصن الرومي وشحنه بالرجال.

(٣) **عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي** (٣٨ق.هـ ـ ٣٤هـ/ ٥٨٦ ـ ٦٥٤م) أسلم عبادة وشهد بيعة العقبة الثانية مع اثني عشر من الأنصار الذين عاهدوا الرسول ﷺ «أن يمنعوا رسول الله مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزرهم، وأن يرحل إليهم وأصحابه». وعندما هاجر المسلمون إلى المدينة، آخى الرسول بين عبادة وبين «أبو مرشد الغنوي». وشهد بدراً وأُحد والخندق، =

مدينة أنطرطوس[1] وكذلك بانياس، كما فتحت سلمية[2] أيضاً.

٩ ـ هجوم الروم حتى حمص وإحباطه[3]

بدأت السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) والمسلمون في الشام قد حرروا الديار من الروم. وجاء أمير المؤمنين عمر لفتح بيت المقدس بعد أن اجتمعت حولها جيوش المسلمين، والتقى أمير المؤمنين بـ«أبو عبيدة بن الجراح» الذي أطلعه على الموقف، وعاد أبو عبيدة إلى قاعدة عملياته في حمص حيث وجد

= واشترك مع الرسول في مواقعه ومعاركه كلها. واستعمله الرسول على بعض الصدقات، وكان يهود بنو قَيْنُقاع حلفاء عبادة، فلما حاربت بنو قينقاع الرسول ﷺ مشى عبادة إلى رسول الله فخلعهم وتبرأ من حلفهم، وقال: «يا رسول الله! أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم» فنزل فيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة/ ٥١] وكتب يزيد ين أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب: «قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم» فأرسل عمرُ معاذَ بن جبل وعبادة و«أبو الدرداء»، فأقام عبادة بحمص فاستخلفه عليها أبو عبيدة بن الجراح عندما سار لفتح اللاذقية ثم صرفه لفتح أنطرطوس ففتحها. وشهد فتح مصر، وكان أحد القادة الأربعة الذين قادوا قوات الدعم عندما احتاج عمرو بن العاص لهذا الدعم، واشترك في المفاوضات مع المقوقس ثم اشترك في فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص، وتولى فتح الإسكندرية وعاد إلى الشام، فشهد مع معاوية بن أبي سفيان فتح قبرص. ثم إنه اختلف مع معاوية في شيء أنكره عليه عبادة في الصرف، فأغلظ له معاوية في القول، فقال له عبادة: «لا أساكنك بأرض واحدة أبداً» ورحل إلى المدينة، فقال له عمر: «ما أقدمك؟» فأخبره، فقال عمر: «ارجع إلى مكانك؛ فقبَّح الله أرضاً لستَ فيها ولا أمثالك» وكتب إلى معاوية: «لا إمرة لك على عبادة». وضمه أبو عبيدة إليه، وكان أول من ولي قضاء فلسطين، وروى عن النبي ﷺ (١٨١) حديثاً، وكان أحد أصحاب الفتيا في الصحابة، وقد بقي في الشام حتى توفي بالرملة وقيل ببيت المقدس.

(١) **أنطرطوس**: بلد من سواحل الشام ـ طرطوس حالياً ـ كانت قاعدة للروم، جلا أهلها عنها، فأعاد معاوية بناءها وشحنها بالمقاتلة ومصَّرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل ببانياس.

(٢) **سلمية**: «قيل: إنها سميت «سلمية» لأنه كان بقربها مدينة تدعى «المؤتفكة» انقلبت بأهلها، ولم يسلم منهم غير مائة نفس، فبنوا لأنفسهم مائة منزل، وسميت سلم مائة، ثم حرَّف الناس فقالوا: سلمية، وهذا يتمشى لقائله لو كان أهلها عرباً، ولسانهم عربياً، وأما إذا كان لسانهم أعجمياً فلا يسوغ هذا القول، ثم إن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس اتخذها داراً وبنى ولده فيها، ومصروها ونزلها من نزلها من ولدهم، فهي وأرضوها لهم». الكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٣.

(٣) الكامل في التاريخ، والطبري، أحداث سنة (١٧هـ).

أن الروم قد حشدوا قواتهم وهم يريدون مباغتة المسلمين بهجوم كبير في محاولة لانتزاع الشام من قبضتهم. وكان الروم، قد تكاتبوا، هم وأهل الجزيرة، يريدون «أبو عبيدة» والمسلمين بحمص، فضم أبو عبيدة إليه مسالحه، وعسكروا بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد من قنسرين حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة، والبدء بالحرب فوراً، أو التحصن حتى مجيء الغياث ـ الدعم ـ فكان خالد يأمره أن يناجزهم، وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن، ويكتب إلى عمر، فأطاعهم أبو عبيدة وعصى خالداً، وكتب إلى عمر يخبره بخروجهم عليه، وشغلهم أجناد أهل الشام عنه (وقد كان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس). فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك بن أبي وقاص:

«١ ـ أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن «أبو عبيدة» قد أحيط به، وتقدم إليه في الجد والحث.

٢ ـ سرِّح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأتِ الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وإن أهل قرقيساء لهم سلف.

٣ ـ سرِّح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ثم لينغضا حران والرهاء.

٤ ـ سرِّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ.

٥ ـ سرِّح عياضاً بن غنم فإن كان قتال، فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم».

ومضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض، وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أُمر عليها، فأتى الرقة، وخرج عمر من المدينة مغيثاً لـ«أبو عبيدة» يريد حمص حتى نزل الجابية. ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم، وهم معهم مقيمون عن حديث من بالجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت من الكوفة، ولم يدروا: ألجزيرة يريدون أم حمص؟!... فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم، وخلوا الروم. ورأى أبو عبيدة أمراً لما انفضوا غير الأول، فاستشار خالداً في الخروج، فأمره بالخروج، ففتح الله عليهم. وقدم القعقاع بن عمرو في أهل

الكوفة في ثلاث من يوم الوقعة، فكتبوا إلى عمر بالفتح، وبقدوم المدد عليهم في ثلاثة أيام من انتهاء الحرب، وبالحكم في ذلك، من حيث توزيع الغنائم، فكتب إليهم: أن أشركوهم وقال: «جزى الله أهل الكوفة خيراً! يكفون حوزتهم، ويمدون أهل الأمصار... إنهم قد نفروا إليكم، وتفرق لهم عدوكم». وقد كانت هذه العملية سبباً في إخضاع بقية الجيوب التي بقيت مستمرة في الكيد للمسلمين والنكاية بهم، والعمل بعد ذلك على قطع كل اتصال للروم بأنصارهم، فتم التصميم على تصفية جميع المقاومات في الجزيرة وفتحها، مع العمل على نقل الهجوم إلى بلاد الروم، وتنظيم الصوائف والشواتي لغزو ما وراء الدروب.

١٠ ـ فتح الجزيرة

ما إن انتهت معركة حمص حتى مضى القعقاع بن عمرو التميمي في طريقه إلى قاعدته في الكوفة، وخرج على إثره عياض بن غنم في اتجاه الجزيرة وهو يعمل كمقدمة لـ«أبو عبيدة» حتى أتى منبج فصالحه أهلها، وسيَّر عياضاً إلى ناحية دلوك[١] ورعبان[٢]، فصالحه أهلها على مثل صلح منبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم، وولَّى أبو عبيدة كل كورة ـ ناحية ـ فتحها عاملاً، وضم إليه جماعة من المقاتلين، وشحن النواحي المخوفة، وكانت حلب قد التاثت وتمردت فتقدم إليها أبو عبيدة ولم يزلْ بها حتى خضعت، وجالت خيوله حتى بلغت بوقا[٣]، وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش «أبو عبيدة»، فنزل في حُصن بقورس فنسب إليه، فهو يعرف بحصن سليمان. وسار أبو عبيدة إلى بالس[٤] وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلد الروم. وفي هذه الفترة ذاتها، كانت بقية قوات المسلمين تتابع فتح الجزيرة. فقد انطلق سهيل بن عدي وجنده عن طريق الفراض حتى انتهوا إلى الرقة وقد انفضَّ أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم ونواحيهم، حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة فنزل عليهم، فأقام محاصرهم حتى صالحوه، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم: «أنتم بين أهل العراق وأهل الشام،

---

(١) **دلوك**: من نواحي حلب.

(٢) **رَعْبان**، بفتح أوله وسكون ثانيه وباء موحدة: مدينة بين حلب وسميساط قرب الفرات.

(٣) من قرى أنطاكية.

(٤) بلدة بين حلب والرقة.

فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء»، فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة، فرأى أن يقبل منهم، فبايعوه وقبل منهم، وكان الذي عقد لهم سهيل بن عدي عن أمر عياض لأنه أمير القتال، وأجروا ما أخذوا عنوة، ثم أجابوا مُجرى أهل الذمة.

وخرج عبد الله بن عبد الله بن عتبان، فسلك على دجلة حتى انتهى إلى الموصل، فعبر إلى بلد حتى أتى نصيبين، فلقوه بالصلح، وصنعوا كما صنع أهل الرقة، وخافوا مثل الذي خافوا، فكتبوا إلى عياض، فرأى أن يقبل منهم، فعقد لهم عبد الله بن عبد الله، وأجروا ما أخذوا عنوة، ثم أجابوا مجرى أهل الذمة.

وخرج الوليد بن عقبة حتى قدم على بني تغلب وعرب الجزيرة، فنهض معهم مسلمهم وكافرهم إلا إياد بن نزار، فإنهم ارتحلوا بغلبتهم بعدد قليل منهم فاقتحموا أرض الروم، فكتب بذلك الوليد إلى عمر بن الخطاب[1]. ولما أعطى أهل الرقة ونصيبين الطاعة ضم عياض سهيلاً وعبد الله إليه، فسار بالناس إلى حران فأخذ ما دونها، فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزيرة فقبل منهم، وأجرى من أجاب بعد غَلْبِهِ مجرى أهل الذمة. ثم إن عياضاً سرح سهيلاً وعبد الله إلى الرها فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية، وأجرى من دونهم مجراهم، فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً، فكانت تلك السهولة مهجنة عليهم، وعلى من أقام فيهم من المسلمين. وخلال هذه الفترة كلها، كان أمير المؤمنين عمر مقيماً في الجابية يتابع تطورات الموقف، حتى إذا عرف أن الأمر قد استقر للمسلمين في الجزيرة، نظم الثغور، وضم عياضاً إلى «أبو عبيدة» بناء على طلب «أبو عبيدة»، وصرف سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله إلى الكوفة ليصرفهما إلى المشرق، واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها، والوليد بن عقبة على عرب الجزيرة، فأقاما بالجزيرة على أعمالهما، وعاد عياض بن غنم إلى حمص[2].

---

(١) انظر ملاحق هذا الباب (٥) ـ قصة لجوء قبيلة إياد إلى الروم وإخراجها بناء على تهديد أمير المؤمنين عمر. المرجع: ابن الأثير، الكامل، وكذلك الطبري، أحداث (١٧هـ).

(٢) قال عياض بن غنم في فتح الجزيرة:

مَنْ مُبْلِغُ الأقْوامِ أنَّ جُمُوعَنا ... حَوَتِ الجزيرَةَ يَوْمَ ذاتِ زِحامِ

جَمَعُوا الجزيرةَ والغِياثُ فَنَفَّسُوا ... عَمَّن بِحِمْصَ غِيَابَةَ القُدَامِ =

١١ ـ غزوات ما وراء الدروب

كان بجبل اللكام، جبل النصيرية أو جبال العلويين، قرية يقال لها: جُرجُومة، وأهلها يقال لهم الجراجمة، وكان هؤلاء أنصاراً للروم، فقرر أبو عبيدة إخضاعها ووجه حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية، فافتتحها صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين. وفي الوقت ذاته وجه أبو عبيدة بن الجراح جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس[١]، من أعمال أنطاكية، إلى بلاد الروم، وهو أول من سلك ذلك الدرب، فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل، فأوقع بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم لحق به مالك الأشتر النخعي مدداً من قِبَل «أبو عبيدة» وهو بأنطاكية، فَسَلِموا وعادوا. وسيَّر أبو عبيدة أيضاً جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها. وسير جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحدث، وإنما سمي الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم في أصحابه، فقيل: درب الحدث، وقيل: لأن المسلمين أصيبوا به فقيل: درب الحدث، وكان بنو أمية يسمونه درب السلامة لهذا المعنى[٢].

في الوقت الذي كانت تنطلق فيه هذه الغزوات لما وراء الدرب من الثغور الشامية كانت هناك مجموعات متتالية أخرى تنطلق لغزو الروم عبر الثغور الجزرية. فقد توجه عمرو بن مالك من الكوفة حتى وصل قرقيساء وتوجه عبر درب الجزيرة إلى بلاد الروم، كما توجه عبد الله بن معتم بقوته من الموصل إلى داخل بلاد الروم وأوغل فيها.

وكانت هذه العمليات هي البدايات الأولى لتنظيم الثغور وتنظيم الصوائف والشواتي وغزو ما وراء الدروب.

١٢ ـ النهاية

انتهت عمليات فتح الشام واستقر الأمر للمسلمين، وانصرف أبو عبيدة من الجهاد الأصغر، جهاد أعداء المسلمين والقضاء على وجود الروم وتصفية

= إن الأعِـزَّةَ والأكـارِمَ مَـعْـشَـرٌ ... فَـضُّـوا الـجـزيـرةَ عـن فـراخ الـهـامِ
غَـلَبُوا الـملـوكَ على الـجزيرةِ فانتَهُوا ... عَـنْ غـزو مـن يـأوي بـلادَ الـشـامِ
الطبري ٤/٥٤، ٥٥.

(١) مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٤٦.

نفوذهم، وأخذ في الجهاد الأكبر، جهاز النفس، والقضاء على الظواهر السلبية التي اكتسبها المسلمون بحكم احتكاكهم بالروم والإقامة في بلاد واسعة حديثة العهد بالإسلام. فقد بلغ «أبو عبيدة» أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، منهم ضرار بن الأزور وأبو جندل، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر وأجابه عمر: «وأمره أن يدعو بهم على رؤوس الناس، فيسألهم: «أحرام الخمر أم حلال؟ فإن قالوا: حلال، فاضرب أعناقهم، وإن قالوا: حرام، فاجلدهم ثمانين جلدة واستتبهم». فدعا بهم، فسألهم، فقالوا: «بل حرام»، فجلدهم، فاستحيوا فلزموا البيوت، وانقطعوا عن الناس. ووسوس أبو جندل، فكتب أبو عبيدة إلى عمر إن «أبو جندل» قد وسوس، إلا أن يأتيه الله على يديك بفرج، فاكتب إليه وذكره، فكتب إليه عمر: «من عمر إلى «أبو جندل»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فَتُب، وارفع رأسك وابرز ولا تقنط، فإن الله ﷻ، يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. فلما قرأه عليه أبو عبيدة تطلّق وأسفر عنه، وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك فبرزوا، وكتب إلى الناس: «عليكم أنفسكم، ومن استوجب التغيير فَغَيِّروا عليه، ولا تُعَيِّروا أحَداً فيفشو فيكم البلاء».

وكان خالد بن الوليد قد غنم غنائم كبيرة من غزاته فيما وراء الدروب، وأسرف في توزيع المنح والهدايا، وعزله أمير المؤمنين عمر، ولكن «أبو عبيدة» امتنع عن إبلاغ خالد نبأ عزله، وأقام خالد في حمص متحيراً لا يدري أمعزول أو غير معزول، ولا يعلمه أبو عبيدة بذلك تكرمة وتفخمة، فلما تأخر قدومه على عمر الذي بعث يطلبه إليه، ظن الذي كان، فكتب إلى خالد بالإقبال إليه، فأتى خالد «أبو عبيدة» فقال: «رحمك الله، ما أردت إلى ما صنعت، كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم». فقال أبو عبيدة: «إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً، وقد علمت أن ذلك يروعك».

وكان عام (١٨) للهجرة عام قحط، سمي بعام الرمادة، لأن الريح كانت تحمل تراباً كالرماد، وانتشرت المجاعة في الجزيرة، وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها، ويستمدهم، فكان أول من قدم عليه «أبو عبيدة بن الجراح» في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إليه، أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال: «لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين، إنما أردت الله وما قِبَله، فلا تدخل عليَّ الدنيا».

فقال: «خذها فلا بأس عليك إذ لم تطلبه» فأبى أبو عبيدة، فقال له عمر: «خذها فإني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا، فقال لي مثل ما قلتُ لك، فقلتُ له كما قلتَ لي فأعطاني»، فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله. وتتابع الناس، واستغنى أهل الحجاز، وأحيوا مع أول الحيا.

ورجع «أبو عبيدة» إلى الشام، حيث كان طاعون عمواس[1] الذي لم ير الناس مثله «طمع له العدو في المسلمين، وتخوفت له قلوب المسلمين، كَثُر موته، وطال مكثه، مكث أشهراً حتى تكلم في ذلك الناس». وفي هذا الطاعون، أصيب أبو عبيدة وكان يدعو الله: اللهم نصيبك في آل «أبو عبيدة»، فخرجت في خنصره بثرة، فجعل ينظر إليها، فقيل له: إنها ليست بشيء، فقال: «إني لأرجو أن يبارك الله فيها، فإنه إذا بارك في القليل كان كثيراً». وعلم أمير المؤمنين عمر بإصابة «أبو عبيدة» وأراد أن يستخرجه من منطقة الوباء. فكتب له يستدعيه إلى المدينة، فرفض أبو عبيدة وفضل البقاء مع جنده، يقاسمهم مصابهم، حتى مضى إلى لقاء ربه، وكان لذلك وقع أليم في نفوس المسلمين جميعاً، وعندما طُعِنَ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، رغب إليه الصحابة أن يستخلف عليهم، فقال: «**مَن أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: (إنه أمين هذه الأمة)**».

---

(١) **عمواس**: هي كورة، (ناحية) من فلسطين بالقرب من بيت المقدس، وهي على أربعة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس. معجم البلدان ٦/ ٢٢٥.

الفصل الثاني

أبو عبيدة بن الجراح وفن الحرب

موقع «أبو عبيدة بن الجراح» من فن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا:

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد.

٣ ـ وضوح الهدف.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي «دعامة الإسلام».

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادئ الحرب:

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ القدرة الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.

٧ ـ وحدة القيادة.

موقع «أبو عبيدة بن الجراح» من فن الحرب

«لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: (إنه أمين هذه الأمة)».

عمر بن الخطاب

تولى أبو عبيدة بن الجراح أمور الحرب منذ المرحلة المبكرة لظهور الإسلام، فكان من رواد الفتح الأوائل، وكان من كبار القادة الذين رسموا على صفحة التاريخ الخطوط الأولى لفن الحرب عند العرب المسلمين، وقد كانت تلك الفترة من أخصب المراحل ـ إن لم تكن الفترة الوحيدة ـ في تاريخ العرب قديماً وحديثاً، والتي أخرجت للدنيا جيلاً كاملاً وفريداً من القادة، كلهم على درجة عالية من الكفاءة القيادية، حتى يصعب تقويم الأكثر كفاءة بينهم أو الأكثر قدرة فيهم عمن سواه. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن الفضل في ذلك للإسلام الذي صهر العرب في بوتقته ثم بعثهم بعثاً جديداً. ومن المحتمل هنا القول إن إظهار هذا الجيل من القادة إنما هو برهان على الاستعداد الطبيعي للعرب، وإنه لم يكن أكثر من استجابة للتحديات التي كان يجابهها العرب وفقاً لمبدأ التحدي والاستجابة. ولكن، ومع الاعتراف بكفاءة الإنسان العربي وقدرته، إلا أنه لم يتمكن، لا في القديم ولا في الحديث، أن يحقق الاستجابة المناسبة للتحدي، وهو في الواقع يستجيب للتحديات بصورة مناسبة، ولكن بدون مستوى التحديات باستمرار، وضمن حدود المحافظة على البقاء، في حين كانت استجابة الإنسان العربي المسلم، واستجابة القائد المسلم، هي فوق التحديات، وبذلك أمكن تحقيق تلك الانتصارات الرائعة والوصول إلى تلك المنجزات الخالدة. ومن هنا يظهر التلاحم الوثيق بين مدرسة الإسلام الدينية وبين العقيدة القتالية للمسلمين، والتي اضطلع القادة العرب بتطبيقها على نحو أفضل ما يكون عليه التطبيق، واضعين في اعتبارهم مجموعة الظروف الخاصة بكل موقف من

المواقف، فاكتسبت مبادئ فن الحرب بذلك قدراً من المرونة لم تعرفه من قبل.

وتظهر أهمية الدور القيادي لـ«أبو عبيدة بن الجراح» لا كرائد من رواد الفتح الأوائل، ولا كقائد أمكن له تطبيق مبادئ الحرب بمرونة كبيرة وفقاً للمواقف القتالية التي كانت تجابه قوات المسلمين، وإنما تظهر أهمية هذا الدور بتحديد العلاقة بين السياسة الاستراتيجية للفتح، والتي كان يمارسها الخليفة أبو بكر ومن بعده أمير المؤمنين عمر، وبين قيادة العمليات والتي كان يمارسها هو فوق مسرح عمليات بلاد الشام. ولقد كان تحديد هذه العلاقة بصورتها الواضحة هو العامل الأساس والحاسم فيما أحرزه المسلمون من انتصارات، وفيما حققوه من أعمال ناجحة.

لقد عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ، وتعلم منه وحدة القيادة السياسية والعسكرية في مفهومها الحديث، وكانت وحدة القيادة مرتبطة بالسلطة الدينية، وهي سلطة مطلقة في غير استبداد، تستند إلى مبدأ الشورى، إن لم يكن هناك تشريع في القرآن الكريم. ومارس أبو عبيدة بعد ذلك دور القيادة في العمليات ضمن هذا الإطار، ثم انتقل بعد ذلك لقيادة العمليات في الشام، ولكن ابتعاده عن مركز السلطة لم يحمله على ممارسة دور قيادي يتجاوز حدود واجباته كقائد للعمليات، وترك لأمير المؤمنين، باستمرار، دور قيادة السياسة ـ الاستراتيجية. وقد كانت شخصية أمير المؤمنين عمر قوية ولا تسمح أصلاً بالتجاوز، ولكن الخليفة الأول «أبو بكر» رضي الله عنه، كان أكثر تساهلاً بالنسبة لقادة عملياته، فكان يمنحهم قدراً أكبر من حرية العمل، ورغم ذلك، فقد بقي أبو عبيدة في جميع الظروف قائداً رائعاً للعمليات، ولم يحاول أبداً ممارسة قدر من حرية العمل يتجاوز متطلبات العمليات أو يصل إلى مرحلة تقرير السياسة ـ الاستراتيجية.

لم يكن أبو عبيدة، يقيناً، بالقائد الضعيف الشخصية، أو القائد العاجز عن اتخاذ القرار المناسب وتنفيذه في الوقت المناسب، وتبرهن متابعة سيرته القيادية أنه كان حازماً في المواقف التي تتطلب الحزم، وكان يستشير قادته في كثير من الأمور، ولكنه كان يتخذ قراره دائماً بحسب تحليله للموقف وتقديره للمعطيات الثابتة والواضحة أمامه، وعلى هذا فإنه من المحال تفسير عودة «أبو عبيدة» إلى الخليفة «أبو بكر» وإلى أمير المؤمنين عمر من بعده، في تقرير أمور الحرب، بسبب الضعف أو عدم الحزم أو القصور في الكفاءة القيادية.

كان أبو عبيدة بن الجراح، بحسب ما هو واضح من سيرته القيادية، نسيجاً

وحده في فن الحرب، ذلك أنه كان يضطلع بدوره القيادي وهو مقتنع بما يجب عليه عمله، ومدرك للحدود التي يجب عليه التحرك ضمنها، فكانت حرية العمل المتوفرة له ضيقة جداً عند النظر إليها من زاوية مسرح العمليات، وهي واسعة جداً عند النظر إليها من زاوية السياسة ـ الاستراتيجية، إذ كان يتمتع في هذه الحالة بالإمكانات المتوافرة له، علاوة على تلك التي يتم حشدها لمصلحته، سواء أخذت هذه الإمكانات شكل دعم مباشر أو أخذت شكل حرب تشتيتية في مسرح آخر يرتبط ـ بالنتيجة ـ مع مسرح عملياته.

إنطلاقاً من هذه المفهوم، استطاع أبو عبيدة المحافظة على مبدأ وحدة القيادة، وقد كان حرصه على ترك وحدة القيادة في السياسة ـ الاستراتيجية مماثلاً لحرصه على التمسك بمبدأ وحدة القيادة على مستوى العمليات، كل ذلك في رفق كبير، وتواضع رائع، جعل من قيادته نموذجاً لما يجب أن تكون عليه العلاقة مع القيادة العليا ومع القيادات التابعة، واكتساب ثقة الجميع لتنفيذ الواجب. وتعود هنا مرة أخرى الصورة الخالدة التي حددتها العقيدة الدينية الإسلامية في مجال العلاقات بين المسلمين بعضهم ببعض، وهي العلاقات التي رسمت كل أبعادها عند التطبيق في وسط جند المسلمين.

وتبرز كفاءة «أبو عبيدة بن الجراح» على مستوى العمليات، في تقديره الصحيح للمواقف، الأمر الذي كان يساعده على اتخاذ القرارات المناسبة، وتنفيذها في الوقت الملائم. ويمكن الانتقال بعد ذلك إلى مجال تطبيق مبادئ الحرب في فترة كانت لا تزال فيها هذه المبادئ تمر بمرحلة التكوُّن. ففي تلك الفترة، تولى أبو عبيدة قيادته، وكانت الحروب مستمرة، والمعارك متتالية متلاحقة، وكان لكل معركة ظروفها الخاصة، فكان من المحال تطبيق مبادئ الحرب بصورة جامدة أو متيبسة، ولكن استخدام تلك المبادئ وتطويرها كان يتطلب كفاءة عالية، ولم يكن أبو عبيدة يفتقر إلى تلك الكفاءة، وبذلك أمكن له تحقيق الإنجازات الرائعة في تثبيت مبادئ الحرب وتطويرها.

لم تكن كفاءة «أبو عبيدة» على مستوى العمليات وفي جميع الأحوال إلا برهاناً على إمكانات «أبو عبيدة» الكبيرة لممارسة قيادة أكبر من مستوى العمليات، وكان عمر بن الخطاب ﷺ، أعرف الناس بالرجال، وكان يتمنى لو عاش أبو عبيدة حتى يترك له إمارة المؤمنين، ولا ريب أن ذلك دليل على ما تتوافر لـ«أبو عبيدة» من قدرات قيادية كبيرة أبرزها الأمانة والعدل والقدرة

القيادية والتقدير الصحيح للمواقف. وعلى هذا فقد كان أبو عبيدة فوق القيادة التي مارسها، وكان ذلك في جملة الأسباب التي ساعدت على نجاحه.

ويبقى بعد ذلك أبو عبيدة نموذجاً للإنسان المسلم، المؤمن بربه، المؤمن بقدره، المعرض عن الدنيا، والعامل للآخرة، ولم تكن تلك الفضائل كلها إلا بعضاً من المميزات التي أبرزت «أبو عبيدة بن الجراح» وجعلته علماً فوق أعلام المسلمين.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

انطلق أبو عبيدة بجيشه إلى الشام، وتوافق ذلك مع حدوث مأساة خالد بن سعيد، الذي أهمل حماية مؤخرته، ولم يهتم كثيراً بالمحافظة على خطوط مواصلاته، فكان في ذلك كارثة رافقت بداية الفتوح. وقد أدرك القادة المسلمون، وفي طليعتهم أبو عبيدة، هذا الدرس، فآلوا على أنفسهم على التحرك باستمرار من قاعدة قوية ومأمونة، بحيث لا يؤتى المسلمون من خلفهم. وعندما تداعت الروم لحرب المسلمين، وأراد هرقل توجيه جيوشه للقضاء على كل جيش بمعزل عن الجيوش الأخرى، مستفيداً من تفوقه الكبير بالقوى والوسائل، أسرع قادة المسلمين بجيوشهم إلى الجولان بهدف المحافظة على الاتصال بقاعدتهم الأساسية في المدينة المنورة، ولقد بقيت نسبة تفوق الروم على المسلمين ثابتة لم تتغير، ولكن تجمع المسلمين ضمن لهم مزيداً من حرية العمل، كما ضمن لهم المحافظة على الاتصال بقاعدتهم.

واستمر «أبو عبيدة» في تطبيق مبدأ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة على مستوى العمليات، وبرز ذلك عند فتح دمشق، حيث عمل أبو عبيدة على توجيه مجموعات قتالية من قوة الفرسان لحماية مسرح العمليات، فكانت قوة ذي الكلاع الحميري على محور دمشق ـ حمص، وقوة شرحبيل بن حسنة ضد قوات «فحل»، وقوة علقمة بن حكيم على محور دمشق ـ فلسطين، بمثابة حماية لقاعدة العمليات، وبعد ذلك لم يتحرك أبو عبيدة نحو واجبه الأساس في فتح شمال دمشق، حتى تمت تصفية قوات الروم في فحل. وتابع «أبو عبيدة» تحركه نحو بعلبك، ولم يغادرها حتى تم فتحها، وكان مما قاله لجنده: «اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم، ولا تقدرون على سفر ولا على غيره»، وكذلك الأمر عند فتح حمص فقد استمر

الحصار طويلاً، ولم يحاول أبو عبيدة التحرك قبل احتلال المدينة وتصفية المقاومة فيها، واستمر العمل بهذا المبدأ حتى تم تحرير سوريا كلها.

لقد رافق أبو عبيدة رسول الله ﷺ، واشترك معه في حروبه وغزواته وقاد بعض سراياه، وعرف منه أسلوب إقامة القاعدة القوية والمأمونة، ولم تكن الهجرة إلى المدينة المنورة، في وجه من وجوهها، إلا بحثاً عن القاعدة القوية والمأمونة، كما أن اتخاذ هذه القاعدة وتقويتها هو الذي ضمن للمسلمين حرية العمل لتطوير جهادهم، وحافظ أبو عبيدة على الدروس التي تعلمها من مدرسة الإسلام وعمل على تطويرها بحسب المواقف، فكان في ذلك بعض عوامل نجاحه.

لم يكن أسلوب «أبو عبيدة» لإقامة القاعدة القوية والمأمونة، يقف عند حدود ضمان أمن القوات، أو تحقيق مبدأ حرية العمل العسكري، وإنما كان يشمل التأمين الإداري للقوات، وتوفير الظروف لإقامة المجتمع الإسلامي الجديد، كل ذلك مع الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام. وهكذا لم يكن تطبيق مبدأ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة هدفاً في حد ذاته، وإنما كان وسيلة لتحقيق الهدف الكبير وهو نشر الإسلام، وكان ذلك سبباً في تقييد حرية العمل العسكري الذي جاء مقنناً بدقة، ومنظماً بإحكام، بحيث يقتصر العنف على مسرح العمليات، وبحيث لا يتجاوز العنف حدود الصراع المسلح في جبهة القتال. وضمن هذا الإطار ذاته، حرص أبو عبيدة على تنظيم التأمين الإداري للقوات بحيث يقوم المسلمون بتأمين متطلباتهم عن طريق الشراء وعدم إلحاق الضرر بممتلكات المواطنين أو أرزاقهم، فكان في ذلك تحقيق هدف السياسة ـ الاستراتيجية، أو السياسة العليا، وهو «خوض الحرب بما لا يتعارض مع إقامة سلم مقبل»، وكان أبو عبيدة في ذلك من الرواد الأوائل الذي سبقوا الدنيا بإدراك هدف الحرب وتطبيق الوسائل الضرورية للوصول إلى الهدف، قبل أن يحاول العالم معرفته بأكثر من عشرة قرون. ومن المحتمل هنا القول إنه لم يكن لـ«أبو عبيدة» فضل في ذلك، فهو قد تعلَّم من مدرسة الإسلام الأخذ بهذه السياسة الاستراتيجية، وهو قد التزم أيضاً بوصية «أبو بكر» **الخالدة والمعروفة، ومنها: «لا تقتلوا... ولا تقطعوا شجرة مثمرة... ولا تقتلوا وليداً... إلخ» وتلك هي حقيقة لا يمكن تجاوزها أو التنكر لها، ولكن ألا يمكن لقائد العمليات إيجاد الذرائع وأبرزها ضمان حرية العمل العسكري لو لم يكن مؤمناً**

حتى الأعماق بهذه السياسة الاستراتيجية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن التساؤل أيضاً: هل كان باستطاعة «أبو عبيدة» تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية بمثل تلك الدقة **الرائعة لو لم يكن المجاهدون في سبيل الله على مثل ما كان عليه قائدهم في إيمانهم وفي إخلاصهم**، وفي حبسهم لأنفسهم؟... لقد تم فتح دمشق، نصفها حرباً ونصفها سلماً، وقد أجرى ما تم فتحه حرباً مجرى الصلح السلمي، وكان ذلك قيداً ثقيلاً أرهق المقاتلين المسلمين، وحرمهم من الانتقام لما أصابهم من بؤس طوال فترة الحصار، ومنعهم من استخدام العنف للقضاء على أولئك الذين أنزلوا بهم خسائر **فادحة، ولكن هل كان للانتقام أو للحقد وجود في قاموس حرب المسلمين**، بعد أن أطلق الرسول ﷺ من على منبر مكة المكرمة صيحته الخالدة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، وعفى عمن ناصبوه أشد العداء؟.

لقد قاد أبو عبيدة طلائع فتح الشام التي طالما عانت من ظلم الروم، ولكن طول خضوع الشام لقوات الروم ترك رواسب ثقيلة، كما أن التعامل مع الروم طوال عهود متتابعة أقام نوعاً من العلاقات التي لم يكن من السهل تصفيتها دفعة واحدة، وعلى هذا فقد كان من المحال تحقيق أي نجاح لو تم إبدال العلاقات بعلاقات مماثلة، بمعنى أنه لو تم اتباع الأساليب والطرائق التي كان يطبقها الروم. وعلاوة على ذلك، فقد كان هدف الحرب في الشام والعراق، وهو هدف تحريري بمفهومه الحديث، فكان لزاماً إقامة القاعدة الجديدة على أسس ومبادئ تختلف عن تلك التي بقيت سائدة طوال عهود مديدة، وقد ضمنت العقيدة الدينية الإسلامية هذه الأسس والمبادئ، إلا أن تطبيق تلك الأسس والمبادئ في ظروف الحرب لم تكن عملية سهلة، وكانت تتطلب، قبل كل شيء، معالجة كل موقف بمعزل من المواقف الأخرى، بالإضافة إلى المعالجة الإجمالية للمواقف كلها، وهنا تبرز كفاءة «أبو عبيدة» القيادية.

لقد عرف تاريخ الحرب في القديم والحديث، جيوشاً كثيرة خرجت لإقامة قواعد جديدة لها، ولكنها فشلت كلها في الوصول إلى أهدافها بسبب تفضيل حرية العمل العسكري على إقامة القواعد القوية والمأمونة، وبسبب عدم نجاح القادة في تحويل المنطلقات النظرية والمبادئ إلى واقع عملي. **ولقد تعرضت قاعدة بلاد الشام إلى هجمات وغزوات مستمرة، واستطاعت، رغم ذلك الصمود لكل التحديات، الخروج من كل الأزمات** وهي محافظة على قوتها

وصلابتها، وقد كان لـ«أبو عبيدة بن الجراح» ومن تبعه فضل في ذلك، وقد تحمل الرواد الأوائل ـ يقيناً ـ الأعباء الثقيلة، وقدموا التضحيات غير المحدودة حتى أمكن لهم إقامة القاعدة القوية والمأمونة والتي أفاد منها الأمويون بعد ذلك، فجعلوها قاعدة لإطلاق جيوش المسلمين إلى أرجاء الدنيا حتى وصلت إلى الصين وفرنسا، **وحفظت دمشق للدنيا أمجاد العرب المسلمين.**

٢ ـ بناء المجتمع الجديد

لم يخرج العرب المسلمون من جزيرتهم بطراً، أو لحاجة عرضت لهم، أو بحثاً عن مغنم من مغانم الدنيا، وإنما خرجوا ابتغاء وجه الله الذي حمَّلهم أمانة تعريف الدنيا برسالة الإسلام. وكان حمل الأمانة هو هدف الحرب وهو غاية السلم في حرب العرب المسلمين، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر، في حروب «أبو عبيدة بن الجراح». وقد يكون السبب في ذلك هو أن هذه الحروب قد جاءت في بداية الفتوح، كما يحتمل أن يكون السبب هو وجود عدد كبير من الصحابة في جيش فتح الشام وكلهم خرجوا للآخرة وليس للدنيا، فأعطاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. كما يحتمل أيضاً أن يكون السبب في ذلك هو شخصية «أبو عبيدة» المعرضة عن الدنيا ومتاعها، والمقبلة على الآخرة بإيمان لا حدود له ويقين لا يتزعزع. وقد يكون السبب في ذلك اجتماع العوامل السابقة كلها، ولكن تبقى شخصية «أبو عبيدة» هي المهيمنة، وهي التي وضعت حجر الأساس في بناء المجتمع الجديد.

لقد مضى أبو عبيدة إلى الشام وهدفه إقامة المجتمع الجديد، فكان يحرص على تحقيق هدفه عن طريق الصلح كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، وكان يعامل السكان غير المحاربين بما يفرضه عليه حمل الرسالة، وأخذ الناس في معرفة فضائل الإسلام عن طريق قائد المسلمين، فاستجابوا له، وأقبلوا على دعوته، وتعرفوا على ما يضمنه المجتمع الجديد من خير للإنسان كفرد، وما يحمله من بركة للمجتمع، فأخذت جموع أهل الشام في التحول إلى مجتمع الإسلام والانضمام له، ودعمه. **وتابع أبو عبيدة عمله في بناء المجتمع الجديد، برفق ويسر، من دون إكراه...، بالمثل الأعلى، وبالخلق القويم، وبالعدل قبل كل شيء، وبذلك سادت قيم الإسلام وازدهرت.**

لم يكن باستطاعة «أبو عبيدة» الاضطلاع ببناء المجتمع الجديد لو لم تكن

لديه قاعدة فكرية وأسس تنظيمية ضمنتها العقيدة الإسلامية، كما أنه لم يكن باستطاعة «أبو عبيدة» أيضاً بناء مجتمع المسلمين في الشام لو لم تكن لديه الأجهزة أو الكادرات، بحسب التسميات الحديثة. وقد أمكن بناء المجتمع وفقاً للتوازن الدقيق والمحكم في هذه المعادلة: عقيدة وقاعدة وقيادة، ولكن هل كانت هذه المعادلة هي السبب في النجاح الرائع الذي أرسى قواعده أبو عبيدة بن الجراح؟ لقد كان باستطاعة القيادة الناجحة تحقيق الاستقرار طوال فترة وجودها، وقد حدث ذلك مرات كثيرة في التاريخ، ولكن هذا النجاح بقي مرتبطاً بقوة القادة وزال بزوالهم، كما أن تاريخ الحروب يظهر نماذج كثيرة للجيوش التي استطاعت فرض وجودها وهي قوية، ثم زال أثرها مع استنزاف قوة الجيش وانحلالها، وعلى هذا فإن ما حققه ابن الجراح إنما يرتبط بالعقيدة الإسلامية أكثر مما يرتبط بقوة الجيوش أو بتأثير القادة ونفوذهم وقوة شخصيتهم. وكانت قوة ابن الجراح، بعد ذلك، في تطبيق العقيدة الدينية للمسلمين، وفي إيصالها إلى القلوب والعقول، فتكوَّنت بذلك قاعدة المجتمع الجديد، وأصبحت هي القوة الحقيقية التي لم تتزعزع ولم تضعف رغم زوال ابن الجراح، ورغم انصراف الجيوش عن البلاد المفتوحة إلى بلاد بعيدة تمتد مع امتداد العالم القديم. ولم تعد هذه القاعدة الجديدة بحاجة للجيوش من أجل حمايتها، وإنما باتت هي التي تشكل الجيوش بعد أن احتضنت الإسلام ديناً لها، وباتت هي تضمن الحماية لنفسها وتضمن قوة الدفاع لغيرها، وذلك هو الإنجاز الرائع لما حققه أبو عبيدة بن الجراح في بناء المجتمع الجديد.

لم يكن أبو عبيدة، وهو يبني المجتمع الجديد في الشام، يتجاهل الدور الكبير الذي يضطلع به المجاهدون في سبيل الله، فكان يحرص على صيانة القيم التي يحملها هؤلاء المجاهدون ويسهر على بقاء كل مسلم نموذجاً لما يجب أن يكون عليه أفراد المجتمع الجديد. وليس من الغريب بعد ذلك أن يتخذ أبو عبيدة موقفاً صلباً من كل ظاهرة تتنافى والعقيدة الإسلامية. فعاملَ القلَّة التي سمحت لنفسها بشرب الخمر بقسوة، والتزم بقوله جلَّ وعلا لهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، ثم هو يقيم الحدَّ على المنحرفين الذين يفرضون على أنفسهم سياسة العزل خجلاً من المجتمع الإسلامي المحيط بهم. وتبقى قسوة «أبو عبيدة» في حدود الشرع، وضمن إطار ضرورات بناء المجتمع الجديد. فعندما علم أن أحد المنحرفين، «أبو جندل»، قد أضر بنفسه نتيجة لعزلته، كتب إلى الخليفة عمر

يطلب إليه توجيه رسائل إلى المنحرفين يطلب إليهم الخروج عن عزلتهم بعد أن نزل بهم العقاب العادل، مع الطلب إلى مجتمع المسلمين بعدم استخدام القسوة في عقاب المنحرفين بأكثر ما تفرضه حدود الشرع، مع الطلب أيضاً بمراقبة كل انحراف، فكان كل مقاتل مسلم مسؤولاً عن ممارسة الرقابة الذاتية، على نفسه وعلى الآخرين، حتى لا يصاب المجتمع الإسلامي بالأمراض التي خلَّفها المجتمع القديم والتي لا زالت تعيش في حدود ضيقة.

وتظهر وثيقة الصلح التي عقدها أبو عبيدة مع أهل دمشق، وكذلك وثائق الصلح المماثلة مع أهل بلاد الشام، الأسس والمبادئ العامة لإقامة المجتمع الجديد، ولعل أبرز تلك الأسس هي:

١ ـ ضمان الأمن ـ لأهل الجزية ـ على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم، وممارسة شعائرهم الدينية بشرط عدم الإساءة إلى المسلمين، بالقول أو بالعمل، وبشرط عدم استحداث أمور تتعارض مع ضرورات البناء.

٢ ـ المحافظة على امتيازات العرب المسلمين، في لباسهم وسلوكهم ومجتمعهم، وعدم السماح لغير المسلمين بتقليدهم، كل ذلك بهدف خلق حوافز تدفع غير المسلمين بدخول مجتمع المسلمين والتحرر من رواسب المجتمع القديم، هذا إلى جانب التركيز على أمن المسلمين وتأمين الحماية لهم.

٣ ـ تعهد أصحاب البلاد بالتعاون مع المسلمين، وإعلامهم عن كل تحرك للعدو، ويهدف ذلك بالدرجة الأولى إلى القضاء على روابط المجتمع القديم، وإقامة المجتمع الجديد على أسس سليمة.

لقد كان المجتمع الإسلامي مجتمع فضائل خلقية ومجتمع قيم معنوية، وكان للمجتمع القديم في الشام قيم مغايرة ومبادئ مختلفة، فكان لا بد لـ«أبو عبيدة بن الجراح» من هدم المجتمع القديم وإقامة المجتمع الجديد في وقت واحد. ولم تكن عملية الهدم والبناء عملية سهلة، لا سيما مع بقاء التحريض الخارجي، وقد استطاع العرب المسلمون ردع الروم عن التدخل، وإشغالهم عن المسلمين بأنفسهم، وذلك عن طريق نقل التهديد إلى بلاد الروم. وأمكن ضمان الاستقرار الضروري لبناء المجتمع الجديد، مجتمع الفضائل الخُلُقية الإسلامية وقِيَمه المعنوية.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن الفضائل الخُلُقية والقِيَم المعنوية قد جاء بها الإسلام للدنيا كلها، ولو أنه حمَّل العرب أمانة تعريف الدنيا بها. وعلى هذا

فإنه من الطبيعي أن يستجيب عرب الشام لدعوة الإسلام، وأن يحتضنوها ويحملوا رايتها، مما يسهل عملية إقامة المجتمع الجديد. ولكن هل كانت عملية إقامة المجتمع الجديد على مثل ما توصف به من السهولة؟ يقيناً لا! بدلالة قيام عرب الجزيرة بالتعاون مع الروم طويلاً بعد فتح الشام، وبدلالة نزوح قبائل عربية كقبائل غسان وإياد وانضمامها إلى الروم، وتفضيلها الروم على العرب. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأنها مجرد الولاء للقديم ولكنها ظاهرة تبرهن على كل حال أن عملية هدم المجتمع القديم وإقامة المجتمع الجديد لم تكن عملية سهلة أو بعيدة عن المخاطر، ولكن «أبو عبيدة» ومعه جيش المجاهدين، كانوا بفضل إيمانهم فوق كل صعاب وأكبر من كل خطر، وبذلك أمكن لهم تحقيق النجاح في بناء المجتمع الجديد.

٣ ـ وضوح الهدف

وجد العرب أنفسهم من خلال إيمانهم وإسلامهم، وعرفوا قوتهم من خلال بعثهم الجديد، وأصبحت أهدافهم في الحياة مغايرة لتلك التي كانت لهم قبل الإسلام، واندمجت أهدافهم الخاصة بالهدف الكبير الذي رسم طريق الإسلام، وأصبحت النظرة إلى الحياة كلها تمر عبر هذا الهدف الكبير، وتبيَّن الهدى من الغي، وأشرقت البصائر فأضاءت لها الدنيا، ومضت خيول المسلمين إلى الهدف، بوضوح تام بدون لبس أو غموض، وذلك هو العامل الذي ساعد قادة العرب المسلمين على التمييز بين غاية السلم وبين هدف الحرب، ودمجهما جميعاً في سياسة ـ استراتيجية رائعة في تكاملها، خالدة في مميزاتها وخصائصها. ولم يكن أبو عبيدة بن الجراح في كل ذلك إلا رائداً من رواد تلك السياسة ـ الاستراتيجية، وإلا قائداً من قادة الفتح الذين تمثلت فيهم كل خصائص العقيدة الجديدة ومميزاتها وفضائلها. ومن الواضح بعد ذلك: أن قضية وضوح الهدف عند «أبو عبيدة» وعند سواه من قادة العرب من المسلمين أيضاً، لم تكن مرتبطة بمعرفة الآخرين قدر ارتباطها بمعرفة العرب المسلمين لأنفسهم، ولما يريدونه. وقد تكون قضية وضوح الهدف بدهية ومسلَّم بها على مستوى السياسة ـ الاستراتيجية نظراً لارتباطها بالعقيدة الإسلامية، ولكن ترجمة مثل هذا الوضوح على مستوى قيادة العمليات، وعلى مستوى التنفيذ التعبوي التكتيكي هو المجال الرحب أمام قادة العرب المسلمين لإبراز كفاءتهم القيادية،

والبرهان على إمكاناتهم الخاصة وقدراتهم الذاتية، وفي هذا المجال كان النجاح الرائع لـ«أبو عبيدة بن الجراح».

عندما توجهت جيوش المسلمين إلى الشام وجه هرقل أربعة جيوش لتدمير المسلمين، وأدرك أبو عبيدة، كما أدرك قادة جيوش المسلمين، هدف هرقل، فقرروا الانسحاب إلى الجولان، والتجمع فيها. وبعد اليرموك، لم يعرف أبو عبيدة إلى أين يتوجه، فكتب إلى الخليفة عمر، فأجابه الخليفة وحدَّد له الأهداف المتتالية. وبعد فحل مضى أبو عبيدة إلى بعلبك وحمص وبقية مدن الشمال، ثم بدأ بأنطاكية، ومنها إلى اللاذقية وبقية مدن الساحل. وعندما هاجم الروم، عام (١٧هـ)، مدينة حمص استشار أبو عبيدة قادته فيما يجب عمله، واتخذ قراره بالانسحاب من حمص وإعلام الخليفة عمر. وعندما عرف أبو عبيدة أن الموقف قد أصبح لصالحه، قام بالهجوم، من دون انتظار، وبدون أي تأخير بحيث وصلت قوات الدعم من الكوفة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي وذلك بعد انتهاء المعركة بأيام ثلاثة. ويبرهن هذا العرض السريع أن عوامل الوضوح في الهدف قد اعتمدت عند «أبو عبيدة» على المعطيات التالية:

أ ـ **التقدير الصحيح للموقف**، ومعرفة نوايا العدو بدقة تامة، وإجراء موازنة محكمة بين مجموعة العوامل التي تدخل في اتخاذ القرار.

ب ـ **عقد مؤتمرات القادة**، بحسب التعبير الحديث، واستشارتهم في المواقف المستجدة بعد طرح الموقف بكل أبعاده، ثم اتخاذ القرار المناسب والعمل على تنفيذه.

جـ ـ **الفصل بين الهدف الاستراتيجي والهدف العملياتي** ومعالجة مواقف العمليات بصورة مباشرة، وترك المواقف الاستراتيجية للقائد الاستراتيجي، والذي كان يمارس دوره الخليفة.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن إعطاء الأفضليات عند تعادل أهمية الأهداف هو من اختصاص القيادة الاستراتيجية، على نحو ما كان عليه الموقف في دمشق، وفحل. كما أن هجوم الروم، عام (١٧هـ)، كان هجوماً عاماً له طابع استراتيجي، وقد برهنت مسيرة الأحداث أن معالجة هذا الموقف على مستوى السياسة الاستراتيجية هو الذي حقق ذلك النجاح الرائع للعملية بمجموعها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فعندنا شعر أبو عبيدة بتحول الموقف، لم

ينتظر وصول أي تعليمات أو قوات دعم وإنما عالجه على مستوى العمليات، فقام بتنظيم الهجوم ونجح في تدمير قوات الروم، والقضاء عليها ومطاردتها حتى حدود بلادها. وبعد، فقد يكون وضوح الهدف قاسماً مشتركاً بين عدد غير محدود من القادة الناجحين، من مسلمين وغير مسلمين، ولكن وضوح الهدف، في كثير من الأحيان، وبصورة خاصة في العصر الحديث، إنما يرتبط بمجموعة من العوامل المحددة بإطارين: زمني ومكاني، في حين كان مثل هذا الوضوح عند قادة العرب المسلمين خاصة غير محدَّد لا بالحدود الزمنية ولا بالحدود المكانية، ولعل غزوة الخندق أفضل مثال على ذلك. فقد وقف الرسول ﷺ ومن ورائه المسلمون، يحفرون الأرض، والأعداء محيطون بهم من كل جانب، والخطر يتهدد وجودهم، وهم قلّة. وفي هذا الموقف، ضرب رسول الله الصخرة فأضاءت له الدنيا ورأى على وهجها قصور كسرى وحصون الروم وقد أصبحت في قبضة المسلمين. وسخر أعداء المسلمين لمثل هذه التصورات للمستقبل، والمسلمون على ما هم عليه من الضنك والضيق، ولم يمضِ على ذلك سوى عشر وبضع سنين حتى تحققت النبوءة. وكذلك الأمر، ولو على نطاق محدود بالنسبة لـ«أبو عبيدة» وسواه من قادة المسلمين، الذين كانوا ينظرون إلى هدف المستقبل الواضح من خلال مواقفهم المرحلية، فكان عملهم في ذلك منهجياً ومبرمجاً، في إطار أهداف مرحلية وصغيرة تنتهي عند هدف الحرب الذي يمهد بدوره لتحقيق غاية السلم وبناء المجتمع الإسلامي.

لقد كان وضوح الهدف عند «أبو عبيدة بن الجراح» هو الذي ضمن له عدم الانزلاق نحو أهداف ثانوية، أو الوقوع في مأزق من مآزق الحرب المتوقعة دائماً، أو حتى التعرض لمباغتة من مباغتات الحرب. ولم ينكب المسلمون تحت قيادته، ولم تنتكس لهم راية، فقد كانت أمور الفتح تسير بدقة وإحكام. وقد يكون من غير الطبيعي النظر إلى مسيرة الفتوح في بلاد الشام من خلال منظور حرب الحركة الحديثة، أو إجراء التقويم على أسس المعرفة الحديثة للأبعاد الزمنية والمكانية لمسارح العمليات. وعلى هذا الأساس، ومع الأخذ بهذه المعطيات، تظهر أهمية عامل وضوح الهدف عند رائد الفتح «أبو عبيدة بن الجراح»، وتتعاظم أهمية هذا العمل أيضاً عند استعراض ما كان عليه موقف جيش العرب المسلمين. فقد قاد أبو عبيدة جيشاً قليل الخبرة بالحرب، قليل الخبرة بالأمور التنظيمية، ضعيف الإمكانات بالقوى والوسائط، وكان لا بد لهذا

الجيش من مجابهة جيش عريق في تنظيمه، غني بخبراته وتجاربه، متفوق بقواه ووسائطه، وعلاوة على ذلك فقد كان هذا الجيش، جيش الروم، على علاقة وطيدة بسكان البلاد بحيث لم يكن يخشى على مؤخرته، كما كانت معرفته بمسرح العمليات جيدة وكاملة. وأمام هذه الفوارق ظهرت مجموعة من العوامل لصالح العرب المسلمين، ولم يكن وضوح الهدف أقل هذه العوامل على كل حال؛ كما لم يكن أقلها أيضاً كفاءة «أبو عبيدة» القيادية.

وتظهر مسيرة الفتوح بعد ذلك، أنها لم تكن ضربة مباغتة في غفلة من الدهر، أو أنها كانت عملاً مرتجلاً بعيداً عن الهدف، مجرداً من الغاية، وإنما كانت عملاً موجهاً بدقة رائعة، مارس فيها عقل «أبو عبيدة» الجبار دوراً أساسياً على مستوى التخطيط للعمليات، وعلى مستوى تحديد الهدف الأساسي والأهداف الثانوية أو الفرعية، وقد تم تنفيذ ذلك كله في إطار من الوضوح التام، مما ساعد القوات على الاضطلاع بواجباتها وتنفيذ عملياتها بدون خطأ، وبدون اضطراب، وفي مناخ من الثقة الكاملة بالنصر.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام

وصف رسول الله ﷺ «أبو عبيدة» بـ(أمين الأمة) ولا حاجة للقول إن الأمانة تشمل الحرص على أرواح المسلمين قبل كل شيء. وقد برهن أبو عبيدة في حياته كلها عن حرصه الشديد على أرواح المسلمين، فكان لا يقتحم المخاطرة غير المحسوبة، ولا يرسل سرية إلا وهو على ثقة من قدرتها على تنفيذ هذا الواجب، وكان مكيناً في الحرب غير متسرع ولا متهور، مما كان يدفع المتسرعين إلى اتهامه بالتردد، حتى قال أحد المسلمين أثناء حصار دمشق مقولة استعجز فيها «أبو عبيدة» ورجَّح خالد بن الوليد مما أغضب معاذ بن جبل، الصحابي المشهور ودفعه إلى القول: «**أبأبي عبيدة يُظن؟! والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض**»[1]. وتكرر طرح مثل هذه المقولة أثناء حصار حمص فقال قائل: «لو كان خالد بن الوليد، ما كان البأس ذو كون». فتصدى معاذ بن جبل[2] مرة أخرى للموقف وقال: «فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة؟! لا أبا لك؟!

---

(١) الإصابة ٤/ ١٢، ١٣ و٦/ ١٠٦.

(٢) **معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي**: صحابي، وهو أحد السبعة الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين الصحابي عبد الله بن مسعود. اشترك في معركة بدر =

والله إنه لمن خير من على الأرض»[1]. وتظهر سيرة «أبو عبيدة» أنه كان يتوقف أمام كل موقف غير متوقع، ويتخذ الإجراءات الضرورية لتطويق الموقف، ثم ينتظر التطورات الممكنة أو المحتملة ويضع مخططاً محكماً ودقيقاً للعمل العسكري ثم يقوم بالتنفيذ، وقد ضمن أفضل الشروط لتحقيق النصر مع تحمل الحد الأدنى من الخسارة في القدرة البشرية. وواضح أن سياسة الانتظام الطويل عند «أبو عبيدة» لم تكن ضعفاً، ولا تردداً، ولا نوعاً من القصور أو التقصير، وإنما كانت شجاعة يسيطر عليها العقل والتفكير، وحزماً يهيمن عليه الحذر واليقظة، وإقداماً بعيداً عن مزالق التهور، ولم يكن ذلك كله إلا من أجل مصلحة المسلمين. فقد كان أبو عبيدة منكراً لذاته، مقبلاً على ما أقبل المسلمون عليه، راضياً بقضاء ربه وقدره، حتى أنه عزف عن مغادرة منطقة الوباء، في طاعون عمواس، ورفض دعوة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وفضل البقاء مع جنده ومقاسمتهم نصيبهم في الوباء، فكان يردد: «اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة» فأصابه ما أصاب المسلمين، ومضى مع من مضى راضياً بقضاء ربه وقدره. ومن المحال تفسير الانتظار الطويل عند «أبو عبيدة» بغير الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام.

كان أبو عبيدة مسلماً عميق الإيمان حفظ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٢٨]. وكان أبو عبيدة صحابياً عرف عن الرسول حرصه على العنصر العربي، دعامة الإسلام، ثم كان بعد ذلك قائداً من رواد الفتح وعرف حجم التحديات الكبرى التي تجابه قوات العرب المسلمين، ومن هنا كان حرصه الدائم على العرب المسلمين الذين يقع على عاتقهم حمل رسالة الإسلام، وتعريف الدنيا بها. يمكن بعد ذلك العودة إلى أساليب «أبو عبيدة»

= الكبرى وفي معارك الرسول وغزواته كلها، وبعثه الرسول قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن. وقال فيه الرسول: (معاذ، أعلم الناس بالحلال والحرام) وقال: (يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء). واشترك معاذ بعد ذلك في اليرموك وفتوح الشام، وتوفي بناحية الأردن في طاعون عمواس وعمره (٣٨) عاماً (٢٠ق.هـ ـ ١٨هـ/ ٦٠٢ ـ ٦٣٩م). الاستيعاب ٣/ ١٤٠٢، وأسد الغابة ٤/ ٣٧٦، وطبقات ابن سعد ٣/ ٥٨٣، و٧/ ٣٨٧.

(١) الإصابة ٤/ ١٢، ١٣ و٦/ ١٠٦.

وطرائقه في قيادة العمليات، حيث كانت هذه الأساليب والطرائق كلها تلتقي عند نقطة أساسية هي الحرص على المسلمين.

وعلى الرغم من أنه من المحال تحديد نتيجة واحدة لعمل واحد، إلا أن كثيراً من الأعمال كانت تحقق هذا المبدأ فيما كانت تحققه من نتائج، وقد كانت نصوص الاتفاقيات المعقودة مع أهل الشام تشترط، وقبل كل شيء، حماية المسلم ومساعدته والحرص على عزته وكرامته، فكان الحرص على المسلمين يشمل «الدفاع المادي عن المسلم والدفاع المعنوي»، ويأتي تطبيق مبادئ الحرب ضمن هذا الإطار ذاته. فكان التأمين الإداري للقوات من شأنه تأمين متطلبات الجيش المادية، والمحافظ على روحه المعنوية، وكذلك الأمر بالنسبة لتطبيق مبدأ المباغتة أو المبادأة، حيث كانت النتيجة تنتهي بتحقيق هدف الحرب، مع تكبد الحد الأدنى من الخسائر في القدرة البشرية. ويمكن التساؤل عما كان سينتهي إليه الموقف لو تم العمل على اقتحام دمشق قبل إقناع أهل دمشق بعدم جدوى مقاومتهم بعد الحصار الطويل؟ وما هي الخسائر التي كان يحتمل وقوعها لو تم الهجوم على حمص من الحركة؛ ومن دون حصارها طويلاً وإقناع أهلها بعدم جدوى مقاومتهم؟ كما يمكن التساؤل عن حجم الخسائر التي كان يحتمل تكبدها لولا مباغتة اللاذقية، أو عند مجابهة هجوم الروم وأنصارهم على حمص في عام (١٧هـ)؟ لقد كان هناك احتمال في انتصار المسلمين، ولكن الاحتمال الأرجح هو دفع ثمن باهظ يزيد كثيراً على أهمية النصر الذي كان يُحتمل تحقيقه.

وتبقى عملية التوازن بين تحقيق الهدف، وبين الثمن المقابل لتحقيق هذا الهدف هي في طليعة المميزات التي انفردت بها قيادة «أبو عبيدة بن الجراح» في عمليات فتوح الشام. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان على المسلمين إقامة المجتمع الجديد، وكان من غير الطبيعي استنزاف قوة المسلمين في تحقيق الهدف العسكري، والوقوف موقف العجز أمام متطلبات بناء المجتمع الجديد وضمان الاستقرار فيه. وعلى هذا فقد كان تحقيق الهدف العسكري مجرد وسيلة، وكان استخدام هذه الوسيلة يتطلب تقنيناً دقيقاً لا يستنزف القدرة البشرية للمسلمين أو يضعفها إلى درجة تجعلها عاجزة عن تحقيق غاية السلم.

وكان أبو عبيدة، وهو يقود جند المسلمين، يعرف أنه لن يجابه معركة حاسمة واحدة، وإنما كانت أمامه وأمام قواته مجموعة غير محدودة من المقاومات

تتضمن أعمال حصار، ومعارك جبهية تصادمية، واشتباكات كثيرة، وحروب استنزاف، وكان يعرف قبل كل شيء أن مسيرة الجهاد طويلة وشاقة بسبب تفوق أعداء المسلمين بالقوى والوسائط، فكان من المحال زج كل القوات في معركة حاسمة وغير مقننة لتحقيق نصر يجعل من المحال متابعة الصراع بعده، فكان الحرص على العنصر العربي متلاحماً بمبدأ الاقتصاد بالقوى وبمبدأ المحافظة على الهدف، ومبدأ حماية المروؤسين، وتظهر هنا، كما تظهر في كل مكان، قضية التكامل الرائع في عقيدة القتال عند العرب المسلمين.

ويحرص كل قائد على جمع أكاليل النصر في الحرب، وينطلق من حرصه هذا إلى المعركة في محاولة لتحقيق النصر بثمن معقول وبتضحية مقبولة، ويحالف الحظ بعض القادة في حين يجافيهم في أحيان أخرى، ولكنهم قلة أولئك الذين يحالفهم الحظ فيحققون انتصاراتهم دائماً لقاء ثمن محدود من الخسائر، وقد كان قادة العرب المسلمين بصورة عامة ـ وأبو عبيدة بن الجراح منهم بصورة خاصة ـ من تلك الفئة القليلة التي كان النصر حليفها دائماً. ولم تكن قضية الانتصار الرائع بالثمن المعقول هي قضية حظ بالنسبة لـ«أبو عبيدة» بقدر ما كانت قضية كفاءة قيادية عالية، وبقدر ما كانت قضية تخطيط دقيق وخيال مبدع يستنفر إمكانات العقل كلها للوصول إلى الهدف في الوقت المناسب ومن خلال المكان المناسب.

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

كانت حروب العرب المسلمين نوعاً من الحروب الثورية بمفهومها الحديث، ويظهر أن طبيعة تلك الحروب قد ساعدت قادة العرب المسلمين على استخدام الأساليب الثورية المناسبة، للتكيف مع طبيعة الحرب، وضمان الاستجابة المناسبة في مجابهة التحدي المناسب، واستخدمت استراتيجية الحرب التشتيتية ـ وهي استراتيجية ثورية بالدرجة الأولى ـ لمجابهة تفوق الروم، ولم تكن هذه الاستراتيجية هي الوحيدة التي استخدمها قادة العرب المسلمين للمعاوضة عن نقاط الضعف لديهم، ولكنها بقيت من أبرز الاستراتيجيات المستخدمة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تميزت حروب العرب المسلمين بمجموعة من الخصائص التي وضعت تلك الحروب نموذجاً متقدماً من حرب الحركة، ومن طبيعة هذه الحرب عدم الجمود أمام موقف معين، والابتعاد عن

معارك المواقع الثابتة والتحصينات، والسعي لمقابلة قوات العدو في معارك تصادمية يغلب عليها طابع الهجوم من الحركة مع عدم استعداد مسبق أو مع استعداد يتم تحضيره على عجل، ويشترط هذا النوع من الحرب كفاءة قيادية عالية على مستوى العمليات وإدارة الحرب، كما يتطلب كفاءة عالية من المقاتلين لتنفيذ الأساليب التعبوية التكتيكية المناسبة. وتبرز سيرة «أبو عبيدة بن الجراح» وعمليات فتح الشام مجموعة من الأساليب والطرائق التي استخدمت لتطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية بنجاح وفاعلية، ومنها:

أ ـ التحرك على عدد من المحاور المتوازية أو المتلاقية؛ كالتحرك من قاعدة الحشد في المدينة المنورة، والانطلاق إلى الشام نحو أهداف عديدة، مما أربك الروم، وحملهم على وضع خطة لمجابهة الجيوش الأربعة، وعادت هذه الجيوش للتجمع مما أرغم قيادة الروم على تبديل مخططاتها مرة أخرى لمجابهة الموقف الجديد، وغنمت جيوش المسلمين من ذلك مكسبَ فرض المعركة على العدو في الزمن والمكان المناسبين.

ب ـ التحرك على شكل مجموعات قتالية متتالية، على نحو ما حدث في موقعة «مرج الروم» والقضاء على قوات العدو بتجزئتها، والقضاء على كل مجموعة بشكل منفصل عن الأخرى، وحرمانها من تنسيق التعاون فيما بينها. وظهرت ميزة هذه الاستراتيجية أيضاً عند حصار دمشق، حيث قامت مجموعة فرسان ذي الكلاع الحميري بإحباط كل محاولة لدعم حامية دمشق، وحرمان قوات الروم من تنسيق التعاون فيما بينها.

جـ ـ يمكن اعتبار إحباط هجوم الروم ضد حمص، في عام (١٧هـ)، نموذجاً رائعاً لأساليب الحرب التشتيتية. ففي هذه المعركة، توجهت قوات المسلمين من مراكز بعيدة عن مسرح العمليات ـ الكوفة ـ وانطلقت إلى منطقة غير منطقة العمليات التي أرادها العدو، فكان تحرك قوات الكوفة إلى الجزيرة عاملاً حاسماً أرغم عرب الجزيرة على التخلي عن دعم الروم والعودة إلى مراكز قوتهم في الجزيرة للدفاع عنها، وخسر الروم بذلك الدعم الذي كانوا ينتظرونه ويتوقعونه، وبذلك أمكن القضاء على كل قوة بمعزل عن القوى الأخرى، فعمل أبو عبيدة ومعه جيش حمص على تدمير جيش الروم، في حين اضطلع جيش العراق بأعمال إخضاع الجزيرة وفتحها، وحققت استراتيجية الحرب التشتيتية أهدافها.

د ـ دفع أبو عبيدة مجموعات قتالية، أثناء فتح دمشق، نحو اتجاهات مختلفة لإخضاع المنطقة المحيطة بدمشق، وفعل مثل ذلك أثناء حصار دمشق، حيث قاد خالد بن الوليد إحدى المجموعات ووصل بها حتى قنسرين وحاضر حلب، علاوة على تلك المجموعات التي كانت تتحرك باستمرار في ريف حمص. وقد كان تنفيذ مثل هذه العمليات يشكل عبئاً ثقيلاً على عاتق المسلمين، بسبب ضعفهم العددي، ولكن مقابل ذلك حرص المسلمون على رصيد معنوي ضخم، أضيف إلى رصيدهم الأصلي، وأدى ذلك أيضاً إلى إحباط إرادة القتال عند الطرف المقابل الذي بات يخشى جيش المسلمين الضخم وشدة بأسه، وضمنت العمليات التشتيتية، علاوة على ذلك، أمن كتلة القوات الرئيسية، ووفرت لها ظروف العمل المناسبة بعيداً عن كل خطر من تهديد المباغتة، ويظهر بوضوح أن استراتيجية الحرب التشتيتية قد ساعدت على تحقيق عدد من مبادئ الحرب في وقت واحد.

هـ ـ يمكن أيضاً اعتبار أسلوب المطاردة لتدمير قوات العدو أثناء انسحابها نوعاً من الحرب التشتيتية، فقد عمل أبو عبيدة بعد معركة حمص على توجيه مجموعات قتالية متتالية لمطاردة الروم حتى ما وراء الدروب. وتحركت هذه القوات على محاور متباعدة، وهذا ما دفع «أبو عبيدة» لتكوين مجموعات قتالية أخرى تسير على أثر المجموعات المتقدمة لها بهدف دعمها إن هي جابهت مقاومة قوية، أو اصطدمت بمعارك غير متوقعة مع قوات للعدو متفوقة.

لقد استخدم بعض القادة العالميين استراتيجية الحرب التشتيتية في القرن الثامن عشر[1] للمطاردة، كما استخدم قادة آخرون العمل على أكثر من محور، ولكن قادة العرب المسلمين ـ وفي طليعتهم «أبو عبيدة بن الجراح» ـ هم أول من استخدم هذه الاستراتيجية في الهجوم والدفاع، وحتى أثناء حرب الحصار والمواقع، ولعلهم أيضاً في مقدمة من استخدم هذه الاستراتيجية في إطار

(١) استخدم هذه الاستراتيجية القائد الروسي كوتوزوف Koutouzov (١٧٤٥ ـ ١٨١٣م) أثناء مطاردة جيوش نابليون بعد انسحابه من موسكو، وخلال مرحلة تراجعه نحو فرنسا. كما تستخدم استراتيجية الحرب التشتيتية بصورة خاصة في الحروب الثورية كوسيلة للتعادل مع قوى العدو المتفوقة، وهدفها الأول ضرب العدو ضربات موجعة، مع المحافظة على قوات الثورة، وكانت هذه الاستراتيجية إحدى وسائل الحرب الجزائرية ضد فرنسا (١٩٥٦ ـ ١٩٦٣م) والتي أرغمت قوات فرنسا في كثير من الأحيان لتوجيه ضرباتها نحو الفراغ.

التكامل مع العقيدة القتالية، بحيث كانت هذه الاستراتيجية وجهاً من وجوه عقيدتهم الغنية بالمبادئ والأسس.

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية هي استخدام هذه الاستراتيجية على مستوى السياسية ـ الاستراتيجية للفتح، واستخدامها أيضاً على مستوى العمليات. فقد كان توجيه الفتح إلى الشام، وتحديد عدد من المحاور لتحركها إنما هو من عمل الخليفة «أبو بكر» رضي الله عنه، وكذلك الأمر بالنسبة لإحباط هجوم الروم، وتوجيه القوات لفتح الجزيرة، بحسب المخطط الذي وضعه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وفي النموذجين المذكورين تم تخطيط الحرب التشتيتية على مستوى السياسة ـ الاستراتيجية، في حين كان توجيه المجموعات القتالية، أثناء حصار دمشق وأثناء حصار حمص وأثناء مطاردة قوات الروم بعد المعارك وتوجيه القوات إلى ما وراء الدروب، كل ذلك في إطار العمليات، ومن تخطيط قائد مسرح العمليات «أبو عبيدة بن الجراح».

ويمكن اعتبار نجاح عمليات فتح الشام، في قسم كبير منها، نتيجة للسياسة ـ الاستراتيجية التي كان يطبقها أمير المؤمنين، كما يمكن إسناد قسم من النجاح للكفاءة العالية التي كان عليها جند المسلمين، ولكن ذلك كله لا ينتقص من كفاءة «أبو عبيدة» كقائد للعمليات، ولعل أكبر نجاح له هو في التنسيق بين أسس السياسة ـ الاستراتيجية وبين إدارة الحرب على مستوى العمليات، والتوفيق باستمرار بين الهدف وبين القوى والوسائط المتوفرة.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

وضع أبو عبيدة بن الجراح قاعدة استراتيجية الهجمات الوقائية عندما نظم غزوات ما وراء الدروب لإشغال الروم عن أنفسهم وذلك بعد قيامهم بالهجوم ضد حمص، وقد تحولت هذه الغزوات، فيما بعد، فأصبحت رتيبة ودورية ومنتظمة، وبقي الهدف ثابتاً وهو عدم السماح للروم بتهديد أمن الثغور الإسلامية، ولقد تطور مفهوم استراتيجية الهجمات الوقائية تطوراً كبيراً، ولكن بقي الأساس الذي أرسى قاعدته أبو عبيدة وهو:

أ ـ تنظيم الثغور، وإقامة حاميات قوية على الحدود، واجبها الأول تلقّي الصدمة عند حدوث هجمات مباغتة، وإنذار قيادة جيش المسلمين، وتوفير الفرصة المناسبة أمام الجيش للدخول في المعركة.

ب ـ قيام حملات قوية ومنتظمة لغزو بلاد الروم، ونقل ويلات الحرب إلى بلاد الروم، وإبعادها عن بلاد المسلمين. وكانت حاميات الثغور تنضم إلى هذه الحملات، ثم تعود إلى قواعدها مع عودة الحملات في الصوائف والشواتي.

لم تكن استراتيجية الهجمات الوقائية في واقعها بعيدة عن العقيدة القتالية للمسلمين، وقد مارس الرسول ﷺ تطبيق هذه الاستراتيجية في حروبه، حيث كان ينتقل إلى مواقع أعدائه، أو يسير إليهم قبل أن يصلوا إليه، وقبل أن يهاجموه في قاعدته، وطبق الخليفة الأول هذه الاستراتيجية ذاتها ضد المرتدين، فهاجمهم في قاعدتهم، وحرمهم من تنسيق التعاون فيما بينهم، وعندما تم فتح الشام، أخذت هذه الاستراتيجية ملامح متطورة في مجال التطبيق العملي وفي مجال قيادة العمليات، ويعود الفضل إلى «أبو عبيدة» في إحداث هذه التطورات التي أصبحت أساساً لكل تطوير لاحق.

وتجد استراتيجية الهجمات الوقائية قاعدة لها في عقيدة قتال المسلمين، فحروب المسلمين حرب حركة قبل كل شيء، وهي حرب هجومية. ورغم أن إشغال الروم عن أنفسهم هو عمل دفاعي هدفه صرفهم عن التعرض للمسلمين، إلا أن العقيدة القتالية الإسلامية قد جعلت الحرب الهجومية وسيلتها لتحقيق الهدف الدفاعي، وجاءت استراتيجية الهجمات الوقائية ترجمة واقعية وعملية لهذا المضمون. لقد كان من المحال على «أبو عبيدة» تجميد قوات كبيرة للبقاء في الثغور كحاميات دفاعية في مواقع ثابتة، كما أن مثل هذا الإجراء يتنافى وعقيدة القتال الإسلامية ـ الهجومية ـ وكان من المحال أيضاً منح الثقة لأعداء المسلمين والاعتماد على نواياهم السلمية لو ظهرت مثل هذه النوايا، وكان المخرج الوحيد هو تنظيم حرب هجومية بصورة دائمة، ولكن كان من المحال أيضاً البقاء في مواقع الهجوم على جبهة واحدة، في حين كانت الأعمال القتالية الناجحة على الجبهات الأخرى تتطلب تركيز الجهد لتعزيز تلك النجاحات دائماً، ولم يبقَ من مخرج إلا التناوب بين الهجوم والدفاع على جبهة الروم بقدر ما يتوافر من القوى والوسائط، ونجحت استراتيجية الهجمات الوقائية في إيجاد المخرج من هذا المأزق على حدود بلاد المسلمين مع الروم. وتظهر عبقرية «أبو عبيدة» القيادة مرة أخرى من خلال التوفيق بين الهدف وبين القوى والوسائط المتوفرة، وقد كان يكون من الطبيعي لقائد أن يكلل هاماته بأكاليل الغار عندما يتصرف بقوى كبيرة وبوسائط جبارة لتحقيق هدف محدود، ولكن

الكفاءة القيادية الحقيقية، بالنسبة لقائد العمليات، هي في تحقيق الهدف بالقوى والوسائط المتوافرة، ويتعاظم دور الكفاءة القيادية عندما تكون تلك القوى والوسائط هي أقل بكثير من حجم الواجبات المفروضة على قائد العمليات. ويعرف تاريخ الحرب مجموعات كبيرة من القادة الذين حققوا نجاحاتهم الرائعة بفضل ما توافر لهم من قوى ووسائط، ولكنهم قلة أولئك الذين بلغوا أهدافهم بوسائط وقوى محدودة، وكان أبو عبيدة واحداً من قادة التاريخ الذين كانت انتصاراتهم أكبر بكثير من حجم قواهم ووسائطهم.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

يظهر مبدأ المباغتة في طليعة المبادئ التي اعتمدها أبو عبيدة في حروبه ضد الروم البيزنطيين، فقد نظم مناورة خداعية وتظاهر بالانسحاب من حمص، وسمح للروم بمطاردته، وقدم لهم الغنائم كطعم لاجتذابهم وإخراجهم من حصونهم، ثم باغتهم بالانقضاض، وحقق بذلك المباغتة على مستوى العمليات، ثم قام بمناورة خداعية مماثلة عندما امتنعت عليه مدينة اللاذقية، ولكنه طور الأسلوب، إذ لجأ إلى إقامة الحُفَر للفرسان وخيولهم بهدف إخفائها وتمويهها بسبب طبيعة المنطقة المكشوفة حول المدينة، والتي لا تساعد القوات على الاقتراب من دون أن تنذر حامية المدينة، وبذلك نجح مرة أخرى بتحقيق المباغتة على مستوى العمليات. وأثناء فتح دمشق، كانت هناك مفاوضات استمرت طويلاً من دون الوصول إلى نتيجة بشأن الاستسلام، وقام خالد بن الوليد باقتحام الأسوار من منطقة باب شرقي، فأمكن حسم الصراع المسلح عن طريق المباغتة حيث ظهرت قوات المسلمين في زمن غير متوقع وفي مكان غير متوقع، فكانت نتيجة المباغتة مذهلة تداعت لها قوات دمشق وألقت السلاح مسلمة القياد لقوات المسلمين المنتصرة. ولم تكن هذه هي كل ظواهر المباغتة، فقد كان ظهور المسلمين، بقوتهم الجديدة، وتنظيمهم الحديث، وكفاءتهم العالية في إدارة الحرب، وتصميمهم الصلب على بلوغ أهدافهم، كل ذلك مما أذهل الروم وأضعف إرادتهم للقتال، بداية من اليرموك ونهاية بأنطاكية والثغور القائمة أمام الدروب، درب أنطاكية ودرب الجزيرة، وكان لـ«أبو عبيدة» دور كبير في هذه المباغتات. ولكن؛ ومع أهمية المباغتة على مستوى العمليات، فقد كان هناك نوع من المباغتة الاستراتيجية التي كان يصممها أمير المؤمنين، ولم يكن تحرك خالد بن الوليد إلى الشام وظهوره خلف قوات الروم إلا مباغتة

استراتيجية، وكذلك الأمر بالنسبة لتحرك القوات من الكوفة إلى الجزيرة لإحباط هجوم الروم ضد حمص، حيث كان وقع المباغتة الاستراتيجية مذهلاً بحيث أدى إلى نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر، فلم تحاول قوات الجزيرة تنظيم مقاومة قوية لمجابهة تقدم المسلمين. ويمكن متابعة ظواهر المباغتة أيضاً على المستوى التعبوي التكتيكي، حيث كانت قوات المسلمين تندفع إلى كل مكان وتسير إلى كل اتجاه، فكان ظهورها المباغت، وتدميرها المستمر لقوات العدو، كافياً لاستنزاف قوة الروم المادية وإحباط روحهم المعنوية والوصول إلى الهدف المباشر بوسائط استراتيجية الهجوم غير المباشر. ولم تكن القناعة التي كوَّنها الروم عن حتمية انتصار العرب المسلمين سوى نتيجة لنجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر، والتي مارس فيها مبدأ المباغتة دوراً أساسياً وحاسماً.

ويظهر وبوضوح تام أن «أبو عبيدة» لم يعتمد على مبدأ واحد من مبادئ الحرب في حروبه، وأنه لم يستخدم استراتيجية ثابتة لتحقيق النجاح في عملياته، فكان يختار من الأسس ما هو ضروري لمجابهة المواقف المستجدة، وكان يختار من مبادئ الحرب ما هو مناسب لحل مشكلات المواقف المستحدثة، وبذلك اكتسبت الأسس والمبادئ قدراً كبيراً من المرونة، وبذلك أيضاً ظهرت الأسس والمبادئ بصورتها المتشابكة والمعقدة بحيث أصبح من الصعب فصل النتائج التي حققها أي مبدأ بمعزل عن المبادئ والأسس الأخرى، فكان بذلك التكامل الرائع لفن الحرب عند العرب المسلمين، واحتل أبو عبيدة مكانته الخالدة في طليعة قادة المسلمين الذين طبقوا بكفاءة عالية مبادئ الحرب، وعملوا على تطويرها وإكسابها المرونة الضرورية ليضمنوا لها شروط البقاء والاستمرار.

كان العرب، يقيناً، على درجة عالية من الكفاءة القتالية، واستطاع قادتهم تحقيق بعض الانتصارات، على نحو ما فعلوه في معركة ذي قار، عندما باغتوا الفرس بتنظيم جديد وقوة غير متوقعة، وفي غزوة أُحد قاد خالد بن الوليد سرية من الفرسان وباغت قوات المسلمين بهجوم من الخلف كاد يؤدي إلى تدمير قوة المسلمين، ولكن صمود الرسول ﷺ ومعه فئة قليلة ساعد على تحويل الموقف لصالح المسلمين. ويظهر من خلال ذلك أن المباغتة في إطاريها، الزماني والمكاني، كانت معروفة تماماً للعرب، ولكن العقيدة القتالية الإسلامية أخذت بهذا المبدأ وعملت على تطويره، حيث ظهرت معالم المباغتة في العمليات

والمباغتة في المجال الاستراتيجي، ويتوافق هذا التطور في واقعه مع زيادة حجم القوات ومع اتساع مسارح العمليات، وهنا تظهر الكفاءة القيادية في التوفيق بين المبدأ وبين متطلبات الواقع، وتعديل النظرية بما تتطلبه الممارسة العملية.

اعتمد العرب المسلمون طرائق حرب الحركة، وطوروا أساليبها، ويشكل مبدأ المباغتة أساساً صلباً لهذه الحرب. فتحرك القوات يفقد كثيراً من أهميته إن لم يحقق المباغتة، وهذه المباغتة لم تكن هدفاً في حد ذاتها وإنما كانت وسيلة لتحقيق مبادئ أخرى كالمبادأة، وفي الوقت ذاته تحقيق التعادل الكمي لدى الروم بتعادل نوعي عند العرب المسلمين.

وقد يكون من المحال النظر إلى مبدأ المباغتة على نحو ما طبقه أبو عبيدة بن الجراح وفقاً لمقاييس زمنية ومكانية مغايرة لتلك التي نفذت الأعمال القتالية في إطارها ومضمونها، ويكون من الصعب نتيجة لذلك تقويم منجزات «أبو عبيدة» وما حققته من نتائج على مستوى العمليات وعلى مستوى إدارة الحرب. وقد يظهر للوهلة الأولى أن تنفيذ المناورة الخداعية هو عمل رتيب وطبيعي، ولكن عند تصور ما كانت تجابهه قوات المسلمين من صعوبات لا نهاية لها في إعادة التنظيم بعد كل معركة، وفي وضع مخططات متطورة لمجابهة المواقف المستجدة باستمرار، وفي التغلب على الصعوبات الجغرافية لمسرح العمليات، علاوة على الصعوبات الطبيعية والناتجة عن التحرك المستمر لقوات كبيرة لم يمارس قادة العرب من قبل قيادة قوات بمثل حجمها ومثل نوعيتها، كل ذلك يبرز كفاءة «أبو عبيدة» القيادية، ويبرهن على قدرته الإبداعية التي تغلبت على كل الصعوبات، وساعدت على إيجاد الحلول المناسبة للمواقف المختلفة، وفي مقدمتها، وقبل كل شيء، التطور في مبادئ الحرب.

وقد لا يكون تطوير مبدأ المباغتة عند «أبو عبيدة» سوى ظاهرة واحدة من ظواهر التطوير المستمر لفن الحرب عند العرب المسلمين، وقد لا يكون أيضاً أكثر تلك التطورات أهمية، ولكن إسقاط معقلين كبيرين، والاستيلاء على مدينتين رئيسيتين بتأثير المباغتة، وهما حمص واللاذقية، علاوة على مباغتة دمشق، إنما هو برهان على الأثر الحاسم لمبدأ المباغتة في فتوح الشام، مما أقنع الروم بعدم جدوى مقاومتهم، وحملهم على إلقاء السلاح في النهاية.

والحرب، بعد ذلك وقبله، هي حوار إرادات تنتصر فيها الإرادة الأقوى

والأكثر تصميماً على بلوغ الهدف. وكان إيمان «أبو عبيدة» عميقاً، وكان تصميمه لبلوغ الهدف كبيراً، فجاء إبداعه في تطوير مبادئ الحرب عظيماً وموازياً لعمق إيمانه وقوة تصميمه، وكان مبدأ المباغتة في طليعة المبادئ التي عمل على تطويرها، وبرهنت قوات المسلمين على أنها مماثلة لقائدها في إيمانها وفي تصميمها، فجاء تنفيذها الرائع للمباغتة بمثل ما خطط لها قائدها، وأمكن تحقيق تلك الانتصارات في حوار الإرادات.

٢ ـ أمن العمل

تتعاظم أهمية مبدأ أمن العمل بقدر ما يتعاظم خطر مبدأ المباغتة، والقضية الحاسمة هي توفير المناخ الملائم حتى تضع القيادة مخططاتها وحتى تشرف على تنفيذها من دون تدخل من العدو، مع ضمان الشروط المناسبة لتقوم القوات بتنفيذ واجباتها بدون تهديد بخطر غير متوقع، وفي إطار من حرية العمل. وقد تعرضت قوات العرب المسلمين، وهي في بداية انطلاقتها إلى الشام، لكارثة على مستوى العمليات بسبب القصور في تطبيق مبدأ أمن العمل. وعرف قادة جيوش المسلمين أهمية هذا المبدأ، لا من هذه التجربة فحسب، بل من مجموعة المبادئ التي طبقت في مجموعة الحروب التي رافقت ظهور الإسلام، وقرروا تطبيق مبدأ أمن العمل، والعمل على تطويره بهدف عدم التورط أبداً في مأزق تنعكس نتائجه السلبية على قدرة قوات المسلمين بقدر ما تنعكس على إدارة الحرب وعلى كفاءة القادة.

لقد طبق أبو عبيدة بن الجراح مبدأ أمن العمل في أعماله القتالية كلها، ومن الممكن تقرير ذلك ببساطة من خلال النتائج التي أمكن الوصول إليها، ومن خلال متابعة مسيرة الأعمال القتالية التي لم ينكب المسلمون خلالها، ولم يتعرضوا لمأزق من مآزق الحرب المعروفة والمتوقعة أبداً، ولكن ذلك قد يفرض بالضرورة إبراز الإجراءات التي اتخذها أبو عبيدة خاصة في مجال تطبيق مبادئ أمن العمل، وقد كانت تلك الإجراءات كثيرة ومتنوعة بحسب الموقف من العدو، وبحسب وضع قوات المسلمين (التوقف، التحرك، أثناء المعركة، بعد المعركة، إلخ...) ويمكن بصورة عامة إيجاز التدابير الوقائية التي اتخذت بما يلي:

أ ـ **الاستطلاع المستمر للعدو**: (بحيث لم يكن يخفى على المسلمين شيء

من أمور عدوهم). وكانت وسائط الاستطلاع كثيرة ومتنوعة، كالجواسيس أو العيون ودوريات الاستطلاع واستجواب الأسرى ومعلومات الأنصار، وكان يتم تنسيق التعاون لتبادل المعلومات بين القيادات، سواء فيما بين القيادات المتوازية أو بين الأنساق المتتالية، بداية من نسق المقاتلين وحتى أمير المؤمنين.

ب ـ **اتخاذ تدابير الحيطة**: (وكان المسلمون لا يبيتون ولا يصبحون إلا على تعبية). ولقد حاول الروم مباغتة قوات المسلمين في مرات كثيرة، سواء أثناء فتح دمشق أو أثناء معركة فحل أو في معركة مرج الروم أو أثناء حصار حمص، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ المسلمين على حين غرة، إذ كانت عناصر الرصد والإنذار ودوريات الاستطلاع المعتمدة على الفرسان (الخيالة) بصورة أساسية، تمارس عملها بصورة دائمة، وتضاعف من يقظتها في الليل والأحوال الجوية السيئة، وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك قوة جاهزة للتدخل باستمرار يطلق عليها اسم «الردء»، واجبها مجابهة قوات العدو والاشتباك معها ريثما تتمكن كتلة القوات الرئيسية من الاستعداد ودخول المعركة بطريقة منظمة. ويظهر بشكل واضح أن تدابير الحيطة كانت متكاملة في مستوياتها شاملة في تنظيمها، لا تترك ثغرة يمكن للعدو الإفادة منها، وبذلك أمكن إحباط كل مباغتة استهدفت غرة المسلمين.

جـ ـ **عزل ميدان المعركة عن كل تدخل خارجي**: وذلك عن طريق مفارز من الفرسان (قوات معركة) إلى كل النقاط التي يمكن للعدو التسلل منها أو تهديد المسلمين من خلالها، وكان عمق مجال الحيطة مرتبطاً بخطورة التهديد المحتمل، وحجم قوة الحماية وطبيعة منطقة العمليات، وقد كان حجم هذا القوة بقيادة ذي الكلاع الحميري أثناء حصار دمشق، وبقيادة خالد بن الوليد أثناء حصار حمص تتراوح بين (٣) آلاف و(٤) آلاف فارس، أي أن كتلة الفرسان الرئيسية كانت هي التي تضطلع بواجب عزل مسرح العمليات وحمايته من المباغتة أو كل تدخل غير متوقع.

د ـ **تضليل قادة العدو وخداعها**: وذلك باستخدام وسائط كثيرة منها المحافظة على أمن القيادة بحيث لا تستطيع وسائط استطلاع العدو من الحصول على المعلومات التي تريدها، أو السماح لها بأخذ المعلومات التي تريد قيادة المسلمين إطلاع قيادة العدو عليها، ويضاف إلى ذلك عدم ترك فاصل زمني كبير بين اتخاذ القرار المناسب والإعداد له وتنفيذه، مما لم يكن يسمح لقيادة الروم

باتخاذ الإجراءات المضادة، هذا علاوة على خلق المواقف المستجدة باستمرار وتطوير أعمال القتال بصورة سريعة، مما جعل قيادة الروم عاجزة عن تكوين الفكرة الصحيحة عن الموقف ومجابهته بتدابير مناسبة.

وتظهر متابعة أعمال الفتوح أن قيادة الروم قد وقفت، منذ بداية الفتوح وحتى نهايتها، وهي عاجزة عن الاستجابة المناسبة لما كان يتخذه أبو عبيدة من تدابير، وتظهر قضية الفتوح بكاملها، من هذه الناحية، قضية قصور في قيادة الروم مقابل تفوق كبير في الكفاءة القيادية لقوات المسلمين. ولم تتمكن قيادة الروم، رغم خبراتها الطويلة في ممارسة الحروب، من مجابهة الإبداع الجديد في مجال فن الحرب، ذلك أن قيادات العرب المسلمين قد استحدثت سياسة استراتيجية جديدة وطرائق للعمليات متطورة لم يكن لعالم فن الحرب عهد بها.

وقد يكون من الطبيعي لقوات تسير إلى الحرب، أن تتخذ تدابير الحيطة الضرورية لضمان أمنها، وقد كانت مثل هذه التدابير معروفة في الواقع، ولم تكن مخافر الرصد والإنذار (المسالح)، على امتداد حدود العرب مع دولتي الفرس والروم، سوى بعض وسائل أمن العمل التي نظمتها الدولتان العظميان في عصر الفتوح. كما أنه من الطبيعي لقوات المسلمين أن تنظم أعمال الاستطلاع وهي تسير عبر بلاد كثيرة التنوع في تضاريسها لمجابهة قوات متفوقة، وقد كانت أعمال استطلاع القتال معروفة أيضاً للمسلمين ولخصومهم على حد سواء. وكانت بعض مبادئ الحرب معروفة للجيوش العريقة، القديمة التنظيم، المتمرسة بشؤون الحرب، ولكن دمج تدابير الاستطلاع مع تدابير الحيطة ضمن إطار عقيدة قتالية متكاملة تقوم على تطبيقها قيادة على درجة عالية من الكفاءة في إدارة الحرب، بالإضافة إلى كفاءة قتالية مماثلة على مستوى التنفيذ، هو الذي أذهل قوات الروم وجعلها عاجزة عن إدارة الحرب، بمثل الكفاءة التي كانت عليها قيادة «أبو عبيدة بن الجراح»، وأمكن للتفوق النوعي عند العرب المسلمين، على مستوى التخطيط والتنفيذ، التغلب على التفوق الكمي بالقوى والوسائط والذي كان لصالح الروم.

يُظهر مبدأ أمن العمل في واقعه كل الخصائص القيادية لأسلوب «أبو عبيدة بن الجراح». فقد كان يركز جهده لتطويق الموقف الذي يجابهه بواسطة تدابير الأمن والاستطلاع، ثم يعمل بهدوء، وبعد أن يضمن الحماية لقواته، بوضع مخطط محكم ودقيق لحل المأزق العسكري الذي يجب الخروج منه، ويخلق

بذلك موقفاً لا يتوقعه العدو، فتنهار إرادة الصراع لديه وينتصر جيش المجاهدين ببذل جهد معقول ومقبول. ولقد كان هذا الأسلوب الحذر والهادئ مصدر ضيق لبعض مقاتلي المسلمين الذين يرغبون بحسم الصراع المسلح من خلال أقصر الطرق، حتى لو كان الثمن في ذلك مرتفعاً. ولعله من غير الضروري البرهان على أن «أبو عبيدة» كان يضع في اعتباره كل العوامل التي تلقي بثقلها في الموقف الذي يجابهه، فمسيرة الفتوح في حد ذاتها تبرهن على هذه الحقيقة، ولكن رغم ذلك يبقى مبدأ أمن العمل في طليعة المبادئ التي كان يعتمدها أبو عبيدة في حربه، وبذلك ضمن لنفسه النجاح في التخطيط، كما ضمن لجنده الظروف المناسبة لتنفيذ أعمالهم بنجاح، وضمن في الحالات جميعها وقاية المسلمين وحمايتهم من كل مباغتة أو أمر غير متوقع.

٣ ـ القدرة الحركية

كانت جيوش العالم القديم تعتمد على الخيول، بالدرجة الأولى، لضمان القدرة الحركية لقواتها المسلحة، وكانت نسبة الفرسان إلى نسبة المشاة متفاوتة ما بين جيش وآخر، وتتراوح بين (١) إلى (٦) مشاة وبين (١ ـ ١٠) مشاة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت جيوش الروم تعتمد على العربات التي تجرها الخيول من أجل زيادة قدرتها الحركية، وكانت العربات التي يستخدمها الروم مغايرة لتلك العربات الخفيفة التي استخدمها الفراعنة أو الهكسوس، وكانت تستخدم كوسائط للرمي، علاوة على استخدامها لنقل الشؤون الإدارية. أما بالنسبة للخيالة فكانت ثقيلة بتسليحها، ثقيلة بالدروع التي كانت تحميها من الرمي، وكانت، بالإضافة إلى ذلك، مرغمة على التحرك بسرعة المشاة الثقيلة التي ترافقها. ومقابل ذلك، اعتمد العرب المسلمون بالدرجة الأولى على قوة الفرسان، ثم زادت نسبة الفرسان بعد اليرموك حتى أصبح الجيش بكامله تقريباً من الفرسان، وكان هؤلاء لا يعتمدون على حماية الدروع، ولا يستخدمون الركاب، (ولعل قصة ضرار بن الأزور الذي كان يركب وهو شبه عار من الثياب على فرس لا يكسوه شيء، إنما تمثل نموذج الفارس الخفيف الذي يعتمد على السيف الخفيف في حربه). وعلى الرغم من استخدام الرماح من قبل قوة المشاة إلا أن السيف بقي هو السلاح الأساسي للفارس. وبذلك تفوق فرسان المسلمين بخفتهم ومرونتهم، وكانت قوة فرسان الروم متفوقة في قدرتها على الصدمة،

حيث كان فرسان المسلمين يصطدمون بجدار قوي أثناء هجومهم، ولكن المرونة وسرعة الحركة كانت تساعدهم على الانسحاب بسرعة وإعادة التنظيم وتكوين صدمة جديدة، وكانت الصدمات المتتابعة والمتلاحقة كافية لإضعاف جدار فرسان الروم، وإحداث ثغرات قوية فيه ثم دفعه للانهيار، وكانت لحظة انهياره هي التي يصفها مؤرخو المسلمين بقولهم «ظهرت بواكير النصر، أو لاحت تباشير هزيمة أعداء المسلمين».

كانت قوات الروم تتحرك بكتلتها في نظام محكم، ولكن هذا النظام كان متيبساً لكثرة تصلبه، وهو نظام غير متمفصل تتحرك فيه قوة الفرسان ككتلة صدمة واحدة، وتتحرك فيه كتلة المشاة كقوة رمي واحدة، وكان التنسيق بين كتلتي الصدمة والرمي ضعيفاً، فكان انهيار قوة الصدمة كافياً لتدمير قوة الرمي واجتياحها. وقد عرف قادة المسلمين منذ معاركهم الأولى نقاط ضعف التنظيم البيزنطي، فركزوا في كل معاركهم على الفصل بين قوة الصدمة وقوة الرمي، وتدمير كل قوة بمعزل عن الأخرى، ولم يكن باستطاعة قيادة العرب المسلمين الوصول إلى هذه النتيجة لو لم تكن قوة فرسان المسلمين على درجة عالية من المرونة والقدرة الحركية السريعة. وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كان الجيش البيزنطي يجر وراءه ذيلاً إدارياً ثقيلاً يزيد من أعبائه ويرهق تحركه، في حين كانت قوات العرب المسلمين تتحرك إلى أهدافها وهي متحررة من الأعباء الإدارية، وكانت تضمن لنفسها التعايش مع الوسط الذي تعيش فيه، وكانت متطلباتها قليلة نسبياً، وهذا مما ساعدها على زيادة قدرتها الحركية.

ويظهر واضحاً أن القدرة الحركية العالية للعرب المسلمين لم تكن إلا نتيجة المجموعة من العوامل:

أولها: تحرر الفارس العربي من استخدام الدروع الثقيلة واعتماده في حربه على الأسلحة الخفيفة.

وثانيها: ترك الخيول مجردة من السرج والركاب، وعدم إثقالها بالدروع السميكة.

وثالثها: تحرر القوات من الأعباء الإدارية.

ورابعها: زيادة قوة الفرسان حتى وصل جيش المسلمين في النهاية ليصبح جيشاً من الفرسان، ويأتي بعد ذلك تنسيق التعاون الجيد بين القوات ليزيد من فاعلية القدرة الحركية للقوات وليضاعف من استثمارها.

ومن الواضح بعد ذلك، أنه لم يكن باستطاعة «أبو عبيدة بن الجراح» التحكم بجميع عوامل القدرة الحركية لقوات العرب المسلمين، فقد كانت هذه القوات تندفع إلى الحرب تطوعاً أو حشراً أو ندباً، وكانت تتحكم فيها مجموعة من العوامل بينها القدرة الاقتصادية، فقد كان جيش المسلمين هو جيش الفقراء ـ مادياً ـ، بحسب التعبير الحديث، ولم يكن كل الجند قادرين على امتلاك الخيول، ولكن «أبو عبيدة» استطاع تدريجياً تحويل الجيش إلى جيش من الفرسان المتميزين بقدرتهم الحركة العالية. وكانت كفاءة «أبو عبيدة» تتمثل في هذا المجال بتحديد الواجبات الملائمة لعمل الفرسان (العمل كردء لقوات المسلمين وعزل منطقة العمليات والعمل كقوة استطلاع متقدمة، وتنفيذ الأعمال الخاصة ـ كالإغارة والكمائن ـ والقيام بواجبات المطاردة، ثم العمل أثناء المعارك التصادمية لمجابهة فرسان الروم الثقيلة وفصلها عن مشاتهم)، وكان تنسيق هذه الأعمال كلها في الإطار الشامل لكل معركة هو الذي أدى إلى زيادة استثمار القدرة الحركية، والعمل على تطويرها لمصلحة حسم الصراع المسلح.

وتظهر قضية القدرة الحركية، بالنسبة لقوات العرب المسلمين، أيضاً، وهي قضية نوعية يمكن لها التغلب على الكمية عند أعداء العرب المسلمين. وتكمن هذه القدرة النوعية في طبيعة الفارس العربي بقدر ما تكمن بالأسلوب التعبوي أو التكتيكي، الذي يمكن له الإفادة من هذه النوعية وتحويلها إلى أساليب وطرائق تتوافق على مسرح العمليات مع نقاط ضعف العدو، ويكون جيش العرب المسلمين جيشاً من النخبة المختارة أو العناصر المتفوقة بحسب التعبير الحديث. وبدهي أن لا تقف هذه النخبة المختارة عند مستوى الكفاءة في القيادة فحسب، بل تتجاوز لتشمل المقاتلين جميعهم والمجاهدين كلهم، وليس من الغريب أبداً بعد ذلك أن يسير النصر في ركاب هذا الجيش، وأن يكون حليفاً له في حروبه كلها.

لقد اهتمت جيوش العالم القديم بتأمين القدرة الحركية لقواتها[1]، وركزت جهدها لتطوير قدرتها الحركية بمختلف الوسائط، فاستخدمت عربات القتال،

---

(١) لقد حفظ جدار معبد أبي سمبل وصفاً لما كانت عليه القدرة الحركية لقوات جيش مصر من خلال العبارة التالية: «وعندما التفت الملك وجد نفسه محاطاً بألفين وخمسمائة عربة قتال، كما وجد خط تراجعه مقطوعاً بعدد كبير من المقاتلين من البلاد المعادية ومن بلاد متحالفة معها، وكانت جميع عربات القتال مجمَّعة وتحمل كل واحدة منها ثلاثة رجال».

كما استخدمت الفيلة والجمال وأضافت إليها أحياناً القدرة الحركية البحرية، ولكن جيوش العالم القديم بقيت عاجزة عن صياغة عقيدة قتالية متكاملة تجعل من القدرة الحركية وسيلة في جملة وسائط القتال، كما عجزت عن إيجاد النوعية الممتازة للمقاتلين وقياداتهم على حد سواء، وقد جاء التتار (المغول) بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون، وتعلموا بحكم احتكاكهم مع المسلمين، كثيراً من أسس فن الحرب، وقد عرف العالم عن التتار أساليبهم المتقدمة[1] ولكنه لم يتمكن من فهم التكامل الذي تميزت به العقيدة القتالية الإسلامية، والتي لم يتمكن حتى التتار من إدراك كل أبعادها، رغم التشابه بينهم وبين طبيعة المقاتلين العرب، وقد يعود السبب في ذلك إلى التفاوت الكبير بين مستوى فن الحرب عند المسلمين وبين أعدائهم في عصر ازدهار فن الحرب لديهم مما كان يجعل عملية التعلم صعبة ومتعذرة، وقد يكون السبب أيضاً هو محاولة فهم فن الحرب بمعزل عن العقيدة الدينية الإسلامية التي كونت العقيدة القتالية الإسلامية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

ليست القدرة الحركية هدفاً في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لنقل المعركة، ووضع العدو أمام مواقف متجددة يصعب عليه مجابهتها مما يقنعه بعجزه عن متابعة الصراع، ويرغمه على الاستسلام لإرادة خصمه. ومن الطبيعي لجيوش العرب المسلمين، التي انطلقت من الجزيرة لنشر الدعوة وتحرير بلاد الشام من هيمنة الروم، أن تضع في اعتبارها أنها انطلقت للهجوم وليس لاحتلال موقع والتوقف عنده، كما أنه من الطبيعي أيضاً أن تضع في اعتبارها حتمية الصراع في حروب متلاحقة ومعارك متتالية، لا سيما وأن محاور تحرك القوات لا تترك خياراً لأحد الطرفين، فأما النصر ومتابعة التقدم، وأما الهزيمة والانسحاب، ولم يكن أحد الطرفين قادراً على قبول خيار الانسحاب من دون معركة حاسمة، فكان من المتوقع أن يدور صراع مرير عند كل موقع.

ونظراً لاعتماد قوات الروم، نتيجة لحروبهم السابقة مع الفرس خاصة، على التحصينات الدفاعية، والأسوار، والمواقع الدفاعية، فقد بات من البدهي أن

---

(١) ويذكر الكاتب العسكري البريطاني «ليدل هارت» في هذا المجال «أن اتساع مسرح العمليات وحركية القطاعات الواسعة والاستخدام الأريب للمباغتة، جعلت معارك هؤلاء الآسيويين ـ المغول ـ تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ، إن لم تتفوق عليها».

تتعرض قوات المسلمين لمأزق من مآزق الحرب، وهذا المأزق هو مجابهة أعمال الحصار الطويل، في حين أن قوات المسلمين لم تكن مؤهلة لهذا النوع من الحروب، كما أن الاصطدام بالتحصينات من شأنه إفقاد المسلمين لمميزاتهم القتالية وفضائلهم الحربية، وأبرزها قدرتهم الحركية العالية، وقوتهم الهجومية المرنة، وقد عمل أبو عبيدة على تطوير هذه الخصائص واستخدامها بشكل صحيح وذلك من خلال تطبيق طرائق للعمليات أبرزها:

أ ـ إرغام العدو على مغادرة تحصيناته والدخول معه في معركة تصادمية تكون فيها المبادأة في قبضته ويتم فيها استخدام القوة الهجومية للمسلمين، وإذا أمكن تجاوز معركة اليرموك فقد ظهرت هذه الطرائق في معركة فحل، وفي معركة فتح بعلبك، كما ظهرت أيضاً في معارك فتح حمص واللاذقية، حيث اضطرت قوات الروم للقتال في العراء وبعيداً عن تحصيناتها، وكان فرض المعركة على قوات الروم في الزمان والمكان الملائمين بمثابة عامل أساسي يساعد «أبو عبيدة» في الإمساك بالمبادأة دائماً، ويضمن له تطوير الأعمال القتالية إلى أن يتم حسم الصراع المسلح لمصلحة قوات المسلمين.

ب ـ استخدام القوة الهجومية في أعمال التوغل العميق حتى أثناء عمليات الحصار، فقد وصلت قوة ذي الكلاع الحميري أثناء حصار دمشق إلى حدود مدينة حمص، ووصلت قوة خالد بن الوليد، أثناء حصار حمص، حتى حاضر حلب، ووصلت قوات خالد ومسروق العبسي حتى داخل بلاد الروم أثناء معركة حمص.

جـ ـ المطاردة البعيدة لفلول قوات العدو، وذلك حتى لا تتمكن قوات الروم من إعادة تجمعها وتقديم مقدمات منظمة في مجابهة قوات المسلمين، ويظهر ذلك بعد كل معركة حاسمة.

لقد حاول قادة الروم، في الواقع، استعادة المبادأة في مرات كثيرة، كما حاولوا الإفادة من قدرتهم الحركية لاستخدام القوة الهجومية، ولكن أسلوب «أبو عبيدة» في إدارة الحرب، وكفاءته في تطوير المواقف حتى تلك التي يضعها قادة الروم، قد أحبط مخططات هؤلاء القادة، وحرمهم من حرية العمل، ويظهر ذلك بصورة خاصة في معركة مرج الروم، كما يظهر أيضاً في إحباط الهجوم المضاد ضد حمص. وكان نجاح «أبو عبيدة» في الإمساك بالمبادأة باستمرار، وحرمان العدو منها في طليعة الأسباب التي أقنعت جند الروم بضعف قياداتهم، وأفقدتهم الثقة بأنفسهم، فكان في ذلك نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر،

والذي تمثل بالدرجة الأولى في عمليات فتح الجزيرة. ومن المعروف، بعد ذلك، أن إدارة المعركة الهجومية، والمحافظة على المبادأة في إطار حرب الحركة هو أمر أكثر صعوبة من إدارة معركة دفاعية في مواقع مجهزة، وقد كانت عمليات فتوح الشام كلها معارك هجومية، وكانت المبادأة فيها دائماً بقبضة قائد الفتح «أبو عبيدة بن الجراح»، وهذا في حد ذاته برهان كافٍ على كفاءة «أبو عبيدة» القيادية، ودليل على تفوقه في حوار الإرادات ضد قادة الروم.

هنا قد يكون من الضروري الإشارة إلى أن المبادأة واستخدام القوة الهجومية كانتا من بعض فضائل قوات العرب المسلمين، فكان كل مجاهد يحاول، في حدود تنفيذه لواجبه، الإمساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية، يظهر ذلك في اقتحام خالد بن الوليد لأسوار دمشق، ويظهر أيضاً في تنفيذ الأعمال القتالية الفردية، ويشكل ذلك تكاملاً يساعد القائد على تحديد الهدف العام لكل واجب وترك أمر تنفيذه للمجاهدين، وهذا ما كان يحدث فعلاً، ولكن القائد يتحمل عبئاً ثقيلاً لقاء هذه الميزة وهي أنه مرغم على تطوير المبادأة بصورة مستمرة، واستخدام القوة الهجومية بطرائق متجددة، وقد يكون هذا العامل في جملة الأسباب التي أبرزت تلك الكفاءات العالية في وسط قادة العرب المسلمين.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

«**ينتصر في الحرب من يحتفظ بآخر طلقة وآخر رجل**». تلك مقولة ذائعة ومُسلَّم بها، وهي تشير إلى ضرورة احتفاظ القائد بقوات احتياطية، بقدر ما تشير إلى ضرورة الاقتصاد بالقوى، والاقتصاد في إنفاقها، ويبرهن ذلك على أن الفاصل بين المنتصر وبين المهزوم في الحرب هو فاصل دقيق جداً، إذ تدمر الحرب الأطراف المتحاربة ولا تترك بينها ثمة فوارق كبيرة. ويعود السبب الأساس في التدمير الرهيب المتبادل إلى محاولة الطرفين المتصارعين الوصول إلى الحسم في معركة رئيسية واحدة، ولكن حروب المسلمين لم تكن من هذا النوع، بصورة عامة، ويعود الاختلاف الأساسي إلى التباين الكبير في مفهوم هدف الحرب. فقد كان العرب المسلمون يستخدمون الحرب كوسيلة لبناء المجتمع الإسلامي، ونظراً لما تتطلبه عملية البناء من جهد كبير فقد كان من الضروري حسم الصراع المسلح بأقل جهد ممكن، وكانت استراتيجية الهجوم غير المباشر هي وسيلتهم لتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى.

لقد حرص قادة الجيوش، عبر تاريخ الحرب، على تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى رغم بحثهم المستمر على الحسم في الحرب، واتبعوا في ذلك طرائق مختلفة وأساليب متنوعة، منها تدابير الحيطة لحماية القوات ومنها تنظيم أعمال الاستطلاع، ولم تكن الليمات والحصون الرومانية ـ البيزنطية ـ على امتداد حدود الامبراطورية في الغرب وأفريقية سوى وسيلة من وسائل الاقتصاد بالقوى، كما أن المسالح والمواقع الدفاعية والتحصينات لم تكن أكثر من بعض وسائل الفرس لحماية امبراطوريتهم المترامية الأطراف، ولتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى.

وكان العرب المسلمون أكثر حاجة لتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى من أعدائهم في الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، فقد كانت موارد العرب المسلمين البشرية والاقتصادية محدودة، وكان المسلمون يعتمدون على قدراتهم الذاتية، في حين كان أعداؤهم يتصرفون بقدرات واسعة مع توافر الإمكانات لتجنيد جيوش المرتزقة وتجهيز الجيوش الجرارة، وكان العرب المسلمون يقومون بالهجوم ضد المواقع والمناطق التي يحتلها أعداؤهم، ومن المفروض أن تكون قوة المهاجمين أكبر (بثلاث أضعاف على الأقل وفقاً لأحدث المفاهيم) حتى يمكن لهم إحراز النصر، وحتى يتم لهم حسم الصراع المسلح لمصلحتهم.

مجموعة من العوامل ألقت بثقلها في ميزان مبدأ الاقتصاد بالقوى ضد مصلحة قوات العرب المسلمين، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأسس والمبادئ التي مارست دورها في عملية التعويض لمصلحة المسلمين، وعلاوة على ذلك، فقد طبق أبو عبيدة بن الجراح مجموعة من المبادئ والأسس التي أمكن لها التدخل باستمرار لمصلحة التعويض عن نقاط الضعف، وكان من أبرزها:

أ ـ الوصول إلى هدف الحرب عن غير طريق الحرب، والسعي لعقد اتفاقات الصلح بالطرق السلمية، وضمن حدود تحقيق غاية السلم وإقامة المجتمع الجديد، وقد حفظ التاريخ لـ«أبو عبيدة» أنه أول من عقد صلحاً مع أهل الشام، «صلح أذرع»، وكانت فتوح بلاد الشام الشمالية، والشمالية الشرقية، الجزيرة، أكثرها صلحاً، ولئن برهنت اتفاقيات الصلح هذه على نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر فإنها حققت في الوقت ذاته مبدأ الاقتصادي بالقوى.

ب ـ تنفيذ الأعمال في جو من «التشتيت الكامل»، سواء على مسرح

العمليات أو على المسارح المجاورة. فقد كان أبو عبيدة يدفع قواته باستمرار حتى أبعد مجال من أفق المعركة، وفي الوقت ذاته كانت بقية الجيوش الإسلامية تخوض معاركها في كل مكان. فكان شرحبيل بن حسنة يتابع الجهاد في الأردن، ويقيم دعائم المجتمع الإسلامي، وكان عمرو بن العاص يعمل على تصفية بقية جيوب المقاومة في فلسطين، بعد أن تجاوزتها قوات المسلمين بمسافات بعيدة، ولم يبقَ لها من مخرج سوى البحر وسوى اللجوء إلى مصر، كما كان معاوية بن أبي سفيان يحرر بقية الجيوب الساحلية في ساحل الشام بينما يتابع يزيد بن أبي سفيان إقامة المجتمع الجديد في دمشق، وفي هذا الجو التشتيتي الشامل، كان من المحال على قيادة الروم تطوير أعمالها القتالية على أي جبهة من الجبهات.

جـ - إظهار العناد والتصميم لبلوغ هدف الحرب. فقد كان أهل الشام يتوقعون انصراف المسلمين عنهم بعد فترة من الحصار الطويل، وكان أهل حمص يأملون أن ترغم قسوة الشتاء وقوة المقاومة جند المسلمين على الانسحاب، ولكن ذلك لم يحدث، مما أقنع بقية المواقع بعدم جدوى المقاومة.

وكانت فضائل جيش المسلمين قبل كل شيء عاملاً حاسماً في تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى، كما كانت إدارة الحرب والكفاءة العالية في تنظيم الأعمال القتالية عاملاً حاسماً أيضاً. ولئن كانت بعض عوامل تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى خارجة عن قيادة «أبو عبيدة» وصلاحياته، فإن تنسيق عملياته مع عمليات القادة في المسارح الأخرى هو في حد ذاته العمل الأول للقيادة الناجحة، وبذلك كان كل نجاح على مسرح من مسارح العمليات ينعكس على بقية المسارح، وأمكن بذلك تحقيق النصر بالثمن المقبول مما سمح بتوفير القدرة الضرورية لمتابعة المراحل التالية. ولقد فشلت جيوش كبيرة مجهزة بأحدث الوسائط، على مر العصور، بالوصول إلى أهدافها بسبب إهمالها لمبدأ الاقتصاد بالقوى، وبسبب فشلها في تحقيق التوازن بين الوسيلة والهدف، وبسبب عجزها عن تنسيق أعمالها القتالية مع ما يتم تنفيذه على جبهات أخرى (والمعارك التي قادتها النازية والفاشية في الحرب العالمية الثانية هي أفضل مثال على ذلك). ولئن كانت النسبة الكبرى من الفشل تقع غالباً على عاتق القيادة الاستراتيجية، فإن ذلك لا يعفي قادة مسارح العمليات من مسؤولياتهم، وعلى هذا فإذا كان

الحظ الأكبر من النجاح هو نتيجة لكفاءة القيادة الاستراتيجية التي كان يقودها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن ذلك لا ينتقص من كفاءة «أبو عبيدة» القيادية التي حققت كل أهدافها، وخرجت من الحرب وهي أكثر قوة مما كانت عليه قبل دخولها.

٦ ـ المحافظة على الهدف

تتطلب المحافظة على الهدف، قبل كل شيء، معرفة الهدف بوضوح، بقدر ما تتطلب تصميماً وعناداً كبيرين من أجل عدم الانحراف عن الهدف، وقد كان هدف السياسة ـ الاستراتيجية لجيوش الفتح واضحاً كل الوضوح، ولم تكن قيادات جيوش الفتح ولا قواتها مفتقرة للعناد أو التصميم، ولكن، وبقدر ما كان عليه مثل هذا الوضوح على مستوى السياسة ـ الاستراتيجية فإن الموقف على مستوى العمليات كان أقل من ذلك، لا سيما وقد كان للعدو أساليبه وطرائقه للتدخل في أهداف العمليات وفي الطرائق التعبوية ـ التكتيكية ـ المؤدية إلى الهدف، ومن هنا تظهر كفاءة قادة العرب المسلمين، وفي طليعتهم «أبو عبيدة بن الجراح» في المحافظة على الهدف ضمن مجال أفق العمليات.

عندما أطلق أمير المؤمنين أبو بكر الصديق جيوش المسلمين لفتح الشام، حدد لها الهدف العام، الفتح وإقامة مجتمع المسلمين، وقسَّم البلاد إلى أربعة مناطق للعمليات: الأردن، فلسطين، دمشق، بقية بلاد الشام أو شمال دمشق، وقام كل قائد في تحديد الأهداف ضمن منطقته بحسب الطبيعة الجغرافية والتوزع السكاني في المدن والعواصم، فاتبع أبو عبيدة المحور الداخلي: بعلبك، حمص، قنسرين، حلب مروراً ببقية المراكز، وعندما أنهى ذلك انطلق إلى المحرر الساحلي: أنطاكية، اللاذقية، جبلة، طرطوس، وخلال ذلك تم فتح المناطق الواقعة بين المحورين الساحلي والداخلي. وكانت خطة الفتح واضحة تماماً بحيث لم يتم الانتقال من المنطقة الداخلية إلى المنطقة الساحلية إلا بعد تكوين قاعدة قوية ومضمونة في الداخل، ومن الواضح الآن أن قوة الروم البيزنطيين كانت تعتمد على القدرة البحرية بالدرجة الأولى، كما أن المنطقة الساحلية تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بالامبراطورية البيزنطية عن طريق أنطاكية ـ محور ما وراء الدروب ـ عبر جبال أمانوس، ويمكن التساؤل عما سيصير إليه الموقف لو لم يتوفر مثل هذا الوضوح في خطة الفتح وفي المحافظة

على الهدف؟ لقد بقيت المنطقة الساحلية معرضة للإغارات البحرية طوال العهد الأموي، رغم تكثيف الصوائف والشواتي، ورغم زيادة حجم التهديد البحري للامبراطورية البيزنطية، وعلى هذا فقد كان مخطط العمليات باعتماده على إقامة القاعدة القوية في الداخل إنما حقق الهدف، وضمن المحافظة على الهدف في وقت واحد، وبقيت المنطقة الداخلية هي القاعدة الصلبة باستمرار لحماية المنطقة الساحلية ودعمها في كل مرة تتعرض فيها للتهديد، وليس من قبيل المصادفة أن يركز الروم هجومهم المضاد، في العام (١٧هـ)، للاستيلاء على حمص، إذ لو تم لهم ذلك لانهارت المنطقة الساحلية بصورة آلية، كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن يتخذ أبو عبيدة من حمص مقراً دائماً لقيادته، في أواسط أعمال الشام، بحيث كان يستطيع توجيه قواته منها نحو كل اتجاه يتعرض للتهديد.

استطاع أبو عبيدة بن الجراح المحافظة على الهدف في كل مرحلة من مراحل أعماله القتالية، ولم تتمكن مقاومات الروم المتتالية تحويله عن هدفه، كما لم تتمكن مغريات سهولة الفتح أن تحوله عن محور عملياته، ومضى إلى أهدافه المتتالية، وفق مخططه الأساس بتصميم كبير، وبرهنت النتائج التالية على صحة تقويم «أبو عبيدة» وإلى أهمية التزامه بمبدأ المحافظة على الهدف، ولعل أبرز ما يبرهن عليه هذا الالتزام هو أن عمليات الفتوح لم تكن ضربة مباغتة في غفلة من الدهر، ولم تكن مرتجلة تعتمد على ردود الفعل، وإنما كانت تخضع لتخطيط دقيق ومحكم يحدد الهدف، ويضع ما هو ضروري من تدابير للمحافظة على الهدف.

٧ ـ وحدة القيادة

أخذ مبدأ وحدة القيادة في اكتساب أهمية متعاظمة يوماً بعد يوم، في ظروف الحرب الحديثة، حتى أن بعض العقائد القتالية، وضعته في مقدمة مبادئ الحرب، وكذلك فعل عدد من الكُتَّاب العسكريين. وتعتبر مثل وجهات النظر هذه أن المعركة ليست سوى تنسيق للتعاون بين القوى والوسائط المشتركة من أجل تحقيق النصر والوصول إلى هدف الحرب، وعلى هذا الأساس يصبح من المحال إدارة الحرب إن لم تكن هناك وحدة في القيادة. وقد برهنت تجارب الحرب، في كثير من الأحيان، أن عدم وحدة القيادة كثيراً ما كانت سبباً في

فشل عدد كبير من المعارك وخسارة بعض الحروب التي تعتمد على الحسم في معركة كبيرة واحدة. وتظهر سيرة «أبو عبيدة بن الجراح» أنه كان النموذج الأعلى للإيمان بوحدة القيادة والعمل بوحي من هذا الإيمان. فقد قاد أبو عبيدة قوات الدعم إلى معركة ذي القصة، وعندما اختلف مع عمرو بن العاص على القيادة قال له: «لقد أوصاني الرسول ﷺ وقال: لا تختلفا فإن أنت عصيتني أطعتك»، وأسلم القيادة لعمرو بن العاص. وقد قاد أبو عبيدة بعض سرايا الرسول وكان فيها كبار الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر، وعرف أن القيادة هي تكليف لتنفيذ واجب معين وليست تشريفاً أو مكافأة أو مغنماً، وتعلم أبو عبيدة عن هذه الطريق أهمية وحدة القيادة بقدر ما تعلم التمييز بين القيادة الاستراتيجية وبين قيادة العمليات، وكان مثل هذا التمييز واضحاً وبشكل رائع في تفكير «أبو عبيدة» وفي ممارسته لإدارة الحرب على مستوى العمليات.

كان أبو عبيدة واثقاً من نفسه ومن إمكاناته وقدراته، وكان يعرف مكانته من المسلمين، قادتهم وعامتهم، وكانوا جميعاً يعرفون له هذه المكانة ويحفظونها، ومن خلال هذه المعرفة يمكن تقويم أسلوب «أبو عبيدة» في وحدة القيادة إدراكاً وممارسة. فقد عرف أن النجاح في تنفيذ الواجب إنما يرتبط وإلى حد بعيد بوحدة القيادة وبوحدة العمل على كل المستويات، ولقد كان باستطاعة «أبو عبيدة» ممارسة استقلالية في العمل تبتعد عن مركزية السلطة، ولكنه كان سيحرم نفسه من إمكانات الدعم، كما كان سيحرم قواته من نتائج تنسيق التعاون مع بقية قوات المسلمين، سواء على جبهة الشام أو على الجبهات الأخرى، وكان من الصعب، في مثل هذه الحالة، توقع النتائج الخطيرة التي ستنتهي إليها عمليات الفتح بكاملها، مع احتمال ما يمكن أن يتعرض له المسلمون من نكبات أو كوارث.

تظهر قضية وحدة القيادة، بالنسبة لـ«أبو عبيدة»، على أنها قضية إيمان عميق وغير محدود بأهمية الهدف قبل كل شيء، وبالثقة المطلقة وغير المحدودة أيضاً بأمراء المؤمنين وبقادته ومرؤوسيه، وكان ذلك الإيمان، وتلك الثقة هما الموجهان له في أقواله وأعماله.

التزم أبو عبيدة بمبدأ وحدة القيادة التزاماً تاماً، وكان التزامه متكاملاً، فقد ترك أمور السياسة ـ الاستراتيجية لأمير المؤمنين حتى يقررها بنفسه، ومقابل ذلك فقد حرص على تحقيق المركزية القوية على مستوى مسرح العمليات، وكان

لا يسمح لأحد من قادته ومرؤوسيه بتجاوز حدود الواجبات التي يكلفهم بها، وقد يكون السبب في ذلك هو شعوره بمسؤوليته تجاه حياة جنده، ولكن رغم ذلك فإن هذا الشعور هو أحد مقومات شخصية القائد، ولا يتعارض في كل الأحوال عن متطلبات تحقيق مبدأ وحدة القيادة. ولم يكن أبو عبيدة في كل الأحوال ممن تغرُّهم القيادة أو تغريهم مراكز القوى بما تضمه من مميزات السلطة والسيطرة، وكان يعرف، كما يعرف المسلمون أيضاً، أنه فوق القيادة التي كان يمارسها، ويبرهن ذلك كله على أن التزام «أبو عبيدة» بمبدأ وحدة القيادة إنما كان التزاماً طوعياً ينطلق من الإيمان بالهدف الذي يعمل له، والذي يتولى قيادة المسلمين من أجله.

الفصل الثالث

قيادة «أبو عبيدة بن الجراح»

أ ـ أبو عبيدة بن الجراح وفن القيادة.

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجيستيك».

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين.

٣ ـ التحريض والحض على القتال.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين.

ب ـ أبو عبيدة وقوات المسلمين.

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ أبو عبيدة وما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية.

٥ ـ أبو عبيدة وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.

جـ ـ ما بعد «أبو عبيدة بن الجراح».

أ ـ أبو عبيدة بن الجراح وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجيستيك»

كان أبو عبيدة بن الجراح مسؤولاً عن تأمين الإمداد الإداري لقواته، وعلى الرغم من توافر المواد التموينية والإمدادات في مسرح العمليات، إلا أن هناك قيوداً صارمة قد فرضت لتأمين هذا الإمداد. فقد كان على قوات المسلمين تجنب الاستيلاء على المواد التموينية من المدنيين ومن أهالي البلاد غير المحاربين، كما كان على القوات تجنب الحقول المزروعة والبساتين وعدم إيذاء الأشجار المثمرة، مع ضرورة دفع ثمن كل ما تشتريه القوات، وقد أمكن في الواقع تأمين الإمداد الإداري باتباع الأساليب التالية:

أ ـ الحصول على المعلومات الدقيقة عن قوافل إمداد العدو وتموينه والإغارة عليها ومصادرتها لحساب قوات المسلمين، ولما كانت قوافل الإمداد غالباً ما تسير تحت حراسة جيدة، فقد نُظمت الإغارات بأعداد قوية حتى تتم إبادة الحامية المرافقة للقافلة ثم مرافقة الغنائم وحراستها حتى الوصول بها إلى مواقع قوات المسلمين.

ب ـ الاتفاق في نصوص المعاهدات المعقودة مع سكان البلاد على تأمين الإمداد الإداري للقوات، وكان يتم احتساب ثمن المواد التموينية من أصل الجزية المفروضة.

جـ ـ تأمين المتطلبات الضرورية من الأهلين، عن طريق الشراء والمبادلة، وقد توفرت لقوات المسلمين إمكانات جيدة بفضل ما حصلوا عليه من غنائم في معاركهم المتتالية (ويتضمن النظام الإسلامي على ما هو معروف توزيع أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين ويبقى الخمس لبيت الله)، وكان يُحتسب للراكب (الفارس) سهمان مقابل سهم واحد لجندي المشاة، وقد بلغت الغنائم في كثير من المعارك مبلغاً جيداً ساعد المشاة على التجهز بالخيول والتحول إلى قوات الفرسان.

وكان أبو عبيدة يحرص على تنظيم الإمداد الإداري بواسطة مفارز يتم التناوب فيما بينها، وذلك لتحقيق مجموعة من الأهداف.

أولها: إنقاص حجم القوات المكلفة بالتأمين الإداري حتى الحد الأدنى، وبحيث لا ينصرف المقاتلون عن واجباتهم من أجل تأمين متطلباتهم الحياتية.

وثانيها: حصر مسؤولية التأمين الإداري بعناصر معينة ممن ينفي كل إمكانية لحدوث احتكاك بين المقاتلين من المسلمين وبين أهل البلاد من غير المحاربين.

وثالثها: ضمان الأمن للقوات بحيث لا يضطر المقاتلون للابتعاد عن معسكر المسلمين.

هذا وكانت منطقة الشؤون الإدارية، تقع أثناء المعركة أو أثناء التوقف القصير، في مؤخرة قوات المسلمين، وكان النساء والأولاد يقيمون في منطقة الشؤون الإدارية ويعملون على تأمين الخدمات الضرورية سواء للمساعدة في إعداد طعام المقاتلين، أو من أجل إسعاف الجرحى ودفن الشهداء، أو حتى للاشتراك في القتال إذا ما تطلّب الأمر، على نحو ما حدث في اليرموك، وفي عدد من المعارك الأخرى. أما في حالة المسير فكان الرتل الإداري عادة ما يسير في قلب القوات أو في مؤخرتها بحسب الموقف وذلك من أجل حمايته.

تظهر أعمال «أبو عبيدة بن الجراح» أن اهتمامه بالشؤون الإدارية قد تركز على حرمان الروم البيزنطيين من مواردهم التموينية ومتطلباتهم الحياتية، وتأمين تعايش قوات العرب المسلمين على حسابهم، ولم تكن بلاد الشام محدودة الموارد الزراعية والاقتصادية حتى تشكل قوات المسلمين عبئاً عليها، كما أن متطلبات تلك القوات كانت محدودة نسبياً لسببين:

أولهما: أن حجم القوات بقي محدوداً وأقل بكثير من حجم قوات الروم التي كانت تتعايش على حساب بلاد الشام.

وثانيهما: أن متطلبات تلك القوات بقيت قليلة نظراً لما عرف عن المقاتل المسلم من زهد وتقشف.

وعلاوة على ذلك فقد كانت بلاد الشام، معروفة باسم إهراءات الرومان دلالة على خصبها وغزارة مواردها الزراعية التي تضمن إمداد الجيوش الرومانية الجرَّارة، وتؤمن لها الإمدادات بالأطعمة والأغذية، ويتأكد ذلك أيضاً من خلال وصول أول قافلة للإمداد إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام بقيادة «أبو عبيدة بن

الجراح»، وذلك عندما طلب أمير المؤمنين عمر إلى ولاته في الأقاليم إرسال الإمدادات لتأمين الطعام لسكان الجزيرة، عندما أُصيبت الجزيرة العربية بالقحط في عام الرمادة (١٧هـ).

وتبقى الظاهرة الأساسية في اهتمام «أبو عبيدة» بالشؤون الإدارية، وهي عدم إعطاء أفضلية التأمين الإداري على حساب متطلبات العمليات أو الواجبات التعبوية التكتيكية، وعلى سبيل المثال، فقد كانت أعمال الحصار الطويل تتطلب تأمين المتطلبات الضرورية كالمجانيق والأوهاق والحبال... إلخ، ولكن المحافظة على فضائل جيش المسلمين، وفي طليعتها المرونة وخفة الحركة، وتوفر الرغبة بعدم إرهاق القوات بالأعباء الإدارية التي تتطلبها أعمال الحصار، فرضت تجنب محاولات الاقتحام بالقوة واللجوء إلى المناورات الخداعية لإخراج المقاتلين من حصونهم وأسوارهم، والدخول معهم في معركة تصادمية تتوافق ومعطيات العقيدة القتالية الإسلامية، وبذلك عمل أبو عبيدة على تطوير الأساليب التعبوية والعملياتية للتعويض عن القصور في الإمداد الإداري بالمعدات الهندسية، مما أدى بصورة غير مباشرة إلى تطوير فن الحرب.

تأتي بعد ذلك الظاهرة الثانية، والتي لا تقل أهمية عن الأولى في مجال الاهتمام بالشؤون الإدارية وهي عدم حل هذه المشكلة على حساب غاية المسلم. ومن المعروف أن جيوش العالم القديم والحديث تدمر كل ما تصادفه في طريقها، أحياناً من أجل تأمين متطلباتها الإدارية، وأحياناً لحرمان العدو من هذه المتطلبات، وفي أحيان أخرى من أجل تحقيق هدف التدمير في حد ذاته، بسبب ضعف الانضباط وفقد السيطرة على القوات وتعاظم روح الحقد وحب النهب لدى القوات، ولكن فضائل جيش المسلمين وأسلوب «أبو عبيدة» في إدارة الحرب كانت كلها ضوابط قوية وصارمة ضمنت التأمين الإداري للقوات بدون الإساءة لأهل البلاد، وبدون إلحاق ضرر يعيق عملية بناء مجتمع المسلمين[1]. وتبقى قضية الاهتمام بالشؤون الإدارية عند «أبو عبيدة بن الجراح»

---

(١) يقابل هذه الصورة، في القرن السابع الميلادي، صورة جيش نابليون بونابرت في القرن الثامن عشر، والذي عمل على تدمير المناطق التي يعيش فيها لتأمين إمداداته الإدارية، وكان الامبراطور يقر بأنه ليس في وسع نظامه الحربي قبول انضباط قاس، نظراً لأن جنوده لا يعيشون على الإعاشة المنظمة، وكان محظوراً أن يتحدث أحد إلى الامبراطور بذلك. وتظهر الصورة المناقضة أيضاً لفشل التوفيق بين عمل الجيوش وبين تأمين متطلباتها الإدارية ضمن حدود تحقيق =

قضية مقيدة بضوابط صارمة ووسيلة لتأمين الحد الأدنى من متطلبات القوات الضرورية، وبما لا يعيق الإفادة من فضائل قوات المسلمين في الحرب، ولا يعيق تحقيق غاية السلم بعد الحرب، وهنا يظهر أبو عبيدة بن الجراح نموذجاً فريداً بين قادة تاريخ الحرب، كما يظهر جيش المسلمين جيشاً فريداً في فضائله وخصائصه.

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

المقصود في «العنف في القضاء على أعداء المسلمين» هو ذلك العنف الذي يهدف إلى تصفية أعداء الإسلام بصورة شخصية نظراً لمواقفهم المناوئة للإسلام، أو بسبب نكايتهم بالمسلمين والكيد لهم، وهو غير استخدام العنف بالحرب، إذ أن استخدام العنف في الحرب، هو مبدأ أساسي في حروب المسلمين التي تهدف باستمرار إلى الحسم في المعركة، ومن المحال التفكير بالحسم أو الوصول إليه عن غير طريق إبادة قوات الخصم وقتل كل من حمل السلاح ضد المسلمين.

لم يُعرف عن «أبو عبيدة بن الجراح» أنه لجأ إلى العنف في القضاء على أعداء المسلمين إلا عندما تصدى له أبوه في معركة بدر الكبرى، وقد حاول أبو عبيدة مرات كثيرة تجنب الصدام المباشر مع أبيه وفاء لحقوق الأبوة، والتزاماً بتعاليم الإسلام، وتوصيات الرسول ﷺ، الذي كان يوصي بالطاعة للأبوين إلا في حدود عدم معصية الخالق، وعندما وجد أبو عبيدة أنه مُكْرَهٌ في النهاية على مجابهة أبيه عمل على قتله، فنزلت فيه الآية الكريمة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة/ ٢٢]. وواضح أن «أبو عبيدة» قد رغب في تجنب العنف، وبصورة خاصة والأمر متعلق بأقرب الناس إليه، إلا أنه لم يتردد عن اللجوء إليه عندما وجد نفسه أمام مأزق لا مخرج منه إلا بالعنف.

والعنف في الحرب، بعد ذلك، طبيعة ملاصقة للصراع، إذ لو انتفى العنف

= غاية السلم، من خلال ما تعرَّض له الجيش الإفرنسي في الجزائر العربية، حيث وضع الجنرالات مبدأ الاجتياح التخريبي كعقيدة للقتال في الجزائر، . . . فلم يحرقوا البلاد سراً، ولم يذبحوا الأعداء وهم ينظمون الشعر الإنساني، بل كانوا يحصلون على المجد من جرّاء ذلك ـ المؤلف ـ.

لانتفت صفة أساسية من صفات الحرب. وقد كان أبو عبيدة محارباً من الطراز الأول في جيش النخبة المختارة، فكان من الطبيعي أن يستخدم العنف في الحرب حتى حدوده القصوى، ولهذا فما أن انتهت معركة اليرموك حتى وجه أبو عبيدة مفارز للفرسان بهدف إبادة فلول القوات المنهزمة. وفي المعارك التالية حرص أبو عبيدة على تدمير قوات العدو تدميراً شبه كامل في معركة مرج الروم بصورة خاصة، ولكن الظاهرة المميزة هي تقنين الحرب بدقة بحيث تقتصر على محاربي العدو، وفي إطار ميدان المعركة[1]. ويمكن اعتبار ظاهرة العنف في القضاء على أعداء المسلمين، سواء على المستوى الفردي، أو على مستوى الصراع المسلح في ميادين القتال، إحدى الوسائل التكميلية لتدمير الاختلاف الكبير في ميزان القوى وتحويله لمصلحة العرب المسلمين، كما يمكن اعتبار هذه الظاهرة أيضاً وسيلة تكميلية لتحقيق استراتيجية الهجوم غير المباشر، وردع أعداء المسلمين عن التفكير في مجابهة قوات العرب المسلمين، ويتأكد ذلك من خلال التقنين المحكم والدقيق في الفصل بين أسلوب التعامل مع المحاربين الذي يعتمد على العنف، وبين أسلوب التعامل مع غير المحاربين والذي يعتمد على اتفاقيات الصلح والمهادنة، واكتساب ثقة المواطنين من خلال تعريفهم بمبادئ الدين الإسلامي وقواعده، ويمكن، بدون مبالغة، اعتبار القائد «أبو عبيدة بن الجراح» نموذجاً رائعاً، وأمثولة تجسد كل الفضائل الحربية التي سبق ذكرها، وأبرزها تقنين الحرب والتحكم فيها بكفاءة عالية.

٣ ـ التحريض والحض على القتال

وضع الرسول ﷺ أساس تقاليد الحرب عند العرب المسلمين، ومنها الحض

---

(١) لقد حاولت جيوش العالم، قديمها وحديثها، تقنين الحرب، والفصل بين المحاربين وغير المحاربين، ولكن جميع الجيوش فشلت في ذلك ـ باستثناء بعض الحالات الخاصة ـ وتشير الشواهد الحديثة إلى اتجاه الحرب نحو مزيد من التطرف في أعمال العنف، وعدم التمييز بين المحاربين وغير المحاربين، سواء في الحروب الثورية، كما حدث في الجزائر وفييتنام، أو في الحروب النظامية. وتشير التقديرات إلى أنه قد سقط في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) (١٨) مليون مدني قتيلاً مقابل (١٢) مليون عسكري. وتشير توقعات استخدام القنبلة الذرية إلى احتمال سقوط قتيل واحد مقابل جريح واحد في الجيوش، و٢,٥ قتيلاً مقابل جريح واحد في السكان المدنيين، على حين لم تكن المقاييس العسكرية تتجاوز في السابق قتيلاً واحداً مقابل (٣) أو (٤) جرحى.

على القتال التزاماً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال/ ٦٥]. وأخذت بعد ذلك تقاليد حرب العرب المسلمين في التشكل حتى أصبحت نظاماً متكاملاً يمثل الفضائل الحربية لجيوش العرب المسلمين. فكانت الحرب تبدأ بالتنظيم والاستعداد للمعركة، ثم الصلاة وقراءة سورة الجهاد وتعميم شعار المعركة، وانطلاق القادة للتحريض والحض على القتال. وقد نقل عن «أبو عبيدة» مقتطفات من مواقفه في الحض على الجهاد والتحريض على القتال، ومنها ما قاله في اليرموك: «عباد الله! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله! اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار. لا تتركوا مصافَّكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت، إلا من ذكر الله ﷻ في أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله»، ومما قاله في معركة بعلبك: «اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم، ولا تقدرون على سفر ولا على غيره».

يظهر للوهلة الأولى، وبشكل واضح، أن أسلوب «أبو عبيدة» في التحريض على القتال إنما يمثل ما يطرح في عملية تنسيق التعاون قبل المعركة بهدف تحديد واجبات المقاتلين وتصوير أسلوب المعركة وتصورات القائد لها، مع ما يمكن مجابهته من احتمالات، بالإضافة إلى إبراز أهمية المعركة بالنسبة لمسيرة الأعمال القتالية.

يبدأ أبو عبيدة حديثه إلى المقاتلين، وهو يحرضهم على القتال، فيقول لهم: «عباد الله! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله! اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار». ويلاحظ أن جميع القادة يشتركون في التحريض على القتال بمثل هذه المقدمة، فالنصر أبداً من عند الله، والثقة كبيرة بأن ينصر الله عباده المخلصين في الجهاد، الذين خلفوا الدنيا وراءهم وأقبلوا على الآخرة يبتغون رضاء الله ومغفرته: وقد وعدهم الله بالنصر ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال/ ٦٥] وقد تحقق المسلمون بأنفسهم بأن (الله صدق وعده، وأعز جنده)، فقد خاضوا معارك كثيرة كان فيها ميزان القوى باستمرار في غير صالح المسلمين، وكان النصر فيها باستمرار إلى جانب المسلمين، ولم يبقَ لدى المسلمين ريبة أو شك بصدق

وعد الله للمسلمين إن هم صدقوا النية، وإن هم أخلصوا في عملهم. فكان تذكير القادة للمقاتلين بضرورة الإخلاص في الجهاد حتى يصدق الله وعده، شرطاً بشرط، إخلاص المسلمين مرتبط بصدق الوعد والتأييد بالنصر من قبل الله ﷻ. ويأتي بعد ذلك تقرير المبادئ الخاصة بتنسيق التعاون «لا تتركوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق». وقد لا تكون هناك حاجة لإبراز أهمية هذه التوصيات، فجيش الروم كان يعتمد على قوة الصدمة التي تزيل من أمامها كل قوة، وجيش المسلمين كان يعتمد على المرونة، ولم يكن باستطاعة هذه المرونة أن تجابه قوة الصدمة، ولهذا فقد نظم القادة قواتهم في اليرموك على أساس الإفادة من ميزات الأرض وتكوين جدار صلب يمكن له امتصاص قوة صدمة الروم، ثم الإفادة بعد ذلك من مرونة قوة المسلمين لتوجيه ضربة مضادة يمكن لها إحداث ثغرة في الجدار الصلب لقوات الروم، وعلى هذا الأساس أوصى أبو عبيدة قواته بالالتصاق بالأرض، وعدم الخروج على الصف، أي البقاء في أنساق المقاتلين، وعدم التحرك ولو خطوة واحدة في اتجاه الروم، وترك الروم يتقدمون بقوة فرسانهم للاصطدام بجدار قوة المسلمين حتى تتكسر حدة الهجوم، وحتى تتوفر الفرصة المناسبة للهجوم المضاد. وقد حدد أبو عبيدة استخدام الرماح لامتصاص صدمة الفرسان الثقيلة لقوات الروم. وكان أبو عبيدة يتوقع أن يقوم مشاة الروم بالرمي بغزارة لدعم قوة الفرسان المتقدمة، ولهذا فقد أوصى قواته باستخدام التروس والدرق للوقاية من رمي المشاة.

بكلمات قليلة أوجَزَ أبو عبيدة بن الجراح قصة المعركة بكاملها، وحدَّد بدقة أسس تنظيم التعاون للمعركة، والأمر الأكثر أهمية هو أن قصة المعركة قد أبرزت الخصائص الأساسية لقوات العرب المسلمين والقوات المقابلة لهم، مع تحديد أسلوب العمل المناسب لمعالجة خصائص تفوُّق قوات العدو، والإفادة من قوات المسلمين. ولعل مثل هذا الموقف، لو تم طرحه في ظروف الحرب الحديثه لاحتاج إلى إيضاحات كثيرة، ولكن المعرفة المشتركة بين القائد وجنوده لكل ما يتعلق بظروف المعركة كان يعوض عن الحاجة للمزيد من الإيضاح.

ويتعمد أبو عبيدة إبراز أهمية هدف الحرب من خلال التحريض على القتال، فيقول لجنوده في معركة بعلبك: «اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم، فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم، ولا تقدرون على سفر ولا

على غيره». وهنا لا تنبع أهمية هدف الحرب من قيمته المطلقة، وإنما من العوامل المكونة له، فأهمية بعلبك تنبع من موقعها المتوسط بين مدن الشام ومِنْ تحكُّمها بعقدة الاتصال بين شمال بلاد الشام وجنوبها، وبين الداخل والساحل، ونظراً لأن طبيعة التحرك في الحروب القديمة كانت مرتبطة بمحاور العمليات ومحاور الاتصالات، فإن الاستيلاء على بعلبك يكتسب أهمية خاصة أبرزها أبو عبيدة في تحريض جنده على القتال. وتبرز النقطة الثانية في التحريض من خلال التزام المسلمين بحماية أهل البلاد من كل عدوان، ولهذا يضع أبو عبيدة هذا العامل في طليعة العوامل المكوِّنة لأهمية الهدف، إذ أن عدم استيلاء المسلمين على بعلبك سيجعلها وبالاً على من صالحوا المسلمين من أهل البلاد، وهو يعطي هذا العامل أهمية تزيد على أهمية العامل الأخير، وهو عدم تمكن قوات المسلمين من السفر أو التحرك إذا ما بقيت بعلبك في قبضة أعداء المسلمين.

يخاطب أبو عبيدة بن الجراح عقول جنده بمثل ما يستثير قلوبهم وحماستهم، وقد لا يكون جند المسلمين في حاجة لما يثير حماستهم، ولكنهم كانوا وباستمرار في حاجة لمعرفة أهدافهم المتتالية، وهم في حاجة أيضاً لمعرفة الموقف الذي يجابهونه. وكان أبو عبيدة في تحريضه على القتال حريصاً على تحقيق ذلك، والاستجابة لرغبة جنوده، فكان يلخص لهم الموقف بكلمات قليلة، وكانت هذه الكلمات أقرب إلى أمر القتال الوجيز منها إلى تنسيق التعاون التفصيلي، ولكنه يجمع في واقعه إيجاز أمر القتال إلى تعليمات تنسيق التعاون، وبذلك يمكن اعتبار «أبو عبيدة» رائداً من رواد قادة العرب المسلمين الذين وضعوا أساس فكرة تنسيق التعاون بمفهومها الحديث. وعلى الرغم من عمل قادة العرب المسلمين جميعاً على جعل التحريض على القتال من تقاليد القتال الإسلامية وذلك التزاماً منهم بتعليمات العقيدة الدينية، وانتهاجاً لسُنَّة الرسول ﷺ؛ إلا أن «أبو عبيدة» قد طور هذه التقاليد من خلال التوفيق بينها وبين ظروف القتال، مما أكسب تلك التقاليد المرونة وجعلها متوافقة مع كل الظروف ومحقِّقة للأهداف الأساسية التي حددتها العقيدة الدينية الإسلامية.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر

الخطر صفة ملازمة للحرب، وهي طبيعة من طبائعها ولا يمكن فصلها عنها،

والشجاعة صفة مناقضة للخوف بحيث لا يمكن فهم إحدى الصفتين إلا من خلال فهم الأخرى. ونظراً لأن الصفتين نوعيتان، فإنه من الصعب قياسهما بالمقاييس المتعارف عليها. وعلى الرغم من وضع الروائز الحديثة في علم النفس لمعرفة ما هو متوفر لدى الفرد من عوامل الخوف أو الشجاعة، فإنه لا زال من الصعب الوصول إلى تقويم صحيح ودقيق يمكن له الكشف عن مقدار الشجاعة المتوفرة لدى الفرد أو نوعيتها، لا سيما وأن أنواع الخوف متباينة، كالخوف من الظلمة أو الخوف من المجهول أو الخوف من الفراغ... إلخ، وقد يكون هناك خوف من نوع معين، كالخوف من الظلمة في حين لا يكون لدى الفرد مخاوف أخرى مما يجعل عملية التقويم غير كاملة وغير دقيقة، ومقابل ذلك فالشجاعة بدورها أنواع، فهناك الشجاعة المعنوية أو الأدبية، وهناك الشجاعة الجسدية بمعنى التهور أحياناً، والمهم في الأمر هو أن تقويم الشجاعة يتطلب بالضرورة الكشف عن العوامل التي تساعد الفرد على مجابهة الموقف الخطر بردود فعل صحيحة.

لقد عالج الاختصاصيون موضوع الشجاعة في مواجهة الخطر خلال الحروب الحديثة، وعكف علماء النفس وعلماء الاجتماع وخبراء الإعلام على بحث جميع الظواهر المرضية الناتجة عن الخوف ـ وبصورة خاصة في الحرب العالمية الثانية وفي الحرب الفييتنامية ـ، كما عالجوا الفوارق الفردية والعوامل المختلفة التي تمنح المقاتل مزيداً من القدرة على مجابهة ظروف القتال الصعبة، وظهر في النهاية أن أفضل علاج لدعم الشجاعة في مواجهة الخطر هو أن يثق المقاتلون بقدرهم، وأنه إذا كان لهم نصيب في الحياة فلن يصيبهم مكروه، هذا إلى جانب تزيين أهداف الحرب، وتجميل القتل في سبيل الواجب، ولم تحقق جميع البحوث والدراسات أكثر من دعم القدرية، التي جاء بها الإسلام قبل (١٣) قرناً من الزمن، ولم تتمكن كل الجهود من إنتاج فكرة تزيد على ما بشر به الإسلام المجاهدين في سبيل الله، وهي بشرى إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

كان أبو عبيدة بن الجراح في طليعة المسلمين إيماناً وصبراً واحتساباً في سبيل الله، وكان في مقدمة المجاهدين معرفة وفقهاً وإدراكاً لما تضمنه الإسلام، وقد برهنت سيرة حياته كلها على أنه ما أراد في عمل من أعماله غير الآخرة، وغير الحصول على رضاء الله والإخلاص في طاعته، فليس غريباً أن لا يخشى مخلوقاً، حيث توفرت له بذلك الشجاعة الأدبية أو المعنوية، وأن لا يخشى

شيئاً، فتوفرت له الشجاعة الجسدية التي ساعدته على احتمال كره القتال، وعدم الخوف من كل ما تحمله الحروب من أخطار، وتجمعت له الشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية، فكان نموذج القائد الشجاع، وتوفرت له الكفاءة القيادية، فكان نموذج القائد الناجح.

ويتأثر عامل الشجاعة تأثراً كبيراً بالجهد البدني المبذول، وبظروف القتال الصعبة، وكانت حروب المسلمين عامة عبارة عن مسيرات طويلة وشاقة في ظروف صعبة، كما كانت معاركهم قاسية وصعبة أيضاً، لا سيما وأنها كانت تتم كلها في إطار من عدم التكافؤ، ورغم ذلك كله فقد قاد أبو عبيدة جيش المسلمين من نصر إلى نصر، ولم يظهر أثر التعب أو نتيجة الجهد المبذول على أي عمل من الأعمال، حتى كأن من يقرأ سيرة الفتوحات يحسبها، للوهلة الأولى، أنها مجرد معارك حالفها النصر، وتضيع تحت أعلام النصر كل الجهود المبذولة وكل التضحيات التي قدمت ثمناً للنصر. وقد يكون من السهل تصور مسيرة القوات من عمق الجزيرة العربية حتى أقصى حدود بلاد الشام، ولكن مجرد محاولة التفكير بمتابعة خطط التحرك، وتصور الوسائط المستخدمة لتنفيذ الأعمال القتالية، ثم مقارنة موازين القوى، كل ذلك هو أمر كافٍ لتكوين قناعة بما كان عليه أبو عبيدة، ومعه جند المسلمين من الشجاعة التي لا يمكن قياسها حتى بأحدث الروائز والمقاييس.

لقد كان أبو عبيدة ومعه قادة المسلمين ومقاتلوهم، يستمدون من إيمانهم العميق كل فضائل الشجاعة، وكانت قوة هذه الشجاعة أشد من كل العقبات والصعاب، حتى كان المسلمون يجابهون الخطر وكأنهم يلعبون، وليس من الغريب بعد ذلك أن يخضع النصر لقادة من أمثال «أبو عبيدة» وأن ينقاد الفوز والنجاح لجند من نوعية جند المسلمين.

وتبرز فضيلة الشجاعة في مواجهة الخطر مرة أخرى قضية انتصار النوعية على الكمية، وهي قضية برهنت كل الحروب الحديثة على صحتها، فليست الحروب كلها قضية إمكانات ووسائط وقوى، وإنما هي قضية نوعية ممتازة بالدرجة الأولى، وقضية فضائل حربية قبل كل شيء[1].

---

(١) لقد أوجز ابن خلدون، العالِم العربي ومؤسس علم الاجتماع، عوامل النصر فقال: «لا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد، وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل =

٥ ـ القرارات الصحيحة

يصعب انتقاء موقف معين، أو قرار محدد، للبرهان على أن جميع قرارات «أبو عبيدة بن الجراح» كانت صحيحة، وذلك لأن النصر كان حليفه دائماً، وإذا كانت نتائج القرارات هي البرهان الدقيق على خطأ القرارات أو صحتها، فقد كانت نتائج قرارات «أبو عبيدة» كلها ناجحة ومحققة لغاية السلم وهدف الحرب، ومن هنا تأتي صعوبة الانتقاء.

لقد كان أبو عبيدة «**مكيثاً**» والحرب لا يصلح لها إلا **المكيث** المتزن، الذي لا يبحث عن النصر السهل وإنما الذي يبحث عن النصر المضمون، وليس ذلك فحسب وإنما النصر الذي يحقق الحسم في الحرب، وكانت حروب «أبو عبيدة» ومعاركه كلها حاسمة.

وفن القيادة هو فن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب وتنفيذه بالشكل المناسب، ولقد باتت عملية اتخاذ القرار معروفة، ولكنها لم تكن كذلك، يقيناً، في عهد الفتوح، ربما بصيغتها العلمية، لكن أسلوب «أبو عبيدة» يبرهن على ممارستها عملياً. وإذا كان من الصعب انتقاء موقف معين أو قرار محدد، للبرهان على صحة قرارات «أبو عبيدة» جميعها، فإنه ليس من الصعب اختيار نموذج معين وتعميمه على بقية المواقف، ذلك لأن أسلوب «أبو عبيدة» في هذا المجال كان متشابهاً وواحداً، وإن هذا التشابه في أسلوب العمل إنما هو برهان في حد ذاته على الطابع الشخصي الذي ميز أعمال «أبو عبيدة»، وهو أيضاً برهان على أن هذا الأسلوب لم يكن عفوياً لمجابهة موقف طارئ وإنما كان أسلوباً مبرمجاً عملياً وعلمياً بحسب الطرائق الحديثة في أساليب القيادة.

= البخت والاتفاق، وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها، وكمال الأسلحة واستجادتها، وكثرة الشجعان وترتيب المصاف، ومنه صدق القتال، وما جرى مجرى ذلك من أمور خفية، وهي إما من خداع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل، وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهَّم المنخفض لذلك، وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيئلمون إلى النجاة وأمثال ذلك، وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة إلخ..». مقدمة ابن خلدون، تصحيح الهوريني، ص١٣٥، فصل: ولا وثوق في الحرب بالظفر.

يمكن هنا العودة من جديد إلى معركة فتح حمص، حيث تقدم أبو عبيدة بعد أن دفع مقدمة لوائه، وبعد أن جمع المعلومات الكافية عن الموقف، وكان أول عمل مارسه هو تنظيم حصار المدينة، ثم إرسال مفارز الاستطلاع في كل اتجاه، مع إرسال قوات من الفرسان حتى أفق المعركة البعيد، بهدف عزل حمص عن كل ما يحيط بها، وممارسة الضغوط الاقتصادية والعسكرية على الحامية المدافعة عن المدينة. وانصرف أبو عبيدة بعد ذلك إلى معالجة الموقف بهدوء وبدون التهديد بتدخل خارجي يحبط جهوده، أو ينال غرة من قوات المسلمين. وقد اشتملت معالجة الموقف على جمع المعلومات عن قوات العدو ودراسة الموقف والطبيعة الجغرافية وقوة التحصينات، وكل ما يتعلق بتحقيق الهدف، وبذلك اكتملت عند «أبو عبيدة» عناصر تقدير الموقف، وأصبح بالإمكان اتخاذ القرار المناسب. و قد اتخذ أبو عبيدة قراره بتنفيذ مناورة خداعية على مستوى العمليات، واختار الوقت الصحيح ونفذ مناورته، وأمكن تحقيق النجاح الرائع بعد أن طال الانتظار، وقد كان النجاح رائعاً لأنه حقق جميع المعطيات التي تمت المعركة من أجلها، ولأنه نفذ معركته بجهد مقبول.

كانت عملية فتح حمص مشابهة في أسلوبها وطرائقها لما سبق تنفيذه أثناء فتح دمشق، وهي مشابهة أيضاً لما تم تنفيذه بعد ذلك أثناء فتح اللاذقية بصورة خاصة، وهذا في حد ذاته برهان حاسم على أن عمليات الفتوح بكاملها لم تكن مرتجلة تعتمد على ردود الفعل وعلى الصدفة الطارئة أو ضربة الحظ، وإنما كانت نتاج تخطيط دقيق محكم، وثمرة جهد دؤوب ومستمر.

ويمثل أبو عبيدة بن الجراح في الحالات جميعها نموذج القائد المبدع في تفكيره وأسلوبه القيادي، وإذا كان من الصعب في فترة الفتوحات التعبير عن ذلك بأسلوب علمي، فقد طبق أسلوبه عملياً، وتكونت بنتيجة ذلك مدرسة تضع البحث والتفكير أساساً لكل عمل قتالي ناجح. ولقد تعرض أبو عبيدة أثناء ممارسته لقيادته إلى بعض مآزق الحرب، ولكن هذه المآزق لم تخرجه عن طبيعته، ولم تتمكن من إرغامه على تغيير أسلوبه، ويظهر ذلك أثناء هجوم الروم على حمص، فقد اقترح قسم كبير من القادة، وفي طليعتهم خالد بن الوليد، القيام بهجوم مضاد مباشر لتدمير قوات الروم، لكن «أبو عبيدة» رفض الاقتراحات التي تخالف أساليبه القتالية، فعمل على تطوين المأزق وأخبر

الخليفة، وتابع دراسة الموقف، إلى أن وجد الفرصة المناسبة لاتخاذ القرار ووضعه موضع التنفيذ، فكان النصر الحاسم.

لم يكن أبو عبيدة بن الجراح بعد ذلك مقلداً وإنما كان قائداً مبدعاً، فقد وغل الإيمان في قلبه وفهم الإسلام بعقله، واستوعب الطرائق والأساليب التي كونت نواة العقيدة القتالية الإسلامية بحسب ما وضعها الرسول القائد ﷺ، ثم انصرف لقيادة الحرب، مطبقاً من المبادئ ما هو مناسب لكل موقف، مستخدماً من الأساليب ما هو مناسب لكل مأزق من مآزق الحرب، كل ذلك وجهاً لما يراه وبحسب طريقته الشخصية، فطور من خلال العامل الشخصي المبادئ والأسس بحيث ظهرت بعض تلك المبادئ والأسس وكأنها جديدة، وهي ليست كذلك. ويبرز من خلال هذا النموذج تفاعل العوامل الثلاثة التي حققت للمسلمين انتصاراتهم الخالدة (عقيدة قتالية متكاملة ومغايرة لكل ما سبقها، وتشكل ظلالاً متقدمة إلى أكثر من عشرة قرون، بحيث كان من المحال على الجيوش المعادية فهمها أو إدراكها، ثم قيادة على درجة عالية من الكفاءة بحيث كانت قادرة على التكيف مع مآزق الحرب وإيجاب الحلول الصحيحة لها، كل ذلك إلى جانب جيش من المجاهدين في سبيل الله ما عرف التاريخ له مثيلاً).

٦ ـ حماية المرؤوسين

لم يكن أبو عبيدة بن الجراح، وهو يلتزم في كل مواقفه بمبدأ حماية المرؤوسين، إلا نموذجاً للقائد العربي المسلم الملتزم، حتى أبعد الحدود، بعقيدة الإسلام الدينية وعقيدتهم القتالية. فالحرص على المقاتل المسلم إنما هو حرص على أخ عزيز، يحمل أعباء الرسالة ويضطلع بأعباء الواجب، وعلى هذا لم يكن حرص «أبو عبيدة» على تطبيق مبدأ حماية المرؤوسين هو حرص انفعالي، أو بحثاً عن مغنم سياسي لتكوين قاعدة جماهيرية، بحسب التعبير الحديث، وإنما من أجل ضمان الظروف المناسبة لتنفيذ الواجب والإبقاء على قوة المسلمين. (ولقد آخت العقيدة الدينية الإسلامية بين المسلمين جميعاً، وجاء أسلوب «أبو عبيدة» القيادي تعبيراً عن هذه الأُخوة الصحيحة والصادقة).

لقد تطلبت العقيدة القتالية الإسلامية تحويل شعار الأُخوة الدينية إلى أسلوب عملي يمثل أخوة السلاح، فكانت مبادئ الحرب كلها محققة لهذا الهدف الكبير، فلم تكن مبادئ الاهتمام بالشؤون الإدارية، والعنف في القضاء على

أعداء المسلمين، والقرارات الصحيحة إلا تعبيراً عملياً يحقق مبدأ حماية المرؤوسين وفق قاعدة الأخوة، وليس ذلك فحسب بل إن الأسس الاستراتيجية للعقيدة القتالية قد هدفت تحقيق مبدأ حماية المرؤوسين، ولم تكن استراتيجية الهجوم غير المباشر أكثر من ترجمة عملية لتحقيق الهدف ضمن حدود حماية المرؤوسين.

لقد كان مبدأ حماية المرؤوسين في طليعة المبادئ التي أظهرت فضائل جيوش العرب المسلمين، ولم تكن هذه الفضائل من الشواهد المميزة للمستويات القيادية، وإنما كانت قاسماً مشتركاً بين القوات جميعها، وليست عملية حماية كل مسلم لأخيه في الحرب، على ما هو معروف، وفداء كل مقاتل لأخيه بنفسه سوى التعبير العملي لصدق الأخوة، وسوى تعميم لمبدأ حماية المرؤوسين على جميع مستويات المقاتلين وقياداتهم.

وتظهر هذه الأخوة بكل أبعادها في الرغبة المشتركة لحمل أعباء القتال بصورة متعادلة ومتساوية، وليس ذلك فحسب، وإنما الابتعاد عن التمايز في أي موقف، ولعل تصميم «أبو عبيدة» على البقاء مع قواته عندما انتشر الطاعون، ورفض اقتراح أمير المؤمنين عمر بمغادرة منطقة الوباء والرد على أمير المؤمنين بعبارة «إني من جند المسلمين، لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه». ولم يكن أبو عبيدة يجهل يقيناً أن خروجه من منطقة الوباء قد يكون أكثر نفعاً للمسلمين من بقائه فيها مع احتمال تعرضه لخطر العدوى، ولكنه كان يرغب يقيناً في أن يشارك جند المسلمين مصابهم طالما أنه لا يستطيع دفع الوباء عنهم، حتى إنه كان ينادي الله ﷻ بقوله: «اللهم نصيبك في آل عبيدة» ويقصد أن ينزل بآل «أبو عبيدة» ما نزل بالمسلمين، فكان مبدأ حماية المرؤوسين ينطلق من هذا الشعور الصادق ومن هذا الإيمان العميق.

لقد كان قادة العرب المسلمين سواء في التزامهم بمبدأ حماية المرؤوسين، ولكن «أبو عبيدة» رغم ذلك يبقى رائداً في هذا المجال، من حيث ترجمة مضمون المبدأ النظري إلى واقع عملي، ومن حيث اتباع كل الطرق وتطوير كل الأساليب التي يمكن لها تحقيق هذا المبدأ، وكان رائداً قبل كل شيء من حيث إقامة هذا المبدأ على أساس الأخوة في الدين، وعلى أساس أخوة السلاح لتنفيذ الواجب المشترك.

ب ـ أبو عبيدة وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

كان نداء «يا خيل الله اركبي» عند المسلمين يشبه نداء «إلى السلاح» في الجيوش الحديثة، ذلك أن قوة الخيل أو قوة الفرسان كانت تمثل قوة الصدمة في جيوش العرب المسلمين، وكانت هذه القوة هي المسؤولة عن مجابهة كل مباغتة محتملة، وكان يتم العمل لمجابهة المباغتة على أساس تدخل قوة الحرس، فإذا عجزت هذه القوة عن مجابهة الخطر، استنفرت قوات الفرسان وتم دفعها إلى المعركة ريثما يتم تنظيم بقية القوات بعيداً عن كل خطر، وبذلك يتم تطويق المأزق.

وقد تردد في مرات كثيرة أثناء مسيرة الفتوح أن قوات المسلمين كانت لا تبيت ولا تصحو إلا على تعبئة، وبذلك كانت في حالة استعداد دائم للقتال. وقد حاول الروم في مرات عديدة مباغتة قوات «أبو عبيدة بن الجراح» ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من إصابة غرَّة المسلمين أو مباغتتهم. ويتعلق الاستعداد الدائم للقتال بفضائل المقاتلين الحربية أكثر مما يتعلق بكفاءة القيادة، فالقيادة تضع كل الإجراءات، وتتخذ كل التدابير لتحرك القوات وتوقفها وتحديد واجباتها في كل مرحلة، ولكن يبقى التنفيذ متعلقاً بفضائل الجنود وروحهم المعنوية وإيمانهم بالهدف وحماستهم للقتل والقتال، وقد برهنت مسيرة أعمال الفتوح على أن «أبو عبيدة بن الجراح» قد حرص في كل مراحل القتال على توجيه المقاتلين وقيادتهم بكفاءة عالية، وبرهنت مسيرة أعمال الفتوح أيضاً أن الفضائل الحربية في وسط المقاتلين المسلمين لم تكن دون مستوى كفاءة قيادتهم، ومن هنا تظهر الاستجابة الكاملة لدى المجاهدين لما كان يطلب إليهم تنفيذه.

ما كانت مسيرة الفتوح مجرد رحلة عبر المفاوز والصحارى، ولا كانت حتى مجرد اختراق للسهول والجبال، وإنما كانت أيضاً أعمالاً قتالية يتصل فيها الليل

بالنهار، وتختلط فيها الأعمال الدفاعية وعمليات الحصار بالأعمال الهجومية وعمليات الاقتحام، مع احتمال الاشتباك في كل وقت وفي كل منطقة، وبذلك كان الجهد المبذول يتجاوز الحدود القصوى لكل ما هو متوقع، ولكل ما هو معروف، وقد يكون من السهل الجلوس بهدوء وفي مناخ تتوفر فيه كل شروط الراحة الجسدية والنفسية والتحدث عن مشاق القتال في فترة الفتح، وقياس المواقع والمسافات بمقاييس الخرائط، ولكن تقويم درجة الاستعداد القتالي تتطلب في الواقع ما هو أكثر من ذلك. إنها تتطلب، وببساطة، تجربة اختراق الصحراء العربية تحت وهج الشمس اللاهبة، وفوق الرمال الحارقة، بمثل ما كانت عليه الوسائط المتوفرة، ثم تجربة زج القوات بعد التحرك، واتخاذ تدابير الحيطة والوقاية، وتصور الجهد المبذول لخوض القتال والاشتباك في الحرب، كل ذلك مع ما كان عليه موقف قوات المسلمين من ضعف عددي يجعل الجهد المبذول مرتفعاً حتى حدوده القصوى بسبب توزيعه على أعداد قليلة.

وعلاوة على ذلك كله، فقد كانت قوات المسلمين في حالة إعادة تنظيم مستمر حتى تستطيع تنفيذ الأعمال المختلفة، وقد لا تكون هناك حاجة لوصف ما تتطلبه هذه الحالة من جهد إضافي يتحمله جند المسلمين بثبات رائع وتصميم كبير. وكان أبو عبيدة، ومعه كل المجاهدين في سبيل الله، قد غادروا جزيرتهم وهم يعرفون أن أمامهم تحديات لا حدود لها، فكان خروجهم في حد ذاته إنما هو برهان على استعدادهم الدائم للقتال، وكانت جهودهم المبذولة برهاناً على أنهم كانوا فوق التحديات كلها، ما هو متوقع منها وما هو غير متوقع، وبذلك استطاعوا المحافظة على استعدادهم الدائم للقتال، رغم كل ظروف القتال الصعبة، ورغم كل الاشتباكات الشاقة، ورغم كل ما كان يبذله العدو من جهد وما يضعه من مخططات لإضعاف إرادة القتال عند المجاهدين.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

لم يكن باستطاعة المجاهدين تحمل ما تحملوه أثناء عمليات الفتوح لو لم يكن رصيدهم من الروح المعنوية العالية كبيراً إلى درجة لا يمكن تصورها، وقد أعطت الأبحاث والدراسات الحديثة للروح المعنوية قوة مجهولة يرمز لها بالقوة (س)، ولكن القرآن الكريم حدد مقدار هذه القوة بقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال/٦٥]، وبذلك تكون القوة (س) هي قوة الجيش العددية مرفوعة إلى القوة عشرة، بمعنى أن باستطاعة المجاهدين في سبيل الله، الصابرين، مجابهة قوات متفوقة بعشرة أضعاف والانتصار عليهم، وقد كان ميزان القوى في كل معارك المسلمين لا يتجاوز هذا المعدل إلا في مرات قليلة. وحتى في مثل هذه الحالات فقد كانت قوة المسلمين تجابه خصومها بأسلوب الحرب التشتيتية، بحيث لم يكن ميزان القوى يتجاوز على الأغلب معدل واحد إلى عشرة في غير مصلحة المسلمين، ورغم ذلك فقد كان الانتصار حليفاً للمسلمين في معاركهم الحاسمة كلها تقريباً، وقد يكون من المناسب هنا تحليل عوامل قوة (س) في جيش «أبو عبيدة بن الجراح».

لقد أدى التحليل العلمي للعوامل المؤثرة بالروح المعنوية إلى اكتشاف مجموعة غير محدودة من تلك العوامل، منها، أو في طليعتها، الإيمان بعدالة القضية التي يحارب المقاتل من أجلها، فيقاتل ويقتل أو ينتصر، ومنها أيضاً الثقة بالقائد، وليس بكفاءته القيادية فحسب وإنما بفضائله الحربية وبالتزامه بالقضية التي يقاتل من أجلها، وكذلك الثقة بما هو معروف تحت اسم أخوة السلاح، أو روح القطعة، ويضاف إلى ذلك، ولو بدرجة أقل، ما تحققه الحرب من ضمانات للفرد وأسرته من مميزات معنوية ومادية.

ضمنت العقيدة الدينية الإسلامية أكثر هذه العوامل أهمية، فقد ضمنت تحديد هدف الحرب وهو نشر الإسلام، وهو هدف نبيل مَلَكَ على المقاتلين عقولهم وقلوبهم، ودفعهم إلى الحرب لقاء إحدى الحسنيين: ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وفي الوقت ذاته فقد كانت ثقة المجاهدين كبيرة وغير محدودة بكفاءة «أبو عبيدة» وبفضائله، بل وبفضائله أكثر من كفاءته، فكان ذلك حافزاً معنوياً كبيراً، ذلك أن هذا القائد لم يكن يبحث في حروبه عن الدنيا، وإنما كان يريد الآخرة، فكان قدوة رائعة لجيشه، بحيث لم تظهر ولو حادثة واحدة تشير إلى وجود نوع من القصور أو التقصير، أو البحث عن الدنيا، فكان لذلك دوره الحاسم في الإقبال على الجهاد بحماسة لا نظير لها. وكانت ثقة المجاهدين بعضهم ببعض كبيرة أيضاً، فكانوا يندفعون ليحمي بعضهم بعضاً، وكانوا يتسابقون إلى أداء الواجب طلباً للشهادة، ويأتي بعد ذلك اهتمام «أبو عبيدة» وأمير المؤمنين عمر ﷺ بمتطلبات الجنود وتأمين احتياجاتهم، ورعاية عائلات المجاهدين مما أزال كل خوف في نفوس المجاهدين يتعلق بالقلق تجاه

أسرهم، فكان لذلك أيضاً دوره في دعم الروح المعنوية للمجاهدين.

وكان أبو عبيدة يؤمن أن قوة جيش المسلمين هي في روحه المعنوية العالية، وأن هذه الروح المعنوية تعتمد على فضائل العقيدة الإسلامية، وهذا ما يفسر صلابته في تأديب المنحرفين ممن تساهلوا فشربوا الخمر مثلاً. وكانت الإجراءات الرادعة ـ وهي العزل ـ كافية لتحقيق الهدف المزدوج، الأول: عقاب الآثمين، والثاني: صيانة الروح المعنوية للمجاهدين والمحافظة على فضائل جيش المسلمين. وتأتي بعد ذلك المشاركة الفعلية للقائد «أبو عبيدة» في الأمور الحياتية اليومية وشؤون المجاهدين العامة والخاصة، لتعزز الروح المعنوية ولتعطيها مضامينها العملية وبراهينها الواقعية، وبذلك اجتمعت كل العوامل المكونة للروح المعنوية العالية في جيش فتح الشام.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

يرتبط مبدأ الكفاءة البدنية العالية، والقدرة على تحمل الصعاب بالمبدأ السابق والمتعلق بالروح المعنوية العالية، كما يتعلق أيضاً بالاستعدادات السابقة وبدرجة التدريب، وبمجموعة الفضائل الحربية وفي مقدمتها الصبر على المكاره، وقد ضمنت التقنيات الحديثة للجيوش نوعاً من المساعدات للتغلب على عوامل اختلاف الأحوال الجوية، واختلاف البيئة الجغرافية بهدف مساعدة المقاتل على التكيف مع الوسط الذي يعمل فيه، كما ضمنت الوسائط الحديثة أيضاً ما هو ضروري لتخفيف الجهد المبذول في الحرب، سواء كان ذلك قبل الحرب أو أثناء الاشتباك في المعارك، أو حتى في مرحلة استثمار النصر وتطوير الأعمال القتالية، لكن ذلك كله، أو حتى بعضه، لم يكن متوفراً في عصر الفتوحات، فكانت الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب هي الوسيلة الوحيدة الممكنة للتغلب على عوامل اختلاف البيئة وعلى صعوبات الوسط المحيط (وسط العمليات أو مسرح الاشتباك)، بالإضافة إلى صعوبات القتال ذاتها والتي كانت تعتمد على الجهد العضلي والقوة الجسدية قبل كل شيء.

كان الإنسان العربي بطبيعته صلباً، قاسياً، لديه قدرة كبيرة على تحمل شظف العيش، وبؤس الحياة في الصحارى الشاسعة، ولكن توفر تلك القدرة وحدها لا يضمن تحقيق مبدأ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب في

الحرب، ذلك أن المجهود البدني في الحرب هو غير المجهود البدني الطوعي الذي يتم تسخيره لشؤون الحياة العادية، كما أن المجهود البدني في الحرب يتميز باستمراره وتعاظمه، لا سيما بالنسبة لحرب من نوع تلك التي حدثت في مسيرة الفتوح عامة، وفتح الشام منها بصورة خاصة، وقد يكون من البدهي توقع انعكاس الجهد البدني المبذول على الروح المعنوية مما يؤدي إلى انخفاض الحوافز القتالية، ولكن ما حدث، بحسب كل الشواهد المتوافرة، يبرهن على النقيض، فقد كانت الروح المعنوية العالية هي التي تمتص النتائج السلبية للجهد المبذول، وتدفع المجاهدين لبذل مزيد من الجهد.

لقد ذكر كثير من المصادر التاريخية حال المجاهدين بجملة «**كانوا أساداً في الحرب ورهباناً في الليل، يدوون بالصلاة والدعاء كدوي النحل، لا يفضل من مضى على من بقي إلا بفضل الشهادة**»، وكان انصراف المجاهدين في الليل إلى العبادة والصلاة هو الذي يعوض لهم ما بذلوه من جهد، وهو الذي يحفظ للروح المعنوية قوتها وصلابتها، وبذلك كان يزول كل جهد مبذول، ويحتمل المجاهدون مزيداً من الجهد ومزيداً من القدرة على تحمل الصعاب.

لم يكن أبو عبيدة بن الجراح وهو يقود جيش الشام، شاباً تضجُّ في عروقه دماء الشباب، وما كان جيش المسلمين كله من الجند الذين تفتحت لهم الحياة مع بداية الفتوح، فكانت قوتهم الجسدية عوناً لهم، وإنما كان جيش الفتح هو جيش جمهور المسلمين، بشبابهم وشيوخهم وبأطفالهم ونسائهم، وكان لكلٍّ دوره في الفتح، ولكلٍّ مهمته في الحرب، وكانوا جميعاً يشتركون في بذل الجهد البدني الذي تتطلبه الحرب، وما كان أحد يعتمد على غيره في حمل نصيبه من الجهد، فكان الشيوخ يتقدمون الشباب قدر ما يستطيعون، ويحملون من جهد الحرب فوق ما يطيقون، وما كان لهم قدرة على ذلك ـ يقيناً ـ لولا ذلك الحافز العميق، حافز الإيمان بالهدف، وحافز تحقيق إحدى الحسنيين: الشهادة والجنة، أو البقاء مع النصر. وأمام هذه الإرادة، وأمام هذا التصميم، كان يتضاءل كل جهد مبذول، فكان جيش الفتح بكامله نموذجاً أعلى للكفاءة البدنية العالية وللقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ أبو عبيدة وما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية

كان جيش الفتح، بحكم تكوينه، يضم المجاهدين الراغبين في الحرب بدون

تمييز بسبب فارق العمر أو بسبب الجنس، وكان من واجب قائد العمليات تنظيم القدرات المختلفة وحشد كل الإمكانات في الحرب. ولكن «أبو عبيدة» لم يقف كقائد للعمليات عند حدود التنظيم والحشد للقوات وإنما تجاوز ذلك بحسب ما تظهره وثائق الصلح التي عقدها أبو عبيدة مع أهل البلاد، حيث يتبين أن «أبو عبيدة» قد طور مفهوم ما هو معروف حديثاً باسم الحرب الشعبية، وذلك عن طريق:

أ ـ **تحقيق غاية السلم** من خلال الكفاءة العالية في حسم الصراع المسلح والتمهيد لإقامة المجتمع الإسلامي، والعمل بالتالي على حشد الطاقات الجديدة ممن دخلوا في الإسلام حديثاً، وقد كانت هذه العملية مشابهة لتلك التي طبقها الرسول ﷺ منذ بدأ دعوته للإسلام، حيث يتم اكتساب الأقاليم سلماً أو حرباً ونشر الإسلام فيها، وتحميل أهلها أمانة نشر الإسلام، وكان هذا في حدِّ ذاته تطويراً لمضمون الجهاد، أو ما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية.

ب ـ **الإفادة من سكان البلاد** وتحييدهم، إذا صح التعبير، عن طريق اتفاقيات السلم، وذلك لتحقيق هدف مزدوج، الأول: هو دعم القدرة الحربية وتأمين الحماية لها، والثاني: توفير المناخ للإفادة من الطاقات المتوفرة كلها لتوجيهها نحو الجهاد وتحقيق المشاركة الكاملة للقوات بأعمال الفتوح، بحيث لا يتم تبديد قسم من الجهد أو الطاقة البشرية.

جـ ـ **تنظيم القوات** بحيث يقوم الجميع بأعباء الحرب: النساء للشؤون الإدارية وإسعاف الجرحى وأحياناً للقتال، والأحداث للقيام بالأعباء التي تتناسب مع قدراتهم وإمكاناتهم.

ويظهر واضحاً أن واجب «أبو عبيدة» كقائد لمسرح من مسارح العمليات لم يكن محدداً بقيادة الأعمال القتالية فقط، وإنما كان يشمل إدارة البلاد التي يتم فتحها، وإقامة دعائم المجتمع الإسلامي، وكان من الطبيعي أن يتبع ذلك، وبصورة مباشرة، تطبيق مبدأ الجهاد أو الحرب الشعبية. وكان تطبيق هذا المبدأ يسمح لأبناء البلاد التي تم فتحها العمل على قدم المساواة مع جنود جيش الفتح. وأصبح واجب الجيش في العمل لصهر المجتمع الجديد والمساعدة على عملية البناء بتطبيق مبدأ الجهاد، أو الحرب الشعبية، هو من العوامل الرئيسية التي ساعدت على انتشار الإسلام وضمنت القوة للمجتمعات الجديدة. وتبرز أهمية هذا المبدأ بصورة خاصة في الفتوحات التالية حيث أصبح أبناء البلاد

حديثة العهد بالإسلام، كالشام والعراق، هم حملة مشاعل الإسلام إلى الأقاليم الجديدة التي لم يتم فتحها.

لقد تمت فتوح الشام وفتوح العراق في فترة متقاربة (١٢ ـ ١٧هـ) وانصرف المسلمون لبناء المجتمع الجديد، وأعقب ذلك فتح مصر، وتحولت هذه الأقاليم بعد فترة قصيرة إلى قواعد قوية لإطلاق جيوش الجهاد اعتماداً على مبدأ الحرب الشعبية، ويعود الفضل في ذلك إلى قادة الفتوحات في هذه الأقاليم الذين تمكنوا من تطبيق مبدأ الجهاد وتطوير مفهوم الحرب الشعبية، مما عزز إمكانات المسلمين وساعد على زيادة قدرتهم البشرية، وبذلك أمكن نشر راية الإسلام.

ولقد أصبحت جيوش الفتح، بفضل مبدأ الجهاد أو الحرب الشعبية، هي المدارس الحقيقية لتكوين المجتمعات الإسلامية الجديدة والتي تعمل على إعداد القوى الضرورية والطاقات الأساسية لإزالة كل التناقضات التي يمكن لها الظهور، أو يحتمل بروزها في أخطر مراحل بناء المجتمع الإسلامي في جميع الأقطار، ويبقى أبو عبيدة بن الجراح رائداً من رواد تطبيق هذا المبدأ الذي يعتبر أساس التنظيم للمجتمع الإسلامي.

٥ ـ أبو عبيدة وحرية العمل

يرغب قادة الجيوش في القديم تفضيل مبدأ حرية العمل المطلقة على مبدأ الالتزام بالقيم الأخلاقية أو القواعد القانونية أو حتى الأهداف السياسية، ذلك أن حرية العمل المطلقة كثيراً ما تضمن لهم تحقيق الانتصارات الحاسمة والحصول على أكاليل الغار ببذل جهد معقول، ولو كان ذلك على حساب الهدف السياسي، وهذا ما حفز بعض الكُتّاب الغربيين والقادة العسكريين ورجال السياسة على تكوين جبهات متضادة، وأحياناً متنافرة. فبينما ينطلق بعضهم للقول: إن نتائج الحرب أكثر خطورة من أن يتم تركها للقادة العسكريين، ينطلق الرد من قبل العسكريين ليتمثل بالمقولة التالية: إن الحرب أكثر خطورة من أن يتم تركها لرجال السياسة. وتمثل وجهات النظر المتناقضة في واقعها الرغبة في تحديد حرية العمل العسكري بحيث يتوافق وتحديد الهدف السياسي.

إن مثل هذه المشكلة لم تكن موجودة في جيوش الفتح، فقد كان القائد على جميع المستويات يمارس، في حدود واجبه، حق القائد السياسي والقائد العسكري في وقت واحد، علاوة على دوره كقائد ديني (إمامة الصلاة). وكانت

وحدة العمل السياسي والعسكري كافية لتقويم كل موقف من وجهة نظر السياسي أكثر ما تكون من وجهة نظر العسكري، وكانت القوة العسكرية هي الأداة التنفيذية لتحقيق الهدف السياسي، وقد كان هذا الهدف هو رائد الجميع (نشر الإسلام)، وعلى هذا فلم يكن هناك ثمة مجال للخلاف حول الهدف السياسي، ولكن ثمة احتمالاً للاختلاف حول الطرائق العسكرية للتنفيذ من أجل الوصول إلى الهدف، ولكن نظراً لتقسيم العمل بين قيادة استراتيجية يمثلها أمير المؤمنين عمر، في عهد الفتوحات، وبين قيادات للعمليات على مختلف الجبهات، فإن احتمال الاختلاف لم يعد موجوداً، ولكن تبقى رغم ذلك كله قيود تلزم القائد بحدود معينة، ولا تسمح له بممارسة حرية العمل المطلقة في المجال العسكري، وأبرز هذه القيود هي عدم استخدام القوات المسلحة بما يتعارض مع تحقيق غاية السلم وهي بناء المجتمع الجديد، وقد اضطر أبو عبيدة في مرات كثيرة إلى تقنين استخدام وسيلة الإكراه أو الوسيلة العسكرية من أجل تحقيق غاية السلم.

لقد كانت حرية العمل في قيادة «أبو عبيدة» مقننة ومحددة، ولكن هذا التحديد لم يكن مفروضاً وإنما طوعياً لانسجامه مع مبادئ العقيدة الدينية الإسلامية والعقيدة القتالية المنبثقة عنها، فكان استخدام القوة مقتصراً على جبهات القتال، ومحدداً بالقضاء على القوة العسكرية المقاتلة لأعداء المسلمين، ولقد كانت هذه الحدود هي التي أعطت حروب المسلمين طابعها كحروب عادلة، هدفها تحقيق المثل وإقامة المجتمعات السليمة في بنيتها والصحيحة في تكوينها، وقد يكون من الصعب بعد ذلك مقارنة مفهوم حرية العمل عند «أبو عبيدة» أو سواه من قادة المسلمين مع أي مفهوم مماثل لحرية العمل في جيوش العالم، قديمها أو حديثها، ويعود السبب، على الأغلب، إلى التناقض القائم بين الهدف السياسي والهدف العسكري في الجيوش، في حين أن هذا التناقض لم يكن له وجود في قيادة جيوش المسلمين.

وتبقى مبادئ العقيدة القتالية الإسلامية هي التي تفرض وجودها في ميادين الصراع المسلح في حين يمارس العامل السياسي دوره قبل المعركة وبعدها بل أثناء المعركة ذاتها. ويمكن من هذه الناحية اعتبار الفتوح الإسلامية نموذجاً أعلى لتقنين الحرب بقدر ما هي نموذجاً أعلى أيضاً للتمييز بين حرية العمل العسكري وحرية العمل السياسي، بحيث لا يكون هناك ثمة تداخل بينهما،

وكان كثيراً ما يتم حسم الموقف عند ظهور مثل هذا التداخل لمصلحة حرية العمل السياسي نظراً لأنه الأساس في بناء المجتمع الإسلامي.

٦ ـ الانضباط والطاعة

لعل مبدأ الانضباط والطاعة هو أبرز المبادئ التي ميزت جيوش المسلمين، فقد عرف عن تلك الجيوش انضباطها الطوعي وطاعتها المطلقة لقياداتها. وترتبط ظاهرة الطاعة بالعقيدة الدينية الإسلامية على ما هو معروف، ولكنها كانت في الوقت ذاته ذات خصائص مميزة يمكن استعراض بعض ملامحها:

أ ـ **لقد كان الفارق الديني والاجتماعي**، من حيث المكانة في نفوس المسلمين، صغيراً جداً بين «أبو عبيدة» وبين أمراء المؤمنين، «أبو بكر» ومن بعده عمر رضي الله عنهما، ورغم ذلك فقد قبل أبو عبيدة قيادة جيش من جيوش الفتح لا أكثر، وإذا كان ذلك تعظيماً لدور الجهاد في الإسلام وإعطاءه الأفضلية الأولى على كل مراتب السلطة في المجتمع الإسلامي، فإن ذلك في الوقت نفسه برهان على قبول التكليف بالقيادة بروح من الانضباط والطاعة. ويتأكد مفهوم هذا الانضباط والطاعة من خلال عودة «أبو عبيدة» في كثير من الأمور إلى أمير المؤمنين باعتباره المسؤول الأول والأخير، لا عن الفتوحات الإسلامية فحسب، وإنما عن أمور الدولة كلها، وقد كان باستطاعة «أبو عبيدة» التصرف في كثير من الأمور لو أراد تجاوز حدود الانضباط والطاعة.

ب ـ **نظام الشورى** (الذي يشبه مؤتمرات حرب القادة ورؤساء هيئة أركانهم) وقد كان لهذا النظام دوره في تعزيز مفهوم الانضباط والطاعة، إذ أن اتخاذ القرارات بصورة إجماعية يجعل القادة ملتزمين بتنفيذها ومقتنعين بصحتها، حتى لو كان لهم رأي معارض، وكان هذا الانضباط ينعكس على أسلوب القيادة في جميع المستويات.

جـ ـ **الأمثولة القيادية**، وقد كان أبو عبيدة مثله كمثل قادة المسلمين جميعهم، ممن سبقوا إلى الإسلام، وممن آمنوا به، والتزموا بمبادئه، وكانوا مثالاً في الفضائل الحربية والخلق الكريم، ولم يكن في تصرفاتهم أو سلوكهم ما يعيب قيادتهم، ولهذا كان المقاتلون يندفعون في الحرب إيماناً منهم بهدف الحرب من جهة، وتنفيذاً لتعليمات قياداتهم من جهة، وثقة منهم بقيم قاداتهم وفضائلهم.

د ـ **الكفاءة العالية للقادة**، إذ كان انتقال المجاهدين من نصر إلى نصر هو أمر

كافٍ لاكتساب ثقة القادة وتبادل الثقة على كل المستويات، فكان لذلك دوره في الاندفاع لتنفيذ أوامر «أبو عبيدة»، ومن المعروف أن الفشل أو الهزيمة كانا مستبعدين من وسط أعمال القادة، وكان أي قصور أو تقصر كافٍ لعزل القائد، كما أن التسلسل القيادي كان يسمح للقائد الثاني أو الثالث بممارسة دوره القيادي إذا ما ظهر خطأ في الإجراءات القيادية، على نحو ما حدث للقائد خالد بن سعيد مثلاً، وكان ذلك مما يدعم روح الانضباط، لا سيما وأنه لم يكن يسمح للقائد الثاني بممارسة دوره إلا بعد التأكد من الفشل، وبذلك لم يكن هناك دور في المنافسة على ممارسة القيادة.

لقد ضمنت العقيدة الإسلامية، الدينية منها والقتالية، حصول القائد على الانضباط والطاعة، ولكن هذا الانضباط الطوعي لم يكن مطلقاً وإنما كان مقيداً بمجموعة من القيود.. مثل طاعة المخلوق في حدود طاعة الخالق، فإن تجاوزها وجب خلع طاعته والتمرد عليه، والتمرد هنا ليس بإعلان التمرد وإنما برفع أمره إلى أمير المؤمنين المسؤول عن تكليفه، كما أن تلك الطاعة مقيدة أيضاً بمجموعة فضائل القائد، كالكفاءة والعدل والقدرة. وقد كان أبو عبيدة بن الجراح نموذجاً للانضباط والطاعة عند ممارسته لدوره القيادي في فتح الشام، فكان طبيعياً أن يحصل على الانضباط والطاعة من مرؤوسيه والمقاتلين تحت قيادته، وقد كانت قيادته ميمونة الحظ وظافرة باستمرار، وهذا ما دعم قواعد الانضباط والطاعة في جيش فتح الشام.

جـ ـ ما بعد «أبو عبيدة بن الجراح»

مضى أبو عبيدة إلى لقاء ربه بعد إصابته في طاعون عمواس عام (١٨هـ)، فاستخلف معاذ بن جبل على الشام، ولكن معاذاً لم يلبث حتى لحق بـ«أبو عبيدة» فاستخلف أمير المؤمنين عمرُ لولاية الشام يزيدَ بن أبي سفيان، الذي كان يسمى يزيد الخير لفضائله وبلائه، ولكنه لم يعمر فتوفي في سنة (١٨هـ/ ٦٣٩م) بعد إصابته بطاعون عمواس أيضاً. وكان معاوية بن أبي سفيان أميراً على خراج الشام، فجمع له أمير المؤمنين خراج الشام وحربها، وأصبح والياً على الشام كلها، ولم يزل فيها حتى أصبح أميراً للمؤمنين ومؤسساً للدولة الأموية. وإذا كانت بلاد الشام قد أصبحت عاصمة الدنيا أيام معاوية، ومن جاء بعده من أمراء الأمويين، إلا أن الفضل في بناء المجتمع الإسلامي فيها إنما يعود إلى سياسة الفتح التي طبقها أبو عبيدة بن الجراح، فهو الذي قاد عمليات الفتح في شمال دمشق، وهو الذي وصل بهجماته إلى قلب بلاد الروم، وهو الذي نظم دعائم المجتمع الجديد.

مضى أبو عبيدة ووقف معاذ بن جبل لرثاء قائده وصاحبه فقال: «إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أني رأيت من عباد الله قط أقل حقداً، ولا أبر صدراً، ولا أبعد غائلة، ولا أشد حياء للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه»[1].

---

(١) الإصابة ٤/ ١٢، ١٣.

يوجد قبر في غور الأردن يُنسب إلى «أبو عبيدة»، رُمِّم ضريحه في عهد السلطان بيبرس، كما جاء في الكتابة المنقوشة عليه، وهي:

(بسم الله الرحمٰن الرحيم؛ وأمر بإنشاء هذه القبة المباركة على ضريح «أبو عبيدة بن الجراح» ﷺ مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أبو الفتح بيبرس بن عبد الله، قيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه، ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير «معل تونين» من حمص من عمل «حصن أكراد» المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً، أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين، وذلك بنظر الأمير الأعز الأجل الكبير نسله ناصر الدين الجامنكلي الظاهري السعدي نائب مملكة عجلون المحروسة في ذي الحجة سنة ستمائة وسبعة وخمسون).

ملاحق

١ ـ اتفاقية صلح «أبو عبيدة» مع أهل دمشق.
٢ ـ ما قيل في فتح دمشق.
٣ ـ إسلام جبلة بن الأيهم الغساني وارتداده.
٤ ـ رحيل هرقل عن سوريا.
٥ ـ لجوء قبيلة إياد إلى الروم وإخراجهم بتهديد من عمر.

١ ـ اتفاقية صلح «أبو عبيدة» مع أهل دمشق

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(هذا كتاب لـ«أبو عبيدة بن الجراح»، ممن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم. إنك حين قدمت إلى بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا، وإنا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا نحدث في مدينة دمشق، ولا فيما حولها، كنيسة ولا ديراً ولا قلامة ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم على من غش المسلمين، وعلى أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا، ولا نظهر الصليب عليها، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا، ولا نخرج باعوثاً ولا سعانين[1] ولا نرفع أصواتنا بموتانا ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، ولا نجاورهم بالخنازير، ولا نبيع الخمور، ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين، ولا نرغِّب مسلماً في ديننا، ولا ندعو إليه أحداً، وعلى أن لا نتخذ شيئاً من الرقيق الذين جرت عليهم سهام المسلمين، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم ديننا حيثما كنا. ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى بأسمائهم. وأن نجز مقادم رؤوسنا ونفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا ننقش في خواتيمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نجعله في بيوتنا

---

(١) **الباعوث** للنصارى كالاستسقاء للمسلمين، وهم اسم سرياني، وقيل هو بالغين بالمعجمة والتاء فوقها نطقتان. **والسعانين** ـ بالسين المهملة ـ اسم عيد للنصارى يكون قبل عيدهم الكبير بأسبوع، وهو سرياني أيضاً. قاله في النهاية. ويطلق عليه اليوم: عيد الشعانين.

ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نشارك أحداً من المسلمين، إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة. وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد، ونطعمه فيها ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نشتم مسلماً، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده. ضمنَّا ذلك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننا، وإن نحن غيَّرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق على ذلك، أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا، فأقرُّونا في بلادكم التي أورثكم الله إياها، شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيداً)[1].

(١) تهذيب ابن عساكر ١/١٤٩، ١٥٠.

٢ ـ ما قيل في فتح دمشق

قال القعقاع بن عمرو في فتح دمشق[١]:

أقمنا على دارَي سليمان أشهراً ... نجالد روما وما قد حملنا بصارمِ[٢]
قصصنا إلى الباب العراقي عنوة ... فدان لنا مستسلماً كلُّ قائمِ[٣]
أقولُ وقد دارت رحانا بدارهم ... أقيموا لهم حر الورى بالغلاصمِ
فلما زأونا في دمشق نحورهم ... وتدمر عضوا منهما بالأباهم

وقال أبو بجيد نافع بن الأسود:

فلا تحسبني وابن أمي صلصلاً ... كقاسمة الباكين مزكية الحربِ[٤]
تركنا دمشقَ منهلاً بطريقنا ... نحن إليها ما نحن من الكربِ
كأنك لم تشهد دمشقَ وحايلاً ... ويوماً ببصرى حين فارط بني لهبِ
فإنا وإياهم سحاب بقفرة ... تلحقها الأرواح بالصيب السكبِ

إلى أن يقول...

فسائل بنا سيطاس والروم حوله ... غداة دمشق والحروب بها تجري[٥]
ينبوك أنا في الحروب مصالب ... تسيل إذا جاش الأعاجم بالثغرِ

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/١٠٦، ١٠٧.

(٢) دارَي سليمان هما دمشق وتدمر، لأنهما كانا دارين لسليمان عليه السلام على ما يقال، ويبرهن ذلك على أن مدة الحصار قد زادت على الشهرين.

(٣) إشارة إلى اقتحام دمشق من الباب الشرقي عنوة، وقد سمي الباب الشرقي بالباب العراقي لأنهم كانوا ينطلقون منه شرقاً إلى العراق.

(٤) أي لا تظنني أنني وابن أمي صلصلاً ضعيفاً يقاسمون الجبناء البكاء عندما تذكو نار الحرب.

(٥) **سيطاس**: هو قائد الروم يوم فتح دمشق.

بـقـوم تـراهـم فـي الـدهـور أعـزة ... لهم عرض ما بين الفرائص والوترِ[1]
أبى اللّـه إلا أن عـمراً بـنا هـمـوا ... قوائم حرب لا تلين ولا تجري[2]

(١) **الفرائص**: جمع فريصة، وهي عصب الرقبة وشراييـنها وأوردتها، والوتر: جمع وترة، وهي عصبة تحت اللسان، والمعنى أن لهم أعناق الأعداء يتصرفون بها كيف شاءوا.

(٢) يبرهن هذا البيت على أن فتح دمشق قد تم بولاية عمر بن الخطاب الذي شدد قبضته على الروم بحرب لا تلين ولا تجري.

٣ ـ إسلام جبلة بن الأيهم الغساني وارتداده

بعد فتح بعلبك أرسل أبو عبيدة بن الجراح قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد بمهمة فتح حمص كمقدمة للجيش. وبعد فترة من التوقف لإعادة التنظيم، مضى أبو عبيدة في طريقه نحو مدينة حمص، وفي الطريق وصله أسامة بن زيد الطائي يحمل رسالة من الخليفة عمر وفيها: «... أما بعد! فلا مرد لقضاء الله تعالى وقدره، ومن كتب في اللوح المحفوظ كافراً فلا إيمان له، وذلك أن جبلة بن الأيهم الغساني كان قدم علينا ببني عمه، وسراة قومه، فأنزلتهم وأحسنت إليهم وأسلموا على يديَّ، وفرحت بإسلامهم، إذ شدَّ الله عضد الإسلام والمسلمين بهم... ثم إنا سرنا إلى مكة، نطلب الحج، فطاف جبلة بن الأيهم بالبيت أسبوعاً، فوطئ رجل من فزارة إزاره فأسقطه عن كتفه، فالتفت إلى الفزاري وقال له: «ويلك كشفتني في حرم الله تعالى». فأجابه الفزاري: «والله ما تعمدتك». فلطم جبلة بن الأيهم الفزاري لطمة هشَّم بها أنفه، وكسر ثناياه الأربع. فأقبل الفزاري إليَّ مدعياً على جبلة، فأمرت بإحضاره، وقلت له: «ما حملك على أن لطمت أخاك في الإسلام وكسرت ثناياه الأربع وهشمت أنفه؟» فقال جبلة: «إنه وطئ إزاري برجله فحله، ووالله لولا حرمة هذا البيت لقتلته». فقلت له: «أقررت على نفسك، فإما أن يعفو عنك، وإما أن آخذ له منك القصاص». فقال: «أيقتص وأنا ملك وهو من السوقة؟» قلت: «قد شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية». فقال: «أتتركني إلى غد وتقتص مني؟» فقلت للفزاري: «أتتركه إلى غد؟» قال: نعم. فلما كان الليل، ركب في بني عمه، وتوجه إلى الشام يريد اللحاق بالروم، وأرجو أن الله يظفرك به. فانزل على حمص، ولا تنفذ عنها، فإن صالحك أهلها فصالحهم، وإن أبوا فقاتلهم وابعث عيونك إلى أنطاكية وكن على حذر من المتنصرة».

ووصلت قوات المسلمين إلى حمص، وعقد حاكمها صلحاً مع خالد بن الوليد بهدف كسب الوقت والاستعداد للحرب. وعندما وصل أبو عبيدة، انطلق

خالد مع قوة من الفرسان للقيام بجولة في ريف حمص. وتوفرت المعلومات عند «أبو عبيدة» عن اتصال حاكم قنسرين بهرقل وطلب الدعم منه لقتال المسلمين، وأن هرقل استجاب للطلب، ووجه جبلة بن الأيهم الغساني في جموع العرب المتنصِّرة، بالإضافة إلى توجيه قوات من عشرة آلاف مقاتل، وجهها حاكم عمورية. وأخذ أبو عبيدة في الاستعداد لمجابهة ما قد يحدث من تطورات، وبينما كان أحد قادة المسلمين، سعيد بن عامر، يبحث عن مولاه الذي ذهب يحتطب بعيداً عن البساتين والأشجار المثمرة، تنفيذاً لأوامر «أبو عبيدة»، بوغت بمجموعة من الفرسان حملته إلى جبلة بن الأيهم، وعندما اجتمع به سأله جبلة عن أحوال أقربائه وأهله في جيش المسلمين، وسأله عن حسان بن ثابت، فأجابه سعيد إن آخر مرة التقى فيها بحسان كانت قبل خروجه مع جيش الفتح، وأنه سمعه ينشد:

للّـه در عـصـابـة نـادمـتُـهـم ... يـومـاً بـجـلـق فـي الـزمـان الأولِ
يُغْشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبلِ
بيضُ الوجوه كريمة أنسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأولِ
الملحقين فقيرهم بغنيهم ... المشفقين على اليتيم الأرملِ
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضلِ

فقال له جبلة: «وهل حفظ لي هذه المكرمة؟». وأهداه ثياباً وهدايا وطلب إليه نصح خالد و«أبو عبيدة» بعدم مجابهة قواتهما له لأنه سيتوجه لدعم صاحب قنسرين. وعاد سعيد بن عامر فأخبر «أبو عبيدة» بما توافر لديه من معلومات، فوجه أبو عبيدة قوة استطلاع من عشرة فرسان فقط بقيادة خالد بن الوليد ورافقهم سعيد بن عامر إلى المكان الذي علم أن حاكم قنسرين سيلتقي به بقوات جبلة بن الأيهم. ونصب خالد كميناً، وعندما أقبل حاكم قنسرين اعتقله خالد وكلف به من يحرسه، ولم تلبث قوات جبلة أن انقضَّت فأحاطت بخالد وقوة الكمين.

وحاول جبلة بن الأيهم وحاكم عمورية إنقاذ حاكم قنسرين، وكان من المقرَّبين إلى هرقل، واستخدم جبلة أسلوب الترغيب والترهيب لإقناع خالد بالاستسلام له، وأنه من المحال عليه مجابهة جبلة وهو الذي قال فيه شاعر الرسول:

إنَّ ابن جفنة من بقية معشر ... لم تغذهم آباؤهم باللؤمِ

يعطي الجزيل ولا يراه بأنه إلا كبعض عطية المذمومِ
لم ينسني بالشام إذ هو بارح يوماً ولا متنصراً بالرومِ
إن جئته يوماً تقر بمنزل تسقي براحته من الخرطومِ

وعندما يئس جبلة، ومعه حاكم عمورية، من اتباع أسلوب الخداع والترهيب أو حتى الترغيب، قرر القضاء على خالد ومجموعته في محاولة لإنقاذ حاكم قنسرين، فكان عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق هو أول من جابه جبلة بن الأيهم، ونجح جبلة في إصابة عبد الرحمٰن بجرح في عضده، وخاف خالد أن يتمكنوا منه، فأسرع إلى البطريق حاكم قنسرين وقتله. وبدأ اشتباك عنيف بين الطرفين، ثم ظهر جيش «أبو عبيدة» في أحرج اللحظات وأصعبها، وبعد أن أيقن خالد ومجموعته أنهم من الهالكين، استطاع أبو عبيدة أن يحقق المباغتة الكاملة، وبعد معركة قصيرة وحاسمة، تمزق جيش جبلة بن الأيهم وجيش حاكم عمورية، وأخذت قوات المسلمين في مطاردتهم. وعاد جبلة ببقية جيشه إلى القسطنطينية، وأقام فيها، ثم انتقل إلى اليونان مع قبيلته التي ذابت في بوتقة المجتمع اليوناني وانصهرت فيه.

٤ ـ رحيل هرقل عن سوريا

لما خرج هرقل من الرهاء، واستتبع أهلها[١]، قالوا: نحن هاهنا خير منا معك، وأبوا أن يتبعوه، وتفرقوا عنه وعن المسلمين. وكان أول من أنبح كلابها وأنفر دجاجها[٢] زياد بن حنظلة، وكان من الصحابة، وكان مع عمر بن مالك مسانده، وكان حليفاً لبني عبد بن قُصي، وقبل ذلك ما قد خرج هرقل حتى شمشاط، فلما نزل القوم الرهاء (إدلب) فنفذ نحو القسطنطينية ولحقه رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين، فأفلت، فقال له: «أخبرني عن هؤلاء القوم»، فقال: «أحدثك كأنك تنظر إليهم، فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليرثُنَّ ما تحت قدمي هاتين». وكان من عادة هرقل أنه كلما حج بيت المقدس فخلف سورية وظعن في أرض الروم، التفت فقال: «عليكِ السلام يا سورية تسليم مودع لم يقضِ منك وطره، وهو عائد». فلما توجه المسلمون نحو حمص وعبر الماء، فنزل الرهاء فلم يزل بها حتى طلع أهل الكوفة، فتحت قنسرين، وقتل ميناس، فخنس عند ذلك إلى شمشاط، حتى إذا فصل منها نحو الروم علا على شرف مرتفع ونظر نحو سورية وقال: عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً. (وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندرية وطرسوس معه، لئلا يسير المسلمون في عمارةٍ ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وشعث الحصون ـ دمرها ـ فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً، وربما كمن عندها الروم، فأصابوا غرة المتخلفين، فاحتاط المسلمون لذلك)[٣].

---

(١) طلب إلى أهلها أن يتبعوه.

(٢) أنبح كلابها وأنفر دجاجها: كناية عن استنفار أهلها للقتال.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٢، ٦٠٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٣، ٣٤٤.

٥ ـ لجوء قبيلة إياد إلى الروم وإخراجهم بتهديد من عمر

كتب الوليد بن عقبة إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ، يعلمه نزوح قبيلة إياد بن نزار إلى الروم والتجاءهم إليهم، فكتب أمير المؤمنين عمر إلى ملك الروم رسالة جاء فيها: «إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى، ثم لنخرجنهم إليك». فأخرجهم ملك الروم، فخرجوا، فتم منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، وخنس بقيتهم، فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة الآلاف، وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من بني تغلب إلا الإسلام، فقالوا له: أما من نُقِّب على قومه في صلح سعد، ومن كان قبله فأنتم وذاك. وأما من لم ينقُب عليه أحد، ولم يُجْر ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه؟! فكتب فيهم إلى عمر، فأجابه عمر: «إنما ذلك لجزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام، فدعهم، على ألا يُنصروا وليداً، واقبل منهم إذا أسلموا». فقبل منهم على ألا ينصروا وليداً، ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام، فأعطى بعضهم ذلك، فأخذوا به، وأبى بعضهم إلا الجزاء، فرضي منهم بما رضي من العِباد وتنوخ. ومن المعروف أن الرسول ﷺ كان قد عاهد وفدهم على ألا يُنَصِّروا وليداً، فكان ذلك الشرط على الوفد، وعلى من وَفَدهم وأرسلهم، ولم يكن على غيرهم، فلما كان زمان عمر قال مسلموهم: لا تُنفروهم بالخراج فيذهبوا؛ ولكن أضعِفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم، فيكون جِزاء، فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء، على ألّا ينصروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم. فخرج وفدهم في ذلك إلى عمر، فلما بعث الوليد إليه برؤوس النصارى وبديانيهم، زعمائهم ورجال الدين فيهم، قال لهم عمر: أدوا الجزية، فقالوا لعمر: أبلغنا مأمننا، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم،

والله لتفضحنا من بين العرب، فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، وتالله لتؤدونه وأنتم صغرة قمأة، ولئن هربتم إلى الروم، لأكتبن فيكم، ثم لأسبينكم، قالوا: فخذ منا شيئاً ولا تسمِّه جزاء، فقال: أما نحن فنسميه جزاء، وسموه أنتم ما شئتم. فقال له علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين ألم يُضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟... قال: بلى، وأصغى إليه، فرضي به منهم جزاء، فرجعوا على ذلك، وكان في بني تغلب عز وامتناع، ولا يزالون ينازعون الوليد، فهمَّ بهم الوليد وقال في ذلك:

إذا ما عَصَبْتُ الرأسَ مني بِمشْوَذٍ فَغَيّك مِنِّي تَغلبَ ابنة وائلِ

وبلغت عنه عمر فخاف أن يحرجوه، وأن يضعف صبره، فيسطو عليهم، فعزله وأمَّر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملي، وخرج الوليد واستودع إبلاً له حريث بن النعمان، أحد بني كنانة بن تيم من بني تغلب، وكانت مائة من الإبل فاختانها بعدما خرج الوليد[1].

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٥٥، ٥٦.

البَابُ الثَّانِي

خالد بن الوليد

(٢٥ق.هـ ـ ٢١هـ/٥٩٧ ـ ٦٤١م)

من أقوال خالد بن الوليد

كتب خالد إلى ملوك فارس عندما تولى قيادة حرب العراق:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس

أما بعد، فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم. فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجُوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك لكم وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وكتب خالد إلى عامة أهل فارس:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازبة الفرس

أما بعد، فأسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا مني الذمة، وأدُّوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الحياة كما تحبون شرب الخمر[1].

وكتب عياض بن غنم إلى خالد يستمده وقد تكاثر عليه الأعداء، فأجابه:

البث قليلاً تأتك الجلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب[2]

وكان خالد يردد وهو يهدم العزى يوم فتح مكة:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وكان سادن «العزى» قد هرب عندما سمع بقدوم خالد لهدمها، وذلك بعد أن عَلَّقَ سيفه على الصنم، وقال:

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٠.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٧.

أيا عز شدي شدة لا شوى لها على خالد، ألقي القناع وشمري
ويا عز إن لم تقتلي اليوم خالداً فبوئي بإثم عاجل، أو تنصري

وقال خالد وهو يفارق حياة الدنيا:

«شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في جسمي ـ جسدي ـ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هاأناذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»[1].

(١) أسد الغابة ٢/ ٩٥، والاستيعاب ٢/ ٤٠.

... وقالوا في خالد

قال رسول الله ﷺ عن خالد:

(نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين)[1].

وقال أبو بكر رضي الله عنه يجيب عمر بن الخطاب الذي طلب عزل خالد: «يا عمر! ما كنت لأشيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين».

وقال أبو بكر وقد وصلته أخبار انتصارات خالد في معركة «أليس» في العراق: «يا معشر قريش! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، وأعجزت النساء أن يُنشئوا مثل خالد»[2].

وعندما بلغ أهل دومة الجندل في العراق بتقدم خالد بن الوليد، عقدوا مؤتمراً للحرب. فوقف فيهم أكيدر بن عبد الملك ناصحاً لقومه: «لا أحد أيمن طائراً منه في حرب، ولا يقف في وجه خالد قوم أبداً قلَّوا أو كثروا إلا انهزموا منه، فأطيعوني وصالحوا القوم». وخالفه قومه، وقرروا الحرب، فقال لهم أكيدر: «لن أمالئكم على حرب خالد ـ فشأنكم».

وقال عمرو بن العاص يصف خالداً: «له أناة القطة ووثوب الأسد»[3].

وعندما عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائده خالد بن الوليد كتب إلى الأمصار: «إني لم أعزل خالداً عن سخط ولا عن خيانة، ولكن الناس فخموه وفتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة». وقال عمر: «والله لأنزعن خالداً حتى يعلم أن الله ينصر دينه»[4] وعندما بلغ عمر نبأ وفاة خالد في مدينة حمص، قال: قد ثلم في

---

(١) الاستيعاب ٢/٤٢٩.

(٢) الطبري ٣/٢٥٩، وفي الكامل لابن الأثير ٢/١٤٩: «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

(٣) اليعقوبي ٢/١٠٨.

(٤) الاستيعاب ٢/ ٧٩٤.

الإسلام ثلمة لا ترتق. وقال أيضاً: كان والله سداداً لنحور العدو، ميمون النقيبة[1].

وانتشر خبر موت خالد، وخرجت نساء بني مخزوم يندبن فتى العشيرة، وسمع عمر صوت البكاء العويل، وحمل سوطه وهمَّ بالخروج لمنع البكاء والنحيب، كعادته، ثم سمع صوت بكاء ابنته حفصة، زوجة النبي، وفكَّر عمر لحظة، ثم عاد فعلق سوطه، وقال: «وما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي». واستمر الموكب الحزين، ويقال: إنه لم تبق امرأة من بني المغيرة إلا وضعت لمتها ـ أي: حلقت شعرها لتضعها ـ على قبر خالد. وعندما أحس أمير المؤمنين عمر بدنو الأجل، قال: «لو أدركت خالد بن الوليد لوليته، فإذا قدمت على ربي فسألني من وليت على أمة محمد؟ قلت: إي ربي. سمعت عبدك ونبيك يقول: (خالد سيف من سيوف الله، سلَّه الله على المشركين)[2].

(١) ابن عساكر ص٧١٤.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١/ ٢٤، والأغاني ١٥/ ٢٦ و١٩/ ٨٩.

بعض ما قاله المستشرقون في خالد

خالد بن الوليد هو قائد لامع، موهوب للقيادة، انتصر المسلمون بفضله عدة انتصارات، منحه محمد ﷺ لقب سيف الله[١] ـ (الموسوعة الإسلامية).

نابليون شبيه بخالد بن الوليد، لم يأبه لشيء إلا للحرب، ولم يرغب أن يتعلم شيئاً سوى الحرب[٢] ـ (موللر).

خالد بن الوليد، إنه قائد كبير، لم يُغلب أو يُقهر، ذكي، وممتاز في قيادته[٣] ـ (درمنغهام).

خالد بن الوليد، إنه أستاذي في فن الحرب[٤] ـ (غولتز).

رغم عزل خالد بن الوليد ـ عن قيادة جيش الشام ـ فقد ظل في الواقع هو القوة الدافعة في الحملة[٥].

---

(١) Ency. Of Islam. (Khaled Ben Al Walid) V.4, P.878, 879.

(٢) موللر: هو مؤرخ ألماني .Der. - Islam - Muller

(٣) La vie de Mahomet. Par E.Dermengham.P.P. 94, 212; 215, 271.

(٤) Nouveau Larousse Universel. T.1. Goltz.

فون غولتز: هو جنرال ألماني ومؤلف كتاب «الأمة المسلحة». ولد في العام ١٨٤٣م، وكلف بتنظيم الجيش العثماني في العام ١٨٨٣م ثم قاد الجيشين التركيين الأول والسادس أثناء الحرب العالمية الأولى ما بين العامين ١٩١٥ ـ ١٩١٦م.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ص٩٥.

المقدِّمة

«ما ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب، أو أُبشَّر فيها بغلام، أحبُّ إليَّ من ليلة شديدة الجليد، في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد»[1].

خالد بن الوليد

خالد بن الوليد، علم من أعلام المجاهدين في سبيل الله، وعالم وحده في فن القيادة وإدارة الحرب، اكتسب شهرة واسعة في حياته الدنيا، إذ أحب المسلمون سيفه، وذعر أعداء المسلمين من بطشه، فكان في ذلك بعض عوامل نصره. هؤلاء الذين أحبوا سيفه منحوه الدعم والثقة والإخلاص، وأولئك الذين خافوه تخلوا عن سيوفهم وقدموها له، وهم إن لم يفعلوا ذلك وجابهوه اضطروا في النهاية إلى الإذعان والاستسلام بعد أن يدركهم الفناء. وأخذت أسطورة خالد في التعاظم من خلال العلاقة الجدلية في حوار الإرادات بين الأصدقاء والأعداء. ومضى خالد إلى لقاء ربه راضياً مرضياً، ولكن الأسطورة لم تتوقف، وإنما أخذت في التعاظم يوماً بعد يوم. فقد أخذت الأجيال تتناقل سيرته جيلاً بعد جيل، وأقبل قادة الدنيا ينهلون من مورد خالد الخالد فناً وعلماً، وهل إدارة الحرب غير علم له مبادئه وأسسه وفن له قواعده ومعطياته؟...

ولكن، وقبل المضي بعيداً في سيرة خالد يمكن التساؤل: من أين تعلم هذا القائد مبادئ الحرب وفن القتال؟ إنه لم يتعلمها من كلية أو معهد، وإنما تعلمها من مدرسة الإسلام، فكانت العقيدة الدينية الإسلامية، والعقيدة القتالية الإسلامية المنبثقة عنها هي الأساس الفكري الذي رسم لخالد خطواته الصحيحة على درب القيادة. ولكن هل كان خالد فتى غراً قبل الإسلام؟ يقيناً لا! فقد كان

---

(١) الإصابة ٢/٩٩.

خالد يضج بالحياة، وكان موهوباً، وقد أظهرت معاركه ضد المسلمين في موقعة أُحد وغزوة الخندق وغزوة الحديبية أنه فارس على درجة عالية من الكفاءة، ولكن تلك الكفاءة كانت محددة القدرة، محددة الأبعاد، وذلك بسبب حاجتها لتوفر عاملين أساسيين هما:

١ ـ عدم التكامل في العقيدة القتالية.

٢ ـ عدم التوافق بين كفاءة القائد وقدرة المقاتلين.

وعندما أسلم خالد اكتملت له عوامل النصر، فسار بجيش المجاهدين في سبيل الله وانتقل بهم من نصر إلى نصر. ومن خلال تلك الانتصارات تعاظمت سيرة القائد العظيم حتى أصبحت حديث الدنيا. ومن خلال هذه العوامل ذاتها، فقد مهدت بيئة الإسلام الخصبة لظهور تلك الفئة الفريدة من القادة الذين لم يكن بينهم فاضل ومفضول، والذين استطاعوا فرض وجودهم على عالمهم، فأضاء بهم فن الحرب، وأشرق لهم علم الحرب، وقدموا للدنيا علماً وفناً خالدين. وهكذا فقد كانت العوامل التي كوَّنت شخصية القائد خالد بن الوليد ثلاثة هي: الكفاءة القيادية وفن الحرب، الذي استمد قواعده وأسسه من العقيدة القتالية الإسلامية، ثم جاء جيش المجاهدين في سبيل الله ليساعد خالداً على تحقيق ما حققه وإكمال ما أنجزه.

مضى خالد للقاء ربه، ولكن شعلة فن الحرب التي حملها لا زالت تتزايد ألقاً ووهجاً، وكلما جاء جيل عاد إلى سيرة خالد فقرأها وأعاد صياغتها بأسلوب العصر الذي يعيشه، وبلغة الجيل الذي يعاصره، فبقيت قصة خالد متجددة على الدوام، تعيش كل جيل، وتساير كل عصر.

ضمن هذا الإطار، تصدى لسيرة خالد بن الوليد في عصرنا الحديث ثلاثة من كبار كتابنا العسكريين هم: العقيد الركن ياسين سويد (لبنان)، واللواء أكرم محمود شيت خطاب (العراق)، والجنرال أ.أكرم (باكستان)، الذي ترجمه العميد الركن صبحي الجابي (سوريا)، وكلهم أجاد الكتابة وعالج حياة خالد وسيرته القيادية بأسلوبه، ووفق المنهج الذي حدده لبحثه ودراسته. وفي الواقع، هناك ظاهرة مميزة ورائعة في عمل الكتاب العسكريين الذين سبقوا لمعالجة سيرة خالد بن الوليد، فجميعهم أعرضوا عن كتابات المستشرقين والمستغربين وكلهم رجعوا إلى موارد واحدة هي تاريخ الأجداد الأقدمين، من أمثال: الطبري وابن الأثير والبلاذري وابن قتيبة وابن هشام وابن حزم وأمثالهم، ثم عادوا إلى

أنفسهم وإلى أسلوبهم وإلى قاعدتهم في العلم والمعرفة، وركزوا جهدهم لتحليل حياة القائد العظيم من منطلقات واحدة، وليس ذلك إلا برهاناً على متطلبات العصر الذي نعيشه. إنها الحاجة إلى التمسك بتراث الأجداد، والتشبث بالأصالة التي أعطت الدنيا علماً وفناً ثم عادت لاستيراد هذا العلم والفن فوجدت الاغتراب. إنها روح العصر الذي نعيشه، روح التجديد للأصالة التي أنبتت شجرة وارفة الظلال، ثم جاءت الهجمات لتجتث جذور الشجرة اليانعة ولتحولها إلى مجرد نبات متيبس تعصف به كل ريح.

رجعت من جولتي الواسعة في كتابات الأقدمين والمحدثين، ووقفت وأنا في حيرة أمام محيط خالد بن الوليد، وتساءلت: هل من الضروري إضافة قطرة إلى هذا المحيط وأنا أقتحمه؟ إن القضية ليست مجرد استكمال لمجموعة «مشاهير قادة الإسلام» وإنما القضية هي في إضافة ما هو جديد، وصحيح إنني سأنطلق من ذات الأرضية التي انطلق منها الإخوة الكُتّاب العسكريون الذين سبقوني إلا أن أسلوب التحليل سيكون مغايراً بدون ريب، وقد يكون في ذلك فائدته ومتعته، وفكرت أن أعرض عن السيرة وأكتفي بالتحليل لحياة قائدنا العظيم، ولكني وجدت أن ذلك سيفرض على القارئ العودة لأكثر من كتاب بهدف إكمال صورة الموقف، وعزمت في النهاية على أن أضع الكتاب وفق الأسلوب والمنهج اللذين اتبعتهما في المجموعة السابقة.

وبعد، فهذا جهد المقلِّ في الورود من محيط لا نهاية له، وإنني أرجو مخلصاً، وأنا أضيف قطرة أخرى إلى محيط خالد بن الوليد، أن يكون ذلك رفداً في الطريق إلى مزيد من المعرفة، معرفة تراث الآباء والأجداد، عسى أن تكون هذه المعرفة منارة لإضاءة درب أصالتنا. والله أسأله التوفيق.

موجز حياة خالد بن الوليد

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٢٥ق.هـ	٥٩٧	ميلاد خالد بن الوليد.
٣ب.هـ	٦٢٤	خالد مع المشركين في غزوة الخندق.
٥هـ	٦٢٦	خالد مع المشركين في غزوة الحديبية.
٧هـ	٦٢٨	خالد مع المشركين في عمرة القضاء.
٨هـ	٦٢٩	إسلام خالد واشتراكه في غزوة مؤتة، وفتح مكة، وهدم العزى، وغزوة بني جذيمة ويوم حنين وغزوة الطائف.
٩هـ	٦٣٠	غزوة بني المصطلق وتبوك وهدم ود وغزوة دومة الجندل.
١٠هـ	٦٣١	خالد في نجران واليمن
١١هـ	٦٣٢	في حروب الردة مع طليحة ومالك بن نويرة واليمامة.
١٢هـ	٦٣٣	خالد في قيادة فتح العراق وإدارة معارك المذار والولجة وأليس وأمغيشيا والحيرة والأنبار وعين التمر ودومة الجندل والمصيخ والثني والزمل والفراض وحجة خالد.
١٣هـ	٦٣٤	تحرك خالد إلى الشام، ومواقعه في قراقر وسوى وتدمر وقصم ومرج راهط وبصرى واليرموك وفتح دمشق وفحل.
١٥هـ	٦٣٥	مواقع خالد مع «أبو عبيدة» في مرج الروم وحمص وقنسرين ومرعش وحصن الحدث ـ ما وراء الدروب ـ.
٢١هـ	٦٤١	وفاة خالد بن الوليد عن عمر يناهز ٤٦ سنة هجرية، ٤٤ سنة ميلادية تقريباً.

الفصل الأول

خالد بن الوليد

أ ـ خالد بن الوليد في الجاهلية.
ب ـ خالد بن الوليد في الإسلام.
جـ ـ خالد بن الوليد وحروب الردة.
د ـ خالد على جبهة العراق.
هـ ـ خالد في الشام.

خالد بن الوليد

(.. ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله)

من حديث الرسول

مضى الفارس خالد بن الوليد في ظلمة الليل، وسنابك فرسه تدق الأرض بتصميم وعزم، فيتجاوب لها قلب الرجل الذي جاوز الأربعين. إنه ينظر من خلال العتمة الموحشة إلى ذلك الضياء الذي أشرق له الكون، فيرى من خلاله المستقبل، وينظر وراءه فيجد الظلمة وهي لا زالت تغلف قلوب الناس الذين خلفهم في مكة. وقبل أن يمضي بعيداً في طريقه إلى الوهج الساطع أبصر في الظلمة شبح فارسين يقتربان منه، وعرفهما: إنهما عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وسواء تم ذلك اللقاء على موعد أو غير موعد، فقد مضى الركب بصمت نحو الهدف المشترك. إنهم أفلاذ أكباد مكة المكرمة كما وصفهم رسول الله ﷺ. ووجد الفارس الأول في صمت الليل ووحشته فرصة لاستعادة كلمات أخيه الوليد الذي كتب له منذ عهد قريب جداً: **(سألني رسول الله عنك، فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك منه، فقد فاتتك مواطن صالحة)**[1].

وارتسمت صورة اللقاء في قلب خالد قبل أن ترتسم على صفحات التاريخ: «الإسلام يجبُّ ما قبله» ولولا ذلك لما وجد خالد لنفسه مكانة بين المسلمين المجاهدين في سبيل الله بعد كل نكايته بهم في أُحد والخندق والحديبية. ولكن هل كان خالد يبحث عن المكانة وهو الذي خلف وراءه عز الدنيا وثراءها مع كل ما انتقل إليه بالوراثة من ولاية بني مخزوم التي تخصصت بشؤون الحرب

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٣٨، ٢٣٩، وطبقات ابن سعد ٣/ ٣٩٤، والإصابة ٦/ ٣٢٣.

«القبة والأعنة»؟ وذكر خالد ما نزل بحق أبيه: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر/١٢ ـ ٢٠]. ووجد كيف أن الدنيا لم تفد والده شيئاً عن الآخرة، فلا غرابة إن هو ترك الدنيا ومضى بحثاً عن الآخرة. لقد كان يحمل على كاهله هموم الدنيا وهو في سبيله للتحرر من ثقلها وأعبائها ليتفرغ لما فيه خير له ولآخرته، فلا غرو أن يدق قلب الفارس بعنف وهو يقفز مسابقاً الريح في ظلمة مرعبة يمكن لها أن تدخل الذعر إلى كل قلب، إلا قلوب فرسان أنار الإيمان قلوبهم.

ووصل الركب المدينة المنورة ودخلوا على الرسول ﷺ، فسلموا عليه بالنبوة فرد الرسول بوجه طلق. والتفت الرسول إلى خالد بن الوليد ليقول له: (**قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير**). وقال خالد: «يا رسول الله، استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله». فقال الرسول: (**اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صد عن سبيلك**). وأقطع الرسول خالداً موضع داره، فاستقر إلى جانب النبي، يعيش برعايته ويتمتع بثقته حتى قال: «والله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يجزئه»[1].

وبدأت مرحلة تكوُّن شخصية القائد المسلم خالد بن الوليد، وقد يكون من المناسب استقراء بعض ملامح شخصية خالد في الجاهلية بهدف معرفة الأرضية التي مهدت لظهور خالد بن الوليد.

---

(١) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٥٢.

أ ـ خالد بن الوليد في الجاهلية

١ ـ الوراثة والبيئة

كان الوليد بن المغيرة، والد خالد، سيداً من سادات قريش، لقَّبه قومه بالوليد، ولقَّبوه ريحانة قريش، وعند جده مُرَّة كان يلتقي نسبه بالرسول ﷺ و«أبو بكر» الصديق[1]. وكان الوليد خصماً عنيداً للإسلام والمسلمين، وكان شديد النكاية بالرسول ﷺ، حتى إذا مضى عن الدنيا خلف وراءه الحقد في نفوس أبنائه. وكان الوليد براً بأبنائه محباً لهم، فخوراً بهم، حرص على تنشئتهم حياة البداوة، حيث الفروسية والحرب، وحيث المهارة في استخدام الأسلحة المختلفة وركوب الخيل وقيادة الرجال. وتابع خالد بن الوليد منذ حداثة عهده ما يلحق بالمسلمين من اضطهاد وتعذيب، ورغم ذلك فلم يؤثر ذلك على المسلمين إلا زيادة في الصمود، وإلا زيادة في التمسك بالدين الجديد. ورأى خالد أن معظم رفاقه قد ابتعدوا عنه، فها هو عمر بن الخطاب وسواه من سادة قريش وعبيدهم قد التفوا كلهم حول الرسول ﷺ. وهاجر الرسول إلى المدينة وأخذت قاعدة المسلمين في التوسع واكتساب مزيد من القوة. ورغم ابتعاد المسلمين عن مكة المكرمة فقد بقيت أخبارهم موضع اهتمام العامة والخاصة، وكان خالد رغم وقوفه في موقع العداء من المسلمين إلا أنه كان لا ريب فخوراً بمحمد الذي كان يعتبره كما يقول: «واحد منّا وقريبنا». وفي تلك الفترة كانت الأحداث تسير في مكة بصورة مضادة، فكل نجاح تحرزه المدينة يعتبر نكسة

---

(١) أ ـ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن (مرة) بن كعب.

ب ـ خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن (مرة) بن كعب.

جـ ـ أبو بكر بن عثمان (ولقبه أبو قحافة) بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن (مرة) بن كعب.

جوامع السيرة لابن حزم ص٣.

بالنسبة لمكة، وتحول الصراع بين قاعدتين: قاعدة المسلمين وقاعدة المشركين، وكان الطريق لحسم الصراع في صالح إحدى القاعدتين لا يزال طويلاً وشاقاً.

٢ ـ في موقعة أُحد

حشد المشركون قواتهم لقتال المسلمين في السنة الثالثة للهجرة، وذلك انتقاماً لهزيمتهم المنكرة في موقعة بدر الكبرى التي حدثت في السنة السابقة، وكانت قوات المشركين تضم (٣) آلاف مقاتل ومائتي فارس. وبعد ثلاثة أيام من مغادرة مكة وصل المشركون إلى ظاهر المدينة المنورة فأقاموا معسكرهم، في ظاهر جبل أُحد، وأخذوا في الإعداد للمعركة الفاصلة وهم يظنون أنهم سيباغتون المسلمين في قاعدتهم، ولكن أخبار الحملة كانت تصل تباعاً إلى الرسول ﷺ الذي خرج للقاء المشركين بعد أن استشار أصحابه. ونظم الرسول القائد قواته التي ضمت (٧٠٠) مقاتل فقط، فوضع (٥٠) رامياً على تل عينين لحماية ميسرة المسلمين، وأوصى قائدها عبد الله بن جبير بقوله: (انضحوا الخيل عنا بالنبل، إن كانت لنا أو علينا، احموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل.. إنا لا نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم)[1].

كان خالد بن الوليد يقود نصف قوة فرسان المشركين، أي: (١٠٠) فارس، بمهمة حماية ميمنة القوات، وقد قام بعدد من الهجمات الفاشلة، ثم قام المسلمون بهجوم حاسم وصلوا به معسكر المشركين. وظنت قوة عبد الله بن جبير أن المعركة قد انتهت، وأرادوا الإسراع إلى الغنائم، فنهاهم قائدهم عن ذلك، ولكنهم لم يستمعوا إليه، فبقي مع عشرة من أصحابه. ورأى خالد بن الوليد الفرصة المناسبة فأسرع بفرسانه يلتف من حول جبل الرماة، وباغت المسلمين فمزق صفوفهم، وظن المسلمون أن الرسول ﷺ قد استشهد، وأسرع المقاتلون في إخلاء ميدان المعركة، وهمَّ أكثرهم بالفرار لولا سماعهم صوت الرسول: (هلمَّ إليَّ، أنا رسول الله)، وكان الموقف خطيراً، فقد استطاع خالد بن الوليد تدمير بقية القوة المتمركزة على تل عينين، وطوَّق مؤخرة قوات المسلمين. وأفاد المشركون من هذا الموقف، فأعادوا تنظيم صفوفهم، وارتفعت روحهم المعنوية.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٥، ٦٦، والسيرة الحلبية ٢/ ١٧، ١٨، ومغازي الواقدي ص١٧٥.

انطلق الرسول ﷺ بمن بقي معه من المسلمين، فاحتل موقعاً منيعاً من الشعب في جبل أُحد، ونظم قوة للدفاع. وعندما أدرك المشركون أنهم لم يتمكنوا من قتل الرسول، وأنهم لن ينالوا من صمود القاعدة الإسلامية، قرروا العودة إلى مكة متمثلين بما قاله أبو سفيان لعمر بن الخطاب وقد تأكد منه أن محمداً لا زال على قيد الحياة، فودعه وهو يقول له: «هذا بيوم بدر، والحرب سجال، أما أنكم ستجدون في قتلاكم مثلاً[1]، والله ما رضيت ولا سخطت، ولا نهيت ولا أمرت».

٣ ـ في غزوة الأحزاب «الخندق»

جمع المشركون والوثنيون واليهود صفوفهم في السنة الخامسة للهجرة حتى زادت على عشرة آلاف مقاتل، وهو أكبر حشد عرفته الجزيرة، وكانت قوة المسلمين لا تزال ضعيفة لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل، فقرر الرسول ﷺ حفر خندق، اعتماداً على نصيحة سلمان الفارسي، وعندما وصلت قوة الأحزاب إلى المدينة اصطدمت بالخندق ووقفت عاجزة عن عبوره، فقررت ضرب الحصار على قاعدة المسلمين، وأثناء ذلك بذلت عدة محاولات للعبور. قاد خالد بن الوليد فرسانه في محاولتين، فشلت الأولى قبل الاقتراب من الخندق، وفشلت الثانية عند عبور خالد ووصوله إلى ما وراء الخندق حيث طوقه المسلمون، وعندما وجد أنه مهدد بالفناء انسحب بقواته، وبعد حصار استمر (٢٣) يوماً يئس المشركون من المسلمين فقرروا رفع الحصار والعودة إلى قاعدتهم في مكة، وتم تكليف خالد بن الوليد وعمرو بن العاص بقيادة المؤخرة، خوفاً من مطاردة المسلمين.

٤ ـ في الحديبية

قاد الرسول ﷺ جموع المسلمين لقضاء العمرة، في أواخر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وخرج المشركون من مكة للحرب ومنع قوات المسلمين من الوصول إلى هدفها، وتم تكليف خالد بن الوليد بقيادة قوة من (٣٠٠) فارس بمهمة مجابهة قوات المسلمين، واصطدمت قوة خالد بقوة استطلاع للمسلمين

---

(١) يشير بذلك إلى ما قامت به هند بنت عتبة من بَقْرٍ لبطن حمزة عم الرسول ﷺ واقتطاعها قطعة من كبده ولوكها، وكذلك تقطيع آذان المسلمين والتمثيل بهم بتوجيه من هند بنت عتبة.

لا تزيد على عشرين فارساً. وعندما علم الرسول ﷺ بحجم قوة خالد وموقعها عند كراع الغميم كلف قوة الاستطلاع بالمحافظة على التماس مع خالد وتجنب الصدام معها، وقام بحركة التفاف واسعة، وعندما شاهد خالد الغبار وهو يغطي الأفق عرف أن قوة المسلمين الرئيسية قد تجاوزته كثيراً وأصبح في موقع العزلة، فقرر الانسحاب بقوته والعودة إلى مكة، وتم بعد ذلك صلح الحديبية ولم تقع حرب أو اشتباك[1].

ثلاثة مواقع وقف فيها خالد ضد جند الله لم ينل منهم شيئاً رغم انتصاره في أُحد، وكان كل عدوان جديد على المسلمين يزيدهم قوة وعناداً وتصميماً في الوقت الذي كانت فيه قوة المشركين تتزايد ضعفاً وتمزقاً وتفتتاً، ولم تكن هذه الظاهرة لتخفى على خالد، ولكن الأهم من ذلك هو تلك الروح التي تميز بها المسلمون. وذكر خالد قصة أسر أخيه الوليد في موقعة بدر الكبرى، والتي لم يتمكن هو من الاشتراك فيها بسبب غيابه في الحجاز، ثم كيف توجه بعد ذلك مع أخيه هشام لفداء الوليد، وكيف طلب المسلمون مبلغ (٤) آلاف درهم فداء له، وعندما أراد هشام المساومة على هذا المبلغ الكبير، انتهره خالد ودفع المبلغ وحرر أخاه، وانطلق خالد بأخويه إلى زول حليفة، على بضعة أميال عن المدينة، حيث نصبوا خيمة لقضاء ليلهم، وفي الليل هرب الوليد وعاد إلى المدينة وأشهر إسلامه، وتخلى عن أخويه اللذين جاءا لافتدائه.

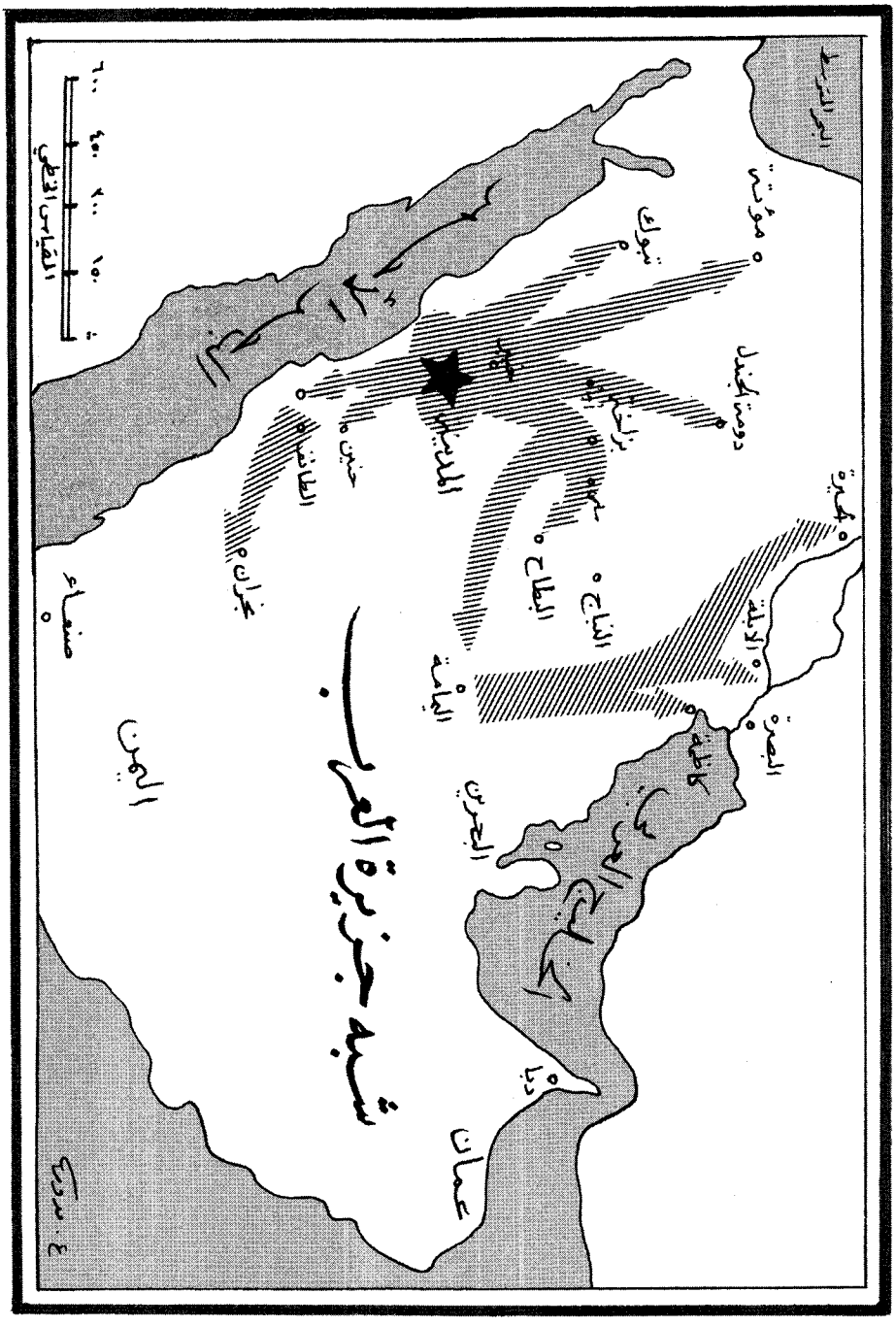
لقد رفض الوليد إشهار إسلامه وهو في ربقة الأسر حتى لا يظهر إسلامه وهو في موقع الضعف، ولكنه عرف الإسلام عن قرب، وعرف المسلمين وفضائل مجتمعهم الجديد، فاغتنم فرصة تحرره ليشهر إسلامه.

فكَّر خالد في ذلك كله، وأخذ في انتظار الفرصة المناسبة، وجاءت رسالة الوليد فلمست شغاف قلبه، وكان قد مضى على صلح الحديبية شهران لا أكثر، فأخذ خالد في الدعوة للإسلام، ودخل في حوار مع رفاقه في الجاهلية، وبلغ ذلك «أبو سفيان» فغضب لذلك واستدعى إليه خالداً في محاولة لثنيه عن عزمه، وهدده بقسوة، وهنا تدخَّل عكرمة لكبح غضب «أبو سفيان» وقال له: «اهدأ.. فإن غضبك سيقودني أيضاً للانضمام إلى محمد، فخالد حر في اختيار الدين الذي يرغبه». وعرف خالد أن أمثال هؤلاء قد غشيتهم غاشية، فلا هم يبصرون

(١) قصة الحديبية وشروط صلحها في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ٢/ ١٣٥ ـ ١٤٠.

بقلوبهم ولا هم ينظرون بعيونهم، لقد أُسدل ستار بينهم وبين الحق، فقرر خالد تركهم وراءه، ومضى إلى حيث نور الحق. وفرح المسلمون بخالد وفرح هو بلقائهم، إنهم إخوانه وأهله وعشيرته. لم يكن خالد في يوم من الأيام يهتم كثيراً بالعقائد والديانات، ولكنه وجد في الإسلام وجوده فاندفع كالظمآن ينهل من هذا المورد. وكان خالد يتردد باستمرار للتعلم على يدي رسول الله ﷺ، وليستدرك ما فاته.

مضت أشهر ثلاثة على إسلام خالد وهو بجوار النبي ﷺ، وكانت المدينة تضج بالحياة، فقد استقر فيها عدد كبير من المسلمين، وكانت أفواج المسلمين ودعاتهم في حركة دائمة، فقد كان حجم العمل أكبر من حجم المسلمين رغم زيادة قوتهم العددية، وكانت الوفود تتدفق باستمرار إلى المدينة لتعود منها وقد ربطت مصيرها بمصير المسلمين في قاعدتهم، ومع قدوم هذه الوفود وإيابها، كانت هناك حركة مبعوثي المسلمين مستمرة ومتعاظمة، وفي هذا الوقت قرر الرسول ﷺ إرسال وفد إلى أمير بصرى الغساني يدعوه للإسلام.


شبه جزيرة العرب
البحر الأحمر
مؤتة
تبوك
دومة الجندل
بزاخة
سميراء
البطاح
الناج
الملك
حنين
الطائف
بجران
صنعاء
اليمن
الأبلة
البحرين
الخليج العربي
عمان
دبا
البصرة
كاظمة
اليمامة
مقياس الخطي

ب ـ خالد بن الوليد في الإسلام

١ ـ غزوة مؤتة

غادرت قوة من المسلمين لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل قاعدة المسلمين في المدينة المنورة، متوجهة نحو الشمال حيث بلاد الشام، وكانت هذه القوة بقيادة زيد بن حارثة، بمهمة الانتقام لمقتل الوفد الذي كان الرسول ﷺ قد بعثه إلى حلفاء الروم، ذات الطلح، ومصرع الرسول، الحارث بن عمير الأزدي، الذي توجه إلى هرقل يدعوه للإسلام فتصدى له عمرو بن شرحبيل الغساني على الطريق وقتله. وكان من الطبيعي أن يكون الرد هو تجريد حملة من المسلمين الذين أوصاهم الرسول وهو يطلقهم: **(إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس)**[١]. ووصلت قوة من المسلمين إلى معان[٢] وأقامت فيها ليلتين، وتوفرت المعلومات عن حشد كبير لقوات الروم في مآب ومعهم أنصارهم من القبائل المستعربة من قابل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى، وذلك بقيادة هرقل ملك الروم[٣]. وهناك بعض الاختلاف في تقدير حجم قوات الروم وأنصارهم إلا أنه ليس هناك اختلاف بأن حجم هذه القوات كان يزيد بمعدل لا يقل عن ٥ ـ ١٠ أضعاف عن قوة المسلمين. واجتمع القادة لمناقشة الموقف، وتقرر خوض المعركة في مؤتة بصرف النظر عن حجم القوى، عملاً بنصيحة عبد الله بن رواحة الذي قال: «يا

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٢، والطبري ٣/ ١٠٧، والكامل لابن الأثير ٢/ ٢٣٤.

(٢) مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. معجم البلدان ٨/ ٩٣. والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. معجم البلدان ٢/ ٢٧٧.

(٣) في الطبري غزوة مؤتة. وابن الأثير ٢/ ١٥٩: إن قوة الروم بلغت (١٠٠) ألف، وقوات أنصارهم (١٠٠) ألف أيضاً. وذكر العقيد ياسين سويد ـ خالد ص١٤٤ ـ استناداً للعقاد ـ عبقرية خالد ص٥١: أن قوة الروم (١٥) ألف.

قوم: والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور نصر وإما شهادة». ودارت المعركة حاسمة وقصيرة قتل فيها قادة المسلمين الثلاثة على التتابع، وتمزقت قوات المسلمين، فتنادى المقاتلون وقرروا انتخاب خالد بن الوليد لقيادتهم.

لم يكن خالد يبحث عن القيادة، فقد مضى مجاهداً في سبيل الله، جندياً في صف المقاتلين، وتحت قيادة رجال لهم الفضل في سبقه إلى الإسلام. ولم يكن يشعر بحرج وهو الذي كان مقدماً في قومه، عزيزاً في عشيرته، قائداً في فرسانه، ولكن ها هي الفرصة تسنح له وتتقدم منه في موقف شديد الصعوبة. فقوات المسلمين ممزقة وهي أمام خصم يتفوق عليها تفوقاً حاسماً، ولكن رغم ذلك، فقد أخذ خالد على عاتقه مسؤولية إخراج قوة المسلمين من مأزق الحرب الذي يجابهونه، وإنقاذ المسلمين من الفناء الذي كان ينتظرهم.

أعاد خالد تنظيم قواته بسرعة، وانطلق بهجوم جبهي، وكان اندفاعه وحماسته كافيين لإثارة حمية القتال والتحريض على الجهاد. واندفع المسلمون في قتالهم المرير حتى غابت الشمس، وأفاد خالد من هذه الفرصة، فعمل على إعادة تنظيم قواته فاستبدل الميمنة بالميسرة ومقدمة القلب بالمؤخرة، وفي أثناء عملية الاستبدال، اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو عند الفجر بهجمات سريعة متتالية وقوية، ليدخل في روعه أنَّ إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين، وقد قامت بهذه الهجمات قوة الساقة «المؤخرة»، واستطاع خالد بذلك ضمان انسحاب الكتلة الرئيسية من قواته، ثم سحب المؤخرة، ولم يجد الروم الجرأة لمطاردة خالد اعتقاداً منهم بزيادة حجم قوته ووصول إمدادات إليه. وخسر المسلمون ثلاثة عشر مجاهداً، وكانت خسارة الروم وحلفائهم أكبر بكثير. فقد ذكر خالد ما فعله وحده فقال: «لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي إلا صحيفة يمانية».

جمع الرسول ﷺ المسلمين، وأخبرهم قصة المعركة، وذلك عندما كان جيش خالد لا يزال يضرب في الصحراء في الطريق إلى المدينة إلى أن قال لهم: **(ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فعاد بالناس)**، فمن يومئذ سمي خالد سيف الله.

وصل خالد وجيشه إلى المدينة فاستقبلهم الرسول والمسلمون، وحمل

الرسول ﷺ عبد الله بن جعفر بين يديه، في حين جعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: يا فرَّار في سبيل الله. فيقول رسول الله ﷺ: **(ليسوا بالفرار ولكنهم الكرَّار إن شاء الله)**.

٢ ـ خالد في فتح مكة

نقض المشركون صلح الحديبية ولما يمض على غزوة مؤتة أكثر من شهرين من السنة الثامنة للهجرة أيضاً، وحانت الفرصة التي طالما انتظرها الرسول ﷺ والمسلمون، فتم استنفار المسلمين، ونظمت قوتهم في أربع مجموعات لدخول مكة من أبوابها المتفرقة، وتولى خالد بن الوليد قيادة الميمنة بمهمة الدخول من أسفل مكة، منطقة الليط والخندمة إلى الشمال من مكة المكرمة، وعهد الرسول ﷺ إلى قادته ـ أمرائه ـ **(ألا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم)**.

كان جيش خالد يضم قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتسلم فيها خالد دوراً قيادياً تحت راية الإسلام. فمضى خالد إلى الاتجاه المحدد له، وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُمية وسهيل بن عمرو، قد جمعوا قوات من المشركين في الخندمة، ليقاتلوا المسلمين، ومعهم الأحابيش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة، فلقيهم خالد فقاتلهم، وقتل من المسلمين ثلاثة وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزم المشركون[1] ودخل المسلمون مكة من دون قتال، باستثناء تلك المعركة القصيرة والحاسمة التي خاضها خالد بن الوليد. ثم تجمعت قوات المسلمين، وأخذت في الطواف حول الكعبة وهي تردد: «الله أكبر! لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده...».

كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة، وكان سدنتها وحجابَها

---

(١) كان مع عكرمة رجل يقال له حماس بن قيس، وكان قد قال لامرأته: لآتينَّك بخادم من أصحاب محمد، فلما عاد إليها منهزماً، قال لها: أغلقي علي بابي، قالت له تستهزئ به: أين الخادم؟ قال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

ابن الأثير: الكامل ٢/ ١٦٧، ١٦٨.

بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم، وقد رافق عملية فتح مكة إزالة الأصنام. ولم تمض أيام خمسة على الإقامة في مكة حتى بعث الرسول ﷺ ثلاثين فارساً بقيادة خالد بن الوليد بمهمة هدم العزى، فقام خالد بتنفيذ المهمة وعاد إلى مقر النبي ﷺ[1].

ما كاد خالد يصل من مهمته حتى كان الرسول محمد ﷺ قد جهز قوة من ثلاثمائة وخمسين مقاتلاً وكلف خالداً بقيادتهم للقيام بمهمة دعوة بني جذيمة إلى الإسلام، وذلك في جملة السرايا التي تم توجيهها بعد الفتح ـ فيما حول مكة ـ، فكان ممن بعث خالداً بن الوليد، بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فنزل على الغميصاء، وهي ماء من مياه جذيمة، فوجد أن جذيمة قد أخذوا أسلحتهم واستعدوا للحرب، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، وجعلوا يقولون صبأنا، صبأنا. فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا. فوضعوا السلاح، فأمر خالد بهم فكتفوا ثم عرضهم على السيف، فقتل منهم من قتل، فلما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: **(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد)**، ثم أرسل علياً ومعه مال، وأمره أن ينظر في أمرهم، فودى لهم الدماء والأموال... وبقي معه من المال فضلة، فقال لهم علي: هل بقي لكم مال أو دم لم يود؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله ﷺ. ففعل، ثم رجع إلى رسول الله، فأخبره فقال: **(أصبت وأحسنت)**[2].

٣ ـ غزوة هوازن بـ«حنين»

لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة جمعها مالك بن عوف النصري، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا. ولما بلغ ذلك الرسول ﷺ أجمع المسير إليهم بقوة (١٢) ألف مقاتل، وعجب المسلمون لكثرة عددهم حتى

---

(١) أقوال خالد وأقوال السادن عند هدم العزى، مثبتة من «من أقوال خالد» في بداية هذا الباب.

(٢) هناك روايات متناقضة يدحض بعضها بعضاً في موضوع الأسلوب الذي اتبعه خالد في حربه، وتزعم بعض المصادر أن سبب إقدام خالد على إبادة بني جذيمة هو انتقامه لثأرات الجاهلية حيث أصابت جذيمة في الجاهلية عوف بن عوف أبا عبد الرحمٰن بن عوف والفاكه بن المغيرة، عم خالد، ويمكن دحض هذه المزاعم بما هو معروف عن خالد من تفضيله دائماً لحرية العمل العسكري واتباع أسلوب حسم الصراع المسلح بصورة جذرية.

قال قائلهم: «**لن نغلب اليوم من قلة**»[1]. وتقدم خالد ومعه مائة فارس من بني سليم للعمل كمقدمة، وعندما وصل إلى وادي حنين أسرع خالد في تقدمه من دون إجراء استطلاع دقيق، بهدف الوصول إلى أوطاس حيث قاعدة هوازن. وقال أحد المسلمين «جابر» وهو يصف ما حدث: «لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ أجوف حطوط إنما ننحدر انحداراً في عماية الصبح، وكان القوم ـ من هوازن ـ قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: (**أيها الناس هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**). قالها ثلاثاً» وسقط خالد جريحاً[2]، ولم يبق حول الرسول سوى بعض الرجال وأهل بيته. وارتفع صوت العباس الجهوري وهو ينادي: «يا معشر الأنصار، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية». وترددت في الوادي صيحات «لبيك لبيك» وبدأ المسلمون في التجمع، ونظمهم الرسول ﷺ، وانطلق بهم وهو يرتجز:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

واستمر القتال حتى الضحى، وكانت قوات المسلمين تتزايد باستمرار وهي تتجمع بعد أن مزقتها المباغتة. ووجد الرسول أن الموقف قد بدأ في التحول لمصلحة المسلمين فقال: (**الآن حمي الوطيس**) وهو أول من قالها. وعندما اكتمل جمعُ المسلمين قاموا بهجوم عام وانتزعوا النصر الذي فقدوه في بداية المعركة.

دمر النبي قوات هوازن في وادي حنين، وطردها من أوطاس ولكنه لم يتوقف عند هذه المرحلة، فقرر متابعة التقدم إلى الطائف بهدف عدم السماح لهوازن بإعادة تنظيم قواتها. واحتمل خالد جراحه، وعاد لقيادة المقدمة على رأس بني سليم.

---

(١) وفيها نزل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة/ ٢٥].
وحنين: هو واد يبعد (١١) ميلاً شرق وشمال شرق مكة، ويمتد مسافة (٧) أميال، وهو وادٍ ضيق ينفرج في قسم منه حتى يبلغ عرضه ميلين تقريباً.

(٢) تعتبر هذه الحادثة من أحداث الحرب المثيرة، والتي استطاع فيها جيش كامل أن ينصب كميناً لجيش كامل. وكان العامل الأساسي للنجاح هو عدم نجاح قوة الاستطلاع في تنفيذ واجباتها مما مهد لحدوث المباغتة على مستوى العلميات.

في الطريق إلى الطائف قاتل خالد فلول المشركين، وكان بين قتلى المشركين امرأة، وشاهدها النبي وسأل: من قتلها؟ فقالوا: خالد بن الوليد، فقال لبعض من معه: (**أدرك خالداً وقل له: إنَّ رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً ـ أجيراً ـ**). واستمر حصار الطائف نيفاً وعشرين يوماً، ثم رفع المسلمون الحصار عنها، ورجعوا إلى المدينة.

٤ ـ خالد مع بني المصطلق

بلغ النبي أن بني المصطلق قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث خالداً وأمره أن يتثبت ولا يعجل. وانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، وبعث عيونه «جواسيسه» فأخبروه بأن القوم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه، فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر[١].

٥ ـ في دومة الجندل[٢]

علم النبي ﷺ أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا على قصده، فتجهز هو والمسلمون وساروا إلى الروم، وكان الحر شديداً والبلاد مجدبة والناس في عسرة، فكان ذلك الجيش يسمى جيش العسرة، وكان أكبر جيش حشده المسلمون[٣]. وقاد النبي هذا الجيش بنفسه حتى وصل تبوك ومنها أخذ في إرسال السرايا لإخضاع المناطق المجاورة، مثل أم رشراش ـ قرب العقبة ـ وجربة وأذرع ومكنة، وجميعها تقع على امتداد خليج العقبة. ثم أرسل خالداً بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان نصرانياً من كندة، فقال لخالد: إنك تجده يصيد البقر. فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه على منظر العين نصب كميناً، ولم تمضِ سوى فترة حتى خرج أكيدر ومعه أهل بيته يطلب البقر، فتلقتهم خيل رسول الله ﷺ وأخذته، وقتلوا أخاه حساناً. وقدم خالد بأكيدر على الرسول فحقن دمه وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله. وبعث النبي ﷺ خالداً لهدم ودٍّ في دومة الجندل، فحالت بنو

---

(١) وفيها نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات/ ٦].

(٢) **دومة الجندل**: حصن على سبع مراحل من دمشق، تقع بين دمشق والمدينة. معجم البلدان ٤/ ١٠٦ وتسمى اليوم: الجوف، تبعد قليلاً عن تبوك.

(٣) الكامل لابن الأثير ٢/ ١٨٩.

عبد ود وغيرهم بينه وبين هدمه، فقاتلهم خالد، وبعد دحرهم هدمه وكسره جذاذاً[1]. ورجع المسلمون من غزاتهم فوصلوا المدينة بعد أن أقاموا في تبوك بضع عشرة ليلة، وكان ذلك في نهاية السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م).

٦ ـ في نجران

أرسل النبي حملة عسكرية تضم أربعمائة مقاتل من المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد، بمهمة دعوة قبيلة بني الحارث بن كعب في نجران، الواقعة إلى الشمال من اليمن، وذلك في ربيع الثاني (١٠هـ/ الموافق تموز ـ يوليو ـ ٦٣١م) وأوصاه بقوله: **(فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم)**. ووصل خالد إلى نجران واتصل ببني الحارث بن كعب ودعاهم إلى اعتناق الإسلام، فقبلوا دعوته، ولم ترق الدماء، وأرسل خالد إلى الرسول ﷺ يعلمه بنجاح مهمته، وأجابه الرسول يهنئه[2]، وأقام خالد مع القبيلة عدة أشهر وهو يعلمهم قواعد الإسلام وتعاليمه ثم عاد مع وفد منهم إلى المدينة.

---

(١) الصنم «ود»: هو تمثال رجل ضخم الجسم، عبده بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل. سيرة ابن هشام ١/ ٨٣.

(٢) كتب خالد إلى الرسول ﷺ يعلمه بنجاح مهمته:
بسم الله الرحمٰن الرحيم
لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد. السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.
أما بعد: يا رسول الله، صلى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسُنَّة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم. وإني قدمت عليهم، فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً: يا بني الحارث! أسلموا تسلموا. فأسلموا ولم يقاتلوا. وأنا مقيم بين أظهرهم، وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأُعلمهم معالم الإسلام وسُنَّة النبي ﷺ حتى يكتب إلي رسول الله. والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.
وأجابه الرسول ﷺ: بسم الله الرحمٰن الرحيم.
(من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد. سلام عليك. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم بهداه، فبشِّرهم، وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته).
تاريخ الطبري ٣/ ١٢٦، ١٢٧.

٧ ـ خالد في اليمن

بعث النبي ﷺ، في السنة العاشرة للهجرة، علياً في جند، وبعث خالداً في جند آخر، وقال: **(إن التقيتما فالأمير علي بن أبي طالب)**، وكانت هذه آخر مهمة اضطلع بها خالد في حياة الرسول ﷺ.

ثلاثة أعوام تقريباً قضاها خالد في العمل تحت راية الإسلام في زمن الرسول، مقابل عشرة أعوام ونيف عمل فيها خالد ضد الإسلام، ولكن خبرته القتالية وخبرته في القيادة لم تساعداه على خوض أكثر من معركة حاسمة واحدة هي معركة أُحد، في حين خاض تحت راية الإسلام معارك كثيرة، بعضها تحت قيادة النبي ﷺ مباشرة، وبعضها الآخر بصورة مستقلة. وقد يكون من السابق لأوانه تقويم أعمال خالد وكفاءته، ولكن بالإمكان استخلاص بعض الملامح الأولية التي اكتسبها خالد من خلال جهاده تحت راية الإسلام، ومنها:

١ ـ لقد برهن خالد على كفاءته العالية عندما تم تكليفه بممارسة أعمال قيادية مستقلة.

٢ ـ لقد تعلم خالد قيادة قوات كبيرة الحجم تختلف تماماً عن تلك التي كان يقودها في جاهليته.

٣ ـ لقد قاد خالد معركة ناجحة في أُحد ولكن الرسول ﷺ انتقص من قيمة ذلك النجاح وأحبطه، كما قاد خالد معركة فاشلة في حنين، وعمل الرسول أيضاً على تحويل الفشل إلى نصر كامل. ولعل هذه الدروس هي من أفضل ما تعلمه خالد، إذ أنه أصبح أكثر قدرة للتمييز بين غاية السلم التي ينشدها الإسلام ويعمل لها، وبين هدف الحرب الذي يتم إنجازه في حدود مقننة على مسرح الأعمال القتالية.

جـ ـ خالد بن الوليد وحروب الردة

١ ـ تمهيد

«ارتدت العرب، إما عامة وإما خاصة، في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم»[١].

«وتضرمت الأرض ناراً، وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مسليمة وطليحة، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد وارتدت غطفان تبعاً لعيينة بن حصن»[٢].

جابه الخليفة الأول هذا الموقف، فشكل أحد عشر جيشاً، وقطع البعوث وعقد الألوية، «عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة ـ بالبطاح ـ إن أقام له، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة». ووجه الخليفة أبو بكر رضي الله عنه كتباً إلى قادة الردة ينصحهم ويحذرهم، كما زود قادة الجيوش بكتب يحدد لهم فيها واجباتهم[٣]. ووجه الخليفة أبو بكر عدي بن حاتم الطائي ليسبق خالداً بمهمة تخذيل القبائل ومساعدة خالد على تنفيذ مهمته، ثم أمر أبو بكر القائد خالداً: «أن يبدأ بطيء على الأكناف، ثم يتوجه بعد ذلك إلى بزاخة[٤] ثم يثلث بالبطاح ولا ينتقل إذا فرغ من قوم حتى يأمره بذلك. وقام أبو بكر بتظاهرة عسكرية، فأعلن أنه خارج إلى خيبر حتى يلاقي خالد بأكناف سلمى، فخرج خالد وقام بحركة التفاف مبتعداً عن البزاخة وجنح

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٥.
(٢) الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٣١.
(٣) رسائل الخليفة، وأسماء قادة الجيوش الإسلامية لحروب الردة في الطبري ٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢، وابن الأثير ٢/ ٢٣٤، وهؤلاء القادة هم: خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، والمهاجر بن أبي أمية، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن سعيد، وحذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة، وسويد بن مقرن، والعلاء بن الحضرمي، وطريفة بن حاجز، وعمرو بن العاص.
(٤) **بزاخة**: ماء بطيء بأرض نجد، وقيل: ماء أسد. معجم البلدان ٢/ ١٦١.

إلى أجأ وأظهر أنه خارج إلى خيبر للقاء «أبو بكر» فقعد ذلك طيئاً وبطأهم عن طليحة. وقدم عدي بن حاتم على قومه طيء فدعاهم فقالوا: لا نبايع «أبو الفيصل» أبداً! فقال: لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم، ولتُكنُّنَّهُ بالفحل الأكبر، فشأنكم به. فقالوا له: فاستقبل الجيش فنهنه «أي: أبعده» عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدي خالداً عند السنح[1] فقال: يا خالد! أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار، وتشاغل بهم. ففعل. فعاد عدي إليهم وقد أرسلوا إخوانهم، فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم ولولا ذلك لم يتركوا، فعاد عدي بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة، فقال له عدي: إن طيئاً كالطائر، وإن جديلة أحد جناحي طيء، فأجِّلني أياماً لعل الله ينتقذ جديلة كما انتقد الغوث. ففعل، فأتاهم عدي، فلم يزل بهم حتى بايعوه، فجاءه بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عدي خير مولود في أرض طيء وأعظمه عليهم بركة.

وأرسل خالد بن الوليد عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم الأنصاري طليعة لقوات المسلمين، فلقيهما حبال، أخو طليحة، فقتلاه، فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتل طليحة عكاشة وقتل أخوه ثابتاً ورجعا. وأقبل خالد بالناس، فرأوا عكاشة وثابتاً قتيلين، فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيء، فقالت له طيء: نحن نكفيك قيساً فإن بني أسد حلفاؤنا. فقال: قاتلوا أي الطائفتين شئتم. فقال عدي بن حاتم: لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه، والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم. فقال له خالد: إن جهاد الفريقين جهاد. لا تخالف رأي أصحابك وامضِ بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط، ثم تعبى لقتالهم. ثم سار حتى التقيا على بزاخة وبنو عامر قريباً يتربصون على من تكون الدائرة، فاقتتل الناس على بزاخة، وكان عيينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة، فقاتلوا قتالاً شديداً وطليحة متلفف في كسائه يتنبأ لهم، فلما اشتدت الحرب، كرَّ عيينة على طليحة وقال له: «هل جاءك جبريل بعد؟» قال: لا. فرجع فقاتل، ثم كرَّ على طليحة فقال له: «لا أباً لك! أجاءك جبريل؟» قال: لا. فقال عيينة: حتى

---

(١) السنح: موضع بنجد قرب جبل طيء، نزله خالد في حرب الردة فجاءه عدي بن حاتم بإسلام طيء وحسن طاعتهم. معجم البلدان ٥/١٤٩.

متى؟ قد والله بلغ منا. ثم رجع فقاتل قتالاً شديداً، ثم كرَّ على طليحة فقال: «هل جاءك جبريل؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه». فقال عيينة: «قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب». فانصرفوا وانهزم الناس.

وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار، فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال: يا معشر فزارة، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل. ثم انهزم[1].

ولما فرغ خالد من أمر بني عامر وبيعتهم على ما بايعهم عليه، أوثق عيينة وقرة بن هبيرة فبعث بهما إلى «أبو بكر» فلما قدما على المدينة، عرض عيينة بن حصن، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، ينخسه غلمان المدينة بالجريد ـ قضبان النخل ـ ويقولون: أي عدو الله، كفرت بعد إيمانك! فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط. فتجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه، وكذلك فعل مع قرة بن هبيرة. وكتب خالد بن الوليد إلى الخليفة رسالة أرسلها مع الأسرى جاء فيها: «**إن بني عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربص، وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كل قتلة، وبعثت إليك بـ«قرة» وأصحابه**». وأجابه أبو بكر فكتب له: «... ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً واتقِ الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم

---

(١) **طليحة بن خويلد الأسدي**: قدم مع وفد أسد بن خزيمة على النبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، فأسلم. فلما رجع ورجعوا تنبأ طليحة في حياة النبي ﷺ، فأرسل إليه النبي ضرار بن الأزور ليقاتله. فلما توفي النبي ﷺ عظم أمر طليحة بعد أن انضم إليه الحليفان أسد وغطفان، وكان يزعم أنه يأتيه جبريل بالوحي. ومن أقواله: «والحمام واليمام، والصرد الصوام، قد صمن قبلكم بأعوام: ليبلغن ملكنا العراق والشام». وقال طليحة يوم البزاخة: «أمرت أن تصنعوا رحاً ذات عرى، يرمي الله بها من رمى، يهوي عليها من هوى... ابعثوا فارسين على فرسين أدهمين، من بني نصر بن قعين، يأتيانكم بعين». وعندما هزمه خالد هرب طليحة إلى الشام، ثم نزل على كلب فأسلم حين بلغه إن أسداً وغطفان قد أسلموا، ولم يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر، وكان قد خرج معتمراً في إمارة «أبو بكر» ومر بجنبات المدينة، فقيل لـ«أبو بكر»: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به قد أسلم. ثم أتى عمر فبايعه حين استخلف، فقال له: أنت قاتل عكاشة وثابت، والله لا أحبك أبداً. وخرج طليحة بعد ذلك إلى الشام، وجاهد الفرس في القادسية وغيرها، وكان طليحة من أشجع العرب وكان يعد بألف فارس. ابن الأثير ٢/ ٢٣٤، ٢٣٥، والطبري ٣/ ٢٦٠، ٢٦١، والإصابة ٣/ ٢٩٦، والاستيعاب ٢/ ٧٧٣.

محسنون. جدَّ في أمر الله ولا تَنِيَنَّ، ولا تظفرنَّ بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حادَّ الله أو ضاده! ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله». فأقام خالد على البزاخة شهراً، يُصعِّد عنها ويصوب، ويرجع إليها في طلب أولئك. فمنهم من أحرق، ومنهم من قمطه ورضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال[1].

٢ ـ خالد مع أم زمل

اجتمعت فُلّال غطفان إلى ظفر، وبها أم زمل، سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر، وهي تُشبَّه بأمها، أم قرفة بنت ربيعة بن فلان بن بدر[2]، وكانت سلمى على مثل عز أمها وعندها جمل أم قرفة، فنزل الفُلَّال إليها، فذمرتهم وأمرتهم بالحرب، وصعدت سائرة فيهم، وصوَّبت تدعوهم إلى حرب خالد حتى اجتمعوا لها وتشجعوا على ذلك. والتجأ «تأشب» إليهم الشرداء من كل جانب. فاجتمع إليها كل جماعة منهزمون ومضيق عليهم من تلك الأحياء من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيء، فلما بلغ ذلك خالداً، وهو فيما هو فيه من تتبع الثأر وأخذ الصدقة ودعاء الناس وتسكينهم، سار إلى المرأة وقد استكثف أمرها، وغلُظ شأنها، فنزل عليها وعلى جُمَّاعها فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهي واقفة على جمل أمها، وفي مثل عزها. وكان يقال: من نخس جملها فله مائة من الإبل لعزها. وأبيدت يومئذ بيوتات، وأصيب في أناس من كاهل، وكان قتالهم شديداً، حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها. وقتل حول جملها مائة رجل.

---

(١) أقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله. وأتوا خالداً فبايعهم على ما بايع أهل بزاخة، وأعطوه ما بأيديهم على الإسلام. وكانت بيعته: «عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله ولتقيمن الصلاة ولتؤتنَّ الزكاة وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم، فيقولون: نعم». ابن الأثير ٢/ ٢٣٦.

(٢) كانت أم قرفة عند مالك بن حذيفة فولدت له قرفة وحكمة وجراشة وزملاً وحصيناً وشريكاً وعبداً وزفر ومعاوية وحملة وقيساً ولأياً. فأما حكمة فقتله رسول الله ﷺ يوم أغار عيينة بن حصن على سرح المدينة، قتله أبو قتادة. ثم سبيت سلمى مع أمها أم قرفة فوقعت لعائشة فأعتقتها، فكانت تكون عندها، ثم رجعت إلى قومها، وقد كان النبي ﷺ دخل عليهن يوماً فقال: (إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب). ففعلت سلمى ذلك حين ارتدت وطلبت بذلك الثأر فسيرت فيما بين ظفر والحوأب». الطبري ٣/ ٢٦٣، ٢٦٤.

٣ ـ مع مالك بن نويرة

عندما فرغ خالد من فزارة وغطفان وأسد وطيء، أراد التوجه إلى البطاح، وبها مالك بن نويرة، ولكن الأنصار تخلفت عن خالد وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من بزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا. فقال خالد: «**قد عهد إلي أن أمضي، وأنا الأمير، ولو لم يأتِ كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمتُه فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا، ثم نعمل به. وهذا مالك بن نويرة بحيالنا فأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين، ولست أكرههم**». ومضى خالد وندمت الأنصار وتذامروا وقالوا: إن أصاب القوم خيراً حرمتموه، وإن أصيبوا ليجتنبنكم الناس»، فلحقوه.

كان مالك بن نويرة قد عقد حلفاً مع مسيلمة وسجاح من أجل مجابهة قوات المسلمين فلم يفاجئهم إلا دنو خالد إليهم فارفضُّوا. وانصرفت سجاح إلى الجزيرة، حيث نزلت على أخوالها بني تغلب، وارعوى مالك بن نويرة وندم وتحير في أمره. ولما غشى المسلمون مالكاً وأصحابه ليلاً أخذوا السلاح، فقالوا: نحن مسلمون. فقال أصحاب مالك: ونحن المسلمون. قالوا لهم: ضعوا السلاح. فوضعوه، ثم صلوا. وسألهم خالد عن سبب حملهم السلاح والاستعداد للحرب بقوله: فما بال السلاح معكم؟ فأجابوه. فما بال السلاح معكم؟ واختلف المسلمون، وحدث غموض تسبب في مصرع مالك بن نويرة، وعندما علم أبو بكر بالموقف استدعى خالداً للمثول بين يديه، فخرج خالد إلى المدينة، حيث شرح له ما حدث، فرضي عنه. (انظر خالد وحرية العمل، لمتابعة ما حدث).

٤ ـ خالد ومسيلمة وأهل اليمامة

يطلق المسلمون على السنة العاشرة للهجرة اسم عام الوفود، ذلك أن فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة قد عزز من مكانة الإسلام والمسلمين، وأخذت وفود القبائل في التوجه إلى المدينة لمبايعة الرسول ﷺ وإعلان إسلامها على يديه، وقد استمرت هذه الحركة في اتجاه المدينة حتى وصلت ذروتها في السنة العاشرة للهجرة. وفي هذه السنة وفد، فيمن وفد إلى المدينة، بنو حنيفة وكان مسيلمة في أفراد القبيلة، وقد فضَّل الوقوف بعيداً، والبقاء لرعاية رواحل القبيلة

عوضاً عن التوجه لمقابلة الرسول. وتقدم الوفد إلى النبي ﷺ، وأشهروا إسلامهم، ثم ذكروا له مكان مسيلمة، وقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظهما لنا. قال: فأمر رسول الله بمثل ما أمر به للقوم، وقال: (أما إنه ليس بشركم مكاناً، يحفظ ضيعة أصحابه وذلك الذي يريد رسول الله). وانصرف بنو حنيفة وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله، فلما انتهى إلى اليمامة، ارتد عدو الله، وتنبأ، وتكذب لهم، وقال: «إني قد أُشركت بالأمر معه... ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني: أما إنه ليس بشركم مكاناً! ما ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أُشركت معه»، ومضى مسيلمة وهو يسجع السجعات في محاولة لمضاهاة القرآن[1]. وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح، وكان معه نهاد الرجال بن عنفوة، وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ، وقرأ القرآن وفقه في الدين فبعثه معلماً لأهل اليمامة، وليشغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أنه سمع محمداً ﷺ يقول: «إنه قد أُشرك معه»، فصدقوه واستجابوا له وأمروه بمكاتبة النبي ﷺ، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه، فكان نهاد الرجال بن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه، وكان ينتهي إلى أمره.

وكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه يعرف خطورة مسيلمة ولهذا أعطى القتال مع أهل اليمامة الأفضلية الأولى، وعين لقيادة حربها أفضل رجاله، خالد بن الوليد، ولكن خالداً كان مشغولاً بقتال المرتدين من أحلاف مسيلمة. وهكذا فعندما فرغ خالد من قتالهم، وحدثت حادثة مالك بن نويرة استدعاه إلى المدينة، وعالج معه الموقف، ثم كلفه بالتوجه لقتال مسيلمة. ولكن قبل ذلك، كان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه، قد وجه عكرمة بن أبي جهل لقتال مسيلمة، واستطاع هذا إلحاق الهزيمة بالمسلمين الذين يقودهم عكرمة، فكتب هذا إلى الخليفة، فأجابه: «**يا ابن أم عكرمة، لا أرينك ولا تراني على حالها، لا ترجع فتوهن الناس، امضِ على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة وإن شغلا فامضِ أنت، ثم تسير وتُسير جندك، تستثيرون من مررتم به، حتى تلتقوا أنت والمهاجر بن أمية باليمن وحضرموت**».

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٣٨، ٢٨١ ـ ٣٠٠، وابن الأثير ٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٩.

وجه الخليفة بعد ذلك شرحبيل بن حسنة ولكن شرحبيل فعل مثل ما فعله عكرمة وبادر بقتال مسيلمة الذي استطاع إلحاق الهزيمة به أيضاً، فزاد ذلك ثقلاً على نفوس المسلمين وزاد من قوة الروح المعنوية للمرتدين الذين يقودهم مسيلمة وتعاظمت ثقتهم بالنصر. وعندما وصلت أنباء هذه الهزيمة الجديدة إلى الخليفة، أصدر أمره إلى شرحبيل بالبقاء في موقعه، وكان في رسالته إليه: «إذا قدم خالد عليك، ثم فرغتم إن شاء الله، فالحق بقضاعة، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف». ووجه الخليفة على الفور خالد بن الوليد إلى البطاح وأمره بالتوقف ريثما يصل إليه الدعم الذي كان ينظمه. وتعجل خالد بالوصول إلى البطاح وأوعب الناس، وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد، وعلى كل قبيلة رجل، ووجه خالد اللوم إلى شرحبيل وكلفه بقيادة الفرسان والعمل كمقدمة للمسلمين.

وصل الدعم الذي كان ينتظره خالد بقيادة سليط[1] فكلفه خالد بقيادة المؤخرة، مخافة أن يأتوه من خلفه، وبدأ خالد تحركه نحو عدو الله.

لما بلغ مسيلمة دنو خالد ضرب عسكره بعقرباء واستنفر الناس، فجعل الناس يخرجون إليه. وخرج مجاعة بن مرارة[2] في سرية يطلب ثأراً له في بني عامر، وقد أدرك ثأره وعاد مع فرسانه ـ وعددهم ثلاثة وعشرون فارساً ركباناً ـ حتى إذا وصلوا إلى ثنية اليمامة على بعد ليلة من معسكر مسيلمة أدركهم النعاس، فناموا وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم وهم لا يشعرون بقرب جيش المسلمين منهم. وباغتهم المسلمون وهم نيام، وقالوا: من أنتم؟ قالوا: هذا مجاعة،

---

(١) هو **سليط بن قيس الأنصاري الخزرجي**، من الفرسان المسلمين الذين اشتهروا بشجاعتهم، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وكان في جيش العراق، واشترك في معركة المروحة، أو قس الناطف، أو الجسر، التي قادها أبو عبيد الثقفي. وقد عارض سليط «أبو عبيد» واقترح عدم تجاوز النهر، ولكن «أبو عبيد» أصر على موقفه، فعبر المسلمون الجسر وخاضوا معركة ضد الفرس انتهت بهزيمة المسلمين هزيمة قاسية، وفي هذه المعركة قتل القائدان الفارسان، سليط وأبو عبيد.

(٢) **مجاعة بن مرارة الحنفي**، من زعماء قومه، وفد هو وأبوه على النبي ﷺ، ثم ارتد، فحاربهم خالد، ووقع أسيراً، فتم تكليف أم تميم زوج خالد بحراسته. وأثناء المعركة وصل المرتدون إلى قباء خالد واقتحموا على أم تميم خيمتها وأرادوا الفتك بها، فنهاهم مجاعة عن ذلك بقوله: «أنا لها جار، فنعمت الحرة هي». فدفعهم عنها، ثم تولى الصلح مع خالد نيابة عن قومه بعد مقتل مسيلمة وانتصار المسلمين.

وهذه حنيفة. قالوا: وأنتم فلا حيّاكم الله! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد فأتوه بهم، فظن خالد أنهم جاؤوه ليستقبلوه وليتقوه بحاجته، فقال: متى سمعتم بنا؟ قالوا: ما سمعنا بك وما شعرنا بك، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم. ولو فطنوا لقالوا: تلقيناك حين سمعنا بك. وقال لهم خالد: يا بني حنيفة ما تقولون؟ قالوا: نقول منا نبي ومنكم نبي. فعرضهم على السيف، حتى إذا بقي منهم رجل يقال له سارية بن عامر ومجاعة بن مرارة، قال سارية لخالد: أيها الرجل، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شراً، فاستبقِ هذا الرجل ـ يعني: مجاعة ـ فأمر به خالد فأوثقه في الحديد، ثم دفعه إلى زوجته أم تميم فقال: استوصي به خيراً. ثم مضى حتى نزل على كثيب مشرف على اليمامة، فضرب به عسكره.

قاد مسيلمة قواته التي تزيد على أربعين ألف مقاتل لمجابهة خالد الذي لم تكن قوته تزيد على ثلاثة عشر ألف مجاهد في سبيل الله. وأراد مسيلمة إبعاد الحرب عن معقله، فترك ريف اليمامة وراءه، ودفع على مقدمته الرجّال بن عنفوة[1]. وانطلق شرحبيل بن مسيلمة يستثير حماسة المرتدين ويحرضهم على القتال ويقول لهم: «يا بني حنيفة، اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هُزمتم تستردف النساء سبيات، وينكحن غير خطيبات ـ حظيات ـ فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم». ونظم خالد قواته، فدفع مقدمته بقيادة شرحبيل بن حسنة وقاد هو القلب، وجعل على المجنبتين زيد بن الخطاب و«أبو حذيفة» ليقابل مجنبتي

---

(١) **الرجّال بن عنفوة**، ويقال: الرحّال، من بني حنيفة، كان قد أسلم، وقرأ سورة البقرة، وحضر مجلس الرسول ﷺ. ويذكره الصحابي أبو هريرة فيقول: جلست مع النبي ﷺ في رهط ومعنا الرجّال بن عنفوة فقال: «إن فيكم لرجلاً ضرسه في النار أعظم من أُحد ـ جبل أُحد ـ فهلك القوم وبقيت أنا والرجّال، فكنت متخوفاً لها، حتى خرج الرجّال مع مسيلمة، فشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرجّال أعظم من فتنة مسيلمة. فأمنت وعرفت أن ما قال رسول الله ﷺ حق». وعندما توجه المسلمون إلى اليمامة كانوا يسألون عن الرجّال يرجون أن يثلم على أهل اليمامة أمرهم بإسلامه، فلقيهم في أوائل الناس متكتباً، وقد قال خالد بن الوليد وهو جالس على سريره، وعنده أشراف الناس، والناس على مصافهم، وقد رأى بارقة في بني حنيفة: «أبشروا يا معشر المسلمين، فقد كفاكم الله أمر عدوكم. واختلف القوم إن شاء الله. فنظر مجاعة وهو خلفه موثقاً في الحديد، فقال: كلا والله. ولكنها الهندوانية خشوا عليها من تحطمها فأبرزوها للشمس لتلين لهم. فكان كما قال. فلما التقى المسلمون، كان أول من لقيهم الرجّال بن عنفوة، فقتله الله». تاريخ الطبري ٣/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩.

مسيلمة اللتين كان يقودهما المحكم والرّجال. ووقف المهاجرون خلف رايتهم التي يحملها سالم، مولى «أبو حذيفة»، وقالوا له: تخشى علينا من نفسك شيئاً؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً.

التقى الناس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ولم يلقهم قط مثلها من حرب العرب. وكان الرجّال بحيال زيد بن الخطاب، فلما دنا صفّاهما قال له زيد: «الله الله، فوالله لقد تركت الدين، وإن الذي أدعوك إليه لأشرف لك، وأكثر لدنياك». فأبى، فاجتلدا، فقُتل الرجّال وأهل البصائر من بني حنيفة في أمر مسيلمة، فتذامروا، وحمل كل قوم في ناحيتهم، وانهزم المسلمون حتى بلغوا معسكرهم، وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد، فزال خالد عن فسطاطه ودخل أناس الفسطاط وفيه مجاعة عند أم تميم، فحمل عليها رجل بالسيف، فأجارها مجاعة وقال لهم: عليكم بالرّجال. فمزقوا الفسطاط بالسيوف. وانطلق فرسان بني حنيفة إلى خيام المسلمين، يقطعون أطنابها، ويبحثون عن المقاتلين. وتذامر زيد وخالد وأبو حذيفة والبراء بن مالك وغيرهم، وكان لكل قائد من القادة موقفه الحازم الذي ساعد على تحول الموقف لصالح المسلمين.

وقف زيد بن الخطاب يستنفر الرجال الذين أوكل إليهم الدفاع عن رحال المسلمين، وقال لهم: لا تحوز بعد الرحال. ثم قال يخاطب المسلمين: «لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي! عضوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم. وامضوا قدماً... افعلوا كما أفعل». وانطلق زيد يقاتل حتى قُتل. ووقف ثابت بن قيس ليقول: «يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء ـ يعني أهل اليمامة ـ وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني: المسلمين ـ. يا معشر المسلمين: أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه، أروني كما أريكم». ومضى يقاتل حتى قُتل. وثار البراء بن مالك ـ أخو أنس بن مالك ـ وكان في ثورته كالأسد. فمضى يحرض المسلمين على الجهاد، ويقول لهم: «أين معشر المسلمين. أنا البراء بن مالك: هلمَّ إليَّ». وفاءت فئة من الناس فقاتلوا المرتدين حتى قتلهم الله. ووقف محكم بن الطفيل يستثير قومه، فرماه عبد الرحمٰن بن «أبو بكر الصديق» بهم فوضعه في نحره فقتله. وفعل أبو حذيفة مثل الذي فعله بقية القادة، فأخذ يستثير حماسة المسلمين بقوله: «يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال» وحمل فحازهم حتى أنفدهم، وأصيب فسقط

شهيداً. وحمل خالد بن الوليد وقال لحُماته: لا أوتينَّ من خلفي. وانطلق بهجوم مضاد، فردوا المشركين وأعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عسكرهم. ووقف خالد بحيال مسيلمة يرقبه ويطلب الفرصة. واشتد القتال وكانت الحرب يومئذ سجالاً، إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين. فقال خالد: «أيها الناس! امتازوا لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى»[1]. فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر، فوقف بنو كل أب على رايتهم، فقاتلوا جميعاً، فقال أهل البوادي يومئذ: الآن يستحر القتل في الأجذع الأضعف. فاستحر القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة ودارت رحاهم عليه، فعرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم، ثم برز خالد حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز وانتمى، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد! ونادى بشعارهم يومئذ، وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه! فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، وهو يرتجز:

أنا ابن أشياخ وسيفي السّخت أعظم شيء حين يأتيك النفت[2]

ولا يبرز له شيء إلا أكله، ودارت رحى المسلمين وطحنت! ثم نادى خالد حين دنا من مسيلمة، وكان رسول الله ﷺ قال: **(إن مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه، فإذا اعتراه أزْبَدَ كأن شدقيه زبيتان، لا يهم بخير أبداً إلا صرفه عنه،**

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ٣/ ٢٩٢: «إن المهاجرين والأنصار جبنوا أهل البوادي وجبنهم أهل البوادي، فقال بعضهم لبعض: امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم، ونعرف اليوم من أين نؤتى! ففعلوا. وقال أهل القرى: نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم. فقال لهم أهل البادية: إن أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم. فقال لهم أهل البادية: إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب! فسترون إذا امتزنا من أين يجيء الخلل! فامتازوا، فما رئي يوم كان أحد ولا أعظم نكاية مما رئي يومئذ، ولم يدر أي الفريقين كان أشد فيهم نكاية! إلا أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية. وأن البقية أبداً في الشدة».

(٢) كان ضرار بن الأزور يقاتل إلى جانب خالد، وقد قال في معركة اليمامة:

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت عشية سالت عقرباء وملهم
وسال بفرع الوادي حتى ترقرقت حجارته فيها من القوم بالدم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمم
فإن تبتغي الكفار غير مليمة جنوب فإني تابع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجاهد أعلم

فإذا رأيتم منه عورة، فلا تقيلوه العثرة). فلما دنا خالد منه طلب تلك، ورآه ثابتاً ورحاهم تدور عليه، وعرف أنها لا تزول إلا بزواله، فدعا مسيلمة طلباً لعورته، فأجابه، فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة، وقال: إن قبلنا النصف، فأي الإنصاف تعطينا؟ فكان إذا همَّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيراً فينهاه شيطانه أن يقبل، فأعرض بوجهه مرة ذلك، وركبه خالد فأرهقه وأدبر، وزالوا، فذمر خالد الناس، وقال: دونكم لا تقيلوهم! واركبوهم. فكانت هزيمتهم. فقال مسيلمة حين قام، وقد تطاير الناس عنه، وقال قائلون: أين ما كنت تعدنا! قال: قاتلوا عن أحسابكم. ونادى المحكم: يا بني حنيفة، الحديقة الحديقة! وتدافع بنو حنيفة والمسلمون يتبعونهم ويقتلونهم حتى بلغوا بهم إلى حديقة الموت فدخلوها وأغلقوها عليهم. وأحاط المسلمون بهم، وصرخ البراء بن مالك فقال: يا معشر المسلمين: احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه. فلما وضعوه على الجدار اقتحم عليهم، فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين وهم على الباب من خارج، فدخلوا. فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يروا مثله، وأبيد من في الحديقة منهم. ويأتي وحشي على مسيلمة وهو مزبدٌ متساندٌ لا يعقل من الغيظ، فخرط عليه حربته، وأقبل رجل من الأنصار فضربه بسيفه، فكان وحشي يقول: ربك أعلم أيُّنا قتله[1].

قتل في حديقة الموت وفي المعركة أربعة عشر ألف مقاتل من المرتدين، واستشهد من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ عدد كبير، ويذكر أن عدد الشهداء من أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاثمائة من هؤلاء وثلاثمائة من هؤلاء أو يزيدون بالإضافة إلى ثلاثمائة وستين من المهاجرين والأنصار، فيكون مجموع شهداء المسلمين ألفاً يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، في حين كان قتلى بني حنيفة في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموت سبعة آلاف وفي الطلب نحو منها.

لما فرغ المسلمون من مسيلمة، خرج خالد لتفقد ميدان المعركة ومعه مجاعة يرسف في الحديد، ليدله على مسيلمة، فجعل يكشف له القتلى حتى مر بمحكم بن الطفيل وكان رجلاً جسيماً وسيماً، فلما رآه خالد قال: هذا

---

(١) **وحشي** هذا هو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ، وقد أسلم بعد ذلك، وكان في جند خالد أثناء فتح العراق والشام.

صاحبكم؟ قال: لا! هذا والله خير منه وأكرم، هذا محكم اليمامة. ثم مضى خالد يكشف له القتلى حتى دخل الحديقة فقلب له القتلى، فإذا رُوَيْجل أُصيغر أُخينس، فقال مجاعة: هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل. ولما فرغ خالد من معركته، قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمٰن بن أبي بكر: ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون. فقال: دعاني أبث الخيول فالتقط من ليس في الحصون ثم أرى رأيي. فبث الخيول، فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان، فضموا هذا إلى العسكر، ونادى بالرحيل لينزل على الحصون، فقال له مجاعة: «إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن الحصون لمملوءة بالرجال. فقال: ويلك ما تقول؟ قال: هو والله الحق، فهلم لأُصالحك على قومي»، فصالحه على كل شيء دون النفوس. ثم قال: أَنطلق إليهم، فأشاورهم وننظر في هذا الأمر، ثم أرجع إليك. فدخل مجاعة الحصون، وليس فيها إلا النساء وأمرهن أن ينشرن شعورهن وأن يشرفن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهن. ثم رجع، فأتى خالداً، فقال: قد أبوا يجيزوا ما صنعت، وقد أشرف لكم بعضهم نقضاً علي، وهم مني براء. فنظر خالد إلى رؤوس الحصون وقد اسودت، وقد نهكت المسلمين الحرب. وطال اللقاء، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ما كان كائناً لو كان فيها رجال وقتال. واقترح مجاعة شروطاً جديدة للصلح فقال لخالد: إن شئت أن تقبل مني نصف السبي والصفراء والبيضاء والحلقة والكراع، وعزمت وكتبت الصلح بيني وبينك. ففعل خالد ذلك ثم سرحه وقال: أنتم بالخيار ثلاثاً، والله لئن تتموا وتقبلوا لأنهدن إليكم، ثم لا أقبل منكم خصلة أبداً إلا القتل.

مضى مجاعة إلى قومه، وقال لهم: «الآن اقبلوا»، وتصدى له سلمة بن عمر الأنصاري فقال: «لا والله لا نقبل، نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نقاضي خالداً». ثم خاطب قومه بقوله: «يا بني حنيفة! قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء. فإن الحصن حصين، والطعام كثير، وقد حضر الشتاء». فقال مجاعة: «يا بني حنيفة! أطيعوني واعصوا سلمة فإنه رجل مشؤوم، قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسيلمة: قبل أن تستردف النساء غير رضيات، وينكحن غير خطيبات»، فأطاعوه وعصوا سلمة وقبلوا قضيته. فلما فرغا، فتحت الحصون، فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: «ويحك

خدعتني» قال: «قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت»[1].

وصلت بعد ذلك رسالة من الخليفة «أبو بكر» ﷺ إلى خالد بن الوليد يأمره إنْ ظفَّره الله ﷻ أن يقتل من جرت عليه المواسي من بني حنيفة، ولكن خالد كان قد صالحهم، فوفى لهم: وحشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد، وخالد في عسكره، فلما اجتمعوا قال سلمة بن عمير الحنفي لمجاعة: «استأذن لي خالد أكلمه في حاجة له عندي ونصيحة». وكان قد أجمع «أي: قرر»، أن يفتك به. فكلمه، فأذن له، فأقبل سلمة بن عمير مشتملاً على السيف يريد ما يريد؟ فقال خالد لما أبصر به: من هذا المقبل؟ قال مجاعة: «هذا الذي كلمتك فيه، وقد أذنت له!». قال: «أخرجوه عني». فأخرجوه عنه، ففتشوه فوجدوا معه السيف، فلعنوه وشتموه وأوثقوه، وقالوا: «لقد أردت أن تهلك قومك، وأيم الله ما أردت إلا أن تستأصل بني حنيفة، وتسبي الذرية والنساء، وأيم الله لو أن خالداً علم أنك حملت السلاح لقتلك، وما نأمنه إن بلغه ذلك أن يقتلك وأن يقتل الرجال ويسبي النساء بما فعلت، ويحسب أن ذلك عن بلاء منا». فأوثقوه وجعلوه في الحصن. وتتابع بنو حنيفة على البَراء مما كانوا عليه، وعلى الإسلام. وعاهدهم سَلمة على ألا يحدث حدثاً ويعفوه، فأبوا ولم يثقوا بحمقه أن يقبلوا منه عهداً، فأفلت ليلاً، فعمد إلى عسكر خالد فصاح به الحرس، وفزعت بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه في بعض الحوائط، فشد عليهم بالسيف فاكتنفوه بالحجارة، وأجال السيف على حلقه فقطع أوداجه، فسقط في بئر فمات.

أقام خالد بعد ذلك في ديار بني حنيفة وأرسل إلى الخليفة خمسمائة رأس ممن جرى عليه القسم بالعِرض والقرية من بني حنيفة أو قيس بن ثعلبة أو يشكر، فقدموا عليه فقال لهم أبو بكر: «ويحكم! ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل! قالوا: يا خليفة رسول الله: قد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان أمراً لم يبارك الله ﷻ له ولا لعشيرته فيه».

وعاد المسلمون إلى المدينة، وفيهم عبد الله بن عمر، واستقبل عمر بن

---

(١) كان نص الصلح كما ذكره الطبري ٣/٢٩٨، وهو: «هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة وسلمة بن عميرة وفلاناً وفلاناً، قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة، على أن يسلموا ثم أنتم آمنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمة «أبو بكر» خليفة رسول الله ﷺ، وذمة المسلمين على الوفاء».

الخطاب ابنه عبد الله فقال له: «ألا هلكت قبل زيد ـ أخو عمر ـ هلك زيد وأنت حي، ألا واريت وجهك عني». فقال عبد الله: «سأل الله الشهادة فأُعطيها وجهدت أن تساق إليَّ فلم أُعطها»[1].

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٢٤٧، والطبري ٣/ ٢٩٢.

د ـ خالد على جبهة العراق

كان المثنى بن حارثة الشيباني يقاتل على جبهة العراق عندما كانت جيوش المسلمين تحارب المرتدين في قلب الجزيرة العربية، وانتهت حروب الردة بانتهاء السنة الحادية عشرة للهجرة تقريباً. وما أن انتهت حروب الردة بانتصار المسلمين، وعادت للجزيرة وحدتها، ورجع المسلمون أسرة واحدة حتى كأنهم بنو أب وأم حتى أصدر الخليفة الأول، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مجموعة الأوامر التالية:

إلى خالد بن الوليد: «سِرْ إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، وتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم»[1]. وأتبع الخليفة ذلك برسالة إلى خالد بن الوليد وإلى عياض بن غنم، الذي كان بين النباج والحجاز. «إلى عياض: أن سر حتى تأتي المصيخ[2]، فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالداً. وأذنا لمن شاءَ بالرجوع، ولا تستفتحا بمكروه». وأتبع ذلك رسالة إلى خالد وعياض «طلب فيها إلى خالد، إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها. وإلى عياض إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وقال: إذا اجتمعتما بالحيرة، وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه

---

(١) **الأبلة**: مدينة كانت مرفأ السفن القادمة من الصين، وتقع إلى جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلاً، وجنوب مدينة «أبو الخصيب» بنحو ميلين. وفي الطبري: أن خالد بن الوليد رجع إلى المدينة ومنها توجه إلى العراق، في حين أن هناك رواية أخرى تذكر أن رسالة الخليفة قد وصلت إلى خالد وهو في اليمامة، وتوجه منها مباشرة إلى العراق. تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٣.

(٢) **المُصَيَّخ**، بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الياء مع فتحها: موضع على حدود الشام مما يلي العراق. وجاء في معجم البلدان ٨/ ٧٩ ما يلي: مصيخ بني الرشاء، وهو بين حوران والقلت، وكانت به وقعة هائلة لخالد على بني تغلب. ومصيخ بهراء وهو ماء آخر بالشام، ورده خالد بعد «سوى» في مسيره إلى الشام.

بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم، المدائن».

قدم كتاب الخليفة إلى خالد وعياض وأذِنا بالرجوع لمن شاء، فرجع أهل المدينة وما حولها، وضعفت قوات خالد وعياض فكتبا إلى الخليفة يطلبان الدعم، فرد عليهما برسالة جاء فيها: «استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزونَّ معكم أحدٌ ارتد حتى أرى رأيي». وهكذا حرم الخليفة المرتدين من شرف الجهاد في سبيل الله.

كتب بعد ذلك خالد إلى قادته، وواعدهم ليوم حدده لهم، ثم حشرَ مَنْ بينه وبين العراق. فحشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه، فقدم في عشرة آلاف على ثمانية آلاف ممن كان مع الأمراء الأربعة: المثنى ومذعور وسملى وحرملة، فتجمع لديه ثمانية عشر ألفاً.

بدأ خالد في إعادة تنظيم قواته قبل أن يغادر اليمامة متوجهاً إلى العراق، ثم قسم جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة. فسرح المثنى قبل يومين ودليله ظفر، وسرح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ودليله رافع، فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادموا به عدوهم.

١ ـ ذات السلاسل

كان هرمز الفارسي هو حاكم الثغر من جنوب العراق، وكان من أسوأ أمراء ذلك الفرج جواراً للعرب، فكل العرب عليه مغيظ، وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخبث حتى قالوا: أكفر من هرمز، وأخبث من هرمز. وعندما أراد خالد التوجه للأبلة كتب إلى هرمز: «أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة». ولما قدم كتاب خالد إلى هرمز كتب بالخبر إلى شيري بن كسرى وإلى أردشير بن شيري وجمع جموعه، ثم تعجل إلى الكواظم في سرعان أصحابه، ليتلقى خالداً، ولكنه وجد أن قوات المسلمين لم تصل إلى الكواظم وعلم أن المسلمين قد تواعدوا على اللقاء في الحفير[1]، فأسرع هرمز بقواته إلى

---

(١) **كواظم**، ومفردها كاظمة: في الكويت حالياً، وتقع على الساحل الشمالي لخليج الكويت، على بعد خمسة أميال من طريق البصرة ـ الكويت الحالي، وقد درست ولم يعد لها وجود، ويحتمل أن تكون بعض خرائبها الباقية هي من أيام ما بعد خالد. أما الحفير فلا أثر لها، ويحتمل =

الحفير حتى يسبق خالداً إليها، ونظم قواته للمعركة، ووضع لقيادة المجنبتين قائدين كبيرين من أُسرة الأكاسرة هما: قباذ وأنوشجان، واقترن بعض جند الفرس بالسلاسل، كناية عن تصميمهم للقتال حتى النهاية[1]، وأثار ذلك جدلاً بين جند الفرس، فقال من لم يرغب في استخدام السلاسل: «قيدتم أنفسكم لعدوكم، فلا تفعلوا، فإن هذا طائر سوء». وأجابهم المقيدون بالسلاسل: «أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب».

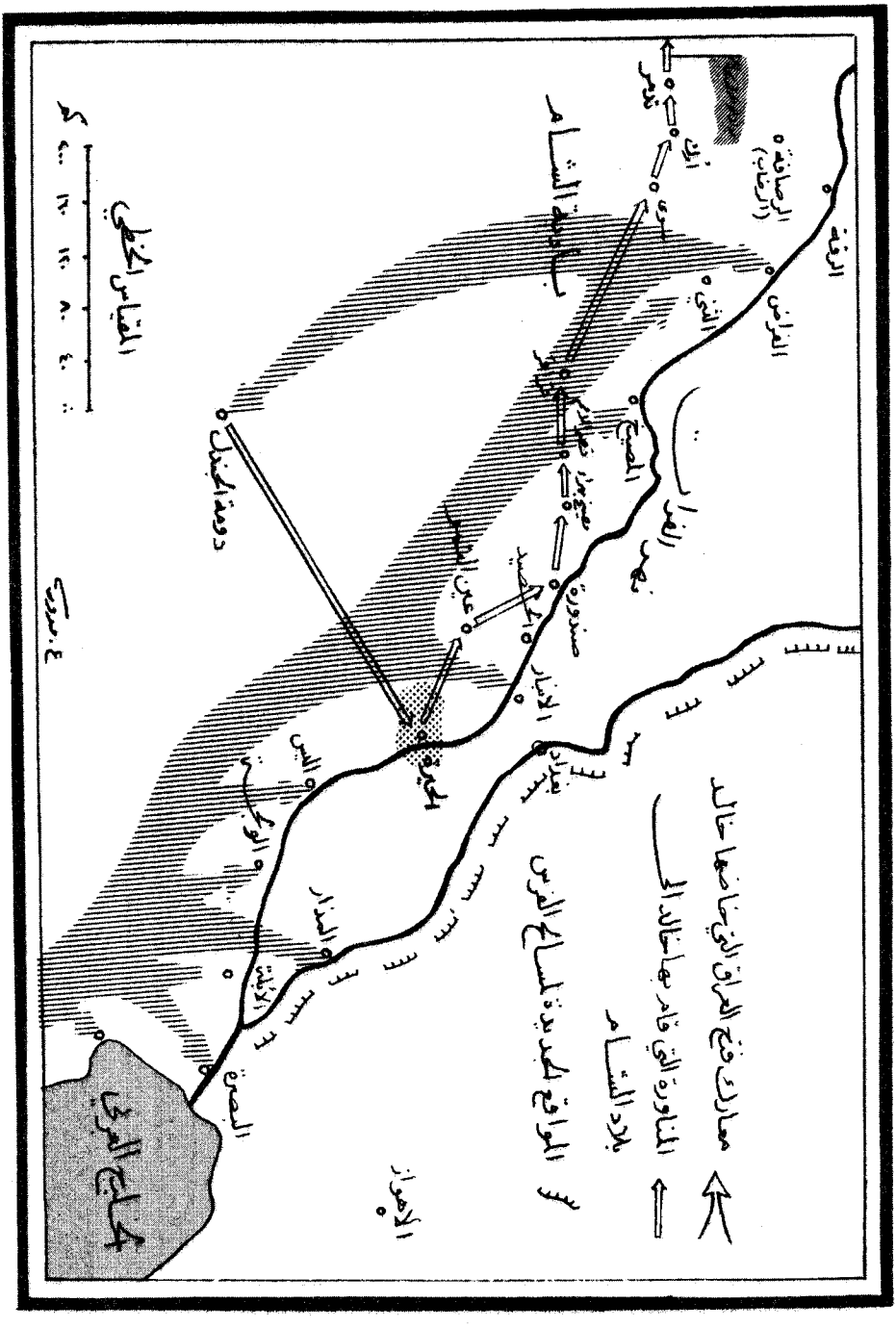
عندما علم خالد بتوجه هرمز إلى الحفير عمل من جديد على قيادة قوات المسلمين باتجاه كاظمة، وبلغ هرمز ذلك فبادره إلى كاظمة فنزلها وهو غاضب حسير، ونظم قواته لمنع المسلمين من الوصول إلى ماء النهر، نهر الفرات. وقدم خالد عليهم فنزل على غير ماء، فقالوا له في ذلك، فأمر مناديه، فنادى: «ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأَصْبَر الفريقين، وأكرم الجندين»[2]. فحطت الأثقال والخيل وقوف، وتقدم المشاة، واشتبكت القوات، فاقتتلوا، وأرسل الله سحابة، وهطلت أمطار غزيرة، وتوفر الماء للمسلمين. وأرسل هرمز أصحابه بالغد ليغدروا بخالد، ثم خرج هرمز فنادى: أين خالد؟ فلما نزل خالد نزل هرمز ودعاه إلى النزال. فنزل خالد فمشى إليه، فالتقيا فاختلفا ضربتين، واحتضنه خالد. وحملت حامية هرمز تريد الغدر بخالد فتبعوه، فما شغل خالد عن قتل هرمز، وحمل القعقاع بن عمرو على الحامية المرافقة لهرمز فأبادوهم، وحمل المسلمون على الفرس، فهزموهم، وبدأت المطاردة التي استمرت حتى الليل، وهرب قُباذ وأنوشجان. واستولى المسلمون على غنائم كثيرة، قسمها خالد على المسلمين وأرسل الخمس إلى بيت مال المسلمين في المدينة[3].

= أن تكون في مكان الرميلة الحالية التي تبعد (٢١) ميلاً عن البصرة القديمة. وفي معجم البلدان ٧/ ٢٠٨: أن الكواظم، وهي كاظمة، تقع على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان. وفي معجم البلدان أيضاً ٣/ ٣٠٣: أن الحفير أول منزل من البصرة لمن يريد مكة، والمسافة بين الحفير وكاظمة زهاء (٥٠) ميلاً.

(١) كانت جيوش العالم القديم تعتمد في بعض حروبها على تشكيل جند المشاة في تنظيم يتم فيه تقييد المقاتلين بسلاسل أطوالها مختلفة لربط خمسة جنود أو سبعة أو ثمانية أو عشرة لتكوين جدار صدمة.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٩.

(٣) وكان من بين الغنائم قلنسوة هرمز التي تبلغ قيمتها مائة ألف، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، وكانت مفصصة بالجوهر، فلما وصلت القلنسوة إلى المدينة، نقلها أبو بكر إلى خالد بن الوليد.



خالد وفتح العراق

عندما انتهت المعركة نادى منادي خالد بالرحيل، وسار بالناس، واتبعته الأثقال حتى ينزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة اليوم. وما أن نزل حتى بعث المثنى بن حارثة في آثار القوم، وأرسل معقل بن مقرن المزني إلى الأبلة ليجمع مالها والسبي، فخرج معقل حتى نزل الأبلة فجمع الأموال والسبايا.

٢ ـ وقعة المذار «الثني» وتسمى أيضاً معركة النهر[١]

عندما وصلت رسالة هرمز إلى الامبراطور أردشير تعلمه بتوجه خالد إلى الأبلة أرسل قوات لدعمه بقيادة قارن بن قريانس، فخرج قارن من المدائن، وعندما وصل إلى المذار بلغته الهزيمة ومقتل هرمز مع وصول فلول الجند الذين هربوا من المعركة، وقال هؤلاء بعضهم لبعض: «إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً». وعمل قارن على ضم فلال قوات الأهواز وفارس والسواد والجبل وأعاد تنظيم قواته، وتعاهد الجميع على الصمود والقتال، وأخذوا يرددون: «هذا مدد الملك، وهذا قارن، لعل الله يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك بعض ما أصابوا منا». وأقام قارن معسكره في المذار وسلم قيادة مجنبتيه للقائدين قباذ وأنوشجان، تماماً كما فعل هرمز من قبل. وأسرع المثنّى والمعنّى بنقل الخبر إلى خالد الذي أسرع بالخروج للقاء قوات خصمه على الثني (والعرب تسمي كل نهر باسم الثني). والتقى المسلمون بأعدائهم، والطرفان في تنظيم القتال، وكلهم حماسة للقتال. هؤلاء الفرس يريدون النصر ثأراً لهزيمتهم، وأولئك المسلمون يبحثون عن النصر ابتغاء مرضاة ربهم. وخرج قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد وأبيض الركبان «معقل بن الأعشى بن النباش» فابتدراه فسبقه إليه معقل فقتله، وقتل عاصم الأنوشجان، وقتل عديٌّ قباذ، وبذلك أبيد قادة جيش الفرس منذ بداية المعركة. وقام المسلمون بهجوم حاسم، وبعد معركة ضارية استطاع المسلمون انتزاع النصر، وانطلقوا لمطاردة أعدائهم. وأسرع فلال جيش الفرس إلى ركوب السفن، وأعاقت مياه النهر قوات المسلمين من مطاردتهم. وأحصى المسلمون عدد قتلى أعدائهم، فوصل حتى ثلاثين ألفاً ممن لقوا مصرعهم فوق أرض المذار سوى من غرق، ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم، ولم

---

(١) **الثني**: نهر في المذار، والمذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط، وتسمى أيضاً وقعة المذار، ويومئذ قال الناس: صفر الأصفار، فيه يقتل كل جبار، على مجمع الأنهار. الطبري ٣/ ٣٥١.

يفلت من أفلت منهم إلا عراة وأشباه عراة. وغنم المسلمون مغانم عظيمة حتى زاد سهم الفارس في يوم الثني على سهمه في ذات السلاسل. وأقام خالد بالثني، يسبي عيالات المقاتلة ومن أعانهم، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعد ما دعوا، وكل ذلك أخذ عنوة، ولكن دعوا إلى الجزاء، أي: الخراج، فأجابوا وتراجعوا، وصاروا ذمة، وصارت أرضهم لهم. وأقام خالد حامية في الحفير بقيادة سعيد بن النعمان، وعلى الجزاء سويد بن مقرن المزني وأمره ببث عماله، ووضع يده في الجباية، وأقام لعدوه يتحسس أخباره.

٣ ـ وقعة الولجة[١]

وصلت أنباء هزيمة قوات الفرس ومصرع قارن إلى الامبراطور أردشير فأسرع إلى توجيه مجموعتين قتاليتين لمجابهة قوات العرب المسلمين، المجموعة الأولى بقيادة الأندرزغر[٢] والمجموعة الثانية بقيادة بهمن جاذويه، وأمره أن يعبر طريق الأندرزغر وأن يتبع أثره.

خرج الأندرزغر من المدائن سائراً حتى أتر كسكر، ثم جازها إلى الولجة، وخرج بهمن جاذويه في أثره، وأخذ غير طريقه، فسلك وسط السواد، مخالفاً بذلك تعليمات الامبراطور أردشير. وحشد الأندرزغر كل مقاتل ما بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين، فعسكروا إلى جانب عسكره بالولجة، فلما اجتمع له ما أراد واستتم، أعجبه ما هو فيه وقرر السير إلى خالد. ولما بلغ خالد وهو بالثني خبر الأندرزغر ونزوله الولجة، نادى بالرحيل، وتقدم إلى من خلف في أسفل دجلة وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار، وخرج سائراً في الجنود نحو الوجلة حتى ينزل على الأندرزغر وجنوده ومن ناصره واجتمع إليه.

استطلع خالد معسكر أعدائه ووضع لهم كميناً في ناحيتين، عليهم بسر بن

---

(١) **الولجة**: مما يلي كسكر من البر، وفيها وقعت معركة الولجة في صفر من سنة اثنتي عشرة للهجرة، أوائل أيار/ مايو (٦٣٣م)، ولم يكن بينها وبين موقعة الثني أكثر من أيام. أما كسكر فهي كورة «ناحية» واسعة قصبتها «عاصمتها» مدينة واسط وهي بين البصرة والكوفة.

(٢) **الأندرزغر**: قائد فارسي. وهو من مواليد السواد وأصله من الغرباء وليس من الفرس، ولم يكن من مواليد المدائن، ولا نشأ بها، وكان قبل ذلك على فرج «ولاية» خراسان. الطبري ٣/ ٣٥٣.

أرهم وسعيد بن مرة العجلي وبدأ بعد ذلك بشن الهجوم، واقتتل المسلمون وأعداؤهم قتالاً شديداً، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ. واستبطأ خالد كمينه ثم ظهرت قوات الكمين في وجهين، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه، ومضى الأندرزغر في هزيمته فمات عطشاً. وسار خالد في الفلاحين بسيرته، فلم يقتلهم، وسبى ذراري المقاتلة ومَن أعانهم، ودعا أهل الأرض إلى الجزاء والذمة، فتراجعوا. وبارز خالد في بداية هذه المعركة أحد أبطال الفرس ممن يطلق عليهم لقب حضرمرد؛ أي: الفارس الذي يعادل ألف رجل، فقتله، ففت ذلك من عضد الفرس وأوهنهم. وأصاب خالد في المعركة أيضاً في أناس من بكر بن وائل ابناً لجابر بن بجير وابناً لعبد الأسود، من زعماء العرب الموالين للفرس[1].

٤ ـ خبر أليس، وهي على صلب الفرات[2]

لما أصاب خالد يوم الولجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل الفرس، غضب لهم نصارى قومهم، وثارت فيهم الحمية، حمية الجاهلية، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم، فاجتمعوا إلى أليس وعليهم عبد الأسود العجلي، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجل: عتيبة بن النهّاس وسعيد بن مرة وفرات بن حيّان والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدي. وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه وهو بقسيانا[3] «أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب». وتوجه بهمن جاذويه بعد أن دفع مقدمة له بقيادة جابان وأمره بالحث والسرعة وقال له: «كفكف

---

(١) وقف خالد، في بداية هذه المعركة، يحرض جنوده ويحضهم على القتال، فقال لهم: ألا ترون إلى الطعام كرفغ، «أكوام»، التراب. وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله ﷻ، ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه. تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٤.

(٢) أليس: موضع في أول أرض العراق من ناحية، وهي قرية من قرى الأنبار، وهي تبعد حوالي عشرة أميال عن الولجة، وفيها وقعت معركة حاسمة بين المسلمين وأعدائهم في نهاية شهر صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة، منتصف أيار/مايو (٦٣٣م).

(٣) نظم الفرس قواتهم لمجابهة الطوارئ، فكانت كل يوم تقوم بهذه المهمة قوة تحت قيادة قائد من القادة، وكان بهمن جاذويه هو قائد قوة الطوارئ في اليوم الذي وجه إليه الامبراطور أردشير رسالته، وكلفه بمجابهة قوة خالد.

نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك». فسار جابان نحو أليس وانطلق بهمن جاذويه إلى أردشير، ليحدث به عهداً، وليستأمره فيما يريد أن يشير به، فوجده مريضاً، فعرج عليه، وأخلى جابان بذلك الوجه، فمضى جابان حتى وصل أليس فنزل بها، واجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب[1]. وانضمت إلى قوات جابان بعض القبائل العربية، منها: عبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل «بكر»، وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وكان جابر بن بجير نصرانياً فساند عبد الأسود. وكان خالد قد علم بتجمع عبد الأسود وجابر وزهير فيمن التف حولهم، فأسرع للقائهم وهو لا يشعر بدنو جابان، وليست لخالد همة إلا من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم، فأقبل، فلما طلع على جابان بأليس قالت الأعاجم لجابان: «أنعاجلهم، أم نفدي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ من طعام الغداء؟» فقال جابان: «إن تركوكم وتهاونوا بكم فتهاونوا، ولكن ظني بهم أنهم سيعجلونكم، ويعجلونكم عن الطعام»، فعصوه، وبسطوا البسط، ووضعوا الأطعمة، وتداعوا إليها، وتوافوا عليها. فلما انتهى خالد إليهم، وقف، وأمر بحط الأثقال، فلما وضعت توجه إليهم، ووكَّل خالد بنفسه حوامي يحمون ظهره، ثم بدر أمام الصف، فنادى: أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ فنكلوا عنه جميعاً إلا مالكاً فبرز له، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرأك عليَّ من بينهم، وليس فيك وفاء!. فضربه فقتله. وأجفل الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا، فقال جابان: ألم أقل لكم يا قوم! أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم. فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلداً: فدعها حتى نفرغ منهم ونعود إليها. فقال جابان: «وأيضاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون، فالآن أطيعوني، سموها فإن كانت لكم، وانتصرتم، كان أهون هالك، وإن كانت عليكم، وهزمتم، كنتم قد صنعتم شيئاً، وأبليتم عذراً». فقالوا: لا. اقتداراً عليهم.

نظم جابان قواته للمعركة، وأسند قيادة مجنبتيه إلى عبد الأسود وأبجر. أما

---

(١) **المسالح**: هي مراكز المراقبة المتقدمة، كانت تنتشر على حدود الامبراطوريات الفارسية والبيزنطية بمهمة مراقبة كل تحرك للأعداء، والاشتباك مع الهجمات الصغرى والانسحاب والتجمع عند مجابهة هجوم كبير، وكانت هذه المسالح تتمركز في قلاع وحصون قوية تضمن لها الحماية لفترة محدودة.

خالد فحافظ على تعبئة قواته وفق التنظيم الذي اتبعه في معاركه السابقة. وبدأت المعركة التي أظهر فيها الفرس وأنصارهم شجاعة فائقة، وصبروا صبراً شديداً على ما كانوا يتوقعونه من قدوم بهمن جاذويه لدعمهم، ومقابل ذلك صمد المسلمون وقاتلوا بعناد كبير. واشتدت حدة القتال، فقال خالد: «اللهم إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم». ثم إن الله ﷻ كشفهم للمسلمين، ومنحهم أكتافهم، فأمر خالد مناديه فنادى في الناس: الأسر الأسر! لا تقتلوا إلا من امتنع. فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوقاً، وقد وكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد حتى انتهوا إلى النهرين[1]، ومقدار ذلك من كل جوانب «أليس» فضرب أعناقهم، وقال له القعقاع وأشباه له: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم. إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيَلان، ونهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تَبَرُّ بيمينك». وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده، فجرى دماً عبيطاً ـ طرياً ـ فسمي «نهر الدم» لذلك الشأن إلى اليوم. وبلغ عدد من تم قتلهم ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون في ثلاثة أيام، وبلغت قتلاهم من «أليس» سبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا[2].

لما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا وقد أعجلهم عمّا فيها، وقد جلا أهلها، وتفرقوا في السواد، ومن يومئذ صارت السكرات «الفعلة» في السواد، فأمر خالد بهدم أمغيشيا وكل شيء كان في حيزها، وكانت مصراً كالحيرة. وكان نهر فرات بادقلي ينتهي إليها، وكانت أليس من مسالحها، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط، حتى قيل: إنه لم يصب المسلمون فيما بين

---

(١) لم يكن نهراً، وإنما مجرى جافاً يقال له: الخسيف، وكان بين نهر الخسيف ونهر الفرات ثلاثة أميال، وهو فرع من الفرات وعلى ضفته اليمنى. ويظهر أن نهر الخسيف كان جدولاً للري بدلالة تحويل المياه إليه عند الحاجة، لأعمال الري، ولتشغيل الطواحين المائية لطحن الدقيق.

(٢) ما إن انتهت المعركة باجتياح المسلمين لمعسكر الفرس، ورجع الفرسان من المطاردة حتى وقف خالد على الطعام الذي كان رجال الفرس قد أعدوه لغدائهم، وقال لهم: «قد نفلتكموه فهو لكم». وكان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفله. فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل. وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول: ما هذه الرقاق البيض! وجعل من قد عرفها يجيبهم، ويقول لهم مازحاً: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم. فيقول: هو هذا. فسمي الرقاق، وكانت العرب تسميه القرى.

ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا، بحيث بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة سوى النفل الذي نفله أهل البلاد. وبعث خالد بالخبر مع رجل يدعى جندلاً من بني عجل، وكان دليلاً صارماً، فقدم على «أبو بكر» بالخبر، وبفتح أليس، وبقدر الفيء وبعدة السبي، وبما حصل من الأخماس، وبأهل البلاء من الناس[1] فقال أبو بكر رضي الله عنه حين بلغه ذلك: «يا معشر قريش، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد»[2].

٥ ـ فتح الحيرة

كان حاكم الحيرة، أي: مرزبانها، منذ أيام كسرى وحتى أيام الفتح قائداً يسمى الآزاذبة، وكان هذا قد بلغ نصف الشرف، قيمة قلنسوته خمسين ألفاً، وفي هذه المرتبة كان الحكام لا يمد بعضهم بعضاً بالقوات إلا بإذن الملك، فلما أخرب خالد مدينة أمغيشيا وعاد أهلها فعلة وعمالاً زراعيين سكرات لأقطاعيي القرى ودهاقينها علم الآزاذبة أنه غير متروك، فأخذ في أمره وتهيأ لحرب خالد ودفع مجموعة قتالية بقيادة ابنه، ثم سار ببقية القوة في أثر المقدمة، وأقام معسكره خارج الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات.

كان خالد قد جمع ما وقع في قبضته من السفن بهدف استخدامها لتطوير حرب الحركة، وحمل المشاة في السفن ومعهم الغنائم والإمدادات والمواد التموينية. ولم تتجاوز السفن في سيرها مسافة طويلة حتى بوغت خالد بالسفن وهي جانحة بسبب انقطاع المياه، وارتاع الجند، فقال الملاحون: «إن أهل فارس قد فجروا الأنهار، وعملوا على تحويلها، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار». فأسرع خالد بقيادة قوة الفرسان صاعداً مع مجرى النهر في اتجاه الحيرة، واصطدم عند وصوله إلى فم العتيق بقوة من الفرسان. وكان ظهور خالد

---

(١) لما قدم جندل على «أبو بكر» رأى فيه الصرامة والثبات والخبرة. قال: ما اسمك؟ قال: جندل. قال: ويهاً جندل!

نفس عصام سودت عصاما وعودته الكر والإقداما

وأمر له بجارية من ذلك السبي، فولدت له.

(٢) **الخراذيل**: قطع اللحم، الواحدة خرذولة. وفي بعض المصادر عوضاً عن «أن ينسلن» أن ينشئوا وفي التصويبات «ينشئن». تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٩، والكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦٥. وقال خالد، بعد انتهاء معركة أليس: «لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس». تاريخ الطبري ٣/ ٣٦٧.

مباغتاً بحيث لم تتمكن قوة فرسان الفرس من استخدام أسلحتها، فأبادها خالد ثم سار من فوره يسبق الأخبار في اتجاه ابن الآزاذبة حتى يلقاه وجنده على فم فرات بادقلي، فاقتتلوا، ونجح المسلمون في إبادتهم، وفجر خالد نهر الفرات، وسد الأنهار، وعاد الماء ليسلك سبيله، وتابعت سفن المسلمين طريقها نحو الحيرة. وانطلق خالد حتى ينزل بين الخورنق والنجف، وعندما وصل خالد إلى الخورنق، كان الآزاذبة قد قطع الفرات هارباً من غير قتال، لا سيما وقد بلغه موت أردشير ومصاب ابنه. وأعاد خالد تجميع قواته وتنظيمها، وانطلق لاحتلال معسكر الآزاذبة، بين الغريين والقصر الأبيض، وكان أهل الحيرة من العرب قد تحصنوا في قصور أربع، فشكل خالد أربعة مجموعات قتالية كلفها بالمهمات التالية:

١ ـ المجموعة الأولى بقيادة ضرار بن الأزور، ومهمتها محاصرة القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي.

٢ ـ المجموعة الثانية بقيادة ضرار بن الخطاب ومهمتها محاصرة قصر العدسيين وفيه عدي بن عدي المقتول.

٣ ـ المجموعة الثالثة بقيادة ضرار بن مقرن المزني، ومهمتها محاصرة قصر بني مازن وفيه ابن أكال.

٤ ـ المجموعة الرابعة بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني، ومهمتها محاصرة قصر ابن بقلية وفيه ابن عبد المسيح.

وطلب خالد إلى قادة المجموعات الاتصال بقادة المقاومة وإعطاءهم المهلة الضرورية للتفكير وتجنب الحرب، وكانت المهلة المحددة هي يوم واحد. وحذر خالد قادته من غدر أعدائهم بقوله: «لا تمكنوا عدوكم من آذانكم، فيتربصوا بكم الدوائر، ولكن ناجزوهم، ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم».

أصبح أهل القصور، فوجدوا قوات المسلمين وقد ضربت نطاقاً محكماً من الحصار حولهم، وكان ضرار بن الأزور هو أول قائد اشتبكت قواته بقوات إياس بن قبيصة الطائي. فقد عمل ضرار على إنذار القوم ودعوتهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزاء أو المنابذة والحرب، ومضت فترة الإنذار، وأظهر أهل القصر تصميمهم على الحرب وتنادوا: عليكم بالخزازيف. فقال ضرار: تنحوا لا ينالكم الرمي، حتى ننظر في الذي هتفوا به. فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقي المخالي، يرمون المسلمين بالخزازيف ـ وهي كرة من

الخزف ـ فقال ضرار: ارشقوهم. فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل، وتراجع رجال القصر عن رؤوس الحيطان، ثم بثُّوا غارتهم فيمن يليهم. وصبَّح أمير كل قوم من قادة المسلمين بمثل ما جابه ضرار أعداءه، فافتتحوا الدور والديرات، وأكثروا القتل، فنادى الرهبان والقسس: «يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم». فنادى أهل القصور: «يا معشر العرب، قد قبلنا واحدة من ثلاث، فادعوا بنا وكفوا حتى تبلغونا خالداً». وخرج حكام القصور، ووقفوا بين أيدي قادة المسلمين، كل قائد قصر مع قائد القوة المكلفة بحصاره والهجوم عليه، وكان أول من طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح[1] فأرسلهم الرؤساء إلى خالد، مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم من دون الآخرين. وبدأ بصاحب عدي وقال: ويحكم! ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمون من العرب! أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل!. فقال له عدي: بل عرب عاربة وأُخرى متعربة. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادُّونا وتكرهوا أمرنا. فقال له عدي: ليدلك على ما نقول إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية. فقال: صدقت. وقال: اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد أتيتكم والله بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة. فقال: بل نعطيك الجزية. فقال خالد: تباً لكم، ويحكم! إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركته واستدل الأعجمي.

كان اللقاء المثير الثاني هو لقاء خالد مع عمرو بن عبد المسيح، إذ كان قومه يحتكمون إليه في أمورهم ويتقدمون إليه لقضاء حوائجهم، فلما دخل على خالد قال له: كم أتت عليك من السنين؟ قال: مِئو سنين. قال: فما أعجب ما رأيت؟ قال: رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً. فتبسم خالد، وقال: «هل لك من شيخك إلا عمَلُه»[2] خرفت والله يا عمرو!. ثم أقبل خالد على أهل الحيرة، فقال: ألم

---

(١) **عمرو بن عبد المسيح** بن قيس بن حيان بن الحارث، وهو بقيلة. وإنما سيل بقيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين، فقالوا: يا جار، ما أتى إلا بقيلة خضراء. وتتابعوا على ذلك.

(٢) ويقال: «عقله» بدلاً من «عمله»، والشطر الثاني من بيت الشعر هذا: «إلا رسيمة وإلا رملة». مجمع الأمثال ٢/ ٢٨٩، وتاريخ الطبري ٣/ ٣٦٢.

يبلغني أنكم خبثة خدعة مكرة! فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء!. فتجاهل له عمرو، وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله، ويستدل به على صحة ما حدثه به، فقال: وحقك أيها الأمير، إني لأعرف من أين جئت؟ قال خالد: من أين جئت؟ وأجابه عمرو: أقرِب أم أبعِدْ؟ قال خالد: ما شئت. وأجابه عمرو: من بطن أُمي. وقال له خالد: فأين تريد؟ وأجابه: أمامي. قال: وما هو؟ وأجاب عمرو: الآخرة. قال خالد: فمن أين أقصى أثرك؟ قال عمرو: من صلب أبي. قال خالد: ففيمَ أنت؟ وأجابه عمرو: في ثيابي. قال خالد: أتعقل؟ وأجاب عمرو: إي والله وأقيد.

وجد خالد أنه أمام رجل داهية، وقد أكسبته السنون خبرة واسعة وصلابة وقسوة، فوجه إليه حديثه بما يشبه الاعتذار عن موقفه منه وتجاهله له، فقال له: «قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم!». فقال عمرو: «أيها الأمير! النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة»[1]. وقال خالد: أسلم أنت أم حرب؟ قال: بل سلم. قال: فما هذه الحصون التي بيننا؟ وأجاب عمرو: للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه. ثم قال خالد: إني أدعوكم إلى الله، وإلى عبادته وإلى الإسلام. ورفض عمرو وفضل الجزية، فصالحهم خالد، على تسعين ومائة ألف درهم، ولكن، وقبل التوقيع على الصلح تقدم أعرابي، اسمه شويل، إلى خالد طالباً تزويجه كرامة بنت عبد المسيح وفاء لوعد الرسول ﷺ، الذي كان قد وعد شويل تزويجه كرامة عند فتح الحيرة، وأحضر شويل شهوده، ولم يجد خالد أمامه مفراً من إدخال شرط الزواج بين شويل وكرامة، كبند أساسي في الاتفاقية، ووافقت كرامة[2] وتم إبرام الصلح، ونصه:

---

(١) لم يكن عمرو، أو ابن بقيلة، راضياً عن الخضوع للمسلمين، وقد عبر عن ذلك بقوله:

أبعد المنذرين أرى سواماً ... تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصاً بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس ... كجرب المعز في اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد ... علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا صريم ... فنحن كقرة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساءة أو سرور

الكامل في التاريخ ٢/ ٢٦٦، ٢٦٧، وتاريخ الطبري ٣/ ٣٥٤، ٣٦٢، ٣٦٣.

(٢) فزع أهل كرامة وأهل قريتها مما وقعت فيه، وأعظموا الخطر، فقالت: لا تخطروه، ولكن =

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً، ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة، وحيرى بن أكال، وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا: رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها، أو سائحاً تاركاً للدنيا، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة. وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة. ودفع الكتاب إليهم[1].

كان انتصار خالد في فتح الحيرة انتصاراً رائعاً[2]، وكانت بقية المناطق تنتظر ما سينتهي إليه الصراع، وعندما أنجز خالد الصلح، قام فصلى صلاة الفتح ثماني ركعات لا يسلم فيهن. وانتشرت أخبار الصلح بسرعة، فخرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف حتى دخل على خالد عسكره، فصالحه على بانقيا

= اصبروا، ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة! فإنما هذا رجل أحمق، رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم. فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إليه، فقالت: ما أربك إلى عجوز كما ترى! فادني. قال: لا، إلا على حكمي. قالت: فلك حكمك مرسلاً. فقال: لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم! فاستكثرت ذلك لتخدعه، ثم أتته بها. فرجعت إلى أهلها، فتسامع الناس بذلك فعنفوه، فقال: ما كنت أرى أن عدداً يزيد عن ألف. كانت نيتي غاية العدد. وعلم خالد، فقال: أردت أمراً وأراد الله غيره، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً. تاريخ الطبري ٣/ ٣٦٦، وابن الأثير ٢/ ٢٦٧.

(١) قال القعقاع في فتح الحيرة بعضاً من الشعر يظهر الحالة التي كان عليها المسلمون يوم الفتح. الطبري ٣/ ٣٦٥.

(٢) ولعل أكبر انتصار، هو الانتصار على الذات، فقد جابه خالد قوماً أصلهم من العرب، وهم على قدر متعادل من الصمود، ولكن الإيمان الذي تميز به خالد وجند المسلمين قد ساعدهم على التفوق. ولعل ما حدث لخالد في نهاية حديثه مع عمرو بن عبد المسيح ـ ابن بقيلة ـ أفضل برهان على ذلك. فقد حضر عمر لمقابلة خالد ومعه خادمه الذي يعينه، وعندما أراد عمرو الانصراف لمح خالد مع الخادم كيساً صغيراً، فاختطفه منه ونثر ما فيه على راحلته، وسأل عمرو: ما هذا؟ فأجابه: هذا وأمانة الله سم ساعة؟ وقال له خالد: لم تحتقب السم؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيت على أجلي، والموت أحب إليَّ من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي. وتذكر المصادر التاريخية أن خالداً تناول السم فلم يصبه أذى أو مكروه. ابن الأثير ٢/ ٢٦٦.

وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات جميعاً. وكانت شروط الصلح مماثلة لشروط صلح الحيرة، وبمقدار عشرة آلاف دينار. وتبع ذلك صلح آخر مع دهاقين الملطاطين ـ ما بين الكوفة والحيرة ـ وفعل مثل ذلك أيضاً صلوبا بن بصهبري ونسطونا فصالحوه على ما بين الفلايج إلى هرمز ـ جرد، وكانت شروط الصلح متشابهة، مع اختلاف في قيمة الجزاء بحسب قدرة المنطقة التي تتم المصالحة عليها.

انصرف خالد لتنظيم الأقاليم التي تم فتحها، ووجه عماله، وأقام مخافر أو مراكز المراقبة، المسالح، كما كانوا يسلمونها، على امتداد الحدود مع بلاد الفرس، وعيَّن أفضل قادته لحماية الثغور وأمرهم بالغارة والإلحاح، فتجاوزت قوات المسلمين نهر الفرات، وانتشرت حتى وصلت نهر دجلة. وفقد الفرس كل سيطرة لهم على الإقليم الممتد ما بين نهري الفرات ودجلة، وجعل خالد من الحيرة مقراً لقيادته، ومنح قواته الفرصة المناسبة للراحة، وإعادة التنظيم استعداداً للمرحلة التالية.

٦ ـ فتح الأنبار[١]

أنجز خالد واجبه، واقتحم الحيرة، وأصبح مرغماً على التوقف بانتظار انتهاء عياض بن غنم من إكمال الواجب المحدد له. وتعثرت عمليات عياض وطال انتظار خالد حتى قارب السنة مما دفع إلى القول بأن تلك السنة هي (سنة نساء). وضاق بعض الجند في جيش خالد ذرعاً بهذه العطالة[٢] وحاولوا استثارته لمتابعة الأعمال القتالية، فكان رد خالد: «الصبر، فإني إنما أريد أن أستفرغ المسالح التي أمر بها عياض فتسكنها العرب، فيأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة وغير متعتعة، وبذلك أمرنا الخليفة. ورأيه يعدل نجدة الأمة».

---

(١) **الأنبار**: مدينة على الفرات في غربي بغداد، ولا يوجد الآن من الأنبار سوى بعض الروابي التي تقع على بعد أميال شمال غرب الفلوجة الحالية، وحوالي ميل من الفرات. وكان الفرس يسمون الأنبار باسم فيروز سابور.

(٢) كان ممن شكا لخالد ضيقه بهذا التوقف مقاتل اسمه عبد الله بن وثيمة، الذي زعم أن الذباب قد أنهكه، وقال ابن وثيمة شعراً يصف ضيقه بالتوقف عن القتال:

لقد حبست في كربلاء مطيتي ... وفي الغين حتى عاد غثاً سمينها
إذا زحلت من قبرك رجعت له ... لعمر أبيها إنني لأهينها
ويمنعها من ماء كل شريعة ... رفاق من الذبان زرق عيونها

كانت الأنبار هدفاً قريباً من خالد، وكانت مميزة بحصونها وحولها خندق يحيط بها، وكانت تقيم بها حامية فارسية بقيادة شيرذاذ حاكم ساباط، وكان قائداً حكيماً قيل فيه: «إنه أعقل أعجمي، وأفضل الحكام في كفاءته القيادية وأقربهم إلى قلوب الناس»، وقد قدر شيرذاذ الموقف بشكل جيد، فوجد أن الحامية الفارسية ضعيفة، وإنه ليس باستطاعته الاعتماد على قوة العرب الذين يقيمون في المدينة، بعد تلك المعارك الظافرة التي أحرزتها قوات المسلمين بقيادة خالد بن الوليد حتى أنه فكر في التوجه إلى خالد لعقد صلح معه، وقال: «والله لئن لم يكن خالد مجتازاً لأصالحنه».

في منتصف ربيع الثاني عام (١٢هـ)، نهاية حزيران - يونيو (٦٣٣م) غادر خالد الحيرة، ودفع مقدمة لقواته بقيادة الأقرع بن حابس التميمي[1] ومضى بجيشه من الفرسان حتى وصل الأنبار فوجد أن أهلها قد تحصنوا واستعدوا للقتال، فقام بجولة استطلاعية حول الخندق، وأمر جنده بالاشتباك مع خصومهم. وخلال الاشتباك الأولي ظهر لخالد ضعف الكفاءة القتالية لخصومه، فتقدم إلى رماته وأوصاهم بقوله: «إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها»، فرموا رشقاً واحداً، ثم تابعوا، ففُقِئ ألف عين يومئذ، فسميت تلك الوقعة «ذات العيون»، وتصايح القوم: ذهبت عيون أهل الأنبار! فقال شيرذاذ: ما يقولون؟ ففسر له فقال: آباذ آباذ، وهي كلمة فارسية معناها: بارك الله. فراسل خالداً في الصلح على شروط رفضها خالد ولم يقبل بها، واستمرت المعركة.

تقدم خالد إلى أضيق مكان في الخندق، وأمر بنحر الإبل الضعيفة، ثم رمى بها في الخندق وشكل بها جسراً يعبره المقاتلون. واقتحم المسلمون الخندق، وأسرع القوم إلى حصنهم، وراسل شيرذاذ خالداً في الصلح على ما أراد، فقبل خالد على أساس السماح لشيرذاذ بمغادرة الأنبار مع مفرزة من الفرسان المرافقة له، وألا يتعرض لهم أحد بسوء، وبشرط ألا يحملوا معهم من المتاع والأموال

---

(١) **الأقرع بن حابس التميمي**: من حكماء قومه، أسلم قبل الفتح، واشترك مع الرسول ﷺ في فتح مكة وحنين والطائف. وعندما قدم وفد تميم بعد الفتح، كان الأقرع مع هذا الوفد، وكان صلباً. شهد مع خالد اليمامة وأيام العراق وفتح الأنبار، ومات شهيداً في أرض خراسان في زمن عثمان بن عفان، ويقال: إنه قتل في اليرموك. أسد الغابة ١/ ١٠٧، والإصابة ١/ ٥٨، والاستيعاب ١/ ١٠٣.

شيئاً، فخرج شيرذاذ حتى وصل إلى مقر قيادة قائده: بهمن جاذويه.

استقر خالد في الأنبار، واستعاد أهل الأنبار ثقتهم بالوضع الجديد، فأخذوا في الخروج لممارسة أمور حياتهم العادية. ورأى خالد أن أهل الأنبار يكتبون بالعربية ويتعلمونها، فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قوم من العرب، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا. فكان أوائلهم نزلوا أيام بختنصر حين أباح العرب، ثم لم تزل عنها. فقال: مما تعلمتم الكتاب؟ فقالوا: تعلمنا الخط من إياد، وأنشدوه قول الشاعر:

قومي إيادٌ لو أنهم أمم ... أو لو أقاموا فتهزل النعمُ

قومٌ لهم باحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والخط والقلمُ

انصرف خالد لإقامة دعائم المجتمع الإسلامي، وبدأ بأهل البوازيج، وبعث إليه أهل كلواذي[1] ليعقد الصلح معهم، فكاتبهم وأصبحوا عوناً للمسلمين فيما وراء دجلة.

٧ ـ عين التمر[2]

كانت عين التمر هي الهدف التالي لخالد، وقد تجمع فيها جمع عظيم من العرب يضم قبائل من النمر وتغلب وإياد ومن ناصرهم، وكلهم بقيادة عقة بن عقة، كما تجمَّع في عين التمر أيضاً جيش قوي من الفرس بقيادة مهران بن بهرام جوبين، وقد توقع هؤلاء جميعاً قيام خالد بهجوم مباغت، فأخذوا في الاستعداد لمجابهته. وقال عقة لمهران: «إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً». وأجابه مهران: «صدقت، لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم» فخدعه، واحتمى به وقال له: «دونكموهم، وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم». فلما مضى نحو خالد، قالت له الأعاجم: «ما حملك أن تقول هذا القول لهذا الكلب!» فقال: «دعوني، فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلَّ حدكم، فاتقيته بهم، فإن كانت لهم على

---

(١) **البوازيج**: بلد قرب تكريت، على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، وأصبحت تابعة للموصل. أما كلواذي: فكانت قرب بغداد وبينهما فرسخ واحداً. معجم البلدان ٢/ ٢٩٧ و٧/ ٢٧٦.

(٢) **عين التمر**: بلدة قريبة من الأنبار، غربي الكوفة قرب موضع يقال له: شغام، ولا تزال عين التمر تحمل هذا الاسم حتى اليوم، وفيها وقعت معركة خالد في منتصف جمادى الأولى (١٢هـ)، نهاية تموز/ يوليو (٦٣٣م).

خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا ويضعفوا، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون»[1].

أراد عقة إبعاد القتال عن عين التمر، فخرج بقواته على طريق الكرخ وعلى ميمنته بجير، أحد بني عتبة بن سعد بن زهير، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران وأخذ في تنظيم قواته في حين احتل مهران حصناً أقام فيه مع قواته الفارسية على بعد مسافة في مؤخرة قوات العرب.

وصل خالد إلى موقع المعركة، وكان عقة لا يزال منصرفاً لتنظيم قواته وتعبئتها، فنظم خالد قواته بسرعة، وكوَّن مجموعة صغيرة لمرافقته وحمايته، ثم قال لمجنبتيه: «اكفونا ما عنده، فإني حامل عليه». وانطلق خالد كالعاصفة، وانقضَّ على عقة فاحتضنه وأخذه أسيراً، وانهزم صفه من غير قتال، فأكثر المسلمون فيهم الأسر، وهرب قادة المجنبتين، بجير والهذيل، ووصلت فلول الهاربين من جيش عقة، وفيهم العرب والفرس، حتى الحصن فاقتحموه واعتصموا به، وجمع مهران جنده بسرعة وترك الحصن، وأقبل خالد ومعه الأسرى وفيهم عقة وعمرو بن الصعق.

أدركت المقاومة أن الحصن لن يحميها من بأس المسلمين، فأرسلوا إلى خالد يطلبون الأمان، فرفض خالد منحهم الأمان على أنفسهم إلا إذا وافقوا على شروطه، وسلموا حصونهم، فوافقوا على ذلك. ودخل خالد والمسلمون عين التمر فقتلوا المقاتلين وسبوا الذرية، واحتووا كل ما ضمه الحصن[2]. وكان عقة وعمرو بن الصعق أول من تم قتلهم وإلقاؤهم على الجسر.

كان عياض بن غنم في هذه الفترة يجابه موقفاً صعباً، فقد استطاع حصار قوات العرب من أنصار الفرس قرب دومة الجندل، ولكن قبائل أخرى طوقت

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٦، ٣٧٧، والكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦٩.

(٢) وجد خالد في عين التمر منزلاً عليه باب مغلق، فكسره، فوجد فيه أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل، فقال لهم: ما أنتم؟ قالوا: رهن. فقسمهم في أهل البلاد، منهم أبو زياد مولى ثقيف، ومنهم نصير أبو موسى بن نصير، ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد بن سيرين، وحريث وعلاثة. فصار أبو عمرة لشرحبيل بن حسنة، وحريث لرجل من بني عباد، وعلاثة للمعنى، وحمران لعثمان. ومنهم عمير وأبو قيس، فثبت على نسبه من موالي أهل الشام القدماء، وكان نصير ينسب إلى بني يشكر، وأبو عمرة إلى بني مرة، ومنهم ابن أخت النمر. الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٧٠، والطبري ٣/ ٣٧٧.

عياض وسيطرت على طرق مواصلاته، فأصبح عياض، هو محاصرهم وهم محاصروه، فأرسل إلى خالد مستغيثاً، ووصل الكتاب وقد فرغ خالد من عين التمر، فعجل إلى عياض بكتابه:

من خالد إلى عياض: إياك أريد:

الْبَثْ قليلاً تأتِك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب

٨ ـ في دومة الجندل[١]

أعاد خالد تنظيم قواته بسرعة، وخرج في تعبيته التي دخل فيها عين التمر، وعلم أهل دومة الجندل مسيرة خالد إليهم فبعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم[٢]. وهنا حدث خلاف بين رئيسي المقاومة، أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة، فقال أكيدر: «أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحدّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً، قَلُّوا أو كثروا، إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم». فأبوا عليه، فقال: لن أُمالئكم على حرب خالد، فشأنكم. وخرج أكيدر يريد الوصول إلى حصونه، فاعترضته قوة من فرسان المسلمين بقيادة عاصم بن عمرو كان قد أرسلها خالد للاستطلاع، وقد بلغه ما يحدث بين قوة أعدائه من تمزق، واقتيد أكيدر إلى خالد فأمر بضرب عنقه، ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة الجندل. وكان النصارى الذين أمدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لأن الحصن لم يتسع لهم، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض.

ونهض الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي لمجابهة قوات خالد بن الوليد، وفي

---

(١) **دومة الجندل**: حصن وقرى بين الشام والمدينة على سبع مراحل من دمشق، أما حصنها فهو لأكيدر بن عبد الملك، وسميت كذلك لأن حصنها مبني بالجندل، واحدها جندلة، وهي الصخر العظيم، وفيها وقعت معركة مع خالد بن الوليد في منتصف جمادى الآخرة (١٢هـ)، الأسبوع الأخير من آب/ أغسطس (٦٣٣م). وكانت دومة الجندل إحدى المدن التجارية الكبيرة في الجزيرة العربية لوقوعها على طريق القوافل بين الجزيرة والعراق والشام. معجم البلدان ٤/ ١٠٦، ١٠٧.

(٢) وكان قد وصلهم من قبل دعم وديعة في كلب وبهراء، ومساندة ابن وبرة بن رومانس. وأتاهم ابن الحدرجان في الضجاعم وابن الأيهم في طوائف من غسان وتنوخ، فأشجوا عياض وشجوا به. الطبري ٣/ ٣٧٨.

الوقت ذاته انطلق ابن الحدرجان وابن الأيهم لقتال عياض بن غنم، فاقتتلوا وكانت معركة ضارية حاول فيها كل طرف انتزاع النصر لمصلحته. واستطاع خالد أخذ الجودي أخذاً واحتفظ به أسيراً، كما استطاع أسر الأقرع بن حابس، ودارت الدائرة على أعداء المسلمين، فهزم خالد القوات التي تجابهه، وهزم عياض القوات التي تتعرض له. وهربت فلول القوات إلى حصون دومة الجندل فلم تتسع لهم، وأغلق من في الحصن أبواب حصنهم دون أصحابهم، فبقوا حوله حرداء، وقال عاصم بن عمرو: يا بني تميم، حلفاؤكم كلب، آسوهم وأجيروهم، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها»، ففتحوا لهم الأبواب وضموهم إليهم. ووصل خالد وجمع فلول القوات التي لم تنجح في دخول الحصن، فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن، ودعا خالد بالجودي فضرب عنقه، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم[1]، ثم أطاف خالد بالباب، ولم يتحرك من أمامه حتى اقتلعه. واقتحم المسلمون الدومة، فقتلوا المقاتلين، وسبوا غير المقاتلين من النساء والأطفال، وعندما أنهى خالد عملياته أقام في الدومة فترة قصيرة، ثم رجع منها إلى قاعدة عملياته في الحيرة[2].

٩ ـ الإغارة على المصيخ «مصيخ بني البرشاء»

غضب عرب الجزيرة لمقتل عقة بن عقة في موقعة عين التمر، وكانت الاتصالات بينه وبين الفرس وثيقة، فاتفق هؤلاء مع الفرس على حرب المسلمين. وخرج زَرْمِهْر ومعه روزبان يريدان الأنبار، وتم الاتفاق على تنظيم المقاومة في الحصيد والخنافس، وأمكن تدمير المقاومة قبل عودة خالد إلى الحيرة. وعندما رجع خالد علم أن فلول قوات الفرس قد تجمعت في المصيخ[3]، بقيادة القائد الفارسي المهبوذان، وكان عرب المصيخ برئاسة

---

(١) قام عاصم والأقرع وبنو تميم بالوساطة لحماية بني كلب، وقالوا لخالد: قد أمناهم. فأطلقهم لهم خالد، وقال: ما لي ولكم! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام! فقال له عاصم: لا تحسدهم العافية، ولا يحوزهم الشيطان ـ أي لا يخالطهم الشيطان ـ.

(٢) عندما علم أهل الحيرة برجوع خالد منتصراً، خرجوا لاستقباله وقوات المسلمين بالأهازيج وأصناف اللهو (التقليس) وجعل بعضهم يقول لبعض: «مروا بنا فهذا فرج الشر!». تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٩، وابن الأثير ٢/ ٢٧٢.

(٣) **المصيخ**: بين حوران والقلت، وفيها وقعت معركة المصيخ في الأسبوع الرابع من شعبان عام (١٢هـ)، الأسبوع الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر (٦٣٣م) وفيها قتل عبد العزى بن أبي رهم بن =

الهذيل بن عمران، وكانت قوات المسلمين موزعة. فقد كان القعقاع بن عمرو التميمي ومعه قوة كبيرة في الحصيد، وكان عروة بن جعد البارقي في الخنافس ومعه أبو ليلى بن فدكي، وكانت القوة الرئيسية مع خالد في الحيرة.

أراد خالد تدمير التحالف بين الفرس وبين العرب المتنصرة، وعرف موقف المقاومة في المصيخ والتي كانت على ثقة من أن خالد لن يهاجمهم طالما أن قواته متفرقة، وطالما أن خالد منصرف إلى مقاومات أخرى، ولهذا فقد قرر خالد توجيه ضربة قوية وحاسمة للمقاومة في المصيخ، تأخذ شكل إغارة ليلية مباغتة، فأرسل تعليماته إلى القعقاع و«أبو ليلى» وأعبد وعروة للاتجاه إلى المصيخ، وحدد لهم ليلة معينة وساعة دقيقة للاجتماع. وخرج خالد من عين التمر قاصداً المصيخ على الإبل يجنب الخيل، فنزل الجناب فالبردان فالحنى، واستقل الخيل من الحنى. فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد التقى الجميع قرب المصيخ واتفقوا على طريقة الهجوم، وقاموا بالإغارة على الهذيل ومن معه ومن أوى إليه. وانطلقت الإغارة من ثلاثة أوجه بحيث أمكن تحقيق المباغتة الكاملة والقوم نيام، فأبادوهم، وأفلت الهذيل في أناس قليل، وامتلأ الفضاء قتلى، فما شبهوا بهم إلا غنماً مصرَّعة[1]. وقتل في المعركة رجلان مسلمان كانا في ضيافة الهذيل، وعندما بلغ ذلك عمر بن الخطاب غضب لمصرعهما، وحمَّل خالد مسؤولية قتلهما، لكن الخليفة «أبو بكر» قال: «أما إن ذلك ليس علي إذ نازلا أهل الحرب، كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم».

= قرواش، أخو أوس مناة ـ من النمر ـ ولبيد بن جرير، وكان معهما كتاب من «أبو بكر» بإسلامهما، وكان عبد العزى، وأصبح اسمه عبد الله، يردد في تلك الليلة:

أقول إذا طرق الصباح بغارة ... سبحانك اللهم رب محمد

سبحان ربي لا إلٰه غيره ... رب البلاد ورب من يتودد

تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٢، وابن الأثير ٢/ ٢٧٢.

(١) كان بين القتلى حرقوص بن النعمان الذي محض قومه النصح، وأجاد الرأي، فلم ينتفعوا بتحذيره. وكان حرقوص في ليلة الإغارة معرساً بامرأة من بني هلال تدعى أم تغلب وحوله بنوه وامرأته، وبينهم جفنة من خمر، وهم عليها عكوف، يقولون له: ومن يشرب الساعة وفي أعجاز الليل! فقال: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها. هذا خالد ـ بالعين ـ وجنوده بحصيد، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا، ثم قال:

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر ... بعيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر

وقبل منايانا المصيبة بالقدر ... لحين لعمري لا يزيد ولا يجري

وعمل الخليفة على دفع ديتهما من أموال المسلمين، وأوصى بأولادهما.

١٠ ـ الثني والزميل[١]

علم خالد أن ربيعة بن بجير التغلبي قد نزل في الثني والبشر غضباً لعقة، وأنه اتصل بروزبة وزرمهر والهذيل، واتفق معهم على حرب المسلمين، كما عرف خالد أن الهذيل قد لجأ بعد هربه من المصيخ إلى الزميل حيث كانت فيها قوة ضخمة بقيادة عتاب، فأقسم خالد على أن يبغتن تغلب في دارها، ووضع مخططه للإغارة على قاعدتي بني تغلب في الثني والزميل، وأعاد تنظيم قواته بسرعة بعد الإغارة على المصيخ، وأصدر أوامره إلى القعقاع وإلى «أبو ليلى» بأن يسبقاه في التحرك، وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للإغارة على الثني من ثلاثة أوجه، كما فعل بأهل المصيخ. وقام خالد بتظاهرة خداعية، فنزل حوران ثم الرنق ثم الحماه، وأخيراً، توجه إلى نقط اجتماع القوات، شرقي الرصافة، والتقت القوات في الموعد المحدد بدقة، وانطلقت القوات بحسب المخطط الموضوع من ثلاثة اتجاهات. وكانت مباغتة كاملة، بحيث لم يتمكن أحد من النجاة، وسبى خالد الشرخ الشباب. وبعث بخمس الله إلى «أبو بكر»، وفيهم بنت ربيعة بن بجير التغلبي، فاشتراها علي بن أبي طالب عليه السلام، فاتخذها زوجة له، فولدت له عمر ورقية.

وأعاد خالد تجميع قواته بسرعة، وانطلق إلى الزميل قبل أن تصل إليها أخبار ما حدث في الثني، وتم تطبيق الخطة ذاتها، الإغارة من اتجاهات ثلاثة. وكانت المباغتة مذهلة أيضاً، وأباد المسلمون أعداءهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها وأصابوا منهم ما شاءوا. ولم يقنع خالد بما حققه من انتصارات حاسمة، فقاد قواته إلى الرُّضاب وفيها هلال بن عقة في جمع كبير من القوات، ولكن هذه القوات ما أن علمت بتحرك خالد حتى أرفضت من حول هلال واضطر هذا إلى الفرار. ودخل خالد إلى الرضاب من دون مقاومة[٢].

---

(١) **الثني**: موضع بالجزيرة قرب الرصافة. معجم البلدان ٣/ ٢٦. والزميل: موضع في ديار بكر، وهي عند البشر شرقي الرصافة. معجم البلدان ٤/ ٤٠٥. والرصافة: هي رصافة هشام التي بناها غربي الرقة، وقد وقعت فيهما الوقعة التي قادها خالد بن الوليد في الأسبوع الأول من رمضان (١٢هـ)، الأسبوع الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر (٦٣٣م).

(٢) **الرضاب**: موضع الرصافة قبل بناء هشام إياها غربي الرقة. معجم البلدان ٤/ ٢٥٩.

١١ ـ حديث الفراض[١]

شعر قادة الفرس والروم بخطورة قوة المسلمين المتعاظمة على حدود امبراطوريتيهما، فحاولوا تنسيق التعاون بينهما في محاولة للقضاء على المسلمين مستعينين في ذلك بأنصارهم من متنصرة العرب. ونبذ هؤلاء القادة العداء التقليدي القائم بين الامبراطوريتين المتنافستين على أرض العرب. وشعر خالد بن الوليد بتحالف القوى، فخرج بجيشه من الرضاب[٢] وتوجه به إلى الفراض، وأخذ في الاستعداد للمعركة الحاسمة، وأمر جنده بالإفطار في هذا الشهر من رمضان، حيث اتصلت فيه الغزوات والمعارك.

وأقام خالد معسكره على الفرات في موقع يهيمن على ما حوله. ووصلت قوات الروم ومعها قوات مسالح الفرس، مراكز المراقبة والاستطلاع، وأنصارهم من قبائل تغلب وإياد والنمر، واتصل قادة هذا الجيش الكبير بخالد، وقالوا له: «إما أن تعبر إلينا وإما نعبر إليكم». ورفض خالد فكرة العبور ومغادرة ميدان المعركة الذي اختاره، فرد على أعدائه: «بل اعبروا إلينا». قالوا: «فتنحوا حتى نعبر». فقال خالد: «لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا». وبذلك فرض خالد ميدان المعركة على أعدائه، وأرغمهم على خوض المعركة في المنطقة التي حددها لهم. وقال قادة الروم لقادة الفرس، بعضهم لبعض: «احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم، ووالله ليُنْصرن ولنخذلن». وبذلك يكون قادة الأعداء قد قرروا نتيجة المعركة سلفاً، ورغم ذلك فإنه لم يكن باستطاعتهم الانسحاب والتراجع عن الموقف الذي وضعوا أنفسهم فيه. فعبروا أسفل من خالد، فلما انتهت عملية العبور، قال الروم لحلفائهم وأنصارهم: «امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح، من أين يجيء»، ففعلوا.

---

(١) الفراض: موضع على حدود تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات. معجم البلدان ٦/ ٣٥٠. وفيه قاتل خالد تجمع الفرس والروم وأنصارهم من العرب في معركة حاسمة يوم (١٥) ذي القعدة (١٢) هجرية/(٢١) كانون الثاني/يناير (٦٣٤م).

(٢) وفيها قال خالد:

طلبنا بالرضاب بني زهير ... وبالأكناف أكناف الجبال
فلم تزل الرضاب لهم مقاماً ... ولم يؤنسهم عند الرمال
فإن تثقف أسنتنا زهيراً ... لكف شريدهم أخرى الليالي

ودارت رحى المعركة بقسوة، واقتتل المسلمون وأعداؤهم قتالاً شديداً طويلاً، أظهرت فيها قوى التحالف بأساً وعناداً، ثم إن الله ﷻ هزمهم، وقال خالد للمسلمين: «ألحوا عليهم ولا تُرَفهوا عنهم». فجعل قائد قوة الفرسان (قائد الخيل) يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم، فقتل يوم الفراض في المعركة وفي المطاردة مائة ألف مقاتل.

أقام خالد على الفراض بعد الوقعة عشرة أيام، ثم أعاد تنظيم قواته، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم، وأمر شجرة بن الأعز أن يضطلع بقيادة المؤخرة، وتظاهر خالد أنه يعتزم التحرك مع هذه المؤخرة.

١٢ ـ حجة خالد

غادر خالد الفراض وقد أخفى أمراً لم يعرفه أحد سوى عدد قليل ممن عينهم خالد لمرافقته، مع عدد محدود من قادة مؤخرة جيشه. وقصد خالد «الحج» ولم يبق من شهر ذي القعدة أكثر من خمسة أيام (قبل عيد الأضحى بأسبوعين)، وكانت المسافة الفاصلة بين مكانه في الفراض وبين عرفات مسافة بعيدة تتخللها مفاوز الصحراء العربية الكبرى في الجزيرة. ومضى خالد بأصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت، فتأتى له من ذلك ما لم يتأتَّ لدليل ولا رئبال. فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم يُرَ أعجب منه، ولا أشد على صعوبته منه، وكان مسير خالد من الفراض أن استعرض البلاد متعسفاً مستميتاً، فقطع طريق الفراض ـ ماء العنبري، ثم مِثْقباً ثم انتهى إلى ذات عرق، فشرق منها، أي: اتجه شرقاً، فأسلمه إلى عرفات من الفراض، وسمي ذلك طريق الصُّدِّ.

استطاع خالد بذلك أداء مناسك الحج بسرعة، والعودة إلى قاعدة عملياته قبل أن يتمكن أحد من اكتشاف غيابه، إذ لم تكد آخر قواته الوصول إلى الحيرة حتى وصل خالد مع وصول قائد المؤخرة إليها. وكان غياب خالد مخالفاً لقواعد القيادة، وعرف الخليفة أبو بكر بقضية ذهاب خالد إلى الحج من دون إذنه وبدون إعلامه، ولكن الخليفة أخذ الأمر بسهولة ويسر، لا سيما وأنه لم ينتج عن غياب خالد وابتعاده عن قواته أي ضرر أو أذى. وكانت الأمور على مسرح عمليات الشام تتطور بصورة خطيرة، فقد جمع الروم قوات ضخمة، مما دفع الخليفة إلى القول: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٠٨.

وكتب إلى خالد رسالة وصلته بعد عودته من الحج بقليل وجاء فيها: «أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك، فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء»[1].

كانت أول مهمة تتطلب الحل هي تقسيم القوات، فقد كان خالد يؤمن بنوعية المقاتل وقدرة هذه النوعية على تحقيق التعادل ضد التفوق العددي، الكمي، الذي ينفرد به أعداء المسلمين، وكان خالد يعرف أيضاً أن أمامه في الشام معارك حاسمة، فكلمات الخليفة تبرز أهمية الموقف الذي تتعرض له قوات المسلمين في الشام وخطورته، وحاول خالد تجاوز تعليمات الخليفة التي فرضت على خالد «لا تأخذن نجداً إلا خلفت نجداً»، فأحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ، واستأثر بهم على المثنى وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة. ولكن المثنى احتج على هذه القسمة غير العادلة وقال لخالد: «والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر «أبو بكر» كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم، فأنّى تعريني منهم؟»[2]. فلما رأى خالد ذلك، أعاضه منهم حتى رضي، وأخذ في الاستعداد للتحرك إلى الشام.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٥، ٤٠٧.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤١١.

هـ ـ خالد في الشام

«كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم! فإني إن استقبلتها حبستني عن غياب المسلمين». قالها خالد وهو يضع مخططه للتحرك نحو الشام، وتصدى رافع بن عميرة الطائي، دليل خالد، للموقف فقال: «إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغرراً، إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها». فقال له خالد: «ويحك! إنه والله أن لا بد من ذلك، إنه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك، فمر بأمرك». واختلف القادة، فوقف رافع في النهاية ليقول: «لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، وإن المسلم لا ينبغي أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له». فقالوا له: «أنت رجل قد جمع الله لك الخير، فشأنك».

انتهت مرحلة الاستعداد للمسير، ونظمت الأمور الإدارية ـ اصطحاب ما يكفي من الإبل للطعام والماء لمدة خمسة أيام ـ، وهناك اختلاف في حجم القوة. فتذكر المصادر التاريخية أن حجم هذه القوة يتراوح بين بضع مئات، وبضع آلاف تصل إلى تسعة آلاف، ومهما كان عليه الأمر فإن العدد لا يقل عن خمسة آلاف ولا يتجاوز تسعة آلاف بالمقارنة مع حجم الجيوش التي كان يتم إطلاقها من الجزيرة إلى مختلف الجبهات. وغادر خالد وجيشه الحيرة وخرج المثنى لوداعه ورافقه حتى «قراقر»[1]، وهناك انفصل القائدان اللذان سجلا معاً على صفحة التاريخ أروع الانتصارات، ورسما للمسلمين أنصع صفحات الجهاد في سبيل الله. وقد يكون من الصعب تصوير انفعال القائدين لحظة الوداع، ولكن ثورة العاطفة قد كبحت أمام ما كان ينتظرهما من أعباء جسام. فقد كان

---

(١) **قراقر**: وادٍ لبني كلب بالسماوة من ناحية العراق. معجم البدان ٧/ ٤٤؛ أي على حدود العراق وبادية الشام من جهة العراق.

على المثنى متابعة تنفيذ الواجبات القتالية في إقليم واسع ومع قوة تناقص حجمها، وكان على خالد المضي لمجابهة مواقف لا يعرف عنها الكثير، وفي منطقة تختلف عن تلك التي مارس فيها أعماله القتالية طوال عام، وحقق فيها من الانتصارات ما يقصر طموح أي قائد عن بلوغه.

مضى ركب خالد يخترق الصحراء، قافلة طويلة، ترهقها الحرارة اللاهبة في النهار، وتضعفها برودة الليل القاسية في الصحراء. وكانت السماء تتلألأ بالنجوم ليل حزيران/ يونيو من عام (٦٣٤م)، الموافق أوائل ربيع الثاني من السنة الثالثة عشرة للهجرة. وتجاوز الركب قراقر. ومضت الأيام الأربعة، وجاءت أصعب مرحلة، وهي مرحلة الوصول إلى سوى[١] حيث الأمل بالعثور على الماء، ولكن الركب لم يعثر على الماء، وخشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة، فقال لرافع بن عميرة وهو أرمد: «ويحك يا رافع! ما عندك؟» قال: أدركت الريَّ إن شاء الله. فلما دنا من العلمين، قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! هلكتم والله إذاً وهلكتُ، لا أبا لكم! انظروا. فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية، فلما رآها المسلمون كبَّروا وكبَّر رافع بن عميرة ثم قال: احفروا في أصلها، فحفروا فاستخرجوا عيناً فشربوا حتى روي الناس، فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل، فقال رافع: والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة، وردته مع أبي وأنا غلام[٢].

لما انتهى خالد إلى «سوى» أغار على مصيخ بهراء بالقُصواني، وهو ماء من المياه، فصبح المصيخ والتمر، وناس منهم يشربون خمراً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها، ومغنيهم يقول:

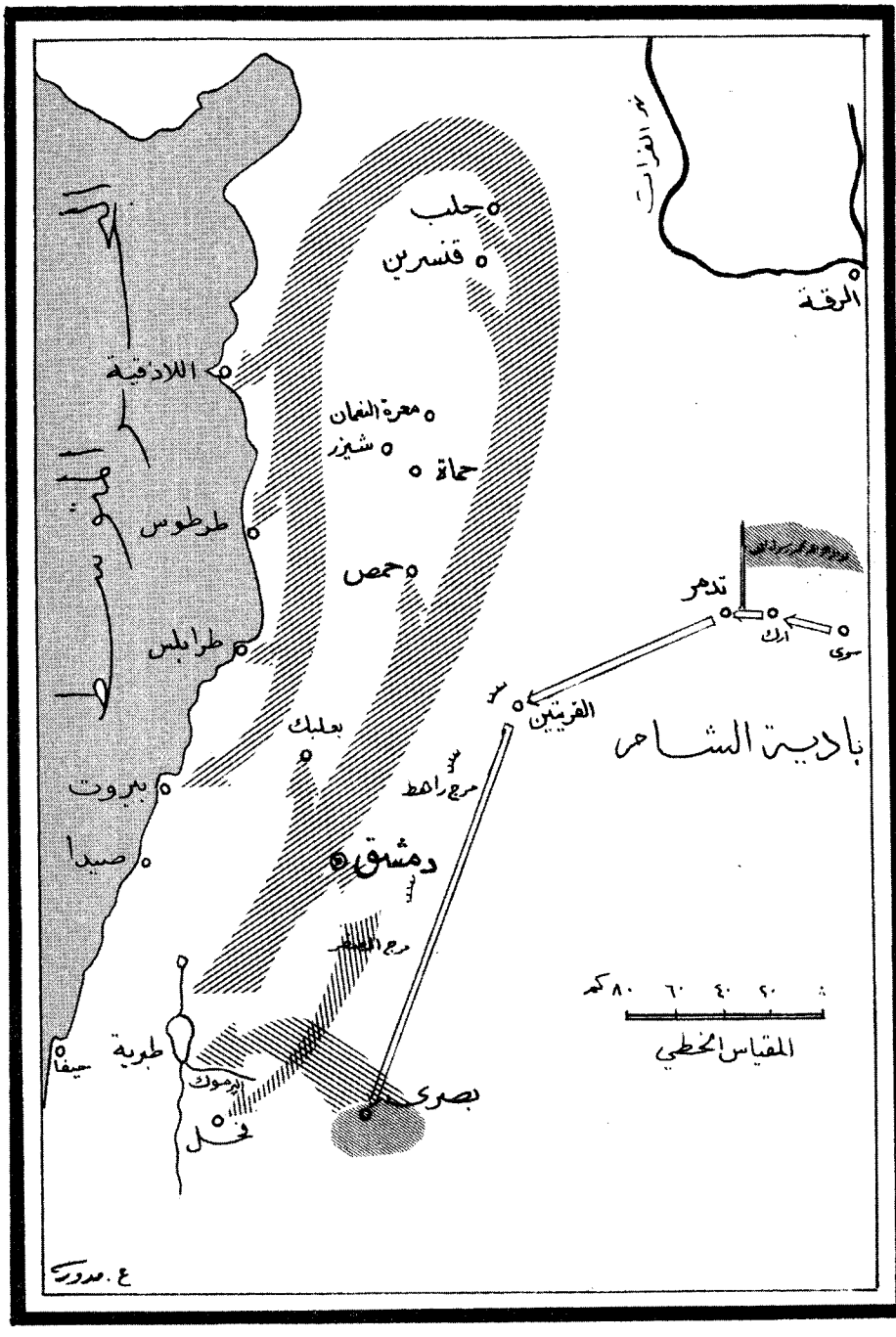
ألا عللاني قبل جيش أبي بكر ... لعل منايانا قريب وما ندري
ألا عللاني بالزُّجاج وكرِّرا ... علي كميتَ اللونِ صافية تجري
ألا عللاني من سلافة قهوةٍ ... تسلي هموم النفس من جيد الخمر

---

(١) سوى: ماء لبني بهراء، من ناحية السماوة. معجم البلدان ٥/ ١٥٧؛ أي على حدود العراق وبادية الشام من جهة الشام.

(٢) وفي ذلك يقول شاعر من المسلمين:

للَّه عينا رافع أنى اهتدى ... فوز من قرار إلى سوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ... ما سارها قبلك إنسي يرى



فتوحات خالد في بلاد الشام

أظن خيول المسلمين وخالداً ستطرقكم قبل الصباح من البشر
فهل لكم في السير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر

فيزعمون أن مغنيهم ذلك قتل تحت الغارة، فسال دمه في تلك الجفنة.

سار خالد بعد ذلك إلى «أرك» فصالحوه، ثم أتى تدمر فتحصن أهله، ثم صالحوه، ثم أتى القريتين فقاتلهم فظفر بهم وغنم، وأتى حوارين فقاتل أهلها فهزمهم وقتل وسبى، وأتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة. واستمر خالد وجيشه، من دون توقف، وبدون استراحة، من مسير صعب وشاق إلى معارك متتالية. وأخيراً وصل جيش المسلمين إلى المرتفع المعروف حالياً باسم طلوع الثنايا حيث عدرا والقطيفة، وظهرت غوطة دمشق بكل روعتها وبهائها، من بعيد، ومع الضباب الذي يلف المدينة الخالدة كانت القلعة والحصون تنتصب شامخة. ونشر خالد رايته **السوداء، والتي كانت لرسول الله ﷺ وتسمى العقاب، فسميت الثنية منذ ذلك الوقت باسم «ثنية العقاب» وأصبح «العقاب» رمزاً للمسلمين في ديار الشام**، ولكن ذلك المنظر الرائع لم يستوقف المسلمين طويلاً، فقد كانت أمام خالد واجبات كثيرة. فسار خالد بجيشه إلى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم، فقتل وسبى خلقاً كثيراً وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال، وسبوا النساء، وساقوا العيال إلى خالد. وسار خالد إلى بُصرى حيث التقت قوات خالد بقوات «أبو عبيدة». وكان فرح اللقاء، معادلاً لألم الفراق الذي بدأت به مسيرة خالد من العراق إلى الشام.

١ ـ خالد في اليرموك

«إن هذا يومٌ من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، وأنتم على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته. إن «أبو بكر» لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون. لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله

ولا عند خليفة رسول الله ﷺ. هلموا فإن هؤلاء تهيؤوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا، فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني أليْكُم اليوم»[1].

لقد كانت هذه المقولة التي حفظها التاريخ لخالد بن الوليد هي أساس التنظيم الجديد الذي أمكن بواسطته مجابهة قوات الروم المتفوقة وإلحاق الهزيمة بها، ولم يكن الوصول إلى هذه المقولة التي تمثل قرار القتال والتنظيم للمعركة إلا نتيجة الخبرات التي اكتسبها خالد في حروبه السابقة وإلا نتيجة الموقف الذي شعر به خالد، وإن خطورة هذا الموقف على المسلمين أكبر من خطر أعدائهم عليهم.

لقد نزل خالد إلى بُصرى وشهد بعض المعارك، ورأى «أن كل قتال المسلمين يتم على تساند، كل جند وأميره، لا يجمعهم أحد، وكان عسكر «أبو عبيدة» باليرموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكرُ شرحبيل مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان، فكان أبو عبيدة ربما صلّى مع عمرو، وشرحبيل مع يزيد، فأما عمرو ويزيد فإنهما كانا لا يصليان مع «أبو عبيدة» وشرحبيل، وقدم خالد بن الوليد وهم على حالهم تلك فعسكر على حدة، فصلى بأهل العراق»[2].

كان جيش المسلمين يفتقر إلى وحدة القيادة وكانت وحدة القيادة، تسمح للقائد بحرية العمل، مما يساعد على مجابهة المواقف المختلفة، ولا يترك مصير المعركة تحت رحمة قادة القوات المختلفين. وعلاوة على ذلك، فقد كانت وحدة القيادة عاملاً أساسياً في تنظيم المعركة، وفي تنسيق التعاون بين القوات، وعلى هذا فعندما طرح خالد الموقف أمام القادة وافقوا على وجهة نظره، وبدأ خالد على الفور بإعادة تنظيم المعركة على أساس الكراديس ـ الكتائب ـ وكانت قوة كل كردوس تعادل ألف مقاتل. فكان في اليرموك (٣٦) ألف مقاتل من المسلمين تم تنظيمهم في (٣٦) أو (٣٨) كردوساً. ولكن، وقبل الوصول إلى اليرموك، قاد خالد مجموعة من الأعمال القتالية التي استنزفت قدرة الروم البيزنطيين وكان من أبرزها موقعة أجنادين.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٦.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٥.

٢ ـ موقعة أجنادين[١]

عندما أخذت قوات المسلمين في التجمع، كان عمرو بن العاص مقيماً في عربات من غور فلسطين، ولم يكن باستطاعته اللحاق بقوات التجمع الإسلامي، فقد كان يجابه حرباً كؤوداً في مجابهة تجمع الروم الذين حشدوا ثمانين ألفاً تقريباً بقيادة «تذارق» ـ أخو هرقل لأبويه ـ بمهمة تدمير جيش عمرو بن العاص على طريق التدمير المتتابع لقوات المسلمين، ولم يكن باستطاعة خالد بن الوليد ترك هذه القوة لتعيق عمرو بن العاص عن اللحاق بقوات المسلمين والانضمام إليهم. وعرف خالد أن ثقل تحرك قوات الروم المثقلين بشؤونهم الإدارية سيساعد قواته الخفيفة على حسم الصراع فوق أرض فلسطين، قبل أن ينهي الروم تجمعهم واستعداداتهم القتالية في الجولان. ونظم خالد قواته بسرعة، فكان التنظيم على النحو التالي:

١ ـ القلب: بقيادة الصحابي معاذ بن جبل، ويشكل الكتلة الرئيسية للقوات.

٢ ـ الميمنة: بقيادة عبد الرحمٰن بن أبي بكر.

٣ ـ الميسرة: بقيادة سعد بن عامر.

٤ ـ الساقة «المؤخرة»: وهي بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

٥ ـ مجموعتان من الفرسان، الأولى بقيادته والثانية بقيادة شرحبيل بن حسنة.

لم تكن المسافة بين موقع خالد وموقع عمرو بن العاص مسافة بعيدة، فهما يعملان على مسرح عمليات واحد، ولكن المنطقة كانت لا تزال خاضعة لقوات الروم البيزنطيين، وكان لعامل الزمن دوره في عمليات خالد ولم يكن باستطاعته التضحية بعامل أمن القوات لحساب السرعة والمرونة فكان لا بد له من اتخاذ كل تدابير الحيطة، مع محاولة الوصول إلى ميدان المعركة بسرعة قدر المستطاع. وكانت الإمدادات لقوات الروم مستمرة، ولكن مقابل ذلك، اكتسب المسلمون ثقة كبرى بأنفسهم من خلال مجموعة انتصاراتهم السابقة، فكانت الروح المعنوية للروم متدهورة في حين كانت الروح المعنوية للمسلمين قوية في أساسها، وزاد من قوتها ما أمكن تحقيقه من انتصارات على قوات الروم

---

(١) **أجنادين**: موضع معروف بالشام من ناحية فلسطين. معجم البلدان ١/١٢٦. وفيه وقعت معركة حاسمة من معارك المسلمين في (٢٨) جمادى الأولى (١٣هـ)، الموافق (٣٠) تموز/يوليو (٦٣٤م). ويذكر الطبري أن أجنادين تقع بين الرملة وبيت جبرين.

المتفوقة. وحاول تذارق، عندما شهد إمدادات المسلمين، معرفة طبيعة هؤلاء المقاتلين[1] والدخول معهم في مفاوضات على أمل حمل المسلمين الاكتفاء بالغنائم وإعطائهم ما يحتاجونه من أموال وخيول وإعادتهم إلى جزيرتهم، ورفض خالد العرض المقدم إليه، كما رفض قبول التحديات والتهديدات التي وجهها تذارق للمسلمين، وبدأت المعركة عند فشل المفاوضات، واستهدف المسلمون إبادة العناصر القيادية، ونجح ضرار بن الأزور بقتل حاكم طبريا منذ اللحظة الأولى لبداية القتال، ثم قتل إصطفان حاكم عمان، واشتدت المعركة، وتزايد الموقف خطورة. وانتهت معركة اليوم الأول بسقوط ثلاثة آلاف من جند الروم فيهم عشرة من القادة والحكام في الأقاليم، منهم «دمر» حاكم نوى، و«كوكب» حاكم البلقاء، و«لاوي بن حنا» ملك غزة.

أراد تذارق نصب كمين لقتل خالد بن الوليد، فطلب إليه التقدم للتفاوض معه في موقع حدده، واستطاع خالد بن الوليد الحصول على المعلومات عن مكان الكمين وقوته، فأرسل في الليل عشرة من أشجع قادته، بقيادة ضرار بن الأزور، فأقام هؤلاء كميناً في الليل، وعندما تقدم فرسان الروم لإقامة كمينهم انقض عليهم ضرار وقوته وأبادوهم، وارتدوا ثيابهم، واحتلوا موقعهم. وتقدم تذارق في اليوم التالي إلى موضع الكمين وحده، وهو يعتقد أنه محاط بجنده، وتقدم خالد وبعد حوار قصير ومثير، أمسك تذارق بخالد، وأشار إلى قوة الكمين بالخروج، وتقدم فرسان ضرار، وكانت مباغتة أرعبت تذارق عندما كشف ضرار وجنده أقنعتهم، وأهوى ضرار بسيفه فاقتلع رأس تذارق وألقى به في مقدمة صفوف الخصم. وبدأت على الفور المعركة الحاسمة والقصيرة التي انتهت بهزيمة جيش تذارق وتدميره، ولم ينج منه إلا عدد قليل، هربوا في كل وجه. وتحرر خالد من الجيش المنظم الذي يضم ثمانين ألفاً،

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أن القبقلار، أحد قادة تذارق، أرسل رجلاً عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم، فدخل فيهم، وأقام يوماً وليلة، ثم عاد إليه، فقال: ما وراءك؟ فقال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ولو زنى رجم لإقامة الحق فيهم. فقال: إن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي. وعندما نشب القتال، ولما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم: لفوا رأسي بثوب. قالوا له: لِمَ؟ قال: يوم البئيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا. قال: فاحتز المسلمون رأسه وإنه لملفف. الكامل لابن الأثير ص٢٨٦، ٢٨٧.

وأصبح باستطاعة عمرو بن العاص الانطلاق مع خالد إلى الجولان.

تجمعت قوات المسلمين في الجولان، وعقد القادة مؤتمراً للحرب، وطرح فيه الموقف للنقاش، ومر أبو سفيان بن حرب فقال: «**ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم، ويتذاكرون بما يكيدون به عدوهم في منزلي ولا يحضروني**». وأُدخل أبو سفيان بن حرب، فجلس إلى المؤتمرين وقال لهم: «إن معسكركم هذا ليس بمعسكر، إنني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولون بينكم وبين مددكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم، فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات خلف أظهرهم فيأتيكم المدد والخبر. وإذا قبلتم رأيي فاجعلوا خالد بن الوليد أميراً على الخيل، ومروه بالوقوف بين المعسكرين وبين الخيل، فإنه سيكون لرحيل العسكر وقت السحر أصوات عالية تحدث لعدوكم فيكم طمعاً، فإن أقبلوا يريدون ذلك لقيتهم الخيول فكفتها، وإن كانت للخيول جولة دافعت عنها الرماة»[1].

وتحركت قوات العرب المسلمين من الجولان إلى اليرموك، ونزلت قوات الروم، وأخذ الطرفان في الاستعداد للمعركة الحاسمة.

٣ ـ في اليرموك

كانت اليرموك نتاج جهد مشترك أسهم فيه القادة جميعاً، بإخلاص لا مثيل له، وبتجرُّد لا نظير له، واندفع المقاتلون بحماسة وإيمان لا حدود لهما، ولكن رغم ذلك يبقى دور خالد بن الوليد دوراً أساسياً وحاسماً، فهو الذي نظم المعركة، وهو الذي تولى إدارة الحرب والقتال.

لقد انطلق الروم إلى اليرموك بقوة (٢٤٠) ألفاً من المقاتلين الأشداء الذين خبرتهم الحرب وخبروها، وعرفوا ويلاتها، وكانت معهم وصية هرقل: «انزلوا بالروم منزلاً واسع الطعن واسع المطرد، ضيق المهرب»، ولكن هذا الجيش الكبير تمركز في اليرموك، وإلى يمينه نهر الأردن وبحيرة طبريا، يحميان جناحه الأيمن، وبينه وبين المسلمين نهر اليرموك الذي يحمي جبهته. أما جناحه الأيسر فلا خطر من تطويقه نظراً لتفوق الروم العددي وقدرتهم على زج قوات من اليسار، كما أن قاعدتهم الخلفية مأمونة لاتصالها بقواعد الإمداد والتموين في عمق بلاد الشام. وعندما نزل الروم في اليرموك، درس

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/ ١٦١.

عمرو بن العاص طبيعة الأرض، وإمكانات الإفادة من ميزاتها، وعندما شهد ميدان القتال محدداً ومحصوراً من اتجاهين قال: «**أبشروا، حصرت الروم وقل ما جاء محصور بخير**». وخلال هذه الفترة، كانت إمدادات الروم متصلة، فوقف رجل وقال لخالد: «**ما أكثر الروم وأقل المسلمين**»، فقال خالد: «**ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا بالعدد**»[1].

كانت قوة المسلمين (٣٦) ألف مقاتل، فنظمهم، فجعل في القلب (١٨) كردوساً و(١٠) كراديس في كل جناح من الجناحين الأيمن والأيسر، وكلف بقيادة الكراديس أفضل قادته[2]. وتم تنظيم القوات على الشكل التالي:

١ ـ المقدمة، بقيادة قباث بن أشيم.

٢ ـ الميمنة، بقيادة شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص.

٣ ـ الميسرة، بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

٤ ـ القلب، بقيادة «أبو عبيدة» بن الجراح.

وتم وضع معسكر النساء خلف التنظيم القتالي، وأُسندت إليه واجبات رعاية الجرحى، وعدم السماح لأحد بالتراجع، وعندما انتهى التنظيم لاحظ خالد بن الوليد قلة عدد فرسان المسلمين بالنسبة لأعدائهم، فقرر تعديل مخططه، وتقدم إلى «أبو عبيدة بن الجراح» ليقول له: «إن هؤلاء ـ الروم ـ قد أقبلوا بعدة ولهم زجل ومزرح، وإن لهم حدة لا يردها شيء وليست خيلي بالكثيرة، ولا والله لا قامت خيلي لشدة خيلهم، ورجالهم أبداً، وقد رأيت أن أفرق خيلي، فأكون في إحدى الخيلين وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة، فإذا حمل الناس ثبَّت الله أقدامهم، وإن تكن الأخرى حملت خيولنا عليهم وهي حامية، ويكون الأعداء قد انتهت شدتهم وتفرقت جماعتهم، فأطلق الأعنة عند ذلك إلى أن يظفرنا الله بهم ويجعل الدائرة عليهم. وقد رأيت أن يجلس سعيد بن زيد مجلسك هذا ويقف من ورائه وبحذائه مائتان أو ثلثمائة

---

(١) الأشقر من الخيل: الأحمر في مغرة حمرة، يجر منها السبيب. ووجي الفرس وتوجى، أي أصيب بالوجأ، وهو أن يشتكي الفرس باطن حافره، وكان فرس خالد قد حفي في مسيره. الطبري ٣/ ٣٩٨.

(٢) في تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٦، ٣٩٧، أسماء قادة الكراديس.

يكونون للناس ردءاً»[1].

وجاء التنظيم النهائي على النحو التالي:

١ ـ النسق الأول من المشاة على ثلاثة صفوف ومهمته تحطيم حدة هجوم الروم، وإضعافه.

٢ ـ توزيع قوة الفرسان على مجموعتين بواجب حماية الأجنحة وسد الثغرات، وتتمركز خلف الأجنحة. وكان من واجب الفرسان أيضاً الاشتباك مع فرسان الروم، ثم الانسحاب إلى مواقعها خلف الأجنحة.

٣ ـ تكوين قوة احتياطية واجبها دعم محور ثقل الهجوم، وسد الثغرات، ومجابهة الطوارئ والقيام بالهجوم المضاد.

وقرر خالد بن الوليد في تعديل مخططه مبدأين رئيسيين هما:

١ ـ **فصل فرسان الروم عن مشاتهم** وضرب كل طرف بمعزل عن دعم الطرف الآخر، وذلك عن طريق تنسيق التعاون بين قوة الرمي للمسلمين (المشاة) وقوة الصدمة (الخيالة).

٢ ـ **ترك قوات الروم حتى تتقدم من أنساق المشاة** حتى يتم تحطيم قوة هجومها بالرمي، ثم يقوم فرسان المسلمين بسحقها عن طريق قوة الصدمة (الفرسان).

وأنهى المسلمون استعدادهم، وقام القارئ المقداد بتنفيذ السُّنة التي سنَّها رسول الله ﷺ بعد بدر «أن تُقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي الأنفال، ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك».

«خرجت الروم في تعبية لم يرَ الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك». وتبرهن هذه المقولة التاريخية على أن حوار الإرادات بين القادة كان هو الشكل المهيمن على المعركة، وقد حفظت المصادر التاريخية أيضاً مجموعة كبيرة من الصور المتباينة لمعركة اليرموك الخالدة والتي تبرز مقدار التعقيد الكبير الذي تميزت به تلك المعركة. ومهما كان عليه الموقف فقد تجاوز دور خالد في المعركة حدود العمل التنظيمي، وإدارة الحرب ليفرض هيمنته على مسيرة الصراع السياسي والأيديولوجي، الديني، الذي سبق المعركة ورافقها.

لقد حاول الروم اتباع وسيلتهم التقليدية في تفريق العرب وضرب بعضهم

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/ ١٦٤.

ببعض، فكان رد الفعل الطبيعي هو قيام خالد بن الوليد بتوجيه ضربة حاسمة لأنصار الروم من الغساسنة الذين كان يتولى قيادتهم جبلة بن الأيهم الغساني، مما أقنع العرب بالتخلي عن تحالفهم التقليدي مع الروم. وفي الوقت ذاته كان لصمود المقاتلين المسلمين وعنادهم وفضائلهم الحربية قبل كل شيء دور أساسي وحاسم في إضعاف الروح المعنوية للروم وحمل بعضهم على الوقوف مع العرب وخوض المعركة معهم (مثل قصة القائد الرومي ـ جرجه). وهكذا كانت معركة اليرموك نقطة التحول الحاسمة لا في مجال الصراع المسلح بين الروم والمسلمين، وإنما في مجال الحرب الدينية التي حددتها سهول اليرموك[1].

وجدير بالذكر إن معركة اليرموك الخالدة لم تبدأ كما هو معروف في صباح يوم (١٢) رجب من السنة الثالثة عشرة للهجرة، (١١) أيلول/ سبتمبر (٦٣٤هـ) وإنما بدأت قبل ذلك بأكثر من شهر، حيث أنهى الروم حشد قواتهم وأخذوا في عرض قوتهم المادية وتنظيم أمور معركتهم، بهدف إرهاب العرب المسلمين، وتبع ذلك اشتباكات مسلحة أمكن تصعيدها خلال خمسة أيام إلى أن أمكن حسم الصراع المسلح لصالح العرب المسلمين في اليوم السادس من المعركة وليلته. ورغم أهمية المعارك والاشتباكات في الأيام الخمسة والتي تبرز كفاءة خالد القيادية وقدرته على إعادة التنظيم بسرعة، ومجابهة المواقف المتجددة باستمرار، إلا أنه بالمستطاع تجاوز ما حدث خلال هذه الأيام للوصول دفعة واحدة إلى يوم حسم معركة اليرموك، (١٢) رجب، ذلك أن أحداث المعركة في هذا اليوم وتحولاتها تضم كل خصائص القتال في اليرموك وميزاته.

بدأت معركة اليوم الحاسم، كما هو معروف في أساليب الحرب القديمة، بالمبارزات والاشتباكات الفردية التي كان يضطلع بها أساساً خيرة الفرسان،

---

(١) **اليرموك**، أو هيروماكس، وهناك بعض المؤرخين الذين يصعب عليهم التمييز بين هذه المعركة ومعركة اليرموث، والمقصود بها أجنادين، وقد يكون تقارب الحدود الزمنية والجغرافية بين المعركتين قد أدى إلى المزج بينهما في معركة واحدة أحياناً، وفي معركتين غير متمايزتين تماماً في بعض الأحيان الأخرى. ومهما كان عليه الأمر فإن الفوارق بين المعركتين، من وجهة نظر فن الحرب، هي فوارق ثانوية ومعدومة الأهمية، إذ أن الأهمية هنا تبرز في وقائع القتال أكثر مما تبرز في الأطر الزمنية والجغرافية لمسيرة الأحداث.

وقد انسحبت قوة الفرسان بعد ذلك لتنضم إلى قوة الفرسان خلف جناحي التنظيم القتالي لقوات العرب المسلمين، وأخذت حدة القتال في التعاظم، ويمكن إيجاز مسيرة الأعمال القتالية على الأجنحة والقلب على النحو التالي:

معركة الجناح الأيمن: انطلق قائد جيش الروم، (ماهان) أو (باهان)، على رأس جيشه لتوجيه الضربة الرئيسية ضد الجناح الأيمن بهدف القيام بحركة استدارة واسعة من أجل تطويق جيش المسلمين، وجابه جند المشاة المسلمين هذا الهجوم، وقاوموا زحف الروم بعناد كبير، لكن تفوق الروم عددياً ساعدهم على ممارسة ضغوط قوية أرغمت قوات الجناح الأيمن على التراجع نحو القلب. وثبت بعض الرجال من أمثال الحجاج بن عبد يغوث، مما أثار حمية قبائل حمير وخولان وحضرموت، فعادت إلى الهجوم والالتفاف حول بقية جنود الميمنة، وانطلق أبو هريرة، من أصحاب الرسول ﷺ، وهو يقاتل بحماسة ومعه مجموعة من الأزد مما أثار الحماسة، ونجح المجاهدون في تكوين ستارة وقائية أحاطت بالمتسللين من الروم، واستمر القتال بعناد وضراوة بعد أن اختلط المجاهدون على الجناح الأيمن بالمجاهدين من قوات القلب.

معركة الجناح الأيسر: عندما أخذ ماهان في الهجوم على جناح المسلمين الأيمن، أصدر أوامره إلى قادته بالهجوم على الجناح الأيسر للمسلمين لإحكام الطوق وعزل المسلمين. وطلب قناطر من جرجرين، قائد جند أرمينيا، البدء بالهجوم، إلا أن جرجرين رفض البدء بالهجوم، وطلب إلى قناطر أن يبدأ هو بالهجوم، وطال الجدل وكل يدعو الآخر للتقدم، وأخيراً اتفقا على القيام بهجوم مشترك. واندفعت قوات الجيشين ضد الجناح الأيسر للمسلمين، وصمد المشاة هنا أيضاً، لثقل هجوم الروم، وأمكن تدمير الموجات الأولى من جند الروم أمام مواقع المسلمين، ولكن التفوق بالقوى مارس دوره هنا أيضاً فأرغم جناح المسلمين الأيسر على التراجع، لكن حملة الرايات والشجعان من المسلمين ثبتوا في مواقعهم وهم يقاتلون ويقتلون، واندفع الروم من الثغرة التي أحدثوها ووصلوا إلى ما وراء المجاهدين المسلمين، وفر بعض من لم تكن لهم طاقة على الصمود، فاستقبلتهم النسوة وأرغمتهم على معاودة القتال.

معركة القوة الاحتياطية: اختار قائد القوة الاحتياطية للمجاهدين سعيد بن زيد، ثنية من ثنايا الأرض خلف قوات القلب، ووزع المقاتلين الذين بقيادته من أفراد القوة الاحتياطية، وكمنت هذه القوة بعد أن أجادت التمويه، وعندما نجح

الروم باختراق الجناحين الأيمن والأيسر، وتقدمت قواتهم لتطويق المسلمين، وثب سعيد بن زيد والمجاهدون معه، وقاتلوا بعناد وشجاعة، بحيث استطاعوا، رغم ضعف قوتهم العددية، الصمود أمام تفوق الروم. وانضم يزيد بن أبي سفيان ومعه مجموعات من المقاتلين فدعموا القوة الاحتياطية، وكذلك فعل شرحبيل بن حسنة، ولكن القوة الاحتياطية اضطرت إلى التراجع أمام ضغط جيش الروم حتى كاد ينكشف قلب جيش المسلمين.

معركة الفرسان: وقف خالد بن الوليد خلف الجناح الأيمن ومعه كتلة الفرسان الرئيسية وهو يتابع تطور المعركة، ولما شاهد بعض فرسان الروم وقد نجحوا في اختراق ثغرة بين صفوف المسلمين، انطلق لقيادة الهجوم المضاد، ونجح في صد كل هجوم للروم ضد قوات القلب. وفي هذه الفترة وصله مراسل من قيس بن هبيرة، قائد قوة الفرسان على الجناح الأيسر، وهو يعلمه بنجاح الروم في اختراق جناح المسلمين الأيسر. وأسرع خالد لدعم قيس واستطاع فرسان المسلمين بعد تجمعهم مجابهة فرسان الروم بعد أن سقط عدد كبير منهم يزيد على ستة آلاف فارس أثناء المعركة، كما استنزفت المعركة قوة بقية فرسان الروم.

معركة النساء: نجح فرسان الروم في التوغل خلف التنظيم القتالي للمسلمين، ووصل تراجع جند المسلمين حتى المنطقة الخلفية حيث معسكر النساء والشؤون الإدارية، وهنا انطلقت النساء المسلمات وهن يرجمن الرجال بالحجارة، ويصرخن في وجوههم: «أين، أين عز الإسلام والأمهات والأزواج؟» وكانت ابنة ابن العاص تقود جموع النساء، وتصرح بالمتراجعين من مقاتلي المسلمين فتقول: «قبح الله رجلاً يفر عن حليلته، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته». وتتردد أصوات النساء فتلطم أسماع الرجال وهي تقول: «والله لستم بعولتنا إن لم تمنعونا»، وترتفع صوت أهازيج النساء المسلمات بحداء شعبي معروف:

نحن بنات تبع وحِمْيَر ... وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

ولم يقف دور النساء عند حدود إثارة الحماسة وإنما نزلن إلى ميدان المعركة، بالحجارة وبأعمدة الخيام، وسقط بعض جند الروم، حتى أن أم الحكيم بنت الحارثة بن هشام قتلت وحدها ستة فرسان من الروم، وأثار ذلك

الحماسة، فإذا بالعباس بن سهل بن سعد الساعدي يثور بعد أن وصل في تراجعه حتى معسكر النساء، فانطلق بأهزوجته:

يا هارباً عن نسوة ثنيات فعن قليل ما ترى سبات
ولا خطيئات ولا رصينات

ويتجمع حوله بعض من ثقل عليهم هجوم الروم، فيقومون بهجوم مضاد، وتتعاظم قوة المسلمين بعد أن شعر الجميع بأن قوة الروم قد وصلت حتى نهايتها. ويندفع خالد بن الوليد بقيادة الهجوم المضاد في اللحظة المناسبة مما اضطر بقية فرسان الروم للانسحاب، وأعاد المجاهدون في سبيل الله تنظيم صفوفهم بسرعة. وأقبل الليل، ولكن خالداً صمم على متابعة المعركة حتى لا يسمح للروم بإعادة تنظيم قوتهم والاستعداد لاستئناف القتال في اليوم التالي. ووزع خالد قواته على المرتفعات المحيطة بميدان المعركة، وأمر الجند بإشعال النيران على محور الطريق وحتى نهر اليرموك، ثم اندفع بقوة صغيرة إلى داخل معسكر الروم على شكل إغارة مباغتة واشتبك مع فرسان الروم، ثم تظاهر خالد بن الوليد بالفرار، وتبعه فرسان الروم وبذلك فصل فرسان الروم عن جند مشاتهم. وانطلق المجاهدون من كمائنهم لإبادة فرسان الروم، وأمكن تدمير القسم الأكبر من تلك القوة واتجه من استطاع مغادرة طوق الحصار نحو دمشق على شكل أفراد ممزقين. وفي الوقت ذاته انقض جند المسلمين على مشاة الروم، وبدأت عملية إبادة الجند المقيدين بالسلاسل، وكان سقوط قتيلين أو ثلاثة كافياً لسقوط السلسلة في الواقوصة. وما أن أشرقت شمس اليوم التالي حتى كان سهل اليرموك فارغاً من كل أثر للروم، وكانت الواقوصة تضم وحدها (١٢٠) ألف مقاتل مقابل (٣) آلاف من جيش المسلمين، فيهم خيرة الصحابة من المهاجرين والأنصار. ووصف المؤرخ المسلم الطبري الصورة النهائية لليرموك بقوله: «تضعضع الروم، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب، فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت، وتركوا رجلهم ـ مشاتهم ـ في مصافهم، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء، وأخَّر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح. ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب، أفرجوا لها، ولم يحرجوها، فذهبت وتفرقت في البلاد، وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ـ المشاة ـ فقضوهم، فكأنما هدم بهم حائط، فاقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم، فعمدوا إلى الواقوصة، حتى

هوى فيها المقترنون وغيرهم، فمن صبر من المقترنين للقتال، هوى به من خشعت نفسه، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف، ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل»[1].

توفي الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ ووصل مراسل إلى اليرموك، هو شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري، ومعه محمية بن جزء، حاملاً معه رسالة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تتضمن نبأ وفاة الخليفة وعزل خالد بن الوليد، فكتموا الخبر عن الناس حتى ظفر المسلمون، وكانوا بالياقوصة يقاتلون عدوهم من الروم. وقاد أبو عبيدة بن الجراح قوات المسلمين لفتح الشام، وكان خالد بن الوليد على مقدمته، وعندما وصل جيش المسلمين إلى دمشق نظم أبو عبيدة حصار المدينة، وعيَّن خالد بن الوليد لقيادة القوات في قطاع الباب الشرقي.

٤ ـ من اليرموك إلى دمشق

حاصرت قوات المسلمين مدينة دمشق طويلاً، وصمدت الحامية المدافعة عن المدينة مستفيدة من قوة القلاع والحصون، وحدثت معارك كثيرة لم يتمكن المسلمون خلالها من حسم الصراع لمصلحتهم، ومقابل ذلك صبر المسلمون صبراً جميلاً لهذا النوع من حروب الحصار التي لم يعرفها العرب. وكان خالد يتابع أعمال الحصار بحذر ويجمع المعلومات عن أعدائه، فعلم أن حاكم دمشق، أي: بطريقها، قد رزق ابناً، ويظهر أن الحاكم أراد الإفادة من هذه المناسبة للترفيه عن قوات الحامية المدافعة عن المدينة، فأمر بإقامة احتفال كبير وإغداق الأطعمة وأنواع الخمور على الجند، فأكل هؤلاء وشربوا، وغفلوا عن تنفيذ واجباتهم، ولم يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد، فإنه كان لا ينام ولا ينيم، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه، قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاسليم، وأوهاقاً[2].

فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم، وتقدمهم، هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه، في أول

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٠.

(٢) **الأوهاق**: جمع وهق ـ بالتحريك ـ الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ. تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٩، ٤٤٠.

يومه، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا، وانهدوا للباب. فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشُرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم. فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذكور ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها ـ والأوهاق بالشرف ـ وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن وكان يحيط بدمشق، أكثره ماء، وأشده مدخلاً، وتوافوا لذلك، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقي أو دنا من الباب، حتى إذا استووا على السور حَدر عامة أصحابه، وانحذر معهم، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي، وأمرهم بالتكبير، فكبر الذين على رأس السور، فنهد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير، فوثبوا فيها. وانتهى خالد إلى أول من يليه فأبادهم، وانحدر إلى الباب فقتل الحرس القائم على حمايته. وثار أهل المدينة، وفزع سائر الناس، فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما يحدث. وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين، فأقبلوا عليهم من داخل، حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أُبيد وقتل. ولما شد خالد على من يليه، وبلغ منهم الذي أراد عنوة، أسرع من هرب إلى حرس الأبواب الأخرى، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فرفضوا واغتروا، فلم يفاجئهم إلا وهم يطلبون إليهم الصلح، فأجابوهم وقبلوا منهم، وفتحوا لهم الأبواب، وقالوا: ادخلوا وامنعونا، أي: احمونا، من أهل ذلك الباب، يقصدون الباب الشرقي الذي اقتحمه خالد وجنده. فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة، فالتقى خالد والقواد في وسطها، عند سوق النحاسين حالياً، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح.

٥ ـ خالد بعد دمشق

سارت قوات المسلمين بعد فتح دمشق إلى فحل وكان خالد يتولى قيادة قوات المقدمة. وعند انتهاء المعركة بانتصار المسلمين الحاسم، توجه أبو عبيدة ومعه خالد نحو حمص، وفي الطريق إليها وقعت معركة مروج الروم ـ سهل البقاع ـ وتولى خالد قيادة مجموعة الفرسان المكلفة بمطاردة جيش الروم، وبعد هذه المطاردة انقض خالد على مؤخرة الكتلة الرئيسية لقوات الروم، وأمكن بذلك تدمير الروم في المرج الذي كان يحمل اسمهم تدميراً كاملاً. وكان دور خالد

في هذه المعركة أساسياً وحاسماً[1]، وبقي خالد على مقدمة جيش «أبو عبيدة بن الجراح» في فتح بعلبك وحمص، وبعد ذلك وجه أبو عبيدة خالد بن الوليد لفتح الشمال، حيث وقعت معركة قنسرين[2].

نظم خالد قواته، وتوجه بها نحو قنسرين، فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم بقيادة ميناس، وهو من أعظم قادة الروم بعد هرقل، فالتقوا بالحاضر، فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم، «**ولما بلغ عمر ذلك، قال: أمَّر خالد نفسه، يرحم الله «أبو بكر»، هو كان أعلم بالرجال مني**».

سار خالد بعد ذلك حتى نزل قنسرين فتحصنوا منه، فقال: «**إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا**»، فنظروا في أمرهم، وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينة فأخربها. ثم تابع خالد تقدمه، مع مطاردة الروم في كل مكان، مما أدخل اليأس في قلب هرقل الذي مضى نحو القسطنطينية، حتى إذا ما وصل إلى شمشاط وقف على مرتفع ونظر إلى الوراء، حيث سهول سورية، وقال كلمته الشهيرة: «**عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي إلا خائفاً**».

استمر التعاون وثيقاً بين «أبو عبيدة» وخالد، وعندما انتهت فتوحات حلب والمنطقة الساحلية، استقر أبو عبيدة في حمص واستقر خالد في قنسرين، ومضت السنة السادسة عشرة للهجرة في إعادة بناء المجتمع الإسلامي، وتنظيم أمور الدولة الجديدة، وكان من الطبيعي أن تظهر النقمة بين صفوف العرب الذين نزعت امتيازاتهم بعد انتشار الإسلام، فكتب هؤلاء إلى حلفائهم القدامى. واستجاب هرقل امبراطور الروم لطلب عرب الجزيرة فوجه قوات ضخمة على أمل التعاون مع نصارى العرب للقيام بهجوم عام يمكن بواسطته انتزاع سورية

---

(١) وفي هذه المعركة قال خالد:

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

تاريخ الطبري ٣/ ٥٩٩.

(٢) **قنسرين**: مدينة قديمة من مدن الشام، كانت تقع جنوبي غربي حلب، بينها وبين حماة.

من قبضة العرب المسلمين. وعالج أبو عبيدة الموقف بأن طلب إلى خالد الانسحاب بقواته والانضمام إلى قوات حمص، وتجمع المسلمون في ظاهر حمص. وكتب أبو عبيدة للخليفة عمر ﷺ، فأسرع الخليفة إلى الجابية قرب دمشق لمعالجة الموقف عن قرب، ووجه في الوقت ذاته أوامره إلى والي الكوفة من أجل دعم حمص بقوات احتياطية مع توجيه ضربات إلى عرب الجزيرة.

ووجد أبو عبيدة أن باستطاعته حسم المعركة، فقام بتنظيم هجوم قوي أمكن بواسطته تدمير الروم. ثم وجه خالد مع قوة من الفرسان للمطاردة، ووصلت هذه القوة إلى ما وراء الدروب، وعاد خالد من غزوة الصائفة وهو مثقل بالغنائم. وانتشرت أخبار انتصار خالد مرة أخرى في أقطار العالم الإسلامي، وأسرع إليه أصدقاؤه القدامى، وشيوخ العرب، فأكرم وفادتهم، وأخذ في توزيع الأموال، وكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالداً بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف.

٦ ـ عزل خالد بن الوليد

كان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله، فلما قفل خالد، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة، انتجعه رجال. فانتجع خالداً رجال من أهل الآفاق، وكتب إلى عمر بخروج من خرج، من العراق منتجعاً ـ قاصداً ـ خالد، وكتب إليه من الشام بجائزة من أجيز فيها، فدعا البريد، وكتب معه إلى «أبو عبيدة»: «**إنْ خالد أكذب نفسه، فهو أمير على ما هو عليه، وإن هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ما هو عليه، وطلب إليه أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث، أمن ماله أم إصابة أصابها، فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال، واضمم إليك عمله**». فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه، ثم جمع الناس، وجلس لهم على المنبر، فقام بلال مولى «أبو بكر» إلى «أبو عبيدة» فقال: ما أمرت به في خالد؟ فقال بلال: «إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا... ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته، وقال: ما تقول. ورد خالد: **ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين!** وسأله بلال: «يا خالد! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟» فلم يجبه حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً. وكرر بلال القول. «ما تقول يا خالد! أمن مالك أم من إصابة؟». وفي النهاية قال خالد: «لا، بل من مالي». وأُحصي كل ما يملكه خالد، فبلغت قيمته

ثمانين ألف درهم، فناصفه على ذلك. وقام بلال، فأطلق خالد، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّه بيده، ثم قال: نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا. وقال أبو عبيدة: «إن هذا لا يصلح إلا بهذا». وقيل لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين! لو أنك رددت على خالد ماله!». فقال: «إنما أنا تاجر للمسلمين، والله لا أرده عليه أبداً». وتذكر الناس قول عمر في بداية ولايته عندما عزل خالد فقال: «لا يلي لي عملاً أبداً». وأقام خالد بعد ذلك في حمص لا يدري أمعزول أم غير معزول؟، وجعل أبو عبيدة لا يخبره، حتى إذا طال على عمر أن يقدم، ظن الذي قد كان، فكتب إليه بالإقبال. فأتى خالد «أبو عبيدة»، فقال: «رحمك الله، ما أردت إلى ما صنعت! كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم!». فقال أبو عبيدة: «إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً، وقد علمت أن ذلك يروعك». فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر، فشكاه وقال: «**لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر. فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال، والسهمان ما زاد على الستين ألفاً فلك**». فقوَّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفاً، فأدخلها بيت المال، ثم قال: «يا خالد! والله إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

وقال خالد: «**الحمد لله الذي قضى على «أبو بكر» بالموت وكان أحب إليَّ من عمر. والحمد لله الذي ولى عمر، وكان أبغض إليَّ من «أبو بكر»، ثم ألزمني حبه**».

تسبب عزل خالد في إصابة العالم الإسلامي بهزة عنيفة، فقد كانت سمعة خالد لا حدود لها، وكان من الطبيعي أن تثور الأسئلة الكثيرة في رؤوس المسلمين المجاهدين، وبصورة خاصة أولئك الذين عرفوا خالد عن قرب، وقاتلوا تحت رايته، فأصدر أمير المؤمنين عمر بياناً جاء فيه: «**إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة**».

لقد أحبَّ خالد مدينة حمص كما أحبَّ مدينة قنسرين فودع «المدينة» ومضى عبر الصحراء بعد أن ودع رفيق عمره، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهو يكرر في سره ما قاله له عند لقائه به:

صنعتَ فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فاللَّه يصنع[1]

ووصل خالد إلى حمص، واستقر بها، لم تتعبه الحياة ولم يتعب بها. لقد بلغ الستين من عمره، وها هم رفاقه وإخوانه وأحباؤه قد سبقوه إلى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. أين هو عكرمة بن أبي جهل؟ وأين هم صحابة الرسول ﷺ، إنهم فوق كل شبر من أرض العراق والشام، وها هي رايات الإسلام تزحف عالية نحو الآفاق البعيدة. ويشعر خالد بالألم يعتصر قلبه، فقد تمنى أن يمضي مجاهداً في سبيل الله حتى آخر الدنيا، ولكن ها هو المرض وقد أخذ ينهش فيه كالوحش المفترس، ويسقط السيف، ولكن قبل أن يمضي عن الدنيا يرفع رأسه، وينظر إلى ما حوله مودعاً، ويقول: «**لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء**»[2].

انتشر خبر وفاة خالد في أقطار العالم الإسلامي، وخرجت نساء بني مخزوم يفتقدن الفارس الذي أغنى الدنيا عطاء، وأصبح فخر الأهل والعشيرة. وما كان أبعد الشقة بين «المدينة» وحمص ولكن حزن بني مخزوم، نساؤهم ورجالهم، تجاوز الحدود المكانية والزمانية، بقدر ما تجاوز حدود الزمن وروابط الأهل والعشيرة، فقد كان غياب سيف الله وتنكيس راية العقاب جرحاً في قلب كل من يردد لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولعل ما لم تعرفه نساء بني مخزوم ولا المجاهدون في سبيل الله من رفاق خالد، أن تراث خالد سيبقى خالداً أبد الدهر، وسيبقى خالد فخراً لا لآل مخزوم أو المغيرة وإنما لكل إنسان يفخر بأمته وبتراثها وأمجادها، ولعل أبلغ كلمة رثاء هي تلك التي قالها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «وما على نساء ـ بني مخزوم ـ أن يبكين «أبو سليمان» **فعلى مثله تبكي البواكي**».

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٢، ٦٠١، و٤/ ٦٦، ٦٧.

(٢) ابن قتيبة ص٢٦٧.

الفصل الثاني

خالد بن الوليد وفن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٣ ـ بناء المجتمع الجديد.

٤ ـ وضوح الهدف.

٥ ـ الحرص على العنصر العربي (دعامة الإسلام).

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ القدرة الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.

٧ ـ المؤخرات، والشؤون الإدارية.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

«والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»

(أبو بكر الصديق)

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

لعل فن الحرب لم يعرف قائداً تتمثل في أعماله استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل خالد بن الوليد. ولو رجعنا لعملياته الأولى في موقعة أُحد لظهر أفضل نموذج لاستراتيجية الهجوم غير المباشر عند هجوم خالد على مؤخرة المسلمين، ومن نقطة الضعف الخطيرة التي وضعها الرسول ﷺ في أول اعتبار له عند تنظيم المعركة ثم أغفلها المسلمون، ويمكن بعد ذلك استعراض كل أعمال خالد بن الوليد حيث تظهر عمليات خالد على شكل مسيرات طويلة للوصول إلى مؤخرات قوات العدو أو مجنباته. وقد عبَّر خالد عن هذه الاستراتيجية عند حديثه مع دليله، رافع بن عميرة، إذ قال فيه: «كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم، فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين». ولقد اضطر خالد في موقعتين حاسمتين مجابهة قوات أعدائه في معركة جبهية، كانت الأولى موقعة اليمامة، وكانت الثانية موقعة اليرموك، ولكن رغم ذلك فقد بقي هدف خالد الدائم البحث عن الوسيلة لضرب مؤخرة العدو، ومباغتته بتهديد يحرمه من حرية العمل، ولهذا عمل خالد في اليمامة على ضرب القوات المتفوقة مع البحث عن ثغرة تصل بقوات المسلمين إلى قاعدة المرتدين في الحديقة، فكان في ذلك حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين.

وفي اليرموك، عمل خالد على فصل قوات الفرسان عن المشاة، فتمكن بذلك من الوصول إلى مؤخرة الروم وتطويقها مما حمل الفرسان على الفرار، وبذلك استطاع تدمير مشاة الروم والقذف بهم إلى الواقوصة. وقد كان هدف

خالد الدائم هو إقناع أعدائه بقصورهم عن مجابهة قواته، وعجزهم عن تحقيق النصر، فارتبطت عنده استراتيجية الهجوم غير المباشر المادية بنظيرتها المعنوية، مما كان يضمن له الوصول إلى الحسم في الصراع المسلح. ويمكن التساؤل: «هل كان اقتحام أسوار دمشق من أصعب نقاطها أكثر من نموذج أعلى لاستراتيجية الهجوم غير المباشر؟» ثم هل كانت معارك العراق بكاملها غير تجسيد رائع لكل معطيات استراتيجية الهجوم غير المباشر؟. مهما كان عليه الأمر، فهناك ظاهرة تتجاوز في أهميتها كل ما عداها من ظواهر الاستراتيجية المذكورة وهي:

١ ـ تكييف هذه الاستراتيجية بحسب المواقف التي تتم مجابهتها، مما يبرهن على المرونة الرائعة في تفكير خالد مما ساعده على تطوير أساليب العمل.

٢ ـ العمل بتخطيط دقيق في إطار من التوازن المحكم بين الهدف والوسائط المتوفرة، مع المحافظة باستمرار على قوة زخم الهجوم، مما يساعد على الانتقال مباشرة من المعركة الجبهية إلى المعركة على المؤخرات، بمعنى تطوير استراتيجية الهجوم الجبهي إلى استراتيجية الهجوم غير المباشر، وذلك في الحالات التي تظهر فيها صعوبة استخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر منذ بداية الاشتباك.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

قد يكون من الصعب تصور إمكانات القيام بالتوغل العميق للوصول إلى مجنبات العدو أو مؤخرته، من دون تعرض القوات المتوغلة ذاتها للتهديد بالتطويق والعزل. وهنا تظهر كفاءة خالد في ضمان شروط أمن قواته وتنفيذ عملياته من دون التعرض للخطر. **وفي الواقع فقد تلقى خالد درساً قاسياً في موقعة حنين**، فقد كان خالد في هذه المعركة مسؤولاً عن الاستطلاع وضمان أمن القوات ولكنه وقع في كمين محكم كاد يقضي على قوة جيش المسلمين بكاملها لولا شجاعة الرسول ﷺ، ولولا كفاءته القيادية العالية، وقد تعلم خالد كثيراً من هذا الدرس بحيث أنه لم يقع بعدها أبداً في مأزق من المآزق التي قد تجابهها القوات عند بحثها عن مؤخرة قوات العدو لحسم الصراع المسلح، وقد كان الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة هو أساس العمل لتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر.

لقد استطاع خالد بن الوليد إبراز مفهومه الخاص بالقاعدة القوية والمأمونة في عدد من الحالات. فقد التزم قبل كل شيء بعدم تجاوز شواطئ الفرات في كثير من الأحيان، وفي معركة الفراض طلب إليه قادة التجمع الفارسي الرومي الاختيار بين البقاء في قاعدته أو عبور النهر، بقولهم له: «إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم»، فكان جواب خالد حاسماً: «بل اعبروا إلينا».

وبذلك ترك خالد لنفسه حرية بقاء الاتصال مع الصحراء. وفي معركة اليرموك تكررت هذه الظاهرة ذاتها، وكذلك الأمر في كل المعارك، وكان لخالد أسلوب خاص في تنفيذ مبدأ القاعدة القوية والمأمونة، وهذا الأسلوب هو:

١ ـ عزل مسرح العمليات قدر المستطاع عن المحيط الخارجي.

٢ ـ تنفيذ الأعمال القتالية بسرعة مذهلة تضع العدو في حالة عجز عن التدخل في العمليات..

لقد كان مسرح العمليات بكامله هو «قاعدة قوية ومأمونة» بالنسبة لخالد بن الوليد، سواء بالعراق أو بالشام، ولكن رغم ذلك فقد كانت كل بقعة من هذا الميدان الواسع هي «قاعدة قوية ومأمونة»، ويظهر ذلك في حرص خالد على تصفية قوات الروم في أجنادين ودعم عمرو بن العاص حتى لا تكون هناك قوة تهدد قوات المسلمين في مؤخرتها عند الانتقال إلى الجولان.

٣ ـ بناء المجتمع الجديد

وقف خالد في الحيرة وأمامه عدي، أحد زعماء المدينة من متنصرة العرب، وقال له: «ويحكم! ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟»، فقال له عدي: «بل عرب عاربة، وأخرى متعربة.. وليدلك على ما نقول أنه ليس لدينا لسان إلا العربية». وتبرز هذه المحاورة «مفهوم خالد لبناء المجتمع الجديد على أساس الدين الإسلامي»، لا سيما وأنه لم يبق لمتنصرة العرب من روابط تشدهم إلى أهلهم سوى رابطة اللسان. فقد مزقهم الانتساب إلى الفرس والروم، وضعفت لديهم أصالة العرب عند الانتماء إلى ديانات الروم البيزنطيين والفرس، فتركز جهد خالد على متنصرة العرب لتمزيق روابطهم بالولاء أو بالديانة إلى الدولتين العظميين، وردهم إلى الرابطة الحقيقية، رابطة اللسان والقلب، رابطة الولاء الحقيقي للعرب في عقيدتهم الدينية، ولم يعد من المهم بالنسبة لخالد الإبقاء على روابط ضعيفة بين

العرب إن لم يتم دعم هذه الرابطة بالعقيدة الإسلامية، ولهذا كان خالد أشد وطأة على العرب المتنصرة مما هو ضد الفرس، ولقد برهنت هذه الاستراتيجية على فاعليتها، إذ ردعت العرب عن دعم أعداء المسلمين من فرس وروم.

ولكن، ومع استخدام القسوة ضد هؤلاء، فقد حرص خالد باستمرار على اجتذاب العرب والإحسان إليهم وتآلفهم واستخدام كل فرصة مناسبة لذلك، ولعل محادثاته وأعماله أفضل برهان على هذا النهج الذي كان يعبر عنه بقوله: «**لكم ما لنا وعليكم ما علينا**». ويظهر حرص خالد بعد ذلك، على بناء المجتمع الجديد من خلال إصرار خالد على منح عمال الأراضي حريتهم وضمان الأمن لهم، وعدم التعرض لهم بأذى، إلا إذا حملوا السلاح ضد المسلمين، أو كانوا عوناً لأعداء المسلمين. وقد جاءت اتفاقيات الصلح التي عقدها خالد مع أصحاب البلاد من العرب ضمن هذا الإطار ذاته، ولعل في كتب أهل البلاد ببراءة ذمة خالد أفضل برهان على أسلوب خالد في إقامة قواعد المجتمع الجديد. «فقد أقر خالد الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعدما دعوا»، وكانت كتب أهل البلاد لبراءة ذمة خالد موحدة وهي كالتالي: «**إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالدٌ العبد الصالح والمسلمون عباد الله الصالحون، على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم**»[1].

٤ ـ وضوح الهدف

لم يكن نجاح خالد في استخدام الاستراتيجيات المختلفة، مما سبق ذكره ومما سيتم التعرض له فيما بعد، إلا نتيجة لوضوح الهدف، فقد حقق خالد نجاحاً تعبوياً تكتيكياً في موقعة أُحد، ولكن هذا النجاح لم يحقق تحولاً حاسماً لأن هدف الحرب لم يكن على مثل مستوى السياسة الاستراتيجية للمشركين. ففي موقعة حنين فشل خالد لكن هذا الفشل كان أضعف من السياسة الاستراتيجية للمسلمين، فلم يحدث تأثيراً حاسماً على مسيرة الأعمال القتالية. وأفاد خالد من الفشل بقدر ما أفاد من النصر، فحدد أساليبه لخوض القتال ضمن إطار التوازن بين غاية السلم وهدف الحرب. وضمن إطار هذا التوازن ذاته، كان خالد يختار من بين الوسائل المتوفرة له أو الخيارات المفتوحة،

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٢ و٣٧١.

بحسب التعبير الحديث، ما هو ملائم لحسم الصراع المسلح والوصول إلى هدف الحرب. يظهر هنا، خاصة، فضل الإسلام على خالد، فقد حددت العقيدة الدينية الإسلامية أسس السلم والحرب كما حددت الوسائل التي يمكن اتباعها، وجاءت تجارب خالد تحت قيادة الرسول ﷺ، فشكلت لدى خالد العقيدة القتالية الإسلامية المرتبطة عضوياً بالعقيدة الدينية، واستوعب خالد ذلك كله في قلبه وعقله، فتحقق التكامل، ووضحت الرؤيا وتفتحت البصيرة على آفاق غير محدودة.

لقد كان خالد موهوباً للقيادة العسكرية بدون ريب، وكانت له كفاءته الفريدة، ولكن يمكن التساؤل عن مصير هذه الكفاءة لو لم يضمن لها الإسلام التفتح على العالم، ولو لم يتوفر لها هدف كبير؟ لقد كان من المحال على خالد قيادة أكثر من مئات المقاتلين أو بضعة آلاف من الفرسان، في أفضل الظروف، لو بقي في حظيرة الجاهلية، وكان من المحال على خالد أيضاً الطموح لأكثر من تحقيق هدف محدود على مستوى معركة محدودة، لو بقي في صفوف المشركين، وقد ضمن الإسلام لخالد أفق العمل غير المحدود بقدر ما حدد له الهدف الكبير الذي يجب عليه العمل من أجل هدف نشر الإسلام ورفع رايته.

وهكذا فإن صورة خالد لم تكن أكثر من صورة هزيلة ـ كصورة عنترة العبسي أو دونها ـ لو لم ينتقل إلى الإسلام فيضرب بسيف الله ويرفع راية العقاب، وقد عرف خالد ذلك. ولم يكن إسلام خالد يقيناً بهدف البحث عن هذه المميزات التي يضمنها له الإسلام، ولكن خالداً حصل على هذه المميزات بصورة طبيعية، على نحو ما حصل عليها كل قادة العرب المسلمين، وعلى نحو ما أفاد منها أيضاً كل المجاهدين في سبيل الله.

٥ ـ الحرص على العنصر العربي «دعامة الإسلام»

قاد خالد بن الوليد قوات المسلمين في معارك كثيرة، لم ينكب المسلمون خلالها، وكان خالد في معاركه كلها يتقدم الصفوف، ويفدي المجاهدين بنفسه، ويقتحم مواطن الخطر مستأثراً بها عنهم، وقد يكون من غير الطبيعي أو من غير الضروري أن يقتحم القائد بنفسه مواقع الخطر، ولكن قضية التقدم على القوات والاستئثار بمواقع الخطر شيء، وقضية الحرص على المرؤوسين وحمايتهم هي شيء مختلف تماماً. وفي الواقع، فقد كان لاندفاع خالد نحو مواقع الخطر

فضائله، إذ أنه كان يثير الحماسة، وكان أيضاً يحقق بعض ما هو مفروض من الحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، لكن تحقيق هذا المبدأ بكل أبعاده كان يظهر من خلال مجموعة التدابير الوقائية التي يلتزم خالد بتنفيذها، سواء في مجال الأمن أو تطبيق أساليب مبتكرة باستمرار، أو حتى عن طريق التأمين الإداري للقوات، بحيث لم يكن يغامر بإلقاء المسلمين إلى التهلكة.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ذلك هو المبدأ الذي جاء به الإسلام، ومن هذا المبدأ استخلصت العقيدة القتالية الإسلامية مبدأ الحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، وكثيرة هي الآيات الكريمة التي تؤكد هذا المبدأ، وتفرض على القادة الالتزام به. وقد عرف خالد عن الرسول ﷺ مقدار الحرص على الإنسان المسلم لا كوجود مادي فقط، وإنما كحضور معنوي أيضاً، بل ربما كان الحرص على الروح المعنوية للإنسان المسلم أكبر قدراً من الحرص على وجوده المادي. فالأعباء المفروضة على الإنسان المسلم أكبر بكثير من قدرة احتمال الإنسان العادي، وكان الحرص على الروح المعنوية هو وسيلة المعاوضة التي تهب المسلم القدرة العالية لاحتمال أصعب الأعباء «الجهاد في سبيل الله»، وقد نجح خالد حتى أبعد الحدود في تحقيق مبدأ الحرص على العنصر العربي مادياً ومعنوياً. وقد وقعت بعض الانتهاكات لهذا المبدأ، كمقتل مالك بن نويرة أو مقتل عبد العزى بن أبي رهم، ولبيد بن جرير في الإغارة على مصيخ بني الرشاء، ولكن هذه الانتهاكات تدخل في إطار الفاعلية المطلقة للحرب والتي كان يحرص خالد على تطبيقها، وكان احتمال حدوث الأخطاء في مثل هذه الحالات النادرة أقل خطورة من قضية الحرص على العنصر العربي.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

بدأ خالد حروب الردة بتنفيذ تعليمات الخليفة أن يبدأ بطيء، ثم يتوجه إلى بزاخة، ثم يثلث بالبطاح. وعند الانتهاء من أُم زمل توجه خالد لحرب مسيلمة، وقد برهنت هذه التجربة على فاعليتها في إعاقة كل تعاون أو اتصال بين قوى الردة، مما ضمن لخالد تدميرها على التتابع.

وعند فتح الحيرة نظم خالد قوته على شكل خمس مجموعات قتالية، تولى هو قيادة مجموعة منها، ووجه المجموعات الباقية لقتال أربع مجموعات من

الأعداء (انظر: فتح الحيرة)، وبذلك أصبحت قوى أعداء المسلمين مشتتة وغير قادرة على تنسيق التعاون فيها بينها، وسقطت بسرعة.

وحاول أعداء المسلمين، من فرس وروم، تنظيم مقاومات قوية بالتعاون مع حلفائهم من نصارى العرب الغساسنة والمناذرة، لكن خالداً استطاع باستمرار إعاقة كل تعاون عن طريق تطوير حرب المعركة للهجوم على أقرب القوى إليه والانتقال إلى بقية القوى وتدميرها على التتابع، أو في تواقت واحد بواسطة مجموعات قوى مستقلة. وفي الوقت ذاته فقد كان عمل خالد، في جنوب العراق، وعياض، في شماله، نموذجاً للحرب التشتيتية التي أمكن لها إرغام العدو على خوض معارك بقوى متفرقة. وكانت أساليب الحرب التشتيتية متوافقة مع قدرة قوات العرب المسلمين الخفيفة والسريعة، بحيث كان بالمستطاع دائماً تنسيق التعاون بين هذه القوات على نحو ما حدث من تعاون بين عياض وخالد في دومة الجندل، في حين كان الفرس والروم وأنصارهم من العرب، بحكم تنظيمهم وخصائص قواتهم، في حالة عجز عن تنسيق التعاون.

وفي موقعة الفراض، ورغم تجمع قوات كبيرة من الروم ومسالح الفرس والعرب، وقفت قوى التحالف وهي عاجزة عن خوض المعركة في مخطط واحد، وكان السبب الأساسي هو عدم وحدة القيادة، في حين كانت قوات المسلمين خاضعة في مسرح العمليات لقيادة واحدة هي قيادة خالد بن الوليد، وبذلك أمكن تنسيق التعاون لتدمير القوات المتحالفة، ضد قوات المسلمين. وواضح أن نجاح خالد في تطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية إنما يعود إلى مجموعة من العوامل تعود إلى خصائص قوات المسلمين وإلى العقيدة القتالية للمسلمين بحسب ما حددتها العقيدة الدينية الإسلامية، وبحسب ما أمكن تطبيقها في عهد الرسول ﷺ، ولكن ذلك لا ينتقص من قدرة خالد الذي استطاع تطوير الأسس والمبادئ لمجابهة متغيرات مسارح الأعمال القتالية.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

تظهر مراجعة أعمال خالد القتالية أنه كان من المحال عليه تحقيق مثل تلك المنجزات الرائعة، والوصول إلى مثل تلك الانتصارات الخالدة، لو لم يلتزم باستراتيجية الهجمات الوقائية في كثير من الأحيان، إن لم يكن في معظمها، إذ أن الالتزام بهذه الاستراتيجية هو الذي ساعد خالد على استخدام بقية

الاستراتيجيات وتطويرها. فتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر، والانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، وما تبع ذلك من تطبيق لمبادئ الحرب، كل ذلك قد استند إلى قاعدة الهجمات الوقائية فكان خالد في كل أعماله أكثر مرونة وأكثر سرعة للقاء قوات أعدائه، وإجهاض استعدادهم القتالي قبل إكماله. وقد كان من الصعب على خالد تحقيق النجاح في هذه الاستراتيجية لو لم يطبق بمهارة عالية مبادئ الحرب المباغتة والمبادأة... إلخ، ويظهر ذلك التعقيد الكبير، الذي تميزت به أعمال خالد القتالية، بقدر ما يظهر الكفاءة العالية التي ميزت قيادة خالد والتي جعلته قادراً على مجابهة كل المواقف بما يناسبها من حلول.

ويبرز من جديد دور العقيدة القتالية الإسلامية في إبراز كفاءة خالد القيادية، فهذه الاستراتيجيات المتباينة هي من بعض ما تضمنته العقيدة القتالية للمسلمين، وإن استعراض أعمال القادة المسلمين تبرز الناظم المشترك الذي وحد بين أساليب القادة جميعاً، وجعلهم يعملون، رغم تباعد مسارح العمليات فيما بينهم، ورغم الفوارق الفردية في كفاءاتهم، بأساليب واحدة وطرائق موحدة.

لقد كان خالد يتوقع باستمرار قيام قوات العدو بتنظيم المقاومات ضده، وكانت عناصر استطلاعه تأتيه بأخبار تحركاتهم واستعداداتهم، فكان يسرع لغزوهم في عقر دارهم، فيعمل على إذلالهم، والتضييق عليهم، وحرمانهم من حرية العمل العسكري، وكانت تلك بعض فضائل استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

عندما توجه خالد لقتال مسيلمة باغت أعداءه، وجاء بالأسرى وسألهم: متى سمعتم بنا؟ قالوا: «ما سمعنا بك، وما شعرنا بك». وعندما خرج ابن الآزاذبة من الحيرة للقاء خالد، ودفع ابنه لتحويل مياه الفرات، أسرع خالد، فباغت قوات أعدائه عند فم العتيق وأبادهم ثم أسرع من فوره، يسبق الأخبار، ليباغت ابن الآزاذبة في مأمنه. وعندما علم خالد بتجمع قوات تغلب في المثنى والزمل، أقسم على أن يبغتن تغلب في دارها، وكان خالد يستخدم ظلمة الليل ستاراً له وغطاء لتحركه حتى يباغت أعداءه في إغارات قوية ومدمرة. وكان ظهوره في سوى وثنية العقاب، وبين قبائل غسان مباغتاً لأعدائه مما كان يضمن له حسم الصراع بسرعة. ولكن المباغتة عند خالد لم تقف في الواقع عند حدود المباغتة الزمنية أو المكانية وإنما تجاوزتها إلى أشكال أكثر تعقيداً، فالتنظيم القتالي الذي وضعه خالد في الحيرة، والتنظيم القتالي لمعركة اليرموك قد أذهلا أعداء المسلمين، وكان أثر المباغتة فيهما، وفي أمثالهما، ما يمكن إعطاؤه اسم المباغتة الاستراتيجية، ثم هل كان تحرك خالد من العراق إلى الشام وظهور القوات في مؤخرة الروم أكثر من مباغتة على مسرح العمليات؟ وهل كان دعم خالد لقوات عمرو بن العاص في أجنادين أكثر من مباغتة على مسرح العمليات أيضاً؟ وقد لا تكون هناك حاجة لإبراز دور المباغتة فيما حققه خالد من انتصارات لا سيما عندما كان خالد يحرص على تنفيذ المباغتة المركبة، المباغتة الزمنية والمكانية، مثل إغاراته الليلية التي يتم فيها الهجوم من اتجاهات ثلاثة، إذ كان يتم له في مثل هذه العمليات إبادة قوات أعدائه إبادة كاملة.

٢ ـ أمن العمل

كان لقوات العرب المسلمين أساليبها المميزة في تنفيذ مبدأ أمن العمل،

سواء في جمع المعلومات عن العدو والأرض والتكون السكاني الديموغرافي، أو في نقل المعلومات وتعميمها على مختلف المستويات، والظاهرة البارزة في تدابير خالد هي في استخدام مجموعة من الطرائق الملائمة لكل موقف «أمن العمل للقوات أثناء المسير أو أثناء التوقف أو أثناء الاشتباك والمعركة». وكانت هذه الطرائق تضمن تحقيق هدف مزدوج:

١ ـ حماية قوات المجاهدين في سبيل الله من كل مباغتة.

٢ ـ ضمان الشروط المناسبة لتحقيق المباغتة ضد أعداء المسلمين.

وقد كان لذلك دور حاسم في إفادة خالد من حرية العمل المطلقة مقابل حرمان قوات الأعداء من حرية العمل. وليست قضية أمن العمل بعد ذلك مجرد قضية جمع معلومات لمعرفة نوايا العدو وأعماله، وإنما كانت بالنسبة لخالد بن الوليد قضية التدابير المضادة لإحباط نوايا العدو وتدمير قواته، فإذا ما تم وضع هذه القضية في الظروف الأمنية التي تم بها تنفيذ الأعمال القتالية فستظهر الصعوبات التي كانت تجابه خالد بن الوليد، وستظهر معها الكفاءة العالية التي تميزت بها قيادة خالد في مجابهة تلك الصعوبات.

لقد كان مسرح الأعمال القتالية لخالد بن الوليد، في كل حروبه، تحت سيطرة قوات أعدائه، وكان لهؤلاء الأعداء في جميع الحالات هيمنتهم المادية والمعنوية على منطقة العمليات، فكان أنصار أعداء المسلمين أقوى من أنصار المسلمين، وعلاوة على ذلك فقد كان لتلك الجيوش ميزات عملها في مناطقها وعلى مقربة من قواعدها، وهذا ما كان يفرض على خالد، وعلى إخوانه من القادة والمجاهدين، اتخاذ كل التدابير الضرورية للمحافظة على مبدأ أمن العمل وجمع المعلومات بأنفسهم وتدقيق تلك المعلومات، ثم اتخاذ القرارات المناسبة والقيام بالأعمال الضرورية لتحقيق النصر، فإذا ما تم بعد ذلك مراجعة الأعمال القتالية لخالد، فستظهر عندها القيمة الحقيقية لتلك الانتصارات والتي لم تكن سوى ثمرة لجهد متواصل لا يعرف التوقف أو الانقطاع، مع تضحيات لا حدود لها للوصول إلى هدف الحرب.

ويبقى أفضل برهان، بعد ذلك، على التزام خالد بمبدأ أمن العمل هو في عدم تعرض القوات التي كان يقودها لأي نكبة أو هزيمة. وهنا يبرز سؤال هو: هل كان تطبيق مبدأ أمن العمل بالنسبة لخالد بن الوليد، قضية عارضة أو طارئة، أم كان نتيجة تخطيط محكم؟ إن الإجابة تكمن في أسلوب خالد القيادي، فقد

كان خالد يعمل بعد كل معركة على إعادة تنظيم قواته، وتعيين قوة بقيادة أكثر قادته كفاءة من أجل حماية المناطق التي يتم تحريرها، مع إرسال مراكز المراقبة المتقدمة «المسالح» ودفعها حتى أقصى الحدود بهدف توفير الفرصة المناسبة للرصد والإنذار واتخاذ التدابير التالية المضادة، مع إرسال الأنصار للتوغل ونقل المعلومات، علاوة على فرض شرط في عقود الصلح ينص على عدم تقديم أي دعم ممن تتم مصالحتهم قد يساعد أعداء المسلمين، وبذلك، يتم تحييد المتطرفين مع تجنيد المعتدلين لخدمة قوات المسلمين في مجال أمن القوات.

٣ ـ القدرة الحركية

يعترف فن الحرب لخالد بن الوليد أنه من أبرز قادة الدنيا في تطبيق مبدأ حرب الحركة، وقد كانت حروب العرب المسلمين كلها من نوع حرب الحركة، ولكن حروب خالد تميزت بصورة خاصة بتطوير أساليب حرب الحركة وتنفيذ هذه الأساليب في إطار متكامل مع مجموعة من الأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب، ولقد انطلق خالد بعد وفاة الرسول ﷺ لحروب الردة، وأمضى بها سنة كاملة، سنة ١١هـ، ثم انتقل لمسرح عمليات العراق.

وخلال عام واحد، السنة الثانية عشرة للهجرة، خاض خالد أكثر من عشر معارك رئيسية على امتداد شواطئ الفرات، ولم تكد هذه المعارك تبلغ غايتها حتى كانت شواطئ الفرات ودجلة قد أصبحت خاضعة لقوات العرب المسلمين، ثم انتقل خالد بعد ذلك إلى الشام، ولم تكن مسيرته الكبرى عبر الصحراء الشامية، التدميرية، مسيرة سهلة، وإنما كان فيها قدر كبير من الخطر، ثم انتهت المسيرة بمعارك مستمرة، وأخذ بعضها برقاب بعض إلى أن أمكن حسم الصراع في مجموعة من المعارك الحاسمة «اليرموك وأجنادين وفحل»، واستمرت حرب الحركة من أقصى سورية إلى أقصاها، وحتى إلى ما وراء الدروب.

مسيرات طويلة، ومعارك استنزاف، ومعارك حاسمة، ضمن إطار من تدابير الأمن الدقيقة، تلك هي حروب خالد بن الوليد، وكان يتم تنفيذ المسيرات في الليل والنهار، كما كان يتم تنفيذ المعارك في مناطق متباعدة، بسرعة عادية أحياناً، وبتسارع مذهل في أحيان أخرى، كالسيل الذي ينحدر قوياً مدمراً، ليزيل أمامه كل العقبات، يتجمع أمام المقاومات الكبيرة، ويتفرق للمطاردة والقضاء على المقاومات الصغرى، ثم يتابع تجمعه ليتفرق من جديد، ولعله

ليس هناك ما هو أبدع من هذه الصورة التي رسمها خالد لحرب الحركة، والتي أصبحت نموذجاً خالداً تتناقله الأجيال.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

لم يكن حب المغامرة هو الذي يدفع خالداً لتطوير حرب الحركة باستمرار، وتصعيد الأعمال القتالية بصورة دائمة، وإنما هو التقدير الصحيح لموقف قوات المسلمين وقوات أعدائهم. فقد كانت قوات أعداء المسلمين متميزة بمجموعة من الخصائص أبرزها التفوق العددي الساحق، والتفوق بالوسائط القتالية، والتفوق في مجال الخبرات القتالية، والتفوق في إمكانات الإمداد الإداري، والتفوق بالعمق الجغرافي «العمل الجيواستراتيجي»، ولم يكن أمام خالد سوى الإفادة من العوامل المعتدلة، أو المعاوضة، المتوفرة أمامه وأبرزها العقيدة القتالية المتفوقة للمسلمين، والروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله. ومن هنا، فقد كان لزاماً على خالد حرمان أعدائه من مميزاتهم وخصائصهم، وكانت وسيلته الأساسية الإمساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية للمسلمين، ولهذا نراه ما يكاد يفرغ من معركة حتى يسرع لتنفيذ معركة أخرى في موقع بعيد وفي زمن غير متوقع، وهكذا كان يعمل أبداً على فرض مواقف جديدة ومعقدة تحرم الأعداء من حرية العمل.

وفي هذا الإطار، إطار إمساك خالد بالمبادأة وحرمان خصومه من حرية العمل، كان بالمستطاع تجزئة الحرب إلى مجموعات من المعارك المتتالية التي يكون للمسلمين فيها قدرة على حسم الصراع لمصلحتهم، وتدمير قوات الأعداء على التتابع، من دون السماح لهم بفترة من الهدوء تمكنهم من إعادة تنظيم قواتهم، ولم تكن أعمال الفرسان في المطاردة لتدمير فلول قوات العدو تدميراً تاماً سوى استثماراً للقوة الهجومية التي انفرد المسلمون بها. وقد يكون من السهل، نسبياً، وضع العدو أمام موقف غير متوقع، كما أنه قد يكون من السهل الاحتفاظ بالمبادأة في معركة أو أكثر، ولكن ليس هناك سوى عدد نادر جداً من القادة الذين استطاعوا الإمساك بالمبادأة دائماً، مع حرمان أعدائهم باستمرار من حرية العمل. **ويبقى خالد في هذا المجال نموذجاً رائعاً للقائد الذي ما تخلى عن المبادأة أبداً، والذي استخدم القوة الهجومية كأفضل ما يمكن أن يطمح إليه قائد.**

ولعل احتفاظ خالد بالمبادأة هو الذي كان يضعه باستمرار في موقع التفوق على خصومه وأعدائه، وهو الذي يظهره كعملاق أمام مجموعة من الأقزام الذين سُلبت منهم إرادة القتال وحرية العمل.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

يمكن استخدام مقاييس مختلفة وقيم متباينة بهدف تقويم مبدأ الاقتصاد بالقوى على نحو ما طبقه خالد بن الوليد في حروبه. المقياس الأول هو تنفيذ المسيرات الشاقة وخوض الأعمال القتالية المتتالية ثم الاستعداد في كل مرة لاستئناف المعارك ومتابعة المسيرات. والمقياس الثاني هو دخول العراق بقوة (١٨) ألف مجاهد، ثم إنهاء الأعمال القتالية بزيادة حجم القوة المقاتلة للمجاهدين رغم ما تعرضت له من خسائر، وذلك بفضل انضمام مجموعات من المجاهدين الذين انضموا إلى قوة المسلمين. والمقياس الثالث هو ابتعاد خالد عن حروب الحصار وحروب الاستنزاف التي قد تضعف قوة المجاهدين المادية والمعنوية. والمقياس الرابع هو حشد القوى والوسائط اللازمة لكل هدف، ووضع المخطط القتالي للمعركة في حدود الإمكانات المتوافرة. وليست هذه هي كل المقاييس أو المعايير الممكنة ولكنها، بعضها، وهي تبرهن كلها على مقدار النجاح الذي حققه خالد في مجال تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى، وقد يكون من الصعب بعد ذلك تقويم أهمية منجزات خالد في تطبيق هذا المبدأ من دون مقارنتها مع ما حدث من تشتيت للقوى ومن استنزاف للجهد في صفوف قوات الأعداء، فقد استطاع خالد في العراق تدمير قوات تزيد على عشرة أضعاف قوته، كحد أدنى، وفعل مثل ذلك في مسرح عمليات الشام، فإذا ما تم وضع حجم القوى التي أمكن لخالد تدميرها فستظهر عبقرية خالد الحقيقية في تنفيذ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

لقد اتفق المؤرخون جميعاً على اعتبار معارك اليرموك والقادسية ونهاوند هي المعارك الحاسمة التي حررت بلاد الشام والعراق من الروم والفرس، متجاوزين في ذلك ما سبق هذه المعارك من وقائع وأحداث. وفي الواقع فقد كانت معارك خالد في العراق والشام هي التي مهدت لتلك المعارك الحاسمة، ومن المعروف أن قوات الفرس كانت أكبر بكثير مما تم زجه في اليرموك والقادسية، ولكن معارك الاستنزاف التي سبقت المعارك الحاسمة قد أضعفت إلى حد كبير قدرة

الفرس بقدر ما أضعفت قدرة الروم، وجاءت المعارك في اليرموك والقادسية ثمرة لكل الجهود التي تميزت عند المسلمين بالاقتصاد بالقوى بقدر ما تميزت عند الروم والفرس بتشتيت القوى وتبديدها، وبذلك أمكن الوصول إلى نوع مقبول من تفوق قوى الأعداء «واحد إلى عشرة تقريباً»، في حين كان باستطاعة الفرس والروم حسم الصراع في البداية بتفوق واحد إلى مائة، وهو تفوق قد يكون من المحال على المسلمين التعامل معه.

وهكذا فإن دور خالد في المعارك السابقة للمعارك الحاسمة هو أكبر بكثير من دوره في تلك المعارك الحاسمة. وعلى هذا يمكن القول، بدون مبالغة، إن مبدأ الاقتصاد بالقوى عند خالد بن الوليد قد كان في طليعة المبادئ التي حولت التفوق المطلق عند أعداء المسلمين إلى تفوق نسبي، وكان في ذلك النصر الحقيقي للمسلمين.

٦ ـ المحافظة على الهدف

ليس من الضروري هنا التعرض لهدف الحرب أو غاية السلم في أعمال خالد القتالية، ذلك أن العقيدة القتالية للمسلمين قد حددت هذا الهدف بالاعتماد على أسس العقيدة الدينية ومبادئها، ولكن بالمستطاع التحدث عن ممارسات خالد بن الوليد في مسارح العمليات للمحافظة على الهدف. لقد كان هدف خالد في مسارح الأعمال القتالية هو التدمير التام للقوات المعادية والتعامل مع أهالي البلاد بما لا يتعارض مع إقامة سلم دائم، وقد يكون ذلك هو أعلى مفهوم للسياسة الاستراتيجية في مفهومها الحديث، وضمن هذا الإطار، كان يحدد خالد لكل معركة أساليبها وطرائقها. وقد يكون من المذهل ملاحظة ذلك التشابه الغريب في كل نتائج معارك خالد بن الوليد «تدمير تام للقوات المقاتلة المعادية للمسلمين، وعقود صلح مع أهالي البلاد، وتعاون وثيق بين قوات المسلمين وأصحاب البلاد»، وقد يكون من الطبيعي بعد ذلك تأكيد التشابه حتى في نصوص اتفاقيات الصلح ومضامينها، وليست العملية هي مجرد تكرار للأعمال القتالية، فقد كانت لكل معركة ظروفها الخاصة، سواء في طبيعتها الجغرافية أو في حجم القوى المتصارعة أو حتى في التكون البشري للقوات المحاربة، ولكن رغم ذلك فقد جاءت النتائج متشابهة، ولعل هذا هو أوضح برهان على محافظة خالد والتزامه بهدف الحرب وغاية السلم، وليست القضية هنا هي مجرد وضوح

الرؤية فحسب بقدر ما هي قضية تحقيق التوازن الدقيق بين هدف الحرب وغاية السلم، وذلك هو الدور الدقيق لخالد على مسرح العمليات.

لقد عمل خالد تحت قيادة الرسول ﷺ في فتح مكة ورافقه في غزواته بعد ذلك، واستوعب منه أساليب العمل لتحقيق مثل هذا التوازن الذي تطغى فيه غاية السلم على هدف الحرب، والذي يتم فيه تحقيق هدف الحرب من أجل الوصول إلى غاية السلم، فكان من نتيجة ذلك أن يبقى ذلك الأساس الثابت والراسخ في أعمال خالد القتالية كلها.

٧ ـ المؤخرات والشؤون الإدارية

يأخذ كثير من الكتَّاب حادثة اصطحاب عدد من الإبل في مسيرة خالد من العراق إلى الشام كبرهان على اهتمام خالد بالشؤون الإدارية، ويأخذ كثير من الكتَّاب بالتنظيم القتالي في اليرموك وتنظيم معسكر النساء والشؤون الإدارية كبرهان أيضاً على اهتمام خالد بعمل المؤخرات والشؤون الإدارية في ميادين القتال، ولكن تنظيم المؤخرات والاهتمام بالشؤون الإدارية يتجاوز عند خالد هذه الظواهر أو هذه الأحداث، وقد يكون من المهم ملاحظة اهتمام خالد بالمؤخرات من خلال تنظيم الجهد لضمان استمرار الإمداد والتموين، وضمان أمن المؤخرات في الوقت ذاته. ولقد كان انتقاء الحيرة وجعلها قاعدة لعمليات خالد، ثم الانتقال إلى مواقع المعارك لتنفيذ الأعمال القتالية والعودة بعد ذلك مباشرة إلى الحيرة، هو لتحقيق هذا المبدأ المزدوج «الأمن والشؤون الإدارية». وكان خالد يستخدم عامل الشؤون الإدارية في بعض الأحيان كحافز للقتال على نحو ما فعل في ذات السلاسل عندما خاطب جنده بقوله: «ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين».

وجدير بالذكر أن قوات العرب المسلمين لم تكن مستعدة لتثقل تحركاتها بأعباء الشؤون الإدارية على نحو ما كانت تفعله جيوش الفرس والروم، وكانت مستعدة للتضحية بعامل الشؤون الإدارية لحساب متطلبات حرب الحركة وللمحافظة على مرونة القوات وخفة حركتها، ولهذا فإنها كانت تعتمد في تنظيمها الإداري أساساً على قدرة التعايش بما هو متوفر في مسارح العمليات، وكان في ذلك حرمان لأعداء المسلمين من مواردهم الإدارية، ويظهر في أعمال

خالد القتالية تعيين مفارز خاصة واجباتها تأمين المتطلبات الإدارية ضمن حدود معاهدات الصلح، ومع ضمان تنفيذ مبدأ الاستقرار على المؤخرات.

مهما كان عليه الأمر، فمن الواضح تماماً أن القوات التي قاتلت تحت راية العقاب السوداء، التي حملها خالد في حروبه، لم تشعر باضطراب على مؤخراتها، ولم تصدر عنها شكوى تشير إلى تقصير في تنظيم الشؤون الإدارية، وهذا يبرهن أيضاً، وبشكل غير مباشر، على مدى اهتمام خالد باستقرار المؤاخرات في منطقة كان نفوذ العدو فيها قوياً، وعلى مدى اهتمام خالد بالشؤون الإدارية لتأمين قوات ضخمة بالنسبة لما عرفه العرب وما عهدوه في تلك الحقبة التاريخية.

الفصل الثالث

قيادة خالد بن الوليد

أ ـ خالد بن الوليد وفن القيادة

١ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين.

٢ ـ التحريض على الجهاد.

٣ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر.

٤ ـ القرارات الصحيحة.

٥ ـ حماية المرؤوسين وإدارة الحرب.

ب ـ خالد بن الوليد وقوات العرب المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ الانضباط والطاعة.

٥ ـ خالد، وحرية العمل.

أ ـ خالد بن الوليد وفن القيادة

«ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين»

(خالد، عندما عزله عمر)

١ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

كانت قبيلة بني حنيفة من القبائل العربية الكبيرة، ولهذا فقد كانت زعامة مسيلمة لها وارتدادها تمثل أكبر خطر على المسلمين، وبعد حرب خالد لها لم يبق لهذه القبيلة دور يذكر في الفتوحات الإسلامية. فقد عمل خالد على إبادة المقاتلين إبادة تامة، ويتأكد ذلك من محادثات «مجاعة» مع خالد وخدعته له بإخراج النساء إلى الحصون والتظاهر بأنهن من الرجال المقاتلين، وعندما فتحت الحصون لم يجد خالد سوى النساء والأطفال. وكان خالد في معاركه كلها يسعى للقاء قادة الأعداء ويعمل على إبادتهم وقتلهم منذ بداية الاشتباك؛ فقتل هرمز في ذات السلاسل، وقتل قارن في وقعة المذار، وقتل مالك بن قيس في أليس، وقتل في هذه المعركة كل من حمل السلاح، وفاء لقسمه الذي أقسمه عندما اشتدت المعركة وكثر قتلى المسلمين فقال: «**اللهم إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم**» فأصبح نهر أليس منذ ذلك الوقت وهو يحمل اسم نهر الدم.

وعاد خالد في معركة دومة الجندل فبدأها بقتل أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة، وقذف بهما وبالأسرى بعد إبادتهم على أبواب الحصن، وفي مصيخ بني البرشاء نظم خالد إغارته الليلية بحيث أمكن له إبادة أعدائه إبادة تامة. وتكررت عملية الإبادة بكاملها في الثني والزميل، وأباد المسلمون في الفراض مائة ألف مقاتل من تجمع الفرس والروم والعرب المتنصرة. وطبق خالد الأسلوب ذاته في سوى واليرموك وأجنادين، وفي كل موقعة خاضها بعد

ذلك. وفي هذا المجال يمكن اعتبار خالد بن الوليد نموذجاً رائداً في استخدام العنف للقضاء على أعداء المسلمين. وقد يكون بحث خالد عن الفاعلية المطلقة للحرب واستخدام مبدأ حرية العمل العسكري حتى أبعد الحدود هو سبب الظاهرة. وقد يكون حرصه على تحقيق مبدأ الحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، هو سبب آخر أيضاً، إذا أنه لم يكن هناك وسيلة لتحطيم التفوق الساحق بالقوى لأعداء المسلمين إلا بهذه الوسيلة.

ومهما كان عليه الأمر، فإن البحث عن الفاعلية المطلقة في الحرب وتجاوز كل الحدود، كان وسيبقى أبداً هدف السياسة الاستراتيجية عبر التاريخ[1]. ويمكن هنا أيضاً تجاوز الظواهر للوصول إلى النتائج، والتساؤل: ترى هل كان باستطاعة خالد حسم الأعمال القتالية، بمثل تلك السرعة، وتصعيد الأعمال القتالية على جبهات الشام والعراق، لولا استخدام الفاعلية المطلقة في الحرب؟، ثم هل كان بالمستطاع الوصول إلى تحويل مسيرة الصراع وجعل ميزان القوى، نسبياً، في حدود قدرة العرب المسلمين لو لم يتم استخدام تلك الفاعلية؟.

الحرب هي الحرب، والسياسة الاستراتيجية هي توازن بين غاية السلم وهدف الحرب، وقد استطاع خالد يقيناً الوصول بالحرب إلى فاعليتها المطلقة بقدر ما استطاع تحقيق التوازن من أجل إقامة سلم لا يتعارض مع فاعلية الحرب، وكان ذلك النجاح هو المثل الأعلى لما يطمح قائد في تحقيقه والوصول إليه. ولئن كان هناك من يجد في أساليب خالد قسوة تتعارض مع المفاهيم الحضارية، فلينظر إلى ما يتعرض له عالم الحروب في ظل الحضارة التقنية لعالم القرن العشرين.

٢ ـ التحريض على الجهاد

كان لخالد بن الوليد أسلوبه المميز في التحريض على الجهاد، إذ أنه لم يكن

---

(١) وهل يمكن تفسير استخدام القنابل الذرية في هيروشيما وناغازاكي لإخضاع اليابان في الحرب العالمية الثانية سوى تطوير لهذه الظاهرة من أجل حسم الصراع المسلح، ومن أجل تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى؟ ثم هل كانت أعمال الإبادة الوحشية، بما فيها أعمال الإبادة بأسلحة التدمير الشامل الكيميائية، في فيتنام، ثم في الجزائر، وفي الصراع العربي ـ الإسرائيلي، إلا نماذج متقدمة لتطوير مبدأ الفاعلية المطلقة في الحرب.

يكثر من الحديث، وكان يكتفي بالتقاليد التي سنَّها الرسول الأعظم ﷺ، فكان يكلف المسلمين بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، ثم ينطلق بهم إلى المعركة. وكان التحريض على الجهاد عنده يأخذ شكل أوامر قتال أو تحديد واجب.

ففي معركة خالد مع المرتدين في البطاح قال خالد لجنده: «امتازوا لنعلم بلاء كل حي»، وفي ذات السلاسل، قال: «جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين»، وفي فتح الأنبار قال خالد لجنده: «ارموا عيونهم ولا توخوا غيرها»، وفي الفراض، دفع خالد جنده للمطاردة وقال لهم: «ألحوا عليهم ولا ترفهوا عنهم»، وفي فتح دمشق قال خالد: «إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا، وانهدوا للباب».

ولكن، إذا كان خالد قليل الحديث عن المعركة، فإنه كان كثير العمل لإعداد جنده لها. لقد كان يتقدم الصفوف لإثارة الحماسة وللتحريض على الجهاد، وكان يسرع إلى كل موقع خطر، وكان في مقدمة المسير عند التقدم، ومع المؤخرة «الساقة» عند الانسحاب أو التراجع، وكان في كل مكان من المعركة أثناء الاشتباك، فكان الجميع يشعرون بوجوده أبداً بينهم، وكان ذلك أسلوبه الأمثل في التحريض على الجهاد. ليس ذلك فحسب، بل إن تنظيمه للمعركة، وتوزيعه للقوات، وتحديد الواجبات بدقة، لا سيما عند العمل على محاور مستقلة أو عند تنفيذ واجبات مختلفة. وكذلك تنسيق التعاون بين القوات بعضها مع بعض، علاوة على ما تميزت به شخصية خالد القيادية من الكفاءة والقدرة، كل ذلك كان في جملة العوامل التي يمكن إضافتها لأسلوب خالد في التحريض على الجهاد. ولعل خالداً قد عرف الرصيد المعنوي الكبير لقواته، وعرف إيمان المجاهدين في سبيل الله بحتمية انتصارهم، فأعرض عن الأسلوب الخطابي واكتفى بالأسلوب العملي الذي يتوافق مع طبيعته أصلاً، والذي يستجيب لتكوينه.

٣ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر

قد يكون من الصعب جداً انتقاء موقف محدد للبرهان على شجاعة خالد في مواجهة الخطر، ذلك أن أعمال خالد القتالية كانت اقتحاماً للخطر، ليس ذلك فحسب وإنما كان خالد يعيش، في أموره الخاصة، حياة الخطر الدائم. فذهابه

للحج على السمت وضربه في الصحراء هو نوع من اقتحام الخطر، ومسيرته من العراق إلى الشام عبر الطريق الذي اختاره تحمل قدراً غير قليل من الخطر، واندفاعه بعد ذلك إلى مقدمة الصفوف، للقضاء على قادة أعدائه هو الخطر ذاته، ثم هل هناك برهان على الشجاعة في مواجهة الخطر، أكبر من أن تترك تلك الأخطار آثارها على جسد خالد الذي لم يبق فيه موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح؟.

وليست هذه الشجاعة هي نوع من الشجاعة الجسدية المستهترة، والتي تسعى إلى الانتحار، أو تلك التي لا تستطيع تقويم أهمية الخطر، وإنما هي الشجاعة الروحية، المعنوية، التي تعرف بدقة هدفها من الحياة، والتي تدرك بوعي تام مقدار النجاح الذي يمكن تحقيقه من خلال اقتحام الخطر، وواضح أن هذه الشجاعة الروحية، المعنوية، هي التي كانت تدفع خالداً لتحمل كامل مسؤوليته في إدارة الحرب، وهي التي كانت تدفعه لرفض كل موقف يتعارض مع متطلبات الفاعلية القصوى. وهل هناك شجاعة معنوية أكثر من الخضوع لأوامر الخليفة ومواجهة المسلمين في موقف يمكن اعتباره مهيناً، بحسب المصطلحات الحديثة، في حين يمكن اعتباره نموذجاً أعلى للشجاعة عند تقويمه من وجهة نظر التغلب على الذات، وعند تقويمه من وجهة نظر المصلحة العامة، وليس ذلك فحسب، وإنما تتمثل تلك الشجاعة عند مجابهة خالد لأمير المؤمنين عمر، ومبادأته بقوله: «لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر». إن خالداً يتهم عمر وهو أعدل رجل عرفته الدنيا، يتهمه بالظلم «وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر». ويقف أمير المؤمنين أمام هذا الاتهام، فيرد على خالد بقوله: «**يا خالد! والله إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم في شيء**».

ومن الممكن هنا القول إن المعرفة القديمة والتي تعود إلى الطفولة بين عمر وخالد قد سمحت لخالد بمثل هذه المجابهة، ولكن عمر في طفولته هو غير عمر في شبابه وإسلامه، وهو خليفة أيضاً غيره عندما كان بعيداً عن موقع المسؤولية، ولكن الإسلام علَّم الرجلين المشتركين في المسؤولية طريقة المجابهة المسؤولة التي سمح بها الإسلام عند وقوع الظلم، ولم يكن الهدف في الحالة هذه هو إلحاق الظلم بقدر ما كان الاجتهاد والتأويل لما فيه خير المسلمين.

٤ ـ القرارات الصحيحة

وتظهر شجاعة خالد قبل كل شيء في قراراته الصحيحة، فالقائد هو القرار، وهو تحمل المسؤولية بكل ما ينتج عن هذا القرار من فشل أو نجاح، وقد كان على خالد أن يجابه في كل يوم من حياته القيادية أن يتخذ أكثر من قرار تتعلق به مسيرة الصراع، وجاءت النتائج كلها لتبرهن على صحة تلك القرارات، ولتبرهن بطريقة غير مباشرة على الشجاعة العالية التي تميزت بها السيرة القيادية لخالد بن الوليد، ولعل العودة إلى هذه السيرة واستعراض دقائقها كافية لإبراز مدى الصحة في قرارات خالد.

تولى خالد أول قيادة له بعد إسلامه، بالانتخاب، في غزوة مؤتة، وكان قد سقط القادة الذين عينهم الرسول ﷺ للقيادة، ووجد خالد أن الاستمرار في المعركة هو ضرب من الانتحار بسبب الفارق الكبير في ميزان القوى، فقرر خالد الانسحاب، وكان قراره صحيحاً. وخاض خالد معركة أم زمل ضد المرتدين وقرر بعدها التوجه مباشرة إلى البطاح وعارضه بعض القادة في ذلك، وكان قرار خالد صحيحاً لأنه يستند إلى مبدأ استثمار النصر وعدم السماح لقوات العدو بإعادة تنظيم مقاوماتها.

وفي ذات السلاسل قرر خالد الاشتباك مع هرمز مباشرة، وكان ذلك القرار صحيحاً إذ أنه منع قوات الفرس من التجمع. وفي موقعة الولجة كان لقرار خالد بخوض المعركة مباشرة دوره الكبير في حسم الصراع. وكان قرار خالد في فتح الحيرة صحيحاً، إذ أن تشكيل مجموعات قتالية لمجابهة مجموعات المقاومات قد أعاق هذه المقاومات عن تبادل الدعم وتنسيق التعاون فيما بينها. ويمكن تجاوز كل المواقف للوصول إلى قرار موقعة اليرموك حيث تظهر صحة قرار خالد في كل مرحلة من مراحل تنظيم المعركة وإدارة القتال فيها.

وكانت قرارات خالد صحيحة أيضاً في مجال علاقة القائد بقواته، بمثل ما كانت قراراته صحيحة في مجال علاقته مع أعدائه، فهو لم يشجع عدي بن حاتم الطائي على حرب بني أسد نظراً لوجود تحالف بين طيء وأسد، وطلب إلى عدي النزول عند إرادة قومه الراغبين في حرب قيس وقال له: «إن جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك، وامضِ بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط».

٥ ـ حماية المرؤوسين وإدارة الحرب

وكان من أهم نتائج قرارات خالد الصحيحة هي في حماية المرؤوسين. فقد اتخذ خالد قراره في الانسحاب من معركة مؤتة، وكان في ذلك حماية للمسلمين، واستخدم خالد أسس تصعيد الحرب وحرية العمل العسكري المطلقة لحماية المسلمين، وطبق مبادئ الحرب التقليدية بكفاءة عالية، المباغتة والمبادأة والحركية.. إلخ، وكان في ذلك حماية المسلمين، وتبقى كفاءة خالد في إدارة الحرب هي أفضل وسائله لحماية المرؤوسين.

كان خالد شديد الاهتمام بمعرفة نوايا أعدائه، فكان يستخدم كل وسائط الاستطلاع المتوفرة لجمع المعلومات، العيون أو الجواسيس، الاستطلاع بالقوة، مراكز المراقبة الثابتة أو المسالح، وكان يمارس بنفسه وبصورة دائمة استطلاع مسرح الأعمال القتالية «الاستطلاع الشخصي» ثم كان يتخذ قراره على أساس معطيات ثابتة وواضحة: العدو، الأرض، الأصدقاء. وكان ذلك سبباً في اتخاذ القرارات الصحيحة. وكان خالد بعد ذلك ينظم قواته وفقاً لما يفرضه الموقف، ثم يعمل على إدارة القتال، متابعاً تطوير المواقف حتى ظهور نقطة ضعف العدو وعندئذ يوجه خالد ضربته الحاسمة، وتنتهي المعركة بإبادة قوات العدو ومطاردتها والقضاء عليها. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة استثمار النصر عن تصعيد القتال والبحث عن معركة جديدة، وكان كل عمل وكل اشتباك يتطلب إعادة تنظيم للقوة، وليس ذلك كله بالعمل السهل، لا سيما عند وضع هذا العمل في إطاريه الزمني والمكاني.

لقد كان حرص خالد على حماية مرؤوسيه عاملاً بدون ريب لاكتساب ثقتهم المطلقة، وعاملاً أيضاً لمبادلته وفاء بوفاء، فكان المجاهدون يندفعون لحمايته، ويتنافسون على افتدائه بأنفسهم، ويتسارعون لإطاعة أوامره وتنفيذها، وكان في ذلك بعض عوامل النصر.

ب ـ خالد بن الوليد وقوات العرب المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

بقيت القوات التي قادها خالد بن الوليد في حالة حركة دائمة، منذ انطلقت من المدينة المنورة لحروب الردة حتى حررت العراق ثم انتقلت لتحرير الشام، واشتبكت هذه القوات بمعارك كثيرة، وخاضت حرباً متصلة، وهذا في حد ذاته برهان كاف عن الاستعداد الدائم للقتال. وكان خالد نفسه «**لا ينام ولاينيم ولا يخفى عليه من أمور أعدائه شيء، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه**»، وهذا يعني ببساطة بقاء القوات في حالة حرب دائمة لمدة أربعة أعوام تقريباً، سقط خلالها من سقط، واستشهد من استشهد، واستبدل من استبدل، ولكن كتلة القوات الرئيسية بقيت كما هي، لم تتعبها المسيرات الشاقة في الليل أو النهار، في الحر أو البرد، كما لم تتعبها الأعمال القتالية المرهقة. ويمكن تصور العبء الكبير الذي احتملته قوات المجاهدين في سبيل الله إذا ما تمت مقارنة منجزاتها وأعمالها بحجم قوتها العددية.

فقد كان حجم القوات، على ما هو معروف، قليلاً، وكانت الأعباء ثقيلة، فقد كان على المقاتلين ممارسة أعمال الأمن والاضطلاع بأعمال الحراسة، وتأمين الشؤون الإدارية، وعدم التقصير في الفروض والعبادات، الصوم والصلاة، وقد أجاز خالد المجاهدين بالإفطار في بعض معاركه، كما كان يتم جمع الصلوات في بعض الحالات، ولكن ذلك كله في إطار متكامل مع أعمال الحرب وكره القتال، «**كانوا آساداً في النهار نساكاً في الليل، لا يفضل من مضى منهم عمن لم يستشهد إلا بفضل الشهادة**»، وقد عرف أعداء المسلمين خصائص جيش المجاهدين في سبيل الله وفضائله، وكان من الطبيعي ألا يتعرض جيش كهذا للمباغتة، أو يجابه مأزقاً من مآزق الحرب المعروفة.

فقد كانت القوات في حالة استنفار، دائماً تسعى للشهادة، وتعيش تحت

ظلال السيوف طلباً للجنة. وتظهر فضيلة الاستعداد الدائم للقتال في جيش المجاهدين تحت راية العقاب من خلال اندفاعهم للقتال بعد كل مسيرة طويلة وشاقة، بقدر ما تظهر أيضاً من خلال تحركهم الدائم المستمر، وقد عرف تاريخ فن الحرب جيوشاً كثيرة قامت بمسيرات طويلة وأعمال قتالية عديدة، ولكنه لم يعرف أبداً جيشاً في حجم جيش خالد بن الوليد قام بمثل ما قام به هذا الجيش من أعمال فتوحات، وهذا هو البرهان الحاسم على الاستعداد الدائم للقتال في جيش خالد بن الوليد.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

ما كان باستطاعة خالد بن الوليد ممارسة قيادته بمثل تلك القدرة وبمثل تلك الكفاءة، لو لم يكن وقواته متمتعين بأعمق مشاعر الإيمان، ولم يكن باستطاعة قوات المجاهدين في سبيل الله احتمال كره القتال وقبول كل المصاعب والمشاق لو لم يكن الرصيد المعنوي أكبر من كل تقويم، وأقوى من كل تصور أو تقدير.

لقد اعترف العالم كله، في القديم والحديث، لجيوش المجاهدين في سبيل الله بقوتهم المعنوية الرائعة، وقد يكون من الصعب التمييز في هذا المجال بين جيش خالد بن الوليد، والجيوش التي كانت تعمل تحت قيادة الآخرين من قادة العرب والمسلمين. فالروح المعنوية هنا تستمد قوتها من العقيدة الدينية للمسلمين أكثر مما تستمد قوتها من عوامل موضعية أو طارئة. ولكن ليس بالإمكان أيضاً إنكار ما كان لخالد بن الوليد من دور في دعم الروح المعنوية للمجاهدين، وكان دور خالد المعنوي يتمثل في مجموعة من المعطيات:

١ ـ الثقة المطلقة بكفاءة خالد، سيف الله، وحتمية الانتصار في كل معركة يقودها.

٢ ـ اعتماد خالد على القادة الأكفاء، وتقديم الشجعان من الفرسان، أمثال القعقاع بن عمرو التميمي، وضرار بن الأزور، وسعيد بن زيد وعكرمة بن أبي جهل وسواهم.

٣ ـ تعزيز كل نصر بنصر جديد.

وقد لا تكون هناك حاجة لإبراز مقدار الثقة التي يستمدها المقاتل من قائده، ودور هذه الثقة في رفع الروح المعنوية أو إحباطها. فقد قاد خالد بن سعيد

جيشاً من المسلمين توجه به إلى الشام، واستطاع الروم تدمير هذا الجيش مما اضطره إلى الانسحاب بحيث وصلت فلوله إلى ذي القصة قرب المدينة. وخسر المسلمون معركة الجسر، ووصلت فلول القوات إلى المدينة. وتبرهن الحادثتان على مقدار الدور الذي يمارسه القائد في رفع الروح المعنوية أو إحباطها بالنسبة لمجموعة من الجيش تتمتع بخصائص واحدة. وكان خالد بن الوليد يعرف أهمية الروح المعنوية بالنسبة للمقاتلين، ويدرك دورها في المعاوضة عن ضعف جيش المسلمين في العدد والعدة، ولهذا فقد كان يحرص أبداً على تجنب كل ما من شأنه إضعاف هذه الروح أو إحباطها، وهذا ما يفسر غضبه الشديد عند ظهور مقاومة قوية، أو تعرض قواته لخسائر كبيرة، نسبياً، على نحو ما حدث في الثني، ولهذا كان يعمل على تصعيد الحرب حتى ذروتها القصوى بواسطة أعمال الإبادة ضد المقاتلين المسلمين للأعداء. وكثيرة بعد ذلك الشواهد التي تبرهن على الروح المعنوية العالية عند خالد بن الوليد وجنده، ومنها، على سبيل المثال، إجابته على المجاهد الذي وقف يتأمل جموع الروم الكثيفة وحشودهم الضخمة، فقال على مسمع من خالد: «ما أكثر الروم وأقلَّ المسلمين»، فكان رد خالد: «بل قل: ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين! **إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال.** والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه، وأنهم أضعفوا العدد»، وكان جند خالد مثله في ثقتهم بأنفسهم، فكانوا لا يترددون في لقاء أعدائهم مهما كثر عددهم أو تعاظمت عدتهم.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

قد يكون من الصعب بعد ذلك تقويم مقدار الكفاءة البدنية العالية التي كانت عليها قوات المسلمين. فالأعمال التي قاموا بإنجازها تتجاوز حدود المقاييس المعهودة. آلاف الأميال أو الكيلومترات، قطعها المجاهدون وهم على صهوات جيادهم في الصحاري والسهول والجبال حتى فقد حصان خالد تَوْجَيْه ـ أي: حافريه ـ وبات يشكو لخالد ما أصابه. لقد تعب الحصان ولم يتعب الفارس، وما حمل الحصان بقدر ما احتمل الفارس. وقد يكون من الطبيعي أن يتعب الفرس ولا يتعب الفارس، فالروح المعنوية والهدف العظيم الذي ينشده الفارس هو بعيد عن إدراك الفرس، وهو ما أعان الفارس على احتمال ما يحتمله.

لقد برهنت الأعمال القتالية على تلك الكفاءة البدنية العالية للمجاهدين في

سبيل الله، والتي تستمد معينها الذي لا ينضب من الروح المعنوية العالية، ولكن تلك الكفاءة البدنية عند خالد تفوق حد التصور وتصل إلى مرحلة الإعجاز. لقد كان على خالد أن يقوم بأعمال المجاهدين ويشاركهم أعباء المسير والتحرك وكره القتال، وكان عليه فوق ذلك الاحتفاظ بتفكيره السليم وذهنه المتوقد وصفاء عقله في أصعب الظروف، من أجل اتخاذ القرارات الصحيحة ومن أجل إدارة الحرب، ومعروفة هي العلاقة الجدلية بين الصفاء الذهني، والتعب الجسمي أو الجسدي، فكيف برجل، مثل خالد، يحتمل ذلك كله ثم هو لا ينام ولا ينيم. وكان إخوة خالد من القادة على مثل كفاءته، وليست هناك حاجة بعد ذلك للبرهان على قوة ذلك الدافع العميق الذي كوَّن العرب تكويناً جديداً، فجعل منهم قوة تتجاوز في قدرتها المقاييس التي عرفها العالم من قبل ومن بعد. إنها قوة الإيمان الراسخ كالجبال بحتمية أداء الواجب ورفع رسالة الإسلام عالياً لتعريف الناس بها، وحملهم على الاقتناع بها، ولو لم تكن للمسلمين مثل تلك القوة المعنوية الهائلة، لما أمكن لهم إقناع غيرهم بها، وتصبح الكفاءة البدنية في هذه الحالة هي الوسيلة الخاضعة لإرادة الروح المعنوية.

٤ ـ الانضباط والطاعة

يقوم بلال الحبشي، في جامع حمص، فيعقل خالد بن الوليد ويستجوبه على سمع المسلمين وأمام بصرهم، **ويخضع قاهر امبراطوريتي الفرس والروم لبلال، ويسلمه قياده، من دون شعور بالحمية، حمية الجاهلية، ومن دون شعور بالمهانة، مهانة القيم المادية التي دمرها الإسلام**، وأصبحت هذه الحادثة نموذجاً تعتز به الدنيا وتضربه للعالم في موضوع الانضباط والطاعة، وقد تعرض جبلة بن الأيهم الغساني لحادثة أصغر من هذه عندما وطأ أعرابي رداءه في الحج ولطمه، مما حمل أمير المؤمنين عمر على إدانته، فكان ذلك سبباً في ردته والتحاقه بالروم. ذلك هو الفارق المميز بين رجل عَمر الإيمان قلبه ورجل لم يقر الإيمان في صدره، وكلاهما عاشا في وقت واحد، وعصر واحد. ويصبح من الطبيعي بالنسبة لقائد يأخذ نفسه بهذا المأخذ، ويلزمها مثل هذا السلوك، أن يطالب المجاهدين معه بمثل هذا الانضباط الصارم، والذي ينطلق قبل كل شيء من الواجب المشترك الذي يحمل أعباءه القائد وجنده، وإن فهم أبعاد هذا الانضباط الصارم يجعل من السهل معرفة كيفية الاستجابة التي كان يظهرها

المجاهدون عندما يُطلب إليهم الاضطلاع بواجباتهم القتالية. ولقد تميزت كثير من جيوش العالم القديم والحديث بانضباطها الصارم، بداية من خضوع قبائل الهون لقيادة أتيلا أو مروراً بجيوش التتار وخضوعها لجنكيزخان وتيمورلنك ونهاية بالجيوش الألمانية النازية، ولكنها كلها لم تبلغ يقيناً ما وصل إليه الانضباط في الجيوش الإسلامية، ذلك أن تلك الجيوش، كلها، كانت لها ظروف مختلفة، وكانت تحمل، بمجموعها، أقل مما احتملته جيوش المسلمين من كره القتال، ثم هي أظهرت في بعض مراحلها نوعاً من الاسترخاء في تنفيذ الأوامر وفي التمرد على بعض الضوابط، ولكن جيش خالد أقبل على تنفيذ كل أعماله القتالية بانضباط طوعي لم يعرف العالم له مثيلاً من قبل ومن بعد.

وقد يكون لشخصية خالد القيادية دور في ذلك، من دون ريب، وقد يكون للخطر المتوقع دور أيضاً في تحقيق التلاحم بين قوات المسلمين وقياداتهم، ولكن يبقى الدور الأساسي هو دور العقيدة الدينية الإسلامية التي فرضت على المسلمين انضباطاً فريداً في مفهومه، إنه الانضباط الطوعي للقائد طالما أنه بقي خاضعاً لطاعة الخالق، منفذاً لأوامره، حاملاً لرسالته، مؤدياً لفروضه.

٥ ـ خالد وحرية العمل

تثير ظاهرة حرية العمل عند خالد بن الوليد قضية من القضايا العسكرية الصعبة التي طالما شغلت الباحثين في مبادئ العمل العسكري، ويفضل القادة العسكريون دائماً تنفيذ واجباتهم في إطار من حرية العمل المطلقة، في حين تتجه الأنظمة والقوانين لتقييد حرية العمل العسكري وتقنينه بحيث يكون خاضعاً لغاية السلم أكثر مما يكون خاضعاً لهدف الحرب.

وتظهر صعوبة تقييد حرية العمل العسكري خاصة في الحروب الثورية، وفي الحروب التي تخوضها الشعوب بحيث يكون من الصعب التمييز بين المحارب وغير المحارب، وتتعاظم الصعوبة عندما يبحث القائد عن الحسم في الصراع المسلح، وعندما يريد ضمان نوع من الأمن النسبي لقواته، ولقد كان خالد بن الوليد من القادة الذين لا يستطيعون ممارسة أعمالهم القتالية إلا في إطار من حرية العمل المطلق، كما أنه كان يبحث أبداً عن الحسم في الصراع المسلح، ولهذا فقد يكون من الطبيعي أن يتعرض لعدد من المآزق الصعبة، حيث كان يجد نفسه مرغماً على التضحية ببعض القيم من أجل

اكتساب بعض الفضائل الحربية، وأبرزها مبدأي الحسم وأمن القوات.

كان المأزق الأول الذي تعرض له خالد بن الوليد هو إبادته لبني جذيمة مما جعله عرضة للاتهام بأنه انتقم لثأرات الجاهلية، وعمل الرسول ﷺ على معالجة هذا المأزق عندما أوفد علي بن أبي طالب وكلفه بدفع دية من قُتِل ظلماً من المسلمين، وكان المأزق الثاني يوم هاجم خالد بن الوليد مالك بن نويرة في حروب الردة، وقد يكون من المناسب هنا التعرض للموضوع ببعض الإسهاب نظراً لما جاء من تفاسير متناقضة.

كان من عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقادته أن «إذا غشيتم داراً من دور الناس فسمعتم فيها أذاناً للصلاة، فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقموا! وإن لم تسمعوا أذاناً فشنوا الغارة فاقتلوا وحرِّقوا.. وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة، فإن أقروا فاقبلوا منهم، وإن أبوا فقاتلوهم»[1].

وعندما فرغ خالد من فزارة وغطفان وأسد وطيء توجه إلى البطاح وبها مالك بن نويرة الذي كان قد فرَّق قومه ونهاهم عن الاجتماع، وقال لهم: «يا بني يربوع، إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح. وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم فتفرقوا وادخلوا في هذا الأمر»، فتفرقوا على ذلك. ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه. وجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم، وكان فيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أنهم قد أذَّنوا وأقاموا وصلوا. فلما اختلفوا بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالد منادياً فنادى «دافئوا أسراكم»، وهيْ في لغة كنانة القتل، فظن القوم أنه أراد القتل، ولم يرد إلا الدفء، فقتلوهم، فقتل ضرار بن الأزور مالكاً بن نويرة. وسمع خالد الضجيج، فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه. واختلف القوم فيهم، فقال أبو قتادة: هذا عملك. فزجره خالد، فغضب ومضى حتى أتى «أبو بكر»، فغضب أبو بكر حتى كلمه عمر فلم يرض إلا أن يرجع إليه، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة. وتزوج خالد أم تميم، امرأة مالك بن نويرة، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره. فقال عمر

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٧٦ ـ ٢٨٠، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٣.

لـ«أبو بكر»: «إن سيف خالد فيه رهق فإن لم يكن هذا حقاً، حق عليه أن تقيده» وأكثر عليه في ذلك. فقال: «**هيه يا عمر، تأول فأخطأ، فرافع لسانك عن خالد فإني لا أشيم ـ أي: لا أغمد ـ سيفاً سله الله على الكافرين**». وودى مالكاً، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل.

ودخل المسجد وعليه قباء له صدأ الحديد، وقد غرز في عمامته أسهماً، فقام إليه عمر فنزعها، وحطمها، وقال له: «أرئاء، قتلت امرءاً مسلماً، ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك»، وخالد لا يكلمه، يظن أن رأي «أبو بكر» مثله. ودخل على «أبو بكر» فأخبره الخبر، واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه، وعنفه في التزويج الذي كانت عليه العرب من كراهته أيام الحرب. فخرج خالد وعمر جالس، فقال: هلم إليَّ يا ابن أم سلمة. فعرف عمر أن «أبو بكر» قد رضي عنه، فلم يكلمه.

وقدم متمم بن نويرة على «أبوبكر» يطلب بدم أخيه، ويسأله أن يرد عليهم سبيهم، فأمر أبو بكر برد السبي، وودى مالكاً من بيت المال. وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته ـ أصحابه ـ. ولما قدم متمم بن نويرة على عمر قال له: ما بلغ بك الوجد على أخيك. قال: «بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة، وما رأيت ناراً قط إلا كدت أتقطع أسفاً عليه، لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه». قال: أنشدني بعض ما قلت فيه. فأنشده مرثيته التي يقول فيها:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال عمر: لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيداً. فقال متمم: ولا سواء يا أمير المؤمنين، لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما بكيته. فقال عمر: ما عزاني أحد بأحسن مما عزيتني به.

تظهر القصة بوضوح الفارق المميز بين الأسلوب القيادي للخليفة «أبو بكر» رضي الله عنه، من خلال القول: «كان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته»، وبين الأسلوب القيادي للخليفة عمر رضي الله عنه من خلال قوله: «إن سيف خالد فيه رهق، فإن لم يكن هذا حقاً، حق عليه أن تقيده»، وقد كان هذا الفارق بين إطلاق حرية العمل عند «أبو بكر» وتقييده عند عمر هو العامل الحاسم الذي تسبب في عزل خالد عن قيادته في زمن عمر.

أما بالنسبة لمالك بن نويرة، فقد كان خالد يعمل في منطقة مرتدين على كل حال، ولم يكن باستطاعته إلا معالجة الأمور من منطلق الحذر ومتطلبات الأمن، وقد استشهد عدد من الصحابة والقادة في هذه الحرب، حرب الردة، نتيجة تقييد حرية العمل، ونتيجة التضحية بمبدأ الأمن لحساب القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية، فكان من الطبيعي أن يتصرف خالد مع ما يتطلبه الموقف وبحسب طبيعته في البحث عن الحسم في الصراع المسلح. وقد كان خالد يخوض حرباً أهلية يصعب فيها التمييز بين المرتدين وغير المرتدين وفرزهم بدقة، وعلاوة على ذلك فقد كان هناك خطأ في فهم ما يريده خالد من إدفاء الأسرى، حتى قال خالد: إذا أراد الله أمراً أصابه. أما بالنسبة لزواج خالد من زوجة مالك فهو أمر لا علاقة له بمصرع مالك ولو أن مصرع مالك والزواج قد تسبب في ظهور رابطة بين الحادثين، وكل ما في الأمر، أن العرب كانت تكره مثل هذا الزواج أثناء الحرب، وهذا ما أغضب الخليفة عمر بن الخطاب. وقد جاء رثاء تميم لأخيه بعد ذلك فأثار المشاعر التي حملها الشعوبيون وأعداء الإسلام واستخدموها لتشويه سمعة خالد والإساءة إليه. وقد تعتبر الحادثة بمجموعها غير جديرة بالتوقف عندها، فكثيراً ما حفل تاريخ الحروب بمفارقات تتجاوز كثيراً في خطورتها وفي حجمها ما ارتكبه خالد، إن كان هناك ما يمكن أن يؤخذ عليه، ولعل إبراز الحادثة بمثل هذا الحجم الذي تم إبرازها فيه إنما هو شهادة براءة لفن الحرب الإسلامي الذي يوازن بدقة بين غاية السلم وبين هدف الحرب، ومن خلال هذه الموازنة الدقيقة، كان الخليفة أبو بكر يتجاوز ما يفعله خالد في الحرب، ويعالجه بما تتطلبه غاية السلم.

تكررت بعد ذلك مثل حادثة مالك بن نويرة في غزوة مصيخ بني البرشاء، حيث قتل خالد في إغارته عبد العزى بن أبي رهم ولبيد بن جرير، وهما مسلمان معهما كتاب من «أبو بكر»، مما أثار حفيظة عمر، ولكن «أبو بكر» عالج الموقف بصورة صحيحة عندما علق على الحادث بقوله: كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب، وأوصى بأولادهما. ولقد كان من الصعب على خالد ورجاله في إغارته الليلية المباغتة إجراء عملية الإنذار لإخراج المسلمين الاثنين والتضحية بعامل المباغتة والحسم، مع العلم أنه لم يكن من المتوقع وجود رجلين مسلمين في معسكر أعداء المسلمين. ولعل حجة خالد، وهو قائد لعمليات العراق، من دون أذن من الخليفة «أبو بكر»، أو إعلامه هي نموذج لطبيعة خالد التي تتحرر

من كل القيود حتى في الأمور الخاصة، كالحج، وقد عاتبه الخليفة على مغادرته مسرح الأعمال القتالية من دون إذن بذلك، في حين كان رأي عمر هو العزل.

لقد عبَّر خالد عن رغبته في ممارسة أعماله القتالية ضمن إطار حرية العمل المطلقة ولو كان في ذلك مخالفة لأوامر الخليفة، وذلك عند توجهه لقتال مالك بن نويرة ومخالفة الأنصار له، فقال لهم: «قد عهد إليَّ أن أمضي، وأنا الأمير، ولو لم يأتِ كتاب بما رأيته فرصة، وكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه عهد لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به».

لقد كان من عادة الخليفة «أبو بكر» تحديد هدف الحرب وترك مسؤولية التنفيذ على عاتق قائد القوات أو قائد مسرح العمليات، ويظهر ذلك واضحاً في كل أوامر الخليفة، في حين كان أسلوب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مغايراً لذلك. فقد كان عمر ﷺ يحدد أهداف الحرب، ويختار الوسائل المناسبة، ويحاسب قادته على كل تصرف من تصرفاتهم ويحدد لهم من وسائل عملهم، وقد نجح خالد نجاحاً رائعاً عندما كان يمارس قيادته في عهد الخليفة «أبو بكر»، ولم يحقق مثل هذا النجاح عندما تولى عمر إمارة المؤمنين، وقد أظهر خالد كفاءته القيادية مرة واحدة، على الأقل، عندما توفرت له فرصة العمل في إطار من حرية العمل المطلقة وذلك أثناء غزاته لما وراء الدروب سنة (١٧هـ)، وكانت مغانمه برهاناً على مثل هذا النجاح الرائع. ولكن هذا النجاح بقي مقيداً في إطار الهدف السياسي وقواعد إقامة المجتمع الإسلامي، إذ سرعان ما عمل أمير المؤمنين على محاسبة خالد وتجريده وعزله لأنه وجد في سلوكه ما يتجاوز متطلبات بناء المجتمع الإسلامي، لا سيما في مجال تحقيق التوازن بين مختلف مسارح العمليات، بعد أن اتسعت أبعاد هذه المسارح، وأصبحت إدارة الحرب فيها تتطلب قيادة استراتيجية أكثر مما تتطلب من كفاءة عالية على مسرح العمليات، وقد برهنت مسيرة الأعمال القتالية وتطور الفتوحات على صحة هذه الموازنة ودقتها.

وبعد، فكثيراً ما تتم مقارنة قائد أو تشبيه معركة بمعركة أو حرب بحرب، وقد يكون ذلك غير صحيح تماماً. فالقادة نُسج مختلفة لهم مكوناتهم، ولهم ظروفهم، ولهم خصائصهم وطرائقهم وأساليبهم، وكل هذه من المتغيرات التي لا تخضع للقياس الكمي أو التقويم النوعي، حتى لو أنتجت تلك المتغيرات

بعض ملامح التشابه. وتبقى الفوارق المميزة للتباين أكبر بكثير من بعض الملامح المتشابهة. ولكن إذا كان من الصعب مقارنة قائد بقائد أو موازنة معركة بمعركة فليس من الصعب أبداً مقارنة مبدأ بمبدأ أو الموازنة بين قرين وقرين على أساس القيم الواحدة. وتتزايد العملية سهولة عند إجراء المقارنة في إطار وحدة العامل الزمني ووحدة العامل الجغرافي.

ضمن حدود هذا الإطار يمكن مقارنة خالد بالخليفة عمر بن الخطاب ﷺ. فقد كان الرجلان مميزان بخصائصهما القيادية، وكان كل واحد منهما نسيجاً وحده في التاريخ. كان خالد قائداً رائعاً للعمليات، بسرعته في تقدير الموقف الصحيح، وببداهته في اتخاذ القرار المناسب، وبكفاءته العالية في تنظيم المعركة وقيادة القوات وحسم الصراع المسلح.

وكان الخليفة عمر، قائداً استراتيجياً لا نظير له ولا قرين، في تقديره لمجموعة المواقف التي يجابهها على مختلف مسارح العمليات، وفي تحديد الأفضلية المطلقة للأهداف المتتالية، وفي تحقيق التوازن بين متطلبات الجبهات المتباينة على ما بها من تباعد واختلاف.

وكان نجاح خالد رائعاً عندما كانت أساليبه في العمليات متوافقة مع الأساليب الاستراتيجية التي يطبقها الخليفة أبو بكر في إدارة الحرب. ولم يكن نصيب خالد من النجاح مماثلاً عندما تعارضت أساليبه في العمليات مع أساليب الخليفة عمر في إدارة الحرب وتطبيق أسس الاستراتيجية العليا، وليس انتقاصاً من عبقرية خالد إن تعارضت أساليبه مع أساليب أمير المؤمنين عمر، وليس قصوراً في عبقرية عمر إن هو اختلف في طرائقه عن الخليفة «أبو بكر» أو تعارض في سياسته الاستراتيجية مع قائد العمليات خالد.

لقد تغيرت الظروف كثيراً ما بين خلافة «أبو بكر» وخلافة عمر ﷺ، فقد نشأت في عهد أمير المؤمنين عمر جبهات جديدة، واتسعت كثيراً دوائر الصراع المسلح، وظهرت متطلبات جديدة لميادين القتال، وبرهنت النتائج على كفاءة أمير المؤمنين عمر في مجابهة كل المتغيرات.

وتبقى القضة الأساسية في اختلاف عمر مع خالد قضية اختلاف بين السياسة الاستراتيجية وبين العمليات. كان أمير المؤمنين عمر مركزي القيادة، وكان القائد خالد من أنصار حرية العمل المطلقة في مسرح العمليات، وقد يكون ذلك وحده كاف لإبراز ضرورة إخضاع العمليات للسياسة الاستراتيجية، فكان لا بد

من عزل خالد عن العمليات لمصلحة السياسة الاستراتيجية، وكان في ذلك انتصار للذات قبل كل شيء، وانتصار للمبادئ على الأشخاص.

كان أمير المؤمنين عمر ينظر بتقدير كبير إلى «أبو سليمان»، خالد، وكان خالد يحترم ويقدر كفاءة قائده عمر، وبقي التقدير الصحيح هو قناة الاتصال الدائم فيما بينهما. وقضى الاثنان إلى ربهما، وكلاهما يحمل لآخرته ما قدمه للإسلام والمسلمين من أمجاد خالدة حفظها لهما التاريخ وحفظتهما لهما أجيال المسلمين إلى آخر دنيا الإسلام والمسلمين.

خالد وفن الحرب

وبعد..

قد يكون من الصعب تقويم منجزات خالد بن الوليد وما تركه من أثر في فن الحرب. إنه أسطورة الأجيال، وخالد كخلود الأجيال الأوابد. نقرأ سيرته ونعيش حياته فنجد فيها عالماً لا حدود له. وقد تراكمت الأبحاث في سيرة خالد رضي الله عنه حتى كأنه هو الفتح الإسلامي، أو كأن الفتح هو خالد بن الوليد، هذا في حين تعمل بعض الدراسات على تجريد خالد من كفاءاته، وتستمد من بعض تصرفاته الفردية، النادرة، لتتخذ منها وسيلة للطعن والتشكيك.

إن خالد بن الوليد قبل كل شيء إنسان حقيقي له نوازعه وانفعالاته وله طبيعته وتكوينه، فهو إذا ما وقع في خطأ، أو إذا ما ارتكب عملاً لم يألفه العرف، فليس في ذلك ما ينتقص من كفاءته القيادية، لا سيما وإن تلك الأخطاء، حتى في حال الأخذ بها، فإنه يجب إرجاعها إلى ظروفها الزمنية، وعندئذ تتضاءل وتزول، ثم إن سيرة خالد القائد ذات مراحل متباينة: مرحلة البحث عن القيادة في الجاهلية، ومرحلة التعلم من الإسلام تحت قيادة الرسول ﷺ، ومرحلة القيادة في عهد الخليفة «أبو بكر».

ترى هل كان خالد ضربة حظ أصابت المسلمين في عصر فتوحاتهم؟

إن تاريخ فن الحرب يعترف للحظ أو للصدفة بدورهما في اختيار القائد وتكوينه، وقد اعترف أعداء خالد، في عصره، بهذا الحظ عندما قال أكيدر: **«أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحدَّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً، قلوا أو كثروا، إلا انهزموا عنه»**.

لقد أثار خالد الرعب في صفوف أعداء المسلمين، وكان الرعب وسيلة خالد في بعض انتصاراته حتى بات كل من في الشام والعراق يتوقع ظهور خالد في كل مكان وفي كل وقت، ولكن ذلك كله لا يمثل إلا وجهاً واحداً من وجوه خالد القيادية.

هنا لا بد من مقارنة خالد بأقرانه من قادة العرب المسلمين وعندئذ تظهر الحقيقة.

كان أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص ومن أتى بعدهم، أمثال عقبة بن نافع وقتيبة بن مسلم الباهلي وسواهم على مثل كفاءة خالد القيادية، بل كان في صف قادة النسق الثاني من أظهروا كفاءة عالية لم تساعد ظروف الفتح على إبرازها كلها، وهنا قد يكون من حسن حظ خالد أنه مارس قيادته في ظروف معينة أتاحت له إبراز كفاءته القيادية واستخدامها. لم يكن حظ الإسلام بخالد، وإنما كان حظ خالد بالإسلام، وتلك هي الحقيقة، ويعود الفضل في البداية والنهاية إلى الإسلام الذي أتاح للعرب فرصة توحيدهم، والذي حدد لهم واجبهم في الحياة، والذي وضع لهم عقيدتهم القتالية وحدد لهم مبادئ حربهم وأهداف سلمهم. ومن مدرسة الإسلام الواحدة تخرَّج جيل القادة الذين تميزوا بوحدتهم في التفكير وبوحدتهم في أساليب العمل، وليس ذلك فحسب، بل كوَّن الإسلام جيش المجاهدين في سبيل الله تكويناً فريداً مما ضمن لجيل القادة انتصاراتهم، وما النصر إلا من عند الله.

البَابُ الثَالِث

سعد بن أبي وقّاص

(٢٣ ق.هـ ـ ٥٥هـ/٦٠٣ ـ ٦٧٥م)

من أقوال سعد في القادسية

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٧]

نظَّم سعد قوات المسلمين في القادسية، وأمر الناس أن يقرؤوا على الناس سورة الجهاد، وكانوا يتعلَّمونها، ثم قال لهم:

«الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئاً حتى تصلُّوا الظهر، فإذا صلَّيتم الظهر فإني مكبِّر تكبيرةً فكبِّروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَه أحدٌ قبلكم، واعلموا أنَّما أُعطيتموه تأييداً لكم. ثم إذا سمعتم الثانية فكبِّروا، ولتستتمَّ عُدَّتكم، ثم إذا كبَّرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبَّرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوَّكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

* * *

وعندما انتهت معركة القادسية، كتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر رسالةً فيها: «أما بعد؛ فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدَّة لم ير الراؤون مثل زهائها ـ عددها ومقدارها ـ فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه، ونقله عنهم إلى المسلمين. واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج، وأصيبَ من المسلمين سعد بن عبيد القارىء، وفلان، ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دويَّ النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأُسود، ولم يفضُل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم»(٢).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٣/ ٥٣٥. (٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٣/ ٥٨٣.

مقدمة

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٥]

في هذا الباب نعالج أعمال قائد عربي مؤمن مسلم، ارتبط باسمه زوال امبراطورية الفرس، واقترنت شهرته بأكبر المعارك الحاسمة في التاريخ. إنه سعد بن أبي وقاص، أو سعد بن مالك، قائد القادسية وفاتح المدائن، عاصمة الأكاسرة، ولكن قبل البدء في دراسة أعمال هذا القائد قد يكون من الضروري الإشارة إلى نقطة بارزة تظهر من خلال الإجابة على السؤال التالي:

ترى هل نكرِّر ما نكتبه من خلال هذه الأبواب؟

إن مجرد استعراض الفهرس يظهر وحدة المعالجة ووحدة التحليل للقادة جميعاً، ولما قاموا به من أعمال وما حقَّقوه من منجزات في مجالات الاستراتيجية العليا، ومبادىء الحرب، وفن القيادة. والقضية هنا هي في الواقع قضية وحدة المجهر أو المنظار المستخدَم في البحث التاريخي، وهذه تتشابه مع عمل كل باحث يستخدم وسيلة واحدة لفحص عدد من الأجسام أو العيِّنات الموجودة أمامه. ووحدة المجهر لا تؤدي في الحالات جميعاً إلى نتائج واحدة، وإنما تعمل على فرز العيِّنات وتصنيفها في مجموعات وفقاً لطبيعتها ونوعها وخصائصها، وكذلك الأمر هنا حيث يؤدي منهج البحث الواحد إلى نتائج متباينة في ظاهرها متلاحمة في أعماقها. وهكذا، فما أن يتمَّ تجاوز الفهرس، حتى يظهر أن كل كتيِّب ليس مجرد تكرار لما سبقه، وحتى يظهر أيضاً أن وحدة المعالجة والاعتماد على فقرات محددة، إنما هو برهان على وحدة المنظار المكبِّر المستخدَم لدراسة القادة جميعاً. ومن خلال هذا المنظار تبرز مجموعة من المعطيات، أهمُّها:

١ ـ معرفة كيفية تطبيق القادة للمعطيات الاستراتيجية ومبادىء الحرب.

٢ ـ ملاحظة التشابه في منجزات القادة مما يؤدي إلى تأكيد وحدة الفكر العسكري عند قادة العرب المسلمين.

٣ ـ الوصول بذلك إلى نتيجة أكثر وضوحاً وهي أن دعامة هذا الفكر العسكري إنما تكمن في عقيدة القتال عند العرب المسلمين، وهي العقيدة المتلاحمة مع العقيدة الدينية الإسلامية.

٤ ـ إظهار التلاحم بين العقيدة القتالية، وبين كفاءات القيادات العسكرية، وبين ما تميَّز به المجاهدون في سبيل الله من صفات خلقية وروح معنوية وكفاءة جسدية، وبذلك تبرز العقيدة القتالية الإسلامية المتكاملة، والتي تعتمد على أركان ثلاثة: (**العقيدة** الدينية الإسلامية التي بعثت المجتمع العربي بعثاً جديداً وأعدَّت المناخ المناسب لظهور جيل من **القادة** ما عرفت الدنيا لهم مثيلاً مع جيل من **المجاهدين** في سبيل الله لا نظير لهم).

من هنا تتأكد طريقة البحث لتظهر أن العملية ليست عملية تكرار للذات من خلال تكرار الأسلوب المستخدَم في التحليل، بقدر ما هي عملية إبراز لمعطيات واحدة طبِّقت بأساليب مختلفة وفقا لمتطلبات الصراع المسلح، وهذا ما ساعد على تطوير العقيدة القتالية الإسلامية وإنضاجها من خلال التجارب المستمرة مما جعلها حلقة الوصل بين فن الحرب في العصور القديمة وفن الحرب في العصر الحديث، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن التباين في أسلوب التطبيق هو الذي جعل هذه العقيدة صالحة للاستخدام في كل زمان طالما أن الأمر يتعلق بمبادىء ثابتة هي أساس الحروب بالأسلحة التقليدية، بصرف النظر عن نوعية الوسائط وحجم القوى المستخدمة في الصراع المسلَّح.

يمكن العودة بعد ذلك إلى موضوع البحث، وهو عن سعد بن أبي وقاص. وحياة سعد تؤلف نسيجاً فريداً قد لا تتسع لاستيعابه دراسة محددة، وهي إلى ذلك تتجاوز مجال الدراسة العسكرية، رغم اتصالها بها. ومن هنا، فقد كان لا بدَّ من الانتقاء في حدود ما يتصل بهدف الدراسة، من دون إغفال النواحي المختلفة لحياة هذا القائد أو تجاهلها، وبحيث يتحقق التوازن قدر المستطاع.

والله أسأله التوفيق.

الفصل الأول

عموميات

١ ـ سعد بن أبي وقاص.
٢ ـ الجهاد مع الرسول الأعظم.
٣ ـ الموقف على جبهة العراق قبل الفتح.
٤ ـ الأعمال التمهيدية للفتح.
٥ ـ سعد يتولّى القيادة.
٦ ـ سعد في القادسية.
٧ ـ ما بعد القادسية.

عموميات

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
[النساء/ ٧٤]

١ ـ سعد بن أبي وقاص[١]

لم يكن وهو في حانوته ـ بالقرب من البيت العتيق ـ يعرف أنه سيكون واحداً من صانعي التاريخ. لقد نشأ في قريش، سادة العرب وأعزهم، واشتغل في بري السهام وصناعة القسي، وهذا عمل يؤهل صاحبه للائتلاف مع الرمي وحياة الصيد والغزو، ولكنه لم يكن كافياً ليصنع منه قائداً عظيماً، وكان يمضي وقته وهو يخالط شباب قريش وساداتهم، ويتعرف على الدنيا من خلال تعرفه على الحجيج الوافد إلى مكة المكرمة في أيام الحج ومواسمها، المتباينة الأهداف المتنوعة الغايات.

كان في جملة أصدقائه، أو قل في طليعتهم، أبو بكر عبد الله «عتيق بن أبي قحافة»، وهو الذي جاءه في أحد الأيام يدعوه إلى الإسلام، فاستجاب له، وقال عن نفسه: «ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام». وكانت أُمه أول مَن عارض إسلامه، ويذكر ذلك فيقول: «كنت رجلاً برّاً بأُمي، فلما أسلمت قالت: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ لتدعنَّ دينك أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي! فقال لها: لا تفعلي يا أُماه، فإني لا أدع ديني! فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد جهدت، فقلت لها: والله لو كان لك ألف نفس، فخرجتْ نفساً نفساً ما تركت هذا الشيء! فلما رأت ذلك مني، أكلت وشربت، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَإِن

(١) (٢٣ق.هـ ـ ٥٥هـ/ ٦٠٣ ـ ٦٧٥م).

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان/ ١٥]»[١].

ذلك هو سعد بن أبي وقاص، أو ابن مالك، بن وهيب، أو أُهيب، بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، وأُمه حمنة بنت سفيان بن أُمية، بنت عم أبي سفيان بن حرب بن أمية، ولهذا فإن سعداً هو خال رسول الله ﷺ. وقد أسلم سعد وهو ابن سبعة عشر عاماً، أي قبل الهجرة بخمسة أعوام (٦١٩م)، وعاش حياة صدر الإسلام، وقام بجلائل الأعمال وأعظمها، وتوفي في عهد معاوية (عام ٥٥هـ/ ٦٧٥م).

لم تعد حياة سعد ضياعاً في أحاديث التجارة أو اللَّغو، ولم يعد عمله في صنع السهام والقسيِّ من أجل الربح، بل أصبح وجوده كله، وعمله جميعاً موجَّهاً لهدف واحد، هو نصرة الدين، وإعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيله بالمال والنفس والأهل والعشيرة، وتحمُّل المشاق حتى إذا جاءت موقعة بدر الكبرى، فَقَدَ سعد في المعركة أخاه عُمير، الذي ذكره بقوله: «رأيت أخي عمير، قبل أن يعرض رسول الله ﷺ للخروج إلى بدر، يتوارى! فقلت: ما لك يا أخي؟! فقال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة. قال: فعرض رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجَع! فبكى عمير!! فأجازه رسول الله، فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقُتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة»[٢].

مضت أعوام ثلاثة، والمسلمون يعملون في السر والخفاء، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر/ ٩٤]، و﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء/ ٢١٤ ـ ٢١٦]. وفي تلك الفترة كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا إلى الشعاب، فاستخفوا من قومهم. فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب النبيِّ في شعب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليهم نفر من

---

(١) لمزيد من المعرفة يمكن الرجوع إلى فتح الباري بشرح البخاري ٧/ ٦٦، ٦٧، والإصابة ٢/ ٨٣، والبدء والتاريخ ٥/ ٨٤، وأسد الغابة ٢/ ٢٩٢، وجوامع السيرة لابن حزم ٤٥، وطبقات ابن سعد ٤/ ١٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٩.

المشركين وهم يُصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بسوط فشجَّه، **فكان أول دم أُهرق في الإسلام**[1].

ولما أذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة، هاجر إليها سعد من مكة ومعه أخوه عمير بن أبي وقاص، فآخى الرسول بينه وبين مصعب بن عمير. وفي شهر ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص إلى الخرَّار لواءً أبيض يحمله المقداد بن عمرو. **وخرج سعد في عشرين رجلاً على أقدامهم، فكان يكمن بهم في النهار، ويسير في الليل، حتى صبحوا الخرَّار صبح الليلة الخامسة. وكان رسول الله قد عهد إلى سعد ألَّا يجاوز الخرَّار. وكان مع سعد رجالٌ كلهم من المهاجرين**[2]. وبعث رسول الله ﷺ - من مقامه في المدينة - سرية من ستين أو ثمانين راكباً، كلهم من المهاجرين، قيادة عبيدة بن الحارث بن المطلب، ووصلت السرية حتى أحياء، وهو موضع ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرَّة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، **فكان أول سهم رُمي في الإسلام**.

ومضى سعد مجاهداً، صابراً، محتسباً في رحلة العمر الشاقة، والتي يمكن تلخيصها في ثلاث مراحل:

١ - **المرحلة الأولى**: جهاد سعد في حياة الرسول الأعظم.

٢ - **المرحلة الثانية**: جهاد سعد بعد الرسول ﷺ، وحتى نهاية ولايته الثانية على الكوفة في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

٣ - **المرحلة الثالثة**: اعتزال سعد الحياة العامة حتى نهاية رحلة العمر.

وقد يكون من المفيد مطالعة الملامح العامة لحياة سعد من خلال الجدول التالي:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/٣١٨، وسيرة ابن هشام ١/١٦٨، ١٦٩، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٤٠، وفيه: (أريق، عوضاً عن، أُهرق). واللحي: عظم الحنك، وهو من الإنسان العظم الذي تنبت عليه اللحية. وشجَّه: جرحه.

(٢) الطبري ٢/٤٠٣.

جدول رقم (١)

الخطوط العامة في حياة القائد سعد بن أبي وقاص

السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الأحداث
٢٣ ق.هـ	٥٩٩م	ولادة سعد في مكة المكرمة.
٦ ق.هـ	٦١٦م	إسلام سعد منذ بداية ظهور الإسلام
١هـ	٦٢٢م	الهجرة إلى المدينة.
١ ـ ١٠	٦٢٢ ـ ٦٣١م	مع الرسول القائد في معظم غزواته.
١٠ ـ ١٣	٦٣١ ـ ٦٣٤	في مجلس الشورى وعلى صدقات هوازن.
١٤ ـ ٢٠	٦٣٥ ـ ٦٤١	قائد فتح العراق ووالي الكوفة.
٢١ ـ ٢٥	٦٤٢ ـ ٦٤٥	في مجلس الشورى والبيعة لعثمان.
٢٦ ـ ٢٧	٦٤٦ ـ ٦٤٧	في ولاية الكوفة للمرة الثانية.
٣٥	٦٥٥	مقتل عثمان والفتنة، واعتزال سعد.
٤٠	٦٦٠	عام الجماعة والبيعة لمعاوية.
حتى ٥٥	حتى ٦٧٤	في حياة العزلة.
٥٥	٦٧٤	وفاة سعد في العتيق، ودفنه بالبقيع في المدينة المنورة.

جدول رقم (٢)

فتح العراق ـ وتوقيت الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الأحداث
١٠هـ	٦٣١م	وفاة الرسول الأعظم وتولي أبو بكر الخلافة.
١١هـ	٦٣١م	المثنى بن حارثة داعية للإسلام في العراق وقائداً للمسلمين.
١٢هـ	٦٣٣م	توجه خالد بن الوليد إلى العراق وقيادة حربها.
١٣هـ	٦٣٤م	توجه خالد بن الوليد إلى الشام.
١٣هـ	٦٣٤م	العراق بقيادة المثنى و«أبو عبيد الثقفي».
١٣هـ	٦٣٤م	وقعة الجسر ووفاة «أبو عبيد» ثم المثنى.
١٣هـ	٦٣٤م	وقعة اليرموك.
١٣هـ	٦٣٤م	وفاة الصدِّيق وتولي ابن الخطاب الخلافة.
١٤هـ	٦٣٥م	القادسية، وفتح المدائن.
١٥هـ	٦٣٦م	فتح برلس وبابل.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	موجز الأحداث
١٦هـ	٦٣٧م	وقعة جلولاء وفتح تكريت وماسبذان وقرقيساء.
١٧هـ	٦٣٨م	فتح سوق الأهواز ومناذر ونهر يتري وتستر وأرمهرمز والسوس والصلح مع جندي سابور.
١٨ ـ ٢١هـ	٦٣٩ ـ ٦٤٢م	توقف الفتوحات بعد أن استقر الموقف للمسلمين في العراق، واستئناف الفتوح عام ٢١هـ بمعركة فتح الفتوح (نهاوند) والتوغل في بلاد فارس.

٢ ـ الجهاد مع الرسول الأعظم

قاد الرسول الأعظم ﷺ في السنة الثانية للهجرة مائتين من أصحابه، حتى بلغ بُواط، في شهر ربيع الأول، يعترض لعيرات قريش وفيها أُمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، ثم رجع ولم يلقَ كيداً، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص[١]، ثم إن سعداً اشترك في سرية عبد الله بن جحش في السنة الثانية للهجرة. وكان الرسول يعتمده في بعض الأعمال الخاصة، مثل إرساله مع علي بن أبي طالب والزبير بن العوام بمهمة استطلاعية عند ماء بدر. وفي غزوة أُحد، في السنة الثانية للهجرة، وقف سعد دون رسول الله ﷺ، وقال سعد: «لقد رأيته يناولني السهام، ويقول: **(ارمِ فداك أبي وأمي!)** حتى إنه ليناولني السهم ما فيه نصل، فيقول: **(ارمِ به)**». وكان سعد من القلَّة الذين صمدوا في الدفاع عن الرسول وحمايته حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما سمعت رسول الله ﷺ يفدي أحداً بأبويه، إلّا سعداً»[٢]. وفي موقعة أُحد، وصل المشركون إلى الرسول، وهاجمه عتبة بن أبي وقاص، وكسر رباعية رسول الله وشجَّه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل الرسول يمسح الدم عن وجهه، حتى إذا ما بلغ ذلك سعداً، غضب لرسول الله، ونقل عنه قوله: «والله ما حرصت على قتل رجل قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت لسيء الخلق، مبغضاً في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: **(اشتدَّ غضب الله على من دمّى وجه رسول الله)**»[٣]. وعندما عقد صلح الحديبية، في السنة السادسة للهجرة، كان سعد بن أبي وقاص أحد شهود الصلح.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٠٧، والكامل في التاريخ ٢/ ٧٨.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ١٤١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥١٩.

كان سعد حريصاً على الرسول، حتى رُوِي عن أُم المؤمنين قولها: «لما قدم النبيُّ المدينة أرق ـ وجفاه النوم ـ فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني؛ إذ سمعنا صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: أنا سعد. فنام...».

وكان النبي يفاخر بسعد حين يراه، فقد أقبل سعد يوماً، فقال النبيُّ: **(هذا خالي، فلْيُرِني امرؤ خاله)**[1].

كان لسعد مال كثير أوصى بثلثه في سبيل الله، ولذلك قصة[2] تتلخص في أن سعداً أُصيب بمرض بعد فتح مكة، وعاد الرسول لزيارته، فلما دخل على سعد قال: «يا رسول الله! أوصي بمالي كله؟ قال: لا. فقال: فالشطر؟ قال: لا. قال: الثلث؟ قال: **الثلث والثلث كثير. إنك إنْ تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت على أهلك من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى فيِّ امرأتك، وعسى الله أن يرفعك، فينتفع بك قوم ويضر بك آخرون**». وكان سعد أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، كما دعا له الرسول بقوله: **(اللهمَّ استجب لسعد إذا دعاك)**.

٣ ـ الموقف على جبهة العراق قبل الفتح

كان وجه فارس من أكره الوجوه إلى العرب وأثقله عليهم، لشدة سلطان الفرس وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأُمم[3]، ولم يتمكن العرب، رغم انتصارهم في ذي قار، نسيان بطش الفرس، وشدَّة بأس أباطرتهم؛ لا سيما سابور ذي الأكتاف[4] وأخلافه. وكان الفرس يسخدمون العرب، كالمناذرة، مع إعطائهم

---

(١) الإصابة ٣/ ٨٣، وطبقات ابن سعد ٢/ ١٣٧.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ١٤٤، ١٤٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٤٤٤.

(٤) هو: **سابور بن هرمز بن ترسي بن بهرام**، ولقِّبه العرب ذي الأكتاف؛ لأنه أولع بقتل العرب، ونزع أكتاف رؤسائهم حتى يهلكوا، فلقبوه «سابور ذي الأكتاف». وكان قد بدأ حياته بحرب إفناء وإبادة ضد العرب، فسار إلى من استوطن في بلاد فارس، فقتل منهم أبرح قتل، وأسر أعنف أسر، وهرب بقيَّتهم. ثم قطع البحر (الخليج) فورد الخط، واستقرَّ في بلاد البحرين، يقتل أهلها ولا يقبل فداء، ولا يعرج على غنيمة. ثم مضى على وجهه فورد هجر، وبها ناس من عرب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فأفشى فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء سفكاً سالت كسيل المطر، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه منه غارٌ في جبل، ولا جزيرة =

الكيان الذاتي، بهدف تأمين حماية امبراطوريتهم الواسعة، وكان شأنهم في ذلك شأن الروم (البيزنطيين)، الذين كانوا يستخدمون عرب الشام (الغساسنة) للدفاع عن حدودهم، مما كان يدفع هؤلاء وأولئك إلى الاقتتال في كثير من الأحيان لمصلحة الفرس أو الروم، من دون أن يكون لهم مصلحة في ذلك. ولكن رغم هذا التفتت المعنوي، ورغم هذا البطش والإرهاب، فإن جذوة المقاومة العربية لم تخمد في النفوس، ممّا حمل سيدة عربية عجوز على مجابهة سابور ذي الأكتاف، وقد بلغها أن عدد وجوه العرب الذين تمَّ نزع أكتافهم قد بلغ خمسين ألفاً، فقالت هذه السيدة ومعها نسوة من العرب إلى سابور: «أيها الملك، إنْ كنت تطلب ثأراً فقد أدركت وزدت، وإن كنت تعمُّ قبائل العرب بالقتل، فاعلم أن لهذا قصاصاً ولو بعد حين».

وكان الانتقام الأول في ذي قار بعد ثلاثمائة عام، في عام (٦١٠م).

لقد أصبح من الشائع أن الدولة الفارسية كانت في حالة من الضعف والتمزُّق الرهيبين، مما ساعد العرب المسلمين على الإطاحة بهذه الامبراطورية بضربة واحدة، وكانت عوامل التمزق هي:

أ ـ الثورة المزدكية والتمزق الديني: لقد تسببت الثورة الشيوعية، التي حملتها التعليمات المزدكية، في تمزيق وحدة الصف الوطني في فارس، وكانت الحرب الأهلية التي وقعت بين الزردشتية والمزدكية من العوامل الهامة في ضياع تلاحم القوى. وعلى الرغم من القضاء على الثورة الشيوعية الأولى في العالم، عام (٥٣١م)، وإبادة أصحابها، ألا أن عقابيلها بقيت في الأعماق. وكان هناك فاصل كبير بين أجهزة الدولة وبين جماهير الشعب، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك مذاهب أخرى كالمسيحية، الديانة الرسمية للروم، واليهودية، وكلها تحاول دفع الأكاسرة للوقوف إلى جانبها، مما دفع الدولة إلى استنزاف جهدها في النزاعات الداخلية.

= في بحر، ثم عطف على بلاد عبد القيس، فأباد أهلها ـ إلا من هرب منهم ـ فلحق بالرمال، ثم أتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة، ولم يمر بماء من مياه العرب إلا طمَّه (غوَّره) ولا جبٍّ من جبابهم إلا طمَّه، ثم أتى قرب المدينة، فقتل من وجد هنالك من العرب وأسر، ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام، فقتل من وجد بها من العرب، وسبى وطمَّ مياههم. وسابور هذا أو شابور المعروف بالثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩م). تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٥ ـ ٦٢.

ب ـ النزاع على السلطة: كانت آخر السلالات الحاكمة في فارس قبل الإسلام هي أسرة الساسانيين (٢٢٦ ـ ٦٤١م). وكان كسرى الأول أنو شروان، قد ارتقى عرش فارس عام (٥٣١)، وكان عصره أزهى عصور الدولة الساسانية. فقد عُرف عنه العدل والتسامح، حتى قال الرسول الأعظم: (**وُلدت في زمن الملك العادل**). واستطاع كسرى إعادة توحيد المملكة وفرض سيطرته على الأقاليم المختلفة من الامبراطورية الفارسية، ووطَّد مكانة الدولة خارجياً، ودعم الغساسنة باستيلائه على أنطاكية وتدميرها، بالإضافة إلى فرض سيطرته على اليمن. وعندما توفي كسرى عام (٥٧٨م) خلفه هرمز الرابع، وكان كأبيه في عدالته وقوته، إلا أن رواسب التمزق وبذور التفرقة استطاعت أن تنبت ثورة قادها بهرام قائد الجيش الذي نصب نفسه ملكاً، وقد استطاع هرمز استعادة حقوقه، وطرد بهرام الذي هرب إلى بلاك الترك.

جاء كسرى الثاني بعد ذلك، وحاول إعادة السلطة الداخلية، والهيبة الخارجية وطرد هرقل فوكاس الرومي، فجردت بيزنطة جيشاً وصلت به حتى المدائن، فهرب كسرى، ثم قتل بيد نبو ـ هرمز، وخلفه قباذ الثاني الذي حكم ستة أشهر.

خلف قباذ الثاني ابنه أردشير الثالث، وتعاون الروم مع العرب وأهل البلاد، فقُتل الملك الصغير أردشير الثالث ولم يمض على ملكه أكثر من سنة ونصف، وتم تنصيب القائد العسكري شهربراز ملكاً على فارس. ثم بويع كسرى الثالث، ابن الامبراطور قباذ شقيق كسرى الثاني، ملكاً على القسم الشرقي من الدولة، إلا أن حاكم خراسان قتله. وتولت بوران ابنة كسرى برويز أُمور المملكة، إلا أنها توفيت بعد سنة وأربعة أشهر، بعد أن أعادت الصليب الذي صُلب عليه السيد المسيح إلى بيت المقدس، في (١٤) أيلول/ سبتمبر (٦٢٩م)، وهو العيد الذي يحتفل به المسيحيون ويعرفونه باسم عيد الصليب.

استولت آزرميدخت على السلطة بعد شقيقتها بوران، فأقدم رستم ـ أحد قادة الجيش ـ على احتلال المدائن، وقتل الملكة. وتعاقب بعد ذلك على حكم فارس عشرة ملوك وملكات خلال فترة أربعة أعوام. وأخيراً تمَّ اختيار يزدجرد ابن الأمير شهريار ملكاً في محاولة لتوحيد المملكة الممزقة، وأعلن تتويجه عام (٦٣٢م)، عام وفاة الرسول الأعظم، واتحدت المملكة تحت حكم يزدجرد الثالث آخر ملوك الدولة الساسانية.

جـ ـ الحروب الخارجية: كان الصراع بين الامبراطوريتين العظميين (الفرس والروم) صراعاً مستمراً، ومن المعروف أن الفرس قد انتصروا على الروم في تواقت واحد مع غزوة بدر الكبرى، في السنة الثانية للهجرة، ونزلت الآية الكريمة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم/١ ـ ٥]. وقد استنزفت هذه الحروب قوة الامبراطوريتين، وزاد الأمر سوءاً وصول الروم بعد ذلك إلى عاصمة الفرس مما أزال هيبة السلطة، وترك الفرصة أمام حكام الأقاليم للاستقلال الذاتي عن الامبراطورية.

وعلاوة على ذلك، فإن الحروب ضد الغزاة البرابرة على شرقي إيران والحروب ضد الهياطلة وضد الترك من الشمال، قد ضاعفت من ضعف الدولة وانحطاطها، كما أن الحروب ضد العرب وتذمر العرب من سيطرة الفرس أفقدهم حليفاً قوياً.

ونتيجة لهذه العوامل أصبحت دولة الفرس أضعف من الصمود أمام الريح العاصفة التي أخذت تتجمع فوق رمال الجزيرة لتنطلق من قلبها قوية عاتية، لا يقدر أحد على مقاومتها.

لقد كانت هذه العوامل كافية لإضعاف الامبراطورية الفارسية، ولكن ما هو مستوى الضعف الذي وصلته هذه الامبراطورية؟ وما هي قدرتها الدفاعية؟ ثم ما هو حجم القوة التي تستطيع الإفادة من نقاط الضعف واستثمارها لتحقيق النصر؟ ثم هل كان الصراع لإزالة الامبراطورية العظيمة مجرد ضربة واحدة؟... قد يكون من السابق لأوانه الإجابة على هذه التساؤلات كلها، من دون مطالعة سيرة الفتوح بكاملها، قبل معركة القادسية الحاسمة وبعدها.

٤ ـ الأعمال التمهيدية للفتح

كان المثنى بن حارثة الشيباني داعية الإسلام في قبائل شيبان منذ أيام الرسول الأعظم ﷺ، وعندما ارتدت القبائل العربية، ثبت المثنى على الإسلام[1]،

---

(١) هو شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب، من أصل عدناني، وفرع من قبيلة بكر بن وائل، وكان بنو شيبان من زعماء (هامات) ربيعة. وفد على النبي ﷺ مع من وفد مِن قومه وأسلم في السنة التاسعة للهجرة. وعندما بلغ أبو بكر ما يفعله المثنى سأل عنه فأجيب: «هذا رجل غير خامل =

وكتب له العلاء بن الحضرمي، داعية الإسلام في البحرين، يستنصره على قبيلة ربيعة، وأسرع المثنى مع قبيلته بكر بن وائل، ونجح المثنى في قهر المرتدين، ثم تابع تقدُّمه شمالاً على امتداد ساحل الخليج العربي، وذلك بهدف عزل المنطقة عن تدخل الفرس، الذين استمروا في الكيد للمسلمين والتحريض عليهم. ومضى المثنَّى في تقدُّمه حتى وصل عاصمة البحرين وأعظم مدنها القطيف، ثم تقدم حتى مصبِّ دجلة والفرات. وأخذت ردود فعل الفرس في التعاظم، فاستمد المثنى الخليفة الذي وجه إليه خالد بن الوليد وعياض بن غنم. وكانت (الأيام) التي تميَّزت باستنزاف قوة الفرس على مراحل متتابعة، وتوسيع دوائر نفوذ العرب المسلمين، وإكساب العرب الثقة بأنفسهم وبقدرتهم على تحدي الفرس ومجابهتهم.

بدأ خالد بن الوليد حربه عام (١٢هـ/ ٦٣٣م)، بعقد صلح مع بانقيا وأليس وباروس، ثم توجه إلى الأبلة، حيث حدثت معركة ذات السلاسل التي هزم فيها هرمز قائد الفرس الذي اشتدَّ بأسه حتى كان مضرب الأمثال عند العرب، فيقولون: «أكفر من هرمز وأخبث من هرمز». وجاءت بعد ذلك معركة المذار، حيث أُبيد للفرس (٣٠) ألف مقاتل، وتلتها معركة الولجة، فهزمت قوات الفرس ودمِّرت تدميراً كاملاً تقريباً.

وجاءت معركة أليس على الفرات لتحمل للفرس مزيداً من الهزائم، حيث قتل للفرس أو أسر قوة (٧٠) ألف مقاتل، وحتى قال خالد بن الوليد: «ما لقيت قوماً كقوم من أهل فارس، وما لقيت من أهل فارس قوماً كقوم أليس». ثم حدثت معركة المقر، (أو فم فرات بادقلي)، ثم موقعه الأنبار (ذات العيون)،

= الذِّكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنّى بن حارثة الشيباني». ثم إن المثنّى توجه إلى المدينة وقابل الخليفة، وقال له: «يا خليفة رسول الله! استعملني على قومي، فإن فيهم إسلاماً، أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو»، فكتب له أبو بكر عهداً. ثم إن الفرس جمعوا جموعهم، فأرسل المثنّى أخاه مسعوداً يستمد الخليفة، وكانت حروب الردَّة قد انتهت بانتصار المسلمين، وفرغ خالد بن الوليد من اليمامة، فكتب إليه أبو بكر: «إن الله فتح عليك فعارق حتى تلقى عياضاً». وكتب إلى عياض بن غنم، وهو بين النباج والحجاز: «أن سِرْ حتى تأتي المصيخ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالداً، وأُذن لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكارهٍ». كما كتب إليهما: «استغفرا من قاتل أهل الردَّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزونَّ معكم أحد ارتدَّ حتى أرى رأيي»، فلم يشهد الأيام مرتدٌّ. الطبري ٣/ أحداث سنة (١٢هـ)، ص٣٤٦ و٣٤٧.

وموقعة عين التمر، ويوم دومة الجندل ويوم حصيد، والخنافس والمصيخ والثني والزمل ويوم الفراض.

ومضى عام ونيف، وخالد ينتزع نصراً بعد نصر، ويحقق المسلمون مزيداً من الجرأة في مجابهة الفرس، مما أكسب العرب ـ المناذرة ـ وقبائل تميم وبني وائل وغيرهم الثقة، فأخذوا في الانحياز إلى أبناء عمومتهم من العرب المسلمين. ومقابل ذلك، استمرت قبائل أخرى، مثل بني عجل وتيم اللاتِ وضبيعة وعرب الضاحية في مناصرة الفرس ودعمهم والقتال إلى جانبهم.

ولكن مهما كان عليه الموقف، فقد استطاعت هذه (الأيام)[1] إزالة بعض الهيبة الفارسية من نفوس العرب المسلمين، وزادت من قدرتهم، وأخذ نفوذ الفرس في التراجع إلى ما وراء نهري دجلة والفرات في تلك الفترة. وكانت الأمور تتطور بصورة خطيرة على مسرح عمليات الشام، حيث جمع الروم جموعهم، وأعطى الخليفة أبو بكر الأهمية الأولى لمسرح عمليات الشام، ووجَّه خالد بنصف القوة إلى الشام، وبقيت نصف القوة مع المثنى بن حارثة الشيباني، الذي تابع أعماله القتالية ضد الفرس. ثم إن شهربراز بن أردشير وجه رسالة إلى المثنى يستثيره، كما وجه إليه جيشاً من (١٠) آلاف مقاتل ومعهم فيلة، فكانت معركة باب بابل[2] التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً.

ولكن الموقف لم يلبث أن تطور عندما قرَّر الفرس إرسال مزيد من القوات، مما حمل المثنى على التوجه إلى المدينة، وشرح الموقف للخليفة «أبو بكر» رضي الله عنه الذي كان يعاني سكرات الموت[3]، ثم عاد المثنى لمتابعة عملياته، ولحق به

---

(١) لمطالعة المزيد عن هذه الأيام، يمكن الرجوع إلى كتاب: فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، للمؤلف، ٢٥٦ ـ ٢٧٩، وتاريخ ابن خلدون ـ المجلد الثاني ٨٨٧ ـ ٨٩٦، وتاريخ الأمم والملوك، والتاريخ الكامل لابن الأثير، أحداث سنة (١٢هـ).

(٢) كتب شهربراز إلى المثنى الرسالة التالية: «إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم». فأجابه المثنى: «من المثنّى إلى شهربراز، إنما أنت أحد رجلين: إما باغ، فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا؛ وإما كاذب، فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس المُلوك. وأما الذي يدلنا عليه الرأي، فإنكم إنما اضطررتم إليهم. فالحمد لله الذي ردَّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير». تاريخ الطبري ٣/ ٤١٢.

(٣) عندما وصل المثنى إلى المدينة وأخبره الخليفة أبو بكر الخبر، قال: عليَّ بعمر، فجاء فقال له: «اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به. إني لأرجو أن أموت من يومي هذا... فإن أنا متُّ فلا تمسينَّ حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنَّكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، =

الدعم. وأصبح أبو عبيد على حرب الفرس يعاونه المثنى. وحدثت بين الفرس والعرب المسلمين وقائع أخرى كان النصر فيها للمسلمين أبرزها يوم النمارق، ويوم السقاطية بكسكر حتى حدثت وقعة القرقس[1]، وفيها هُزم المسلمون وقُتل

= ووصيَّة ربكم، وقد رأيتني متوفّى رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله، وبالله لو أنّي أني عن أمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا، فاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أُمراء الشام، فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وأهل الضراوة منهم والجرأة عليهم». تاريخ الطبري ٣/ ٤١٤.

وكان أول ما عمل به عمر أن ندب الناس مع المثنّى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ﷺ، ثم أصبح فبايع الناس، وعاد فندب الناس إلى فارس. وتتابع الناس على البيعة، ففرغوا في ثلاث، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس... فلما كان اليوم الرابع؛ عاد فندب الناس إلى العراق... وتكلم المثنى بن حارثة، فقال: «يا أيها الناس! لا يعظمنَّ عليكم هذ الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شقي السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها». وقام عمر رَحِمَهُ اللَّهُ في الناس، فقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين الطُّراء المهاجرون عن موعود الله! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، والله مُظهر دينه، ومعزُّ ناصره، ومولي أهله مواريث الأُمم. أين عباد الله الصالحون! فكان أولَ منتدب أبو عبيد بن مسعود، ثم سعد بن عبيد أو سليط بن قيس، فولَّى «أبو عبيد» على حرب العراق، وأوصاه. تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٥، ٤٤٦.

(١) ويقال لها: القس، قس الناطف. ويقال لها: الجسر، ويقال لها: المروحة. وخبر الوقعة أن رستم وجَّه بهمن جاذويه؛ لأنه أشدُّ العجم، على العرب، وسلَّمه راية كسرى (درفش كابيان) التي كانوا يزعمون أنه لا يُهزم جيش يحملها، وجهَّزه بالفيلة. وتوجه بهمن جاذويه حتى التقى بالمسلمين عند قسِّ الناطف، وكان المسلمون قد نزلوا بالمروحة، وأصبح الفرات يفصل بين المسلمين وأعدائهم. واقترح بهمن على أبو عبيد الانتقال أو السماح لهم بالعبور، ورفض المسلمون ـ أكثرهم ـ العبور على أساس أن ميدان المعركة ضيق المطرد، لا يصلح لقتال الفرسان؛ لكن «أبو عبيد» أصرَّ على العبور، حتى لا يقول الفرس أنهم جبنوا عن اللقاء. ودارت معركة طاحنة، كاد النصر أن يتم للمسلمين، إلا أن فيلاً وقع على «أبو عبيد»، فاضطربت المعركة وانتهت بكارثة، حيث لقي كثير من المسلمين مصرعهم في النهر، وحمى المثنى الناس حتى عبروا، وخسر المسلمون أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان وصلوا إلى المدينة، وبقي مع المثنّى ثلاثة آلاف. وكان وقع الهزيمة ثقيلاً على المسلمين، وأخذ أهل المدينة في تقريع الهاربين وإسماعهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال/ ١٦]. فوقف أمير المؤمنين عمر ﷺ على المنبر خطيباً، وقال: «عباد الله! اللهمَّ إن كل مسلم في حلٍّ مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد، لو كان عبر فاعتصم بالخيف، أو تحيَّز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة». الطبري ٣/ ٤٥٥. =

أبو عبيد وجُرح المثنى جراحاً بالغة، ورغم ذلك فقد استمر في قيادة المسلمين، فأغار على أليس الصغرى، وقاد معركة البويب وانتصر فيها، ثم قاد معركة الخنافس، وما لبث بعدها أن مات متأثراً بجراحه وترك وصية لخلفه[1].

٥ ـ سعد يتولى القيادة

أجمع الفرس أمرهم، وأعادوا تنظيم قواتهم، وأخذوا في الاتصال بأنصارهم من العرب. وتمرد العرب، أي: كفروا، سواء من كان له منهم عهد، أو من لم يكن له منهم عهد. وعمل المثنى بن حارثة على سحب قواته والتراجع حتى نزل بذي قار. ونزل الناس بالطفِّ في عسكر واحد، وتوزعت قوات جرير بن عبد الله، ونظمت هذه القوات الاتصال فيما بينها لمجابهة المواقف المختلفة. وأرسل المثنى إلى الخليفة عمر يُعلمه بتطورات الموقف، وكان ردُّ الخليفة عمر أن أرسَلَ إلى الأقاليم رسائل فيها: «لا تدعوا أحداً له سلاح، أو فرس، أو نجدة، أو رأي إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إليَّ، والعَجَل العَجَل!»[2]. وكانت معركة اليرموك قد انتهت، فكتب إلى «أبو عبيدة بن الجراح» يطلب إليه إعادة جند العراق إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو التميمي، وبدأت قوافل المجاهدين في الوصول من اليمن وأطراف الجزيرة. وفي اليوم الأول من محرم سنة (١٤هـ) غادر الخليفة عمر المدينة، وتوجه إلى صرار، بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وكان الناس يجهلون ما يعتزم الخليفة أن يفعله. وفي صرار أعلن الخليفة عن هدفه، وهو قيادة الجيوش بنفسه لفتح العراق وقتال الفرس. وتصدى كبار الصحابة للموقف، وبصورة خاصة

= وأخذ عمر في الإعداد لتوجيه حملة جديدة ضد الفرس، ووجَّه رسالة إلى المثنّى فيها: «أما بعد، فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه. احملوا العرب على الجدِّ، إذا جدَّ العجم، فتلقوا جدهم بجِدِّكم».

(١) طلب المثنى في رسالته إلى سعد: ألَّا يقاتل عدوَّه وعدوهم ـ يعني: المسلمين ـ من أهل فارس؛ إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم، وأن يقاتلوهم على حدود أرضهم، على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم، إلى أن يردَّ الله الكرَّةَ عليهم. الطبري ٣/ ٤٩٠.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٧٨.

عبد الرحمٰن بن عوف، حيث أصرّوا على ضرورة بقاء أمير المؤمنين في المدينة، وتعيين قائد لقتال الفرس. كان سعد بن أبي وقاص في تلك الفترة على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر، فيمن كتب إليه، بانتخاب ذوي الرأي والنجدة ممن كان له سلاح أو فرس، فجاءه كتاب من سعد مع قوة أرسلها إليه[1]، وكان أمير المؤمنين يبحث عمَّن يوليه قتال الفرس، وتوافق وصول رسالة سعد مع استشارة الناس، فقالوا: **قد وجدته، قال: فمن؟... قالوا: الأسد عادياً. قال: من؟ قالوا: سعد. فانتهى إلى قولهم فأرسل إليه، وأصبح الأسد عادياً على حرب العراق**[2].

ومضى سعد إلى زرود ليجعل منها منطقة حشد لقواته، ومعه أربعة آلاف مقاتل؛ ثلاثة آلاف من اليمن وألف من بقية القبائل. وتابع أمير المؤمنين عمر حشد القوات، والوفاء لقسمه: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب. فلم يدعْ رئيساً، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سِطة، ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس، وغررهم. وانتخب من بني تميم والربيب أربعة آلاف، أمد سعداً بهم في زرود، فبلغ ما عنده ثمانية آلاف. كما انتخب عمر ثلاثة آلاف من بني أسد وأمرهم أن ينزلوا على حدِّ أرضهم، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبي وقاص في زرود وبين المثنى بن حارثة في ذي قار، وكان مع المثنى ثمانية آلاف. ثم استمر تدفق القوات حتى أصبح مجموع القوات زهاء ثلاثين ألفاً، ممن اشتركوا في معركة القادسية[3].

---

(١) كان في رسالة سعد: «إني قد انتخبت لك ألف فارس مُؤْدٍّ (كامل السلاح) كلهم له نجدة ورأي، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم، فشأنك بهم». الطبري ٣/ ٤٨٢.

(٢) عندما عيَّن أمير المؤمنين عمر القائد سعد لحرب الفرس، أوصاه: «يا سعد! سعد بني وُهيب، لا يغرنَّك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول ﷺ، فإن الله ﷻ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء .الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبيَّ ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمْهُ، فانْهِ الأمر. هذه عِظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها؛ حبطَ عملك وكنت من الخاسرين». الطبري ٣/ ٤٨٣.

(٣) تابع أمير المؤمنين حشد القوات، وكان منها قبيلة النخع، وأراد عمر توجيههم جميعاً إلى العراق، فأبوا إلا الشام، وأبى إلا العراق، فسمح لنصفهم، فأمضاهم إلى العراق، وأمضى =

وصل سعد إلى زرود في أوائل فصل الشتاء، وأرسل قوة من خمسمائة فارس لتعمل كقوة متقدمة تضمن حماية قواته[1]، ثم انتقل إلى شراف حيث وصلته رسالة من أمير المؤمنين لتنظيم القوات تنظيماً جديداً، كان أول تنظيم في الإسلام[2]. وفي شراف انضم إليه المعنّى، أخو المثنى الذي كان قد توفي متأثراً من جراحه في معركة الجسر[3]، فأحسن سعد إلى المعنّى، وتزوج من سلمى بنت خصفة التيمية، زوجة المثنى. وعندما أنهى سعد استعداداته، كان الشتاء قد مضى، وأخذ في انتظار أوامر عمر.

كتب أمير المؤمنين إلى سعد يأمره بمغادرة شراف، وفي رسالة: «إذا كان يوم كذا وكذا، فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس، وشرِّقْ بالناس، وغرِّبْ بهم»[4]، فأخذ سعد في تعيين حاملي الرايات

= النصف الآخر نحو الشام. وكان في جملة القوات التي مرَّت بأمير المؤمنين؛ قوات من اليمن فيهم السَّكون مع أول كندة مع حصين بن نمير السكوني ومعاوية بن حديج، فاعترضهم، فإذا فيهم فتية دُلم (طوال) سباط، فأعرض عنهم أمير المؤمنين، ثم أعرض، ثم أعرض، حتى قيل: ما لك ولهؤلاء؟ قال: إني عنهم لمتردِّد، وما مرَّ بي قومٌ من العرب أكره إليَّ منهم. ثم أمضاهم، فكان بعد يكثر أن يتذكرهم بالكراهية. وتعجب الناس من رأي عمر، وكان منهم رجل يقال له سودان بن حمران، قتل عثمان بن عفان ﷺ، وإذا منهم حليف لهم يقال له خالد بن مُلجم (أو عبد الرحمٰن) ـ كما جاء في ابن الأثير ٣/ ١٩٤ـ هو الذي قتل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وإذا منهم معاوية بن حديج، فنهض في قوم منهم يتبع قتلة عثمان يقتلهم، وإذا منهم قوم يقرُّون قتلة عثمان. الطبري ٣/ ٤٨٤ و٤٨٦، وابن الأثير ٢/ ٣١٠.

(١) كان ذلك تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين، وفيه: «ابعث إلى فرج الهند رجلاً ترضاه يكون بحياله، ويكون ردءاً لك من شيء إن أتاك من تلك التُّخوم».

(٢) كان نص رسالة أمير المؤمنين: «إذا جاءك كتابي هذا، فعشِّر الناس وعرِّف عليهم، وأمِّرْ على أجنادهم، وعبِّهم، ومُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهودهم، ثم وجِّههم إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم». الطبري ٣/ ٤٨٨، وابن الأثير ٢/ ٣١١.

(٣) كان المثنّى قد استطاع تحطيم هيبة الفرس، وكان من أقواله: «قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدَّ عليَّ من ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد عليَّ من ألف من العجم؛ إن الله أذهب مصدوقتهم، ووهن كيدهم؛ فلا يروعنَّكم زُهاء (عدد) ترونه، ولا سواد ولا قسي فُج، ولا نبال طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها، كالبهائم أينما وجَّهتموها اتجهت». الطبري ٣/ ٤٦٨.

(٤) يذكر ابن خلدون: سراف عوضاً عن شراف. تاريخ ابن خلدون ٢/ ٩١٦.
وكان في رسالة أمير المؤمنين: «أما بعد، فسِرْ من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله، واستعن به على أمرك كله، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أُمة عددهم كثير، =

من أهل السابقة، وعشَّر الناس، وأمَّر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام، وولى الحروب رجالاً، فولَّى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها، فلم يفصل إلا على تعبية[1].

كانت عذيب الهجانات من المسالح التي أخلاها الفرس، ولكنهم بعثوا إليها من يتجسس أخبار المسلمين، واستطاع قائد المقدمة زهرة بن الحوية اللحاق بالجاسوس وقتله[2]، ونظم سعد الإغارات إلى أسفل الفرات كما وزع عناصر

= وعدَّتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع ـ وإن كان سهلاً ـ لؤود بحوره وفيوضه ودآدئه، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض، وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم، فابدؤوهم الشدَّ والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يخدعنَّكم، فإنهم خدعة مكرة، أمرهم غير أمركم، إلا أن تجادوهم. وإذا انتهيت إلى القادسية ـ والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، ولما يريدونه من تلك الأصُل، وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر، وأنهار ممتنعة ـ فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع بينهما. ثم الزم مكانك، فلا تبرحْه، فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم، وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوِّكم، واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوت أن تُنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا، وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى، كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبَن وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويرد لكم الكرة». تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠، ٤٩١.

(١) كان الخليفة أبو بكر قد رفض الاستعانة بالمرتدين، وإشراكهم بشرف الفتح؛ استصغاراً لهم، وجاء أمير المؤمنين عمر، فاستنفرهم ولكنه لم يولِّ أحداً منهم، ولم يسند إليهم مراكز قيادية، وكان في جيش سعد بضعة وسبعون بدرياً، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة، فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب. وقد عمل سعد على تعيين أشراف العرب وفرسانهم للقيادات، فكان على المقدمات زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية، واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكندي، كما جعل خليفته خالد بن عرفطة، وجعل عاصم بن عمرو التميمي ثم العُمري على الساقة (المؤخرة)، أما الطلائع، فتولى قيادتها سواد بن مالك التميمي، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة، وعلى الرجل (المشاة) حمَّال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان (الفرسان) عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي. الطبري ٣/ ٤٨٧ ـ ٤٨٩.

(٢) تشير هذه الحادثة إلى الاستعدادات الأمنية الجيدة للفرس، وقد وردت قصتها في المراجع العربية على النحو التالي: «قدمنا سعد من شراف، فنزلنا بعذيب الهجانات ثم ارتحل، فلما نزل علينا بعذيب الهجانات، وذلك في وجه الصبح؛ خرج زُهرة بن الحوية في المقدمات، فلما رُفع لنا العذيب، وكان من مسالحهم، أو مخافرهم المتقدمة، استبنا على بروجه ناساً، فما نشاء =

الاستطلاع إلى الحيرة وصلوبا، فعلم أن الفرس قد أسندوا إلى الفرخذاذ الأرمني قيادة الحرب ضد العرب المسلمين، وقد استطاعت أعمال الإغارات والاستطلاع أن تحقق واجباتها بنجاح[1]. ثم استأنف سعد التحرك بجيشه إلى القادسية، بعد أن اتخذ تدابير الأمن الضرورية، وبعد أن نظَّم التحرك مع الاستعداد للقتال، التحرك على تعبئة أو التحرك للقتال.

نزل سعد بمنطقة قديس من القادسية، ونزل زهرة بن الحوية بحيال قنطرة العتيق، وأقام بها شهراً ثم كتب إلى أمير المؤمنين: «لم يوجه القوم إلينا أحداً، ولم يسندوا حرباً إلى أحد علمناه، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به، وأستنصر الله، فإنا بمنحاة دنيا عريضة؛ دونها بأس شديد، قد تقدم إلينا في الدعاء إليهم، فقال: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح/١٦]، فلم يلبث أن جاءه ردُّ أمير المؤمنين، وفيه: «. . . اكتب إليَّ أين بلغك جمعهم، ومن رأسهم الذي يلي

= أن نرى على برج من بروجه رجلاً، أو بين شرفتين إلّا رأيناه. وكنا في سرعان الخيل ـ أوائلها ـ فأمسكنا حتى تلاحق بنا كثف (جماعة) ونحن نرى أن فيها خيلاً، ثم أقدمنا على العذيب، فلما دنونا منه؛ خرج رجل يركض نحو القادسية، فانتهينا إليه، فدخلناه، فإذا ليس فيه أحد، وإذا ذلك الرجل هو الذي كان يتراءى لنا على البروج، وهو بين الشرف، مكيدة، ثم انطلق بخبرنا، فطلبناه فأعجزنا، وسمع بذلك زُهرة فاتَّبعنا، فلحق بنا وخَلَفنا واتبعه، وقال: «إن أفلت الربيء أتاهم الخبر»، فلحقه بالخندق فقتله. وكان أهل القادسية يتعجبون من شجاعة ذلك الرجل ومن علمه بالحرب، لم يُرَ عين قوم ـ جاسوس ـ قط أثبت ولا أربط جأشاً من ذلك الفارسي، ولولا بعد غايته لم يلحق به، ولم يصبه زهرة، ووجد المسلمون في العذيب رماحاً ونشاباً وأسفاطاً من جلود وغيرها انتفع بها المسلمون».

(١) ما أن وصل المسلمون إلى العذيب، حتى بثَّ سعد الغارات وسرَّحهم في جوف الليل، وأمرهم بالغارة على الحيرة، وأمَّر عليهم بكير بن عبد الله الليثي، وكان فيها الشماخ الشاعر القيسي، في ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس، فسروا حتى جازوا السيلحين، وقطعوا جسرها يريدون الحيرة، فسمعوا جلبة وأزفة، فأحجموا عن الإقدام، وأقاموا كميناً حتى يتبيَّنوا، فما زالوا كذلك حتى جازوا بهم، فإذا خيول تقدم تلك الغوغاء، فتركوها فنفذت الطريق إلى الصنين، وإذا هم لم يشعروا بهم، وإنما ينتظرون ذلك العين، وإذا أخت آزاذ مَرْد بن أزاذبه، مرزبان الحيرة، تزف إلى صاحب الصنين، وكان من أشراف العجم، فسار معها من يبلغها مخافة ما هو دون الذي لقوا، فلما انقطعت الخيل عن الزواف، والمسلمون كمين في النخل، وجازت بهم الأثقال؛ حمل بكير على شيرزاذ بن أزاذبه، وهو بينها وبين الخيل، فقصم صلبه، وطارت الخيول على وجوهها، وأخذوا الأثقال وابنة آزاذبه في ثلاثين امرأة من الدهاقين، ومائة من التوابع، ومعهم ما لا يُدرى قيمته من عاج، واستاق ذلك، فصبح سعداً بعذيب الهجانات بما أفاء الله على المسلمين، فكبَّروا تكبيرة شديدة، فقال سعد: «أقسم بالله لقد كبَّرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزَّ». تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٣ ـ ٤٩٤.

مصادمتكم، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلّة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقرَّ عليه أمر عدوكم، فصِفْ لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفةً كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجليَّة، وخفْ الله وأرْجه، ولا تُدْلِ بشيء، واعلم أن الله قد وعدكم، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر أن تصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم».

فكتب إليه سعد ردَّه على هذه الرسالة: «إن القادسية بين الخندق والعتيق، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين، فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحُضوض؛ يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة. وإن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيضٌ من فيوض مياههم. وإنَّ جميع مَنْ صالح المسلمين مِن أهل السواد قبلي إلبٌ لأهل فارس، قد خفوا لهم، واستعدوا لنا، وإن الذي أعدّوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم، فهم يحاولون إنغاضنا (استثارتنا) وإقحامنا، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم؛ وأمر الله بعدُ ماضٍ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا، فنسأل الله خير القضاء، وخير القدر في عافية».

فكتب إليه عمر: «قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوَّك. واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم، فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإن خرابها إن شاء الله»[1]. وكتب عمر بعد ذلك إلى سعد يحذِّره من الغدر ويوصيه بالوفاء[2]، كما طلب إليه الاتصال بالفرس ودعوتهم إلى الإسلام قبل الحرب. وفي تلك الفترة كان رستم قد قاد جيوش الفرس ونزل بمنطقة ساباط المجاورة للقادسية، وأخذ جنود الفرس في السخرية

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩١، ٤٩٢.

(٢) وكان في الرسالة: «إني قد أُلقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو، هزمتموهم، فاطرحوا الشك، وآثروا التقية عليه، فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه ـ أي: رماه واتَّهمه ـ بإشارة أو بلسان، فكان لا يدري الأعجمي ما كلَّمه به، وكان عندهم أماناً، فأجروا ذلك له مجرى الأمان. وإياكم والضحك، والوفاء الوفاء! فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوِّكم، وذهاب ريحكم، وإقبال ريحهم. واعلموا أني أحذِّركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم... ولا يكربنك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة والرأي والجَلَد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم، واكتب إليَّ في كل يوم». تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٢ و٤٩٥.

من العرب المسلمين واستثارتهم، فكانوا يقولون لهم: «لا يدي لكم ـ أي: لا حول ولا قوة ـ وليس لديكم سلاح، ما جاء بكم؟ ارجعوا»، وكانوا يضحكون من نبل العرب المسلمين، ويقولون عنها: دوك، دوك، ويشبهونها بالمغازل».

شكل سعد وفداً لمفاوضة رستم بقيادة المغيرة بن شعبة، وعرض عليه واحدة من ثلاث: الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب[1]. وكانت مفاوضات طويلة أظهر العرب المسلمون فيها عناداً كبيراً وتصميماً رائعاً، ورفضوا الخضوع للحرب النفسية التي حاول الفرس إرهابهم بها.

اتبع سعد ما هو معروف باسم الأرض المحروقة، والتعايش مع البيئة والوسط المحيط. ومن أجل تأمين المواد التموينية لقوات العرب المسلمين، فكان ينظم الإغارات باستمرار لتأمين الأغذية والإطعام والمتطلبات الأساسية[2]. وعجَّ أهل

---

(١) ضمَّ الوفد النعمان بن مقرن، وبُسر بن أبي رهم، وحَمَلة بن جوية الكناني، وحنظلة بن الربيع التميمي، وفُرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن زُرارة بن النباش بن حبيب، وعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معْديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنّى بن حارثة. وذكر أحد الأسرى الذين أسلموا بعد معركة القادسية، وكان قد حضر اليوم الذي قدم فيه وفود العرب، أنه «لم ير عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم، وخيلهم تخبط، ويوعد بعضها بعضاً. وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم». الطبري ٣/ ٤٩٦ و٤٩٨.

(٢) ما أن نزل المسلمون في القادسية «حتى أخذوا في الإغارة على السواد، فانتسفوا ما حولهم، فحووه وأعدوا للمطاولة، وعلى ذلك جاؤوا، أو يفتح الله عليهم... حتى قال أهل السواد: «ذهب القوم بمفاتيح أرضنا». وأغار المسلمون يوماً... إلى أن جاؤوا إلى صيادين قد اصطادوا سمكاً، وسار سواد بن مالك التميمي إلى النجاف والفراض إلى جنبها، فاستاق ثلاثمائة دابة من بين بغل وحمار وثور، فأوقروها (حمَّلوها) سمكاً، واستاقوها، فصبحوا العسكر، فقسم السَّمك بين الناس سعد، وقسم الدواب. ونفل الخُمس إلا ما رُدَّ على المجاهدين منه، وأسهم على السَّبي، وهذا يوم الحيتان. وقد كان الآزاذ مرد بن الآزاذبه خرج في الطلب، فعطف عليه سواد وفوارس معه، فقاتلهم على قنطرة السيلحين، حتى عرفوا أن الغنيمة قد نجت، ثم اتبعوها فأبلغوها المسلمين، وكانوا إنما يقومون إلى اللحم، فأما الحنطة والشعير والتمر والحبوب، فكانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا زماناً، فكانت السرايا إنما تسري للحوم، ويسمون أيامها بها، ومن أيام اللحم يومُ الأباقر ويوم الحيتان. وبعث مالك بن ربيعة بن خالد التيمي؛ تيم الرباب، ثم الوائلي ومعه المساور بن النعمان التيمي، ثم الربيعي في سرية أخرى، فأغارا على الفيوم، فأصابا إبلاً لبني تغلب والنمر فشلاها ومن فيها (انتزعاها)، فغدوا بها على سعد، فنُحرت الإبل في الناس، وأخصبوا. وأغار على النهرين عمرو بن الحارث، فوجدوا على باب ثوراء مواشي كثيرة، فسلكوا أرض شيلى، حتى أتوا بها العسكر». الطبري ٣/ ٥٠١، ٥٠٢.

السواد إلى يزدجرد بن شهريار، وأرسلوا إليه أن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب، وإن فعل العرب مذ نزلوا القادسية لا يبقى عليه شيء، وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات، وليس فيما هنالك أنيس إلا في الحصون، وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة، ولم يبق إلا أن يستنزلونا، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا، وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم الضياع بالطف، وأعانوهم عليه، وهيَّجوه على بعثه رستم[1].

وكان من أول نتائج هذه السياسة الاستراتيجية تكوين عازل يفصل بين الفرس وأنصارهم العرب من أهل العراق (السواد)، فعمل رستم على دعوة أهل الحيرة إلى سرادقه جانب الدير وخاطبهم بقوله: «يا أعداء الله! فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عيوناً ـ جواسيس ـ لهم علينا، وقويتموهم بالأموال». فتصدى ابن بقيلة للردِّ عليه نيابة عن العرب، وقال له: «أما أنت وقولك: «إنا فرحنا بمجيئهم»، فماذا فعلوا؟ وبأي ذلك من أمورهم نفرح! إنهم ليزعمون أنا عبيد لهم، وما هم على ديننا، وإنهم ليشهدون علينا أنّا من أهل النار. وأما قولُك: «إنا كنا عيوناً لهم»، فما الذي يحوجهم إلى أن نكون عيوناً لهم، وقد هرب أصحابكم منهم، وخلُّوا لهم القرى! فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه، إن شاؤوا أخذوا يميناً أو شمالاً. وأما قولك: «إنا قويناهم بالأموال»، فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا؛ إذ لم تمنعونا مخافة أن نسبى وأن نُحرب وتقتل مقاتلتنا، وقد عجز منهم من لقيهم منكم، فكنا نحن أعجز؛ ولعمري لأنتم أحب إلينا منهم، وأحسن عندنا بلاءً، فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً؛ فإنما نحن بمنزلة علوج السواد، عبيد من غلب»[2]. ولقد أدّى ذلك كله إلى تدهور في الروح المعنوية، ووصل صدى هذا التدهور حتى أعلى المستويات القيادية. وقد وجد هذا التدهور تعبيراً له في أقوال الملك ذاته الذي أخذ يقتنع بتصميم العرب على بلوغ هدفهم، فكان في قوله لقائده رستم: «لقد وعد القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه»[3]، وقد تحول ذلك ليصبح كابوساً يجثم على صدور قادة الفرس، بمن فيهم رستم حتى قبل أن يبدأ القتال[4].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٣.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٩.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠١.

(٤) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٦. وقيل: إن رستم قد أصبح يوم القادسية «فغدا منجِّم رستم على رستم برؤيا أُريها من الليل، قال: رأيت الدلو في السماء؛ دلواً أفرغ ماؤه، ورأيت السمكة؛ سمكة =

واستمرَّت أثناء ذلك أعمال الاستطلاع والإغارات، وأظهر العرب المسلمون في هذه الأعمال جرأة وتهوُّراً في حين ظهر على خصومهم التردُّد والجبن.

٦ ـ سعد في القادسية

خرج رستم للقاء العرب المسملين، في عشرين ومائة ألف كلهم متبوع، وكلهم بأتباعهم أكثر من مائتي ألف، ودفع على مقدمته الجالينوس في أربعين الفاً، واستعمل على ميمنته الهرمزان، وعلى ميسرته مهران بن بهرام الرازي، وعلى ساقته البيرزان، وقال رستم ليشجع الملك: «إنْ فتح الله علينا، فهو وجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم، إلى أن يقبلوا المسالمة أو يرضوا بما كانوا يرضون به». ثم قاد رستم القلب وقوَّته (٦٠) ألف مقاتل، أما المؤخرة ـ الساقة ـ فكانت قوتها (٢٠) ألف مقاتل، وجاء العيون (الجواسيس) إلى سعد بذلك من قِبل الحيرة وبني صلوبا، وكتب إلى عمر بذلك.

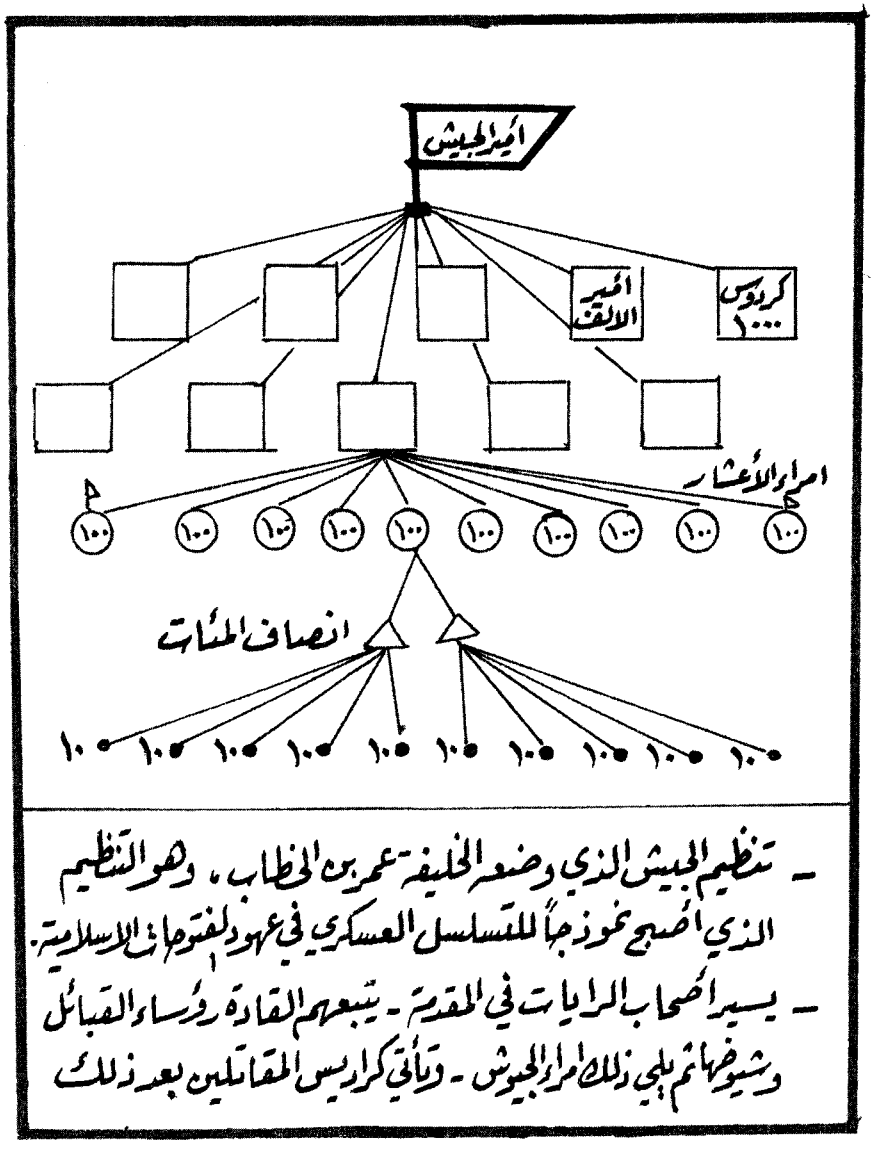
دفع رستم مقدمته بقيادة الجالينوس حتى وصل الحيرة، ونزل فيما بين النجف والشيلحين، وارتحل رستم فنزل النجف. وجرت مفاوضات طويلة حاول كل طرف فيها الوصول إلى أهدافه سلماً، وظهر في النهاية أنَّ وقوع الحرب أمر حتمي، لا سيما وأن فترة إقامة المعسكرات المتجاورة استمرَّت أربعة أشهر، ولم يحاول رستم خلالها الاشتباك مع المسلمين أو مهاجمتهم على أساس أن يضجر المسلمون بمكانهم وأن يجهدوا فينصرفوا. وكان رستم يكره قتال العرب المسلمين مخافة أن يلقى منهم ما لقي مَن قَبله. وفي النهاية، قرَّر الفرس خوض المعركة الحاسمة، والعبور إلى القادسية، وأقاموا العبارات والطرق. وعبر الفرس ونظموا قواتهم واستعدوا للقتال.

اتخذ الفرس مواقعهم في مجابهة قوات المسلمين، وجلس رستم على سريره، وضرب عليه طيارة (سرادق)، وحشد في القلب ثمانية عشر فيلاً، عليها الصناديق والرجال، وفي المجنبتين ثمانية وسبعة، فكان مجموع الفيلة (٣٣) فيلاً، وأقام

= في ضحضاح من الماء تضطرب، ورأيت النعائم والزُّهرة تزدهر. قال: ويحك! هل أخبرت بها أحداً؟ قال: لا. قال: اكتمها. وكان رستم منجماً، فكان يبكي مما يرى ويقدم عليه، فلما كان بظهر الكوفة رأى أن عمراً ـ أمير المؤمنين ـ وقد دخل عسكر فارس ومعه ملك، فختم على سلاحهم، ثم حزمه ودفعه إلى عمر. فكان كثيراً ما يردِّد بعد ذلك: أكل عمر كبدي، أكل عمر كبدي، أكل عمر كبدي». ٣/ ٥٣٢، ٥٣٣.

وعندما نادى سعد للصلاة قبل القادسية، قال رستم: عينه ـ ويقصد الصوت ـ لقد أتاني صوت عند الغداة، وإنما هو عمر الذي يكلم الكلاب، فيعلمهم العقل.

الجالينوس بين رستم وبين ميمنته، كما أقام البيرزان بينه وبين ميسرته[1].



(١) نظم يزدجرد عملية الاتصال بقائد قواته رستم، فوضع رجلاً على باب إيوانه، وأمره بلزومه وإخباره، وآخر حيث يسمعه من الدار، وآخر خارج الدار، وكذلك على كل دعوة رجلاً. فلما نزل رستم؛ قال الذي بساباط: قد نزل، فقاله الآخر... حتى قاله الذي على باب الإيوان، وجعل بين كل مرحلتين على كل دعوة رجلاً، فكلما نزل وارتحل أو حدث أمر قاله، فقاله الذي يليه حتى يقوله الذي يلي باب الإيوان، فنظم ما بين العتيق والمدائن رجالاً، وترك البُرُد (البريد) وكان ذلك هو الشأن. الطبري ٣/ ٥٣٠.

أخذ المسلمون مصافَّهم، وجُعل زهرة بن الحوية وعاصم بن عمرو وشرحبيل، ووكِّل صاحب الطلائع بالطراد، وخلط بين الناس في القلب والمجنبات، وكان سعد يومئذ لا يستطيع أن يركب ولا يجلس لِمَا به من الحبوب (الدمامل) وعرق النسا، فطلب إلى الناس أن يحملوه، فارتقوا به، وأشرف على الناس، وهو مُكبٌّ على وجهه في صدره وسادة، واستخلف خالد بن عرفطة على الناس، يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد وهو أسفل منه؛ وكان الصف إلى جنب القصر، وكان خالد كالخليفة لسعد لو لم يكن سعد شاهداً مشرفاً.

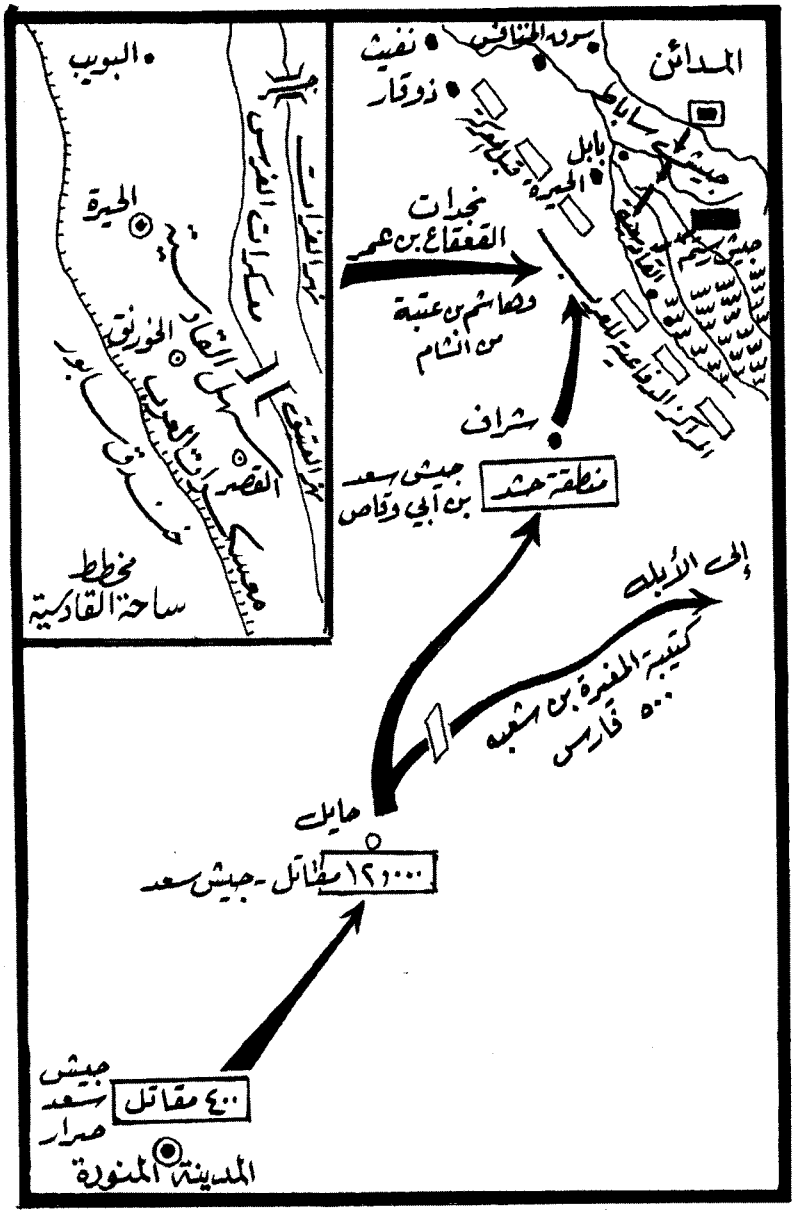
وكتب سعد إلى الرايات: إني قد استخلفت عليكم خالد بن عُرْفُطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبوب، فإني مُكبٌّ على وجهي وشخصي لكم باد، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي. فقرىء على الناس فزادهم خيراً، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه، وتحاثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرِّضا بما صنع.

وخطب سعد في الناس: «إن الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خلف، قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٥]. إن هذا ميراثكم وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها، وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعزُّ مَن وراءكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم»[1].
ونادى منادي الناس: «ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر الله. يا أيها الناس! فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد». واندفع القادة لتحريض المسلمين وحضِّهم على الجهاد. وما أن أزفَّ موعد صلاة الظهر حتى تحرك المسلمون للصلاة، وأمر سعد أن يقرأ على الناس سورة الجهاد، وكانوا يتعلمونها، فقُرئت في كل كتيبة، فهشَّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها. وأصدر سعد تعليماته، وبدأت معركة القادسية بعد صلاة الظهر[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢.

(٢) بدأت المعركة عندما انطلق غالب بن عبد الله الأسدي، وهو يقول: =



خريطة معركة القادسية

= قد علمتْ واردةُ المسائح ذاتُ اللبان والبنان الواضح
أني سمام البطل المُشايح وفارجُ الأمر المهم الفادح

واتبعه قائد الفرسان عاصم بن عمرو، وهو يقول:

قد علمتْ بيضاء صفراء اللبب مثلُ اللجين إذ تغشَّاه الذهب
أني امرؤ لا من تعيبه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

حمل أصحاب الفيلة على العرب المسلمين، ففرقوا الكتائب، وأُصيبت الخيول بالذعر، فكادت بجيلة أن تؤكل ـ تهلك ـ وفرَّت الخيول، وصمد المشاة، وبقيت الرجالة من أهل المواقف، فأرسل سعد إلى بني أسد: ذبوا ـ دافعوا ـ عن بجيلة ومَن لافها من الناس. فخرج طليحة بن خويلد، وحمال بن مالك، وغالب بن عبد الله، والربيل بن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيلة حتى عدلها ركبانها، وإنَّ على كل فيل عشرين رجلاً. وقام طليحة في قومه حين استصرخهم سعد، فقال: يا عشيرتاه! إن المنوَّه باسمه، الموثوق به، وإن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم. ابتدئوهم الشدة، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة، فإنما سميتم أسداً لتفعلوا فعله؛ شدّوا ولا تصدّوا، وكروا ولا تفروا. لله در ربيعة! أي فري يفرون! وأيَّ قرن يغنون! هل يوصل إلى مواقفهم! فأغنوا عن مواقفكم أعانكم الله، شدّوا عليهم باسم الله. وانطلقت قبيلة أسد لدعم قبيلة بجيلة، وجابه الفرس مقاومة قوية، وقاد الأشعث بن قيس قبيلة كندة، فأبلوا بلاءً حسناً[1].

كان سعد يتابع المعركة، وهو على سطح منزله، لا يطيق جلسة إلّا مستوفزاً أو على بطنه. ويتململ ويحول جزعاً... وإلى جانبه زوجته سلمى بنت خصفة، امرأة المثنى بن حارثة قبله، فلما رأت ما يصنع أهلُ فارس تذكرت أيام المثنى وصرخت: وامثنياه! ولا مثنى للخيل اليوم. وضاق صدر سعد بما سمع منها، وهو يرى فتك الفرس بالمسلمين وشدَّة نكايتهم بهم، فلطم سعد وجه زوجته وقال: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى؟، وهو يعني أسداً وعاصماً وخيله، فقالت: أغيرةً وجبناً! قال: والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني، وأنت ترين ما بي والناس أحقُّ ألا يعذروني. وأرسل سعد إلى قائد الفرسان، عاصم بن عمرو، فقال: يا معشر بني تميم! ألستم أصحاب الإبل والخيل! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة!. ونادى عاصم في قومه: يا معشر الرماة! ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل. وقال: يا معشر أهل

(١) استثار الأشعث قومه وحرَّضهم على الجهاد، بقوله: «يا معشر كندة! لله در بني أسد! أي فري يفرون (أمر عظيم يُنجزون) وأي هذي يهذون عن موقفهم منذ اليوم! أغنى كل قوم ما يليهم، وأنتم تنتظرون من يكفيكم البأس. أشهد ما أحسنتم إسوة قومكم العرب منذ اليوم، وأنهم ليُقتلون ويقاتلون، وأنتم جثاة على الركب تنظرون».

الثقافة! استدبروا الفيلة فقطّعوا وُضُنَها (أحزمتها). وخرج يحميهم والرحى تدور على الفيلة، فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها، فقطعوا وضنها، وارتفع عواؤهم، فما بقي لهم فيل يومئذ إلا أُعري، وقتل أصحابها، وتقابل الناس ونُفِّس عن أسد، وردوا فارس عنهم إلى مواقفهم، فاقتتلوا حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهبت هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء. وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة، وكانوا ردءاً للناس، وكان عاصم عادية الناس وحاميتهم.

كان اليوم الأول من معركة القادسية، وهو المعروف بيوم أرماث، قاسياً على المسلمين، شديد الوطأة عليهم، وكانت خسائرهم فيه كبيرة، فوكل سعد رجالاً بنقل الشهداء إلى العُذيب، ونقل الرثيث ـ الجرحى ـ. فأما الرثيث، فأُسلم إلى النساء يقمن عليهم إلى قضاء الله ﷻ عليهم[1].

أمضى المسلمون ليلهم وهم يدفنون شهداءهم على مُشرِّق، وهو وادٍ بين العذيب وبين عين الشمس في عدْوتيه جميعاً، الدنيا منهما إلى العذيب والقُصوى منهما من العذيب، والناس ينتظرون بالقتال حمل الرثيث ـ الجرحى ـ والأموات. فلما استقلَّت بهم الإبل وتوجهت بهم نحو العذيب، أشرق فجر اليوم الجديد وطلعت معه نواصي الخيل من الشام يقودها القعقاع بن عمرو التيميي[2].

---

(١) تحملت قبيلة أسد ثقل المعركة، وهي في موقعها من القلب، فقال شاعرها:

جلبنا الخيل من أكناف نيقٍ ... إلى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شجواً ... وبالحقوين أياماً طوالا
وداعية بفارس قد تركنا ... تبكي كلما رأت الهلالا
قتلنا رستماً وبنيه قسراً ... تثير الخيل فوقهم الهيالا
تركنا منهم حيث التقينا ... قياماً ما يريدون ارتحالا
وفرَّ البيرزان ولم يحام ... وكان على كتيبته وبالا
ونجى الهرمزان حذار نفس ... وركض الخيل موصلة عجالا

تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٠.

(٢) كانت قوة المقدمة التي يقودها القعقاع ألف مقاتل، وقد عمل القعقاع، عندما أشرف على القادسية، على تقسيم قوَّته إلى أعشار (عشرات)، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا في آثارهم عشرة، حتى يظهر بأن دعم المسلمين متصلاً ومستمراً بجيش لا نهاية له. وتقدم القعقاع مع عشرة، فأتى الناس فسلَّم عليهم، وبشَّرهم بالجنود، فقال: يا أيها الناس! إني قد جئتكم في =

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قد أرسل كتاباً إلى «أبو عبيدة بن الجراح» بعد أن أخبره بانتصار المسلمين في اليرموك، وفيه: «أنِ اصرف جند العراق إلى العراق»، وهم ستة آلاف: خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من أفناء اليمن من أهل الحجاز، وأمَّر عليهم هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فجعله أمامه، وجعل على إحدى مجنبتيه قيس بن هُبيرة بن عبد يغوث المرادي، وعلى المجنبة الأخرى الهزهاز بن عمرو العجلي، وعلى الساقة أنس بن عباس، ومضى القعقاع بمقدمته ينهب الأرض، ويتعجل الوصول إلى ميدان القتال حتى أشرف على القادسية في صبيحة اليوم الثاني للمعركة (يوم أغواث).

أصبح الناس وهم على تعبية، وبدأ القتال بضراوة، وحمل بنو عمِّ القعقاع يومئذ على إبل قد ألبسوها فهي مجلَّلة مبرقعة، وأطافت بهم خيولهم، تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيلهم بين الصفين يتشبَّهون بالفيلة، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث، فجعلت الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم، وركبتهم خيول المسلمين، فلما رأى ذلك الناس استنُّوا بهم، فلقي فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

كانت معركة النصف الأول من يوم أغواث، معركة فرسان، فلما اعتدل

= قوم، والله إن لو كانوا بمكانكم، ثم أحسُّوكم حسدوكم حظوتها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم، فاصنعوا كما أصنع. فتقدَّم ثم نادى: من يبارز؟ فقالوا فيه بقول أبي بكر: «لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا»، وسكنوا إليه، فخرج إليه ذو الحاجب، فقال القعقاع: من أنت؟ قال: أنا بهمن جاذويه. فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر! فاجتلدا، فقتله القعقاع، وجعلت خيله ترد قطعاً، وما زالت ترد إلى الليل وتنشط الناس، وكأن لم يكن بالأمس مصيبة، وكأنما استقبلوا قتالهم بقتل الحاجبي وللحاق القطع، وانكسرت الأعاجم لذلك. ونادى القعقاع أيضاً: من يبارز؟ فخرج إليه رجلان: أحدهما البيرزان والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث، أخو بني تيم اللات، فبارز القعقاع البيرزان، فضربه فأذرى رأسَه، وبارز ابن ظبيان البندوان، فضربه فأذرى رأسه، وتوردهم فرسان المسلمين، وجعل القعقاع يقول: يا معاشر المسلمين! باشروهم بالسيوف، فإنما يحصد الناس بها! فتواصى الناس، وتشايعوا إليهم، فاجتلدوا بها حتى المساء، فلم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً مما يعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، كانت توابيتها تكسَّرت بالأمس، فاستأنفوا علاجها حين أصبحوا، فلم ترتفع حتى كان الغد. تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٣.

النهار وانتصف تزاحف المشاة، فاقتتلوا قتالاً مريراً حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرماث تُدعى الهدأة، والنصف الأول من ليلة أغواث يدعى السواد، ثم لم يزل المسلمون يرون في يوم أغواث في القادسية الظفر. وجالت فيه خيل القلب، وثبتَ المشاة، فلولا أنَّ خيلهم كرَّت لأخذ رستم أخذاً، فلما ذهب السواد؛ بات الناس على مثل ما بات عليه القوم **ليلة أرماث**[1]، وانصرف المسلمون إلى قتلاهم فأحرزوهم، فجعلوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر، ويبلغون الرثيث (الجرحى) إلى النساء، وحاجِب بن زيد على الشهداء. وكان النساء والصبيان يحفرون القبور في اليومين، يوم أغواث، ويوم أرماث، حيث دُفن ألفان وخمسمائة من أهل القادسية وأهل الأيام[2]، وقال سعد: «من شاء غسَل الشهداء، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم».

وفي هذه الليلة بات القعقاع وهو يسير بأصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس، ثم قال: إذا طلعت لكم الشمس، فأقبلوا مائة مائة، كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة، فإنْ جاء هاشم بن عتبة، فذاك، وإلَّا جدَّدتم للناس رجاءً وجداً، ففعلوا، ولا يشعر بذلك أحد.

---

(١) أخذ الناس في التعارف والانتماء كلٌّ إلى كتيبته، منذ أن توقف القتال، فلما سمع ذلك سعد نام، وقال لبعض من عنده: إن تمَّ الناس على الانتماء فلا تُوقِظني، فإنهم أقوياء على عدوهم؛ وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني، فإنهم على السَّواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني، فإن انتماءهم عن السَّوء.
وفي هذا اليوم أبلى أبو محجن الثقفي بلاءً حسناً. (وأبو محجن فارس شاعر كان ذا شراب، فسجنه سعد، ولما حمي وطيس المعركة، استعطف سلمى، زوج سعد، ففكَّت قيده، فشارك في القتال، وبعد انتهاء النهار عاد إلى سجنه. وفي: تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٨ ـ ٥٥٠).

(٢) كان في ميدان القادسية شجرة نخل وحيدة، فكان الجرحى إذا حملوا ومروا بها طلبوا الوقوف تحتها، ووقف جريح يدعى بُجيراً يستروح بظلها، وقال:

ألا يا اسلمي يا نخلة بين قادسٍ ... وبين العذيب لا يجاورك النخلُ

وقال جريح آخر من بني ضبة، أو من بني ثور، يدعى غيلان:

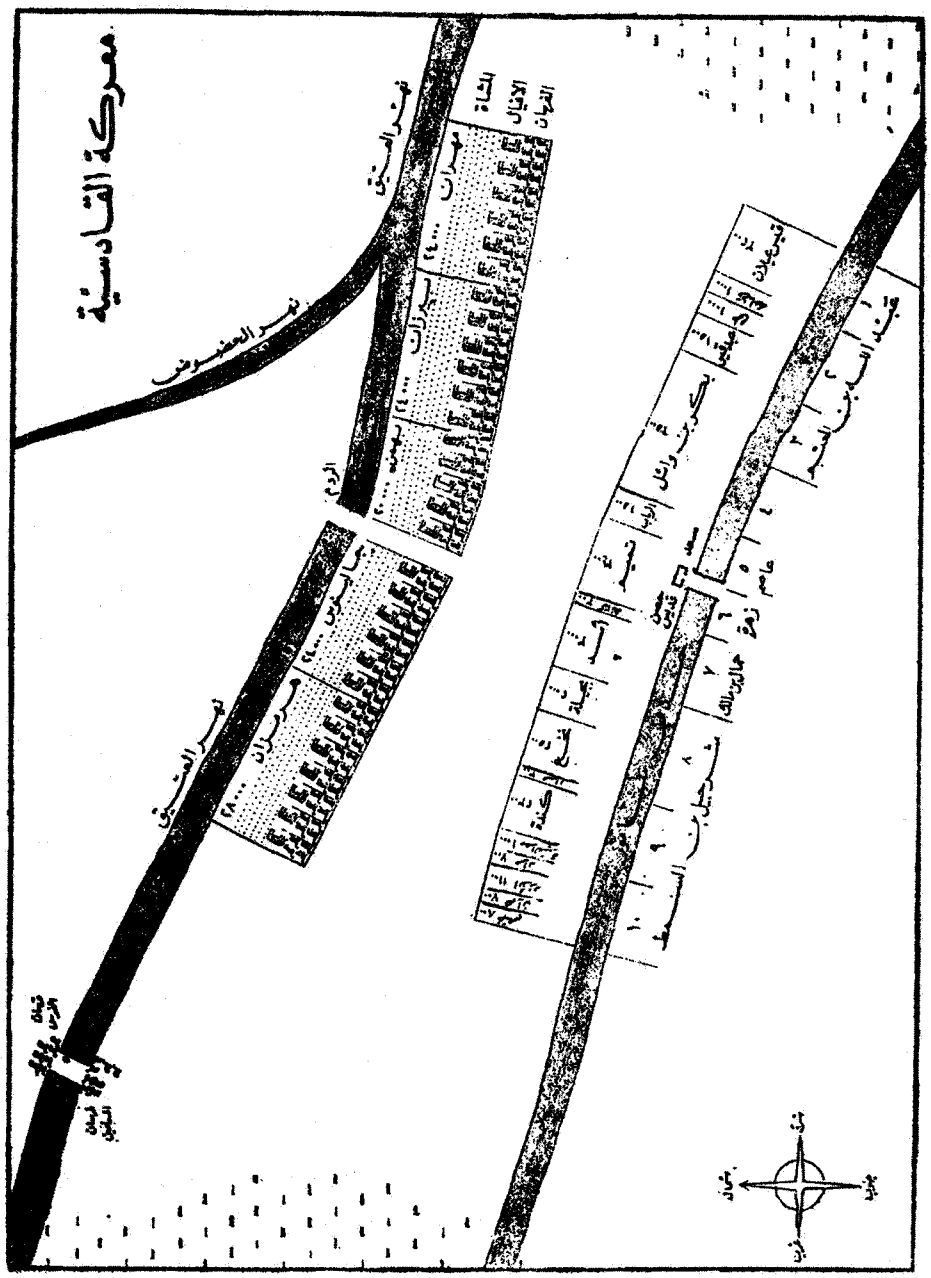
ألا يا اسلمي يا نخلة بين جرعة ... يجاورك الجمان دونك والرغل

والجمان والرغل: نباتان بريّان. ثم مرّ جريح من بني تيم الله، يقال له ربعيّ، فقال:

أيا نخلة الجرعاء، يا جرعة العدى ... سقتك الغوادي والغيوث الهواطل

وقال الأوعور بن قطبة:

أيا نخلة الرُّكبان لا زلت فانضري ... ولا زال في أكناف جرعائك النخل



تنظيم الجيشين ـ العربي والفارسي ـ عند بدء المعركة
عن كتاب: «القادسية لأحمد عادل كمال»

أصبح اليوم الثالث لمعركة القادسية، **وهو يوم عماس**[1]، ونظَّم المسلمون والفرس صفوفهم، وكانت أرض المعركة قد اصطبغت باللون الأحمر لكثرة القتلى والجرحى في اليومين السابقين. فقد خسر الفرس عشرة آلاف قتيل مقابل ما خسره المسلمون. وأخذ القعقاع في النظر إلى الأُفق مع بزوغ الشمس، فرأى كتائب المسلمين وهم يتقدَّمون مائة بعد مائة، وكبَّر الناس، وقالوا: «جاء المدد»، واستمرَّ تدفُّق قوات الدعم، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع، كان هاشم[2] قد وصل بقواته، وقد طلع بسبعمائة، فأخبروه برأي القعقاع وما صنع في يوميه، فعبَّأ أصحابه سبعين سبعين، واستمرَّت القوات في رفد المعركة. ومقابل ذلك، كان يزدجرد يبعث أهل النجدات ممن بقي عنده، على شكل إمداد مستمر، ولولا الذي صنع القعقاع في اليومين لأثَّر ذلك في الروح المعنوية للمسلمين.

كان المشركون قد باتوا وهم يعالجون توابيتهم، الخاصة بالفيلة، حتى أعادوها، وأصبحوا على مواقفهم. وأقبلت الفيلة معها المشاة ـ الرجالة ـ يحمونها أن تقطع أحزمتها، ومع المشاة فرسان يحمونهم، إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل وأتباعه، لينفروا بهم خيلهم. ولما رأى سعد الفيلة تفرِّق بين الكتائب أرسل إلى أولئك الفرس الذين أسلموا حديثاً، وسألهم عن الفيلة: هل لها مَقاتل؟ فقالوا: نعم، المشافر والعيون، لا ينتفع بها بعدها. فأرسل إلى القعقاع وعاصم، ابني عمرو: اكفياني الأبيض. وكانت كلها آلفة له، وكان بإزائهما. وأرسل إلى حمال والربيل: اكفياني الفيل الأجرب. وكانت آلفة له كلها. فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمَّين لينين، ودبّا في خيل ورجل، فقالا: اكتنفوه لتحيِّروه. وهما مع القوم، وفعل حمال والربيل مثل ذلك. وحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما معاً في عيني الفيل الأبيض، وفعل حمال والربيل مثل

---

(١) لمعرفة المزيد عن أرماث وأغواث وعماس، راجع كتاب القادسية، لأحمد عادل كمال، دار النفائس ـ بيروت، ١٩٧٣، ص١٢٣ وما بعدها.

(٢) ما أن وصل هاشم بن عتبة حتى خاطب المسلمين بقوله: يا معشر العرب! إن الله قد منَّ عليكم بالإسلام، وأكرمكم بمحمد ﷺ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، دعوتكم واحدة، وأمركم واحد؛ بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عَدْو الأسد، ويختطف بعضكم بعضاً اختطاف الذئاب، فانصروا الله ينصركم، وتنجَّزوا من الله فتح فارس، فإن إخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام، وانتثال القصور الحمر والحصون الحمر. تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٤.

فعل القعقاع وعاصم، وصاح الفيلان، ثم ولّى الأجرب، فوثب في العتيق، فاتبعته الفيلة، فخرقت صف الأعاجم. . . فأتت المدائن وهلك مَن فيها.

فلما ذهبت الفيلة، وخلص المسلمون بأهل فارس، ومال الظل، تزاحف المسلمون، وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار، فاجتلدوا بالسيوف حتى أمسوا على حرد. وكان اليوم الثالث، يوم عماس، شديد الوطأة ثقيلاً، لم يكن في أيام القادسية مثله، خرج الناس منه على السواء، كلٌّ على ما أصابه كان صابراً، وكل ما بلغ منهم المسلمون بلغ الكافرون من المسلمين مثله، وكل ما بلغ الكافرون من المسلمين بلغ المسلمون من الكافرين مثله. ولما أمسى الناس من يومهم ذلك، وطعنوا في الليل، اشتد القتال وصبر الفريقان، فخرجا على السواء إلا الغماغم من هؤلاء وهؤلاء، فسُمِّيت ليلة الهرير، لم يكن بعدها قتال بليل في القادسية.

بعث سعد في بداية ليلة الهرير طليحة الأسدي، وعمرو بن محمد بن قيس إلى مخاضة كانت تقع في نهاية ميدان القتال ليقوما عليها، خشية أن يتسلَّل منها الفرس للاستدارة حول قوات المسلمين، وقال لهما: إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها، فانزلا بحيالهم، وإنْ لم تجداهم علموا بها، فأقيما حتى يأتيكما أمري. فلما انتهيا إلى المخاضة، فلم يريا فيها أحداً، قال طليحة: لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم! فاختلفا، وأخذ طليحة طريقه نحو معسكر الفرس من وراء العتيق وحده، في حين توجه عمرو للقيام باستدارة واسعة وقام بالإغارة على مؤخرة الفرس، وخشي سعد منهما، فبعث قيس بن المكشوح في آثارهما في سبعين رجلاً.

ووصل طليحة إلى خلف المعسكر، فكبَّر ثلاث مرات وانسحب بحيث لم يلحق به أحد، وأصيب الفرس بالفزع، كما ذُهل المسلمون، وأعادت القوات الإسلامية والفارسية تنظيمها وتجدَّد القتال، ولم ينتظر القعقاع، فقادَ كتيبة واندفع لمجابهة الفرس بغير إذن سعد، فقال سعد: «**اللهمَّ اغفرها له، وانصره، قد أذنت له إذ لم يستأذني**». ثم قال: «**إن الأمر الذي صنع القعقاع، فإذا كبَّرتُ ثلاثاً فازحفوا**»، فكبَّر تكبيرة، فتهيؤوا، ورأى الناس كلهم مثل الذي رأى، والرحى تدور على القعقاع ومَن معه، وقام قيس بن هبيرة في قومه، فقال: «إن عدوَّكم قد أبى إلا المزاحفة، والرأي رأي أميركم، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجالة (المشاة)، فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوهم على الخيل

لا رجال معهم عقروا بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم». فتيسَّروا وانتظروا التكبيرة.

ثم قام دريد بن كعب النخعي، وكان معه لواء النخع، فقال: «إن المسلمين تهيؤوا للمزاحفة، فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد، فإنه لا يسبق الليلة أحدٌ إلا كان ثوابه على قدر سبقه، نافسوهم في الشهادة، وطيبوا بالموت نفساً، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلا فالآخرة ما أردتم».

وقام الأشعث بن قيس ليقول: «يا معشر العرب! إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت، ولا أسخى أنفساً على الدنيا، تنافسوا الأزواج والأولاد، ولا تجزعوا من القتل، فإنه أماني الكرام، ومنايا الشهداء». ثم قال حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار لرجالهم: «ترجَّلوا أيها الناس، وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا مما لا بدَّ منه، فالصبر أنجى من الفزع». وكبَّر سعد التكبيرة الثالثة، فاستقبل المسلمون المجاهدون الليل استقبالاً بعدما صلوا العشاء.

اجتلد العرب المسلمون والفرس تلك الليلة من أوَّلها حتى الصباح لا ينطقون، كلامُهم الهرير، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط، وانقطعت الأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء، وأرسل غلاماً إلى الصفِّ، وقال له: «انظر ما ترى من حالهم»، فرجع فقال له سعد: ما رأيت أي بنيَّ؟ قال: رأيتهم يلعبون، فقال: أو يجدون!.

انتصف الليل، واستمرت المعركة ضارية، ووصل صوت القعقاع بن عمرو إلى سعد، يبشِّره بأن النصر للمسلمين. وطلع الفجر، والحرب لا زالت على قوتها وشدَّتها حتى إذا ما انتصف النهار؛ لاحت بواكير النصر الحاسم للمسلمين، ووصل القعقاع إلى طيارة رستم فلم يجده، وأبصر هلال بن علَّفة برستم فأقبل عليه، ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه، ولحق به هلال فأخرجه من الماء وقتله، وصاح: «قتلت رستم وربِّ الكعبة»، وكبَّر المسلمون، وفتَّ ذلك من عضد الفرس. وأصدر الجالينوس أمره بالانسحاب، وبدأ المسلمون مطاردة أعدائهم، واستولى ضرار بن الخطاب على علم الفرس، درفش كابيان. وأمر سعد زهرة بن الحوية بمطاردة الفرس بقوة المقدمات، وأمر القعقاع بالتوجه جنوباً، كما أمر شرحبيل بالتوجه شمالاً.

بلغ عدد قتلى المسلمين في يوم القادسية وليلة الهرير ستة آلاف، وتولى خالد بن عرفطة مهمة جمع الأسلاب من قتلى الفرس، ودفن شهداء المسلمين.

مضى زهرة في مطاردة الجالينوس حتى تمكن من قتله، وخرج القعقاع وأخوه وشرحبيل في طلب فلول الفرس، فقتلوهم في كل قرية وأجمة وشاطىء نهر، واستمر زهرة في المطاردة حتى وصل دير قُرَّة وما وراءه، ونهض سعد بالمسلمين حتى نزل بدير قرَّة، ثم إن الفرس هربت إلى المدائن، يريدون نهاوند، واحتملوا معهم الذهب والفضة والديباج والحرير والسلاح وثياب كسرى وبناته، وخلوا ما سوى ذلك، واتبعهم سعد بطلب من المسلمين، فبعث خالد بن عرفطة، وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى ميمنتهم جرير بن عبد الله البجلي، وعلى ميسرتهم زهرة بن الحوية التميمي، وتخلف سعد لِمَا به من الوجع، ثم تبع سعد قواته بمن بقي معه من المسلمين، فأدركهم دون دجلة على بهْرَسير، ثم عبر المسلمون النهر، وتابعوا تقدُّمهم حتى جلولاء. وكتب سعد رسالة إلى أمير المؤمنين بالنصر وبما أحرزه المسلمون، وقام سعد بتوزيع الغنائم[1]، وأرسل الخُمس إلى بيت مال المسلمين، ثم انصرف لبناء المجتمع الجديد، وإعادة تنظيمه، وهي العملية التي يُطلق عليها في التاريخ العربي اسم «حالة أهل السواد»، وأمضى سعد في موقعه في القادسية فترة شهرين قبل أن يستأنف عملياته.

٧ ـ ما بعد القادسية

كان الهدف المباشر من الحرب هو الوصول إلى المدائن عاصمة الفرس، وفقاً لرسالة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه السابقة إلى خالد بن الوليد وعياض بن

---

(١) مما يُذكر في هذا الموضوع القصة التالية: «كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية، فقالت لبنيها: إنكم أسلمتم فلم تُبدلوا، وهاجرتم فلم تثوبوا، ولم تنب بكم البلاد، ولم تقحمكم السنَّة، ثم جئتم بأُمكم عجوز كبيرة، فوضعتموها بين يدي أهل فارس، والله إنكم لبنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم؛ انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره. فأقبلوا يشتدون، فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء، وهي تقول: اللهمّ ادفع عن بني! فرجعوا إليها، وقد أحسنوا القتال؛ ما كُلِمَ منهم رجل كلْماً ـ جرحاً ـ فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء، ثم يأتون أُمهم، فيلقونه في حجْرها، فتردُّه عليهم وتقسمه فيهم على ما يُصلح حالهم ويُرضيهم». الطبري ٣/ ٥٤٤.

غنم عند توليتهما على العراق، قبل ولاية سعد، وفيها: «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفكم، فليكن أحدكم ردءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدوِّ الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزِّهم المدائن». وعلى هذا تحرك سعد بقوات العرب المسلمين، ودفع أمامه زهرة بن الحوية في المقدمات، ثم أتبعه بعبد الله بن المعتم، ثم أتبع ذلك بقوة أخرى تحت قيادة شرحبيل بن السمط، ثم بقوة رابعة يقودها هاشم بن عتبة، وكلَّف خالد بن عرفطة بقيادة الساقة (المؤخرة). وتقدم زهرة حتى وصل برس، فاصطدم بقوة فارسية، يقودها بصبهري، الذي أُصيب بطعنة مات بعدها، وهرب فلول القادسية مرة أخرى إلى بابل.

وقاد سعد القوات إلى بابل، وبعد معركة قصيرة وحاسمة انتصر العرب المسلمون فيها وتمزق الفرس، فهرب الهرمزان إلى الأهواز، وهرب الفيرزان إلى نهاوند، وهرب النخيرجان ومهران الرازي إلى المدائن. وأقام سعد ببابل أياماً، ثم أعاد تنظيم قواته، وقد بلغه تجمع الفرس في بهرسير حيث دارت معركة قصيرة، ودخل سعد فصلى بالناس، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم/ ٤٤]، ووجَّه سعد الفرسان لتطهير المنطقة ما بين نهري دجلة والفرات.

كانت بهرسير قوية ومحصنة، تحيط بها الخنادق، وأخذت الحامية المدافعة عن بهرسير في قصف قوات المسلمين بالمنجنيق، فأمر سعد بصنع المجانيق، ونصب منها عشرين منجنيقاً، وأقام على حصارها شهراً، ولما عرف الفرس تصميم العرب المسلمين تركوا مدينتهم، وأسلموها للعرب الذين دخلوها في الليل، ولاح القصر الأبيض لضرار بن الخطاب، فصاح: «الله أكبر! أبيضُ كسرى، هذا ما وعد الله ورسوله»، وتابعوا التكبير حتى الصباح.

كان قد مضى على القادسية عام ونيف والمسلمون مستمرون في استنزاف قوة الفرس، وتفتيتهم معنوياً. وعندما استقرَّ المسلمون في بهرسير، أراد عبور دجلة لمتابعة الفتوح، فلم يتمكن بسبب قصور وسائط العبور، وقيام الفرس بجمع السفن كلها. وجاء أعلاج فدلوا سعداً على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي، فأبى وتردد خوفاً على المسلمين، وفجأهم المَدُّ، مما زاد من صعوبة القيام بعملية العبور. ثم قرَّر سعد في النهاية اقتحام دجلة، فجمع الناس وقام فيهم

خطيباً[1]... إن عدوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا. ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرُّشد، فافعل.

ووجه سعد رائده لحماية العبور من ستمائة فارس بقيادة عاصم بن عمرو، وكلهم من أهل النجدات. فسار عاصم إلى المنطقة المحددة للعبور من شاطىء دجلة، وقال لرجاله: من ينتدب معي لنمنع الفِراض من عدوِّكم، ولنحميكم حتى تعبروا؟ فانتدب له ستون، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكورة ليكون أسلس لعوم الخيل، ثم اقتحموا دجلة، واقتحم بقية الستمائة على أثرهم. فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أعدوا الخيل التي تقدمت سعداً مثلها، فاقتحموا عليهم دجلة، فأعاموها إليهم، فلقوا عاصماً في السرعان، في طليعة الفرسان وأسرعهم، وقد دنا من الفراض ـ الشاطىء ـ فقال عاصم: الرماحَ الرماحَ! أشرعوها وتوخَّوا العيون؛ فالتفوا فاطعنوا. وتوخى المسلمون عيونهم، فولوا نحو الجُدِّ، ولحق بهم المسلمون، فقتلوا عامَّتهم، ونجا من نجا منهم عوراناً، وتزلزلت بهم خيولهم. ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها؛ أذن للناس في الاقتحام! وتلاحق عظم الجند، فركبوا اللُّجة، وإن دجلة لترمي بالزبد، وإنها لمسودَّة، وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقترنوا ما يكترثون، كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض، ففجئوا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم، فأجهضوهم وأعجلوهم عن جمهور أموالهم، وكانت كتيبة الأهوال (كتيبة عاصم) تخوض معركتها الضارية لحماية العبور، ورأى سعد شدة المعركة، فقال: «والله إن لو كانت الخرساء، وهي كتيبة القعقاع، لكانت قد أجزأت وأغنت»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٩.

(٢) عندما اقتحم سعد والناس دجلة؛ أمرهم بالاقتران، فاقترنوا، فكان سلمان الفارسي قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء. وقال سعد: ذلك تقدير العزيز العليم، وأخذ في ترديد: حسبنا الله ونعم الوكيل! والله لينصرن الله وليَّه، وليظهرن الله دينه، وليهزمنَّ الله عدوَّه؛ إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: ... ذُللت لهم والله البحور كما ذلل =

وعندما انتهت عملية العبور، أعاد سعد تنظيم القوات، فزجَّ بها مع كتيبة الأهوال، وجاء مراسل يبلغ الفرس أن الحامية في المدائن قد انسحبت، ولم يعد بها قوة، فانهارت المقاومة وتمزق الفرس، وأسرع سعد بتنظيم القوات، لدخول المدائن، فكانت كتيبة الأهوال هي أول كتيبة دخلت المدائن، ثم تبعتها كتيبة الخرساء، ثم دخلت بقية الكتائب، ونزل سعد بالقصر الأبيض وصلى في الناس، فقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]. ثم وجَّه سعد قوة المقدمات بقيادة زهرة بن الحوية لمطاردة فلول الفرس في اتجاه النهروان، كما وجَّه قوات مماثلة في كل اتجاه.

كان المسلمون أشدَّاء على الفرس في قتالهم، فكان هؤلاء يردِّدون عند ظهور قوات المسلمين: (ديوان آمد)؛ أي: قد جاء الشيطان. وكان بعضهم يقول لبعض: «والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجنَّ». وانصرف المسلمون لجمع الأسلاب والغنائم والكنوز من القصر الأبيض، ووضعوها بين يدي سعد الذي قسمها، وأرسل الخُمس إلى بيت مال المسلمين، فقسمه أمير المؤمنين عمر على الناس، وكان بين الغنائم دروع الملوك الذين هزمهم الفرس في حروبهم وسيوفهم، بالإضافة إلى تيجان الملوك وثيابهم، وكانت الغنائم عندما جُمعت لسعد قد بلغت مبلغاً عظيماً ممّا حمل سعد على القول: «والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وأيم الله ـ على فضل أهل بدر ـ لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم». وعندما وصل الخمس إلى أمير المؤمنين عمر تفحصه، ثم قال: «إن أقواماً أدَّوْا هذا لَذَوُو أمانة! فقال له عليٌّ: إنك عففت فعفَّت الرعيَّة»[1].

تجمع الفرس في جلولاء بقيادة مهران، ونظموا قواتهم، وحفروا الخنادق،

= لهم البرُّ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً... وخرج المسلمون، لم يفقدوا شيئاً ولم يغرق أحد. تاريخ الطبري ٤/ ١٢.

(١) مما يُذكر في هذا المجال القصة التالية: «لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض؛ أقبل رجل بحقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال هذا والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله، لولا الله ما أتيتكم به. فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس». تاريخ الطبري ٤/ ١٩.

وأقاموا الحواجز، وكتب سعد بذلك إلى أمير المؤمنين الذي أجابه: «أن سرِّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى ميمنته سِعْر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عمرو بن مُرَّة الجهني»، وكانت معركة قاسية لا تقلُّ عن معركة المدائن أو القادسية[1].

وفي هذه السنة ذاتها وجَّه سعد قوات المسلمين لفتح تكريت، ثم فتح ماسبذان في سنة (١٦هـ) أيضاً، وفيها كانت وقعة قَرْقيساء. واستقرَّ المسلمون في العراق، وعندما أقبل العام التالي، عام (١٧هـ)، تحول سعد من المدائن إلى الكوفة، وبدأ ببناء المجتمع الجديد، والياً للكوفة لمدة ثلاثة أعوام ونصف، انصرف سعد بعد ذلك إلى بناء المجتمع الجديد، وكان يرجع في أموره كلها إلى الخليفة عمر رضي الله عنه، ويعمل بأوامره وتوصياته، وشيَّد الكوفة مقراً للمسلمين، وأقام فيها حيث عمل الخليفة على عزله عام (٢٠هـ/ ٦٤٠م)، وعيّن عمار بن ياسر مكانه والياً على الكوفة، وبقي سعد في المدينة.

وعندما أقدم أبو لؤلؤة على طعن الخليفة، وعرف عمر أنها النهاية أوصى وصيته، وجعل الخلافة من بعده شورى في ستة، هم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأوصاهم بقوله: «إن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله في عجز ولا خيانة»[2]. «وأوصي من بعدي أن يستعمل سعد بن أبي وقاص، فإني لم أعزله عن سوء، وقد خشيت أن يلحقه من ذلك»[3]. وكان أول عامل بعث به

---

(١) قال هاشم بن عتبة في يوم جلولاء:

ويومَ جلولاءَ ويوم رستم ... ويوم زحف الكوفة المُقدَّمْ
ويوم عرض النهر المحرمْ ... من بين أيام خلون صُرَّمْ
شيبن أصداغي فهن هُرَّم ... مثل ثُغام البلد المحرَّمْ

وقال أبو بجيد في ذلك:

ويومَ جلولاء الوقيعة أصبحت ... كتائبنا تُرْدى بأُسْد عوابسِ
فغصت جموع الفرس ثم أنمتهم ... فتباً لأجساد المجوس النجائسِ
وأفلتهن الفيرزان بجرعة ... ومهران أرْدت يوم حز القوانسِ
أقاموا بدار للمنيَّة موعدٍ ... وللترب تحثوها خجوح الروامسِ

تاريخ الطبري ٤/ ٣٣، ٣٤.

(٢) الإصابة ٣/ ٨٤.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٤.

عثمان إلى الأمصار، هو سعد بن أبي وقاص، حيث عيَّنه والياً على الكوفة، وبقي والياً فيها لمدة سنة ثم عزله أمير المؤمنين عن الكوفة بعدها، ورجع سعد إلى المدينة وأقام إلى جانب الخليفة، يخلص إليه النصح إنْ هو استشاره حتى وقعت الفتنة في آخر عهد عثمان، فوقف سعد عنه مدافعاً، وله مؤيِّداً.

وحاول خصوم عثمان إشراك سعد في الفتنة، فكان جوابه حاسماً: «لا أدخل في أمركم»[1]. وعندما وقف خصوم عثمان على بابه يريدون قتله، أدرك سعد خطورة الموقف، فتحدث إلى عثمان ثم خرج إلى المسجد ـ مسجد المدينة ـ حيث التقى هناك بأبي الحسن علي بن أبي طالب، فقال له: «قم فداك أبي وأُمي! جئتك والله بخبر ما جاء به أحد قط إلى أحد، تصل رحم ابن عمِّك، وتأخذ بالفضل عليه، وتحقن دمه، ويرجع الأمر على ما نحبُّ، وقد أعطى خليفتك من نفسه الرضا»[2]. ولكن ما كاد يخرج عليٌّ وسعد حتى انطلق الصوت المفزع منذراً بقتل عثمان رضي الله عنه، وأسند سعد ظهره إلى حائطه، وقال: «لا أشهد قتله؛ وقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف/ ١٠٤]. اللهمَّ أندمهم ثم خذهم». وعندما أخذ الناس في البيعة لعليّ جاؤوا بسعد، وقالوا له: بايع، فقال: «لا أُبايع حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس»، فقال علي: خلُّوا سبيله.

وحاول بعض المتمردين إغراء سعد بالخلافة، وقالوا له: «إنك من أهل الشورى، فرأينا فيك مجتمع، فأقدم نبايعك». فبعث إليهم: إني وابن عمر خرجنا منها، فلا حاجة لي فيها على حال، وتمثَّل:

لا تخلطنّ خبيثات بطيبة واخلع ثيابك منها وانْجُ عُريانا

واعتزل سعد الناس، وأقام في قصره بالعقيق حتى وافته المنية، عام (٥٥هـ/ ٦٧٥م)، فحُمل إلى المدينة الواقعة على بُعد (١٣) ميلاً من قصره، وهو على أعناق الرجال، وصُلِّي عليه في مسجد رسول الله ﷺ، ثم دُفن بالبقيع بعد أن وقف بجسده الطاهر على حجر أُمهات المؤمنين، فصلَّيْن عليه. وكان قد أوصى قبل وفاته أن يكفَّن بجبته التي كان يرتديها حين قاتل المشركين في غزوة بدر الكبرى، حيث قال: «كفِّنوني فيها، فإني كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي عليَّ، وإنما كنت أخبِّئها لذلك».

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٣٧٨.

الفصل الثاني

سعد بن أبي وقاص وفنُّ الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٣ ـ بناء المجتمع الجديد.

٤ ـ وضوح الهدف.

٥ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.

سعد بن أبي وقاص وفن الحرب

«إرمِ سعد... إرمِ فداك أبي وأُمي»

(محمد ﷺ)

تولّى سعد بن أبي وقاص قيادة جيش العرب المسلمين خلال أصعب مرحلة من مراحل الحرب على جبهة العراق، وكانت هذه الجبهة تحتلُّ المرتبة الثانوية بعد جبهة الشام، وعندما تولّى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إمرة المسلمين؛ عيَّن سعداً لحرب العراق ونقل ثقل الهجوم إلى جبهتها، لا سيما وأن الحرب على جبهة الشام قد تقرَّرت بانتصار المسلمين في معركة اليرموك وفتح دمشق، فبدأت الإمدادات في التوجه إلى العراق، من الشام ومن الجزيرة العربية. وكان أمير المؤمنين يشرف بنفسه على قيادة الجيوش، ويعمل على توجيهها، ويحدِّد لها واجباتها، وكان سعد بن أبي وقاص يعود في أُموره كلها إلى أمير المؤمنين ويعلمه بتطورات الموقف، وينفِّذ تعليماته وتوصياته بدقَّة.

وشهدت هذه الفترة، ومن خلال هذا التعاون الوثيق، بداية التطور في العقيدة القتالية للعرب المسلمين. فقد تمَّ فيها تنظيم مناطق التجمُّع، ومناطق الحشد، وحدِّدت الواجبات والأعمال التي يجب تنفيذها في كل منطقة، وأخذ جيش المسلمين في استخدام تنظيم جديد، عن طريق التقسيم العُشري للقوات، ورافق ذلك وضوح في تدابير الأمن والحيطة، وتنظيم دقيق لأرتال المسير وإجراءات حازمة لحماية المعسكرات، كلُّ ذلك مع تنظيم جيِّد للشؤون الإدارية. ومن الطبيعي، والواضح، أن الخليفة لم يكن يتدخل في جميع الأُمور التنظيمية والعملياتية، وإنما كان يحدد الهدف، والخطوط العامة المطلوب تنفيذها، فكان سعد بن مالك بن أبي وقاص هو المنظم الأول لجيوش العرب المسلمين.

لقد اصطدم المسلمون بجيوش الفرس، وهي جيوش لديها خبرات قتالية واسعة بحكم صراعها الدائم، وهي أيضاً متفوقة في ميزان القوى، وكانت تتبع

تنظيماً معيناً ودقيقاً في إدارة الحرب، وعلى هذا قد يكون من الصعب تقويم منجزات سعد بن أبي وقاص إنْ لم ترتبط عملية التقويم هذه بما كان يطبِّقه الخصم من طرائق عملياتية وما يستخدمه من أساليب تعبوية تكتيكية.

كان تنظيم المعركة عند الفرس يعتمد على قوة الصدمة بالدرجة الأولى، ويظهر ذلك من خلال اقتران (٣٠) ألفاً بالسلاسل لتكوين جدار تتحطم على جبهته هجمات العرب المسلمين، وكانت بقية القوات الفارسية تدعم جدار الصدمة بواسطة رماياتها الكثيفة. ونتيجة لهذا التنظيم القتالي الذي لا يقبل التجزئة كان باستطاعة الفرس تدمير قوات أعدائهم بضربة واحدة وبأقل ثمن ممكن، فإذا أُضيف إلى ذلك التفوق الكبير في القوى والوسائط لصالح الفرس، فإن صورة الاشتباك ستظهر قاتمة وغير مثيرة للتفاؤل، ولكن سعد بن أبي وقاص أفاد من سلبيات التنظيمات الفارسية وعدم قدرتها على العمل بصورة مجزّأة؛ ليبتكر الأسلوب المناسب، والذي يمكن اعتباره أسلوباً متقدماً لأكثر من عشرة قرون.

اعتمد سعد بن أبي وقاص على النظام البديل، وهو نظام الجيوش المتمفصلة، وكان هذا النظام يستجيب في الواقع لطبيعة قوات العرب الخفيفة والمَرِنة، كما يتوافق مع ما تتطلبه مجابهة التنظيم الفارسي الثقيل والمحروم من حرية العمل. وبرزت ميزات هذا النظام من خلال المناورات العميقة والقوية لقوات العرب المسلمين، وهي المناورات التي وصل بها القعقاع بن عمرو في ليل الهرير إلى مؤخرة الفرس، كما برزت من خلال حرية العمل التي كانت تسمح للمسلمين بتنظيم هجماتهم التعبوية بمرونة، ثم الانسحاب بسرعة، وإعادة التنظيم من أجل هجوم جديد.

وأخيراً، فقد برزت ميِّزات هذا التنظيم أيضاً من خلال المطاردة السريعة والحاسمة لقوات الفرس بعد إلحاق الهزيمة بهم، وظهرت محصلة هذا التنظيم في النهاية على شكل صورة متقدمة لحروب الصاعقة.

لقد كان العمل، وفقاً لهذا النظام، يتطلب ميداناً محدداً يساعد على تحقيق السيطرة والإشراف على المعركة، ويظهر أن سعد بن أبي وقاص قد وضع ذلك في اعتباره عندما نزل القادسية، وصمَّم على جذب خصمه إليها. وتظهر مسيرة الأحداث والمفاوضات أن سعداً كان مصمِّماً على عدم مجابهة الفرس إلا في القادسية، على نحو يشابه تماماً ما فعله المسلمون في اليرموك. ولقد حال

مرض سعد بالدمامل بينه وبين قيادته المباشرة للقوات، فأوكل إلى خالد بن عرفطة أمر إدارة المعركة نيابةً عنه، وأخذ في تبليغه أوامره بواسطة الرقاع ـ أوامر خطية ـ وقد يكون من المؤسف عدم الحصول على هذه الأوامر، ولكن أسلوب إدارة المعركة يبرهن على أن سعداً كان يتابع جميع المواقف الطارئة، ويدرسها ويحلِّلها ويعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها، مثل أسلوب القضاء على الفيلة التي أفزعت خيول المسلمين.

لقد كان من الغريب ألّا يكتشف الفرس الخطأ الكبير في تنظيمهم القتالي، وأن يتجاهلوا نقاط ضعفه، لا سيما بعد هزيمة قواتهم على أيدي القائد الروماني بيلزير[1]، ولكن من المحتمل أن يكون استهتار الفرس بقوة العرب، وعدم تقويمهم الصحيح لما صار عليه العرب بعد الإسلام، ثم اعتداد الفرس بتفوُّقهم الكبير بالقوى والوسائط هو الذي دفعهم إلى زجِّ قواتهم في المعركة وفقاً لأساليبهم التقليدية، في حين كان العرب يخوضون حروبهم بأساليب ثورية حقيقية تتميَّز بالتجديد والإبداع حتى أبعد الحدود.

إنَّ كفاءة سعد بن أبي وقاص وقدرته القيادية لا تقف عند حدود التنفيذ الرائع لأوامر الخليفة، والتوفيق بين ما هو مطلوب وبين القوى والوسائط المتوافرة، كما أن قدرته التنظيمية لا تقف عند حدود وضع الأُسس الجديدة لبناء الجيوش الحديثة، وإنما تتجاوز ذلك كله إلى أسلوب التعامل مع الرجال، ومعرفة قدراتهم، واستثارة الأصالة العربية في نفوسهم، ثم جمع أكبر قدر من العوامل المختلفة التي تضمن النصر، وقد يكون من الصعب في كل الأحوال؛ إرجاع النصر الخالد في القادسية إلى كفاءة القائد سعد بن أبي وقاص وحدها، وتجاهل تلك الأُسس والقواعد التي وضع الرسول القائد ﷺ حجر الأساس فيها وأقام بنيانها على مبادىء ثابتة حدَّدتها العقيدة الدينية الإسلامية. كما أنه من الصعب أيضاً إرجاع النصر ونسبه إلى السياسة الاستراتيجية التي طوَّرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأوضحها في أوامره ووصاياه؛ إذ كان من المحال لهذه العوامل وحدها تنفيذ تلك المنجزات الرائعة والقيام بتلك الأعمال الخالدة،

---

(١) بيلزير (٤٩٤ ـ ٥٦٥م): قائد بيزنطي انتصر على الفرس عام (٥٣٠)، وكان معه (٢٠) ألف مقاتل، في حين كانت حامية الفرس المدافعة عن حصن داراس مكوَّنة من (٤٠) ألف مقاتل، ورغم ذلك فقد انتصر على الفرس انتصاراً حاسماً، وكانت أول هزيمة للفرس أمام البيزنطيين منذ أجيال عديدة. (المؤلف).

لولا وجود طبقة، أو جيل، من المؤمنين المسلمين الذين أفنوا ذاتهم من أجل رسالة أُمتهم، وحملوا الأمانة فأخلصوا لها، واندفعوا في سبيلها، فأضاءت بهم الدنيا وأضاءت لهم، وكانت الانتصارات الرائعة ثمرة تلك العوامل كلها.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

ميَّز الكتّاب العسكريون المعاصرون بين الاستراتيجية والاستراتيجية العليا عن طريق التفريق بين الغاية السياسية والهدف العسكري، بحيث تكون غاية السياسة هي تحقيق السِّلم في ظروف أفضل، ولهذا يمكن تسميتها بالاستراتيجية العليا.

أما الاستراتيجية، فتبحث المشاكل التي تعترض الوصول إلى النصر العسكري، وهكذا يكون مدى الاستراتيجية محدوداً بالحرب، في حين تنظر الاستراتيجية العليا إلى ما وراء الحرب ونحو السِّلم الذي سيعقبها[١]. ولعل القضية المثيرة حقاً هنا هي التقنين الدقيق والمحكم في استخدام العنف واللجوء إلى القوة، بحيث تبقى غاية السِّلم هي المهيمنة دائماً على الهدف العسكري أو هدف الحرب. فقد عمل سعد على التحرك باستمرار قبل خوض معركته الحاسمة في إطار الهدف السياسي، وكانت هناك اتصالات كثيرة ووفود متصلة لإقناع الخصم بتنفيذ هدف الحرب، من دون اللجوء إلى الحرب والاحتكام إلى السلاح، هذا مع التصميم الكامل على استخدام الوسيلة التبادلية، وهي الحرب عند فشل الوسائل السِّلمية، ويظهر ذلك من خلال فرح المسلمين بعودة الوفود، وهي تعلن فشلها في مساعيها السلمية.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك اتصالات مستمرة بأبناء البلاد لإقناعهم

---

(١) لعلَّ أفضل من أوضح هذه النظرية هو الكاتب العسكري البريطاني ليدل هارت Capt. Liddle-Hart (١٨٩٥ ـ ١٩٧٢م)، الذي استطاع إيضاح كثير من مفاهيم الحرب، وعمل على تطوير نظرية الحرب؛ لا سيما عندما حدَّد بوضوح مفاهيم الاستراتيجية العليا والاستراتيجية والهجوم غير المباشر في مؤلفاته الكثيرة، والتي أفاد منها في دراسته الشاملة لتاريخ فن الحرب وتطوره. (المؤلف).

بعدالة قضية الحرب وحملهم على دعم قضية المسلمين، ولقد لقيت هذه الدعوة استجابة جيدة، ولكن الهيمنة النفسية للفرس بقيت قوية في نفوس العرب وغير العرب الذين خضعوا طويلاً لقوة الفرس، فكان لا بدَّ لإزالة هذه الهيمنة من معركة حاسمة تستطيع تحرير النفوس من قيودها، وعندما وقعت معركة القادسية، تلاحم هدف الحرب بالهدف السياسي، فكان النصر مضاعفاً؛ انتصار على الذات وانتصار على الخصم.

لقد استخدم العرب المسلمون مجموعة من الاستراتيجيات لدعم استراتيجيتهم العليا وضمان نجاحها، وفي طليعة هذه الاستراتيجيات (**استراتيجية الهجوم غير المباشر**). وقد أمكن تطبيق أساليب مختلفة لإحباط إرادة القتال عند الخصم، وإضعاف مقاومته، وإقناعه بفشل مخططاته، وقد انعكس ذلك كله على نفسية قائد الخصم ذاته الذي أصبح مرغماً على قيادة قواته، وهو مقتنع مسبقاً بانتصار العرب وفشل الفرس، ولم يكن تعبير «**أكل عمر كبدي**» الذي كرَّره رستم قبل القادسية وأثناءها، سوى تعبير عن حالة اليأس من إحراز نصر على العرب المسلمين. ولقد تطلب الوصول إلى هذه النتيجة في الواقع جهداً كبيراً، وعملاً ضخماً بدأ منذ تولّى المثنى بن حارثة الشيباني حرب العراق، ثم جاء خالد بن الوليد دعماً له، واستمرّا معاً طوال عام كامل، ويظهر ذلك من خلال حديث المثنى بن حارثة إلى المسلمين، وقد استنفرهم لحرب العراق، فأبوا إلا الشام، وأبى عمر إلا حرب العراق؛ نظراً لأن العراق ووجه فارس كان من أكره الوجوه إلى العرب وأثقلها عليهم لشدَّة سلطان الفرس وشوكتهم وعزِّهم وقهرهم الأُمم، فوقف المثنى ليقول لهؤلاء: «أيها الناس! ولا يعظمن عليكم هذا الوجه، فأنا قد تبحبحنا ريفَ فارس، وغلبناهم على خير شِقَّي السواد، وشاطرناهم، أي: قاسمناهم أرضهم، ونلنا منهم، واجترأ مَنْ قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها».

وهكذا، فإن الصراع المستمر طوال الأعوام الثلاثة التي سبقت القادسية وجهاد المسلمين المستمر قد عمل على استنزاف قوة الفرس وإظهار قوة العرب؛ لا سيما وأن معارك المسلمين في هذه الفترة كانت باستمرار معارك ظافرة، باستثناء معركة الجسر أو قس الناطف أو المروحة، وقد كان الظفر في جميعها نتيجة للتوازن الدقيق بين غاية السِّلم وهدف الحرب من جهة، وللتوازن المحكم أيضاً بين القوى والوسائط الإسلامية من جهة، وبين الأهداف المتتالية

للعمليات الحربية، من جهة ثانية. وقد رافق ذلك كله تطور كبير في الطرائق والأساليب التي كان يلجأ إليها العرب المسلمون في تنفيذ أعمالهم القتالية، والتي جاء النظام المتمفصل لحركة القوات في المعركة تتويجاً لها، ولا يعني ذلك بداهة وصول الفرس إلى مرحلة الانهيار الكامل، فقد استطاعوا أن يحشدوا في القادسية (١٢٠) ألف مقاتل، على أقل تقدير، مقابل (٢٠) ألفاً، فكان ميزان القوى ستَّة لواحد لصالح الفرس.

وعلاوة على ذلك، فقد كان الفرس يقاتلون على حدود أرضهم، فكانت خطوط إمدادهم ومواصلاتهم قصيرة، مقابل خطوط الإمداد الطويلة للعرب المسلمين. وجاء التنظيم الجديد لقوات المسلمين كي يزيد من صعوبات القيادة والسيطرة، فالعمل في النظام المتمفصل يتطلب درجة عالية من تنسيق التعاون بين القوات حتى تستطيع حماية مجنباتها ومؤخراتها، وهو يتطلب أيضاً العمل باستمرار لإعادة تجميع القوى والوسائط، وتأمين إمداد مستمر بالقوات الاحتياطية. وهنا تدخلت لعبة القدر لتجعل من قدوم القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن عتبة، وتدخُّلهما في الوقت المناسب، منذ اليوم الثاني للقادسية عملياً، الوسيلة الوحيدة لسدِّ الثغرة في النظام المتمفصل.

وتدخل القدر مرة أخرى عندما وجَّه القعقاع وحمله على تجزئة قواته حتى تصل ميدان المعركة تباعاً، وعلى شكل موجة متصلة من الإمداد. وقد يكون الحافز للقعقاع هو دعم الروح المعنوية للمسلمين، ولكن هذا الأسلوب قد أفاد في الواقع لسدِّ ثغرات النظام المتمفصل وتأمين متطلباته؛ لإعادة التنظيم وتأمين القوة الاحتياطية، فكان ذلك عاملاً كبيراً في إحراز النصر.

لقد تضافرت هذه العوامل كلها وتلاحمت في إطار متكامل، وقاد سعد قواته في إطار هذه الظروف، وهو مؤمن بالنصر، وقد كان الفاصل بين الهزيمة المنكرة والانتصار الرائع معلقاً بخيوط دقيقة، فالسلبيات مقابلة للإيجابيات والتداخل بينهما شديد التعقيد، فكانت كفاءة سعد هي في عمق الإيمان بقدرته من جهة، وبما تميَّز به العرب المسلمون من فضائل حربية، من جهة أخرى، وانعكس ذلك على القوات المتصارعة، حتى كان المسلم يشير إلى القائد الفارسي فيأتيه وعليه السلاح التام، فيضرب عنقه، وحتى أصاب أهل فارس يومئذ بعد ما انهزموا، ما أصاب الناس من قبلهم ـ من القتل ـ فيدعو المسلم الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه

فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه، وكذلك في العدَّة[1]. وتمثل هذه الصورة المتحركة النموذج الأعلى لما يمكن تحقيقه في مجال استراتيجية الهجوم غير المباشر، وهو حمل الخصم على الاستسلام بالكامل، مع الخضوع التام لإرادته، والتخلي عن كل إرادة للقتال. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن هذا الموقف لم يكن عاماً أو شاملاً لجميع قوات الفرس، فقد بقيت هناك قوات للمقاومة، وبقي هناك تصميم لدى بعض مَن أكسبتهم خبرات الحروب تصميماً على متابعة الحرب. ولكن أساليب العمل المتطورة التي طبَّقها العرب وإبداعهم في فن الحرب، ومعرفة سعد لخصائص قوات المسلمين؛ ساعدت كلها على تتويج النصر في ساحة المعركة بانتصارات تكميلية (القضاء على جيوب المقاومة والمطاردة) حوَّلت النصر في العمليات إلى نجاح كبير على مستوى السياسة الاستراتيجية.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

طبَّق العرب المسلمون منذ انطلقوا من جزيرتهم استراتيجية الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، فكانوا لا يتجاوزون منطقة إلا بعد تطهيرها من كل مقاومة للعدو، وكانوا لا يخوضون معاركهم وبينهم وبين قاعدتهم الأساسية ـ الجزيرة العربية ـ حاجز طبيعي يمنع تدفُّق إمدادهم. ولم يكن انسحاب العرب المسلمين إلى اليرموك سوى تطبيق لهذا المبدأ. ثم جاءت معركة الجسر، فكانت تجربة مريرة دفع المسلمون ثمنها غالياً، إلا أنها أكدت لهم صحة نظريتهم وهي عدم الانطلاق إلا من قاعدة قوية ومأمونة، فكانت وصية المثنى بن حارثة ـ قائد معركة الجسر ـ والذي دفع حياته ثمناً لفشلها، بأن يبقى المسلمون في حدود أرضهم، وأرسل إلى سعد يوصيه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بألا يقاتل عدوَّه وعدوهم من أهل فارس؛ إذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم... فإن يظهر الله المسلمين وينصرهم عليهم، فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرَّة عليهم[2]. وجاءت تأكيدات أمير المؤمنين وتوصياته وفقاً لهذا المضمون ذاته. وبعد فتح المدائن كتب أمير المؤمنين إلى سعد «أن قف مكانك ولا تتبعهم». وعندما أرسل أمير المؤمنين عتبة بن غزوان

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٨، ٥٦٩.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠.

إلى البصرة أوصاه «انطلق أنت ومن معك، حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم، فأقيموا»[1]. وعندما تجمع الفرس في جلولاء، عام (١٦هـ)، كتب أمير المؤمنين إلى سعد «إن هزم الله الجندين ـ جند مهران وجند الانطاف ـ فقدم القعقاع حتى يكون بين السواد والجبل، على حدِّ سوادكم».

لقد كانت تعليمات الخليفة واضحة ومحددة، وهنا تظهر كفاءة القائد سعد بن أبي وقاص في التوفيق بين أوامر القيادة السياسية، وبين ما تتطلبه ضرورات العمل على مسرح العمليات، كلُّ ذلك في إطار غاية السِّلم وهدف الحرب، مما أدّى إلى فتح برس وبابل، عام (١٥هـ/ ٦٣٦م)، وفتح بهرسير والمدائن وجلولاء وتكريت وماسبذان وقرقيساء، عام (١٦هـ/ ٦٣٧م)، ولم تكن هذه الفتوحات سهلة، بل كانت بعض هذه الفتوحات على جانب من الأهمية لا تقل عن أهمية معركة القادسية، كوقعة جلولاء مثلاً. وإذا ما أمكن تقدير المساحة الجغرافية لهذا التوسع التدريجي، فسيظهر أن هذه المساحة تعادل العراق بكامله، وحتى الحدود الفارسية الإيرانية، المتمثلة بجبال زاغروس، أو ما كان يطلق عليه اسم إقليم الجبال.

وهكذا بدأ فتح العراق بالقادسية، وانتهى عند حدود جبال زاغروس على نحو يشابه تماماً ما تمَّ تطبيقه في الشام، حيث بدأت الفتوح باليرموك وانتهت بالتوغل فيما وراء الدروب، ولكن مع فارق واحد، هو أن عملية التوسع التدريجي قد استغرقت على جبهة العراق زهاء ثلاثة أعوام، ويعود السبب في ذلك إلى مجموعة من العوامل، كصعوبة الطبيعة الجغرافية، وتنظيم الفرس لمجموعة من المقاومات المتتالية، بالإضافة إلى حجم القوات العربية، والذي لم يكن يتناسب أبداً مع حجم الأهداف المتتالية.

كانت عملية تأمين قواعد الانطلاق، وتنفيذ عمليات التوسع التدريجي (بقعة الزيت) محكومة بعوامل خارجية وعوامل داخلية؛ فقد كانت تحدِّيات الفرس تشكل حافزاً خارجياً لمتابعة الفتوح؛ كما كان تعاظم قوات العرب المسلمين أو ضعفها على مختلف الجبهات ينعكس على عملية الفتوح. وهكذا فقد كان عام القحط والرمادة، عام (١٨هـ/ ٦٣٩م) من عوامل الهدوء والاستقرار على الجبهة الشرقية، وكان تعاظم نشاط الروم على جبهة الشام ومصر، عام (١٩هـ/ ٦٤٠م)

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٩١.

من العوامل التي ساعدت على إيقاف كل نشاط على الجبهة الشرقية، ورافق ذلك هدوء نسبي من قِبل الفرس وإيقاف النشاط الاستفزازي، إلا في حدود ضيقة، ولكن استفزازات الفرس أخذت في التعاظم في الوقت الذي أخذت فيه جبهة الروم (البيزنطيين) في الهدوء والاستقرار، وأدّى الموقف المتدهور في عام (٢١هـ/ ٦٤٢م) إلى موقعة نهاوند (فتح الفتوح)، وكانت قاعدة العراق في هذه الفترة قوية ومأمونة، فأطلق أمير المؤمنين عمر قوات المسلمين، وضمن لها حرية العمل.

ولم تمضِ سوى أعوام ثلاثة حتى وصلت قوات المسلمين شرقاً إلى حدود الهند والسند، ووصلت شمالاً حتى أرمينيا وأذربيجان، وأحاطت ببحر قزوين وفتحت باب الأبواب (باكو)، كما انتشرت جنوباً على امتداد المحيط الهندي، وحتى ديبل (كراتشي).

لقد استطاع سعد بن أبي وقاص تحقيق التوازن الرائع، بحيث لم ينكب المسلمون في عهد ولايته وقيادته، ولم تنتكس لهم راية، وكانت قواتهم تتحرك من موقع إلى موقع، بثقة وإيمان؛ في إطار من التخطيط الدقيق الذي يضع في تقديره للموقف جميع الاحتمالات.

إن عملية إقامة قواعد قوية ومأمونة قد ارتبطت بعمليات معقدة وبعوامل كثيرة ومتنوعة، أبرزها: إقامة المجتمع الجديد ـ وتنظيم العلاقات الجديدة في المجتمع، وتأمين القدرة البشرية اللازمة لمتابعة الفتوح مع تأمين الإمداد بالموارد الحياتية (التعايش مع الوسط المحيط)؛ نظراً لأن قوات العرب المسلمين لم تكن تعتمد في إمدادها على المستودعات المتحركة، أو المخزون الاحتياطي. وهكذا لم يكن تأمين القاعدة يقتصر على ضمان الشروط الدفاعية والأمنية، وإنما يتطلب شروطاً إضافية تضمن تطوير الأعمال القتالية، وتوسيع أعمال الفتوح.

وهنا تظهر نقطة حاسمة، فقد كان الاعتماد على القدرة البشرية التي تتضمنها القاعدة الجديدة إنما يعني الاعتماد على جيوش المرتزقة، وهو الأسلوب الذي لجأت إليه الجيوش القديمة واستخدمته، ثم تحملت أعباءه وتبعاته، ولكن الأمر لم يكن يشكِّل خطورة في عهد قوة العرب المسلمين لسببين: أولهما: تأمين العدالة في توزيع الغنائم؛ وثانيهما: ما تضمنه النظام الإسلامي من مساواة بين المسلمين، مَن أسلم منهم قديماً أو حديثاً. وهذا ما حفز القدرة البشرية في

القواعد الجديدة على اعتناق الإسلام؛ لا سيما بعد أن ظهر للشعوب جميعها ما ضمنه الإسلام من قيم في بناء المجتمعات الجديدة مما كان يطغى على كل ربح مادي، فانصهرت بذلك القدرة البشرية للمسلمين، العرب منهم وغير العرب، ولكن تحت سيادة العرب الذين اعترف الجميع بحقِّهم في السيادة؛ لسبقهم في الإسلام، ولفضائلهم الحربية، فتكوَّن بذلك جيش العرب المسلمين الذي بقي أبعد ما يكون عن جيش المرتزقة، رغم أنه ضمَّ أعداداً ممن قبلوا العمل تحت راية الإسلام مع المحافظة على دينهم.

٣ ـ بناء المجتمع الجديد

كتب سعد إلى أمير المؤمنين بعد القادسية: «إن أهل السواد جلوا، فجاءنا من أمسك بعهده، ولم يجلب علينا فتمَّمنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم، وزعموا أن أهلَ السواد قد لحقوا بالمدائن، فأحدِث إلينا فيمن تمَّ وفيمن جلا، وفيمن ادعى أنه استُكره وحُشِر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم، فإنا بأرض رغيبة، والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل، وقد كثر أهل صلحنا، وإنَّ أعمرَ لنا وأوهن لعدونا تألفهم»[1].

كانت هذه أول عقبة جابهها سعد بن مالك بعد الفتح، فقد جلا أهل العراق، ولم يبق سوى أولئك الذين عقدوا صلحاً مع خالد بن الوليد (أهل بانقيا وبسْما وأهل أليس الآخرة) وحافظوا على عهدهم، وقد أمكن مبادلة هؤلاء وفاءً بوفاء، ولكن أهل المدائن التحقوا بالفرس، وفيهم من زعم أنه كان مكرهاً على الانسحاب مع الفرس، وأنه اغتنم أول فرصة للهرب، وفيهم من قاتل ولكنه استسلم للمسلمين، وأصبحت الأرض خلاء. وقد استشار سعد أمير المؤمنين فيما يجب عمله، واقترح تآلف هؤلاء حتى يعملوا على استصلاح الأراضي وزراعتها؛ لا سيما وأن عدد العرب لا يسمح لهم بالاضطلاع بواجبين معاً؛ الحرب والزراعة، وعلاوة على ذلك فإن تآلف أهل البلاد سيدعم من قوة العرب المسلمين، وسيُضعف أعداءهم.

عندما وصلت رسالة سعد إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه؛ جمع المسلمين في المسجد، واستشارهم فيما كتب إليه سعد، ثم أجابه برسالة جاء فيها:

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٥.

«. . . أما بعد؛ فإن الله ﷻ أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة والذكر؛ . . . وأما العدل، فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدَّة ولا رخاء، والعدل وإن رُئِيَ ليِّناً إلا أنه أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور. . . فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يُعِن عليكم بشيء، فلهم الذمَّة وعليهم الجزية، وأما من ادَّعى أنه استُكْرِه ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض، فلا تصدقوهم بما ادَّعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا، وإن لم تشاؤوا فانبذوا إليهم، وأبلغوهم مأمنهم».

وعمل سعد على دعوة أهل السواد حتى يرجعوا إلى أرضهم على أساس الصلح والذمَّة، فأجابوا وتراجعوا، فصاروا ذمَّة وعليهم الجزاء ولهم المنعة.

وجمع سعد بعد معركة جلولاء (١٣٠) ألفاً من الأسرى، وكتب إلى أمير المؤمنين فيما يجب عمله، فأجابه: «أقر الفلاحين على حالهم، إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوِّك فأدركته، وأجرِ لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم»، فعمل سعد على ضمان استقرار الفلاحين. . . واستصفى ما كان لآل كسرى ومن لجَّ معهم فيئاً لمن أفاء الله عليه؛ لا يجاز بيع شيء من ذلك. . . وأقر المسلمون ذلك ولم يقتسموه. وكان صلح عمر الذي صالح عليه أهل الذمَّة؛ أنهم إن غشُّوا المسلمين لعدوِّهم برئت منهم الذمة، وإن سبوا مسلماً أن ينهكوا عقوبة، وإذا قاتلوا مسلماً أن يُقتلوا، وعلى عمر منعتهم؛ وبرىء عمر إلى كل ذي عهد من معرة الجيوش[1].

وفي عام (١٧هـ/ ٦٣٨م) تزايدت الأعباء الدفاعية على قوات المسلمين، وعرف أمير المؤمنين ذلك، فكتب إلى سعد وولاته على العراق أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة ـ أهل العراق ـ لحماية الثغور، وكتب عمر إلى أهل البصرة: «إني بعثت أميراً عليكم. . . ليأخذ لضعيفكم من قويِّكم، وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن ذمَّتكم، وليحصي لكم فَيْأكم ثم ليقسمه بينكم، ولينقي لكم طرقكم»[2].

تبرز هذه المقولات كلها أسس بناء المجتمع الجديد، وقد حفظت المصادر العربية قصصاً لا نهاية لها، وشواهد لا يمكن حصرها، تبرهن كلها على حرص قادة العرب المسلمين لبناء المجتمع الجديد، المجتمع الإسلامي، على أسس

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٢.
(٢) تايخ الطبري ٤/ ٧٠.

ثابتة وقواعد واضحة، ولم تكن قصة مصالحة المسلمين لأهل جندي سابور سوى نموذج لها. فقد انطلق المسلمون بعد معركة نهاوند لفتح بلاد فارس، وبعد شهرين وصلت طلائعهم إلى جندي سابور وحاصروها، وبوغت المسلمون يوماً عندما رأوا أهل المدينة وقد فتحوا أبواب مدينتهم للمسلمين. وفي وسط الذهول استعلم المسلمون عن أسباب استسلام المدينة لهم، فقيل لهم: «إنكم رميتم إلينا الأمان وقبلناه، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا وتدافعوا عنا. فقالوا: ما فعلنا. وأجاب الفرس: ما كذبنا. فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم، فقالوا: إنما هو عبد، فقالوا: إنا لا نعرف حرَّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبدل؛ فإن شئتم فاغدروا». فأمسك المسلمون عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم: إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دمتم في شك أجيزوهم ووفوا لهم. فوفّى المسلمون لهم، وانصرفوا عنهم.

يمكن القول هنا إن العقيدة الإسلامية، هي التي نظمت أسس إقامة المجتمع الجديد، وأن الدين الإسلامي قد وضع جميع القواعد الضرورية لإعادة تنظيم العلاقات الخاصة والعامة في جميع المجتمعات البشرية، وأن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وقادته، وفي مقدمتهم سعد بن مالك، لم يقوموا بدور أكبر من تطبيق تلك الأسس والقواعد وفقاً لما تتطلبه المواقف المستجدَّة، وتلك هي حقيقة لا يمكن تجاهلها أو إنكارها.

وهنا يبرز التكامل الرائع بين الدين الإسلامي مذهباً والعقيدة القتالية للعرب المسلمين مسلكاً ومنهجاً، ولكن ذلك لا ينفي الدور الحاسم الذي قام به سعد بن مالك لتطبيق القواعد والأُسس، ولا ينتقص من دوره في إرساء دعائم المجتمع الجديد، وفي التطبيق الماهر نوع من الإبداع لا يقلُّ في كثير من الأحيان عن إيجاد أُسس جديدة أو وضع قواعد متطورة. وهناك ثمَّة أشياء موجودة في عالمنا، ورغم ذلك فإن الكشف عن هذه الأشياء وتحديد العلاقات فيما بينها بوضوح، والإفادة منها لا ينتقص من قيمة العلماء والمخترعين، ولا يسيء إلى دورهم وما يقدِّمونه للبشرية من منجزات تفيد حياتهم الدنيا.

لقد كان سعد بن مالك أول من نظم للعرب المسلمين قواعدهم خارج الجزيرة العربية، وفي طليعة من أقام بنيان المجتمع الجديد في العراق، وكانت فترة الأعوام الثلاثة، ما بين القادسية وإكمال فتح العراق، هي فترة (١٤ ـ ١٧هـ)

تحصين المجتمع الجديد، ثم جاءت فترة الأعوام الثلاثة التالية (١٧ ـ ٢٠هـ) لتكون فترة الإعداد من أجل الانتقال لبناء قاعدة جديدة في فارس، وقد يكون من المذهل تحقيق تلك المنجزات كلها في فترة ستة أعوام فقط. ولا ريب أن استخدام القوة لم يكن مقبولاً أو محتملاً لإقامة مثل هذا البناء الشامخ، ولو تمَّ الاحتكام إلى القوة وحدها؛ لَما كان بالمستطاع تطوير العمليات في اتجاه الشرق، ولاضطر العرب المسلمون إلى إبقاء قواتهم في قاعدة العراق للمحافظة على المجتمع الجديد والدفاع عنه، وهذا في حدِّ ذاته برهان على سلامة المجتمع الجديد وقوَّة بنيانه وصحة تكوينه.

٤ ـ وضوح الهدف

تمثل حروب العرب المسلمين النموذج الكامل للحرب المطلقة، وذلك لانطلاقها من أسباب قوية. ويكون من الطبيعي والحالة هذه أن تتشابك الأُمور بعضها في بعض وأن تتفاعل أحداثها بصورة سريعة ومذهلة، مما يخفي النقاط المحايدة. ومما يؤدي إلى القول بأنه لم يكن لحروب العرب المسلمين سوى غاية واحدة، هي الغاية النهائية التي تنتهي بإقامة بناء المجتمع الجديد على أُسس الإسلام وقواعدة. ويكون من الطبيعي أن تتعدد التأثيرات المتبادلة التي تحملها الحرب في داخلها، وأن تكون هناك روابط قوية تصل بين المعارك المتتابعة التي تصل في النهاية إلى نقطة الذروة في المعركة الحاسمة. وقد كان إدراك قادة العرب المسلمين ومقاتليهم لهذه الحقيقة عاملاً في رفضهم للحلول الوسط التي كان يقترحها أعداء العرب المسلمين لإبعادهم عن هدف الحرب، وهو الهدف الذي كان يتجسد في هزيمة العدو حتى ينطبق هدف الحرب مع مفهومه. وقد تطلب ذلك من سعد بن مالك ضمان شروط محددة، وهي:

١ ـ تحقيق نصر حاسم على قوات الفرس.

٢ ـ زجُّ كل القوى والوسائط الممكنة ومتابعة الصراع حتى الوصول إلى نقطة النصر مهما تطلب ذلك من تضحيات وخسائر.

٣ ـ بذل أقصى الجهود الممكنة لاستقرار الموقف في قاعدة العرب المسلمين والتصميم على غاية السِّلم وهدف الحرب وحمل العدو على تكوين قناعة بحتمية تحقيق هذا الهدف، واكتساب الأنصار من صفوف الأعداء أو تحييدهم ـ على الأقل ـ.

وهكذا فإن تعلق غاية السِّلم بهدف الحرب عند العرب المسلمين هو الذي جعل حروبهم متميزة بجميع خصائص سياستهم. ونظراً لما كانت عليه أهدافهم السياسية من القوة، وهي نشر الإسلام، فقد جاءت حروبهم كذلك بحيث كانت تصل في ذروتها حتى الشكل المطلق، على نحو ما كانت عليه القادسية.

لقد سبقت فتوحات العرب المسلمين في الواقع حروب مماثلة، كحروب الإسكندر الكبير، كما تبعتها حروب مماثلة أيضاً (هجمات المغول ـ التتار)، وكلها كانت واضحة الهدف من حيث تدمير قوة العدو القتالية، ومن حيث السيطرة على أرضه. ولكن قد يكون من الخطأ إجراء هذه المقارنة بسبب التشابه في الظواهر؛ ذلك أن حروب العرب المسلمين لم تستخدم هدف الحرب ـ وهو تدمير قوات العدوِّ ـ كغاية في حدِّ ذاتها، بقدر ما كان وسيلة للوصول إلى غاية السِّلم. وكذلك إن تجريد العدو من موارده الحياتية عن طريق انتزاع الأرض من قبضته، لم يكن هو غاية السلم، بقدر ما كان وسيلة أيضاً لإقامة المجتمع الجديد، وهذا ما انتهى بانتصارات الإسكندر إلى صفحات التاريخ، وكذلك بالنسبة للمغول (التتار) الذين لم يتركوا على صفحات التاريخ سوى آثار التدمير، واضطروا إلى التخلي عن هدف الحرب، **لامتناع غاية السِّلم الإسلامية، فأقبلوا على اعتناق** الإسلام ديناً ومذهباً.

لقد كانت غاية السِّلم واضحة للمقاتلين من العرب المسلمين، مثلما كانت واضحة لهم أهداف الحرب، ويظهر ذلك بصورة مشرقة من خلال سلوك الوفود الإسلامية ورجال المفاوضات الذين كانوا يمارسون دورهم كرجال سياسة، بقدر ما كانوا يضطلعون بواجبهم كرجال حرب، فكانوا بذلك جميعاً يشكِّلون جيشاً من الأُسود يقودهم الأسد في براثنه، ويصبح من البدهي أن تكون غاية السِّلم وهدف الحرب على درجة كافية من الوضوح في ذهن القائد بأكثر مما هي واضحة في عقول الرجال التابعين له والخاضعين لقيادته.

تتطلب قضية الوضوح في الهدف بالضرورة إجراء مقارنة بين ما كان عليه موقف سعد بن أبي وقاص وجيش المسلمين، وبين ما كان عليه موقف خصومهم؛ فقد خرج المسلمون لحمل رسالة الإسلام وتعريف الدنيا بها، في حين كان هدف الفرس هو المحافظة على الدنيا والدفاع عنها. وكانت جيوش الفرس تعتمد على الخزينة التي كان ملوك الفرس يعتبرونها خزينتهم الخاصة، أو على الأقل كمصدر يعود إلى الحكومة أكثر مما يعود إلى الشعب، وكانت العلاقات الخارجية مع الدول الأخرى تسعى لتحقيق مصالح الخزينة أو

الحكومة؛ لا مصالح الشعب، باستثناء بعض الأمور التجارية، وكانت الأمور كلها تميل نحو هذا الاتجاه.

وهكذا كانت قيادة الفرس تعتبر نفسها مالكة ومدبرة لمساحات تسعى دائماً إلى توسيعها، ولا يهتم ملّاك الأرض الحقيقيون بتطويرها وتحسينها. أما الشعب، وتقتصر كلمة الشعب هنا على مَن كانوا يملكون بالفعل حقوق المواطن، الذي كان يقوم بدور حاسم في الحروب، فقد غدا شيئاً لا يُذكر، وقد أدّى انفصال الحكومة عن الشعب وتصرفها وكأنها الدولة كلها إلى اعتبار الحرب عملاً خاصاً من أعمال الحكومة يسيِّره المال، وينفذه أفراد متفرِّغون لا شاغل لهم؛ تجمعهم الإدارة الفارسية من جميع الأقاليم التابعة لها، أو البلاد المجاورة لها، على نحو ما كانوا يفعلونه في اعتمادهم على العرب لحماية ثغورهم، بحسب ما هو معروف، وكما هو واضح أيضاً من أحاديث قادة الفرس أثناء مفاوضاتهم مع وفود العرب المسلمين.

ولعلَّ أوضح صورة تُبرز الفارق بين هدف الحرب وغاية السِّلم عند العرب وأعدائهم قصة أمير المؤمنين عمر عندما وصله خُمس بيت المال بعد قسمة الغنائم في القادسية: «لما أُتيَ بحلي كسرى وزيِّه في المباهاة وزيِّه في غير ذلك، وكانت له عدة أزياء، لكل حالة زيٌّ، قال: عليَّ بمحلم، وكان أجسم عربي يومئذ بأرض المدينة، فأُلبس تاج كسرى على عمودين من خشب، وصبَّ عليه أوشحته وقلائده وثيابه، وأُجلس للناس، فنظر إليه عمر ونظر إليه الناس، فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها؛ ثم قام عن ذلك، فألبس زيه الذي يليه، فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع، حتى أتى عليها كلها؛ ثم ألبسه سلاحه، وقلده سيفه، فنظروا إليه في ذلك، ثم وضعه وقال: إن أقواماً أدّوا هذا لذوو أمانة. ونفل سيف كسرى محلماً، وقال: أَحْمِقْ بامرىء من المسلمين غرَّته الدنيا! هل يبلغن مغرور منها إلا دون هذا أو مثله! وما خير امرىء مسلم سبقه كسرى فيما يضره ولا ينفعه! إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أُوتي عن آخرته، فجمع لزوج امرأته أو زوج ابنته أو امرأة ابنه، ولم يقدِّم لنفسه، فقدم امرؤ لنفسه ووضع الفضول مواضعها تحصل له؛ وإلا حصلت للثلاثة بعده، وأحمق بمن جمع لهم أو لعدوٍّ جارف»[1].

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٣.

انطلاقاً من هذا الاختلاف في فهم هدف الحرب؛ حاول يزدجرد وقائده رستم إغراء العرب بالأموال والعطاء، وتذكيرهم بما كانوا يفعلونه مع العرب في حالات مماثلة قبل الإسلام، وكان ردُّ سعد وقادته حاسماً: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وتبعاً لهذا الاختلاف في المنطلقات والأهداف؛ جاء الاختلاف في أساليب خوض معركتها وتنظيم القوات فيها، وتبع ذلك اختلاف في نتائجها رغم كل تفوق في ميزان القوى والوسائط، ورغم جميع العوامل التي لم تكن أبداً لصالح العرب المسلمين، وفي طليعتها خوض الحرب على تُخوم فارس بعيداً عن أقرب قاعدة للعرب المسلمين، سواء في الجزيرة أو الشام.

٥ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام

قال عمر بن الخطاب بعد وقعة جلولاء: «لوددت أنَّ بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلُصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد؛ إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال»[1].

وكان سعد بن مالك، شأنه شأن أمير المؤمنين، وقادة المسلمين جميعاً؛ من حيث حرصهم على العنصر العربي. فقد كان على العرب مسؤولية ثقيلة هي حمل الرسالة، وأداء الأمانة، وكان حجم الفتوحات أكبر من حجم القوة العربية كلها، فكان الحرص على العنصر العربي وسيلة وليس غاية في حدِّ ذاتها، وهي وسيلة من أجل توفير القدرة لمتابعة أداء الرسالة. وقد حشد العرب أقصى قدرة بشرية يستطيعونها لمجابهة الروم (البيزنطيين)، فكانت عدَّتهم زهاء ثلاثين ألفاً، وفعلوا مثل ذلك لمجابهة الفرس، فكانت عدَّتهم أيضاً زهاء ثلاثين ألفاً؛ يزيدون أو ينقصون قليلاً، وكانت خسائرهم في مثل هذه المعارك الحاسمة كبيرة فادحة. فقد تحملت قبيلة الأسد في اليوم الأول لمعركة القادسية ثقل المعركة، فكانت خسائرها (٥٠٠) قتيل، وفي اليوم الثاني خسر المسلمون ألفي مقاتل ما بين قتيل وجريح، مقابل (١٠) آلاف من خسائر الفرس، وفي يوم القادسية وليلة الهرير خسر المسلمون (٦) آلاف مقاتل، فتكون خسائر المسلمين في معركة القادسية كلها زهاء (٩) آلاف؛ أي ما يعادل ثلث حجم القوة العددية للجيش كله، وهي نسبة عالية جداً. فإذا ما أخذ بنسبة الخسائر في اليوم الثاني، فسيظهر بأن الفرس

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٨.

قد خسروا أيضاً في حدود (٤٠) ألفاً بين قتيل وجريح، وقد ينقص العدد الحقيقي لخسارة الفرس كثيراً عن هذا التقدير، ولكن ذلك يظهر أنه رغم كل الخسائر فسيبقى هناك فارق كبير في القدرة على تعويض الخسائر؛ **إذ سيبقى لدى الفرس في حدود (٢٠٠) ألف من قواتهم التي حشدوها للقادسية مقابل (٢٠) ألفاً للعرب المسلمين.**

وقد كان من الواضح لقادة المسلمين جميعاً أن هذه المعارك ليست سوى بدايات درب الجهاد الطويل، وكان ذلك حافزاً أيضاً للمزيد من الحرص على العنصر العربي. ولهذا، فقد جابه سعد بن أبي وقاص هذا الموقف باتخاذ جميع تدابير الحيطة والأمن للوصول بقواته كاملة إلى ميدان المعركة، وحرص بعد ذلك على تدمير أكبر قوة من الفرس حتى لا يسمح لها بإعادة التجمع وتشكيل حجم من القوى والوسائط يزيد على قدرة العرب المسلمين؛ كل ذلك إلى جانب التخطيط الدقيق للعمليات المتتالية من أجل تحقيق هذا الهدف ذاته.

وكانت عقود الصلح مع أهل البلاد تفرض حماية المسلم، والدفاع عنه وتشديد العقوبة إذا ما تعرض المسلم للخطر أو القتل، وذلك لتحقيق هدف مزدوج، أولهما ضمان القدرة المعنوية للمسلم وإشعاره بالعزَّة التي يضمنها له الإسلام، وثانيهما المحافظة على العنصر العربي حتى يستطيع متابعة السير على درب الجهاد.

لقد كان هدف الحرب في الجيوش القديمة هو تدمير قدرة العدو القتالية عن طريق تدمير قدرته البشرية، وكان حجم الخسائر هو المؤشر الحقيقي على الانتصار أو الفشل؛ لا سيما مع صعوبة التعويض بالقدرة البشرية، ولكن نظراً لاعتبار تدمير قدرة العدو البشرية والقضاء على جيوشه هو وسيلة في حروب العرب المسلمين، فقد كان العرب المسلمون على استعداد لقبول كل التضحيات، رغم قلة مواردهم البشرية، وتصعيد حدَّة الحرب حتى الوصول إلى ذروتها. ومن هنا يظهر أنه ليس ثمة تناقض أبداً بين حرص سعد على قوة المسلمين، وبين الاستعداد لتحمل أقصى خسارة في القدرة البشرية من أجل حسم القتال لمصلحة المسلمين.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

يتشابك مضمون استراتيجية الحرب التشتيتية مع مضمون استراتيجية الهجوم

غير المباشر، ويكون الهدف في الحالين واحداً، وهو تدمير القوى المعنوية للعدو، وحرمان قيادته من اتخاذ القرار المناسب وتنفيذه في الزمان والمكان الملائمين. وقد خاض العرب المسلمون حربهم ضد الفرس في إطار من الحرب التشتيتية، وذلك منذ بدأ المثنى بن حارثة الشيباني أعماله على مسرح العراق في السنة الحادية عشرة للهجرة، وقد طبق سعد بن مالك هذه الاستراتيجية بوسائل مختلفة، كان في مقدمتها حرمان العدو من موارد معلوماته بالقضاء على مخافره المتقدمة، مسالحه، إلى جانب اتخاذ التدابير المختلفة لحماية قوات المسلمين ضد المباغتات المتوقعة أو الممكنة.

وكانت خفة الحركة والمرونة ونشر نطاق أمن كبير من العوامل التي مارست دورها لتشتيت قيادات الفرس، وحرمانها من تقدير الموقف الصحيح لحجم قوات المسلمين وقدراتهم وأساليبهم الجديدة، فاستمرت هذه القيادات في تقديرها للموقف على أساس أفكارها السلفية، وهي الأفكار التي تعتبر نبال العدو مجرد دوك أو نبابيت، وتعتبر سيوفهم ذات الخلق القديمة أو القماشية المهترئة أنها لا تستطيع مجابهة سيوف الفرس القوية. وبذلك فقد كان ظهور قوات العرب في ساحة اليرموك، وهي منظمة بأسلوب يماثل تنظيم قوات الفرس؛ طلائع، مجنبات، قلب، مؤخرة، من الأمور المذهلة للفرس.

وعلاوة على ذلك، فقد نظم سعد قواته بما يتوافق مع النظام المتمفصل لقوات العرب المسلمين، وبما يستجيب أيضاً لتنظيم الفرس، وكان هذا التنظيم هو التعاون الوثيق بين قوات الصدمة (الفرسان) وقوات الرمي (المشاة)، ويظهر ذلك من خلال المقولة التالية: «إن عدوَّكم قد أبى إلا المزاحفة، ورأي أميركم بأن تحمل الخيل ومعها الرجالة، ذلك أن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فتيسَّروا للحملة وانتظروا التكبيرة»[1].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد نظم سعد قواته على ثلاثة أنساق: نسق الصدمة (الفرسان)، ثم نسق الرماة، فنسق المشاة الثقيلة حاملي الرماح، مع تركيزه قوة الصدمة على الجناحين. ولم يدرك قادة الفرس ميِّزات النظام المتمفصل، وأخذوا بظاهر التنظيم الخطّي، في حين كانت قدرة هذا التنظيم الضمنية هي في

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٠.

مرونته وكفاءته الحركية العالية. وطبَّق سعد بعد ذلك أساليب الحرب التشتيتية لمطاردة فلول الفرس بسرعة، حيث أرسل مفارز ومجموعات من الفرسان في كل اتجاه. لقد لقي الفرس قوات المسلمين بعدَّة لم يرَ الراؤون مثلها، فلم ينتفع الفرس بذلك، واتبعهم المسلمون على الأنهار وفي الفجاج.

لقد ساعدت أساليب الحرب التشتيتية، على مستوى العمليات، في نجاح سعد لاستخدام قوة العرب المسلمين بكاملها. وهكذا كانت قوة العرب المسلمين تشتبك في القتال كلها، في حين كان تنظيم الفرس لا يسمح إلا باستخدام جزء فقط من القوة. وقد كان لهذا التنظيم سيئته فيما تكبَّده المسلمون من خسائر فادحة في الأرواح أثناء المعركة، ولكنهم عوضوا عن ذلك بعد المعركة، وبعد أن تحوَّل الموقف لمصلحتهم، فعملوا على مطاردة قوات الفرس وتدميرها على التتابع، فكانت محصلة خسائر الفرس أكبر بكثير من محصلة خسائر المسلمين. وبذلك كانت استراتيجية الحرب التشتيتية قبل القادسية وأثناءها وبعدها في جملة العوامل التي ضمنت للمسلمين انتصارهم الحاسم.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

إذا كانت معارك المسلمين قبل القادسية هي معارك استطلاعية، فإن معارك المسلمين بعد القادسية هجمات وقائية متقدمة ذات هدف مزدوج، أولها نقل المعركة إلى منطقة العدوِّ وحماية قاعدة المسلمين، وثانيها هو إجهاض هجمات العدو قبل البدء بها. وهكذا لم يمضِ أكثر من شهرين على القادسية حتى أسرع سعد بقواته إلى المدائن حتى يقضي على مقرِّ العدوان، وكانت فلول الفرس قد تجمعت في بابل بقيادة الفيرزان، وقالوا: «نقاتلهم دستاً قبل أن نفترق». وأسرع المسلمون إليهم، فدمروا تجمُّعهم، وانطلق الفرس على وجوههم ولم يكن لهم إلا الافتراق، فخرج الهرمزان متوجهاً نحو الأهواز، وخرج الفيرزان معه حتى طلع على نهاوند وبها كنوز كسرى، وصمد النخيرجان ومهران الرازي للمدائن، فأقام سعد في بابل ثم انتقل إلى بهرسير. وأقام المسلمون على بهرسير شهرين، يرمونها بالمجانيق، ويدبُّون إليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدَّة. وصمد الفرس وراء خنادقهم وحرسهم وعدة حربهم، ورموا المسلمين بالمجانيق والعرادات، فاستصنع سعد المجانيق، فنصب على أهل بهرسير عشرين منجنيقاً فشغلوهم

بها[1]، وفتح المسلمون بهرسير، ثم انتقلوا منها إلى المدائن.

وبلغ سعد أن مهران قد عسكر بجلولاء وخندق عليه، وأن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت، وتوجه هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، بناءً على أوامر أمير المؤمنين. وانتصر المسلمون بعد معركة طاحنة، وأحبطوا مخطط الفرس الذين مزقتهم معركة المدائن: (افترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس، وتجمعوا فقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبلينا عذراً. فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مهران الرازي)[2]. وبلغ سعد اجتماع أهل الموصل إلى الأنطاق وتنظيم المقاومة في تكريت وحفر الخنادق والتصميم على قتال العرب، فوجَّه سعد جيشاً لتدمير فلول الفرس وفتح تكريت، وتكررت العملية في ماسبذان وقرقيساء.

لقد كانت استراتيجية الهجمات الوقائية عند العرب محكمة بدقة، ومرتبطة بردود فعل العدو، فكان سعد ينتظر الفرس حتى تتجمع قواتهم، ولكنه لم يكن يترك لهم الوقت لإكمال استعداداتهم القتالية، أو تنظيم قواتهم للهجوم حتى يباغتهم في مواقعهم، ويعمل على تدمير قواتهم، وكانت هذه الاستراتيجية مرتبطة باستراتيجية الحرب التشتيتية، بحيث كانت قوات المسلمين تعيق كل تعاون بين جيوب المقاومة القتالية، ثم تحشد ما يكفي من القوات لتصفية جيب المقاومة الأكثر خطورة بضربة حاسمة، حيث يتم الانتقال بعدها لتصفية الجيب التالي، وهكذا حتى يتم القضاء على جميع مقاومات العدوِّ.

وكانت استراتيجية الهجمات الوقائية، على أهميتها، في جملة الاستراتيجيات التي استخدمها العرب في فتوحاتهم، وكانت هذه الاستراتيجيات بمجموعها متداخلة بإتقان رائع، بحيث تشكل فسيفساء فنِّ الحرب عند العرب المسلمين.

وبعد، قد يكون من الصعب إبراز جميع ملامح الاستراتيجيات التي أبرزها العرب المسلمون في حروبهم، والتي حدَّدوا بوضوح طرائق تطبيقها، كما قنَّنوا بدقة ما هو ملائم لعلاج كل موقف من المواقف ومجابهته بالاستراتيجية الملائمة له.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٦.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٢٤.

ب ـ في مبادىء الحرب

يظهر من خلال التعرض لقضية مبادىء الحرب، وبصورة دائمة، مجموعة من المسائل المعقدة، مثل مسألة التعلم من حملات كبار القادة، ومثل مسألة التعلم من التجربة بحسب النظرية القديمة. وقد انصرف الكتّاب العسكريون منذ القرن الثامن عشر بصورة خاصة لمعالجة المبادىء والأُسس التي يمكن لها توجيه القائد في عمله، على أن تؤخذ هذه المبادىء بقدر كافٍ من المرونة، بحيث يمكن تطبيقها وفقاً لكل حالة خاصة؛ ذلك لأنه لا يوجد في الحرب أيُّ شيء عدا الحالات الخاصة، ولكل شيء طابعه الانفرادي الذي يتميز به، فضلاً عن أن شيئاً مما حدث لا يتكرر ثانية. ولقد أدّى الالتزام الأكاديمي في كثير من الأحيان إلى كوارث مدمرة عند مجابهة موقف صعب لم تتطرَّق مبادىء الحرب لمعالجته، مما أدّى ببعض القادة إلى القول: «**فليذهب التاريخ ولتذهب معه كل الأُصول والتعاليم إلى الجحيم، وإن ما يجب معرفته أولاً: نوع المشكلة التي تواجهني؟ وما هو الموضوع؟**»

ويظهر من خلال هذا التناقض في وجهات النظر الموقف الحقيقي للتعلم من الحرب، أو الصراع بين النظرية والتطبيق. وقد يكون من السهل تعلم المهن، كالنجارة والحدادة والزراعة، عن طريق الممارسة، وكذلك الأمر بالنسبة لمهنة احتراف السلاح، ولكن برهنت الأحداث على أن التعلم النظري وفق مبادىء واضحة وأُسس علمية مبرمجة؛ يزيد من قدرة العامل الفني؛ لا سيما في عصر التقنية، وعلاوة على ذلك، فقد يكون من المحال التعلم من مدرسة الحرب العملية، بسبب الخسارة الفادحة التي يمكن التعرض لها في حالة عدم الإعداد المسبق، ولهذا يتم وضع نظرية الحرب على أُسس من المبادىء الثابتة ووفقاً للتصورات الممكنة، وتبقى الحرب الحقيقية في جميع الأحوال هي المختبر الحقيقي للأفكار والمبادىء. وهنا تظهر العبقرية الحقيقية للقائد، والفضائل الحقيقية للجيش أو القوات المسلَّحة. أما قضية عدم تكرار أحداث الحرب،

فهي حقيقة لا يمكن إنكارها إنْ كان الأمر يتعلق بالتكرار الدقيق والمماثل تماماً، فالزمن يمر بسرعة وتتغير العلاقات تبعاً لمرور الزمن، وتبعاً لتبدُّل مجرى الأحداث الجغرافي. ولكن إذا كان التغير والتبدل هو من الأُمور الحتمية والمتوافقة مع طبيعة الأشياء، فإن ذلك لا يعني عدم تكرار الأحداث بصورة مشابهة، ومن خلال هذا التشابه تبرز أهمية التعلم من دروس الحرب، والاعتماد على مبادئها؛ لا سيما عندما يكون الأمر متعلقاً بالحروب التقليدية، أو حتى الحروب الثورية.

إن الإنسان في الحالات جميعها، هو واضع المبادىء، وهو ذاته الذي يعمل على تطبيقها، وهو الذي يعمل في الموقفين على التوفيق بين الفكر والعمل؛ بين النظرية والتطبيق، إنه لعبة القدر وصانعه في وقتٍ واحد. والإنسان المسلم يعرف هذه الحقيقة من خلال تحركه بين القدرية والجبرية، إنْ صحَّ التعبير. وانطلاقاً من هذه القاعدة، خرج المسلمون من جزيرتهم لينفذوا الجبرية التي أمرهم الله بها لحمل رسالة الإسلام، وقاموا بتنفيذ قدرهم وفقاً لإرادتهم ومشيئتهم، فكان في ذلك إبداعهم لتنفيذ ما أُمروا بتنفيذه وفق قدراتهم واستطاعتهم، فوضعوا أسس فنِّ الحرب، وحدَّدوا مبادئه، وتخرَّج من مدرسة الحرب قادة لم تعرف الدنيا لهم مثيلاً في كفاءتهم وقدراتهم وإبداعهم، وكان سعد بن أبي وقاص في طليعة أولئك القادة الذين خرجوا إلى دنيا الحرب، وتولوا قيادة الجيوش وليس لديهم أكثر من معرفة أوَّلية بأسس القيادة التي تعلَّموها من مدرسة الإسلام، ورغم ذلك فقد حقَّقوا انتصارات خالدة ستبقى مشرقة أبد الدهر.

١ ـ المباغتة

تكمن المباغتة في عمليات سعد بن أبي وقاص ضدَّ الفرس، وتمتد جذورها عميقاً حتى تصل إلى الأفكار السلفية التي كان يعرفها الفرس عن العرب، ولهذا فقد كان سلوك العرب بعد الإسلام مباغتاً بمجموعه، بقدر ما كان مباغتاً في كل موقف من المواقف، وكان الفرس يعالجون المواقف المستجدَّة انطلاقاً من نظرتهم المتفوقة على العرب، ومن مكانتهم العليا التي سمحت لهم في مرات كثيرة بتهديد الجزيرة العربية والتوغل حتى أعماقها. وقد أفاد المسلمون من موقف الفرس حتى أبعد الحدود لتطبيق استراتيجيتهم في الهجوم غير المباشر

وفي قيادتهم للعمليات المتتابعة ضد قوات الفرس، ولخلق حالة من الشك تساعد على فصل عرب العراق عن قوات الفرس المهيمنة عليهم مادياً ومعنوياً. ويمكن على ضوء هذه القاعدة، إدراك أهمية المباغتة التي مارست دورها عندما نظم سعد قواته لمجابهة الفرس في القادسية، وكذلك ما كان من أثر لسلوك المسلمين فوق القادسية (الصلاة، التكبير) مما أذهل الفرس وأضعف من روحهم المعنوية، حتى قبل الاشتباك.

كان سعد يبحث عن المباغتة في ساحة العمليات، فبعث طليحة إلى مخاضة أسفل من العسكر... وعبر طليحة العتيق، فدار إلى عسكر القوم؛ حتى إذا وقف على ردم النهر كبَّر ثلاث تكبيرات، فراعَ أهل فارس، وتعجب المسلمون، فكفَّ بعضهم عن بعض للنظر في ذلك... وحدَّد المسلمون تعبيتهم، وقدَّموا صفاً، وأتبعوا آخر مثله وآخر وآخر، حتى تمَّت صفوفهم ثلاثة عشر صفاً في القلب، والمجنبتين كذلك، ثم لحقت بالفرسان الكتائب[1].

لقد كان ذلك في بداية ليلة الهرير، **وكانت المباغتة هي نقطة التحول في الموقف**. فقد كان الصراع ينتهي في الأيام الثلاثة؛ وكلما نال المسلمون من شرٍّ نال الفرس مثله، حتى إذا جددت المباغتة عزم المسلمين؛ انطلقوا بتنظيم جديد في قتال ليلي شرس، كان صليل الحديد فيها كصوت القيون. وقاتل المسلمون حتى الصباح، وأفرغ عليهم الصبر إفراغاً، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها... حتى إذا كان وجهُ الصبح؛ انتمى الناس، فاستدلَّ بذلك على أنهم الأعلون.

واستمر سعد بعد ذلك في الحرص على مباغتة الفرس، سواء عن طريق دفع قوات المسلمين للظهور في كل مكان، أو عن طريق إبداع طرائق جديدة في ساحة العمليات، أو عن طريق تنظيم القوات تنظيماً يتوافق مع متطلبات الموقف، وقد كان من المحال على سعد تجديد المباغتة بصورة مستمرة، لو لم تتوافر لقوات المسلمين القدرة الحركية العالية، ولو لم تتوافر لهم القدرة أيضاً على استيعاب الظروف الجديدة في القتال والتكيُّف معها بما يلائمها من التنظيم.

لقد تطور مبدأ المباغتة تطوراً كبيراً عند العرب المسلمين، من خلال أعمالهم القتالية المستمرة، وكان في طليعة المبادىء التي اعتمدوها في حروبهم، ولكن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٧ و٥٥٩.

كفاءة سعد تبرز من خلال قدرته على تحقيق المباغتة في ظروف صعبة كانت فيها أبعاد مسرح العمليات محدَّدة بدقة، وكان العرب والفرس يحاولون، وفي وقتٍ واحد، الإفادة من نقاط الضعف، فكان تحقيق المباغتة على إطار العمليات مع كل تدابير الحيطة التي اتَّخذها الفرس إنما هو برهان على القدرة العالية في التكيُّف مع ظروف القتال والاستجابة بما هو مناسب لها.

٢ ـ أمـن العمل

كتب عمر إلى سعد، عند رحيله من زرود، وهي منطقة التجمع؛ أنِ ابعث إلى فرج الهند رجلاً ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم، فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة، فكان بحيال الأبلة من أرض العرب. وعندما غادر سعد منطقة الحشد في شراف؛ فصل على تعبية، وولّى على مقدمات قواته ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها رجالاً، واستعمل زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية على المقدمات. وعندما وصل سعد إلى العذيب بثَّ الغارات، وسرح الرجال في جوف الليل، وأمرهم بالغارة على الحيرة، ووضع سعد بالعذيب خيلاً تحوط الحريم، وعندما نزل سعد بالقادسية؛ بثَّ الغارات بين كسكر والأنبار، وكان سعد يرسل العيون ـ الجواسيس ـ يستطلعون له الأخبار. وأرسل سعد قيس بن هبيرة الأسدي في القادسية، وقال له: «اذهب... حتى تأتيني بعلم القوم».

تظهر متابعة أعمال سعد القيادية أنه كان شديد الحرص على ضمان أمن العمل، وتأمين حماية قوات المسلمين ضد كل مباغتة قد يقوم بها الفرس. وقد أصدر أمير المؤمنين عمر أوامره بإرسال قوة وقائية إلى فرج الهند، ولكن مسؤولية أمن العمل على مستوى العمليات بقيت على عاتق سعد، ويمكن التمييز بين ثلاثة إجراءات اتَّبعها سعد وطبَّقها بدقة، وهي:

١ ـ **وقاية القوات أثناء الإقامة**، سواء في زرود أو في شراف أو في القادسية، وذلك عن طريق تكوين مفارز للأمن تعمل على جميع الاتجاهات.

٢ ـ **تنظيم أرتال المسير** وتقسيمها، كما لو كانت ستخوض معركتها في كل مرحلة من مراحل التقدم إلى القادسية، وتكوين المقدمات والمجنبات والمؤخرات وقوة الفرسان، وتحديد واجبات هذه القوات بدقة، وضمان حماية القوات.

٣ ـ **تنظيم أمن العمل** عن طريق توفير أكبر قدر من المعلومات الدقيقة، واستخدم في ذلك وسائط مختلفة (الإغارات الاستطلاعية، العيون أو الجواسيس، اختطاف الأسرى). وكان تنويع المصادر يسمح له بما يعرف اليوم بتقاطع المعلومات بين المصادر المختلفة، مما كان يسمح له بتأكيد المعلومات أو دحضها. ولم يُسْقِط سعد من حسابه إمكانات الإفادة من عرب العراق للحصول على المعلومات الدقيقة، كما أفاد من الوفود التي كان يرسلها للاتصال بقادة الفرس، من أجل تكوين فكرة واضحة ودقيقة عن الموقف، وهذا ما كان يساعده على اتخاذ القرار المناسب.

من الواضح جداً أن مفهوم أمن العمل عند سعد بن أبي وقاص كان ذا هدف مزدوج، أولهما: حماية القوات الإسلامية من كل مباغتة، وثانيهما: ضمان الظروف المناسبة لتحقيق المباغتة. وكان باستطاعة سعد، بعد ضمان ذلك، العمل بحرية تامَّة لاتخاذ القرار المناسب والإشراف على تنفيذه، وأصبح باستطاعة القوات ممارسة عملياتها بحرية تامة من دون خوف من تدخل الفرس بشكل غير ملائم قد يعيق ظروف النجاح، أو يسبب إحباط الواجبات التي يتم تنفيذها. ولقد كانت عمليات سعد في القادسية، وفي منطقة قريبة من الفرس وعلى اتصال بهم، ثم وقاية القوات وعدم تعرضها لأيِّ حادث مباغت؛ إنما هو برهان على حرص سعد على تحقيق أمن العمل، وتأكيد على إفادة قوات المسلمين من الإجراءات المتنوِّعة التي تمَّ تنفيذها لضمان هذا المبدأ الأساسي من مبادىء الحرب.

٣ ـ الحركية

لم يكن باستطاعة المسلمين حمل رسالتهم إلى أرجاء الدنيا وهم في مواقعهم المنعزلة في قلب الجزيرة العربية، ولم يكن باستطاعتهم حمل هذه الرسالة إلى الأقاليم المجاورة في الشام والعراق إنْ لم تكن قواتهم على درجة عالية من القدرة الحركية، وكان اعتمادهم على القدرة الحركية العالية هو وسيلتهم للإبداع في أساليب حرب الحركة، والعمل على تطوير طرائقها وأساليبها.

كان من أول نتائج اعتماد المسلمين على حرب الحركة؛ نقلهم للحرب وأعبائها ومغارمها إلى حدود بلاد العدوِّ، وتجريد الفرس من مجالهم الحيوي، وحماية قاعدة الجزيرة من كل تهديد خارجي. وأصبح باستطاعة أمير المؤمنين،

عمر، نتيجة لذلك، العمل بحرية لحشد القوات وتنظيمها، وإرسالها لدعم المقاتلين بالجبهة، كما أصبح باستطاعة قائد الجبهة، سعد، وضع أعدائه الفرس تحت رحمته، وإرغامهم على اتخاذ السلوك المناسب له، وحملهم على خوض المعركة في الزمان والمكان المناسبين له، كما ضمن للقوات الإسلامية الانتشار بقدر ما تستطيع لتنفيذ واجباتها، ثم التجمع بسرعة لمجابهة قوات العدو المتفوقة، والعودة للتفرق من أجل تنفيذ أعمال المطاردة.

كانت هذه الملامح الأولى لحرب الحركة على جبهتي الشام والعراق، وهي البدايات الأولى لتطوير حرب الحركة التي طبعت الحروب الإسلامية بطابعها، والتي حملت في طرائقها وأساليبها ما يُعرف بحرب الصاعقة في الحرب العالمية الثانية، حيث كانت القوات تتحرك كالسدِّ الزاحف أو السيل الجارف، تتفرق في السهول والمنحدرات والمناطق المنخفضة حتى إذا اصطدمت بعقبة تجمَّعت لتصدمها بقوة ولتُزيلها. وهكذا كانت القوات الإسلامية، القليلة وهي متفرقة، الهادئة وهي تسير في السهول؛ تحمل في أعماقها قوة جبارة لا تصمد أمامها أية قوة. ولعل أسلوب حرب الحركة يتشابه تماماً مع تكوين العرب وانتشارهم فوق مساحات جغرافية واسعة، حتى إذا تجمعوا لمجابهة موقف خطر أو احتشدوا لإزالة سدٍّ من السدود؛ تكوَّنت منهم قوة رهيبة لا تصمد لصدمتها سدود أو عوائق.

ولقد تطلَّبت حرب الحركة وجود جيل من القادة على جميع المستويات، وكلهم على درجة كافية من القدرة والكفاءة لمجابهة المواقف الطارئة؛ سواء هذه التي تجابه المقدمات أو المؤخرات أو المجنبات، أو تلك التي تتمُّ أثناء تنفيذ الواجبات الخاصة، كالاستطلاع والإغارات. كلُّ ذلك إلى جانب مركزية قوية على مستوى ساحة العمليات، مع توافر القدرة على تقدير الموقف الصحيح بسرعة واتخاذ القرار المناسب والعمل على تنفيذه بسرعة. وتظهر متابعة تحرك قوات المسلمين، من منطقة التجمع في زرود وحتى الوصول إلى القادسية، ثم ما تبع ذلك من أعمال حتى معركة القادسية والمعارك التالية، أن قيادة سعد كانت متميزة بجميع هذه الخصائص، وبذلك كانت شروط حرب الحركة متكاملة، وهذا ما ضمن لهذه الحرب الظروف المناسبة للنجاح والنصر. وقد اعترضت سعد مجموعة من العقبات، مثل إرساله لقوات استطلاعية ثم تصرف قادة هذه القوات بشكل غير مناسب وتوغلهم إلى أعماق ما أرادها لهم سعد،

ومثل الانطلاق للهجوم قبل إعطاء إشارة الهجوم، ولكن سهر سعد على قواته ومتابعته لها أثناء تنفيذها لواجباتها، مع ما تميَّزت به هذه القوات من المرونة والفضائل الحربية، **قد ساعد على سدِّ الثغرات بسرعة، ومعالجة الأخطاء في الوقت المناسب.**

وكانت لهذه التجارب كلها نتائجها على مسيرة العمليات التالية، بحيث يمكن اعتبار عمليات سعد على جبهة العراق هي التي أوضحت المعالم الصحيحة لحرب الحركة، وهي التي وضعت وحدَّدت أُسس هذه الحرب وقواعدها.

٤ ـ المبادأة، واستخدام القوة الهجومية

لم يكن باستطاعة سعد بن مالك حشد قوات المسلمين في القادسية، على حدود بلاد الفرس، وإعطاء المبادأة للفرس، فيعرِّض هذه القوات للتدمير. وعلى هذا، فقد كان الحرص على المبادأة عند سعد متلاحماً مع بقية المبادىء، ومتوافقاً مع معطيات السياسة العليا للعرب المسلمين، وكان هدف المبادأة هو وضع الفرس باستمرار أمام مواقف جديدة، وتوجيههم في النهاية نحو المعركة الحاسمة، وإرغامهم على قبولها في المكان والزمان اللذين يختارهما سعد. وهكذا مرت أربعة أشهر تقريباً بين نزول سعد القادسية وبين وقوع المعركة الحاسمة فيها، ولم تكن هذه الفترة؛ فترة عطالة عن العمل، أو وقتاً ميتاً، وإنما كانت فترة كلها عمل مستمر وجهد متصل، ما بين اتصالات مع قادة الفرس، واتصالات مماثلة مع أهل البلاد من العرب، مع توجيه التحديات المتعاظمة لاستثارة الفرس ودفعهم إلى قبول ما كانوا يحاولون تجنُّبه من الاشتباك.

وقد أفاد سعد من عامل الزمن حتى أبعد الحدود، من أجل إعداد الظروف المناسبة للمعركة الحاسمة، كلُّ ذلك من دون السماح للفرس بانتزاع المبادأة أو الخروج على ما كان يخططه لهم سعد. ولم تكن الإغارات المستمرة على حدود بلاد الفرس وتوجيه التهديدات إلى قلب قواتهم سوى بعض الوسائل لحرماتهم باستمرار من المبادأة. وقد مارست المبادأة دورها في تنفيذ استراتيجية الهجوم غير المباشر؛ إذ أدَّت الأعمال القتالية الصغرى والمتفرقة إلى إضعاف الروح المعنوية للفرس، وإشعارهم بالخطر الدائم الذي يقترب منهم، من دون أن يعرفوا الشكل الذي سيأخذه هذا الخطر أو مدى قوته.

وعلى هذا، فإن استخدام المبادأة عند سعد بن مالك لم يقتصر على قيادة

العمليات الكبرى، وإنما ظهر في كل عملية من عملياتهم، حتى ما كان منها على مستوى فردي، **وكان في ذلك يطبق مبدأ الهجوم، الهجوم، ولا شيء غير الهجوم؛ وذلك قبل أن ينادي به نابليون بعد ألف ومائتي سنة تقريباً**. ولعل الظاهرة البارزة هي الاستعداد الدائم لاستخدام القوة الهجومية باستمرار لمجابهة المواقف جميعها، هذا على الرغم من إدراك سعد لضعف قوته العددية أمام تفوق الفرس الساحق. وقد كان بالمستطاع تحقيق التفوق لصالح المسلمين في المعارك الصغرى، والوصول إلى النتائج المطلوبة في تفتيت الفرس معنوياً، وإكساب المسلمين الثقة بأنفسهم عن طريق الانتصارات الصغرى المتتالية؛ وكان لذلك بدون ريب أثر حاسم وقويٌّ في تقرير النتيجة النهائية للمعركة الحاسمة؛ إذ أن الخسائر المتتالية للفرس لم تكن منفصلة أبداً عن محصلة الخسارة النهائية التي قرَّرتها معركة القادسية، وبذلك أخذت الحرب صفتها المطلقة، وتأكدت هذه الصفة المطلقة من خلال الإصرار العنيد على متابعة المطاردة لتدمير جميع القوات الفارسية.

وأفاد سعد من ذلك كله؛ من المبادأة، ومن استخدام القوة الهجومية، حتى إذا جاءت المعركة الحاسمة؛ كان هناك حالة من التوازن والاستقرار: تفوق مادي بالقوى والوسائط في جهة، يقابله تفوق معنوي وتفوق في التنظيم وإدارة الحرب. وبقيت النتيجة النهائية معلَّقة بخيوط رفيعة ترتبط بالفضائل الحربية للقوات وإرادتهم على تحقيق النصر بقدر ما ترتبط بلعبة القدر. ويظهر واضحاً أن انتصارات سعد وقوات المسلمين لم تكن مجرد ضربات في الفراغ أحكمتها مصادفات الحرب وحدها، وإنما كانت نتيجة تخطيط دقيق محكم، وإرادة صلبة تتصل في جذورها بالإيمان العميق، وجاءت مصادفات الحرب لتمارس دورها التكميلي، وكانت المبادأة واستخدام القوة الهجومية في جملة المبادىء التي استُخدمت بكفاءة عالية وسمحت للمصادفات بممارسة دورها.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

كانت حروب سعد بن أبي وقاص بمجموعها في إطار من الهجوم التعبوي، التكتيكي، والدفاع على مستوى العمليات والاستراتيجية، فكان الهجوم يتركز على النقاط الضعيفة، وعلى المستويات الصغرى؛ مما كان يضمن تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى.

لقد كان موقف سعد وقوات المسلمين من الفرس وقياداتهم أشبه ما يكون باثنين من الملاكمين يحاول كلٌّ منهما اكتشاف نقاط الضعف في خصمه، وتوجيه الضربات المتتالية لاستنزاف قوته المادية والمعنوية، حتى إذا جاءت الفرصة المناسبة وجَّه إليه الضربة القاضية، مع احتفاظه بقدر كافٍ من قوته؛ لا لاستثمار النصر فحسب، بل من أجل متابعة الصراع إذا ما حاول الخصم استعادة قوته والعودة إلى حلبة الصراع من جديد. وكان الصراع بالنسبة لسعد وخصومه على مستوى القيادات صورة لحوار الإرادات، وهو الحوار الذي تنتصر فيه الإرادة الأكثر تصميماً والأكثر عناداً والأعمق إيماناً بحتمية النصر، وكان ذلك كله يتطلب من سعد عدم تبديد قوته في هجمات غير مجدية أو عمليات غير حاسمة، وإجراء توازن دقيق بين الهدف والقوى والوسائط التي يتطلبها تنفيذ الواجب للوصول إلى الهدف.

لقد فرض مبدأ الاقتصاد بالقوى، بالضرورة، اللجوء إلى مجموعة من المناورات المعقدة قبل القادسية وأثناء معركتها وبعدها، وقد ارتبطت هذه المناورات بالسياسة العليا للمسلمين، كما ارتبطت من ناحية أخرى بقوات المسلمين وكفاءتها القتالية وطبيعتها التنظيمية؛ ولإيضاح ذلك يمكن استعراض مسيرة الأحداث، حيث يظهر أنه قد أمكن ضمان الظروف المناسبة لتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى من خلال تطبيق الاستراتيجيات المختلفة؛ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، بناء المجتمع الجديد، استراتيجية الهجوم غير المباشر... إلخ. كما أمكن ضمان الظروف المناسبة لتطبيق هذا المبدأ عن طريق التكوين الطبيعي لقوات المسلمين، حيث كان لكل مسلم دوره في المعركة، فالأطفال للعناية بالجرحى وإمداد المقاتلين ودفن القتلى، والنساء للسهر على الرثيث، أي: الجرحى، والعناية بهم، وبذلك أصبح بالإمكان الاقتصاد بالقدرة المقاتلة، وحشدها كلها للمعركة.

ثم جاء التنظيم للمعركة ليضمن اشتباك كتلة القوات الإسلامية كلها دفعة واحدة، وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن سعداً قد طبَّق ذلك كلَّه من خلال إحساسه بثقل الأمانة التي أُلقيت على عاتقه، وهي نشر الرسالة مع المحافظة على قوات المسلمين، والعمل على مجابهة تدابير العدوِّ بالإجراءات المناسبة. وإن تحليل مبادىء الحرب لا يعني اعتماد سعد على هذه المبادىء بصورتها المعروفة، فقد سبق العمل الكلمة، ثم جاءت الكلمة لتحدِّد للعمل أهميته،

ولكن ذلك لا يعني أبداً أن سعداً قد عمل على تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى لاشعورياً، أو على غير إرادةٍ منه، بالمصادفة، وإنما كان يعمل على تطبيقه واستخدامه وهو يعرف أهدافه ونتائجه، ولكن من دون إعطائه التسمية المناسبة المعروفة، ومن دون أن تكون لهذه التسمية كل أبعادها. فقد عمل سعد على تحديد الملامح الأُولى لهذه المبادىء عن طريق تطبيقها في ظروف مستجدة، ولم تكن منجزاته هذه منفصلة عن تجارب الصراع الأوَّليِّ وأعمال الجهاد التي قادها رسول الله ﷺ، والتي عمل الخليفة الأول على تطويرها؛ حتى جاءت الفتوحات مع ما تميَّزت به من تعاظم في حجم القوات واتِّساع في مسرح العمليات، فأعطت لهذه المبادىء قيمتها الواقعية وأبرزتها كبدايات في تطوير فنِّ الحرب عند العرب المسلمين.

٦ ـ المحافظة على الهدف

كانت غاية السِّلم هي نشر الإسلام، وكان هدف الحرب هو تدمير قوات الفرس التي تصدَّت لحرب المسلمين، ومن هنا، فقد بقي تدمير القوات المسلَّحة الفارسية الهدف الدائم للجيش الإسلامي الذي توجه لحرب العراق، ولقد سبقت القادسية مجموعة من الأعمال السلمية والقتالية ضمن حدود الهدف الواضح: الإسلام أو الحرب.

واستمرَّ التحرك السياسي والعمل الحربي بعد القادسية ضمن حدود الغاية والهدف ذاتهما، وتابع سعد توجيه قوات المسلمين للقضاء على تجمع قوات الفرس؛ بدايةً من برس وبابل، ونهايةً برامهرمز وتستر والسوس، وقد استمرت هذه الأعمال فترة أعوام أربعة لم ينحرف فيها المسلمون عن هدفهم، رغم كل ما جابههم من صعوبات، ولم ينحرف سعد عن هدفه رغم كل العوائق، وكان التناوب بين السِّلم والحرب مقيَّداً بحدود الهدف، ومقنَّناً بمتطلبات الغاية.

لقد أخذ هذا المبدأ سبيله إلى التطبيق، على مستوى العمليات، عن طريق مجموعة من الأهداف المتتالية، ولكن هذه الأهداف كانت مرتبطة فيما بينها برابطة قوية هي وجود القوات المسلَّحة للفرس وتصميمها على إعاقة المسلمين عن تحقيق غايتهم وهدفهم، وهكذا كانت مقاومات العدوِّ المتتالية حافزاً لمتابعة سعد والمسلمين سبيلهم، سواء لتحقيق الأهداف الثانوية أو حتى للوصول إلى الهدف النهائي، وهو إقامة مجتمع المسلمين. ويمكن اعتبار ظاهرة المحافظة

على الهدف في حروب المسلمين ظاهرة طبيعية تتوافق والحافز الذي دفع المسلمين لمغادرة جزيرتهم وتحدّي أكبر قوتين عرفهما العالم القديم؛ الفرس والروم. **ولقد كانت محافظة جيش المسلمين على هدفهم برهاناً على أن العرب لم يغادروا جزيرتهم بحثاً عن الدنيا أو لمغنم يغنمونه**، ولو أرادوا ذلك لكفاهم الفرس والروم معاً مؤونة ذلك، ولكن إصرارهم على تحقيق الهدف، ثم متابعة محافظتهم على هذا الهدف؛ إنما هي براهين على صدق العرب وإخلاصهم لهدفهم.

إن عدم المحافظة على الهدف إنما يعني الضياع، ويتشابه الموقف هنا مع موقف الأفراد تماماً؛ إذ يخرج الفرد إلى الحياة، فيبصر الدنيا، فإذا ما حدَّد هدفه وعرف غايته وسعى لها؛ أدرك ما يريد، وإنْ هو لم يحدِّد هدفه ولم يعرف غايته، أو عرفهما وتقاعس عن أدائهما؛ أضاعته الحياة وابتلعته الدنيا وقذفت به إلى هامشها. وهكذا كان الأمر بالنسبة للإنسان المسلم والمقاتل المسلم، الذي خرج من جزيرته وهو يعرف ما يريد، فمضى إلى مجابهة أصعب التحديات وصمد لها وسعى لتذليلها حتى خضعت له واستسلمت. ولعلَّ سلوك الأفراد في مفاوضاتهم مع الفرس هي أفضل نموذج لسلوك الإنسان المسلم الذي يعرف ما يريد من حياته الدنيا.

وكان سعد قائداً لجيش من المسلمين يعرف مثل ما يعرفون، ويدرك ما يدركون، فقاد قواته من هدف إلى هدف حتى حقَّق ما يريد، ولقد حافظ المسلمون بعد ذلك على هذا الهدف طوال عهود الخلفاء الراشدين وأُمراء الأُمويين، حتى استطاع موسى بن نصير في المغرب، وقتيبة بن مسلم في المشرق؛ الوصول بالعالم الإسلامي من حدود الصين إلى حدود امبراطورية الغال (فرنسا)، كلُّ ذلك في حدود مائة سنة. ولو لم يحافظ المسلمون على هدفهم لَمَا استطاعوا تحقيق كل ما حققوه بما يشبه المعجزة، وكانت يرموك ابن الجراح وابن الوليد وقادسية سعد بن مالك هما الهدف الأول الذي مهَّد لتحقيق الأهداف التالية كلها.

الفصل الثالث

قيادة سعد بن أبي وقاص

أ ـ سعد بن أبي وقاص وفن القيادة.

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك)

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين.

٣ ـ التحريض على الجهاد.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين.

ب ـ سعد بن أبي وقاص وقوات العرب المسلمين.

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ سعد والجهاد في سبيل الله.

٥ ـ سعد وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.

أ ـ سعد بن أبي وقاص وفن القيادة

(هذا خالي، فليرني امرؤٌ خاله)

(محمد ﷺ)

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك)

ظهر المسلمون في العذيب بصورة مباغتة، فهرب الفرس، ووجد المسلمون رماحاً ونشاباً وأسفاطاً من جلود وغيرها؛ انتفع بها المسلمون. وأرسل سعد من مكانه، في العذيب، يطلب غنماً أو بقراً، وجاءه عاصم بن عمرو بثيران، فقسمها سعد على الناس، فأخصبوا أياماً. ثم إنه بثَّ الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زماناً. وأغار المسلمون، وهم في القادسية، إلى أن جاءوا إلى صيادين قد اصطادوا سمكاً، وسار سواد بن مالك التيميمي إلى النجاف والفراض إلى جنبها، فاستاق ثلاثمائة دابَّة بين بغل وحمار وثور، فأوقروها، أي: حمَّلوها، سمكاً واستاقوها، فصبَّحوا العسكر، فقسم سعد السمك بين الناس، وقسم الدواب. وكان المسلمون يبحثون عن اللحوم، فأما الحنطة والشعير والتمر والحبوب، فكانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا أزماناً، فكانت السرايا إنما تسري للحوم، ويسمون أيامها بها؛ ومن أيام اللحم يوم الأباقر ويوم الحيتان.

وكان من نتيجة تعايش قوات المسلمين أن أخذ أهل العراق في التقرب إلى المسلمين، مما دعا رستم، يوم قاد جيوشه لحرب المسلمين، أن يطلب أهل الحيرة ويجتمع بهم، ويتهمهم بدعم المسلمين بالأموال ومساعدتهم والتعاون معهم، فدافعوا عن أنفسهم بقولهم: «ما يحوجهم ـ يعني: المسلمين ـ أن نكون عيوناً لهم، وقد هرب أصحابكم منهم، وخلوا لهم القرى؛ فليس يمنعهم أحد من وجهٍ أرادوه؛ إن شاءوا أخذوا يميناً وشمالاً... وقد صانعناهم بالأموال عن

أنفسنا؛ إذ لم تمنعونا مخافة أن نسبى وأن نحرب وتقتل مقاتلتنا، وقد عجز منهم من لقيهم منكم، فكنا نحن أعجز؛ ولعمري لأنتم ـ الفرس ـ أحب إلينا منهم، وأحسن عندنا بلاء، فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً، فإنما نحن بمنزلة علوج السواد؛ عبيدُ مَن غلب»[1].

وتظهر هذه المقولات الصورة الواضحة لاهتمام سعد بتأمين الشؤون الإدارية لقوات المسلمين، كما تظهر نتائج أسلوب تأمين الشؤون الإدارية على حساب الأقاليم، ويمكن تلخيص النتائج بما يلي:

١ ـ إن اعتماد قوات المسلمين على ما يتوافر من المواد التموينية في الأقاليم قد حرَّر قوات المسلمين من الأعباء الإدارية، وضمن لقوات المسلمين قدراً كافياً من حرية العمل وحرية الحركة، وقد لجأ المغول (التتار) لهذا الأسلوب بعد فتوحات المسلمين بخمسة قرون، كما لجأ نابليون لهذا الأسلوب ذاته بعد ذلك باثني عشر قرناً تقريباً.

٢ ـ كان من نتائج هذا الأسلوب خلق فاصل بين سكان البلد وبين قوات الفرس، التي عجزت عن حماية أهل البلاد، وحمل هؤلاء على التعاون مع المسلمين، والإعراض عن دعم الفرس، وخسر الفرس بذلك دعماً قوياً من أنصارهم.

لقد كان من الطبيعي أن يهتم سعد بالشؤون الإدارية لتأمين متطلبات قواته، ولكن يظهر بوضوح أن سعداً قد ربط بين عملية **التأمين الإداري للقوات** وبين **متطلبات الموقف الاستراتيجي**، ويظهر ذلك من خلال تأمين مخزون ضخم من الحنطة والشعير والتمر والحبوب ما يكفيهم لو أقاموا أزماناً، ولا ريب أن سعداً كان يهدف حرمان العدوِّ من الموارد التموينية والحياتية، إلى جانب تأمين متطلبات القوات الإسلامية لحرب طويلة الأمد، وكان ذلك يقيناً في جملة الأسباب التي أرغمت الفرس على قبول المعركة الحاسمة دفاعاً عن مجالهم الحيوي، ودفعتهم لقبول شروط المسلمين في خوض المعركة في المكان والزمان اللذين حدَّدهما سعد بن أبي وقاص، ويظهر ذلك أيضاً أنَّ ما من عامل واحد، أو مبدأ واحد؛ كان له تأثير مستقل في حدِّ ذاته، وإنما كانت هناك مجموعة من العوامل المتشابكة والمعقدة التي تضافرت جميعها لتحقيق النصر.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٩.

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

لقد استخدم الرسول الأعظم ﷺ أسلوب القضاء على أعداء المسلمين، ولكن في حدود مقنَّنة جداً؛ كالقضاء على ابن الأشرف اليهودي، الشاعر، الذي تمادى في الإساءة إلى المسلمين، وجاء خالد بن الوليد فاستخدم أسلوب القضاء على أعداء المسلمين، على نطاقٍ واسع. وتابع المسلمون استخدام هذا الأسلوب أيضاً كلما تطلَّبت الضرورة ذلك، فقد بلغ المعنّى بن حارثة الشيباني أن قابوس بن قابوس بن المنذر قد تلقّى رسالة من الأزاذمرد بن آزاذبه يطلب إليه فيها التوجه إلى القادسية، وكان في الرسالة: «ادع العرب، فأنت على من أجابك، وكن كما كان آباؤك»، فنزل قابوس القادسية، وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به تهديداً ووعيداً، فلما انتهى إلى المعنّى خبره؛ توجَّه المعنّى ليلاً من ذي قار، حتى وصل منزل قابوس، واقتحم عليه منزله فقتله ومَن معه، ثم عاد ليلحق بجيش سعد، وأبلغه ما فعله.

لم يكن سعد في حاجة لاستخدام العنف، على المستوى الفردي، ذلك أن الموقف قد تغيَّر بصورة جذرية على جبهة العراق عندما تولّى قيادتها سعد بن أبي وقاص، ولم يعد باستطاعة قادة عرب العراق ممارسة دور كبير في التأثير على قبائلهم؛ كما أن الروابط بينهم وبين الفرس قد شهدت نوعاً من الضعف، فعمل سعد على تطوير ظواهر العنف وتوجيهها إلى الفرس، وأخذت ظواهر العنف شكل أعمال قتالية واشتباكات عنيفة قاسية.

لم يكن سعد، وهو الأسد في براثنه، ليتردد عن استخدام العنف للقضاء على أعداء المسلمين لو وجد ضرورة لذلك، ولكن تحوُّل الموقف جعله أقرب إلى التوفيق بين الأهداف وبين الوسائط، ولهذا لم يُعرف عنه أنه اضطر إلى استخدام أسلوب القضاء على خصوم المسلمين وأعدائهم كأفراد، وإنما لجأ إلى أسلوب القضاء على جيوب مقاومة الفرس باستمرار، ومطاردتها بكل الوسائل، وكانت هذه الوسيلة التبادلية هي الوسيلة الملائمة للمرحلة التي مارس فيها سعد قيادته.

وكان أسلوب القضاء على أعداء المسلمين هو الأسلوب التبادلي الذي يتمُّ استخدامه لتأمين المسلمين وأنصارهم، فكان التوازن دقيقاً بين الترغيب والترهيب، أو الثواب والعقاب، وكانت مرحلة الترهيب والعقاب في إطار

ما يمكن تسميته باستراتيجية الردع قد أتت ثمارها في العراق عندما تولّى سعد قيادتها، فكان أحوج ما يكون إلى أسلوب الترغيب والثواب، وقد اعتمد سعد على هذا الأسلوب في التعامل مع عرب العراق ومع الفرس على حدٍّ سواء، فكان ذلك تمهيداً لإقامة العلاقات في المجتمع الجديد، مجتمع المسلمين، ولكن ذلك لم يمنع من فرض شروط قاسية في المعاهدات مع أهل الذمَّة، من أجل المحافظة على المسلمين وعدم التعرض لهم، وكانت هذه الشروط بمثابة وسيلة للردع النفسي الذي يدعم عزَّة الإنسان المسلم ويرفع من مكانته.

لقد استخدمت عقائد كثيرة بعد ذلك أسلوب التصفيات الجسدية للقضاء على خصومها، واستخدمت العنف؛ ولكن هذا الأسلوب لم يكن مقنّناً بمثل ما كان عليه الإسلام وبمثل ما طبَّقه قادة العرب المسلمون، فكانت النتائج رهيبة؛ إذ أنها أغرقت المجتمعات بمستنقعات من الدماء، ودمَّرت الروابط الإنسانية للفرد والمجتمع على حدٍّ سواء، في حين ساعد استخدام هذا الأسلوب في الإسلام على زيادة تلاحم الفرد بالمجتمع.

٣ ـ التحريض على الجهاد

نظَّم سعد قوات العرب المسلمين في القادسية، ثم أرسل القادة والخطباء والشعراء، من أمثال المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الأسدي وغالب وعمرو بن معديكرب والشماخ والحُطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب، وأوصاهم فقال لهم: «انطلقوا، فقوموا في الناس بما يحقُّ عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الناس فذكِّروهم وحرِّضوهم على القتال». فساروا فيهم.

فقال قيس بن هبيرة الأسدي: «أيها الناس! احمدوا الله على ما هداكم له، واذكروا آلاء الله، نِعَمه، وارغبوا إليه في عاداته، فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم، وأنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القفر... والفلوات التي لا تقطعها الأدلة».

وقال غالب: «أيها الناس! احمدوا الله على ما أبلاكم، وسلوه يُزدكم، وادعوه يُجبكم. يا معاشر معد! ما علَّتكم اليوم وأنتم في حصونكم ـ يعني: الخيل ـ ومعكم من لا يعصيكم ـ يعني: السيوف ـ؟ اذكروا حديث الناس في

غدٍ، فإنه بكم غداً يبدأ عنده، وبمن بعدكم يثني»[1].

وقال ابن الهذيل الأسدي: «يا معاشر معد! اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجمِّ، وتربَّدوا لهم تربد النمور ـ أي: اغضبوا ـ وادرعوا العجاج، وثقوا بالله، وغضوا الأبصار، فإذا كلَّت السيوف فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه».

وقال بسر بن أبي رهم الجهني: «احمدوا الله، وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ووحَّدتموه ولا إلٰه غيره، وكبَّرتموه، وآمنتم بنبيِّه ورسله، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا يكونن شيء بأهْون عليكم من الدنيا، فإنها تأتي من تهاون بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم، انصروا الله ينصركم».

وقال عاصم بن عمرو: «يا معاشر العرب! إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم، أي: قصدتم، الأعيان من العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم. لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيْناً على العرب غداً».

وقال ربيع بن البلاد السعدي: «يا معاشر العرب! قاتلوا للدين والدنيا، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٣] وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمر، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل». وقال ربعي بن عامر: «إن الله قد هداكم للإسلام وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر الراحة، فعوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولا تعوِّدوها الجزع فتعتادوه».

وقال كلهم بنحوٍ من هذا الكلام، وتواثق الناس، وتعاهدوا، واهتاجوا لكل ما كان ينبغي لهم، وفعل أهل فارس فيما بينهم مثل ذلك وتعاهدوا وتواصوا، واقترنوا بالسلاسل، وكان المقترنون ثلاثين ألفاً.

تظهر هذه النماذج من التحريض على الجهاد، بأن الهدف لم يكن مجرد استثارة للحماسة فقط، وإنما كان أيضاً لتذكير المسلمين بما يجب عليهم عمله

---

(١) يتشابه قول غالب هنا مع قول غوتة عشية قيادة نابليون بونابرت لمعركة مالميدي: من هنا، واعتباراً من هذا اليوم يبدأ فجر جديد. ولا ريب أن غالباً وهو يسبق غوته بعشرة قرون قد شعر في موقفه أن العرب المسلمين في معركتهم سيقرِّرون مصير غدهم، وسيكتبون بداية صفحات تاريخهم المجيد.

في مجابهة المواقف الصعبة أو الاصطدام بالأُمور غير المتوقَّعة.

لقد كانت عملية التحريض على الجهاد تبدأ بقراءة سورة الجهاد، وهنا في القادسية قُرئت في كل كتيبة، فهشَّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها. ثم تطلق الصيحة، صيحة التكبير، وتبدأ عندها الحرب. ويمكن تلخيص أهداف التحريض على الجهاد بما يلي:

١ ـ إيضاح هدف الحرب، وأهمية المعركة بالنسبة للحرب، وقد تكرَّرت في القادسية عبارة «فإنه بكم غداً يبدأ عنده، وبمن بعدكم يثني»، وكانت معركة القادسية في الواقع بداية عهد جديد بالنسبة للفرس والعرب على حدٍّ سواء.

٢ ـ التذكير بما سيكون عليه الموقف لو لم يحقق العرب المسلمون النصر، وما سيلحق بالمقاتلين من الخزي والعار، وهو أصعب على الإنسان العربي من الموت ذاته.

٣ ـ التذكير بموعود الله لمن يستشهد في سبيله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، والنصر لمن يخلص في جهاده ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

٤ ـ مقارنة هدف الحرب عند المسلمين وعند أعدائهم: تريدون الآخرة ويريدون الدنيا، ولا يكونن شيء بأهون عليكم من الدنيا، فإنها تأتي من تهاون بها ولا تميلوا إليها، فتهرب منكم لتميل بكم.

وقد يكون الأمر الأكثر أهمية بعد ذلك هو استمرار التحريض على الجهاد طوال المعركة، ولكن التحريض هنا يأخذ شكلاً محدَّداً لمجابهة موقف معين. وعلى سبيل المثال، فعندما وقع عبء المعركة على قبيلة الأسد؛ ظهر من يحرض القبائل على الاقتداء بما تفعله الأسد، ويدعوهم لنصرتها، وعندما تقدم فرسان الفرس، وقف من يحرِّض المسلمين على الوقوف والتصدي لهجوم الفرس، وعندما ظهرت الفيلة تقدَّم القعقاع وحضَّ قومه على الصمود وتقدَّمهم حتى استطاع إزاحة الخطر والقضاء عليه.

وكانت عملية التحريض على الجهاد، في جميع الأحوال، تحقق التوازن بين الحوار العقلي وبين استثارة الحماسة العاطفية، وتنطلق قبل كل شيء من مورد الإيمان العميق، ومن تعاليم الإسلام، ثم هي لا تتناقض مع قِيَم الإنسان العربي الفاضلة، والتي جاء الإسلام فحافظ عليها وعزَّزها وأعطاها مضامين عميقة وأبعاداً واسعة تجاوزت ما كانت تحمله من مضامين وأبعاد عندما كانت من رموز الجاهلية وشعاراتها. فالفخر لم يعد فخراً بالقبيلة، بقدر ما أصبح فخراً

بالقبيلة المسلمة الكبيرة، والكرم لم يعد مجرد تضحية لإكرام ضيف فحسب، وإنما بذلاً للنفس في سبيل قضية المسلمين ومن أجل رفع راية الإسلام، والشجاعة لم تعد لغزوة أو مغنم، وإنما أصبحت قدرة على احتمال الصعاب وكره القتال والصبر على الشدائد.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر

كان سعد بن أبي وقاص شجاعاً في مواجهة الخوف، واجهته مواقف كثيرة هلعت لها قلوب الرجال إلا قلب سعد، فكان الرسول الأعظم يعتمده، وكان موقفه يوم أُحد مشهوداً، حيث تمزَّق المسلمون وصمد سعد فيمن صمد مع رسول الله.

وشارك سعد الرسول في غزواته، أكثرها، وكانت تسمية الفاروق عمر له، وهو الرجل الذي عُرف أنه أعرف الناس بالناس، وتلقيبه بالأسد في براثنه؛ إنما هو برهان على شجاعة سعد في مواجهة الخطر. ولقد كان سعد يوم القادسية مصاباً بالحبوب، الدمامل، في مقعده، فكان ذلك عائقاً له عن الركوب والمسير، حتى أنه كان يضطر إلى الرقود على صدره لمتابعة المعركة، وقد اختار رغم ذلك مقرَّ قيادته، عند آخر الصفوف، وفي قلب المعركة، وفي مكان مرتفع يُشرف منه على ميدان القتال، فأعطى بذلك مثلاً لقادته وللمجاهدين في جيشه.

إن الشجاعة هي أسمى الفضائل الحربية؛ ذلك أن التعرض للخطر هو احتمال دائم في الحرب، والشجاعة عند سعد هي شجاعة شخصية عُرف بها منذ صغره، ثم استمدَّت هذه الشجاعة من العقيدة الإسلامية معيناً لها، وقد أدّى اقتران نوعي الشجاعة في شخص سعد، وتوافقهما معاً، إلى أكمل أنواع الشجاعة، وهي الشجاعة الفكرية.

لقد كانت حروب المسلمين صعبة، تتطلَّب جهداً بدنياً كبيراً بقدر ما تتطلَّب قدرة على احتمال الآلام والصِّعاب، وزاد من ذلك كله إصابة سعد بنوع من الأمراض المؤلمة، ورغم ذلك كله، فقد استطاع المحافظة على صفاء ذهنه، ومجابهة المواقف المختلفة بردود فعل مناسبة، ولقد كانت قيادة سعد في ظروف أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها غارقة في ضباب الشك، وكان لا بدَّ من نوع من الإشراق الذهني والشجاعة الفكرية الكافية لاستخلاص الموقف الحقيقي من وسط الشكوك.

وقد أظهرت رسائل سعد إلى أمير المؤمنين تقديره الصحيح لموقف السكان، ومعرفته الدقيقة للطبيعة الجغرافية الخاصة بميدان معركة القادسية، وذلك منذ الفترة الأولى التي وصل فيها سعد إلى القادسية. وعلاوة على ذلك كله، فإن الحرب، على ما هو معروف، تترك مجالاً واسعاً للمصادفة؛ ذلك أنه ليس هنالك مجال من مجالات النشاط البشري يترك مكاناً لهذه الظاهرة الغريبة كالحرب. وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية التواقت في وصول جيش القعقاع بن عمرو وهاشم بن عتبة منذ اليوم الثاني للمعركة، وما كان لذلك من أثر حاسم في سدِّ ثغرات النظام المتمفصل الذي طبَّقه سعد في معركة القادسية، وقد كان من المحتمل جداً في مثل تلك الظروف أن يتأخر إمداد جيش القعقاع يومين أو ثلاثة، ولكن رغم ذلك كله، فقد استطاع سعد مجابهة جميع حقائق المعركة، واتخاذ الحلول المناسبة لها، والإفادة من كل المصادفات الطارئة وتحويلها لصالح قوات العرب المسلمين. وكانت حقائق المعركة كلها هي براهين على ما كان يتميز به سعد من ذهن متحفِّز باستمرار للكشف عن الحقيقة وسط غموض الشك، ثم الشجاعة في متابعة هذه الحقيقة، والتصميم على بلوغ الهدف.

لقد كانت شجاعة سعد متميزة بعدد من الخصائص؛ أبرزها قوة الفكر وقوة الشخصية والصمود والحزم، وهي مكوِّنات قيادية ساعدته على تجاوز صعوبات مناخ الحرب، وهي الصعوبات التي تتمثل بالجهد البدني والخطر والشك والمصادفة. وقد عرف تاريخ الحرب أعداداً لا يمكن حصرها من القادة الذين تتوافر فيهم بعض الصفات لمجابهة بعض المواقف، ولكنهم قلَّة هم الذين يجمعون كل الصفات لمجابهة كل المواقف.

٥ ـ القرارات الصحيحة

كان أول قرار صحيح اتخذه سعد أثناء قيادته، هو اختياره لموقع القادسية من أجل المعركة الحاسمة مع الفرس، فقد توافرت في هذا الموقع:

١ ـ عزلته عن أهل البلاد الذين لم يكن سعد ليشعر بالطمأنينة إليهم؛ وذلك بسبب علاقتهم القديمة مع الفرس.

٢ ـ وقوع القادسية بين حاجزين جغرافيين، الخندق والعتيق، بحيث يستطيع الاستناد إليهما لحماية قواته.

٣ ـ قرب الموقع من الموارد الحياتية، المياه والطعام، مما يضمن له سهولة التأمين الإداري لقوات المسلمين.

٤ ـ عدم وجود حاجز طبيعي يعيق حركة القوات إذا ما أرادت الانسحاب وإعادة تجميعها لاستئناف القتال.

٥ ـ حصر الفرس عند القتال بحاجز طبيعي (نهر الفرات)، وقد برهنت مسيرة الأعمال القتالية على صحة انتقاء الموقع ودوره في تقرير مصير المعركة.

وكان من قرارات سعد الصحيحة توجيه المقدمة قبل كتلة القوات الرئيسية بمدة كافية، حتى يضمن بذلك توافر فترة كافية لفتح القوات واشتباكها بالمعركة ووقايتها ضد كل مباغتة محتملة، ثم دفع المقدمة مسافة كافية عند وصول القوات إلى أماكن تمركزها حتى تستطيع اتخاذ تدابير الإقامة وتنظيم المعسكر في ظروف أمن مطلقة، وكان هذا القرار هو أساس التقليد الذي سارت عليه القوات الإسلامية بعد ذلك.

وكان من قرارات سعد الصحيحة أيضاً اختياره الصحيح للقادة على جميع المستويات، ومن أجل تنفيذ الواجبات المختلفة، واختيار القائد المناسب للعمل المناسب، وتُظهر متابعة قصة القادسية وما بعدها أن سعداً كان ذا خبرة واسعة بمعرفة الرجال.

وكان من قراراته الصحيحة في ميدان المعركة إرسال قوات لحماية النقاط الضعيفة، والتوغل والالتفاف من حول القوات، ثم تحديد بداية المعركة مع موعد ظهر اليوم حيث تكون حدَّة الشمس قد ارتفعت عن أعين المقاتلين، وكذلك تنظيم عملية القتال الليلية (ليلة الهرير) التي قررت مصير المعركة الحاسمة. ولقد كان في جملة قرارات سعد الصحيحة هو إشرافه بنفسه على المعركة والتصميم على إدارتها. ويمكن اعتبار هذا التقليد، الذي فرضته الظروف المرضية الخاصة بسعد، هو بداية إدارة المعركة بأوامر خطية، وهو بداية العمل لانتقاء مركز قيادة يشرف على ميدان المعركة كلها، ويسمح باتخاذ القرار المناسب والإشراف على تنفيذه.

ولم يكن قرار المطاردة، بعد تحول الموقف في القادسية، سوى نتيجة منطقية تستجيب لمتطلبات حرب الحركة وتلبّي مبادىء الحرب التي كان العرب المسلمون يعتمدونها في حروبهم. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن الجذور الأساسية للقرارات الصحيحة تمتد في قيادة سعد إلى مجموعة من العوامل

أبرزها الاستطلاع وجمع المعلومات الدقيقة عن العدو، ثم تقدير الموقف تقديراً سليماً، من خلال ضباب الشك، للوصول بعد ذلك إلى القرار الصحيح الذي يعالج الموقف؛ سواء كان هذا الموقف متوقعاً أو مباغتاً.

ويمثل القرار شخص القائد في جميع الظروف، وبذلك تكون كلمة القائد إنما تعني القرار الصحيح. وليس هناك برهان أفضل من المنجزات الرائعة التي حققها سعد بن أبي وقاص للتأكيد على صحة قراراته، والتسليم بعد ذلك بكفاءته القيادية العالية التي استطاعت حشد كل المعطيات الضرورية والإمساك بجميع العوامل المختلفة من أجل تحقيق غاية السِّلم وهدف الحرب. وقد يكون من الصعب إجراء تقويم لكل منجزات القائد سعد بن أبي وقاص، ولعل القول إنه كان قائد القادسية هو في حدِّ ذاته كافياً عن كل تقديم.

٦ ـ حماية المرؤوسين

أرسل سعد قوة من المشاة، كالطليعة، ثم أرسل قوة أخرى لتنفيذ المهمة ذاتها، وعدد أفراد كل واحدة منهما مائة مقاتل، وطلب إلى قائدَيِّ القوتين عدم التوغل. وبلغ رستم تحرك القوتين المسلمتين، فأرسل إليهما قوة من الفرسان، وبلغ سعد أن قواته قد أوغلت، فأرسل قوة ثالثة لدعمهما وحمايتهما. وفي معركة القادسية، شعر سعد بخطورة الفيلة على قوات المسلمين، فاستعلم عن طريقة لإخراجها من المعركة، وأرسل إلى القعقاع أمره: «اكفياني الفيل الأبيض»، وأمرهما بضرب الفِيَلة في عيونها. وعُرف عن سعد أنه أرحم الناس بالناس، والشواهد بعد ذلك غير محدودة، وكلها تبرهن على حماية سعد لمرؤوسيه وحرصه على سلامتهم وأمنهم وتأمين متطلباتهم، والرجوع إليهم في الأمور التي يمكن استشارتهم بشأنها، وتمثل قضية حماية المرؤوسين في الجيوش الإسلامية ظاهرة تتصل بالعقيدة الدينية (المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص) و(أشدّاء على الكفار رحماء بينهم). وقد سنَّ الرسول القائد ﷺ السنَّة المُثلى فيما يجب أن تكون عليه العلاقة الأبوية بين القائد ومرؤوسيه، وجاء قادة الجيوش بعد ذلك ليسيروا على النهج ذاته.

وانطلاقاً من هذا المبدأ؛ أبرز قادة المسلمين اهتمامهم المتعاظم بتدابير الحيطة والأمن، وكان سعد بن أبي وقاص أول من أبرز نظاماً متكاملاً لتدابير الحيطة؛ سواء كانت قوات المسلمين تتحرك على الطرق وتتجه إلى المعركة، أو

كانت مقيمة في معسكراتها أو أثناء خوضها لمعاركها القتالية، ولقد جاء بناء المدن الإسلامية في العراق كالكوفة والبصرة ضمن هذا المفهوم ذاته، فقد ساءت صحة المسلمين عند توغلهم في إيران، فجاء بناء الكوفة بهدف وقائي هو ضمان المناخ الصحي للمسلمين وقواتهم.

لقد كانت حماية المرؤوسين مسؤولية عامة بين قادة المسلمين كلهم، ويشتركون جميعاً في الاضطلاع بها؛ بدايةً من أمير المؤمنين ونهايةً بقادة الأعشار، ويكون من الطبيعي، والحالة هذه، أن يحتمل سعد القسط الأوفى من هذه المسؤولية لمجموعة من الأسباب؛ أبرزها:

١ ـ ممارسة سعد قيادته في إقليم بعيد وعلى اتصال مباشر بالعدو.

٢ ـ الحجم الكبير للقوات بالنسبة لما كانت عليه جيوش المسلمين من قبل.

٣ ـ الاضطلاع بواجبات القيادة في إطار مركزي، وضمن إطار وحدة القيادة.

لقد عمل أمير المؤمنين على تجهيز جيش سعد بالأطباء والقادة المعاونين للواجبات المختلفة، الإقباض أو تقسيم الغنائم، وقادة المقدمات والمؤخرات والفرسان إلخ... ولكن ذلك كله في إطار واجبات محددة تضع المسؤولية بكاملها في النهاية على عاتق القائد العام سعد بن أبي وقاص. وفي جميع الأحوال قد يكون من الصعب فصل عامل حماية المرؤوسين في قيادة سعد عن بقية العوامل التي تميَّزت بها العقيدة القتالية للمسلمين، أو عقيدتهم الدينية؛ كما أنه من الصعب أيضاً فصل هذا العامل عن بقية الصفات الشخصية التي تميَّز بها سعد، وفي طليعتها الفروسية، والشجاعة، والمعرفة الصحيحة للرجال.

لم يكن سعد في جميع الأحوال نسيجاً قيادياً وحده، بل كان واحداً من جيل القادة الذين صنعتهم العقيدة الإسلامية؛ ولكنه رغم ذلك كان مميَّزاً بصفاته الشخصية وبإدراكه العميق لمعطيات تلك العقيدة، ويصبح من الطبيعي ألّا يُهزم المسلمون بقيادته، وأن يقود قوات المسلمين من نصرٍ إلى نصر، حتى استطاع إرساء قاعدة إسلامية ثابتة أبدَ الدهر.

ب ـ سعد بن أبي وقاص وقوات العرب المسلمين

كانت القيادة السياسية العليا على درجة رائعة من الكفاءة، ولو أنها لم تكن تحمل في عهد الفتوحات هذا الاسم، وكان أُمراء المؤمنين يمارسون دورهم في تحديد السياسة الاستراتيجية والسياسات المرحلية لكل إقليم من الأقاليم، ويعملون على تنسيق التعاون فيما بينها بشكل مذهل ومثير للإعجاب رغم تقادم الزمن، بل إن تقادم الزمن يزيد من قيمة تلك المنجزات الرائعة.

وكانت القيادة على مسرح عمليات العراق رائعة في قدرتها وإمكاناتها، فقادت القوات من نصرٍ إلى نصر ومن موقعة إلى موقعة حتى أرغمت الفرس على الجلاء، وحتى حرمتهم من مجالهم الأمني والحيوي، ولكن ذلك كله لن يحجب حقيقة أخرى وهي وجود مجموعة من الخصائص والمميزات التي انفرد بها جيش المجاهدين في سبيل الله، ولولا تلك الخصائص والميِّزات لكان من المحال تحقيق ما تمَّ إنجازه، والوصول إلى كل الانتصارات والأمجاد.

لقد تميَّز جيش المجاهدين في سبيل الله بمجموعة من الخصائص، أبرزها:

١ ـ وجود حافز قوي للحرب والقتال من أجل نشر الإسلام، وتحمُّل جميع المشاق والصعوبات، والإقدام على بذل كل التضحيات مهما كانت، ومهما بلغت. ويتساوى في التأثر بهذا الحافز القادة والمقاتلون على حدٍّ سواء.

٢ ـ وجود جيل من القادة على مختلف المستويات، وكان هذا العامل مساعداً لإنجاح الأعمال القتالية؛ لا سيما مع وجود الانضباط الصارم الذي فرضه الإسلام على المجاهدين.

٣ ـ القدرة على تحمل الصعاب والمشاق ووجود كفاءة بدنية عالية ساعدت جيوش المجاهدين على تجاوز الصحارى الشاسعة والقيام بالأعمال المختلفة، وخوض المعارك والحروب ثم الانتقال لتنفيذ الواجبات المتتالية والمحافظة على قوة الاندفاع ذاتها.

٤ ـ القدرة الحركية العالية للقوات، واستخدام هذه القدرة في الهجوم

المستمر، مما أعطى جيش المجاهدين صفته الهجومية، التي تبحث دائماً عن المعركة الحاسمة!.

ولقد عبَّرت هذه الخصائص عن ذاتها بمجموعة من المعطيات، كالاستعداد الدائم للقتال والروح المعنوية العالية، وخوض الحرب وفق تنظيم الحرب الشاملة، الشعبية، . . . إلخ.

لقد أبرزت حرب العراق، وقادسيتها، جميع خصائص الجيش الإسلامي، ذلك أن هذه الحرب كانت هي بداية الفتوحات، وكانت معاركها هي الملامح الأولى لتطوير فنِّ الحرب في جيوش المجاهدين في سبيل الله.

وبعد، قد يكون من الصعب إبراز جميع خصائص جيش المسلمين في بداياته الأولى، ولكن الملامح العامَّة والواضحة التي تظهر من خلال البحث والدراسة كافية لإظهار الخصوصية التي تميَّز بها ذلك الجيش، وهي العمل تحت قيادة سياسية استراتيجية وقيادة للعمليات تعمل بتعاون وثيق ومذهل، ثم وجود عقيدة قتالية مميزة وواضحة مع وجود جيش مؤمن بهدفه ومخلص للقضية التي توجِّهه القيادة لتنفيذها.

وتبرز من خلال هذا التلاحم العضوي الوثيق خصائص الفتوحات كلها.

كان جيش المسلمين نسيجاً وحده في التاريخ، لا مثيل له، ولا نظير بخصائصه، ولقد حاولت أُمم كثيرة الاقتباس من تراث هذا الجيش والعمل على سيرته، في حين حاولت أُمم أخرى تدمير هذا التراث وإنكار دوره وتجاهله، ولكنه سيبقى رغم التقليد والمعارضة، رغم الحرب معه والحرب ضدَّه؛ جيش المنجزات الخالدة وتراث المجاهدين الخالدين.

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

قد لا تكون هناك حاجة للبرهان على استعداد قوات المسلمين الدائم للقتال؛ ذلك أن هذه القوات لم تغادر جزيرتها إلا من أجل الحرب والقتال، إذا ما فشلت المفاوضات السلمية في تحقيق غاية السِّلم. ولكن الظاهرة البارزة هي التوفيق بين استعداد المجاهدين الدائم للقتال وبين السعي الدائم للسلم، وبناء المجتمعات الجديدة على أسس سلام الإسلام، وهكذا كان الاستعداد مقنَّناً بدقة وإحكام مع استجابة العدو لقبول السلم.

ويظهر الاستعداد الدائم لجيش المجاهدين من خلال تحركه عبر المسافات

الطويلة حتى الوصول إلى مسرح العمليات، ثم القيام بالأعمال التي تتطلبها ضرورات المعركة الحاسمة، وقد أبرزت معركة القادسية ـ بصورة خاصة ـ الروح القتالية لجيش سعد، فقد اضطر هذا الجيش لخوض معاركه بصورة متصلة تقريباً، ما يكاد القتال يهدأ مع ظلمة الليل حتى يبدأ من جديد مع صباح اليوم التالي، إلى أن جاء اليوم الثالث وليلة الهرير حيث اتصل القتال في النهار والليل والنهار التالي، وأعقب ذلك المطاردة الحاسمة.

وقد يكون من الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن قوات الفرس قد أفادت من تفوقها العددي لتبديل كتائبها في كل يوم تقريباً، في حين كان المسلمون يعملون على الانسحاب والتراجع لإعادة تنظيم قواتهم واستئناف الهجوم من جديد، ولئن كان ذلك برهاناً على الروح المعنوية العالية والكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب؛ إلا أنه برهانٌ أيضاً على استعداد المجاهدين الدائم للقتال، مهما كانت الظروف، ومهما كانت مصاعب القتال.

لقد كانت معركة ليلة الهرير النموذج الأعلى للبرهان على استعداد المجاهدين الدائم للقتال، ومن المعروف أن المقاتلين العرب كانوا غالباً ما يلجؤون إلى الليل لاستخدامه في تحركهم وتنقُّلهم حتى يضمنوا مباغتة خصومهم عند مهاجمتهم مع أول ضوء من النهار، وحدث في كثير من الأحيان أن نفَّذوا إغاراتهم في الليل، على نحو ما كان يفعله خالد بن الوليد في إغاراته، ولكن لم يحدث أبداً أن ألقى جيش بكامله ثقل هجومه في معركة ليلية. وقد يكون من المؤسف عدم توافر معلومات عن الطريقة التي كانوا يستخدمونها لإضاءة أرض المعركة، أو الطريقة التي يتعرفون بها على أهدافهم، وقد يكون ضوء القمر مساعداً لهم في عملياتهم، ولكن مهما كانت الوسائل بالنسبة لذلك العصر، فإن حدوث المعركة الليلية على مستوى الجيش إنما هو برهان ساطع على استعداد المجاهدين الدائم للقتال حتى في أسوأ الظروف وأصعب الأجواء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مفهوم الاستعداد الدائم للقتال لم يكن واحداً بالنسبة للمجاهدين العرب، بل إنه كان مختلفاً بحسب المستوى القيادي:

١ ـ كان بالنسبة لمستوى قيادة العمليات اختيار الوقت المناسب للمعركة، وإعداد الظروف الملائمة للاشتباك، وإدارة المعركة في كل الظروف.

٢ ـ وكان بالنسبة لأنساق القيادة التالية توافر القدرة على القيادة والسيطرة وتنسيق التعاون بين القوات، بحيث تظهر المعركة وكأنها لعبة من لعب الحرب.

٣ ـ وكان بالنسبة للقوات التنفيذ الرائع، واحتمال ثقل المعركة في جميع الظروف.

ومهما كان عليه الموقف، فلقد برهن جيش المجاهدين في سبيل الله، والذي قاده سعد لحرب العراق أنه نموذج أعلى للجيوش التي تضمُّ جميع الفضائل الحربية، من حيث توافر القدرة القتالية والشجاعة والقدرة على احتمال المصاعب والاستعداد الدائم للقتال.

وقد تضافرت هذه الفضائل مع الروح العالية، ومع الكفاءة القيادية العالية، فكان النصر في ركاب المجاهدين.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

حدث في يوم أغواث أن تصدّى للمقاتل العربي، علباء بن جحش العجلي، مقاتل من أشدّاء الفرس وفرسانهم، فطعن علباء المقاتل الفارسي طعنة أصاب منه مقتلاً وأصاب الفارسي بضربة منه المقاتل علباء في بطنه، وسقط المقاتلان. فأما الفارسي، فمات من ساعته، وأما علباء، فانتثرت أمعاؤه، فلم يستطع القيام لمتابعة القتال، فعالج إدخال أمعائه في بطنه، فلم ينجح في ذلك حتى مرَّ به رجل من المسلمين، فقال: يا هذا! أعِنّي على بطني. فأدخله له، فأخذ بصفاقيه (والصفاقة: جلد البطن) ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت وهو على بعد ثلاثين ذراعاً من صف فارس، وكان يردِّد:

أَرْجُـو بـهـا مـن ربِّـنـا ثـوابـا قد كُنْت مِمَّنْ أَحْسَنَ الضِّرَابا[1]

وكان زهرة بن الحوية يرتدي، يوم الهجوم على بهرسير، درعاً مفصومة، فقيل له: لو أمرت بهذا الفصم فسُرد، أي: تمَّ وصله حتى لا تكون فيه ثغرة تسمح بمرور السهم، فأجاب زهرة: ولِمَ؟ قالوا: نخاف عليك منه، قال: إني لكريم على الله، أن ترك سهم فارس الجند كله، ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيَّ!، فكان أول رجل من المسلمين أُصيب يومئذ بنشابة، فثبت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: انزعوها عنه. فقال: دعوني، فإن نفسي معي ما دامت فيَّ، لعلِّي أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة، فمضى نحو

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٤٦.

العدوِّ، فضرب بسيفه شهربراز من أهل إصطخر، فقتله، وأُحيط به فقُتل وانكشفوا.

صورتان من مجموعة صور لا نهاية لها، وكلها تعبِّر عما تميَّز به جيش المجاهدين في سبيل الله من روح معنوية عالية كانت عدَّتهم لتغطية قصورهم العددي، ويمكن إكمال بعض هذه الصور من خلال ما رافق معركة القادسية من ظواهر مختلفة (انظر خاتمة هذاالباب)، كما تظهر متابعة مسيرة العمليات الدور الذي مارسته الروح المعنوية في مجابهة تحدِّيات القتال وصعوباته، وتدحض هذه المقولات كلها ما يذكره أعداء الإسلام من أن المسلمين إنما خرجوا إلى عالم الفتوح بحثاً عن متاع الدنيا.

لقد خرج المسلمون من جزيرتهم إيماناً منهم بقدرهم وبحثاً عن إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة، فكانوا يتحاسدون على الشهادة ويتسابقون لنيلها، وكانوا كما وصفهم قائدهم: «كانوا يدوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دويَّ النحل، وهم آساد الناس؛ لا يشبههم الأُسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تُكتب له» (أنظر أول الباب ـ من أقوال سعد).

لقد كانت الشهادة فضلاً من الله يفرح بها المؤمنون، ويستقبلون آخرتهم وهم لها يبسمون، وكان من الطبيعي أن تضرب قوة جيش سعد العددية، بالعامل (س) مرفوعاً إلى قوة كبيرة لا يعلمها إلا الله، ويصبح من الأُمور الحتمية أن يحقق جيش سعد انتصاراته؛ إذ لم تكن قوته الحقيقية ممثلة بقوَّته العددية، وإنما بقوة الروح المعنوية أو العامل (س)، وهذا ما حمل ابن الخطاب على القول: «إننا لم نهزم الكفار والمشركين بعددنا، وإنما هزمناهم بهذا الدِّين».

لقد أدرك الكتّاب العسكريون في الغرب دور العامل المعنوي منذ القرن الثامن عشر؛ وبدأ التركيز على هذا العامل، ولقد تعاظمت البحوث والدراسات النفسية، ولكنها جميعاً لم تبلغ يقيناً الوصول إلى النتائج التي وصلت إليها جيوش المجاهدين في سبيل الله، عن طريق الإيمان والإسلام.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

قد يكون من الصعب إعطاء صورة عن الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب في جيش العراق الذي قاده سعد بن أبي وقاص، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية جيوش المسلمين أيضاً، ذلك أنه ما من مقياس موضوعي يمكن له تحديد

القيمة الحقيقية لجيش من الجيوش على أساس كفاءته البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب، ولو أنه ليس باستطاعة الإنسان إلا الإعجاب مثلا بالقائد العربي هانيبال (هنيبعل) الذي قاد جيوشه من شمال أفريقية، تونس حالياً، وسار بها غرباً حتى مضيق البحر المجاز، ثم عَبَر بها البحر إلا بلاد القوط، أسبانيا، وقام بحركة التفاف واسعة، وعبر جبال الألب الصعبة ليباغت أعداءه في الظهور عند بحيرة ترازيمين في إيطاليا (٢١٨ ق.م) ويحقق انتصاره الساحق.

وكانت غزوات التتار (المغول) في القرن السادس الهجري مصدر إثارة للخيالات المختلفة والصور المتنوِّعة لما تميَّز به المقاتل المغولي من الكفاءة البدنية العالية وقدرته على تحمل الصعاب، وكذلك الأمر بالنسبة للإسكندر المقدوني، الكبير، الذي سار بجيشه عام (٣٣١ ق.م) والذي قام بحركة استدارة واسعة من مصر، التي كان قد افتتحها قبل سنتين، وتوجه شمالاً حتى اقترب من حلب ثم انعطف شرقاً وعبر الفرات ليدمِّر جيش الفرس على مسافة (٦) أميال من أربيل، في عهد ملك الفرس داريوس الثالث.

وتوضح هذه الصور كلها أن جيوش العالم القديم كانت على درجة عالية من الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب، ما يجعل المقارنة والقياس أمرين مستحيلين.

ولكن هنا يمكن إدخال الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب في مجموعة القوى التي أعطت جيش المسلمين فضائله الحربية، وتشتبك هنا هذه القدرة بقوة الروح المعنوية وبكفاءة القيادة وقدرتها على حفظ الروح المعنوية وتقنين الجهد المبذول.

إن مقياس الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب قابلة للتقويم على الأساس النوعي وليس الكمِّي، فقد كان على سعد قيادة جيش العراق والوصول به إلى تخوم الامبراطورية الفارسية وسط إجراءات أمن مشدَّدة تتطلب بذل جهود إضافية، ثم الاستعداد للحرب طوال فترة غير قصيرة، وإلقاء أعباء هذه الفترة على جيش مقدَّر له منذ البداية أن يخوض معركته ضد قوة متفوقة عليه مادياً بصورة مذهلة، وكان النقص العددي في حدِّ ذاته، وخلال فترة الاستعداد، يلقي أعباء إضافية على كاهل القوات لتنفيذ إجراءات الأمن وأعمال التأمين الإداري للقوات، فكان جيش سعد في حالة حركة دائمة وبذل جهد مستمر، حتى جاءت المعركة الحاسمة التي استمرَّت مدة أربعة أيام كاملة تقريباً؛ لم يتوقف فيها

القتال أكثر من فترة قصيرة لا يمكن اعتبارها فترة راحة، ثم تبع ذلك تطوير للأعمال القتالية.

وقد ساعدت استراتيجية الهجوم غير المباشر، من دون ريب، في إنقاص الجهد المبذول، إلا أن حجم العمل بقي رغم كل شيء في حاجة لجهد ضخم لا يمكن الاضطلاع به لو لم تتوافر لجيش العراق درجة عالية من الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب، وتوافر روح المغامرة إلى جانب بقية الفضائل الحربية.

وفي كل الأحوال، لم تكن أعمال جيش العراق مجرد مسيرات في ظروف أمن جيدة، وإنما كانت اشتباكات مستمرة في ظروف صعبة، وكان من المحال على جيش صغير نسبياً، بالمقارنة مع جيش الفرس الكبير؛ الاضطلاع بهذه الأعباء كلها لو لم تتوافر للجيش درجة عالية من الكفاءة البدنية.

٤ ـ سعد والجهاد في سبيل الله

انطلق المسلمون، بعد القادسية، لتصفية جيوب المقاومة والقضاء على بقايا قوات الفرس، وقد توافرت معلومات عن تجمع أهل ميسان، وتنظيم قواتهم ضدَّ المسلمين، فانطلق المغيرة بن شعبة لحربهم، وخلَّف الأثقال، أي: الشؤون الإدارية، حتى لا تعيق تحرُّكه السريع، واصطدم بقوات العدوِّ على ضفاف دجلة، فقالت أردة بنت الحارث بن كلدة: لو لحقنا بالمسلمين فكنّا معهم! فاعتقدت لواءً من خمارها، واتخذ النساء من خُمُرهنَّ رايات، وخرجن يردنَ المسلمين، فانتهين إليهم والمشركون يقاتلونهم، فلما رأى المشركون الرايات مقبلة، ظنّوا أن مدداً أتى المسلمين، فانكشفوا، واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدَّة[1].

وفي معركة القادسية، وكَّل سعد رجالاً بنقل الشهداء إلى العذيب، ونقل الجرحى، أي: الرثيث. فأما الرثيث، فأُسلم إلى النساء يقمن عليهم إلى قضاء الله ﷻ فيهم. وفي يوم عماس، اليوم الثالث للقادسية، قال سعد: «من شاء غسل الشهداء، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم». وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم، فجعلوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر، ويبلغون الجرحى إلى النساء... وكان النساء والصبيان

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٩٦.

يحفرون القبور في يومي أغواث وأرماث، وكان للنساء والأطفال دورهم في مساعدة الجرحى وإمداد الرجال وتشجيعهم وإثارة الحماسة في نفوس المقاتلين.

واتصل سعد بأهل الديلم وبالقبائل العربية يوم القادسية واستجاب له رؤساء أهل المسالح، وقاتلوا مع المسلمين، مع محافظتهم على دينهم، وعندما انتصر المسلمون في القادسية، قال هؤلاء: «إخواننا الذين دخلوا في هذا الأمر من أول الشأن أصوبُ منا وخير، ولا والله لا يفلح أهل فارس بعد رستم إلا من دخل في هذا الأمر منهم؛ فأسلموا وخرج صبيان العسكر في القتلى، ومعهم الأداوي يسقون مَن به رمق مِنَ المسلمين، ويقتلون من به رمق من المشركين، وانحدروا من العذيب مع العشاء».

إن هذه النماذج والصور ليست في الواقع أكثر من امتداد لما كان يطبقه الرسول الأعظم ﷺ، وليست في واقعها أيضاً أكثر من تطبيق وتنفيذ لتعاليم التعبئة وفقاً لتطور الدولة الإسلامية. فقد نهى أبو بكر عن استخدام المرتدين وحشدهم في جيوش المسلمين، ثم سمح عمر بتطوع المرتدين ولكنه رفض تسليمهم أعمالاً قيادية، ثم استخدم المسلمون الأنصار، على نحو ما فعله سعد، وكان ذلك حافزاً في كثير من الأحيان لدخول عرب العراق وحتى الفرس، كأهل الديلم، في دين الإسلام، وكان الجيش، جيش الجهاد، هو إحدى وسائل بناء المجتمع الجديد.

لم يكن اشتراك النساء والأطفال في جيش سعد بأعمال الجهاد ودعم المجاهدين مجرد وسيلة لتغطية النقص العددي، وإنما كان استجابة أيضاً لتنفيذ الواجب الذي فرضه الدين الإسلامي، وهذا ما يفسِّر اندفاع النساء والأطفال لتنفيذ ما يمكن له دعم الجهد الحربي، والاصطلاع بأعباء التأمين الإداري والصحي للمقاتلين.

لقد كان جيش سعد جيشاً ثورياً بالمفهوم الحديث، وكان ظلاً متقدماً لأكثر من عشرة قرون لمفهوم الحرب الشعبية. وكان جيش المجاهدين في سبيل الله صورة لما هي عليه العقيدة الإسلامية، التي لا زالت وستبقى ظلاً متقدماً يتجاوز الظلال الوضعية، ويرفد الإنسانية بمعين لا ينضب من الخبرات والتجارب التي لم يحجب تقادم الزمن إشراقتها وأنوارها الساطعة.

٥ ـ سعد وحرية العمل

كان سعد يتمتع بقدر كافٍ من حرية العمل على مستوى العمليات بقدر يعادل القيود المفروضة على حريته في المجال الاستراتيجي، ومقابل ذلك، فإنه منح مرؤوسيه قدراً من حرية العمل على المستوى التعبوي، التكتيكي، ولكن ضمن حدود حريته للعمل في إطار العمليات، وقد كانت هذه الظاهرة مميَّزة وواضحة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، الذي كان يتمتع بمركزية قوية لإدارة الحرب على مستوى السياسة الاستراتيجية؛ ولكنه لم يكن يتدخل في حرية عمل قادته على مستوى العمليات إلا بقدر ما يتطلبه تنفيذ السياسة الاستراتيجية لمسارح العمليات على مختلف الجبهات، وقد انعكس هذا الموقف على قادة مسارح العمليات، فكانت حدود حرية العمل الممنوحة للقادة المرؤوسين مقيَّدة بواجبات العمليات. ولقد برهن هذا التنظيم الرائع على فاعليته الكبرى، لا في النجاحات المستمرَّة على مختلف مسارح العمليات فحسب، بل برهن أيضاً على فاعليته في تقنين الجهد المبذول وفي تنفيذ السياسة الاستراتيجية لعالم ما بعد الحرب والفتوح.

لقد كانت جيوش المسلمين قليلة في عددها، ضعيفة في تسلُّحها، وكانت جبهات القتال ما بين مصر والعراق أكبر اتِّساعاً من حجم الجيوش، وكانت تحديات الدولتين العظميين، البيزنطية والفارسية، مستمرة على تخوم بلاد الشام والعراق، فكان لا بدَّ من تنسيق التعاون بين الجبهات، وإجراء التعادل بين التوتر والاسترخاء على مختلف الجبهات حتى يصبح بالإمكان تأمين مبدأ الحشد وتركيز القوى على الجبهة الخطرة وخوض معركتها الحاسمة للانتقال إلى جبهة أخرى، وهكذا... وقد حدَّت هذه القيود الاستراتيجية من حرية العمل على مسارح العمليات وضبطتها بقيود محكمة، لكنها لم تُنقص من حدود حرية العمل على مستوى العمليات بقدر ما دعمتها وضمنت لها ظروفاً أفضل للنجاح (انظر سعد وفن الحرب في نهاية هذا الباب). ولقد تطلب التنظيم الجديد لعمل القيادات المختلفة، ما يلي:

١ ـ تأمين سيل مستمر من المعلومات حتى تكون مختلف القيادات على اطلاع كامل بالموقف من جميع جوانبه، مع ما يحتمل أن يشهده الموقف من تطوُّرات.

٢ ـ الثقة المطلقة بين الأنساق القيادية المتتالية، الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية، وتنسيق التعاون الوثيق فيما بينها.

٣ ـ تأمين قدرة حركية عالية للقوات من أجل دعم القوات، والتنقل ما بين الجبهات.

لقد بدأت معركة القادسية في يومها الأول بثلاثين ألف مقاتل تقريباً، وسقط من المقاتلين أثناء المعركة تسعة آلاف أو عشرة آلاف، وكان عدد المقاتلين الذين تمَّ توزيع الفيء عليهم، من الأحياء، زهاء ثلاثين ألفاً ينقصون أو يزيدون قليلاً. وهكذا بلغ حجم الإمداد والدعم خلال أيام القتال الثلاثة عشرة آلاف مقاتل، بمن فيهم جيش القعقاع وهاشم بن عتبة، ويكون حجم الإمداد معادلاً لحجم الخسائر، وبذلك حافظت قوات جيش العراق على قدرتها العددية، وكان ذلك عاملاً في جملة العوامل التي ساعدتها على تطوير عملياتها. وبذلك، فإن حرية العمل لم تنقص في ظل مركزية القيادة، وإنما أخذت شكلاً تنظيمياً دقيقاً ألقى بظلاله على آفاق المستقبل. وتظهر متابعة الأعمال القتالية التي قادها سعد؛ أنه لم يكن مقيَّد الحركة أو أنه يتمتع بقدر محدود من حرية العمل، وإنما كان يمارس دوره كقائد للعمليات وللجبهة على نحو يشابه ما هو عليه موقف القادة في الجيوش الحديثة.

٦ ـ الانضباط والطاعة

نظم سعد وفداً من دُهاة العرب، بهدف إرسالهم إلى الفرس، وجَمَعهم وقال لهم: «إني مُرسلكم إلى هؤلاء القوم، فما عندكم؟» قالوا جميعاً: «نتَّبع ما تأمرنا به، وننتهي إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء؛ نظرنا أمثَل ما ينبغي وأنفعه للناس، فكلَّمناهم به».

واختلف الناس عندما عيَّن سعد قائداً ينوب عنه في إدارة المعركة، هو خالد بن عرفطة، ووقف جرير وقال: «أما إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولّاه الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً». وحسم سعد الموقف عندما كتب إلى حاملي الرايات: «إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وَجَعي الذي يعودني وما بي من الحبوب، فإني مُكبٌّ على وجهي وشخصي لكم بادٍ، أي: ظاهر، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأيي». فقُرِىء على الناس فزادهم خيراً، وانتهوا

إلى رأيه، وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع.

وتحملت قبيلة بجيلة يوم أرماث ثقل هجوم الفرس، وصمدت وقاتلت بضراوة، فأرسل سعد إلى بني أسد: «دافعوا عن بجيلة ومن لافها من الناس». وقام طُليحة فخاطب قومه بقوله: «يا عشيرتاه! إن سعداً، الموثوق به، قد استصرخكم، ولو علم أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم؛ ابتدئوهم الشدة، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة، فإنما سُمِّيتم أسَداً لتفعلوا فعله».

وفي ليل الهرير أصدر سعد أوامره بتنظيم هجوم مشترك من قوة الفرسان والمشاة، ووقف قيس بن هبيرة المرادي فيمن يليه، ليقول لهم: «لقد أبى عدوُّكم إلا المزاحفة، ورأي الأمير أن تحمل الخيل ومعها الرجالة، فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل لا رجال معهم؛ عقروا بهم ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فتيسروا للحملة... وانتظروا التكبيرة»[1].

تلك هي بعض الصور لمفهوم الانضباط والطاعة في جيش سعد، وهي ليست كل الصور، ويقابلها انضباط مماثل في تنفيذ أوامر القيادة السياسية. فقد كان سعد يحرص على تنفيذ أوامر أمير المؤمنين وتعليماته، والالتزام بوصاياه، ويمكن إيجاز الأُسس الواضحة لمفهوم الانضباط بما يلي:

١ ـ الانضباط الطوعي، وتنفيذ الأوامر لا بحسب نصها فقط، وإنما بموجب ما تحتويه من مضامين وأهداف.

٢ ـ الاجتهاد في حدود الأوامر المعطاة، وبذل الجهود لتنفيذها على أفضل صورة ممكنة.

٣ ـ ارتباط مفهوم الانضباط بالمفهوم الديني.

٤ ـ الالتزام بما يصدر من أوامر وقبول نتائجها كما لو كانت تلك الأوامر قد صدرت عن إرادة مشتركة يحمل الجميع تبعاتها.

ويدخل هنا عامل القرار والتنفيذ كعامل متكامل، بحيث يحتمل القائد أخطاء الفشل ومسؤوليتها عند كل تنفيذ خاطىء، حتى لو كان التنفيذ مخالفاً للتعليمات. وعلى سبيل المثال، فقد اندفع القعقاع بن عمرو وبدأ هجومه في ليل الهرير قبل أن يصدر سعد التكبيرة الثالثة، وأخذت القوات في اللحاق به

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٨ و٥٣١، ٥٣٢ و٥٦٠.

تباعاً، فكان موقف سعد يتمثل في قوله: «اللهمَّ اغفر له وانصره، فقد أذنته». واعتبر سعد أن اندفاع القعقاع هو تنفيذ لإرادته، وأرسل أوامره: «الخير فيما فعله القعقاع، فاتبعوه».

لقد كان سعد نموذجاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الانضباط في جيش المسلمين، وكان قادته ومرؤوسوه وجنوده على مثل ما هو عليه من انضباط وطاعة، وكان هذا الانضباط الطوعي هو عدَّة المسلمين في حروبهم. لقد كان جيشاً تجلَّت فيه أعلى روح للفروسية، الفرد في طاعة الجميع، والجميع في طاعة الفرد.

خاتمـة

١ ـ عودة سعد وفـن الحرب

يشعر من يطالع التاريخ العربي أنَّ دور سعد بن أبي وقاص في قيادته كان ثانوياً، فقد كان يرجع إلى أمير المؤمنين عمر في أموره، صغيرها وكبيرها، ويستشيره في كل ما يحدث له، ويعلمه عن كل ما يراه ويسمعه، ولا يحزم أمراً أو يتخذ قراراً يختص بمنطقة عملياته إلا بعد أن يصدر إليه أمير المؤمنين أمراً بذلك، ولعل كثرة الرسائل المتبادلة بين أمير المؤمنين وقائده سعد، ثم تدخُّل عمر في أمور هي من طبيعة عمله، كتعيين الواجبات، وتحديد حجم القوات، والتدخل في تعيين قادتها وتنظيمها هو الذي يعطي هذه الصورة، بحيث يظهر دور سعد، بعد القادسية خاصة، أنه هامشي وثانوي، ولكن حقيقة الموقف ليست على مثل هذه الصورة.

لقد كان أمير المؤمنين عمر، على ما يظهر من رسائله وإجراءاته، شديد السلطة، يؤمن بالمركزية القوية، ويمارس دور القيادة السياسية الاستراتيجية، في حين كان يمارس سعد دوره كقائد عملياتي، يعرف دوره تماماً، ويدرك أبعاد مسؤوليته، ويتحرك في الحدود التي يتطلبها دوره. ويصبح من الطبيعي في ظل القيادة السياسية ـ الاستراتيجية الواحدة أن تمارس هذه القيادة دورها في اتخاذ جميع القرارات المتعلقة بالأهداف، وأن تحشد القوى والوسائط الكافية لبلوغ هذه الأهداف، وأن يبلغ من تدخلها تعيين القادة وتحديد حجم القوات؛ لا سيما وأنها على اطلاع دقيق بالموقف؛ علاوة على معرفتها بحقيقة الموقف على الجبهات الأخرى، كجبهة الشام، في حين لم يكن قائد العمليات على اطّلاع بأكثر من موقفه الخاص على مسرح عملياته. ويظهر من هنا أن تدخل أمير المؤمنين عمر كان، من الناحية العسكرية، طبيعياً جداً ومنسجماً مع حقيقة الموقف، كما كان موقف سعد صحيحاً وسليماً. وهنا

يعود السؤال مرة أخرى: وماذا بقي لسعد من دور في فنِّ الحرب؟...

لقد مارس سعد دوره كاملاً في إدارته للعمليات، وكان يُطلع قيادته السياسية الاستراتيجية على الموقف وتطوراته ويُعْلمها عن مخططاته، ويحصل على موافقتها، وهذا الدور يتشابه تماماً مع دور قائد العمليات في الحروب الحديثة.

لقد اختار سعد ميدان القادسية، وعمل على إدارة المعركة بنفسه، رغم مرضه، وحدَّد توقيت بدايتها (الساعة: س)، وتدخل في مسيرتها عندما تطلب الموقف ذلك، وعالج كل قصور ظهر له أثناء المعركة، ثم انصرف بعد المعركة لإعادة تنظيم قواته، وعمل على توسيع نطاق الأمن، وانصرف إلى معالجة أمور المجتمع الجديد، ثم قاد جيش المسلمين في العراق إلى بهرسير ورأى أنها تحصنت وأقامت عليها الخنادق والحرس وعدَّة الحرب، وأخذ أهلها في رمي المسلمين بالمجانيق، فأقام سعد وقواته على بهرسير شهرين كاملين، وهم يرمونها بالمجانيق ويدبُّون إليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدَّة، واستصنع سعد عشرين منجنيقاً فشغل أهل بهرسير بها. وعندما أنهى سعد هذا الواجب؛ أعاد من جديد تنظيم قواته وجمع قادة قواته، وطرح عليهم الموقف: «لقد جمع الفرس كل سفنهم ما بين البطائح وتكريت... وإن عدوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون ـ بمعنى يصلون ـ إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه... وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم». فقالوا جميعاً: «عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل».

ونظم سعد رائدة لاجتياز النهر وحماية عملية العبور بقيادة عاصم بن عمرو، ومعه ستمائة من أهل النجدات، ثم عبر المسلمون إلى المدائن، وكانت عملية العبور في حدِّ ذاتها مباغتة أذهلت الفرس، وشغلتهم عن أنفسهم، فمضوا فرقاً في كل وجه والمسلمون يتبعونهم؛ يقتلون ويأسرون، وسقطت عاصمة الفرس، المدائن، في قبضة المسلمين، فدخل سعد وصلّى والمسلمين وقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان/ ٢٥ ـ ٢٨]، وصلى فيه صلاة الفتح[1]، واتخذه مسجداً.

---

(١) صلاة الفتح: صلاة لا تصلّى جماعة، وهي ثماني ركعات، لا يفصل بينهن.

اتَّسعت رقعة العراق بفتح المسلمين لها كلها، وتطلبت إقامة المجتمع الجديد تركيزاً أكبر، فعمل أمير المؤمنين عمر على تقسيم إدارة البلاد بين مركزي الكوفة والبصرة، وبقي سعد والياً على الكوفة، وتمَّ تعيين والٍ للبصرة، وانصرف سعد لبناء الكوفة وإقامة دعائم المجتمع الجديد.

تُظهر هذه الملامح أنه لم يكن هناك ثمة تناقض أو تعارض بين دور القيادة المركزية القوية، التي كان يمارسها أمير المؤمنين، وبين دور القيادة في مسرح العمليات، والتي كان يضطلع بها سعد، وقد برهنت مسيرة الأحداث على فاعلية التحديد للواجبات والاختصاصات بين القيادتين، وما ساد بينهما من تعاون أدّى في النهاية إلى تصفية الامبراطورية الفارسية والقضاء عليها.

مهما كان عليه الموقف، فهناك ثمة مجموعة من المنجزات التي يعود الفضل في إعطائها صورتها الواقعية وتطبيقها الفعلي للقائد سعد بن أبي وقاص؛ أبرزها:

١ ـ تقسيم الجيش وتنظيمه تنظيماً حديثاً على الأساس العشري، وتعيين القادة لمختلف مراتب التسلسل: العرفاء قادة العشرات، ثم قادة الخمسينات وأمَّار المئات وأمراء الألوف، وهكذا، وبذلك أخذ الجيش الإسلامي شكل التنظيمات المتقدمة، وكان سباقاً في هذا المجال على جيوش العالم القديم.

٢ ـ تنظيم مناطق الحشد، وتحديد إجراءات الأمن وتدابير الحيطة الواجب اتخاذها في هذه المناطق.

٣ ـ تنظيم أرتال المسير مع فكرة احتمال مجابهة العدو في كل مرحلة من المراحل، واختيار التشكيل الملائم الذي يسمح بالتحول من تنظيم التحرك إلى تنظيم القتال.

٤ ـ تحديد الواجبات الدقيقة لعناصر الأمن ودفعها أمام القوات مسافة تكفي لإنذار القوات الرئيسية، وإتاحة الفترة اللازمة لاتخاذ تنظيم القتال.

٥ ـ استخدام وسائل اقتحام الحصار، والتوسع فيها (المجانيق، العرادات، الدبابة).

٦ ـ تنظيم عمليات عبور الأنهار والموانع المائية (رائدة ـ وسائط عبور).

٧ ـ تطوير النظام المتمفصل (النظام المرن أو السيال) في قتال المسلمين.

وقد يكون من الصعب حصر منجزات القائد سعد كلها، ولكن من الملاحظ أن جميع هذه المنجزات تتعلق بالأمور التنظيمية والقيادة الفعلية للعمليات،

وبذلك يمكن القول، من دون مبالغة؛ إنه أول قائد منظِّم وأول قائد للعمليات في جيوش المسلمين.

لقد كان من المحتمل أن تأخذ مسيرة الأعمال القتالية في العراق شكلاً مختلفاً تماماً لو لم تكن هناك قيادة سياسية استراتيجية توجه العمليات، وتحدد الواجبات وتحشد القوى والوسائط الضرورية، كما كان هناك احتمال أيضاً أن تأخذ هذه الأعمال صورة مختلفة لو لم يكن سعد قائداً لها، ولعل المنجزات الرائعة والأعمال العظيمة التي أمكن تحقيقها خلال فترة زمنية قياسية، ما هي إلا برهان على فاعلية هذا التنظيم ونجاحه في تحديد الواجبات والمسؤوليات.

وبعد، فليست تلك هي منجزات سعد في سنوات قليلة، وإنما هي أبرزها، وهناك منجزات أخرى اشترك فيها مع غيره من قادة المسلمين، فكان من نتاج ذلك التطور المتكامل لفن الحرب عند العرب المسلمين.

٢ ـ قراءات

واكبت معركة القادسية مجموعة من الأحداث التي تعكس موقف المسلمين وتصور ما كان عليه حالهم أيام الفتوح، وقد يكون من المفيد والممتع معاً مطالعة تلك الأحداث وقراءتها بأسلوبها القديم، الذي يبعث عمق الماضي بكل جلاله وجماله، مما يثير العقل والعاطفة معاً.

أ ـ عندما وصل سعد إلى القادسية بعث عاصم بن عمرو إلى أسفل الفرات، فسار عاصم حتى أتى ميسان، فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر عليها، وتحصن منه مَن في الأفدان، في الحقول، ووغلوا في الآجام، ووغل حتى أصاب رجلاً عند تخم أجمة، فسأله عن البقر والغنم، فحلف له وقال: لا أعلم؛ وإذا هو راعي ما في تلك الأجمة، فصاح منها ثور: كذب والله، ها نحن أولاء. فدخل عاصم، فاستاق الثيران وأتى بها العسكر، فقسم ذلك سعد على الناس، فأخصبوا أياماً.

وبلغ ذلك الحجاج بن يوسف الثقفي في زمانه، فأرسل إلى نفر ممن شهدها، ومنهم نذير بن عمرو والوليد بن عبد شمس وزاهر، وسألهم، فقالوا: نعم، نحن سمعنا ذلك ورأيناه، واستقناها. فقال: كذبتم! فقالوا: كذلك، إن كنت شهدتها وغبنا عنها. فقال: صدقتم! فما كان الناس يقولون في ذلك؟ قالوا: آية تبشير يستدل بها على رضا الله، وفتح عدونا. فقال: والله ما يكون هذا إلا والجميع

أبرار أتقياء. قالوا: والله ما ندري ما في قلوبهم، فأما ما رأينا فإنا لم نر قوم قط أزهد في دنيا منهم، ولا أشد لها بغضاً، ما اعتد، أو اتهم، على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث: لا بجبن ولا بغدر ولا بغلول... والغل هو الاستئثار بأموال مما يحصل عليه المسلمون من البلاد المفتوحة[1].

ب ـ كان من عادة العرب المسلمين في حروبهم إرسال وفود للتفاوض والدعوة إلى الإسلام قبل المعركة، إيماناً من المسلمين بعدالة الحرب التي يخوضونها والهدف الذي يحاربون من أجله. وقد كانت هناك بين المسلمين والفرس اتصالات متتابعة، ووفود متبادلة كثيرة، وقد أرسل سعد أحد هذه الوفود، وفيه النعمان بن مقرن، بهدف دعوة يزدجرد للإسلام.

وذكر بعض سبايا القادسية، ممن أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وكان فيمن شهدوا وصول الوفد إلى قصر يزدجرد فأجمعوا: أنهم لم يشهدوا عشرة قط يُعدلون في الهيئة بألفٍ غيرهم، وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضاً، مثل هؤلاء، مما جعل أهل فارس يظهرون استياءهم لما يرون من حال العرب وحال خيلهم[2]...

بعث يزدجرد من يحجب الوفد عن مقابلته حتى دعا الناس ليشهدوا العرب المسلمين وينظروا إليهم، وظهر هؤلاء وعليهم المقطعات والبرود وفي أيديهم سياط دقاق، وفي أرجلهم النعال، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس، وأظهر استخفافه بهم، ثم قال لهم، عن طريق ترجمانه: سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ وأجاب النعمان فقال: «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلُّنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة... وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأُمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا... فإن أبيتم فأمر من الشرِّ هو أهون من آخر شراً منه: الجزاء، أي: دفع الجزية، فإن أبيتم، فالمناجزة أو الحرب، وإن أنتم أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم؛ وإنِ اتَّقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم».

وأجاب يزدجرد فقال: «إني لا أعلم في الأرض أُمة كانت أشقى ولا أقل

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٤، ٤٩٥.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٨، ٤٩٩.

عدداً ولا أسوأ ذات بَيْن منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنَّكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملَّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم».

وتولى المغيرة بن زرارة الأسدي الردَّ، فقال له بمثل مقالة النعمان ودعاه إلى واحدة من ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب. فقال يزدجرد: «لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم؛ لا شي لكم عندي». ثم أمر بحمل من تراب، وقال: «احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن». وقال للوفد: «ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده بلادكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور».

وتطوع عاصم بن عمرو لحمل التراب حتى لا يحمله غيره من سادات الوفود وأشرافه. ثم مضى الوفد إلى معسكر سعد، حيث استقبلهم المسلمون، وكان عاصم يسبق الوفد حتى دخل باب قُديس في القادسية، فقال: بشِّروا الأمير بالظفر، ظفرنا إن شاء الله. ومضى حتى جعل التراب في الحجر، ثم رجع فدخل على سعد، فأخبره الخبر فقال: «أبشروا، فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم».

جـ ـ وعندما أطلق يزدجرد قواته بقيادة رستم لقتال العرب المسلمين دفع رستم مقدمة له بقيادة الجالينوس وأمره بالتقدم إلى الحيرة، كما أمره أن يصيب له رجلاً من العرب للحصول على المعلومات عن حال المسلمين. وخرج الجالينوس على رأس سرية من مائة مقاتل حتى انتهوا إلى القادسية، وهناك أصابوا رجلاً، فاختطفاه، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم، أي: مؤخرتهم، فلما وصلت السرية إلى رستم، حملت الأسير إليه، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعود الله، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تُسلموا. قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟ قال: في موعود الله أنَّ من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك، فنحن على يقين. فقال رستم: قد وُضعنا إذاً في أيديكم! قال المسلم: ويحك يا رستم! إنَّ أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يغرنَّك ما ترى حولك، فإنك لست تقاتل الإنس، وإنما تجادل القضاء والقدر! فاستشاط غضباً، فأمر به فضُربت عنقه.

د ـ عندما نزل سعد القادسية أرسل الطلائع والعيون (الجواسيس) لاستطلاع أمر الفرس، وأمرهم أن يصيبوا رجلاً ليسأله عن أهل فارس.

وتطوع طليحة الأسدي للمهمة، ومضى يجتاز الحقول والأنهار، حتى دخل عسكر رستم، وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم، فلما أدبر الليل؛ خرج وقد أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر، فإذا فرس له لم يُرَ في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم يُرَ مثله، فانتضى سيفه، فقطع مقود الفرس، ثم ضمه إلى مقود فرسه، ثم حرك فرسه فخرج يعدو به. وشعر الحرس في معسكر الفرس وأنذروا قومهم الذين أسرعوا إلى صهوات جيادهم، ولحق فارس بطليحة، فتركه طليحة حتى يسبقه بعد أن انحرف عن طعنة رمحه، وأسرع إليه فطعنه برمحه وقتله، ثم لحق به آخر فصرعه أيضاً ولحق به ثالث، وكان قد اقترب من معسكر المسلمين، فعمل طليحة على المراوغة حتى وضع الفارس تحت رحمته وطلب إليه الاستسلام، فاستسلم. وأقبل طليحة حتى وصل المعسكر، ودخل إلى سعد، فقال له: لقد دخلت عسكرهم، وجستها منذ الليلة، وقد أخذت أفضلهم توسماً، وما أدري أصبت أم أخطأت، وها هو ذا فاستخبره. فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي، فقال له الفارسي: أتؤمنني على دمي إن صدقتك؟... قال: نعم، الصدق في الحرب أحبُّ إلينا من الكذب.

قال: أُخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قِبَلي؛ باشرتُ الحروب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها، منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا؛ أن رجلاً قطع عسكرين لا يجترأ عليهما إلى عسكر فيه سبعون ألفاً، يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون، فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند، وهتك أطناب بيته فأنذره، فأنذرنا به فطلبناه، فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس، فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيره، فقتله، ثم أدركته، ولا أظنُّ أنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين، وهما ابنا عمي، فرأيت الموت فاستأسرت. ثم أخبره عن أهل فارس، بأن الجند ١٢٠ ألفاً، وأن الأتباع مثلهم خدام لهم. وأسلم الرجل، فسمّاه سعد مسلماً، وعاد إلى طليحة، وقال: لا والله! لا تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمؤاساة، لا حاجة لي في صحبة فارس. فكان من أهل البلاء يومئذ، ولزم طليحة فكان معه في تلك

المغازي كلها[1].

هـ ـ بلغ سعداً أن رستم قد ارتحل من النجف لينزل حيث كانت مقدمته في الخرارة، وأنه دفع مقدمته بقيادة الجالينوس إلى طيزناباذ، فعمل سعد على دفع قوة استطلاعية بقيادة قيس بن هبيرة الأسدي، وأوصاه بقوله: «اخرج يا عاقل؛ فإنه ليس وراءك من الدنيا شيء تحنو عليه حتى تأتيني بعلم القوم». وأرسل قوة أخرى بقيادة عمرو بن معديكرب وطليحة الأسدي لتنفيذ المهمة ذاتها. وكان سعد يعرف أن هناك ثمة خلافاً بين قيس وبين عمرو وطليحة. واشتبك عمرو وطليحة مع قوات الأمن الفارسية، ثم تدخل قيس فحمل على الفرس، فكانت هزيمتهم، فأصاب منهم اثني عشر رجلاً، وثلاثة أسراء، وأصاب أسلاباً، فأتوا بالغنيمة سعداً، وأخبروه الخبر، فقال: هذه بشرى إن شاء الله؛ إذا لقيتم جمعهم الأعظم وحَدَهُم فلهم أمثالها. ودعا عمراً وطليحة، فقال: كيف رأيتما قيساً؟... فقال طليحة: رأيناه أكمى منا، أي: أكثر قدرة على تنظيم الكمائن وقيادتها. وقال عمرو: الأمير أعلم منا بالرجال. قال سعد: إن الله تعالى أحيانا بالإسلام، وأحيا به قلوباً كانت ميتة، وأمات به قلوباً كانت حية، وإني أحذِّركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على الإسلام، فتموت قلوبكما وأنتما حيّان؛ الزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق، فما رأى الناس كأقوام أعزَّهم الله بالإسلام.

و ـ كانت قصة مفاوضات قائد جيوش الفرس، رستم، مع العرب المسلمين قبل معركة القادسية من القصص الطويلة، على نحو ما كان يحدث في الحروب القديمة، حيث كان الطرفان يخوضان صراعاً فكرياً، للوصول إلى اتفاق سياسي، فيما إذا كان بالمستطاع تحقيق ذلك؛ وإلا كانت الحرب، وعندما يتم الاتفاق على مكان المعركة وموعدها. وإذا كان من الصعب هنا ذكر تلك القصة الطويلة، فإنه من غير الصعب اللجوء إلى أسلوب الانتقاء لاختيار بعض ملامح تلك القصة:

طلب رستم إرسال من يفاوضه، فأرسل سعد إليه زُهرة بن الحوية، وبدأ رستم حديثه: كنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم، ونكفُّ الأذى عنهم، ونوليهم المرافق الكثيرة؛ نحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٣.

من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش. وأجابه زهرة: صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمرَ أولئك ولا طلبتنا. إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمَّتنا الآخرة. ودعاه إلى الإسلام، فقال له رستم: أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه، ومعي قومي، كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟ قال زهرة: أي والله! ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة.

ثم استقبل في اليوم الثاني المغيرة بن شعبة، وكان من دهاة العرب، فحادثه بمثل ما جرى بينه وبين زهرة، حتى قال له: سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا القتال حتى ننظر فيه وتنظروا! وأجابه المغيرة: نعم! كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال رستم: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. وأراد مقاربته ومدافعته، فقال المغيرة: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمَّتنا ألّا نمكِّن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن متردِّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمركم وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل؛ اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء، فنقبل ونكفُّ عنك؛ وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك؛ أو المنابذة، أي: الحرب، في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا؟ وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى. قال: أسيِّدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض؛ يُجير أدناهم على أعلاهم[1].

ز ـ لم يكن الفرس يتوقعون قيام المسلمين بالعبور إليهم بعد أن جمعوا السفن ودمَّروا المعابر، وقاد سعد قواته بهجوم مباغت وهو يتوجه إلى المدائن، فأصاب الهلع قلوب الفرس، فأسرعوا إلى حمل ما يستطيعون حمله والنجاة بأنفسهم، وقام المسلمون بالمطاردة، وحدثت أثناء ذلك مجموعة من القصص تبرهن كلها على هدف الحرب، الذي خرج المسلمون من أجله، والذي قاتلوا في سبيله:

١ ـ خرج زهرة بن الحوية في المقدمة يتبع الفرس، حتى انتهوا إلى جسر النهروان وهم عليه، فازدحموا، فوقع بغل في الماء، فعجلوا وكلبوا عليه، فقال زهرة: إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأناً! ما كلب القوم عليه، ولا صبروا

(١) يمكن الرجوع إلى القصة الكاملة لمرحلة المفاوضات في: تاريخ الطبري ٣/٥١٦ ـ ٥٢٩.

للسيوف بهذا الموقف الضَّنك إلا لشيء بعد ما أرادوا تركه. وإذا الذي عليه حلية كسرى؛ ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيها الجوهر، وكان يجلس فيها للمباهاة. وترجل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه، فأخرجوا فجاءوا بما عليه، حتى ردَّه إلى الأقباض، ما يدرون ما عليه.

٢ ـ وذكر هبيرة بن الأشعث عن جدِّه ما ذكره له: «كنت فيمن خرج للمطاردة، فإذا أنا ببغلين يدافع صاحباهما عنهما بالنشاب، ويردّان عنهما من يتبعهما مِن فرسان المسلمين حتى لم يبق معهما غير نشابتين، وتابعت مطاردتهما، حتى رميا بنشابتيهما، وحملت عليهما فقتلتهما، وجئت بالبغلين وما أدري ما عليهما، حتى أبلغتهما، أي: سلَّمتهما، صاحب الأقباض، وإذا هو يكتب ما يأتيه به الرجال وما كان في الخزائن والدُّور، فقال: على رسلك حتى ننظر ما معك! فحططت عنهما، فإذا سفطان على أحد البغلين فيهما تاج كسرى مفسخاً، وكان لا يحمله إلا اسطوانتان، وفيهما الجوهر، وإذا على الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس، من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباح منسوجاً منظوماً.

٣ ـ وخرج القعقاع بن عمرو التميمي لمطاردة الفرس، فلحق بفارسي يحمي الناس، فاقتتلا فقتله، وإذا مع المقتول جنيبة عليها عيبتان، وغلافان في أحدهما خمسة أسياف، وفي الآخر ستة أسياف، وإذا في العيبتين أدراع، فإذا في الأدراع درع كسرى ومغفره وساقاه وساعداه ودرع هرقل، ودرع خاقان، ودرع داهر ودروع بهرام شوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان، وكانوا استلبوا ما لم يرثوا؛ استلبوها أيام غزواتهم خاقان وهرقل وداهر، وأما النعمان وبَهْرام، فحين هربا وخالفا كسرى. وأما أحد الغلافين، ففيه سيف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز، وإذا السيوفُ الأُخر هي سيوف هرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان، فجاء به إلى سعد، فقال: اختر أحد هذه الأسياف، فاختار سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام. وأما سائرها، فنقلها في الخرساء، إلا سيف كسرى والنعمان؛ ليبعثوا بهما إلى عمر لتسمع بذلك العرب لمعرفتهم بهما. وحبسوها في الأخماس، مع حلي كسرى وتاجه وثيابه، ثم بعثوا بذلك إلى عمر ليراه المسلمون، ولتسمع بذلك العرب...

٤ ـ وخرج عصمة بن الحارث الضبي فيمن خرج لمطاردة الفرس، وذكر ما

صادفه، فقال: أخذت طريقاً مسلوكاً وإذا عليه حمار، فلما رآني صاحبه حثَّه حتى وصلا جدول ماء قد كسر جسره، فوقفا حتى أدركتهما، ورماني أحدهما فأخطأني وأصبته فقتلته وهرب الآخر، ورجعت إلى الحمارين، فأتيت بهما صاحب الأقباض، فنظر على أحدهما، فإذا سفطان في أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة، على ثغره ولبته الياقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك، وفارس من فضة مكلَّل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها خيوط من ذهب، وبطان من ذهب ولها حبل، أو ذمام، من ذهب، وكلٌّ ذلك منظوم بالياقوت، وإذا عليها رجل من ذهب مكلَّل بالجوهر؛ كان كسرى يضعها إلى أسطوانتي التاج.

٥ ـ عندما رأى سعد بن أبي وقاص ما تجمَّع في الأقباض، قال: والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وأيم الله، على فضل أهل بدر! لقد تتبَّعت من أقوام منهم هنّات وهنّات فيما أحرزوا؛ ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم.

وقال جابر بن عبد الله: والله الذي لا إلٰه إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة؛ ولقد اتَّهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طليحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المكشوح.

ولما قُدِم بسيف كسرى على عمر بن الخطاب ومنطقته وزبرجه، قال: إن أقواماً أدّوا هذا لَذَوو أمانة! فقال علي بن أبي كالب: **إنك عففت، فعفَّت الرعية**[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٨ ـ ٢٠.

البَابُ السَّابِع

معاوية بن أبي سفيان

(١٣ق.هـ ـ ٦٠ هـ/٦٠٨ ـ ٦٧٩م)

من أقوال معاوية بن أبي سفيان[1]

قال معاوية: «إني لأدفع نفسي من أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، وجهلٌ أكثر من حلمي، أو عورة لا أُواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني».

وقال: «زَيْن الشريف العفاف».

وأوصى معاوية لعبد الرحمٰن بن الحكم بن أبي العاص، فقال له: «يا بن أخي! إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء، فتعر الشريفة، والهجاء فتعر كريماً وتستثير لئيماً، والمدح فإنه طعمة الوقاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك».

وقال معاوية: «العقل والحلم أفضل ما أُعطي العبد، فإذا ذُكِّر ذكر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلي صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز».

وقال أيضاً: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت... وإذا مدّوها خلّيتها، وإذا خلوها مددتها».

وخرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقاه، فقال له عمر: «يا معاوية! تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك»! قال: «يا أمير المؤمنين! إن العدوَّ بها قريب منّا ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزّاً». فقال له عمر: «إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب». فقال معاوية: «يا أمير المؤمنين! مُرْني بما شئت أصِرْ إليه». قال: «ويحك! ما ناظرتك في أمرٍ أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣٧، والاستيعاب ٣/ ١٤١٧، ١٤١٨.

(٢) تاريخ الطبري ٥/ ٣٣١.

وقال معاوية لمن حضر من أهله، وهو يحتضر: «اتَّقوا الله ﷻ، فإن الله سبحانه يقي مَن اتَّقاه، ولا واقيَ لمن لا يتَّقي الله». ثم قضى[1].

وقال معاوية: «إذا لم يكن الأُموي مصلحاً لماله، حليماً؛ لم يشبه مَن هو منه، وإذا لم يكن الهاشمي سخياً جواداً لم يشبه من هو منه، ولا يقدمك من الهاشمي اللسان والسخاء والشجاعة».

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٧.

بعض ما قيل في معاوية

ذُمَّ معاوية عند عمر يوماً، فقال: «**دعونا من ذمِّ فتى قريش: مَن يضحك في الغضب ولا ينالُ ما عنده إلا على الرِّضا، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه**»[1].

وامتدح عمرو بن العاص أعمال معاوية أمام أمير المؤمنين عمر، فقال: «ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه!»، فقال عمر: «لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه».

وتحدث بعض الناس، في مجلس عمر، عن دهاء كسرى وقيصر، فقال عمر: «**تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما، وعندكم معاوية؟**»[2].

ووقف الضحاك بن قيس لينعي معاوية يوم وفاته، فصعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن معاوية كان عود العرب، وجدَّ العرب؛ قطع الله ﷻ به الفتنة وملَّكه على العباد، وفتح به البلاد، ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه، فنحن مدرجوه فيها، ومُدخلوه قبره، ومخلون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة».

ومرَّ عبد الملك بن مروان بقبر معاوية، فوقف عليه وترحَّم، فقال رجل: «قبرُ مَن هذا؟»، فقال: «**قبر رجلٍ كان والله فيما علمته ينطق عن علم ويسكت عن فَهْم، إذا أعطى أغنى، وإذا حارب أفنى، ثم عجَّل له الدهر ما أخَّره لغيره ممن بعده**»[3]...

وقال عبد الله بن العباس يذكر معاوية: «ما رأيت أحداً أخلق للمُلْك من معاوية؛ إن كان يرد الناس منه على أرجاء وادٍ رحب».

وذُكر معاوية في مجلس حضره عبد الله بن عمر، فقال: «**ما رأيت أحداً بعد**

---

(١) الاستيعاب ٣/ ١٤١٧، ١٤١٨.
(٢) تاريخ الطبري ٥/ ٣٣٠.
(٣) تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٨، خبر وفاة معاوية.

رسول الله ﷺ أسود؛ أي: من السيادة وصفات المُلك، من معاوية». فقيل له: «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي؟»، فقال: «كانوا والله خيراً من معاوية وأفضل، ومعاوية أسود»[1].

موجز حياة معاوية بن أبي سفيان

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣ق.هـ	٦٠٨م	ولادة معاوية
٨هـ.	٦٢٩	فتح مكة. معاوية يُشهر إسلامه.
١٢هـ	٦٣٣	معاوية في قيادة جيش الشام.
١٧	٦٣٨	معاوية يفتح قيسارية.
١٧	٦٣٨	ولاية جند الشام وخراجها.
١٧	٦٣٨	ولاية الشام وفلسطين وحمص والأردن.
٢٣	٦٤٣	وفاة عمر رضي الله عنه.
٢٥	٦٤٥	غزو القسطنطينية وحصارها.
٢٨	٦٤٨	غزو قبرص.
٣٣	٦٥٣	فتح قبرص ووضع حامية إسلامية فيها.
٣٤	٦٥٤	ذات الصواري.
٣٥	٦٥٥	مصرع عثمان رضي الله عنه.
٣٥	٦٥٥	استقلال معاوية بالشام.
٣٧	٦٥٧	الحرب الأهلية والتحكيم في دومة الجندل.
٤٠	٦٦٠	اغتيال علي رضي الله عنه. عام الجماعة، وعودة وحدة المسلمين.
٤١	٦٦١	فتح سجستان وخراسان.
٥٠	٦٦٩	توجيه قوة برية ـ بحرية لحصار القسطنطينية.
٥٤	٦٧١	معاودة غزو القسطنطينية وحصارها.
٥٧	٦٧١	الحصار الطويل للقسطنطينية (٣ أعوام)
٦٠	٦٧٩	وفاة معاوية رضي الله عنه.

(١) أسد الغابة ٤/ ٣٨٩.

الفصل الأول

معاوية بن أبي سفيان الأُموي

«عوامل التكوُّن والنشأة»

١ ـ صانعة الرجال.
٢ ـ صخر بن حرب، أبو سفيان.
٣ ـ في الطريق إلى القيادة (فتح قيسارية والغزوات)
٤ ـ أبو البحرية:
أ ـ غزوة قبرص.
ب ـ يوم ذات الصواري.
جـ ـ إعادة تنظيم البحرية.
د ـ حماية الثغور.
٥ ـ معاوية والصراع السياسي:
أ ـ معاوية وأصحاب فتنة الكوفة (٣٣هـ).
ب ـ معاوية والفتنة الكبرى ضد عثمان (٣٥هـ).
جـ ـ معاوية والحرب الأهلية في صفين (٣٦ ـ ٣٧هـ).
د ـ عام الجماعة وبناء الدولة الأموية.
٦ ـ معاوية، ومتابعة الفتوح.
٧ ـ من الإمارة إلى المُلك.
٨ ـ معاوية وما قبل الرحيل.

معاوية بن أبي سفيان الأُموي

«عوامل التكوُّن ـ النشأة»

رجل الدنيا وواحدها، عالَمٌ وحده، وتاريخٌ بمفرده، ورث المجد عن آبائه، ولكن أي مجدٍ هذا الذي ورثه؟ هل هو مجد الجاهلية، بقيمها البالية، وأعرافها المهترئة، وتكوينها الممزق الضائع؟ أم هو مجد الإسلام الذي عرفه وهو في بداية فتوته وريعان شبابه؟ فإذا كان مجد الجاهلية فقد ذهب بأهله، وعفا عنه الزمن يوم عفا رسول الله ﷺ عمَّن آذوه وقاوموه، فقال مقولته الخالدة: **(اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء!)**. وصحيحٌ أن الإسلام قد جَبَّ ما قبله وتجاوزه، إلا أنه لم يكن بالمستطاع لمن أصبح حديث العهد بالإسلام أن يتقدَّم على السلف، وفيهم كبار الرجال وعظماء القوم في الحرب والسياسة.

لقد بدأ الرجل حياته كواحد من كتَّاب الوحي[1]، وهو عمل يسمح لصاحبه البقاء إلى جانب رسول الله ﷺ، والتعلُّم منه، والاقتداء به، والسير على هداه، وشعر رسول الله ﷺ بإخلاص الرجل، وصدق نيَّته، فدعا له بقوله: **(اللهمَّ اجعله هادياً مهديّاً)**. وقال في مناسبة أخرى: **(اللهمَّ علِّم معاوية الكتاب والحساب وقِهِ العذاب)**[2]. ويذكر معاوية موقفاً من مواقف الرسول معه، فيقول: «اتَّبعت رسول الله ﷺ بوضوء، فلما توضأ نظر إليَّ، فقال: **(يا معاوية! إن وُلِّيت أمراً فاتَّق الله واعدل)**. وقال معاوية: ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: **(إن وُلِّيت فأحسن)**».

لقد تفتح معاوية على الحياة، فلم يعرف سوى الصراع المرير والوحشي الذي

---

(١) كان من كتّاب الوحي: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء الحضرمي. وأول من كتب للرسول ﷺ: أُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت. وكتب أيضاً سعيد بن أبي سرح، وحنظلة الأسدي. تاريخ الطبري ٣/ ١٧٣.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٠، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٥١هـ.

كان يخوضه المشركون ضدَّ المسلمين، ورأى كيف كانت قوى المسلمين تتعاظم يوماً بعد يوم، وكيف كانت أضواء الرسالة تمتد مع كل فجر، ولعل بطولات المسلمين الذين بعثهم الإسلام بعثاً جديداً قد استهوت فؤاده، وغمرت قلبه، فأقبل على الإسلام بعقله وقلبه، ولكنه لم يكن قادراً على إشهار إسلامه، فأبوه صخر بن حرب، قائد قوات المشركين وزعيمهم السياسي، وأُمه هند بنت عتبة، من أشدِّ الناس عداوة للرسول والمسلمين، فمضى يكتم أمراً إلى أن أراد الله كشفه يوم فتح مكَّة، والْتأم شمل العائلة ـ أو القبيلة ـ كلها حول محمد ﷺ. وخرج معاوية من طوق العزلة، ليعيش إلى جانب الرسول؛ ما قُدِّر له ذلك، وليروي عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً[1]. ثم مضى معاوية يشق طريقه بكفاءة عالية، ويقود الصراع السياسي والمسلح بمهارة فريدة، فقد اتَّسعت دنيا الإسلام والمسلمين، وظهرت أُمور كثيرة تتطلب الاجتهاد والتأويل في مجالات الحرب وبناء الدولة الإسلامية. وكان لمعاوية دور أساسي وحاسم في صنع التاريخ الإسلامي، وقد كان تكوين معاوية تكويناً فريداً تضافرت فيه عوامل الوراثة والبيئة. وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند التكوين الفريد لآخر الخلفاء الراشدين وأول ملوك المسلمين.

١ ـ صانعة الرجال

سار الصبي إلى جوار أُمه وهي تتجه إلى مِنى، من أرض الجزيرة العربية، وكان المسلك صعباً والطريق وعراً، وتعثر الصبي فسقط، ونظرت الأُم إلى ابنها؛ لم تسرع لإقالة عثرته، ولم تتعجل للنهوض به، وإنما خاطبته وانتهرته: «قم! لا رفعك الله».

وسمعها أعرابي، وعجب لقسوتها، على ما عُرف من قسوة الأعراب، وقال لها: «لِمَ تقولين له هذا؟! والله إني لأراه سيسود قومه».

فقالت: «لا رفعه الله إن لم يسد إلّا قومه».

ونظر والد الصبي يوماً إلى هذا الابن وهو يتأمَّله، فقال: «إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه».

وقالت الأُم على الفور: «قومه فقط؟! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبةً»[2].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٠، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٥١هـ.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة دار السعادة بمصر، ١٣٢٣هـ، (٦/ ١١٢، ١١٣).

وكان ذلك الصبي هو معاوية، وكانت أُمه هي هند بنت عتبة[1]، وأبوه هو أبو سفيان، صخر بن حرب[2].

اشتهرت هند بعد ذلك في التاريخ، وعُرفت باسم صانعة الرجال، واعتُبرت نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الأُمهات، ولم يكن موقفها من ابنها هو الموقف الوحيد الذي حفظه لها التاريخ، وإنما كان لها من المواقف الكثيرة التي أثارت إعجاب الكتَّاب والمؤرخين عبر التاريخ، وقد كان لبعض هذه المواقف دور في حياة معاوية وأخيه يزيد، من قبل، وقد يكون من المناسب التوقف عند بعضها.

أ ـ هند مع زينب ابنة رسول الله ﷺ: انتهت موقعة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة بانتصار المسلمين، وكان بين أسرى المشركين الذين أسرهم المسلمون أبو العاص بن الربيع، زوج زينب، فأطلق الرسول سراحه بعد أن دفعت زينب فداءه، وطلب إليه الرسول أيضاً إرسال ابنته إلى المدينة.

وكانت هند أشدَّ الناس عداوة للرسول والمسلمين، ولكن عداءها لم يمنعها من زيارة زينب والتحدث إليها، والتطوع لتقديم المساعدة.

وتذكر زينب هذه الزيارة، فتقول: «بينا أنا أتجهَّز بمكة للحوق بأبي؛ لقيتني هند بنت عتية، فقالت: «أي ابنة محمد! ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك!... أي ابنة عمي! إنْ كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تضطني؛ أي: تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال».

وتذكر زينب ذلك، وتقول: «ووالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل... ولكني خفتها، فأنكرت أن أكون أريد ذلك»[3].

ب ـ هند في موقعة أُحد: خرجت قريش لغزوة أُحد في السنة الثالثة للهجرة يحرِّكها الانتقام لقتلاها في غزوة بدر، وكان أبو سفيان بن حرب هو قائد الناس، ومعه هند بنت عتبة[4]، التي أخذت في استثارة وحشي ـ غلام جبير بن

---

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

(٢) أبو سفيان، صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، ويكنى أبا عبد الرحمٰن.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٤٦٩، طبعة ذخائر العرب.

(٤) وكانت هند ترتجز لتثير الحماسة، وحولها النساء يضربن الدف خلف الرجال، وتقول: =

مطعم ـ وتقول له كلما مرَّت به أو مرَّ بها: «إيه أبا دَسْمه! اشفِ واشتف».

وقام وحشي بقتل حمزة ـ عم النبي ﷺ ـ فأعطته هند قلائدها وقرطها، وانطلقت إلى ميدان المعركة مع النسوة، يجدعن الآذان والأُنوف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأُنُفِهم خلاخل وقلائد، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكَتْها، فلم تَسِغْها فلفظتها[1].

وقال أبو سفيان معتذراً عن فعلة زوجته هند، وهو يخاطب عمر بن الخطاب: «إنه قد كان في قتلاكم مُثُلٌ، والله ما رضيت ولا سخطت ولا نهيت ولا أمرت».

جـ ـ هند يوم فتح مكة: دخلت خيول المسلمين في السنة الثامنة للهجرة مكة المكرمة، وارتفع الهدير من حول الكعبة: «**لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**».

وباتت هند خائفة، فقد كانت في جملة مَن أهدر الرسول دمهم، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة[2].

جاءت وهي متنقبة متنكرة خائفة من أن يأخذها الرسول ﷺ، فلما دنون منه ليبايعنه، قال الرسول: (**تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً!**).

فقالت هند: «والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه».

قال: (**ولا تسرقن**).

= إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تُدبروا نفارق فراق غير وامق

وتقول:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبارِ
ضرباً بكل بتارِ

الطبري ٢/ ٥١٢.

(١) أثارت هند بتصرفها مشاعر المسلمين، وكانت العرب تستنكر المثلة ـ التمثيل بالقتلى ـ وغضب عمر رضي الله عنه، فدفع حسان بن ثابت لهجاء هند في قصيدة فاحشة؛ جاء فيها:

أشرت لكاع وكان عادتها لؤماً إذا أشرت مع الكفر
لعن الإله وزوجها معها هند الهنود عظيمة البظر
أخرجت ثائرة مبادرة بأبيك وابنك يوم ذي بدر

بقية القصيدة في: الطبري ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦.

(٢) كان هؤلاء ستة رجال وأربع نسوة، ورد ذكرهم في: الطبري ٣/ ٥٩، ٦٠.

قالت: «والله إن كنت لأُصيب من مال «أبو سفيان» الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حِلّاً لي أم لا!».

فقال أبو سفيان ـ وكان شاهداً لما تقول ـ: «أمّا ما أصبت فيما مضى، فأنت منه في حِلٍّ».

فقال رسول الله ﷺ: **(وإنك لهند بنت عتبة!)**.

فقالت: «أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك».

قال: **(ولا تزنين)**.

قالت: «يا رسول الله! هل تزني الحرَّة؟».

قال: **(ولا تقتلن أولادكنَّ)**.

قالت: «قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم!».

فضحك عمر بن الخطاب من قولها، حتى استغرق؛ أي: بالغ في الضحك.

قال: **(ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن)**.

قالت: «والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل».

قال: **(ولا تعصينني في معروف)**.

قالت: «ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف».

فقال رسول الله ﷺ لعمر: **(بايعهن واستغفر لهنَّ)**. فبايعهن عمر.

د ـ هند، في التجارة: قامت هند ابنة عتبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستقرضته من بيت المال أربعة آلاف تتجر فيها، وتضمنها، فأقرضها. فخرجت بها إلى بلاد كلب، فاشترت وباعت، فبلغها أن (أبو سفيان» وعمرو بن أبي سفيان، قد أتيا معاوية، فعدلت إليه من بلاد كلب. فأتت معاوية ـ وكان أبو سفيان قد طلَّقها ـ قال: «ما أقدمكِ أي أمه؟».

قالت: «النظر إليك أي بني، إنه عمر، وإنما يعمل لله، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تُخرج إليه من كل شيء، وأهل ذلك هو، فلا يعلم الناس من أين أعطيته فيؤنبونك ويؤنبك عمر، فلا يستقيلها أبداً».

فبعث إلى أبيه وإلى أخيه بمائة دينار، وكساهما وحمَّلهما، فتعظَّمها عمرو بن العاص، فقال أبو سفيان: «لا تعظمها، فإن هذا عطاء لم تغب عنه هند، ومشورة قد حضرتها هند».

ورجعوا جميعاً، فقال أبو سفيان لهند: «أربحت؟».

فقالت: «الله أعلم، معي تجارة إلى المدينة».

فلما أتت المدينة وباعت، شكت الوضيعة، أي: الخسارة، فقال لها عمر: «لو كان مالي لتركته لك، ولكنه مال المسلمين».

وهذه مشورة لم يغب عنها أبو سفيان، فبعث إليه فحبسه حتى أوفته، وقال لـ«أبو سفيان»: «بكم أجازك معاوية؟».

فقال: «بمائة دينار»[1].

تلك هي هند ابنة عتبة، صانعة الرجال؛ أسلمت وحَسُن إسلامها، وخرجت مع زوجها «أبو سفيان» ليقاتلا تحت رايه ابنهما يزيد في اليرموك، وكان لهند فيها دور كبير، فقد أثارت الحماسة، وهي ترتجز لنصرة المسلمين ما كانت ترتجزه في الحرب ضدَّ المسلمين، وجابهت مع النساء المسلمات فرسان الروم بأعمدة الخيام والحجارة.

وعندما تمَّ الفتح، عادت إلى المدينة لتعيش وحدها، ولتعمل في التجارة حتى تكفي نفسها، وكان باستطاعتها الحصول على ما تريد من زوجها السابق أو أبنائها، أو حتى من بيت مال المسلمين، ولم يكن ما سبق ذكره سوى من بعض مواقفها[2].

٢ ـ صخر بن حرب، أبو سفيان

كان لـ«أبو سفيان» كبير الأثر في تكوين معاوية وتنشئته. فقد كان كبير قومه في الحرب والتجارة، ومعروف هو دوره في موقعة بدر الكبرى، فقد تولَّى بنفسه مرافقة القوافل التجارية. وكان في موقعة بدر يوجه قافلة تجارية، فسار بها من الشام، وسلك بها طريق ساحل البحر الأحمر، وخاف المرور ببدر، فأرسل عناصر استطلاعه، وعندما عرف أنَّ الرسول ﷺ قد أرسل قوة إلى بدر؛ بعث مراسلاً إلى مكة يستنفر أهلها ويقول لهم: «إنَّ محمداً وأصحابه معترضون لكم، فأجيروا تجارتكم». وانطلق فرسان مكّة (٩٥٠) فارساً إلى بدر، وكانت موقعة حاسمة انتصر فيها المسلمون، وكانت خسائر قريش كبيرة؛ لا سيما في القتلى بين الرجال.

---

(١) كان ذلك في سنة (٢٣هـ)، وكان معاوية والياً على الشام وفلسطين كلها. الطبري ٤/ ٢٢١.

(٢) توفيت هند في خلافة عمر بن الخطاب، وقيل إنها ماتت في خلافة عثمان بن عفان، بحسب ما جاء في الإصابة ٨/ ٢٠٦، والاستيعاب ٤/ ١٩٢٢. ومن المحتمل أنها ماتت خلال فترة قريبة بين عهدي الخليفتين عمر وعثمان.

وعاد أبو سفيان حزيناً إلى مكة، ونذر ألّا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب من قريش، وأغار على ظاهر المدينة في غزوة السويق[1].

وفي السنة الثالثة للهجرة، قاد أبو سفيان قافلة تجارية، وتولّى حراستها بنفسه، ولكن الرسول ﷺ علم بأمر القافلة، فأرسل زيد بن حارثة، فاستولى عليها (غزوة القرد).

وعندما رجع أبو سفيان إلى مكة؛ اجتمع إليه نفر من فرسان قريش ورجالهم، فيهم عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا «أبو سفيان بن حرب»... وقالوا: «يا معشر قريش! إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا». ففعلوا، وقاد أبو سفيان قوات المشركين إلى أُحد، وحاول أبو سفيان التفريق بين محمد ﷺ وأنصاره، فأرسل رسولاً فقال: «يا معشر الأوس والخزرج! خلّوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم، فإنه لا حاجة لنا بقتالكم».

ورفض مسلمو الأوس والخزرج عرض «أبو سفيان»، وصمّموا على نصرته، ولكن الدائرة دارت على المسلمين، وقُتِل حمزة، عمُّ رسول الله، والتجأ الرسول وفئة من المسلمين إلى مرتفع في أُحُد.

وأشاع أَحد مقاتلي قريش «ابن قميئة» أنَّ الرسول قد قُتل، وأسرع أبو سفيان إلى ميدان المعركة ليتأكد بنفسه من مصرع الرسول، ولما لم يجده توجه إلى حيث كان الرسول وأصحابه حتى أشرف عليهم، وقال: «أفي القوم محمد؟».

فقال رسول الله ﷺ: **(لا تُجيبوه)**، مرتين.

ثم قال: «أفي القوم ابن أبي قحافة؟» ثلاثاً.

فقال رسول الله ﷺ: **(لا تجيبوه)**.

ثم قال: «أفي القوم ابن الخطاب؟» ثلاثاً.

فقال رسول الله ﷺ: **(لا تجيبوه)**.

---

(١) وقال أبو سفيان شعراً، منه:

آليت لا أقرب النساء ولا ... يمس رأسي وجلدي الغسلُ

حتى تبيدوا قبائل الأوس والـ ... ـخزرج إن الفؤاد مشتعلُ

الطبري ٢/ ٤٨٤.

ثم التفت إلى أصحابه، فقال: «أما هؤلاء فقد قُتلوا، لو كانوا في الأحياء لأجابوا».

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه؛ أنْ قال: «كذبت يا عدوَّ الله، قد أبقى الله لك ما يُخزيك!».

فقال: «اعلُ هبل! اعلُ هبل!».

فقال رسول الله ﷺ: (**أجيبوه**).

قالوا: «ما نقول؟».

قال ﷺ: (**قولوا: الله أعلى وأجلُّ**).

قال أبو سفيان: «ألا لنا العزّى ولا عزى لكم!».

فقال رسول الله ﷺ: (**أجيبوه**).

قالوا: «ما نقول؟».

قال: (**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم!**).

وقال أبو سفيان: «هلمَّ يا عمر!».

فقال له رسول الله ﷺ: (**إيته، فانظر ما شأنه؟**).

فجاءه، فقال له أبو سفيان: «أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمداً؟».

فقال عمر: «اللهمَّ لا، وإنه ليسمع كلامك الآن».

فقال أبو سفيان وهو ينصرف: «يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال... وإن موعدكم بدر للعام المقبل».

وفي السنة الرابعة للهجرة، أراد المشركون في مكة قتل أحد أصحاب محمد في حملة التصفية ضد المسلمين، وخرج زيد بن الدَّثنة من الحرم إلى حيث سيتم قتله، وتجمعت وجوه قريش وفيهم أبو سفيان، وعندما قدم ليُقتل، قال له أبو سفيان: «أنشدك الله يا زيد! أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك!».

قال: «والله ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالسٌ في أهلي».

فقال أبو سفيان: «ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحاب محمدٍ محمداً».

وكان أبو سفيان شديد الوطأة على المسلمين في مكَّة، حتى أن الرسول ﷺ بعث عمرو بن أُمية ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: (**ائتيا أبا سفيان بن حرب، فاقتلاه**).

ولكن أهل مكَّة اكتشفوا أمر عمرو، فلم يتمكن من قتل «أبو سفيان».

وخرج محمد ﷺ في السنة الرابعة للهجرة إلى غزوة السويق من أجل لقاء قريش، تنفيذاً للاتفاق على الحرب حسب الموعد الذي حدَّده أبو سفيان في غزوة أُحد، لكن «أبو سفيان» أخلف الموعد.

وفي السنة الخامسة للهجرة قاد أبو سفيان قوات المشركين لغزوة الخندق، وانتصر المسلمون، وعاد أبو سفيان خائباً مخذولاً.

تمَّ صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، واغتنم أبو سفيان الفرصة، فقاد قافلة تجارية إلى الشام.

ويقول أبو سفيان: «بينما نحن في غزة؛ إذ هجم علينا صاحب شرطة هرقل، فقال: أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم. قال: انطلقوا بنا إلى الملك. فانطلقنا».

وتولَّى أبو سفيان الحديث مع هرقل الذي سأله: «هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله، فهو يتشبَّه به؟ ويجيب أبو سفيان: لا. ويسأل هرقل: فهل كان له فيكم مُلك فاستلبتموه إيّاه، فجاء بهذا الحدث لتردّوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: فأخبرني عن أتباعه منكم، مَن هم؟ ويردُّ أبو سفيان: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء. ويعود هرقل للسؤال: أخبرني عمَّن تبعه أيحبه ويلزمه، أم يقليه ويفارقه؟ ويجيب أبو سفيان: ما تبعه رجل ففارقه. وقال هرقل: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ ويجيب أبو سفيان: سجال، يدال علينا وندال عليه! ويسأل هرقل: أيغدر؟ ويجيب أبو سفيان: لا. ويختم هرقل الحوار، فيقول: لئن كنت صدَقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدميَّ هاتين».

ويخرج أبو سفيان من هذا اللقاء وهو شديد التأثر؛ إذ يقول: «أي عباد الله! لقد أُمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة، أصبح ملوك بني الأصفر، الروم، يهابونه في سلطانهم بالشأم».

نقضت قريش صلح الحديبية في السنة الثامنة للهجرة، وخرج أبو سفيان إلى المدينة في محاولة لتجنُّب الحرب، ودخل على ابنته أُمَّ حبيبة بنت «أبو سفيان» زوج الرسول ﷺ، وذهب ليجلس على فراش الرسول، ولكن أُمَّ حبيبة أسرعت فطوت الفراش، فقال لها أبو سفيان: «يا بنية! والله ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني».

قالت: «بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله».

وخرج أبو سفيان إلى الرسول ﷺ، فأعرض عنه، وحاول التماس الوساطة من عمر و«أبو بكر» وعلي، فرفضوا جميعاً؛ حتى أن فاطمة رفضت الدخول في الوساطة.

وفي النهاية اقترح عليه عليٌّ رضي الله عنه العودة إلى مكة، وقال له: «والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجِرْ بين الناس».

وانطلق أبو سفيان إلى مكة، وتجهز الرسول ﷺ، وتوجه بالمسلمين إلى مكة. وخرج أبو سفيان ومعه ابنٌ له، والتمس مقابلة الرسول، ورفض النبي، فقال أبو سفيان: «والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بنيِّ هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً»[1].

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، وأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه. وأسرع أبو سفيان إلى مكة لينذر قومه، ويقول لهم: «يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به».

قالوا: «فمه؟».

فقال: «مَن دخل داري فهو آمِن».

فقالوا: «ويحك! وما تُغني عنا دارك؟».

قال: «ومَن دخل المسجد فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن».

اشترك أبو سفيان في غزوة حنين، وقاتل تحت راية رسول الله ﷺ، ثم قاد أبو سفيان ومعه المغيرة بن شعبة قوةً من المسلمين لحصار الطائف. وعند انتهاء الحملة؛ أعطى رسول الله المؤلَّفةَ قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألَّفهم ويتألف به قلوبهم، فأعطى «أبو سفيان بن حرب» مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير.

وعندما قدم أهل الطائف في السنة التاسعة للهجرة إلى المدينة المنورة، وعقدوا صلحاً مع الرسول ﷺ؛ أرسل «أبو سفيان» ومعه المغيرة بن شعبة لهدم الطاغية، وهي اللات، فهدماها.

---

(١) الطبري ٣/ ٥٠، ٥١.

تولّى أبو بكر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان أبو سفيان يرغب في علي والعباس، وقد عمل أبو بكر على تعيينه على الصدقات في جيش اليمن المكلَّف بحرب المرتدّين.

وعندما انتهت حروب الردَّة، كان أبو سفيان وزوجته هند بنت عتبة، في جيش المسلمين الذي يقوده ابنهما يزيد بن أبي سفيان.

وفي اليرموك خرجت جويرية ابنة «أبو سفيان» في جولةٍ، وكانت مع زوجها، وأصيبت بعد قتال شديد، وأصيبت يومئذ عين «أبو سفيان»، فأخرج السهم من عينه أبو حثمة.

وفي الطريق إلى اليرموك، عقد قادة المسلمين مؤتمراً للحرب في الجولان، ومرَّ أبو سفيان فقال: «**ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم، ويتذاكرون بما يكيدون به عدوَّهم في منزلي ولا يُحضروني**».

واستُدعي أبو سفيان لحضور المؤتمر، فوقف ليقول: «**إن** معسكركم هذا ليس بمعسكر، إنني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولون بينكم وبين مددكم من المدينة، فتكونوا بين عسكرهم، فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات خلف أظهركم، فيأتيكم المدد والخير. وإذا قبلتم رأيي، فاجعلوا خالداً بن الوليد أميراً على الخيل، ومُرُوه بالوقوف بين المعسكرين وبين الخيل، فإنه سيكون لرحيل العسكر وقت السَّحر أصوات عالية تحدث لعدوِّكم فيكم طمعاً، فإن أقبلوا يريدون ذلك؛ لقيتهم الخيول، فكفتها، وإن كانت للخيول جولة دافعت عنها الرُّماة».

وأخذ قادة المسلمين برأيه، وانتقلوا إلى اليرموك. وسار أبو سفيان بين المجاهدين يحرِّضهم على القتال، ويقول لهم: «يا معشر المسلمين! أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأصل تأثيراً من أمير المؤمنين وإمداداً لله، وقد أصبحتم والله بإزاء عدوٍّ كثيرٌ عدده، شديدٌ عليكم حتفه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم اليوم، ولا تبلغوا رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة».

وأثناء المعركة فُقدت الأصوات إلا صوت «أبو سفيان»، وهو يحمل راية ابنه، ويقول: «يا نصر الله اقترب. الثبات الثبات، يا لمعشر المسلمين!».

استعمل عمر بن الخطاب فيمن استعمله من أبناء «أبو سفيان» عتبة، وذلك بمهمة جَبْي الصدقات من كنانة، وقدم عتبة ومعه أموال كثيرة، فقال له عمر:

ما هذا يا عتبة؟ قال: مالٌ خرجت به معي وتجرت فيه. قال: وما لَكَ تخرج المال معك في هذا الوجه! فصيِّره في بيت المال.

فلما قام عثمان، قال لـ«أبو سفيان»: «إن طلبت ما أخذ عمر من عتبة؛ رددته عليه. فقال أبو سفيان: **«إنك إن خالفت صاحبك قبلك؛ ساء رأيُ الناس فيك، إياك أن تردَّ على مَن كان قبلك، فيردُّ عليك مَن بعدك»**.

ويكون أبو سفيان بذلك قد وضع قاعدة قانونية ودستوراً للحكم، وهو عدم صدور حكم بفعل رجعي، وعدم نقض حكم في عهد سابق حتى لا يأتي حكم ينقض حكماً صدر عن هذا العهد. وتظهر بذلك عبقرية «أبو سفيان» في الحرب بقدر ما تظهر في السياسة والحكم والإدارة. وتوفي أبو سفيان في سنة (٣١هـ)، وعمره (٨٨) سنة هجرية.

من الواضح أن هناك صفات مشتركة بين أبوي معاوية، وهذه الصفات هي المورثات التي أسهمت في تكوينه، ومنها الحكمة وبُعد النظر والتقويم للمواقف والشجاعة في مواجهة مواقف الخطر، والطموح للسيادة، وغير ذلك من صفات؛ كالكرم وحسن الخلق والدهاء والحُلُم.

ولم تكن هذه المورثات هي كل ما اكتسبه معاوية، وإنما اكتسب أيضاً القدرة على التكيف مع المواقف المختلفة، ثم جاءت البيئة لتعمل على توظيف المورثات في مصلحة قائد المستقبل. فقد كان المجتمع الإسلامي في حاجة للمواهب المتفجرة، وفي حاجة للإمكانات المبدعة، بعد أن اتَّسعت دنيا المسلمين وزادت تعقيداتها، ولكن هنا يأتي عامل الصدفة ليمارس دوره أيضاً. فقد مضى يزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد وسواهم من قادة المسلمين وسيوفهم، وتولّى معاوية ولاية الشام كلها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ثم جاء عثمان بن عفان ﷺ، فأقرَّ معاوية على ولايته. وأمضى معاوية وقتاً غير قصير قبل أن يستقل بالأمر، فينصب نفسه ملكاً على المسلمين، وكان لذلك دوره الحاسم في اكتساب ثقة الناس وتوطيد مركزه في الشام. وهكذا تضافرت العوامل الأساسية لتكوين معاوية ـ الوراثة والبيئة والصدفة ـ فكان أعظم قادة الدنيا.

٣ ـ فتح الطريق إلى القيادة (فتح قيسارية والغزوات)

أصبحت المدينة المنورة هي مركز الحشد للقوات القادمة من كل أطراف الجزيرة العربية للتوجه إلى ميادين القتال في الشام والعراق. وأطلق الخليفة

أبو بكر الصديق رضي الله عنه أربعة جيوش للشام بقيادة «أبو عبيدة بن الجراح»، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وكان كل جيش منها يضم (٧) آلاف مقاتل تقريباً. واجتمع إلى «أبو بكر» أُناس فأمَّر عليهم معاوية، وأمره باللحاق بيزيد، فخرج معاوية حتى لحق بيزيد[١]، وكانت هذه هي أول مهمة قيادية يتولاها معاوية في عمليات الفتوح. وقد خاض معاوية معركة اليرموك كما اشترك في فتح دمشق تحت قيادة أخيه يزيد، ولم يمارس عملاً قيادياً مستقلاً.

تجمَّعت فلول قوات الروم بعد الفتح في أجنادين وبيسان وغزة، وكتب عمرو وشرحبيل بذلك إلى الخليفة عمر، فكتب إلى يزيد بأن يدفىء ظهورهم بالرجال، أي: يدعمهم، وأن يسرح معاوية إلى قيسارية[٢]. وكان في رسالته: «أما بعد، فقد ولَّيتك أجناد الشام كله، اخرج فعسكر بالمسلمين ثم سِرْ إلى قيسارية، فانزل عليها ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك، فإنه لا ينبغي افتتاح ما اقتحم من أرض الشام على مقام أهل قيسارية فيها وهم عدوكم وإلى جانبكم، وأنه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته منيعاً»[٣].

ويظهر أن هناك ثمة تناقضاً في الأمر، ففي الرسالة الأولى يكلِّف أمير المؤمنين عمر بتوجيه معاوية لفتح قيسارية، ثم هو يكلف يزيد بفتح قيسارية، ولكن هذا التناقض ظاهري، يتعلق بتحديد مسؤولية تنظيم القوات وتبعية العمليات لقيادة جيش الشام ـ جيش يزيد ـ وقد أصبح الموقف أكثر وضوحاً عندما وصلت رسالة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى معاوية، وفيها: «**أما بعد! فإني قد ولَّيتك قيسارية فسِرْ إليها، واستنصر الله عليهم، وأكثِرْ من قول لا حول ولا قوة إلا بالله! الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير**».

وعمل يزيد على تنظيم قوة خاصة، وتولى معاوية قيادتها، وخرج من دمشق في اتجاه قيسارية[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٩١.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٦٠٣، أحداث سنة (١٥هـ).

(٣) فتوح الشام، الواقدي ٢٥٠.

(٤) **قيسارية**: بلد على ساحل بحر الشام، تعدُّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعين أُمهات المدن، واسعة الرقعة طيبة البقعة. معجم البلدان ٧/ ١٩٥. وهي تقع في منتصف المسافة تقريباً بين عكا ويافا.

فتح قيسارية: صمدت بيت المقدس للحصار ما يزيد على سنة، واستمرت قيسارية في مقاومتها حتى سنة (١٧هـ/ ٦٣٨م)، غير أنهما لم يكونا وقتذاك سوى معقلين معزولين، على أن أنطاكية، حاضرة الشرق سقطت في السنة السابقة، فصار كل الإقليم الممتد من برزخ السويس إلى جبال الأناضول في قبضة المسلمين. ولم تصمد الحامية المرابطة في قيسارية على ساحل البحر المتوسط، إلا بفضل حماية البحرية البيزنطية لها، وكل ما استطاع أن يحصل عليه صفرونيوس ـ بطريرك بيت المقدس ـ من الفاتح، بالإضافة إلى ما جرى الاتفاق عليه من شروط؛ لم يتعدَّ السماح للموظفين البيزنطيين بالمدينة بأن ينسحبوا إلى قيسارية على الساحل بأُسرهم وأمتعتهم[١]. وعلى هذا، فقد كان من المتوقع أن تكون المعركة ضارية؛ إذ أن الحامية في قيسارية قد ضمت إليها كل فلول القوات التي خرجت من المعارك السابقة وهي تحمل ذلَّ الهزيمة، فكان حقدها كبيراً، وحماستها للحرب قوية؛ لا سيما وأنها كانت تخوض معركتها اليائسة وتدرك أنها معركتها الأخيرة، وكان الدعم البحري يزيد من ثقتها بالقدرة على مقاومة المسلمين.

ووصل معاوية حتى نزل على أهل قيسارية، وعليهم أبنى، فهزمه وحصره في قيسارية، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه، وجعلوا لا يزاحفونه من مرَّة إلا هزمهم وردَّهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك، وخرجوا من صياصيهم، فاقتتلوا في حفيظة ـ حقد ـ واستماتة، فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً، وكملها في هزيمتهم مائة ألف.

وجعل معاوية قبل الفتح وبعده يحبس الأسرى عنده، ويقول: «ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله». فعظمه ـ ردعه ـ عن العبث بأسرى المسلمين حتى افتتحها، وأرسل معاوية إلى عمر يبلغه الخبر. وانتهى بريد معاوية إلى عمر بالخبر، فجمع الناس وأباتهم على الفرح ليلاً، فحمد الله وقال: «لتحمدوا الله على فتح قيسارية»[٢].

رجع معاوية من معركته منتصراً، ليجد بانتظاره مفاجآت متتالية. فقد ذهب طاعون عمواس بأعداد كثيرة من المسلمين وعلى رأسهم «أبو عبيدة بن

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ص١٧ و٣٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٤.

الجراح»، ويزيد بن أبي سفيان، فأصدر أمير المؤمنين عمر أمره بتعيين معاوية بن أبي سفيان على جند الشام وخراجها.

وعندما قام عمر ﷺ بجولته في الشام؛ قسم الأرزاق، وسمى الشواتي والصوائف، وسدَّ فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها، وعزل شرحبيل بن حسنة عن الأردن، واستعمل معاوية، وقال شرحبيل لأمير المؤمنين: «أعَنْ سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟» قال: «**لا، إنك لكما أحبُّ، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل**»[1].

وتوحَّدت بلاد الشام كلها تحت قيادة معاوية؛ فلسطين والأردن ودمشق، وأصبح على معاوية مجابهة التحديات المستمرة على حدوده الشمالية. فقد بقيت الامبراطورية البيزنطية (الروم) مصدر تهديد لدولة المسلمين، فقام معاوية بقيادة الصائفة، ودخل بلاد الروم في عشرة آلاف من المسلمين[2]. وفي سنة (٢٣هـ) غزا معاوية الصائفة[3]، حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ عُبادة بن الصامت، وأبو أيوب خالد بن زيد، وأبو ذرٍّ الغفاري، وشداد بن أوس. وفي هذه السنة ذاتها كتب أمير المؤمنين عثمان بن عفان إلى معاوية يأمره أن يغزوَ حبيب بن مسلمة، في أهل الشام، إقليم أرمينية، فوجَّهه إليها، فبلغ حبيباً أن موريان الرومي ـ ملك أرمينيا ـ قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم والترك، فكتب بذلك حبيب إلى معاوية، فكتب معاوية به إلى عثمان، فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص ـ والي الكوفة ـ يأمره بإمداد حبيب بن مسلمة، فأمدَّه بسلمان بن ربيعة في ستة آلاف، وأمكن لهذه القوات أن تدمِّر جيش الروم وتمزّقه

وفي سنة (٢٥هـ) قاد معاوية قوات الصائفة، وتوغل في بلاد الروم، وفتح بعض الحصون، وعاد من غزواته منتصراً.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٦٢ و٦٤.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٦٠، أحداث سنة (٢٢هـ)، وفيها وُلد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان.

(٣) **الصائفة**: وجمعها الصوائف، هي الغزوات المنتظمة التي كانت تنطلق من الثغور على الحدود الإسلامية مع بيزنطة، فتقوم بالتوغل داخل الامبراطورية فتدمِّر وتقتل وتأسر وتشغل الروم بأنفسهم، وتعود الصائفة من غزوتها ـ فيما وراء الدروب ـ عبر جبال الأمانوس، وذلك قبل هطول الثلج لتنطلق الشاتية ـ وجمعها شواتي ـ لتمارس المهمة ذاتها. وتشبه هذه العمليات ما يطلق عليه حديثاً اسم «الهجمات الإجهاضية المسبقة».

٤ ـ أبـو البحرية

كان معاوية يتابع الصراع مع الروم (البيزنطيين) منذ عمل على فتح قيسارية، وعرف أن سيطرة البيزنطيين على البحر الأبيض المتوسط هي العامل الأساسي في بقاء قوَّتهم، وفي قدرتهم على تهديد السواحل باستمرار. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتي أن تضع حداً للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية، بدايةً من إنطاكية ونهايةً بالإسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية. وأدرك معاوية أيضاً أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح في أفريقية ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين. وقصة محاولات معاوية مع أمير المؤمنين عمر في موضوع ركوب البحر قصة معروفة. فقد حاول معاوية الحصول على إذن من أمير المؤمنين لتكوين قوة بحرية، فكتب له: «**يا أمير المؤمنين! إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحي حمص، فإن أذنت بركوب البحر**». فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: «صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه». وكتب إليه عمرو: «إني رأيت خلقاً عظيماً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إنْ ركن خرق القلوب، وإن تحرَّك أزاغ العقول، إنْ مال غرق، وإن نجا برق». فلما قرأ معاوية؛ كتب إلى معاوية: «**لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً... وتالله لمسلم أحب إليَّ مما حوَت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمتَ ما لقي العلاء مني**[1]**، ولم أتقدم إليه في مثل ذلك**»[2].

ولكن اليأس لم يدخل قلب معاوية، فعاد إلى محاولاته عندما أصبح عثمان بن عفان أميراً للمؤمنين، ولم يزل به حتى كتب له: «**لا تنتخب الناس، ولا تُقرع بينهم؛ خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعِنْه**».

وأسرع معاوية لاستنفار العمال ومَن لهم خبرات في صناعة السفن وحشدهم في عكا، ورمَّم الحصن والمرفأ، وجعله داراً لصناعة السفن وتجهيز الأسطول

---

(١) يشير أمير المؤمنين عمر إلى سلوك العلاء الحضرمي، وانطلاقه من البحرين إلى فارس بحراً من دون إذن من أمير المؤمنين، وما تعرض له العلاء من خطر كاد ينتهي بتدميره والقوة التي رافقته، لولا أن أرسل الخليفة قوات كبيرة لإنقاذهم.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٥٨ ـ ٢٦٢.

العربي ـ الإسلامي وإعداده، كما رمَّم مدينة صور وشحنها بالمقاتلة... وقد كانت الصناعة بساحل الأردن على عهد معاوية في مدينة عكا، كما كانت السفن تُبنى في أيام معاوية في سواحل الشام، صور وعكا وطرابلس[1].

ويصف الكاتب العربي ـ المؤرخ ابن خلدون ـ هذه المرحلة بقوله: «لما استقرَّ الملك للعرب، وشمخ سلطانهم؛ تقرَّب كل ذي صفة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدوا من النواتية في حاجاتهم البحرية أُمماً. وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، واستحدثوا بصراء بها، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أُمم الكفر»[2].

في الوقت الذي كان فيه معاوية يعمل على بناء البحرية في الشام؛ كان والي مصر، عبد الله بن سعد، يعمل على تكوين قوة بحرية، ولم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى ظهرت نواة البحرية الإسلامية. وحشد معاوية قواته، وأخذ في وضع مخططاته لعمليات الغزو البحري.

أ ـ غزوة قبرص (٢٨هـ/ ٦٤٨م): انتخب معاوية المقاتلين ممن رغب في ركوب البحر، ومعه زوجته، كما ركب معه عبادة بن الصامت وزوجته أُم حرام، ومعهم من كبار الصحابة أبو ذر الغفاري، والمقداد، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس. وعيَّن معاوية لقيادة القوة البحرية عبد الله بن قيس الجاسي[3]، حليف

---

(١) فتوح البلدان، البلاذري ١٢٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون، قيادة الأساطيل، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص٤٤٨، ٤٤٩. والشواني: جمع شونة، وهي المركب المعد لحمل الجنود ونقلهم، وهي زوارق الإنزال بالمفهوم الحديث.

(٣) **عبد الله بن قيس الجاسي**: هو أول قائد للبحرية الإسلامية، غزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده؛ خرج في قارب طليعة للاستطلاع، فانتهى إلى المرقى من أرض الروم «كريت»، وعليه سؤَّال ـ شحاذين ـ في ذلك المكان، فتصدَّق عليهم، فرجعت امرأة من السؤَّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى ـ الخليج ـ، قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم وقالت: أنتم أعجز من أن تعرفوه، إنه لا يخفى على أحد. فثاروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا ـ نزلوا اليابسة ـ بقيادة سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم حتى ضجر وأخذ يعبث بأصحابهم ويشتمهم. فقالت جارية عبد الله: واعبد الله! ما هكذا كان يقول حين يقاتل! =

بـني فزارة، وكان من رجال البحر المعروفين. والتقت هذه القوة من أسطول الشام مع القوة التي قادها عبد الله بن سعد من مصر، وقاد معاوية القوة كلها، حتى وصل قبرص ونزلت المشاة إلى الجزيرة، وأسرع حاكم الجزيرة، فعقد صلحاً مع معاوية. ونصَّت اتفاقية الصلح على أن يكون أهل قبرص عوناً للمسلمين، وأن يرسلوا لهم المعلومات عن تحرك أسطول الروم. وفرض معاوية على الجزيرة الجزية، بمقدار سبعة آلاف دينار يؤدُّونها إلى المسلمين في كل سنة، ويؤدُّون إلى الروم مثلها؛ ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك. واشترط المسلمون أيضاً أن يقوم إمام المسلمين بانتخاب «بِطْريق» الجزيرة من أهل الجزيرة أنفسهم، وألا يكون رومياً، كما اشترط أيضاً على أهل قبرص ألا يتزوَّجوا من الروم إلا بإذن المسلمين، وذلك بهدف إضعاف روابط الروم بأهل الجزيرة، وعاد معاوية إلى عكا قاعدة عملياته البحرية.

نقض أهل قبرص اتفاقهم مع معاوية سنة (٣٣هـ/ ٦٥٣م)، فأعاروا الروم بعض القطع البحرية، مما دفع معاوية إلى توجيه قوة مكوَّنة من خمسمائة مركب، وحاصر قبرص حتى فتحها عنوةً. وبعد أن تمَّ فتح الجزيرة جهَّز معاوية جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، ونقله إلى قبرص بمهمة حماية الجزيرة. فأقام هذا الجيش، وعمَّر المساجد، واستطاع أن يشكل تهديداً قوياً لأساطيل الروم وتحركاتهم البحرية. وقد استمر هذا الجيش مرابطاً في قبرص حتى أيام يزيد بن معاوية. وتمَّ خلال هذه الفترة من حكم معاوية تنظيم أمور الجزيرة، وبناء الحصون فيها وإقامة المراصد، وتأمين الاتصال بين القوات.

لقد شعر الروم ـ البيزنطيون ـ بخطورة التهديد البحري الإسلامي، فأخذوا في الاستعداد لمجابهته وإحباطه.

ب ـ يوم ذات الصواري (٣٤هـ/ ٦٥٤م): أُصيبت قوات الروم (البيزنطيين) بهزائم متتالية في البر والبحر، رغم جهودها المستمرَّة للقيام بهجمات موضعية مضادَّة، وقرَّر الامبراطور قسطنطين توجيه ضربة في أفريقية، فأحبط والي مصر

= فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: «الغمرات ثم ينجلينا»، فترك ما كان يقول، ولزم «الغمرات ثم ينجلينا»، وأصيب في المسلمين يومئذ. وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه؟ قالت: بصدقته، كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التاجر، فعرفت أنه عبد الله بن قيس. وكان مصرع عبد الله بن قيس سنة (٥٧هـ/ ٦٧٦م). وأصبح شعار البحرية الإسلامية منذ ذلك الوقت «الغمرات ثم ينجلينا». عن: الطبري ٤/ ٢٦٠، ٢٦١.

عبد الله بن سعد هذه الضربة، وكان للبحرية دورها، وعندئذ وضع الروم مخططاً لتدمير الأسطول العربي ـ الإسلامي، فاتصلوا بأنصارهم لتدمير الأسطول الإسلامي في ميناء طرابلس، وهو الأسطول الذي كان معاوية قد حشده لغزو القسطنطينية، وقام عملاء الروم وأنصارهم بإحراق الأسطول وهربوا إلى القسطنطينية. ثم تحرك قسطنطين بن هرقل على رأس أسطول ضخم يضم ألف قطعة بحرية لغزو الشواطىء العربية[1]

خرج عبد الله بن سعد بأسطول مصر من الإسكندرية، وسار محاذياً للشاطىء السوري حتى التقى بأسطول الشام، ولم تكن قطع هذه الأسطول تزيد على مائتي قطعة. ثم أبحرت قطع الأسطول الإسلامي بحثاً عن هدفها، واتجهت شمالاً حتى وصلت إلى مياه رودس، قريباً من مدينة الميرة، عند السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى، وهناك التقى أسطول الروم بالأسطول الإسلامي، ونزلت قوات المشاة بقيادة بسر بن أرطاة، وجابهت قوات مشاة الروم. وربط رجال البحرية الإسلامية القطع البحرية للروم بقطعهم، ودارت معركة طاحنة أُبيدت فيها قوات الروم وأغرقت قطع البحرية المعادية بكاملها تقريباً، وأُصيب قسطنطين بجراح وهرب بمركب من المراكب في اتجاه عاصمته.

ووصف أحد الذين حضروا المعركة ما رآه بقوله: «التقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منّا، وسكنت الريح عنا، فقلنا: الأمن بيننا وبينكم. قالوا: ذلك لكم ولنا منكم. ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم، وإن شئتم فالبحر. فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: الماء. فباتوا يضربون بالنواقيس، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله. ثم إننا دنونا منهم، فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم، فقاتلنا أشدَّ القبتال، ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن، ويتواجؤون بالخناجر، وقد رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج، وإن عليه لمثل الظَّرِب[2] العظيم من جثث الرجال، وإن الدم لغالب على الماء، ولقد قُتل من

---

(١) في الطبري ٤/ ٢٩٠: «فخرج الروم في جمع لم يجتمع لهم مثله منذ ظهور الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب».

(٢) الظرب: ما نتأ من الحجارة وحدد طرفه.

المسلمين بشر كثير، وقُتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله. ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام، وانهزم قسطنطين مدبراً، فما انكشف إلا لما أصابه من القتل والجراح، ولقد أصابه يومئذ جراحات مكث منها حيناً جريحاً».

حطمت هذه المعركة التي حملت اسم «**ذات الصواري**»[1] سيادة الروم على البحر الأبيض المتوسط، ولم يعد يحمل اسم «بحر الروم» كما كان من قبل، بل أصبح يحمل اسم «بحر الشام»، وكان من أول النتائج نقل قيادة القوة البحرية للروم إلى غربي البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت صقليا هي القاعدة الجديدة لأسطول الروم بعد أن أصبح هذا الأسطول عاجزاً عن مجابهة تحدِّيات البحرية العربية الإسلامية في شرقي البحر الأبيض المتوسط.

وأفاد العرب من تجربة استخدام غير المسلمين في بحريتهم، وقرَّروا، بعد إحراق الأسطول في طرابلس، عدم السماح لغير العرب المسلمين العمل بسلاح البحرية العربية الإسلامية، وعمل معاوية على زيادة اعتماده على القبائل اليمنية بالدرجة الأولى للعمل في سلاح البحرية، وكان لذلك أثره في زيادة شأن اليمنية وضعف القيسية، وكان السبب في ذلك على ما قاله معاوية هو عناد القيسية ونكدهم، وقد خطب معاوية في أهل اليمن عندما حشدهم في عكا ووجههم للغزو البحري: «**إني أيمن بكم وأعرف طاعتكم، وقيس فيهم خلاف ونكد في غزو البحر**»[2].

وكان معاوية في البداية لا يفرض في الديوان من العطاء إلا لأهل اليمن، وهم عامَّة جند الشام وغالبيتهم حتى كثرت اليمن وعزت وضعفت القبائل العدنانية في الشام، ففرض عندئذ معاوية لأربعة آلاف من قبائل قيس في ديوان الجند أن يأخذوا الأُعطيات المقررة للجند، وكان معاوية بعد ذلك يغزو اليمن في البحر، ويغزو قيساً في البرِّ ثم صار يعقب بينهم في البحر، ثم صار يعقب بينهم في غزو البرِّ والبحر.

---

(١) الصواري: جمع صارية، وأُطلق على هذه المعركة اسم «ذات الصواري» (Phoenex)، لكثرة صواري السفن.

(٢) الأغاني ٢/ ١٧٢.

ولما ولي معاوية الخلافة، بعد ذلك، عنى بإنشاء السفن الحربية لصدِّ غارات الدول البيزنطية على البلاد الإسلامية، ورتَّب لغزوها الشواتي والصوائف، ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم، شتاءً وصيفاً، وبلغ أسطول الشام (١٧٠٠) سفينة[١]، وكانت ذات الصواري هي بداية هذه التحولات كلها[٢].

جـ ـ إعادة تنظيم البحرية: تحكمت في عملية تطوير البحرية الإسلامية مجموعة من العوامل، أبرزها:

١ ـ الثورات والاضطرابات الداخلية، والتي كانت تصرف معاوية عن أعمال الفتح.

---

(١) خطط المقريزي ٢/ ١٩٥.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩١، ٢٩٢، وفيه: أنه ظهرت بداية الفتنة الكبرى خلال معركة ذات الصواري. ذلك أن محمد بن أبي حذيفة رافق الحملة، واستثار عبد الله بن سعد والي مصر، الذي قاد القوة البحرية المصرية، حتى أنه قال له: «أما والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوك»، بمعنى: قيَّدتك بالأغلال. فكان جواب محمد بن أبي حذيفة: «والله ما لك إلى ذلك سبيل، ولو هممت به ما قدرت عليه». ثم إن محمد بن أبي حذيفة ركب وحده، ما معه إلا القبط، وأخذ يقول لكل رجل ينفرد به: «أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً». فيقول الرجل: وأيّ جهاد. فيقول: «عثمان بن عفان فعل كذا وكذا وفعل كذا وكذا حتى أفسد الناس، فقدموا بلدهم وقد أفسدهم، وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به». وكان محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر أثناء المعركة أقل الناس حماسة للجهاد، وأكلهم ـ أفترهم ـ في القتال، فقيل لهما: لِمَ تفعلان ذلك؟ فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكِّمه. وأظهرا عيب عثمان وما غيَّر وما خالف به «أبو بكر» وعمر، وأن دم عثمان حلال. فبلغ ذلك عبد الله بن سعد، فقال: «لا تركبا معنا»، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين. وقد تزعم الفتنة في مصر اليهودي عبد الله بن سبأ، من يهود اليمن ولقبه ابن السوداء، وكان ابن سبأ قد بدأ فتنته في فارس، ثم انتقل إلى البصرة، حيث اجتمع إليه نفر، فطرح لهم ابن السوداء أفكاره ولم يصرح، فقبلوا منه، وانقادوا له، واستعظموه. وأرسل إليه والي البصرة ـ ابن عامر ـ فسأله: ما أنت؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام، ورغب في جوارك. فقال: ما يبلغني ذلك، أخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأُخرج منها. الطبري ٤/ ٢٣٦. وأتى الشام، فلقي «أبو ذر الغفاري»، وقال له: يا أبا ذر! ألا تعجب إلى معاوية، يقول: المال مال الله! ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين. وبلغ ذلك معاوية، فأخرجه من الشام. الطبري ٤/ ٢٨٣. فاستقرَّ بمصر وجعل يكاتبهم ويكاتبونه، ويختلف الرجال بينهم.

٢ ـ اتساع مسرح العمليات، وظهور تحديات خارجية في مناطق مختلفة ومتباعدة، فارس وخراسان شرقاً، الامبراطورية البيزنطية شمالاً وأفريقية غرباً. وكانت خطورة هذه التحديات، وخاصة على الجبهة الشرقية، تتطلب نوعاً من التوازن لمسارح العمليات وإعطاء أفضليات لواجبات القتال.

ولكن ما أن استقرَّ الأمر لمعاوية، في عام الجماعة سنة (٤٠ للهجرة/ ٦٦٠م)، حتى أخذ في وضع سياسة ثابتة وواضحة لبناء القدرة البحرية، وظهرت نتائج ذلك في ثلاثة مجالات:

١ ـ وضع استراتيجية لتصعيد الأعمال القتالية ضد الامبراطورية البيزنطية في البر والبحر وتجريدها من مجالها الحيوي.

٢ ـ تطوير القدرة البحرية، وزيادة فاعليتها.

٣ ـ نقل الصراع لعاصمة الامبراطورية البيزنطية ذاتها.

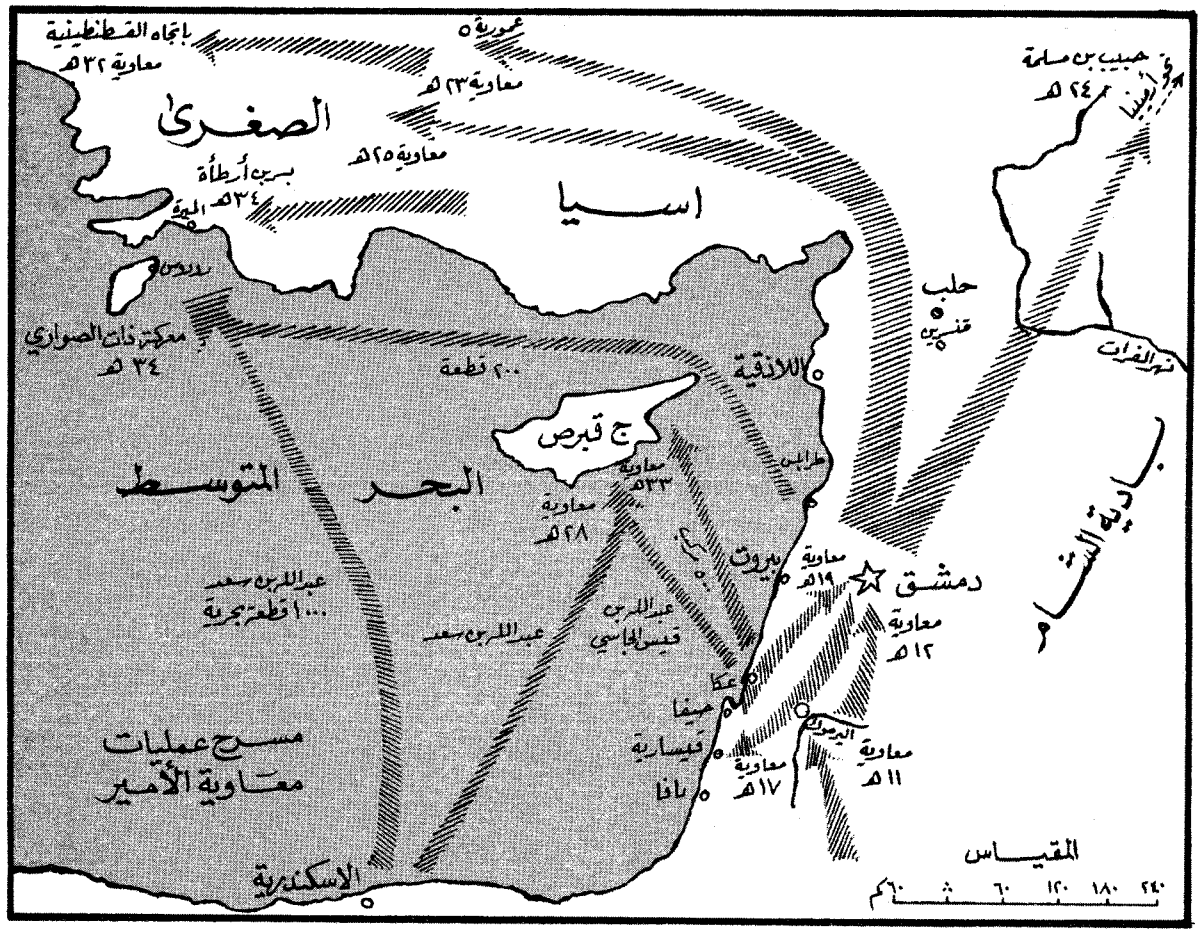
وقد يكون من المناسب إيجاز عملية انتزاع المجال الحيوي البيزنطي من خلال مطالعة الجدول المبيَّن في ما بعد، ويمكن بعد ذلك الانتقال إلى مراحل العمل التي اتَّبعها معاوية **لتطوير القدرة البحرية**، وأبرزها:

ـ دعم قواعد صناعة السفن في عكا وجزيرة الروضة، وبقية الموانىء على امتداد السواحل.

ـ تجميع وحشد مهرة الصناع في عكا وتوفير الإمكانات لهم، والاعتماد بصورة خاصة على الخبرات العربية المتوفرة في اليمن والخليج والبحرين، مع الاعتماد على ما يمكن اكتسابه من خبرات البيزنطيين.

ـ تأمين المواد اللازمة لصناعة السفن من غابات الشمال السوري ومن الجزر في بحر إيجة.

ـ تطوير نماذج السفن البحرية حتى تستطيع مجابهة قطع أسطول الروم. وقد تميَّزت قطع الأسطول العربي ـ الإسلامي بكبر حجمها وقدرتها على الحمل وتنوُّعها. وقد استخدم في غزو القسطنطينية ألف قطعة حاملة للمجانيق وأدوات الحصار والنار اليونانية، بالإضافة إلى سبعمائة شونة، أي: ماعون، ناقلة للجند تستطيع الواحدة منها حمل ألف مقاتل، بالإضافة إلى خمسة آلاف سفينة صغرى، أي: خفيفة، تحمل الواحدة مائة رجل.



مسرح عمليات معاوية الأمير

أعمال الغزو البحري في عهد معاوية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٢٨	٦٤٨	فتح قبرص (الأول).
٣٢	٦٥٢	غزو صقليا وعدم احتلالها ـ غزوة استطلاعية.
٣٣	٦٥٣	إعادة فتح قبرص، ووضع حامية من المسلمين فيها.
٣٤	٦٥٤	ذات الصواري.
٣٤	٦٥٤	غزو جزيرة رودس ـ غزوة استطلاعية.
٤٨	٦٦٧	غزو البحرية لجزيرة صقليا واحتلالها.
٥٣	٦٧٢	احتلال جزيرة رودس وفتحها.
٥٣	٦٧٢	الأسطول البيزنطي يغير على البرلس في مصر، ويدمر قوة للمسلمين.
٥٤	٦٧٣	معاوية يقيم داراً للصناعة البحرية في جزيرة الروضة لتطوير أسطول مصر.
٥٥	٦٧٤	فتح جزيرة كريت.
٥٧	٦٧٦	احتلال جزر بحر إيجة، من أجل حصار القسطنطينية، وهذه الجزء هي: شاموس Samos، وأسخيروس Skiros، وشيو Chio، وسيونوس Siwnos، وأرادوس Arados. .

ـ الاستمرار في متابعة التطورات البحرية البيزنطية، وجمع المعلومات عن أسلوب عمل قوات العدو، وطرائقها القتالية، ووضع الأسلوب القتالي المتوافق مع أساليب العدو وطرائقه.

نقل الصراع لعاصمة الامبراطورية البيزنطية: لقد جرت محاولات كثيرة لردع الروم، وإحباط محاولاتهم العدوانية ضد الأقاليم الإسلامية، ولكن هذه الهجمات استمرَّت، وأمكن تصعيدها في مرات كثيرة بحيث باتت، في بعض الأحيان، تشكل خطراً ضدَّ عاصمة الأُمويين في دمشق وضدَّ المدن الساحلية على امتداد الشواطىء الإسلامية.

وقد قام معاوية في عام (٣٢هـ) بغزوة ضخمة عبر الدروب ورافقته زوجته، عاتكة ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، ووصلت قوات هذه الغزوة حتى أبواب القسطنطينية، إلا أن فشل هذه الغزوة، والدروس المستخلصة

من غزوات الصوائف والشواتي؛ أقنعت معاوية بضرورة تنظيم الحملات المشتركة البحرية ـ البرية.

وفي عام (٥٠هـ) نظم معاوية حملة كبرى من القوات المشتركة البرية ـ البحرية بهدف حصار القسطنطينية، وتسلم قيادة هذه الحملة سفيان بن عوف، وعيَّن ابنه، يزيد بن معاوية، ليكون في قيادة الحملة، لكن يزيداً تظاهر بالمرض وعدم الرغبة في مرافقة الجيش، وترك له معاوية حرية مرافقة الجيش أو التخلف عنه.

ومضى سفيان بن عوف ـ الأزدي ـ بالقوات برّاً، وقاد بسر بن أرطاة الأسطول البحري، ووصلت القوات إلى العاصمة البيزنطية ونظمت عمليات الحصار لإخضاعها، لكن القسطنطينية صمدت للحصار، وحدثت اشتباكات كثيرة ودامية خارج العاصمة، وتكبَّدت قوات المسلمين خسائر فادحة، وكثر القتل بينها، وتناقصت المواد الغذائية والتموينية، وانتشرت الأوبئة في صفوف المجاهدين في سبيل الله، فعمل معاوية على تنظيم الإمداد والتموين، وأرسل قوات من الدعم بقيادة ابنه يزيد[1].

وعندما وصلت هذه الإمدادات والدعم؛ ارتفعت الروح المعنوية للمجاهدين، وكان بعضهم يظهر حماسة في القتال والاندفاع طلباً للشهادة على أبواب عاصمة الأعداء، وكان في طليعتهم عبد العزيز بن زرارة الكلابي، الذي كان يثير حماسة المقاتلين باندفاعه، حتى قُتل على أبواب القسطنطينية عندما أحاطت به مجموعة من جند الروم، فقاتلهم حتى قُتل، وأثار ذلك حزن معاوية، الذي قال: «والله هلك فتى العرب»[2].

---

(١) كان يزيد مقيماً في «دير مران) ومعه زوجته أُم كلثوم، ابنة عبد الله بن عامر، وعندما بلغه ما أصاب جيش المسلمين أثناء حصاره للقسطنطينية؛ أنشد يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم ... بالفرقدونة من حمى ومن موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مران عندي أُم كلثوم

وبلغ ذلك معاوية، فأقسم عليه ليلحقن بسفيان في أرض الروم، ليصيبه ما أصاب الناس. فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه، وكان في هذا الجيش ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتاب العربي ٣/ ٢٢٧، وابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ٣/ ٢٠.

(٢) كان عبد العزيز بن زرارة الكلابي يرتجز، وهو ينقضُّ على الروم، فيقول:

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق ... شتى فصادفت منها اللِّين والبشعا =

كان المجاهدون في سبيل الله يتفاخرون بمن استشهد في بلاد الروم، وكان فخر الشهادة يتعاظم كلما تزايد مكان الاستشهاد عمقاً في بيزنطة، ومن أقوالهم المتواترة: «**لأن نموت بحرستا أحب إلينا من أن نموت بدمشق، ولأن نموت بدوما أحب إلينا من أن نموت بحرستا**».

وكان الصحابي أبو أيوب الأنصاري قد شهد مع الرسول ﷺ موقعة بدر الكبرى وموقعة أُحد، وقاتل إلى جانبه في كثير من المواقع، وكان يتوق لمثل هذه الشهادة، فمضى يقاتل بحماسة حتى وصل إلى أسفل تحصينات المدينة وأسوارها، والتفَّت حوله فئة من جند الروم، فما زال يقاتل ويَقتل حتى استشهد فدفن بالقرب من سورها.

وعرف معاوية أنه من الصعب فتح القسطنطينية في هذه الحملة، فاكتفى بما حقَّقه من نصر، وما أنزله بقوات الروم من خسائر، فأصدر أوامره إلى القوات بالانسحاب

الحصار الطويل: تابع معاوية تطوير القوات البحرية، كما تابع تطوير أعمال الصوائف والشواتي. وفي عام (٥٣هـ) أنهى معاوية استعداداته، وأصدر أوامره إلى القوات البرية بمغادرة الثغور بمهمَّة حصار القسطنطينية، وفي الوقت ذاته، تمَّ حشد القطع البحرية في ميناء عكا، حيث تجمع أكبر أسطول بحري، (١٧٠٠) قطعة ضخمة، وانطلقت هذه القوة في اتجاه بحر مرمرة، وتمركزت في منطقة سيزيك وغلطة. وتمَّ تنظيم القيادة لتكون على النحو التالي:

١ ـ **القيادة العامة**: الصحابي فضالة بن عبيد الأنصاري (٥٣ ـ ٥٧هـ)[1].

٢ ـ **أمير البحر**: الصحابي عبد الله بن قيس الحارثي ـ التجيبي (٥٤ ـ ٥٧هـ).

٣ ـ **معاون أمير البحر**: جنادة بن أُمية (٥٣ ـ ٦٠هـ).

= كلّاً بلوت فلا النعماء تبطرني ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

وعندما وصل نعيه إلى معاوية كان زرارة في مجلس معاوية، فقال معاوية: «والله هلك فتى العرب»، فقال زرارة: «ابني أو ابنك؟» فقال معاوية: «ابنك، فأجرك على الله»، فردَّ الكلابي:

فإن يكن الموت أوْدى به وأصبح مخُّ الكلابي زيرا
فكل فتى شاربٌ كأسه فإما صغيراً وإما كبيرا

(١) مدة قيادتهم الفعلية، بحسب ما وردت في فتوح البلدان، البلاذري، ص٢٣٦، وخطط المقريزي ٢/ ١٩٠، ١٩١.

٤ ـ **أمير غازية الشام**: (أسطول الشام) زيد بن شجرة الرهاوي (٤٩ ـ ٥٨هـ).

قامت القوات البحرية بالاستيلاء على مجموعة الجزر الواقعة في بحر إيجة، بهدف حماية مؤخرة البحرية وضمان حرية العمل على محور الاتصال البحري. ووصلت القوات البرية والبحرية إلى عاصمة البيزنطيين، ونظمت الحصار حولها، وأمكن عزل القسطنطينية عزلاً كاملاً تقريباً، ولم يبق للمدينة اتصال فيما حولها إلا ذلك الاتصال مع بلاد برجان (بلغاريا) عن طريق البحر الأسود.

وقد عمل أمير البحر عبد الله بن قيس الحارثي، على تقسيم قوته إلى ثلاث مجموعات بهدف المحافظة على الاستعداد القتالي باستمرار، ومن أجل المحافظة أيضاً على قوة الحصار بصورة دائمة. وكان تقسيم القوة البحرية على النحو التالي:

١ ـ مجموعة لحصار القسطنطينية حصاراً مباشراً.

٢ ـ مجموعة ثانية بمهمة التمركز عند مدخل البحر والجزر الواقعة فيه.

٣ ـ مجموعة ثالثة في وضع الاستراحة، وواجبها التمركز عند الشواطىء الغربية لبحر إيجة.

وكانت المجموعة الثالثة التي في الاستراحة هي القوة الاحتياطية التي يقع عليها واجب دعم المجموعتين الأولى والثانية إذا ما تطلَّب الموقف ذلك، مع مجابهة الواجبات الطارئة، وقد نظم التناوب بين هذه المجموعات بشكل دوري.

استمرَّ الحصار أربعة أعوام كاملة، كانت خلالها الصوائف والشواتي ترفد باستمرار القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية، وتقدم لها الدعم والمساعدة. وقد صمدت عاصمة البيزنطيين بفضل الإمدادات التي كانت تصلها من بلاد البرجان (بلغاريا). وفي نهاية (٥٧هـ)، وبينما كانت القوة الاحتياطية للأسطول العربي تتقدم لأخذ دورها وتبديل القوة السابقة لها، هبَّت عاصفة قوية من الأعاصير مزقت تجمع الأسطول وشتَّتت قطعه، وقذفت بعضها إلى الساحل الشرقي من القسطنطينية في بانفليه[1]، وتعاونت النيران اليونانية التي قذفها البيزنطيون مع العواصف التي حطمت عدداً كبيراً من قطع الأسطول الإسلامي لتضع نهاية للحصار الطويل. ووجد معاوية نفسه مرغماً، أمام المأساة التي

---

(١) بانفليه: Banphylie.

نزلت بأسطوله؛ أن يهادن أعداءه، فعقد صلحاً مع ملك الروم لفترة ثلاثين عاماً[1].

ـ **دعم الحاميات في الجزر البحرية**: وجه معاوية قوَّة بحرية لاحتلال جزيرة رودس سنة (٥٣هـ)، بقيادة جنادة بن أبي أُمية الأزدي، ونقل إليها جماعة من العرب المسلمين، فزرعوا الأرض، ونظموا الحماية، وشيَّدوا المساكن.

ويصف المؤرخ المسلم، الطبري، ما حدث بقوله: «نزل المسلمون في جزيرة رودس وزرعوا، واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، ولهم ناطور، أي: مراقب، يحذِّرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشدَّ شيء على الروم، فيعترضونهم في البحر، فيقطعون سفنهم، وكان معاوية يدرُّ عليهم الأرزاق والعطاء، وكان العدوُّ قد خافهم، فلما مات معاوية أقفلهم يزيد»[2].

وفي السنة التالية (٥٤هـ) فتح جنادة بن أبي أُمية جزيرة في البحر قريبة من القسطنطينية يقال لها أرواد، وفي تاريخ ابن خلدون: أروى[3]، فملكوها سبع سنين. وتعرضت جزيرة أرواد للطوفان في سنة (٦٠هـ). وجاء نعي معاوية، فكتب يزيد برجوع الحامية وسحبها من الجزيرة، فلم تعمر بعد ذلك وخربت، وأمن الروم.

ـ **الاستراتيجية البحرية**: لم يتوقف جهد معاوية بن أبي سفيان عند حدود وضع أساس إنشاء القوة البحرية وتنظيمها، أو تحديد أهداف عملها وواجباتها، وإنما تجاوز ذلك إلى وضع استراتيجية شاملة للعمل في البحر والبرِّ، والأمر الهام هنا هو إبراز ظاهرتين أساسيَّتين في جملة ظواهر هذه الاستراتيجية، وهما:

١ ـ تنظيم الدفاع عن المدن الساحلية.

٢ ـ تنظيم عملية القوات البرية ـ البحرية والصعود والإنزال.

١ ـ **الدفاع عن المدن الساحلية**: وذلك بتنظيم خطة شاملة للعمليات تتضمن:

أ ـ الحماية البعيدة.

---

(١) تزعم المصادر البيزنطية أن النار اليونانية هي الي دمرت أسطول معاوية، ولكن الشواهد المتوفرة تبرهن أن تأثير النار اليونانية بقي محدوداً، وأن العواصف المدمرة هي العامل الأول الذي أضعف القدرة البحرية للمسلمين، وهي التي دمرت القسم الأكبر من قوة الأسطول.

(٢) الطبري ٥/ ٢٨٨، وابن الأثير ٣/ ٢٤٤.

(٣) ابن خلدون ٢/ ٣٩، والطبري ٥/ ٢٩٣، وابن الأثير ٣/ ٢٤٦.

ب ـ الحماية القريبة.

جـ ـ الحماية المباشرة.

د ـ احتياطي العمليات.

أ ـ الحماية البعيدة: وتضمنها الجزر القريبة من السواحل (أرواد ـ قبرص ـ رودس ـ مجموعة جزر بحر إيجة)، والتي تمَّ احتلالها كتدبير وقائي، ثم وضعت فيها حاميات من المسلمين للقيام بواجبات الرصد والإنذار والتعرض لأساطيل الروم في البحر وإحباط كل محاولة عدوانية، هذا بالتنسيق الكامل مع قوات الأسطول التي تتجول باستمرار قرب الشواطىء، وهي على استعداد دائم للقتال من أجل مجابهة القوات البحرية للبيزنطيين.

ب ـ الحماية القريبة: وتقوم بواجباتها حاميات المدن الساحلية ومراكز المراقبة المقيمة في نقاط حصينة على امتداد السواحل. وكانت هذه الحاميات خاضعة لقيادة واحدة يقودها أمير السواحل، فكانت تـتلقّى الصدمة عند حدوث كل هجوم مباغت ينجح في التسلُّل أو في خداع القوة البحرية، للوصول إلى الأهداف الساحلية.

جـ ـ الحماية المباشرة: وتقوم بها القوات التي تستنفَر من المناطق الداخلية، وتوجه إلى المدن والثغور، وتخضع في عملها لقيادة أمير السواحل. وكانت هذه القوة ترسل إلى المدن الساحلية عندما تتوجه القوات البحرية للغزو في عرض البحر، وعندما تعود القوات البحرية إلى قواعدها ترجع القوات إلى قواعدها في الداخل.

د ـ احتياطي العمليات: وهي قوات تتمركز في المناطق الداخلية، وهي على استعداد دائم للقتال، بهدف دعم المدن الساحلية عند وقوع عدوان عليها. فكان جند حمص هو القوة الاحتياطية لدعم حاميات طرطوس وبانياس وجبلة ومركزه قنسرين، وكان جند الأردن ومركزه طبريا وواجبه دعم حاميات صور وعكا. أما جند فلسطين ومركزه الرملة، فكان واجبه دعم حاميات قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة وسواحل مصر (الفرما والعريش والإسكندرية). جند دمشق ومركزه دمشق، وواجبه دعم حاميات صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس.

٢ ـ تنظيم عملية تجمع القوات البرية ـ البحرية: كان يتم حشد قوات الحجاز والمدينة في مصر من أجل الغزو البحري، كما كان يتم حشد قوات الشام وحمص في عكا والمدن الساحلية. وعندما تنتهي عملية حشد القوات؛ تبدأ

عمليات الاستعداد لركوب البحر وتصدر الأوامر للتحرك على النحو التالي:

١ ـ تنطلق القطع البحرية الثقيلة إلى عرض البحر لحماية عملية الركوب.

٢ ـ تصعد القوات إلى المواعين ـ ناقلات الجند ـ.

٣ ـ تتخذ المواعين ترتيب التحرك، ويقف كل ماعون في مكانه من رتل المسير.

٤ ـ تسير قافلة القوات تحت حماية الزوارق الخفيفة التي تسير في جانبي الرتل، وتندفع في كل اتجاه.

تتجمَّع قوات الأسطولين المصري والسوري إما في عكا أو في المياه الشامية، إذا ما كان هدف التحرك هو السير نحو الشمال (بيزنطة)، أو إذا كان هدف العملية كبيراً على نحو ما حدث في حصار القسطنطينية أو في معركة ذات الصواري. أما إذا كان هدف التحرك غرباً، فتتجمع قوات الأسطولين في مياه مصر أو عند الهدف، على نحو ما حدث في فتح قبرص.

عندما تصل قطع الأسطول إلى أهدافها؛ تقف القطع البحرية الثقيلة المحمَّلة بالمجانيق والحرَّاقات وأدوات الحصار على مسافة تسمح لها بحماية الإنزال، وتتقدَّم المواعين ـ ناقلات الجند ـ حتى الساحل، ويتم إنزال القوات على أرض الشاطىء. وإذا تطلب الأمر دعماً من القطع البحرية الثقيلة، فإن هذه تبدأ عملها من مواقعها، أو تتقدم حتى تقف على ارتفاع وحدات المشاة البحرية. أما عند الاشتباك بقوات العدوِّ في عرض البحر، فتتقدم حاملات الجند حتى مسافة الالتحام وتلقي بالحبال فوق قطع العدو البحرية وتشدُّها إليها وتربطها بقطعها، وعادةً ما كان جند الروم يفعلون ذلك أيضاً. وتقع المعركة فوق السفن، على نحو ما يحدث في المعارك البرية، حيث تستخدم أسلحة الالتحام (السيوف والخناجر والبلطات). أما في العمليات البرية ـ البحرية، فكان يتم إنزال نصف القوات للتعامل مع القوات البرية، وتبقى القوة المناسبة للاشتباك البحري. وعند انتهاء المعركة تعود القوات البحرية لترتيب المسير، وتتخذ قطع الحراسة مواقعها على أطراف رتل التحرك وعند مقدمته ومؤخرته، ويتم اتخاذ إجراءات الحيطة في قواعد النزول الصديقة؛ بعكس ما كانت عليه عند الركوب.

وتمثل معارك حصار القسطنطينية وذات الصواري وقبرص ورودس كل فنِّ الحرب البحري عند المسلمين، وقد كانت طرائق العمليات بسيطة غير معقَّدة، ولكن تنفيذها في إطار الإمكانات المتوفرة في تلك الفترة؛ يجعلها ليست

بالسهولة التي يمكن تصوُّرها. ولقد تطور فن الحرب البحري بعد معاوية، واتَّسع أُفق العمليات، وزاد عدد قواعد بناء السفن وتعاظم حجم القوة البحرية، ولكن واجبات البحرية بقيت ثابتة، وفي كل الأحوال يبقى الفضل لمعاوية «أبو البحرية» في كل ما حدث من تطوُّرات.

د ـ حماية الثغور (الهجمات الإجهاضية المسبقة): «شدّوا خناق الروم، فَبِها تضبطون بقية الأُمم»؛ قالها معاوية بن أبي سفيان، فحدَّد بدقة طبيعة الصراع الدائم والمستمر، والذي لا يمكن له أن يتوقف أو يزول إلا بزوال أحد الطرفين. وانطلاقاً من هذه الرؤية الواضحة عمل معاوية على تطوير الصراع مع الروم وتحديد أساليبه وطرائقه؛ بدايةً من تحصين الثغور، ونهايةً بتنظيم الهجمات الإجهاضية المسبقة (بحسب التسمية الحديثة).

إن قصة حماية الثغور، وتطوير معاوية للهجمات الإجهاضية المسبقة، التي عُرفت في التاريخ الإسلامي باسم «الصوائف والشواتي»[1]، تتطلب بالضرورة العودة إلى بداية ظهور الفكرة في زمن الفتح. ففي سنة (١٧هـ/ ٦٣٨م) انتهت قوات المسلمين من تحرير الشام والعراق، وانتزاع المجال الحيوي لامبراطوريتي الروم والفرس، ولكن الروم لم يتمكَّنوا من التسليم بسيادة العرب على أرضهم، وأخذوا في تصعيد أعمالهم العدوانية عن طريق التسلُّل عبر الدروب لتنظيم الهجمات ضد الثغور والعواصم الإسلامية؛ ممّا حمل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، الذي قال: «**والله لوددت أن الدرب**[2] **جمرة بيننا وبينهم**؛

---

(١) **الصوائف والشواتي**: الصوائف هي القوات الكبيرة التي تنتظم في جيش واجبه غزو بلاد الروم في الصيف. وكانت الصائفة تقوم بالغزو «إذا دخل الخريف وطاب الهواء بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوالهم وأحوال خيولهم وقوي وسمن الظهر الحامل للناس، فيجتمع المجاهدون للدخول في الصائفة إلى أرض العدو، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز/ يوليو، فيقيمون فيها إلى وقت قفولهم منها ستين يوماً أو أكثر». أما الشواتي، ومفردها شاتية، فهي القوات الكبيرة التي تنتظم في جيش واجبه غزو بلاد الروم في الشتاء، ما بين أوائل شهر آذار/ مارس حتى نهايته. وتكون واجبات الشاتية أقل عمقاً وأكثر قرباً من الحدود الإسلامية للإفادة من فترة ضعف العدو وعدم استعداده لتوجيه ضربة قاسية ثم الانسحاب. **نبذ الخراج**، ابن خرداذبه، ص٢٥٩.

(٢) **الدرب**، ومجموعها الدروب، وهي المحاور التي تخترق سلسلة الجبال الفاصلة بين بلاد الشام ودولة الروم (جبال الأمانوس)، وأشهر هذه الدروب محور أنطاكية، المصيصة، إقليم آيدن القسطنطينية، ومحور الجزيرة، مرعش، طوانة، عمورية، القسطنطينية.

لنا ما دونه، وللروم ما وراءه»[1].

ولكن عمراً لم يقف الموقف السلبي من تحدِّيات الروم، وإنما وضع الأساس للردِّ على التحديات باستجابات مناسبة لها، فأمر بسدِّ الثغور وإقامة الحاميات، وتنظيم الدفاع عن العواصم، فكان في ذلك بداية التنظيم الدفاعي ضد البيزنطيين.

ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على العواصم الإسلامية، منذ البداية، هو تدبير وقائي لحماية بلاد الروم، وردع المسلمين؛ لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدي، ذلك أن العقيدة القتالية الإسلامية لا تعترف بالدفاع أو انتظار هجوم الأعداء، وإنما تأمر بالإسراع للقاء العدو؛ نقل المعركة إلى بلاد الأعداء، والابتعاد بالحرب عن بلاد المسلمين. وكان لا بدَّ لمعاوية من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار العواصم والثغور[2] مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقّي الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد كمراكز انطلاق للهجمات المضادَّة.

كان الروم قد أقاموا على حدود امبراطوريتهم في الشرق والغرب مجموعة من القلاع والحصون والمسالح بهدف حماية حدود الامبراطورية من هجمات الفرس المباغتة في الشرق، ولإيقاف هجمات الغزاة البرابرة في الغرب. وعندما فتح العرب المسلمون بلاد الشام وانسحب الروم (البيزنطيون) أعادوا تنظيم الحصون والمسالح، واصطحب الروم معهم سكان هذه المنطقة، كما اصطحبوا معهم أنصارهم من العرب ممَّن حافظوا على ولائهم للامبراطورية.

ووجد العرب المسلمون هذه المنطقة من الحدود المتاخمة لامبراطوريتهم (أنطاكية وما يجاورها حتى اللاذقية جنوباً) وكل الجبال المجاورة التي كانت تحمل اسم جبل اللّكام (جبل النصيرية)، وهي فارغة من الحياة، وخالية من السكان. وقد استهدف الروم من ترغيب السكان بالجلاء عن مدنهم وقراهم تحقيق ما يلي:

---

(١) اليعقوبي ٢/ ١٣٣، وقالها عمر عام (١٧هـ) أثناء تجوله في بلاد الشام لسد الثغور وحماية البلاد.

(٢) **الثغور**: هي المدن والعواصم المجاورة لحدود الامبراطورية البيزنطية، وكانت هذه المدن والعواصم هي مراكز الحشد لجيوش المسلمين قبل انطلاقهم لأعمال الصوائف والشواتي، ومن هذه الثغور قنسرين وأنطاكية (وهارون الرشيد هو أول من أطلق على الثغور اسم العواصم)، وكانت هناك حاميات دائمة تقيم في الثغور للدفاع عنها.

١ ـ تدمير المنطقة وإفقارها من اليد العاملة الزراعية وتحويلها إلى منطقة مهجورة.

٢ ـ استخدام المنطقة لزجّ قوات الروم أو إرسال المجموعات القتالية الصغيرة لاحتلال الحصون والمسالح[١]، بهدف قطع الطريق على قوات المسلمين عند غزوها ما وراء الدروب.

٣ ـ نصب الكمائن في المسالح للقضاء على المتخلفين والأفراد المنعزلين من قوات العرب المسلمين، بهدف إحباط الروح المعنوية للمجاهدين العرب واستنزاف قوتهم وإعاقة تحركاتهم، بسبب اضطرارهم للمبالغة بإجراء تدابير الأمن.

مقابل ذلك، وضع معاوية مخططاً مضاداً يتلخص بالتالي:

١ ـ نقل السكان وإقطاعهم القطائع من الأرض الموات[٢]، بهدف تعمير المدن وحراسة الحصون وحماية المسالح.

٢ ـ منع المجاهدين من الانفصال عن أرتال القوات، أو السير بشكل إفرادي أو بمجموعات صغرى.

٣ ـ وضع قوة كافية لحراسة الدروب والثغور عند توغل الصائفة في أرض الروم، وتبقى هذه القوة حتى عودة الصائفة من غزوتها.

٤ ـ دفع مفارز كثيرة من عناصر الاستطلاع في الاتجاهات الخطرة، وعدم

---

(١) **المسالح**: هي القوة المسلَّحة التي تمارس دور مراكز المراقبة المتقدمة وواجبها مراقبة العدو والإنذار ثم الانضمام بعضها إلى بعض عند مجابهة قوات متفوقة، للعمل تحت قيادة قائد المسالح. والمسالح جمع، مفردها مسلحة. ومن الضروري تمييز هذه المسالح التي تحتلها عناصر الاستطلاع عن تلك التي يتم وضعها على الحدود الإسلامية، والتي ينحصر واجبها، وفقاً لما حدده القاضي أبو يوسف في كتابه: الخراج ص٢٢٦، بما يلي: «ينبغي للإمام أن تكون له مسالح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرق من الطرق، فيفتشون من مرَّ بهم من التجار، فمن كان معه سلاح أُخذ منه ورد، ومن كان معه رقيق رُدَّ، ومن كانت معه كتب قُرئت كتبه مما كان من خير من أخبار، ويبعث إلى الإمام ليرى فيه رأيه. ولا ينبغي للإمام أن يدع أحداً ممن أمر من أهل الحرب وصار في أيدي المسلمين يخرج إلى دار الحرب راجعاً إلا أن يفادى به، فأما من غير الفداء، فلا». والإمام هنا هو أمير المؤمنين، أو من يُعيِّنه أمير المؤمنين لهذا العمل.

(٢) **الأرض الموات**: هي أرض ليس فيها أثر بناء ولا زرع ولا تكون فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً لهم، ولا موضع مقبرة ولا محتطب، ولا مرعى دوابهم وأغنامهم، بملك لأحد ولا في يد أحد. (الخراج ـ أبو يوسف ٢٣٦).

تجاوز التحصينات أو المخابىء (المطامير) إلا بعد استطلاعها.

٥ ـ عدم السماح للعدو بفرض المعركة على المسلمين، وذلك عن طريق إلزام المجاهدين بتنفيذ الأعمال القتالية التي تحدِّدها لهم القيادة، وعدم الدخول في معركة إلا بعد الحصول على موافقة القائد[١].

لقد مرَّت عملية «حماية الثغور» أو «الهجمات الإجهاضية المسبقة» بمراحل، وقد يكون من الضروري عرض هذه المراحل بسرعة من أجل إبراز دور معاوية في تثبيت هذه الاستراتيجية وتطوُّرها.

انتهى أبو عبيدة من فتح سوريا كلها سنة (١٧هـ)، وكان «**الجراجمة**» يستوطنون جبل اللّكام، ويخضعون من الناحية الإدارية لحاكم أنطاكية. وعندما تمَّ فتح أنطاكية؛ لزم الجراجمة مدنهم وقراهم، وخاف قسم منهم فقرَّروا اللحاق بالروم والانضمام إليهم، لكن «أبو عبيدة» تركهم، ولم يوجِّه قوة لإخضاعهم، لكن أنطاكية عادت للتمرُّد بتحريض الروم، فوجَّه أبو عبيدة قوة لإخضاعها بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري، وتمكَّن حبيب من إعادة فتحها، ثم وجَّه قوة إلى الجراجمة، فلم يقاتله أهلها، وأسرع وفد منهم لمقابلة حبيب طالباً عقد صلح مع المسلمين. وقد نصت اتفاقية الصلح على:

١ ـ أن يكون أهل الجرجومة أعواناً للمسلمين، وأن يقوموا بتنظيم المسالح ومراقبة الحدود في جبل اللّكام.

٢ ـ أن يُنفلوا أسلاب مَن يقتلون من أعداء المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم.

٣ ـ أن يتم إسقاط الجزية عن الجراجمة مقابل اشتراكهم في الحرب[٢].

وطبِّقت نصوص هذه الاتفاقية على المقيمين في المنطقة من الأنباط والتجار والعمال الزراعيين ـ الأُجَراء ـ وسُمِّي هؤلاء (الرواديف)؛ لأنهم أُلحقوا بالجراجمة وهم ليسوا منهم. وفي الوقت ذاته، تمَّ تنفيذ أمر عمر رضي الله عنه، الذي أرسله إلى «أبو عبيدة» عندما بلغه تمرد أنطاكية، وفيه: «**أنْ رتِّب في أنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء**»[٣].

---

(١) لا تسري سرية إلا بإذن الإمام الخليفة، أو من يوليه على الجيش، ولا يحمل رجل من عسكر المسلمين على رجل من المشركين ولا يبارزه إلا بإذن أمير الجيش. (الخراج ـ أبو يوسف ٢٣٦).

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ١٥٩ ـ ١٦٣.

(٣) الكامل ـ ابن الأثير ٢/ ٣٤٥.

قام الروم بهجوم عام على امتداد الساحل ووصلوا حتى طرابلس في سنة (٢٤هـ)، فوجه معاوية بن أبي سفيان جيش الشام لحربهم بقيادة سفيان بن مجيب الأزدي. وكانت طرابلس تضم ثلاث مدن مجتمعة، فنظم سفيان الحصار حولها وعزلها براً وبحراً وقطع عنها الإمداد، وشيَّد في مرج طرابلس، وعلى بُعد أميال من حصون طرابلس، قلعة منيعة حملت اسم (حصن سفيان)، وعندما اشتد الحصار على أهل طرابلس تجمَّعوا في حصن من حصون المدينة الثلاثة، وأرسل الروم إليهم سفناً بحرية حملتهم ليلاً ونقلتهم إلى بيزنطة. وعمل معاوية بعد الفتح على إرسال جماعة من اليهود إليها وأنزلهم في المنطقة التي أصبحت تُعرف بالميناء. ثم توجه معاوية بنفسه، فأخضع المدن الساحلية وأعاد ترميم حصونها المهدَّمة ونقل إليها المقاتلين للمرابطة فيها. ثم قاد معاوية بنفسه في السنة التالية، سنة (٢٥هـ)، جيشاً كبيراً إلى ما وراء الدروب، وأوغل في بلاد الروم حتى بلغ عمورية، ووجد أن كافة الحصون بين أنطاكية وطرطوس خالية، فنقل إليها مقاتلين من الشام والجزيرة، ثم أغزى معاوية بعد ذلك يزيد بن الحر العبسي (الصائفة)، وأمَّره ففعل مثلما فعل معاوية، ولما رجع من غزوته، هدم الحصون داخل الدروب حتى أنطاكية. وفي عام (٢٧هـ) غزا معاوية قنسرين. وفي سنة (٣٢هـ) قاد معاوية غزوة الصائفة حتى مضيق القسطنطينية ومعه زوجته عاتكة ابنة قرظة. وفي سنة (٣٣هـ) غزا معاوية غزوة حصن المرأة من أرض الروم، من ناحية ملطة. واستمرت جهود معاوية بعد ذلك، فكانت أعمال الصوائف والشواتي هي المختبرات الحقيقية لتجارب الحرب، وكان معاوية تلميذ الحرب وأستاذها، يستخلص الدروس من هذه التجارب، ويعمل على تطوير الصراع، فوضع بذلك الأساس الثابت والراسخ لما يجب أن يكون عليه الصراع في الحدود المتجاورة لدولتين تتصارعان صراعاً لا هوادة فيه، إلّا بزوال إحداهما.

٥ ـ معاوية والصراع السياسي

لقد جابة معاوية بن أبي سفيان مواقف كثيرة، وقد يكون من الضروري الوقوف عند بعضها؛ ذلك أنها تُبرز قدرته على تحليل مواقف الصراع السياسي بقدر ما تبرز كفاءته في تقدير المواقف المتعلقة بالصراع المسلَّح، وهي إلى ذلك شواهد على النهج الذي اتبعه معاوية حتى ملك رقاب العرب.

أ ـ معاوية وأصحاب فتنة الكوفة (٣٣هـ): تجمَّع نفر من أهل الكوفة، فيهم مالك الأشتر، وثابت بن قيس بن منقع، وكُميل بن زياد النخعي، وصعصعة بن صوحان، وعمير بن ضابىء، وزيد بن صوحان العبدي، وجندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمِق الخزاعي، وأخذوا يطعنون على أمير الكوفة سعيد بن العاص، كما يطعنون بأمير المؤمنين عثمان بن عفان، وضجَّ أهل الكوفة بأذاهم، فكتب أشرافها إلى عثمان وطلبوا إخراجهم وإبعادهم عن الكوفة. فكتب عثمان إلى معاوية: «إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خُلِقوا للفتنة، فرعهم وقم عليهم، فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم، وإن أعيوك فارددهم عليهم».

وتقدّم هؤلاء إلى معاوية فرحَّب بهم، وأنزلهم كنيسة تسمّى كنيسة مريم، وأجرى عليهم، بأمر عثمان، ما كان يجري عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغذى ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً: «إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأُمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلَّة كما كنتم، إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة، فلا تشذّوا عن جنتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة، والله لتَنتهُنَّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم».

فقال رجل من القوم: «أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية، فتخوِّفنا. وأما ما ذكرت من الجنة، فإن الجنة إذا اختُرقت خلصت إلينا».

فقال معاوية: «عرفتكم الآن! علمت أن الذي أغراكم على هذا قلَّة العقول، وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلاً؛ أُعظِّم عليك أمر الإسلام وأُذكِّرك به وتذكِّرني الجاهلية! وقد وعظتك وتزعم لما يجنك أنه يُخترَق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة، أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا أمركم إلى خليفتكم! إفقَهوا، ولا أظنُّكم تفقهون، إنَّ قريشاً لم تُعَزَّ في جاهلية ولا إسلام إلا بالله ﷻ؛ لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءة؛ ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا بالله الذي لا يُستذَل مَن أعزَّ، ولا يوضع

من رفع، فبوَّأهم حَرَماً آمناً يتخطف الناس مِن حولهم! هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة، إلا ما كان من قريش فإنه لم يُرِدهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله كيده الأسفل، حتى أراد الله أن يتنقذ مَن أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مردِّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم! أفٌّ لك ولأصحابك. ولو أن متكلِّماً غيرك تكلَّم؛ ولكنك ابتدأت. فأما أنت يا صعصعة! فإن قريتك شرَّ قرى عربية؛ أنتنها نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشرِّ، وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هُجنة، ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمه أصهاراً؛ نزاع ـ غرباء ـ الأُمم، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ، ونكبتك دعوته وأنت نزيع غريب في عمان، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي ﷺ، فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالناس، وحملك على الأُمم التي كانت عليك؛ أقبلت تبغي دين الله عوجاً، وتنزع إلى اللآمة والذلة، ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرَّهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم. إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين أُمَّتكم، فأغرى بكم الناس، وهو صارعكم. لقد علم أنه لا يستطيع أن يردَّ بكم قضاءً قضاه الله، ولا أمراً أراده الله. ولا تُدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله عليكم شرّاً منه وأخزى».

عاد معاوية لمناظرة هؤلاء، وقال لهم: «إني معيدٌ عليكم. إن رسول الله ﷺ كان معصوماً فولَّاني، وأدخلني في أمره، ثم استخلف أبو بكر رضي الله عنه فولَّاني، ثم استخلف عمر فولَّاني، ثم استخلف عثمان فولَّاني، فلم أَلُ لأحدٍ منهم ولم يولِّني إلا وهو راضٍ عني، وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها. وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون، فإن الله غير تاركِكم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم، وقد قال عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت/ ١، ٢]».

ورجع معاوية في ليلة ثالثة ليحاورهم، ويقول لهم: «أيها القوم! ردّوا عليَّ خيراً أو اسكتوا وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم وينفع عشائركم وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا ونعيش بكم». فقال صعصعة: «لست بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله». فقال: «أوَليس ما ابتدأتكم به أنْ أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيِّه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرَّقوا!». قالوا: «بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبيُّ ﷺ». قال: «فإني آمركم الآن إن كنت فعلتُ فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيِّه ﷺ ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة. وأن توقِّروا أئمتكم وتدلوهم على حسن ما قدرتم، وتعظوهم في لين ولطف في شيءٍ إنْ كان منهم». فقال صعصعة: «فإنا نأمرك أن تعتزل عملك، فإنَّ في المسلمين مَن هو أحق به منك!». قال: «مَن هو؟». قال: «مَن كان أبوه أحسن قُدماً من أبيك، وهو بنفسه أحسنُ قدماً منك في الإسلام». فقال: «والله إن لي في الإسلام قُدماً، ولغيري كان أحسن قُدماً مني، ولكنه ليس في زماني أحدٌ أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة، ولا لغيري. ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليَّ بخطِّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك؛ لرجوت ألا يعزم له على ذلك إلا وهو خير. فمهلاً، فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأُمور تقضى على رأيكم وأمانيِّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبرها، وهو بالغُ أمره، فعاودوا الخير وقولوه»[1]. فقالوا: «لست لذلك أهلاً». فقال: «أما والله. إن لله سطوات ونغمات، وإني لخائفٌ عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان، حتى تحلُّكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمٰن دار الهوان من نقَم الله في عاجل الأمر، والخزي الدائم في الآجل».

فوثبوا عليه، فأخذوا برأسه ولحيته، فقال: «مَهْ! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا إمامهم؛ ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم. فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً». ثم قام من عندهم، فقال: «والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت». ثم كتب إلى عثمان:

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣١٧ ـ ٣٢٩، أحداث سنة (٣٣هـ).

بسم الله الرحمٰن الرحيم

لعبد الله عثمان أمير المؤمنين، من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: يا أمير المؤمنين! فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن، فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممَّن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمَن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم، والسلام.

وكتب إليه عثمان يأمره أن يردَّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة، وقال لهم معاوية وهو يرسلهم: «إني قد أذنت لكم، فاذهبوا حيث شئتم، لا والله، لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرَّة، ولكنكم رجال نكير. وبعد، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليسعكم ما وسع الدَّهماء، ولا يبطرنَّكم الإنعام، فإن البطر لا يعتري الخيار؛ اذهبوا حيث شئتم». ورجع هؤلاء إلى الكوفة، فلم يكونوا إلّا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا. وكتب سعيد إلى عثمان يضجُّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد؛ أنْ سيِّرهم إلى عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وكان معاوية قد عيَّنه والياً من قِبَله على حمص، فوجَّه والي الكوفة سعيد بن العاص هؤلاء الثائرين إلى عبد الرحمٰن في حمص.

وصل زعماء التمرد إلى حمص، فاستقبلهم عبد الرحمٰن بن خالد، وخاطبهم بقوله: «يا آلة الشيطان! لا مرحباً بكم ولا أهلاً! قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ نشاط، خسر الله عبد الرحمٰن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم. يا معشر مَن لا أدري أعرب أم عجم، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية. أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن مَن قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الردَّة، والله لئن بلغني يا صعصعة ابن ذلٍّ أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى».

فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم، فإذا مرَّ به صعصعة قال: «يا ابن الخطيئة! أعلمتَ أن مَن لم يصلحه الخير أصلحه الشرُّ! ما لك لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية!». فيقول، ويقولون: «نتوب إلى الله، أقِلْنا

أقالك الله!». فما زالوا به حتى قال: «تاب الله عليكم». وسرح الأشتر إلى عثمان، وقال لهم: «ما شئتم، إن شئتم فاخرجوا وإن شئتم فأقيموا». وخرج الأشتر، فأتى عثمان بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه، فقال: «سلَّمكم الله». وقدم سعيد بن العاص، فقال عثمان للأشتر: «أحلل حيث شئت»، فقال: «مع عبد الرحمٰن بن خالد»، وذكر من فضله، فقال: «ذاك إليكم»، فرجع إلى عبد الرحمٰن.

وجلس معاوية إلى ابن الكواء، أحد زعماء الفتنة، بعد أن أظهروا التوبة والندامة، وسأله: «يا ابن الكواء! أي رجلٍ أنا؟» قال: «بعيد الثرى، كثير المرعى، طيب البديهة، بعيد الغور، الغالبُ عليك الحلم، ركن من أركان الإسلام، سُدَّت بك فرجة مخوفة». قال: «فأخبرني عن أهل الإحداث من أهل الأمصار، فإنك أعقل أصحابك». قال: «كاتبتهم وكاتبوني، وأنكروني وعرفتهم، فأما أهل الإحداث من أهل المدينة، فهم أحرض الأُمة على الشرِّ، وأعجزه عنه. وأما أهل الإحداث من أهل الكوفة، فإنهم أنظر الناس في صغير وأركبه لكبير. وأما أهل الإحداث من أهل البصرة، فإنهم يَرِدُون جميعاً ويصدرون شتّى. وأما أهل الإحداث من أهل مصر، فهم أوفى الناس بشرٍّ وأسرعه ندامة. وأما أهل الإحداث من أهل الشام، فأطوع الناس لمرشدهم وأعصاه لمغويهم».

ب ـ **معاوية والفتنة الكبرى ضد عثمان (٣٥هـ)**: معروفة هي قصة الفتنة الكبرى التي مزَّقت وحدة العالم الإسلامي في صدر الإسلام، والتي استنزفت من قدرة العرب المسلمين أكثر مما استنزفته الحروب ضد العرب المسلمين. وليس المهم هنا العودة لمعالجة أسباب تلك الفتنة وعواملها، رغم أهمية تلك الأسباب والعوامل، والتي كثيراً ما أبرزتها كتابات الكتَّاب والمؤرخين، ولكن المهم عرض بعض مواقف معاوية، والتي تُبرز قدرته على معالجة القضايا السياسية وإدارة الحكم بمثل مقدرته أيضاً على معالجة إدارة الحرب وقيادة أعمال القتال.

عندما اشتدَّت الفتنة في العراق ومصر؛ بعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه مَن يثق بهم لمعرفة الموقف، واستدعى إليه قادة جنده، وفيهم معاوية بن أبي سفيان؛ ليستشيرهم، وجلس إليهم يسمع آراءهم في الموقف، ووقف معاوية ليقول: «**أشير عليك أن تأمر أُمراء أجنادك، فيكفيك كل رجل منهم ما قِبَله،**

وأكفيك أنا أهل الشام، وقد ولَّيْتني قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير»[1].

وانتهى مؤتمر أُمراء الجند، وقدَّر معاوية خطورة المؤامرة، فقال لأمير المؤمنين عثمان وهو يودِّعه: «يا أمير المؤمنين! انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مَن لا قِبَلَ لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا». فقال: «أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي». قال: «فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك». قال عثمان: «أنا أُقَتِّرُ على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم، وأُضيِّق على أهل دار الهجرة والنصرة!». قال: «والله يا أمير المؤمنين! لتُغتالنَّ أو لَتُغزَيَنَّ». قال: «حسبي الله ونعم الوكيل». وقال معاوية لمن حضر المجلس: «يا أيسار الجزور! وأين أيسار الجزور؟».

ثم خرج وعليه ثياب السفر متقلِّداً سيفه متنكِّباً قوسه، فإذا هو بنفر من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي بن أبي طالب، فقام عليهم، فتوكَّأ على قوسه، وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته في الأرض وولاة أمر هذه الأُمة، لا يطمع في ذلك أحد غيركم، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع، وقد كبرت سنُّه وولّى عمره، ولو انتظرتم به الهرم كان قريباً، مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغ به ذلك... وقد فشت قالةٌ خفتها عليكم، فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به، **ولا تُطْمِعوا الناس في أمركم، فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم فيها أبداً إلا إدباراً**... إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذِ الناس يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم أحدٌ إلا وفي فصيلته مَن يرئسه، ويستبدُّ عليه، ويقطع الأمر دونه، ولا يُشهده ولا يؤامره حتى بعث الله نبيَّه ﷺ، وأكرم به مَن اتبعه، فكانوا يرئسون مَن جاء مِن بعده، وأمْرهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبعٌ لهم، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب؛ سُلِبوا ذلك، وردَّه الله إلى مَن كان يرئسهم، وإلا فليحذروا الغيرَ، فإن الله على البَدَل قادر، وله المشيئة في ملكه وأمره. إني قد خلفت فيكم شيخاً، فاستوصوا به خيراً، وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك». ثم ودَّعهم ومضى.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٣٤ و٣٤٢.

ودخل أمير المؤمنين عثمان ﷺ ليقابل نسوة النبيِّ ﷺ، وليستشيرهن في الأمر، فقلن له: «**تؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس، وتدع معاوية، فإنما أمره أمير قبلك، فإنه مصلح لأرضه، راضٍ به جنده**».

ويتداعى المتآمرون إلى المدينة، ويجدون فيها أنصاراً لهم، في حين يبدأ أصحاب عثمان في التباعد عنه، فيجد نفسه وحيداً أو شبه وحيد وقد أُحيط به، فيكتب إلى معاوية:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث إليَّ من قِبَلك مِن مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول».

ويصل الكتاب إلى معاوية، فيتمهَّل في إرسال الدعم، ويكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ وقد علم اجتماعهم، ولكن الخطر يشتد، فيرسل أمير المؤمنين رسالة هي أشبه بالاستغاثة، ويسرع جند الشام ويسرع جند العراق ويصل الجندان إلى وادي القرى والرَّبذة، وهناك يصلهم نبأ الفاجعة: **لقد قُتل عثمان ﷺ، وبدأت الفتنة الكبرى (٣٥هـ)**.

وأقبل المغيرة بن شعبة على علي بن أبي طالب ﷺ، وقد بايعه مَن بايعه، وامتنع عن بيعته مَنِ امتنع، وقال له: «إن النُّصح رخيص، وأنت بقية الناس، وإني لك ناصح، وإني أُشير عليك بردِّ عمال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم، فإذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك؛ عزلت مَن أحببت وأقررت مَن أحببت». فردَّ عليه عليٌّ: «**والله لا أُداهن في ديني، ولا أُعطي الدَّني في أمري**». فقال المغيرة: «فإن كنت قد أبَيْت عليَّ فانزع من شئت واترك معاوية، فإنَّ لمعاوية جرأة وهو في أهل الشام يُسمع منه، ولك حجة في إثباته؛ كان عمر بن الخطاب قد ولَّاه الشام كلها». فقال عليّ: «لا والله! لا أستعمل معاوية يومين أبداً».

ورجع المغيرة بعد يومين، وجلس إلى علي، وقال له: «إني أشرت عليك بما أشرت به فأبَيْت عليَّ، ثم نظرت في الأمر فإذا أنت مصيبٌ؛ لا ينبغي أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون في أمرك دُلْسة».

وجاء ابن عباس، وهو أقرب الناس لعليٍّ وسأله، بعد أن رأى المغيرة وهو يغادر مجلسه، وقال لعلي: «فيمَ جاءك المغيرة؟». فقصَّ عليه ما تحدَّث به إليه من النصح، فقال ابن عباس لعليٍّ: «أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة

الآخرة فقد غشَّك». قال له علي: «ولِمَ نصحني؟» قال ابن عباس: «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبِّتهم لا يبالوا بمن وُلِّيَ هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلِّبون عليك، فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق... أطعني وادخل دارك والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء ليحملنَّك الناس دم عثمان غداً».

فأبى علي، وقال لابن عباس: «سرْ إلى الشام، فقد ولَّيتكها». فقال ابن عباس: «ما هذا برأي؛ معاوية رجل من بني أُمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام. ولست آمَن أن يُضْرَب عنقي لعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيحتكم عليَّ». فقال له عليّ: «ولِمَ؟» قال: «القرابة ما بيني وبينك، وإن كل ما حُمل عليك حُمل عليَّ، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنِّيهِ وعِدْه». فأبَى علي وقال: «**والله لا كان هذا أبداً... لا والله لا أُعطيه إلا السيف**». ثم تمثَّل بهذا البيت:

ما ميتة إن متُّها غير عاجزٍ بعادٍ إذا ما غالت النفس غولُها

ثم إنَّ علياً أرسل إلى الشام سهل بن حنيف ليكون والياً عليها، وليحلَّ محلَّ معاوية. فلما وصل إلى تبوك؛ اعترضته قوة من الفرسان، وقالوا له: «مَن أنت؟» قال: «أمير». قالوا: «على أيِّ شيء؟» قال: «على الشام». قالوا: «إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك، وإن كان بعثك غيره، فارجع!». قال: «أوَما سمعتم بالذي كان؟» قالوا: «بلى».

فرجع سهل إلى المدينة، وأخبر علي الخبر، فما كان من علي إلا أن كتب رسالة إلى معاوية يطلب فيها إلى معاوية البيعة، وحمل سبرة الجهني الرسالة إلى معاوية، فأخذ هذا الرسالة، واحتفظ بالمراسل، ولم يُجبه. وكان معاوية يردِّد على أسماع سبرة الجهني كلما طلب إليه الإجابة على رسالة علي الأبيات التالية:

أدِمْ إدامَةَ حصن أو خِداً بيدي حرباً ضروساً تَشُبُّ الجزل والضِّرَما
في جارِكُم وابنكُم إذ كان معْتَلُهُ شنعاءَ شيَّبتِ الأصداغَ واللِّمما
أعيا المَسودُ بها والسَّيِّدون فلم يوجَد لها غيرُنا مولى ولا حكما

ومضت أشهر ثلاثة على مقتل عثمان حين استدعى معاوية رجلاً من بني عبس، ثم أحد بني رواحة، يدعى قبيصة، فدفع إليه طوماراً مختوماً، عنوانه «من

معاوية إلى علي»، فقال: «إذا دخلتَ المدينة فاقبض على أسفل الطومار». ثم أوصاه بما يقول، وسرح رسول علي. وخرجا فقدما المدينة، فلما دخلاها رفع العبسي الطومار كما أمره معاوية. وخرج الناس ينظرون إليه، فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض. ومضى حتى يدخل على علي، فدفع إليه الطومار، ففضَّ خاتمه فلم يجد في جوفه كتابة، فقال للرسول: «ما وراءك؟» قال: «آمنٌ أنا؟» قال: «نعم، إن الرسل آمنة لا تُقْتل». قال: «ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقوَد؛ الانتقام والثأر». قال: «ممن؟» قال: «من رقبتك، **وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق**»[1]. فقال عليٌّ: «أمنّي يطلبون دم عثمان! ألست موتوراً كترة عثمان! اللهمَّ إني أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. فإنه إذا أراد أمراً أصابه، أخرج». وسأله العبسي: «وأنا آمنٌ؟» قال: «وأنت آمن». فخرج العبسي وصاحت السبئية: «هذا الكلب، هذا وافد الكلاب، اقتلوه!». فنادى: «يا آل مضر! يا آل قيس! الخيل، والنبل، إني أحلف بالله جلَّ اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي، فانظروا كم الفحولة والركاب!» وتعاووا عليه، ومنعته مضر، وجعلوا يقولون له: «اسكت». فيقول: «لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يوعَدون». فيقولون له: «اسكت»، فيقول: «لقد حلَّ بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم». فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم.

ثم إن علياً جهَّز جيشاً لغزو الشام، ولكن عائشة وطلحة والزبير ثاروا بدم عثمان، وخرجوا إلى العراق، فقاد علي جيشه لقتاله، وكانت موقعة الجمل، وهذا مما زاد من قوة معاوية، وأضعف من قوة علي.

---

(١) قدم النعمان بن بشير على دمشق بقميص عثمان ﷺ، الذي قتل فيه، مخضباً بدمه وبأصابع «نائلة» زوجته مقطوعة بالبراجم، إصبعان منها وشيء من الكف، وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام. ووضع معاوية القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، وثاب إليه الناس، وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلَّقة فيه، وآلى الرجال من أهل الشام ألّا يأتوا النساء، ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم، فمكثوا حول القميص مدة، والقميص يوضع كل يوم على المنبر، ويجلِّله أحياناً فيلبسه، وعلق في أردانه أصابع نائلة ﷺ. تاريخ الطبري ٤/ ٤٤٤ و٥٦٢.

كان في مصر جماعة قد أعظموا قتل عثمان بن عفان ﷺ، وعندما أرسل عليٌّ إلى مصر والياً من قِبَله، هو قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري؛ اعتزل العثمانيون في خربتا وقالوا لقيس: «إنّا لا نقاتلك، فابعث عمّالك فالأرض أرضك، ولكن أقرَّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس».

ووثب مسلمة بن مخلد الأنصاري، فنعى عثمان بن عفان ﷺ، ودعا إلى الطلب بدمه، فأرسل إليه قيس بن سعد: «ويحك! عليَّ تثب! فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر، وأني قتلتك». فبعث إليه مسلمة: «إني كافٍ عنك ما دمت أنت والي مصر». وبعث قيس إلى أهل خربتا: «إني لا أُكرهكم على البيعة، وأنا أدعكم وأكفُّ عنكم». فهادنهم وهادن مسلمة بن خالد، وجبى الخراج، ليس أحد من الناس ينازعه. وكان قيس أثقل الناس على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام، مخافة أن يقبل عليه في أهل مصر، وأن يقبل عليه عليٌّ في أهل مصر، فكتب معاوية إلى قيس في محاولة لاستمالته، ولكن قيساً امتنع عليه وراوغه، فلجأ معاوية إلى الحيلة، فاختلق كتاباً من قيس بن سعد، فقرأه على أهل الشام، وفيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

«للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. سلامٌ عليك، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني لما نظرت رأيت أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، فنستغفر الله ﷻ لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسِّلم، وإني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان، إمام الهدى المظلوم، فعوِّل عليَّ فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل عليك، والسلام».

وأشاع معاوية ذلك بين أنصاره، وقال لأهل الشام: «لا تسبوا قيس بن سعد، ولا تدعوا إلى غزوه، فإنه لنا شيعة؛ يأتينا كيِّس نصيحته سراً. ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا يجري عليهم أُعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمِّن سربهم، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم، لا يستنكرونه في شيء».

وانتشر ذلك بين أهل الشام والعراق، وسمع به جواسيس عليٍّ، فلما بلغ ذلك علياً اتهم قيساً، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا ـ وأهل خربتا يومئذ عشرة آلاف مقاتل ـ ولكن قيساً رفض قتالهم، وكتب إلى عليٍّ: «إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم، وأهل الحفاظ منهم، وقد رضوا مني أن أؤمِّن سربهم، وأُجري

عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست مكايدهم بأمر أهون عليَّ وعليك من الذي أفعل بهم، ولو أني غزوتهم كانوا لي قرناً، وهم أُسود العرب ومنهم بسر بن أرطاة، ومسلمة بن مخلد، ومعاوية بن خديج؛ فذرني فأنا أعلم بما أُداري منهم». فأبى عليٌّ إلا قتالهم، وأبى قيس أن يقاتلهم. وأقدم عليٌّ على عزل أقوى أنصاره، قيس بن سعد، وعيَّن لولاية مصر الأشتر؛ أحد قتلة عثمان، فبعث معاوية مَن دسَّ السم للأشتر عندما وصل إلى القلزم، السويس، فعيَّن عليٌّ لولاية مصر محمد بن أبي بكر، وذهب قيس إلى الكوفة.

وعرف عليٌّ الخديعة التي أوقعه فيها معاوية، والتي سقط قيس بن سعد ضحيةً لها، وأُمكن بذلك حرمان علي من أفضل أنصاره وأقواهم، وحاول محمد بن أبي بكر محاربة أهل خربتا، فانتصروا عليه. وأرسل معاوية جيشاً لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص، ففتحها، وبذلك ضمن معاوية حماية مجنبته الغربية، وأمَّن مصر.

جـ ـ معاوية والحرب الأهلية في صفين (٣٦ ـ ٣٧هـ): بدأ القائدان علي ومعاوية ﷺ في الاستعداد للحرب، ورافقت أو سبقت، بالأحرى، مرحلة الصراع الدموي المسلح مرحلة من الحرب النفسية؛ صمد لها معاوية طويلاً، وفي النهاية دعا كاتبه شداد بن قيس، وقال: «أبغني طوماراً». فأتاه بطومار، فأخذ القلم فكتب:

ومستعجِبٍ مما يَرى من أناتِنا ولو زَبَنَتْهُ الحربُ لم يترَمْرَمِ[1]

وأسرع معاوية، فقاد جند الشام إلى الفرات، وأقام معسكره على الماء ليمنع جيش علي من وروده، ووصل جيش علي إلى صفِّين، وبدأت المعركة، وحصل أنصار علي على ما يريدونه من الماء بسيوفهم.

وجرت اتصالات بهدف تجنب القتال، وأرسل علي وفداً من أنصاره فيهم أبو عمرة بشير بن عمرو لإقناع معاوية. وقال أبو عمرة لمعاوية فيما قاله: «إني أُنشدك الله ﷻ ألَّا تفرِّق جماعة هذه الأُمة، وألَّا تسفك دماءها بينها!». فقطع عليه معاوية الكلام، وقال: «**هلّا أوصيت بذلك صاحبك؟**».

وفشلت المفاوضات، وبدأت الحرب، فأخذ عليٌّ يأمر الرجل ذا الشرف،

---

(١) لم يترمرم: لم يتحرَّك. الطبري ٤/ ٥٦٤، أحداث سنة (٣٦هـ).

فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة، فيقتتلان في خيلهما ورجالهما ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق وأهل الشام لما يتخوفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك.

واستمر هذا الصراع شهراً كاملاً ـ شهر ذي الحجة ـ وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين، أوله وآخره، فلما انقضى ذو الحجة تداعى الناس إلى أن يكفَّ بعضهم عن بعض في شهر المحرم، لعلَّ الله أن يجري صلحاً أو اجتماعاً؛ فكفَّ بعضهم عن بعض.

مضى شهر محرم وأرسل علي، قبل أن تتجدد الحرب، وفداً إلى معاوية، وجرت مباحثات انتهت بالفشل. وأثناء هذه المباحثات وقف معاوية، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أما بعد! فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم، فإنا لا نراها. إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرَّق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقَتَلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله. فنحن لا نرد ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة». وقال شبث بن ربعي لمعاوية: «**أيسُرُّك يا معاوية أنك أمكنت من عمار بن ياسر تقتله!**» فقال معاوية: «**وما يمنعني من ذلك؟ والله لو أمكنت من ابن سمية** ـ يقصد عمار بن ياسر ـ **ما قتلته بعثمان، ولكن كنت قاتله بناقل مولى عثمان**». فقال له شبث: «وإلٰه الأرض وإلٰه السماء ما عدلت معتدلاً! لا والذي لا إلٰه إلا هو، لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها». فقال له معاوية: «إنه لو قد كان ذلك؛ كانت الأرض عليك أضيق»[1].

وأرسل معاوية وفداً إلى علي، فيهم حبيب بن مسلمة الذي قال لعليٍّ فيما قاله: «ادفع إلينا قتلة عثمان، إن زعمت أنك لم تقتله؛ نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم». وفي النهاية قال شرحبيل بن السمط وحبيب بن مسلمة لأمير المؤمنين علي: «**اشهد أن عثمان** رضي الله عنه **قُتل مظلوماً**». فقال لهما: «**لا أقول أنه قُتل مظلوماً، ولا إنه قُتل ظالماً**». قالا: «**فمن لم يزعم أن عثمان قُتل مظلوماً، فنحن منه براء**». ثم قاما فانصرفا.

---

(١) الطبري ٥/٦، ٧، أحداث سنة (٣٧هـ).

استنفرت القوات مع غروب شمس اليوم الأخير من محرم (٣٧هـ)، ونظم القائدان، علي ومعاوية، قواتهما، وبايع رجال من أهل الشام على الموت، فعقلوا أنفسهم بالعمائم. وبدأ القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً كأشد ما يكون عليه القتال. ومضت سبعة أيام لم يتمكن أحد من حسم الصراع المسلح لمصلحته، فقال علي: «**حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا**». وصمَّم علي على إلقاء كل ثقل قواته بالمعركة[1].

وازدلف الناس في اليوم التالي، فاقتتلوا كأشد القتال يومهم حتى الليل، لا ينصرف بعضهم عن بعض إلا للصلاة، وكثرت القتلى بينهم وتحاجزوا عند الليل وكلٌّ غير غالب. وفي اليوم التاسع زحف الناس ورفع معاوية قبة عظيمة، وبايعه عظم الناس من أهل الشام على الموت، وبعث خيل أهل دمشق فاحتاطت بقبته. واستطاع جيش معاوية تمزيق التنظيم القتالي لجيش علي. وأسرع عليٌّ، فأعاد تنظيم قواته، ودفع بهم بهجوم حاسم وصل إلى قلب معسكر معاوية. ثم قام أنصار معاوية بهجوم مضاد أعادوا قوات علي إلى مواقعها. ووصل عبد الله بن بديل مع قوة من أنصار علي، فمضى نحو معاوية وحوله كأمثال الجبال وفي يده سيفان وقد خرج فهو أمام أصحابه، فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله، حتى قتل سبعة. ودنا عبد الله من معاوية، فنهض إليه الناس من كلِّ جانب، وأُحيط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتى قُتل، وقُتل عدد كبير من أصحابه.

وقاد الأشتر مالك بن الحارث ـ أحد قتلة عثمان ـ هجوماً قوياً وصل به إلى معسكر معاوية ومزَّق الصفوف، فألحقها بالصفوف الخمسة المعقلين بالعمائم والمحيطين بمعاوية، ثم تابع تقدُّمه حتى مزق الصفوف الأربعة المحيطة بمعاوية ولم يبق سوى صف واحد، ففكر معاوية في الانتقال من موقعه، ولكنه تذكر قول أعرابية من بلقين:

أبت لي عفتي وحياء نفسي ... وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

---

(١) وعرف كعب بن جعيل التغلبي ما ستكون عليه معركة اليوم الثامن من القتال، فقال:

أصبحت الأُمة في أمر عجب ... والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب

وقولي كلما جشأت وجاشت رويدك تُحمدي أو تستريحي

وأعاد معاوية تنظيم قواته، ودفع الفرسان فدمَّروا قوات الأشتر وأرغموه على الانسحاب. وقُتل في هذا اليوم أفضل أصحاب علي، في طليعتهم عمار بن ياسر، وتردَّد بين المقاتلين حديث الرسول ﷺ، وهو يخاطب عمار بقوله: **(وأنت ويحك! تقتلك الفئة الباغية)**. وأسرع عمرو بن العاص إلى معاوية ما يردِّده الناس، وهو وَجِل، فقال له معاوية: «**إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدِّث بالحديث وأنت تدحض في بولك، أوَنحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عمّاراً مَن جاء به**». فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: «إنما قتل عمّاراً مَن جاء به».

هبط الليل ولم يتوقف القتال «ليلة الهرير»، وتكسَّرت الرماح، وفرغت النبل ولم يبق إلا السيوف، وطلع الفجر وقد غطت جثث الشهداء أرض صفين، وتمزقت قوات علي حتى لم يبق منها إلا مجموعات متناثرة. ونجح الأشتر بإعادة تنظيم القوات، وزحف بها حتى وصل إلى حدود معسكر معاوية، حيث اقتتل الطرفان قتالاً شديداً. وشعر عمرو بن العاص أن قوات الطرفين قد استُنزفت تماماً، فأشار على معاوية بالتحكيم، ورُفعت المصاحف. وقبل بعض أنصار عليٍّ التحكيم، ورفض بعضهم قبوله، وحدث شقاق؛ مما اضطرَّ أمير المؤمنين علي أن يقبل التحكيم على غير رغبةٍ منه أو رضى.

وقع بعض الأسرى من أنصار معاوية في قبضة علي بن أبي طالب، ووقع مثلهم من أنصار علي في قبضة معاوية، وحاول أنصار معاوية وفي طليعتهم عمرو بن العاص إغراء معاوية بقتل الأسرى، فرفض قتلهم. وبينما هم على ذلك حضر أسرى معاوية بعد أن أخلى علي سبيلهم، فقال معاوية: «يا عمرو! لو أطعناك في هؤلاء الأسرى وقعنا في قبيحٍ من الأمر، ألا ترى قد خُلِّي سبيل أسارانا». وأمر بتخلية سبيل مَن في يديه من الأسارى

بعث علي أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثي، وبعث معهم عبد الله بن عباس، وهو يصلي بهم ويلي أُمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم. وبعث عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام حتى توافَوْا بدُومة الجندل بـ«أذرح». فكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما رجع به، ولا يسأله أهل الشام عن شيء. وإذا جاء رسول علي جاءوا إلى ابن عباس فسألوه: «ما كتب به إليك أمير المؤمنين؟» فإن كتمهم ظنوا به

الظنون، فقالوا: «ما نراه كتب إلا بكذا وكذا». فقال ابن عباس: «أما تعقلون! أما ترَوْن رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به، ويرجع لا يعلم ما رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ، وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون».

وعندما انتهى معاوية من صفين، ووجه الجهد إلى التحكيم؛ جمع قادته وقال لهم: «أما بعد، فقد رأيتم كيف صنع الله بكم في حربكم وعدوِّكم، جاءوكم وهم لا يرون إلا أنهم سيقيضون بيضتكم، ويخربون بلادكم، ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم، فردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا، وحاكمناهم إلى الله، فحكم لنا عليهم، ثم جمع لنا كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء متفرقين، يشهد بعضهم على بعض بالكفر، ويسفك بعضهم دم بعض، والله إني لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر».

ووجه معاوية جيشاً لفتح مصر، وأوصى قائده عمرو بن العاص بقوله: «أُوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق، فإنه يُمن، وبالمهل والتؤدة فإن العجلة من الشيطان، وبأن تقبل ممن أقبل، وأن تعفو عمَّن أدبر، فإن قبل فَبِها ونعمت، وإن أبى فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ في الحجة، وأحسن في العاقبة، وادعُ الناس إلى الصلح والجماعة، فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثر الناس عندك، وكلَّ الناس فأَولِ حُسناً».

لقد حاول أمير المؤمنين علي ﷺ إنفاذ جيش إلى مصر لدعم واليه فيها، محمد بن أبي بكر، ولكن الأحداث تسارعت، وأفاد عمرو بن العاص من عاملي المبادأة والمباغتة، وأمكن له الاستيلاء على مصر. ولكن الموقف لم يتوقف عند هذا الحدِّ، ففي سنة (٣٩هـ)، وجَّه معاوية مجموعات من قوّاته للإغارة على المناطق التي كانت تحت سيطرة أمير المؤمنين علي، على النحو التالي:

١ ـ وجَّه قوة من ألفي رجل بقيادة النعمان بن بشير؛ للإغارة على عين التمر.

٢ ـ وجَّه قوة من ستة آلاف رجل بقيادة سفيان بن عوف بمهمة الإغارة على هيث والأنبار والمدائن.

٣ ـ ووجه قوة من ألف وسبعمائة رجل بقيادة عبد الله بن مسعدة الفزاري، بمهمة الإغارة على تيماء.

٤ ـ كما وجَّه قوة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة الضحاك بن قيس؛ للإغارة على أسفل واقصة، حتى ينتهي بتدمر.

٥ ـ وسار معاوية بنفسه إلى دجلة حتى شارفها، ثم نكص راجعاً.

وفي هذه السنة ذاتها، بعث علي أميراً للحج هو عبيد الله بن عباس، فبعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي ليقيم للناس الحج، فلما اجتمعا بمكة تنازعا، وأبى كل واحد منهما أن يسلم لصاحبه، فاصطلحا على شيبة بن عثمان بن أبي طلحة.

انتهت هذه الأعمال بسيطرة معاوية على أكثر أقاليم العالم الإسلامي، وبقي العراق والحجاز تحت سيطرة علي، فوجَّه معاوية في سنة (٤٠هـ) قوة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة بُسْر بن أرطاة، **وذلك بمهمة السيطرة على الحجاز ونزع بيعة أهلها لعلي، وإرغامهم على مبايعة معاوية**. وتوجه بسر بن أرطاة ـ وهو رجل من بني عامر بن لؤي ـ إلى المدينة، فهرب عامل علي على المدينة يومئذ، أبو أيوب الأنصاري، فأتى علياً بالكوفة. ودخل بسر المدينة المنورة، فصعد منبرها ولم يقاتله بها أحد، فنادى على المنبر: «يا دينار! ويا نجار! ويا زريق!... شيخي شيخي! عهدي به بالأمس، فأين هو؟» ـ يعني: عثمان ـ ثم قال: «يا أهل المدينة! والله لولا ما عهد إليَّ معاوية ما تركت بها محتلماً إلا قتلته». ثم بايع أهل المدينة لمعاوية. وهدم بسر دوراً بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعري؛ أن يقتله، فقال له بسر: «ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك». فخلّى عنه.

ومضى بسر إلى اليمن، وكان عليها عبيد الله بن عباس، عاملاً لعلي، فلما بلغه مسيره فرَّ إلى الكوفة حتى أتى علياً. واستخلف عبد الله بن عبد المدان الحارثي على اليمن، فأتاه فقتله وقتل ابنه. ولقي بسر عبد الرحمٰن وقثم، ابنَيْ عبيد الله بن عباس، عند رجل يقال له: الكناني، فقال الكناني لبسر: «علامَ تقتل هذين الصغيرين، ولا ذنب لهما؟ فإن كنت قاتلهما، فاقتلني». قال: «أفعل». فبدأ بالكناني فقتله ثم قتلهما. وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة كثيرة من شيعة علي باليمن.

وعلم علي بما يفعله بسر، فأرسل قوتين تضمُّ كل واحدة منهما ألفي مقاتل بقيادة جارية بن قدامة، ووهب بن مسعود، فمضيا وأعملا قتلاً بأنصار عثمان في اليمن والحجاز، وأرغموا أهل مكة والمدينة على بيعة علي من جديد.

كانت الاتصالات خلال هذه الفترة مستمرة بين علي ومعاوية، بهدف إيقاف الحرب بينهما. وفي النهاية، ولما لم يعطِ أحد الفريقين صاحبه الطاعة؛ كتب

معاوية إلى علي: «**أما إذا شئت فلك العراق ولِيَ الشام، وتكف السيف عن هذه الأُمة، ولا تهريق دماءً للمسلمين**»، ففعل، وتراضيا على ذلك.

وظهر في العالم الإسلامي نوع من الارتياح لهذه النتيجة على أمل عودة الاستقرار المفقود، ولكن هذا الاستقرار لم يستمر طويلاً، فقد اجتمع ابن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي، فتذاكروا أمر الناس، وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر ـ الخوارج ـ فترحموا عليهم، وقالوا: «ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً! إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد، وثأرنا بهم إخواننا». فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم علي بن أبي طالب»، وكان من أهل مصر. وقال البرك بن عبد الله: «أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان». وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص». فتعاهدوا وتواثقوا بالله، واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان. وكمن البرك بن عبد الله في تلك الليلة، فلما خرج معاوية ليصلي الغداة؛ شدَّ عليه بسيفه، فوقع السيف في إليته، فأُلقي عليه القبض، فقال: «إن عندي خبراً أُسرُّك به، فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك؟». قال: نعم. قال: «إن أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة». قال: «فلعله لم يقدر على ذلك!». قال: «**بلى، إن علياً يخرج ليس معه مَن يحرسه**». فأمر به معاوية، فقُتِل. وبعث معاوية إلى الساعدي، وكان طبيباً، فلما نظر إليه، قال: «إختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها، فإنَّ ضربتك مسمومة». فقال معاوية: «أما النار، فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد، فإن في يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني». فسقاه تلك الشربة فبرأ، ولم يولد له بعدها. **وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد.**

د ـ عام الجماعة وبناء الدولة الأُموية: ضربة مزدوجة حبكتها يد القدر لمصلحة معاوية، فقد خرج سالماً من مؤامرة (١٧) رمضان، وذهب ضحيتها أقوى خصوم معاوية، بعد يومين من إصابته بجرح قاتل. وباستشهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لم يبق في طريق معاوية سوى عقبات ثانوية، فبدأ معاوية في التعامل مع هذه العقبات بكفاءة.

١ ـ **التعامل مع الحسن** رضي الله عنه: عندما استشهد علي بايع الناس في العراق

الحسن، الذي خرج من الكوفة حتى نزل في المدائن، وبعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفاً من المقاتلين، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مَسْكِن. وعندما نزل الحسن في المدائن انتشرت شائعة بأن قيس بن سعد قد قُتل، فأسرع الناس إلى سرادق الحسن عليه السلام، فنهبوه حتى نازعوه بساطاً كان تحته، وأصيب الحسن بطعنة نالت منه، ولم تصب مقتله. وعرف الحسن أنه لا قِبَل له بمقاتلة معاوية بمثل هذا الجند، فكتب إلى معاوية يسأله الأمان، فأرسل إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، فقَدِما على الحسن بالمدائن، فأعطياه ما أراد، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف ـ نصف مليون ـ في أشياء اشترطها. ثم قام الحسن في أهل العراق، فقال: «يا أهل العراق! إنه سخَّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهاب متاعي». وخرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر من المدائن إلى الكوفة، فأقاموا فيها بعضاً من الوقت، وودَّعوا أنصارهم، وانصرفوا إلى المدينة.

٢ ـ **التعامل مع عبيد الله بن عباس**: عندما علم عبيد الله بن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذه لنفسه من الأمان؛ كتب إلى معاوية أيضاً يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي قد أصاب، فشرط ذلك له معاوية، وبعث إليه بقوة عظيمة من الفرسان يقودها عبد الله بن عامر، فخرج إليه عبيد الله ليلاً حتى لحق به، ونزل وترك جنده الذي هو عليهم؛ لا أمير لهم، فيهم قيس بن سعد.

٣ ـ **التعامل مع قيس بن سعد**: اجتمعت كلمة قادة شرطة الخميس[1] على قيس بن سعد، وبايعوه على الموت، وتعاهدوا، هو وهم، على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي عليه السلام، ولمن كان اتبعه على أموالهم ودمائهم، وما أصابوا في الفتنة، فخلص معاوية حتى فرغ من عبيد الله بن عباس والحسن إلى مكايدة رجل هو أهم الناس عنده مكايدة. وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد، يذكِّره الله ويقول: «**على طاعة مَن تقاتل، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟**»، فأبى قيس أن يلين له، حتى أرسل إليه معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله،

---

(١) **شرطة الخميس**: هو الجيش الذي نظمه علي ليضم المقاتلين من العرب بهدف القضاء على التمرد في أذربيجان، وكان هذا الجيش يضم أربعين ألف مقاتل من النظاميين، الذين يتقاضون رواتب شهرية، وواجبهم الغزو والجهاد. تاريخ الطبري ٥/١٥٨ ـ ١٦٦.

فقال: «اكتب في هذا السجل ما شئت، فهو لك!» وقال عمرو بن العاص لمعاوية: «لا تُعطِه هذا وقاتِله»، فقال معاوية: «**على رِسْلك! فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك! وإني والله لا أُقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدّاً**».

فلما بعث إليه معاوية بذلك السجل اشترط قيس فيه له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل معاوية في سجله ذلك شيئاً إلا أعطاه من مال.

٤ ـ **معاوية وزياد بن أبيه**: كان زياد بن أبيه والياً على فارس من قِبل أمير المؤمنين علي، وعندما استشهد علي بقي زياد في فارس، وتركه معاوية حتى تمَّت له بيعة الحسن وأنصاره، وبعد ذلك كتب معاوية إلى زياد: «إن في يديك مالاً من مال الله، وقد وليتَ ولاية فأَدِّ ما عندك من المال». فكتب زياد: «إنه لم يبق عندي شيء من المال، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه، واستودعت بعضه قوماً لنازلة إن نزلت، وحملتُ ما فَضَل إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه». فكتب إليه معاوية: «أن أقبل إليَّ ننظر فيما وُلِّيتَ، وجرى على يديك، فإنِ استقام بيننا أمرٌ فهو ذاك، وإلا رجعت إلى مأمنك». فلم يأتِه زياد، فأخذ والي الكوفة في تلك الفترة، «أي: بسر بن أرطاة»، بني زياد وحبسهم، وأرسل إلى زياد يهدده بقتل بنيه إن لم يستجب لطلب معاوية. ورفض زياد تهديد بسر، وتوسط «أبو بكرة» عند معاوية حتى أصدر أمره إلى بسر بإطلاق سراح بني زياد. وبقي زياد ممتنعاً في القلعة التي يقال لها قلعة زياد، في فارس.

ودخل المغيرة بن شعبة يوماً على معاوية، فوجده في ضيق وسأله: «ما ذاك يا أمير المؤمنين؟» قال معاوية: «**ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس، وامتناعه بها، فلم أنم ليلتي**».

فأراد المغيرة أن يطأطىء من زياد، فقال: «ما زياد هناك يا أمير المؤمنين». فقال معاوية: «بئس الوطْء العجْزُ، **داهية العرب** معه الأموال، متحصِّن بقلاع فارس، يدبر ويربص الحِيَل، ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد عليَّ الحرب خدعة». فقال المغيرة: «أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟». قال: «نعم، فائته وتلطف له».

وخرج المغيرة إلى زياد، وأقنعه بالخضوع لمعاوية ومبايعته. وقدم زياد إلى دمشق، فأحسن معاوية استقباله، وضمَّه إليه. ثم استأذن زياد في الخروج إلى

الكوفة بعد أن أصبح المغيرة بن شعبة والياً لها، فأذن له، وبقي زياد مستقراً في الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه. ولم تمض فترة حتى استلحق معاوية نسب زياد ابن سمية بأبيه، فأصبح اسمه زياد بن أبي سفيان، وقال معاوية في ذلك: «**أما والله لقد عَلِمَتْ العرب أني كنت أعزَّها في الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدني إلا عزّاً، وأني لم أتكثر بزياد من قلَّة، ولم أتعزز به من ذلَّة، ولكن عرفت حقاً له فوضعته موضعه**».

لقد كان دهاة العرب وذوو الرأي والمكيدة خمسة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل الخزاعي، وها هو زياد بن أبي سفيان ينضم إليهم، وكلهم أصبح تحت كنف معاوية وتحت قيادته؛ خاضعاً له، ومؤتمراً بأمره، **فبرهن معاوية بذلك أنه أدهى دهاة العرب**، وأقواهم مكيدة، وأرجحهم رأياً، وأوقدهم ذهناً، وأخصبهم خيالاً، وأبعدهم في النظر إلى الأُمور. **ولقد أخضع معاوية مَن أخضع بسيفه، وتألَّف قلوبَ مَن تألَّفهم بدهائه وكرمه**، وهيمن على مَن هو عاقلٌ بعقله، وجاء الحظ والصدفة لخدمته، فتجمَّعت كل العوامل لسيادته على العالم الإسلامي. وكان عليٌّ عليه السلام يدعى بالعراق أمير المؤمنين، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير، فلما قُتل علي دُعي معاوية أمير المؤمنين، وأُطلق على سنة (٤٠هـ) اسم «عام الجماعة». ولكن هل انتهت العقبات والصعاب، وأصبح طريق بناء الدولة خالياً من العوائق؟ لقد كان هناك الخوارج، وكانت هناك عمليات تنظيم الدولة، وكان هناك أيضاً درب الفتوح، وإخضاع العدوِّ الخطر في الشمال ممثلاً بالدولة البيزنطية، وكان على معاوية الانصراف لمعالجة كل هذه القضايا.

٥ ـ القضاء على الخوارج والثورات المضادَّة: جابهت معاوية ثورات كثيرة واضطرابات مثيرة تمكن من إخضاعها بأقل جهد ممكن، وكان لولاته وقادته دور كبير وحاسم في ذلك، فقد اعتمد معاوية في أعماله على أصحاب الكفاءة ممن عاهدوه وصدقوا معه في عهودهم، ولهذا كانت الحروب ضد الخوارج حروب دهاء وعقل مع إرادة صلبة لتوطيد دعائم الحكم وضمان الأمن والاستقرار بعد أن انتشر الاضطراب في كل مكان.

أ ـ ثورة الحرورية بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي (٤١هـ/ ٦٦١م): قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية للخمسمائة

التي كانت اعتزلت بشهرزور، مع فروة بن نوفل الأشجعي: «قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية، فجاهدوه». فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل، حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية قوة من فرسان أهل الشام، ولكن قوة الحرورية استطاعت تمزيق فرسان معاوية، فقال معاوية لأهل الكوفة: «لا أمان لكم والله عندي حتى تكفُّوا بوائقكم». فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج، فقاتلوهم. فقالت الخوارج لأهل الكوفة: «ويلكم! ما تبغون منّا؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا». قالوا: «لا والله حتى نقاتلكم». وكان فروة بن نوفل هو سيد قبيلة أشجع، فعملوا على عزله وتعيين رجل من طيء هو عبد الله بن أبي الحر، وانطلقوا لقتال الحرورية، فقاتلوهم وأبادوهم.

ب ـ ثورة حيان بن ظبيان السلمي (٤٢هـ/ ٦٦٢م:) كان حيان بن ظبيان السلمي أحد قادة الخوارج الذين حاربهم علي بعد التحكيم، ثم عفا عنهم. فخرج حيّان إلى الري في فارس مع أهله وعشيرته وأنصاره، وأقام فيها حتى بلغهم مقتل علي.

دعا حيان أصحابه، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وتحدث إليهم فقال: «أيها الإخوان من المسلمين! إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مراد قعد لقتل علي بن أبي طالب عند الفجر، وكمن له في المسجد، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه حتى أقام المقيم صلاة الصبح فشدَّ عليه فضرب رأسه بالسيف، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات». فقال سالم بن ربيعة العبسي: «لا يقطع الله يميناً علت قذاله بالسيف». وأخذ القوم يحمدون الله على قتله ﷺ ورضي الله عنه. ثم قال حيان لأصحابه: «إنه والله ما يبقى على الدهر باقٍ، وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم حتى تذيقة الموت، فيفارق الإخوان الصالحين، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة، ولم تزل ضارَّة لمن كانت له هماً وشجناً، فانصرفوا بنا رحمكم الله إلى مصرنا، فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا في القعود، وَوُلاتنا ظلمة وسنَّة الهدى متروكة وثأرنا الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم، ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نُقْتَل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة». فقالوا له: «كلنا

قائل ما ذكرت، وحامدٌ رأيك الذي رأيت، فرِدْ بنا المصر، فإنّا معك راضون بهداك وأمرك».

وأقبل حيان حتى نزل الكوفة، فلم يزل بها حتى قدم معاوية، وبعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحبَّ العافية، وأحسن في الناس السيرة، ولم يحاسب أهل الأهواء عن أهوائهم. وكان يؤتى فيقال له: «إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج»، فكان يردُّ عليهم بقوله: «قضى الله ألّا تـزالوا مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، فأمَّنه الناس».

أفاد الخوارج من الحرية التي أطلقها المغيرة، وظنوا فيه ضعفاً، فنظموا اتصالاتهم واجتمعوا عند حيان بن ظبيان، واتفقوا على قتال معاوية، وانتخبوا المستورد بن عُلفة التميمي لقيادتهم، وأخذوا في الاستعداد للحرب، وحدَّدوا موعد بدء الحرب ليكون غرَّة شهر شعبان من سنة ثلاث وأربعين للهجرة. ووصلت المعلومات إلى المغيرة عن تحرك الخوارج، وكلَّف المغيرة قائد شرطته قبيصة بن الدمون بإلقاء القبض عليهم، فقاد قبيصة قوة وباغت منـزل حيان، فوجد فيها نحواً من عشرين رجلاً، وأسرع هؤلاء إلى سيوفهم، فلم يجدوها؛ إذ عملت زوج حيان على إخفائها. واقتيد هؤلاء إلى المغيرة، فقال لهم: «ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين؟» فقالوا: «ما أردنا من ذلك شيئاً. وأما اجتماعنا في هذا المنـزل، فإن حيان بن ظبيان أقرأنا القرآن، فنحن نجتمع عنده في منزله، فنقرأ القرآن عليه». فقال المغيرة لقائد شرطته: «اذهبوا بهم إلى السجن»، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة.

جـ ـ ثورة المستورد بن علفة (٤٣هـ/٦٦٣م): علم المستورد بن علفة بأمر اعتقال حيان بن ظبيان السلمي، فخرج من الكوفة إلى الحيرة، وبعث إلى إخوانه، وكانوا يختلفون إليه ويتجهَّزون، فلما كثر تردد أصحابه إليه؛ قال لهم المستورد: «تحوَّلوا بنا عن هذا المكان، فإني لا آمن أن يُطَّلع عليكم».

وبلغ المغيرة بن شعبة أن الخوارج سيعلنون ثورتهم قريباً، فجمع الناس وحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أما بعد، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية، وأكف عنكم الأذى، وأني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم، فأما الحلماء الأتقياء، فلا. وأيم الله! لقد خشيت

ألا أجد بدّاً من أن يُصيب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل، فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم. وقد ذُكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر ـ الإقليم ـ بالشقاق والخلاف. وأيمُ الله! لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبَدْتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار». ثم جمع المغيرة رؤساء الناس، وقال لهم: «إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم، وقد قلت ما قد سمعتم، فليكفني كل من الرؤساء قومه، وإلا فالذي لا إلٰه غيره لأتحولنَّ عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون، فلا يَلُم لائم إلا نفسه وقد أعذر مَن أنذر، فناشدوهم الله والإسلام إلا دَلُوهم على مَن يرون أنه يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة». وأجمع أهل الكوفة على نفي كل مَن كان بينهم من الخوارج وتسليمهم للمغيرة. فبعث المستورد إلى أصحابه، فقال لهم: «اخرجوا من هذه القبيلة». فخرجوا متفرقين من أربعة أو خمسة أو عشرة حتى وصل عددهم إلى ثلاثمائة رجل، ثم ساروا إلى الصراة، فباتوا بها ليلة. وعلم المغيرة بخروجهم، فدعا رؤساء الناس فقال: «إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين ـ الأجل ـ وسوء الرأي، فمن ترون أبعث إليهم». فقام إليه عدي بن حاتم، فقال: «**كلنا لهم عدوٌّ، ولرأيهم مسفِهٌ وبطاعتك مستمسك، فأينا شئت سار إليهم**».

وجهَّز المغيرة قوة من ثلاثة آلاف مقاتل، وأسند قيادتهم إلى معقل بن قيس، وخرج ليودعه ويوصيه: «يا معقل بن قيس! إني قد بعثت معك فرسان أهل المصر؛ أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً، فسِرْ إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول في الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفُفْ عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم».

ومضى معقل بن قيس لمطاردة الخوارج حتى التقى بهم في المذار، ودارت معركة قاسية؛ قاتل فيها المستورد والخوارج قتالاً يائساً، وانتهت المعركة بإبادة الخوارج إبادة شبه كاملة. وقتل من جيش الكوفة عدد من المقاتلين بينهم قائد الجيش ذاته، معقل بن قيس، وأمكن القضاء على هذه الثورة قبل أن تتمكن من تنظيم قوتها، وقبل أن تتمكن من اكتساب أنصار لدعمها، أو حتى قبل أن تجد مَن يتعاطف معها.

د ـ خروج سهم والخطيم (٤٦هـ/ ٦٦٦م): عندما قدم زياد بن أبي سفيان والياً على الكوفة؛ خافه رئيسان من رؤساء الخوارج، هما: سهم بن غالب الهجيمي، ويزيد بن مالك الباهلي، المعروف بالخطيم، فخرج سهم إلى الأهواز، وأثار الفتنة، ثم رجع فاختفى وطلب الأمان، فلم يؤمِّنه زياد، وطلبه حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه. وأما الخطيم، فإن زياداً سيَّره إلى البحرين، ثم أذن له فقدم، فقال له: «الزم مصرك». وقال لمسلم بن عمرو: «اضمنه» فأبى، وقال: «إن بات عن بيته أعلمتُك». ثم أتاه مسلم، فقال: «لم يبت الخطيم الليلة في بيته»، فأمر به فقُتل، وأُلقي في باهلة.

هـ ـ خروج قريب وزحاف (٥٠هـ/ ٦٦٩م): أعلن اثنان من زعماء الخوارج عُرفا باسم قريب وزحاف[1]، الثورة في البصرة، وخرجا في سبعين رجلاً، وذلك في شهر رمضان، فأغاروا على قبيلة بني ضبيعة، وقتلوا رجلاً، ثم تفرَّقوا على المساجد، فخرج إليهم مَن يقاتلهم مِن أهل البصرة حتى أبادوهم. واشتدَّ أمر الحرورية بعد ذلك، وكان والي البصرة من قِبل زياد هو سمرة بن جندب، فأخذ في مطاردة الخوارج وقتل منهم ثمانية آلاف. وسأله زياد: «هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟» قال: «لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت أن أكون قد قتلت بريئاً».

و ـ حجر بن عدي، وآخر معاقل الثورة (٥١هـ/ ٦٧٠م): كان حجر بن عدي من أنصار علي المعروفين، وكان تقياً، له مكانته في قومه، فكان في ذلك ما يشفع له. وكان حجر كثيراً ما يستثير المغيرة بن شعبة والي الكوفة، فيقول له المغيرة: «يا حجر! لقد رُمي بسهمك؛ إذ كنت أنا الوالي عليك. يا حجر! ويحك! اتق السلطان، اتق غضبه وسطوته، فإن غضبة السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك كثيراً»، ثم يكفُّ عنه ويصفح.

ومات المغيرة، وجاء زياد بن أبي سفيان وصعد منبر الكوفة، فخطب وأطال الخطبة وأخَّر الصلاة، فقال له حجر بن عدي: «الصلاة!» فمضى في خطبته، ثم قال حجر ثانية: «الصلاة!» فمضى زياد في خطبته، فلما خشي حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحصا، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى زياد ذلك؛ نزل فصلّى بالناس، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في

(١) قريب الأزدي وزحاف الطائي، وهما ابنا خالة. ابن الأثير ٣/ ٢٢٩.

أمره وكثر عليه. وبعث زياد شرطته، فقاومه الناس، فجمع زياد أشراف الكوفة وقال لهم: «يا أهل الكوفة! أتشجون بيد وتأسون بأخرى؟ أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر! هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب ـ المجنون ـ أنتم معي وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر. هذا والله من دحسكم ـ تآمركم ـ وغشكم! والله لتظهر لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أوَدَكم وصعركم». فقالوا: «معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هاهنا رأي إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين. وكل ما ظننا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر، فمُرْنا به». قال زياد: «فليقم كل امرىء منكم إلى هذه الجماعة حول حجر، فليدع كل رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومَن يطيعه من عشيرته حتى تقيموا عنه كل مَن استطعتم أن تقيموه». ففعلوا ذلك، فلم يبق مع حجر إلا قليلٌ من أنصاره، واعتقله زياد، وأرسله إلى معاوية.

واجتمع قوم من كندة والسكون وناس من اليمن كثير بقيادة مالك بن هبيرة السكوني، فقال لهم مالك: «والله لنحن أغنى عن معاوية من معاوية عنّا، وإنا لنجد في قومه منه بدلاً، ولا يجد منا في الناس خلفاً؛ سيروا إلى هذا الرجل فلنخله من أيديهم». وأسرع مَن يخبر معاوية بخبرهم، فأسرع معاوية في قتل حجر وعدد من أصحابه. وعندما علم بذلك مالك؛ رجع حتى نزل في منزله، فأرسل إليه معاوية أن يأتيه، فأبى، فلما كان الليل بعث إليه بمائة ألف درهم، وقال له: «**إن أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفعك في ابن عمِّك إلا شفقة عليك وعلى أصحابك أن يعيدوا لكم حرباً أخرى**. وإن حجر بن عدي لو بقي لخشيت أن يكلفك وأصحابك الشخوص إليه، وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر». فقبلها وطابت نفسه، وأقبل إليه من غده في جموع قومه حتى دخل عليه ورضيَ عنه.

وعندما حج معاوية مرَّ بعائشة ـ رضوان الله عليها ـ فقالت له: «يا معاوية! أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟» قال: «**لست أنا قتلتهم، إنما قتلهم مَن شهد عليهم**».

الظاهرة الواضحة أن حجم القوات الثائرة قد أخذ في التناقص عاماً بعد عام منذ عام الجماعة، وكان لولاة معاوية دور حاسم في تحقيق الأمن والاستقرار. وكان زياد بن أبي سفيان أول من شدَّ أمر السلطان، وأكَّد

الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرَّد السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً، حتى أمِنَ الناس بعضهم بعضاً **حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تُغلق عليها بابها**، وساس الناس سياسة لم يُرَ مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدرَّ العطاء، وبنى مدينة الرق[1]. وتولى الجعد بن قيس النميري قيادة شرطة زياد، فطارد الفسّاق وكان يتتبعهم، وقيل له: «إن الطرق مخوفة»، فقال: «لا أعاني شيئاً سوى المصر ـ الإقليم ـ حتى أُهيمن عليه وأُصلحه، فإن غلبني الإقليم فغيره أشد غلبة». فلما ضبط الإقليم؛ انطلق لإصلاح ما وراءه فأحكمه وأصلحه، وكان يقول: «لو ضاع حبل بيني وبين خُراسان علمتُ مَن أخذه».

لقد كان لعمال معاوية دورٌ كبير في تحقيق استقرار كيان الدولة، ولكن يبقى الدور الأكبر هو دور معاوية الذي كان ينتقي من العمال أكثرهم كفاءة ويوجههم، ثم هو يعزلهم إذا ما شعر من أحدهم تقصيراً، مثل ما فعل مع والي البصرة عبد الله بن عامر، الذي عزله سنة (٤٤هـ)؛ وذلك لأن ابن عامر كان رجلاً ليناً كريماً، لا يأخذ على أيدي السفهاء، ففسدت بذلك البصرة أيام عمله؛ لا يعاقب في سلطانه، ولا يقطع لصاً.

ووفد ابن الكواء ـ واسمه عبد الله بن أُبي ـ على معاوية، فسأله عن الناس، فقال ابن الكواء: «لقد غلب على البصرة سفهاؤها، وعاملها ضعيف». فعزل معاوية ابن عامر، وبعث الحارث بن عبد الله الأزدي. وكان ولاة معاوية يعتمدون على الأكفاء من الرجال والصحابة تقليداً لما يفعله معاوية. فقد استعان زياد بعدَّة من أصحاب النبيِّ ﷺ، منهم: عمران بن الحصين الخزاعي، والحكم بن عمرو الغفاري، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمٰن بن سمرة، وعبد الله بن فضالة الليثي، ثم أخوه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى الحرَشي.

---

(١) **مدينة الرق**، وفي ياقوت: الرزق، وهي إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يختطها المسلمون.

٦ ـ معاوية... ومتابعة الفتوح

مزَّقت الحروب الأهلية قوة المسلمين، وأضعفتهم؛ ممّا أطمع الأعداء بهم، «فزحف قيصر الروم في جموع كثيرة وخلق عظيم على بلاد الشام، فخاف معاوية أن يشغله ذلك عما يحتاج إلى تدبيره وإحكامه، فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار، فكان معاوية أول مَن صالح الروم، فلما استقام الأمر له أغزى أُمراء الشام على الصوائف، فسبوا في بلاد الروم سنة بعد سنة، فطلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال، فلم يُجبه معاوية إلى طلبه»[1].

لقد كانت سياسة معاوية ثابتة وراسخة وواحدة في مجال السياسة الداخلية، وفي مجال السياسة الخارجية، في الحروب مع الأعداء، وفي الحروب الأهلية، **وتتلخص هذه السياسة بالتعامل مع الأُمور كلها وفق مخطط دقيق ومحكم وبعيد المدى لا يتأثر بالانفعال أو المرحلية** أو ردود الفعل قدر التزامه بمبادىء. فالحرب ضد الأعداء هي الواجب الأول، ولئن اقتضت الظروف المهادنة، مرحلياً، فإن ذلك لا يعني الخروج عن المبدأ الذي حدَّده الإسلام، وهو الجهاد ضد أعداء الدين. وانطلاقاً من هذا المبدأ، فقد أخذ معاوية بتصعيد الأعمال القتالية وتطوير أعمال الفتوح، في البر والبحر وعلى كافة الجبهات؛ وذلك منذ أن استتب له الأمر في عام الجماعة، وقد ظهر ذلك من خلال عرض أعمال معاوية البحرية، وتنظيم حماية الثغور (الهجمات الإجهاضية المسبقة)، ويمكن بعد ذلك متابعة أعمال الفتوح وفقاً للتسلسل الزمني. وقد تظهر هذه الأعمال بطريقة وجيزة جداً، حسب مقتضيات البحث هنا؛ إلّا أن الصورة الشاملة ستبقى بارزة وواضحة.

ففي سنة (٤١هـ/ ٦٦١م) ولّى معاوية عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان، وكان أهل باذغيس وهراة وبوشنج قد نكثوا، فوجَّه إليهم عبد الله بن عامر قائد شرطته، وهو قيس بن الهيثم السلمي، إلى بلخ، فأخرب نوبهارها وافتتح مدينة هراة، واتخذ قناطر (جسور) على ثلاثة أنهار

(١) اليعقوبي ٢/ ١٩٣.

من بلخ. ثم إن أهل بلخ سألوا الصلح وأظهروا الطاعة، فصالحهم قيس، وكذلك فعل أهل هراة وباذغيس وبوشنج. وفي السنة التالية (٤٢هـ) غزا المسلمون اللان، وغزوا أيضاً الروم، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم[١]. وفي سنة (٤٣هـ) غزا بسر بن أرطاة الروم وشتى بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية[٢]. وعلى جبهة أفريقية انصرف عقبة بن نافع، الذي كان عمرو بن العاص قد عينه لولاية أفريقية، فمضى يفتح أقاليمها، وغزا «لواتة» و«مزاتة» من القبائل الأفريقية، فأطاعوا، ثم كفروا، فغزاهم ثم افتتح «غدامس»، وفتح أقاليم السودان، كما افتتح «ودان» التابعة لبرقة. وعاد عبد الله بن عامر لاستئناف فتوح الشرق، فعيَّن عبد الرحمٰن بن سمرة على سجستان. وتوجه عبد الرحمٰن إلى «سجستان»، فكان يغزو البلد بعد كفر أهله، فيفتحه حتى بلغ «كابل»، فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة، فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح، فلم يقدروا على سدِّها، وخرجوا من الغد يقاتلون، فهزمهم المسلمون ودخلوا البلاد عنوة. ثم سار إلى «بست» ففتحها عنوة، وسار إلى «زران»، فهرب أهلها وغاب عليها، ثم سار إلى «خشك» فصالحه أهلها، ثم أتى «الرخج» فقاتلوه فظفر بهم وفتحها، ثم سار إلى «زابلستان»، وهي «غزنة» وأعمالها، فقاتله أهلها، وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد إلى كابل، وقد نكث أهلها ففتحها.

واستعمل معاوية على ثغر السند عبد الله بن سوار العبدي، فغزا «القيقان»، فأصاب مغنماً ووفد على معاوية وأهدى له خيلاً قيقانية، ورجع فغزا القيقان، فاستنجدوا بالترك فقتلوه. **وفي سنة (٤٤هـ) غزا المهلب بن أبي صفرة** أول غزواته في ثغر السند، فأتى «بنة» و«الأهواز»، وهما بين «الملتان» و«كابل»، فلقيه العدو وقاتله، وسار إلى «قندابيل» وهي مدينة في السند، فقاتل العدوَّ وألحق به الهزيمة، وغنم مغانم عظيمة.

---

(١) ومات في أرمينيا حبيب بن مسلمة الفهري، وكان أميراً لمعاوية عليها. وكان قد شهد معه حروبه كلها، فخسر معاوية سيفاً من أفضل سيوفه وأقواها.

(٢) وفي هذه السنة أيضاً مات عمرو بن العاص في مصر، بعد أن عين ابن خاله عقبة بن نافع لفتح أفريقيا.

مسرح عمليات معاوية بعد عام الجماعة

وفي سنة (٤٦هـ)، وعلى جبهة الشمال مع الروم؛ قاد مالك بن عبد الله الشاتية، وأقام في بلاد الروم. وقاد عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد والي حمص قوة شاتية أخرى، وقاتل الروم، وعاد غانماً، وعندما وصل إلى حمص شرب شربة مسمومة دسَّها له ابن أثال النصراني بعلمٍ من معاوية فيما يُذكر، فجاء خالد بن عبد الرحمٰن فقتل ابن أثال.

وفي سنة (٤٧هـ) قاد مالك بن هبيرة قوة الشاتية، فغزا بلاد الروم، وشتى عبد الرحمٰن القيني بأنطاكية. وفي الشرق سار الحكم بن عمرو الغفاري إلى جبال الغور، فغزا مَن بها، وكانوا قد ارتدّوا، فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها، وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا، وفتح «فراوندة» أيضاً. وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بن عمرو، وغزا معه بعض جبال الترك، فغنموا، وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق، وتعرض المجاهدون لمأزق صعب، فتولى المهلب مجابهة الموقف، ووضع خطَّة خداعية حتى نجح في أسر عظيم من عظماء الترك، فقال له: «إما أن تُخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنَّك»، فقال له: «أُوقد النار على طريقٍ من هذه الطرق، وسيِّر الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرْهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه». ففعل ذلك، فسلم الناس بما معهم من الغنائم.

وفي سنة (٤٨هـ) كان مشتى عبد الرحمٰن القيني بأنطاكية، وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري وغزوة مالك بن هبيرة السكوني في البحر، وغزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر والمونية في البحر، وقد كان النصر حليفاً لهذه الغزوات كلها.

وفي سنة (٤٩هـ) قاد مالك بن هبيرة الشاتية، فغزا بلاد الروم، كما قاد فضالة بن عبيد جزيرة «جربة» قرب تونس، وفتحها وقضى فيها فصل الشتاء. وقاد عبد الله بن كرز البجلي قوة الصائفة، فغزا بلاد الروم. وفيها أيضاً حدثت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر، فشتى بأهل الشام. وكانت فيها غزوة عقبة بن نافع في البحر، فشتى بأهلها. وكانت أكبر غزوات هذه السنة غزوة يزيد بن معاوية للروم في حصار القسطنطينية.

لقد تطلبت هذه الغزوات على كل الجبهات حشد كل القوى المتوفرة تقريباً، ولهذا فقد تمَّ في السنتين التاليتين تقنين أعمال الغزو. فتم في سنة (٥٠هـ) غزو بلاد الروم غزوتين؛ قاد الغزوة الأولى بسر بن أرطاة، وقاد الثانية سفيان بن

عوف الأزدي، كما قاد فضالة بن عبيد الأنصاري غزوة بحرية. وفي سنة (٥١هـ) قاد «فضالة بن عبيد» غزوة الشاتية، فأوغل في بلاد الروم، وقاد بسر بن أرطاة قوة الصائفة.

ثم تابع معاوية توجيه الغزوات على مثل هذا التواتر حتى نهاية حياته، ففتح أقاليم كثيرة، ووطّد دعائم الدولة، وقمع أعمال العصيان والتمرد في الأقاليم المفتوحة، واكتسبت الدولة هيبة عظمى، في الداخل والخارج.

٧ ـ من الإمارة إلى المُلك

معاوية مَلك العرب... ويدخل سعد بن أبي وقاص على معاوية وقد بايعه الناس أميراً للمسلمين، فيقول له: «السلام عليك أيها الملك»، فيضحك معاوية ويقول لسعد: «**ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت: يا أمير المؤمنين؟**»[١].

لقد كان لقب أمير المؤمنين يعني التكليف، وكان لقب الملك يعني التشريف والسيادة، وكان معاوية يعرف يقيناً قيمة أن يصبح أميراً للمؤمنين، وكان من المحال الوصول إلى هذه المكانة بوجود علي رضي الله عنه، ولهذا فقد أسرع لحمل هذا اللقب بمجرد استشهاد علي. ولكن معاوية كان يطمح أيضاً للظهور بمظهر الملوك، وقد أخذ في الإعداد لذلك منذ تولّى ولاية الشام في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فكان يجمع في ذلك مضمون إمارة المؤمنين في عقيدتها وتشريعها وإدارتها مع ظاهر الملك في أبهته وتقاليده، وليس من الغريب بعد ذلك أن يُطلق على معاوية «**أنه آخر الخلفاء الراشدين وأول ملوك المسلمين**». وكان معاوية مجتهداً، أدرك ما يتطلبه بناء الدولة، وهي تجمع بين مضمون إمارة المسلمين وظاهرة الملك، فكان أول مَن وضع أساس الإدارة المتقدمة للدولة الإسلامية الموحدة، وكانت اجتهاداته كثيرة وشاملة، ومنها «أنه أول من نظم الشرطة، وعيَّن لها قائداً مسؤولاً يدير لها أمورها ويحدد لها واجباتها ومسؤولياتها، وكان له كاتب خاص وحرس خاص وحجَّاب خاصون، وكان له قضاة يقضون بين الناس، وكان أول مَن اتخذ ديوان الخاتم وحزم الكتب، ولم تكن تُحزم من قبل، وأول من اتخذ المقصورة بالجامع، وأول مَن استخلف بالبيعة، **وأول مَن بايع لولده**، وأول مَن وضع البريد»[٢]. وكان ولاة معاوية

---

(١) ابن الأثير ٣/ ٢٠٥.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٤، وأبو الفداء ١/ ١٨٩.

يقتدون به، وينفذون تعليماته بدقة، فظهر التنظيم الشامل للدولة.

أخذ البيعة ليزيد: في سنة (٥٦هـ/ ٦٧٥م) نظر معاوية حوله، فرأى أن كل رفاقه في الدرب قد مضوا إلى خالقهم، ونظر في نفسه فوجدها تقترب من نهايتها، ونظر فيما انتهت إليه الدولة الإسلامية، فوجد الاستقرار ووجد الأمن، ونظر في ولاته فوجد فيهم الطاعة، فأخذ في التمهيد لضمان البيعة لابنه يزيد.

وتظهر طريقة معاوية في البيعة أسلوبه الحقيقي في معالجة أُموره كلها، ولهذا، فقد يكون من المناسب عَرضها ببعض من التفصيل وبحسب ما وردت في المصادر التاريخية[1]:

أراد معاوية عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وتعيين سعيد بن العاص لولايتها، فبلغ ذلك المغيرة، فقال: «الرأي أن أشخص إلى معاوية، فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية». فسار إلى معاوية وقال لأصحابه: «إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً». ومضى حتى دخل على يزيد، وقال له: «إنه قد ذهب أعيان النبي صلّى الله عليه وسلم وآله، وكبراء قريش، وذوو أسنانهم وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟». قال: «أوَترى ذلك يتمُّ؟» قال: «نعم». فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له: «ما يقول يزيد؟» فقال: «يا أمير المؤمنين! قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، **وفي يزيد منك خلف، فاعقد له**، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك، ولا تُسْفَك دماء ولا تكون فتنة». قال: «ومَن لي بهذا؟» قال: «أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك». قال: «فارجع إلى عملك وتحدث مع مَن تثق إليه في ذلك وترى ونرى». فودَّعه ورحل إلى أصحابه في الكوفة، وذاكر مَن يثق إليه ومَن يعلم أنه شيعة لبني أُمية أو يزيد، فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة. وقدموا على معاوية، فزيَّنوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها، فقال معاوية: «**لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم وسننظر ما قدمتم له، ويقضي الله ما أراده، والأناة خير من العجلة**». فرجعوا.

---

(١) في الطبري وابن الأثير، أحداث سنة (٥٦هـ): بيعة يزيد بولاية العهد.

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى أمير المدينة المنورة مروان بن الحكم، وكان في رسالته: «إني قد كبرت سنّي، ودق عظمي، وخشيت الاختلاف على الأُمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم مَن يقوم بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردُّون عليك». فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: «أصاب ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا، فلا يألو». فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: «إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده». **فقام عبد الرحمٰن بن أبي بكر، فقال: «كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخيار أردتما لأُمة محمد، ولكنك تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل»**. وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمرو بن الزبير، فكتب مروان بذلك إلى معاوية. وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية: «إن كل راع مسؤول عن رعيته فانظر مَن تولي أمر أُمة محمد». فبوغت معاوية حتى أصبح يتنفس بصعوبة، ثم أحسن إليه وصرفه. وأمر معاوية بالوفود، فاجتمعت عنده، وقال للضحاك بن قيس الفهري: «إني متكلم، فإذا سكتُّ فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثُّني عليها». فلما جلس معاوية للناس تكلم، فعظَّم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقَّها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعمله بالسياسة وعرَّض ببيعته، فعارضه الضحاك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أمير المؤمنين! إنه لا بدَّ للناس من والٍ بعدك، وقد بلونا الجماعة والإلفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء، وآمن للسبل وخيراً في العاقبة، والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هدْيه وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً، فولِّه عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعاً نلجأ إليه ونسكن في ظله». وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك، **ثم قام يزيد بن المقنع العذري، فقال: «هذا أمير المؤمنين** ـ وأشار إلى معاوية ـ **فإن هلك فهذا** ـ وأشار إلى يزيد ـ **ومَن أبى فهذا** ـ وأشار إلى سيفه ـ». فقال معاوية: «اجلس فأنت سيد الخطباء». وتكلم مَن حضر من الوفود، فقال معاوية للأحنف بن قيس: «ما تقول يا أبا بحر؟»

فقال الأحنف: «**نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا**، وأنت أمير المؤمنين، أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسرِّه وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأُمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا». وقام رجل من أهل الشام، فقال: «ما ندري ما تقول هذه المعدية العراقية، وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف». فتفرق الناس يحكون قول الأحنف.

وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه. فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس، فلما نظر إليه قال: «**لا مرحباً ولا أهلاً بدنة يترقرق دمها والله مهريقه**». قال الحسين: «مهلاً، فإني والله لست بأهل لهذه المقالة». قال له معاوية: «بلى ولشرٍّ منها». ولقيه ابن الزبير فقال معاوية: «**لا مرحباً ولا أهلاً، خب ضب تلعة، يدخل رأسه ويضرب بذنبه، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه، ويدق ظهره**». وقال لمرافقيه: «نحِّياه وأبعداه عني». فضرب وجه راحلته، ثم لقيه عبد الرحمٰن بن أبي بكر، فقال له معاوية: «**لا أهلاً ولا مرحباً، شيخ قد خرف وذهب عقله**» ثم أمر فضرب وجه راحلته، ثم فعل بابن عمر نحو ذلك، فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم، حتى دخل المدينة، فحضروا بابه، فلم يؤذن لهم على منازلهم، ولم يروا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكَّة، فأقاموا بها.

وخطب معاوية بالمدينة، فذكر يزيد فمدحه، وقال: «مَن أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه؟ وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتثُّ أُصولهم، وقد أنذرت إن أغنت النذر». ثم أنشد متمثلاً:

قد كنت حذرتك آل المصطلق ... وقلت يا عمرو أطعني وانطلقْ
إنك إن كلفتني ما لم أطق ... ساءك ما سرك مني من خُلُقْ
دونك ما استسقيته فأحس وذقْ

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه، فقال: «لأقتلنهم إن لم يبايعوا». فشكاهم إليها، فوعظته وقالت له: «بلغني أنك تتهددهم بالقتل». فقال: «يا أُم المؤمنين! هم أعزُّ من ذلك، ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم، أفترين أن أنقض بيعة قد تمَّت؟» قالت: «فارفق بهم، فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله». قال معاوية: «أفعل». وكان في قولها له: «**ما يؤمنك أن**

أقعد لك رجلاً يقتلك، وقد فعلت بأخي ما فعلت» ـ تعني: أخاها محمداً الذي قُتل عندما فتح عمرو بن العاص مصر ـ فقال لها: «كلا يا أُم المؤمنين، إني في بيت آمن». قالت: «أجل».

ومكث معاوية في المدينة فترة من الزمن ثم خرج إلى مكة، فلقيه الناس. فقال أولئك النفر: «نتلقاه فلعله قد ندم على ما كان منه». فلقوه ببطن مرٍّ الظهران، فكان أول مَن لقيه الحسين، فقال له معاوية: «**مرحباً وأهلاً يا ابن رسول الله، وسيد شباب المسلمين**». فأمر له بدابة فركب وسايره. ثم فعل بالباقين مثل ذلك، وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكّة، فكانوا أول داخل وآخر خارج، ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة، ولا يذكر لهم شيئاً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره، فأرسل إلى الحسين بن علي، فقال: «**يا بن أخي! قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم. يا بن أخي! فما إربك إلى الخلاف؟**». قال: «أنا أقودهم!» قال: «نعم أنت تقودهم». قال: «فأرسل إليهم، فإن بايعوا كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت عليَّ بأمر». قال: «وتفعل؟» قال: «نعم». قال: فأخذ عليه ألا يخبر بحديثهم أحداً. ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير، فقال له: «قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم. يا بن أخي! فما إربك من الخلاف؟» قال: «أنا أقودهم!» قال: «نعم أنت تقودهم». قال: «فأرسل إليهم، فإن بايعوا كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت عليَّ بأمر». قال: «وتفعل؟» قال: «نعم». قال: فأخذ عليه ألّا يخبر بحديثهم أحداً. قال: «يا أمير المؤمنين! نحن في حرم الله ﷻ، وعهد الله سبحانه ثقيل». فأبى عليه وخرج.

ثم أرسل معاوية إلى ابن عمر، فكلَّمه بكلام هو ألْيَن من كلام صاحبه، فقال: «**إني كرهت أن أدع أُمة محمد من بعدي كالضأن لا راعي لها**، وقد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم، فما إربك إلى الخلاف؟»، قال: «هل لك في أمر يُذهب الذمَّ، ويحقن الدم وتدرك به حاجتك؟» قال: «وددت!» قال ابن عمر: «تبرز سريرك، ثم أجيء فأبايعك على أني أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأُمة، **فوالله لو أن الأُمة اجتمعت بعدك على عبدٍ حبشي لدخلت فيما تدخل فيه الأُمة**». قال معاوية: «وتفعل؟» قال: «نعم».

واجتمع هؤلاء، فقال بعضهم لبعض: «لا تُخدعوا، فما صنع بكم هذا لحبكم، وما صنعه إلا لما يريد، فأعدوا له جواباً»، فاتفقوا على أن يكون

المخاطب له ابن الزبير. فأحضرهم معاوية وقال لهم: «قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمِّكم، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤَمرون وتجبون المال، وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك». فسكتوا. فقال: «ألا تجيبون؟» مرتين، ثم أقبل على ابن الزبير فقال: «هات، لعمري إنك خطيبهم». فقال: «نعم، نخيرك بين ثلاث خصال». قال: «اعرضهن». قال: «تصنع كما صنع رسول الله ﷺ، ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس «أبو بكر»». قال: «ليس فيكم مثل «أبو بكر»، وأخاف الاختلاف». قالوا: «صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه». قال معاوية: «هل عندك غير هذا؟» قال: «لا». ثم قال: «فأنتم؟» قالوا: «مثل قوله». فقال معاوية: «فإني قد أحببت أن أتقدَّم إليكم إنه قد أُعذر مَن أنذر. إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقالة فأُقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه». ثم دعا قائد حرسه بحضرتهم، فقال: «أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، **فإن ذهب رجل منهم يردُّ عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفهما**». ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم، ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله». فبايع الناس، وكانوا يتربَّصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة.

٨ ـ معاوية... وما قبل الرحيل

عاد معاوية إلى قاعدته القوية والمأمونة في الشام... لقد أنجز كل ما يجب عليه إنجازه. استقرَّت الدولة، وأصبحت أعمال الفتوح في المشرق والمغرب تتطور بنجاح. أما على جبهة الشمال، فقد أصبحت غزوات الصوائف والشواتي رتيبة منتظمة يضطلع بأعبائها والي حمص. وفي البحر، أصبح أسطول الشام قوياً ولم يعد هناك ما يخشاه أو يخافه. ولكن معاوية لا يركن إلى ذلك كله،

وإنما يتابع عن قرب كل ما يحدث، وهو بعد ذلك لا ينسى محاولات الروم المستمرة للعدوان، فليحاصر عاصمتهم وليدمر أقاليمهم، ويوجه حملاته البرية والبحرية في اتجاه القسطنطينية. وفي الداخل، لم يعد هناك ما يخشاه معاوية، فقد دان العرب، كل العرب، له بالطاعة، ولم تعد هناك مركز للقوى ـ بحسب التعبير الحديث ـ قد تهدده، ولكن ما هؤلاء الخوارج؟ إنهم رغم تجريدهم من كل قدراتهم، فلا زالوا يوجهون إليه التحديات بقوات ممزَّقة أقلها بعض أفراد أو عشرات الأفراد، وأكثرها مئات الأفراد. ورغم أن قمع هذه القوات التي تثير الاضطراب في إقليم العراق هو من واجب ولاته، الذين برهنوا على كفاءة عالية في قمع الشغب، إلا أنه لا يستطيع إغماض طرفه عنهم، فهو قد آلى، على نفسه، ألا يغادر الدنيا إلا بعد أن يوطد دعائم دولة ثابتة البنيان، راسخة الجذور.

وتمضي السنوات الأخيرة متسارعة، ويبلغ معاوية مدى الأجل، ويصيبه وهن الشيخوخة، فيطلب معاوية من أهله، تزيينه حتى كأنه في قوته وشبابه، ويجلس فيأذن للناس بالدخول عليه، وسمح لهم بأن يسلموا عليه قياماً، ولا يجلس أحد. وتمضي الأرتال وهي تنظر إلى معاوية في ساعاته الأخيرة، فترفع إليه تحياتها ويردُّ على التحيات بوقاره المعهود. ويخرج الناس، ويتمثل معاوية قول الشاعر:

وتجلدي للشامتين أُريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنيَّة أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

ويرى معاوية باب الآخرة وهو ينتظر قدومه، فيخاطب ربَّه:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذاباً لا طوق لي بالعذابِ
أو تجاوز فأنت رب صفوح ... عن مسيء ذنوبه كالترابِ

وتجزع ابنة معاوية، واسمها رملة، فتضع رأس أبيها في حجرها، ويصحو معاوية فيخاطبها مودعاً:

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب ... وقد كفيتكم التطواف والرحلا

ويوصي معاوية أهله وصيته الأخيرة:

«**إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فحفظته، وقلَّم أظفاره يوماً فجعلتها في قارورة، فإذا متُّ فألبسوني ذلك القميص**، واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي، فعسى الله أن يرحمني ببركتها».

ثم تمثَّل بشعر الأشهب بن زميلة النهشلي:

إذا متُّ مات الجود وانقطع الندى من الناس إلا من قليل مصردِ
ورُدَّتْ أكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجددِ

وعرف معاوية أن هناك مَن يفرح لموته، فقال:

فهل من خالد إن ما هلكنا وهل بالموت يا للناس عارُ

ومات معاوية.

الفصل الثاني

معاوية بن أبي سفيان وفن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٣ ـ بناء المجتمع الجديد.

٤ ـ وضوح الهدف.

٥ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.

٧ ـ حماية المؤخرات.

معاوية بن أبي سفيان وفن الحرب

لا يمثل ما سبق ذكره من سيرة معاوية سوى قليل من كثير، وسوى قطرات من محيط. فمَن هو معاوية؟ وما هو؟.

إنه أكبر من كل تعريف. فلو قيل إنه خليفة، فقد تجاوز دور الخليفة. ولو قيل ملكٌ؛ لكان في ذلك أيضاً أكثر من تجاوز لدور الملك. ولو قيل: إنه قائد عسكري كبير، لظهر أن دور قيادته العسكرية محدَّد بأبعاد زمنية ومكانية تتناقص أهميتها عن كفاءته الحقيقية. ولو قيل: إنه قائد سياسي؛ لظهر أن ممارساته السياسية معتمدة على القوة العسكرية في جانبٍ منها. ومن هنا يظهر التعقيد الكبير والمميز لمنجزات معاوية وأعماله، وهي منجزات وأعمال تبقى أكبر من كل وصف وأكبر عمقاً واتساعاً من كل تعريف. **إنه معاوية، عَلَمٌ من أعلام الحرب والسياسة، والحكم والإدارة، إنه لعبة القدر وصانعه في وقتٍ واحد.**

إنه لعبة القدر، فقد جاء إلى الشام كقائد ثانوي من قادة الفتح فيها، ثم أخذ القدر في التمهيد لبروزه، فأزال له من طريقه مجموعة من القادة ما كان ليصل إلى موقعه لولا غيابهم، أبو عبيدة بن الجراح، خالد بن الوليد، يزيد بن أبي سفيان، وسواهم كثير. ترى ماذا كان يحدث لمعاوية لو وجَّهه الخليفة أبو بكر لجبهة العراق؟ أو لو عيَّنه والياً في اليمن أو في أيٍّ عمل آخر من أعمال المسلمين؟

لقد مضت على معاوية فترة عشرين عاماً تقريباً وهو والٍ على الشام قبل أن يبدأ بشقِّ طريقه نحو موقع القمة في مجتمع العرب المسلمين، فهل كانت كفاءة معاوية وحدها هي التي ساعدت على توحيد الشام تحت قيادته ليشكل قاعدته الصلبة والقوية؟ حتماً لا. لقد عمل القدر على مساعدته، وبعد ذلك ألم تكن نجاته من المؤامرة التي ذهبت بأقوى منافسيه في ليلة (١٧) رمضان هي ضربة قدر محكمة؟..

قد يكون من الصعب متابعة كل المواقف التي وقف فيها القدر ليعمل من أجل خدمة معاوية. لقد كان معاوية لعبة القدر، **ولكن معاوية لم يكن مجرد لعبة صماء، وإنما كان لعبة لها دورها. وكان معاوية يتفاعل مع قدره**، فكان له دوره الكبير أيضاً في صنع ما هو مقدَّر له، وتلك هي المسألة الصعبة في الخيار بين الجبرية والقدرية، ولكن لنتجاوز هذه الظاهرة حتى لا ندخل في المتاهات الفلسفية، ولننطلق إلى أعمال معاوية حيث تبرز منها الكفاءة الخاصة لمعاوية في صنع قدره، وفي صنع قدر الأُمة الإسلامية.

لقد برز معاوية في الفترة التي أخذت فيها المؤامرات والفتن تنتشر في كل مكان، وتكمن وراء هذه المؤامرات منظمات تعمل بتخطيط محكم ـ وهي أشبه ما تكون بعصابات المافيا واللوبي في العصر الحديث ـ ولم تكن فتنة الجمل، وموقعة صفين، وخروج الخوارج، ومحاولات اغتيال قادة المسلمين؛ سوى بعض ظواهر المؤامرة ضد الأُمة الإسلامية لتمزيقها وإضعافها من الداخل ثم الإجهاز عليها من الخارج. وكانت شبكات المافيا ـ إذا صح التعبير ـ تعمل من وراء ستار، فينقاد إليها نفر من الصحابة، وبعض من المخلصين الذين أذهلهم تطور العالم الإسلامي بمثل تلك السرعة، فباتوا عاجزين عن الإحاطة بالتطورات الجديدة. وأدرك معاوية ذلك كله، بفكره الثاقب، وبرؤيته الواضحة للأُمور، فركز جهده على الجبهتين، الخارجية والداخلية، وهما جبهة واحدة في الحقيقة، فعمل على تدمير القوى التي خرجت على إجماع المسلمين، وأضعف التهديدات الخارجية، فكان في ذلك استقرار دولة المسلمين، وكان في ذلك خير خلف لرسول الله ﷺ وللخلفاء الراشدين من بعده، وكان قدره هو قدر الأُمة الإسلامية، وكان قدر الأُمة الإسلامية في قدر معاوية، وهذا ما يُبرز الدور العظيم لابن أبي سفيان، خليفة الخلفاء وملك الملوك.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

لماذا كان معاوية هو أول مَن فكَّر ببناء القوة البحرية لإضعاف نفوذ الروم البيزنطيين؟ ولماذا توجَّه لاحتلال الجزر القريبة من سواحل الشام قبل أن يتوجه لحصار القسطنطينية؟

إن الإجابة على السؤالين المذكورين توضح أُسس السياسة الاستراتيجية التي وضعها معاوية، وتبرهن على وضوح استراتيجية الهجوم غير المباشر عند أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان.

لقد حاول المسلمون الوصول إلى عمق بلاد الروم بالهجمات الجبهية والتوغل عبر الدروب في كل صائفة وشاتية وعلى امتداد سنوات عديدة، ولكن هذه الهجمات الجبهية لم تحقق أهدافها الكاملة، فقد كان لدولة الروم عمق قاريٌّ كافٍ لاستنزاف قوة المسلمين وإضعافها قبل أن تصل إلى العاصمة البيزنطية، وكان لهذه العاصمة أيضاً اتصالها القاري البريِّ، واتصالها البحري مع ما وراء القسطنطينية من القارة الأوروبية، ولهذا عمل معاوية على بناء القوة البحرية حتى يستطيع الالتفاف حول القوات البرية، والوصول إلى الهدف بصورة مباشرة، وفي الوقت ذاته إضعاف قوة الروم البحرية وإعاقتها عن عملها في دعم صمود العاصمة البيزنطية. وكان على معاوية أن يسيطر على الجزر القريبة من ساحل الشام لحرمان البيزنطيين من مجالهم الحيوي البحري، تماماً كما كان انتزاع الشام وتحريرها بمثابة حرمان الامبراطورية البيزنطية من مجالها الحيوي البري. ويظهر من ذلك أن معاوية قد بنى استراتيجية الهجوم غير المباشر على ثلاثة معطيات، أو مرتكزات:

١ ـ إضعاف القدرة الاقتصادية للعدو بتدميره تدميراً منهجياً ومستمراً، واستنزاف تلك القدرة بحروب مستمرة يكون مسرحها فوق أرض العدوِّ ذاته.

٢ ـ إضعاف قدرة الصمود لدى العدوِّ عن طريق تحديد حرية عمله العسكري في البر والبحر.

٣ ـ إضعاف الروح المعنوية للعدو عن طريق إخضاعه المستمر لتهديدات الحرب وأخطارها.

لقد لخص معاوية أُسس استراتيجية الهجوم غير المباشر في عبارته المشهورة: «**شدّوا خناق الروم، فَبِها تضبطون بقية الأُمم**». وواضحٌ جداً أن تعبير «شدُّوا خناق الروم» إنما تعني الخنق؛ ما منه اقتصادي أو سياسي أو معنوي قبل كل شيء. وقد اختار معاوية تعبير الخنق كبديل عن القتل المباشر. وطبيعي أنه لا يمكن الوصول للخنق إلا عن طريق وضع الخصم تحت رحمة الذي يمارس عملية الخنق، وقد يكون من غير الضروري التوقف طويلاً عند التفسير اللفظي لمقولة معاوية؛ لا سيما وأن الممارسات العملية تبرز شواهد غير محددة عن هذه الاستراتيجية الرائعة. ولكن أهمية الشاهد اللفظي في تعبير معاوية تأتي من كونه تعبيراً عن الاستراتيجية، وهذا يعني ببساطة أن ممارسات معاوية للوصول إلى الخنق كانت مبرمجة ومحكمة وخاضعة لتخطيط دقيق وشامل، وهذا هو أبرز ما في الموضوع.

لقد كان معاوية، بحسب ما تبرزه سيرة حياته، من القادة الذين يبحثون عن الحسم في الصراع المسلح، ويفتش عن النصر الكامل، وكان إلى جانب ذلك أيضاً يرغب في ممارسة أعماله القتالية في إطار من حرية العمل الكاملة، ويريد لنصره أن يكون أكبر من مستوى الجهد المبذول وبأقل ثمن ممكن، وقد ألهمه ذلك كله البحث عن الاستراتيجية المناسبة، فكانت النتيجة هي بروز استراتيجية الهجوم غير المباشر بأفضل أشكالها وطرائقها، وقد طبَّق هذه الاستراتيجية في حروبه الأهلية بقدر ما طبَّقها في صراعه وحروبه مع أعداء المسلمين، فكان في ذلك نصره الكامل، وضمنت له هذه الاستراتيجية تحقيق أهدافه كلها. ولقد وضع معاوية للدولة الإسلامية كثيراً من الأُسس والمبادىء، ويبقى مبدأ استراتيجية الهجوم غير المباشر من أفضل وأمثل ما وضعه معاوية للمسلمين في مجال فنِّ الحرب.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

الشام قاعدة معاوية، وأهل الشام، أنصار معاوية، هم الذين صنعوا دولة بني

أُمية، وهم الذين فرضوا وجودهم على الدنيا من خلال معاوية، وهم الذين جعلوا من دمشق عاصمة تزهو على الدهر.

عودة إلى البداية: تجمَّعت الشام، بحدودها الطبيعية الحالية تقريباً مع فلسطين والأردن، تحت إمارة معاوية، وذلك في سنة (١٧هـ)، وبدأ معاوية منذ هذا التاريخ ببناء القاعدة القتالية والسياسية والاجتماعية، وأمكن له بناء المجتمع الإسلامي القوي المتماسك، وقد ظهرت قوة هذا البناء بعد ذلك في مناسبات كثيرة. فقد كان جُند الشام يتوجهون إلى الحروب بثقة لا حدود لها، وإيمان لا نهاية له، وبهذه الفضائل حقَّق جند الشام انتصاراتهم في البر والبحر. وكان إخلاص جند الشام لمعاوية مثيراً؛ أذهل أنصار علي ﷺ، فأخذوا يضربون المثل بانضباط جيش الشام الذي لا يسأل قائده ماذا يفعل؟... وظهرت أيضاً هذه الفضيلة عند التحكيم، فأثارت إعجاب ابن عباس الذي قال لأنصاره: «أما تعقلون! أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به، ويرجع لا يُعلم ما رجع به، ولا يُسمع لهم صياح ولا لفظ، وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون».

وقد عرف معاوية لأهل الشام هذه الفضائل، فأوصى ابنه يزيد: «انظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم». فكيف استطاع معاوية تكوين هذه القاعدة القوية والمأمونة؟

لقد عمل معاوية قبل كل شيء على مجابهة أعداء المسلمين، الدولة البيزنطية، باستراتيجية مناسبة، فضمن أمن الحدود والثغور، وبذلك أمكن بناء المجتمع الإسلامي بهدوء واستقرار وأمن، ومنح أهل الشام ثقته بدون حدود، فمنحوه ثقتهم من دون قيود، وأحسن إلى أهل الشام، فأحسنوا إليه. ولكن هل كان ذلك كل شيء؟ لقد كان العامل الأساسي في قوة القاعدة استنادها إلى العقيدة الدينية الإسلامية، فالولاء لم يكن مجرد ولاء شخصي، وإنما كان مدعماً بالولاء لما يمثله الأمير من سلطة روحية. لقد كان الفاصل الزمني بين الفتح وبين الولاية العامة للشام فاصلاً قصيراً جداً، ولهذا، فإن معاوية بحق هو الذي أرسى دعائم الإسلام في الشام، وهو الذي نظم الدولة والمجتمع وفق القواعد الإسلامية، فعرف أهل الشام الإسلام عن طريق معاوية، وعرف معاوية كيف يبني المجتمع الإسلامي من وجهة نظره في بناء الدولة وفي بناء المستقبل.

ولقد توفرت في قاعدة الشام إمكانات اقتصادية ضخمة وقدرة بشرية كافية؛ أُضيف إليها وحدة القيادة، فكانت القاعدة المثلى لقيادة الصراع السياسي والعسكري في العالم الإسلامي الحديث التكوُّن، وكان من الطبيعي أن تتفوَّق قوة جند الشام على كل القوى المتصارعة في الداخل وأن تستطيع أيضاً مجابهة تحديات القوى الخارجية.

وبعد، فقد يكون للموقع الجيو ـ استراتيجي للشام دوره الأساسي والحاسم في تكوين القاعدة القوية والصلبة لبناء الدولة الأُموية وتطوير الدولة الإسلامية، ولكن هل كانت ستبرز أهمية هذه القاعدة لولا وحدتها السياسية بقيادة معاوية؟ وهل كان باستطاعة هذه القاعدة ممارسة دورها والإفادة من معطياتها لولا وضع أُسس السياسة الاستراتيجية الملائمة في البر والبحر؟

لم تكن قوة قاعدة الشام بقوتها البشرية، ولا بقوتها الاقتصادية، ولا بموقعها الجيو ـ استراتيجي؛ وإنما بذلك كله، مع وجود الإيمان العميق بالمجتمع الإسلامي والثقة بحتمية انتصار قاعدة الشام لبناء مستقبل الإسلام والمسلمين، وبذلك أمكن لمعاوية بناء أمجاد الشام، وأمكن للشام حفظ أمجاد بني أُمية.

٣ ـ بناء المجتمع الجديد

حدَّدت العقيدة الإسلامية أُسس بناء المجتمع الإسلامي، وأوضحت بدقَّة واجبات الأفراد ومسؤولياتهم المتبادلة، والعقيدة الإسلامية عقيدة كل زمان ومكان كما هو معروف ومسلَّم به، ولهذا فهي تترك المجال مفتوحاً أمام خليفة المسلمين للاجتهاد في تطبيق ما هو مناسب لكل عهد، في حدود التشريع. وجاءت العقيدة القتالية الإسلامية اشتقاقاً عن العقيدة الدينية، فكان على إمام المسلمين التوفيق بين الحدود، وبين المتطلبات الزمنية والمكانية من دون تحريف للحدود وبدون خروج عن مضمونها. وقد استجدَّت في عهد معاوية أُمور كثيرة نتيجة للتطور السريع في تكوين المجتمع الإسلامي، فقد فتح المسلمون في سنوات قليلة مساحات جغرافية كبيرة، وأخذوا في التعامل مع شعوب شتّى وقبائل متباينة مختلفة، وكان على معاوية الاجتهاد لمعالجة كل أمر جديد سواء لإقرار أمور السلم أو للتعامل مع قضايا الحرب.

لقد حفظ التاريخ لمعاوية مجموعة من المواقف والأقوال التي لا زالت تتردد في أسماع دنيا العرب المسلمين، مثل: «**لو كان بيني وبين الناس شعرة**

ما انقطعت؛ إذا شدّوها أرخيتها، وإن أرخوها شددتها»، ومثل: «**لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني**». وفي مجال تطبيق فرض الجهاد، لم تحدد العقيدة الدينية الإسلامية على سبيل المثال الطرائق التفصيلية لتنفيذ الأعمال القتالية في البرِّ والبحر، وفي مجال إقامة الدولة لم تحدد العقيدة الدينية، بدقة، أسلوب التعامل مع المنافقين الذين يظهرون الإسلام تقية، ويعملون على تدميره من الداخل، وفرز هؤلاء عن المسلمين الصادقين الذين يرون في إدارة الحكم طرائق تختلف عن وجهة نظر أمير المؤمنين؛ لا سيما عندما يلجأ هؤلاء لحمل السلاح للخروج عن إرادة المسلمين وإجماعهم.

ولقد اكتسب معاوية صفة الشرعية، فقد عيَّنه أمير المؤمنين عمر ﷺ، وأبقاه عثمان ﷺ، ثم ظهرت الفتنة. وكان على معاوية الاجتهاد في مجابهة كل الأُمور، وليس المجال هنا هو مجال تقويم صحة اجتهادات معاوية أو خطئها، فأمره وأمر اجتهاداته يحاسبه عليها الله تعالى، ولكن بالإمكان تقويم نتائج اجتهاداته، فقد استطاع توحيد العالم الإسلامي، تماماً كما فعل الخليفة الأول في محاربة المرتدين، إذ أدّى ذلك أيضاً إلى إعادة وحدة العالم الإسلامي، وكان لذلك دوره الحاسم في استقرار العالم الإسلامي ونشر الإسلام في الشرق والغرب، مع توطيد هيبة دولة المسلمين، وكل ذلك برهان على نجاح معاوية في عملية بناء المجتمع الجديد، على أُسس العقيدة الإسلامية.

لقد تألَّف الرسول ﷺ قلوب المؤلَّفة قلوبهم بالأُعطيات، وسار معاوية على هذه السنَّة وتوسع في ذلك، وقد أخذ بعض المسلمين على معاوية هذا السلوك، واعتبروه احتجازاً لأموال المسلمين واستئثاراً به دونهم، ولكن هل كان في ذلك خروج على التشريع الإسلامي؟... مرة أخرى، من الصعب تقويم صحة الاجتهاد أو خطئه، ولكن النتيجة تبرهن على صحة سلوك معاوية، فقد استطاع اكتساب قلوب الأصدقاء والأعداء، أكثرهم، وكان في ذلك قوة للمسلمين.

لقد اضطلع معاوية ببناء قاعدته وإقامة المجتمع الجديد في الشام، وقام عمرو بن العاص ببناء المجتمع الإسلامي في مصر، وبنى سعد بن أبي وقاص المجتمع الإسلامي في العراق، وأقام عقبة بن نافع قاعدة المجتمع الإسلامي الجديد في إفريقية، وجاء موسى بن نصير ليجعل من المجتمع الجديد في إفريقية قاعدة لفتح الأندلس، ولم يكن واجب بناء المجتمع الجديد من عمل القادة العسكريين الذين قادوا الفتوح، كما أنه لم يكن من واجب فئة معينة، وإنما كان

واجب كل مسلم ومسلمة، ولكن دور القادة وأُمراء المؤمنين هو دور لا يمكن إنكاره، وكان لمعاوية من الأثر ما يؤكد أنه كان في طليعة المتفوقين ممن عملوا في بناء المجتمع الإسلامي الجديد.

٤ ـ وضوح الهدف

لم يكن باستطاعة معاوية تحقيق أهدافه لو لم تكن هذه الأهداف واضحة تماماً لديه، وفي الواقع، فإن تحليل سيرة معاوية تُظهر أنه كان نموذجاً فريداً في رؤيته الواضحة لأهدافه. ولنعد إلى البداية، فعندما كان معاوية يكتب لرسول الله ﷺ؛ نظر إليه الرسول يوماً وقال له: **(يا معاوية! إن وُلِّيت أمراً فاتَّق الله واعدل)**. ويقول معاوية: «فما زلت أظن أني مبتلى بعمل... وما زلت أطمع في الخلافة مذ قال لي رسول الله ﷺ: إن وُلِّيت فأحسن».

وفي مجال إقامة القاعدة القوية والمأمونة في الشام وبناء المجتمع الجديد؛ أخذ معاوية يسلك طريقه نحو هدفه منذ تولى إمارة الشام، ويمهد الطريق لذلك، حتى أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال، عندما شاهد معاوية مقبلاً إليه في موكبه المهيب: «**هذا كسرى العرب**». وكانت رؤية معاوية لصراعه مع الروم واضحة، فعبَّر عن هدف الصراع الواضح، بقوله: «شدّوا خناق الروم، فَبِها تضبطون بقية الأُمم». وكان معاوية يعرف هدفه بدقة في كل صراع داخلي أو خارجي، فكان في ذلك تصميمه الثابت وسعيه الدائم لبلوغ هدفه من دون أن ينحرف عنه أو يقصر عن بلوغه. وكان وضوح الهدف عند معاوية واختيار كل الطرائق المتوفرة والأساليب المتاحة لبلوغ الهدف هي السبب في الاتهامات التي وُجِّهت إلى معاوية، ومنها الذرائعية والماكيافيللية، والابتعاد عن القِيَم الأخلاقية التي كانت سائدة في عصره! فهل كان معاوية ذرائعياً؟ وهل كان مجرداً من القيَم الأخلاقية؟ من الصعب جداً إعطاء إجابة حاسمة وقاطعة، وقد يكون ذلك متعذراً؛ لا بسبب عدم الوضوح في أعمال معاوية، وإنما بسبب عدم وجود قِيَم حقيقية يمكن توجيه الاتهام على أساسها. وإذا ما أمكن اعتماد بعض القيَم، فإن هذه القِيَم ذات ثقل زماني ومكاني محدَّدين، بحيث أن عملية التقويم تفقد ثقلها عند وضع هذه القِيَم خارج الحدود الزمنية والمكانية التي استُخدمت فيها، وقد أدرك معاوية ذلك عندما أراد تولية ابنه يزيد؛ إذ خاطبه ابن الزبير فقال له: «تصنع كما صنع رسول الله ﷺ، ولم يستخلف أحداً، فارتضى الناس

«أبو بكر»». فردَّ عليه معاوية: «**ليس فيكم مثل «أبو بكر»**»، وهو بذلك لم يفتقد رجلاً مثل «أبو بكر» فحسب، وإنما افتقد أيضاً العامل الزمني الذي تولى فيه أبو بكر إمارة المؤمنين.

أما اتهام معاوية بالتجرد من القِيَم الأخلاقية لتحقيق هدفه، فهو اتهام يفتقر لكثير من الوضوح والدقة. فقد كان الهدف الواضح لمعاوية هو بناء الدولة الإسلامية المتقدمة والموحدة، وكان من الطبيعي أن يظهر اختلاف كبير في شكل هذه الدولة؛ لا سيما عندما يأخذ هذا الشكل صورة مغايرة لما كان عليه الأمر في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، ولهذا فمن الطبيعي أيضاً أن تختلف أشكال وطرائق بناء الدولة، وقد أدرك معاوية مثل هذا التناقض في أيامه، فقد أغلظ رجل القول لمعاوية، فقيل له: «أتحلم عن هذا؟» فقال: «**إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا**».

وبعد، ففي وصايا معاوية لقادته وولاته، وفي وصيته لابنه يزيد أيضاً، ما يبرهن على التزام معاوية بالفضائل السائدة والقيم الأخلاقية المعروفة، وفي ذلك ما يدحض الاتهام الموجَّه إليه بـ «الذرائعية»، وليست القضية بعد ذلك قضية دفاع عن معاوية أو إدانة له، بقدر ما هي قضية إبراز لوضوح الهدف عند معاوية، وهو الوضوح الذي حمله على اختيار ما يناسب من الوسائل. ويبقى معاوية فوق الاتهام وفوق الإدانة؛ لا سيما عند وضع وضوح الهدف في جملة الاستراتيجيات التي ساعدت معاوية على بناء الدولة الإسلامية المتقدمة. ويبقى معاوية نموذجاً أعلى لاستراتيجية وضوح الهدف في حياته العامَّة والخاصة على حدٍّ سواء.

٥ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام

عندما تواعد علي ومعاوية رضي الله عنهما على إيقاف الحرب بينهما، كتب إليه معاوية: «أما إذا شئت، فلك العراق ولي الشام، وتكفَّ السيف عن هذه الأُمة، ولا تهريق دماء المسلمين». وعندما أرسل معاوية إلى قيس بن سعد يطلب إليه الخضوع للطاعة، ويعرض عليه ما يريده شرطاً للصلح، عارض عمرو بن العاص معاوية، وطلب إليه أن يحاربه، فكان ردُّ معاوية: «**على رسلك! فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام**، فما خير العيش بعد ذلك! وإني والله لا أُقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بداً». وفي وصية معاوية لابنه

يزيد: «يا بني! انظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف».

وتتكرر في أوامر معاوية إلى قادته وولاته عبارة: «إذهب إليهم، وادعهم إلى التوبة وإلى الدخول في الجماعة، فإنْ فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم واستعن بالله عليهم».

لقد كان معاوية قائداً عربياً مسلماً، وكان إنساناً مؤمناً ما في ذلك ريبة ولا شكَّ، ومن الطبيعي أن يكون حريصاً على دماء المسلمين وأموالهم وأمْنهم، وقد برهنت أقواله وأعماله على ذلك. وقد حدثت في بداية عهده ثورات وفتن أغرقت العالم الإسلامي بالدماء، مما أفزع كثيراً من الصحابة فاعتزلوا الحياة العامة. وكان لمعاوية طرائقه وأساليبه في ذلك، فقد كان يحرص على الإسلام وأهله ضمن حدود بناء الدولة الإسلامية، وكان له رأي خاص في القضاء على معارضيه، فهو لا يعتبر أن المسلم الذي يُقْتَل بيد مسلم في الحرب الأهلية من المسؤولية التي تقع على عاتقه، وإنما يتحمل المسؤولية ذلك الذي يخرج على إرادته، باعتباره أمير المسلمين، فهو يستمع إلى مندوب علي ﷺ، وهو يقول له: «إني أنشدك الله ﷻ ألّا تفرق جماعة هذه الأُمة، وألا تسفك دماءها بينها!»، فيقطع معاوية الكلام ليقول لمحدثه: «**هلا أَوْصيت بذلك صاحبك**»، وعندما ينقل إلى معاوية نبأ مصرع عمار بن ياسر يتنصل معاوية من مسؤوليته، فيقول: «**إنما قتله مَن أخرجه**»، وعندما تعاتب عائشة ﷺ معاوية لقتله حجر بن عدي، يرد عليها: «**لم أقتله، إنما قتله مَن شهد عليه**».

وواضح أن معاوية كان يحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، في حدود مقتضيات الهدف، وهو بناء الدولة الإسلامية القوية والموحدة، وهذا في جملة اجتهاداته.

وبعد، يمكن التساؤل: هل كان منطلق معاوية لاقتحام البحر غير حرصه على العنصر العربي وغير رغبته في ضمان استقرار المسلمين؟... ثم هل كان جهده لتصعيد الصراع ضد الدولة البيزنطية أكثر من استجابة لما يحقق لمجتمع المسلمين قوته وأمنه وحياته؟... وكان في ركوب البحر كما كان في تصعيد الغزوات والأعمال القتالية تضحية ببعض قوة المسلمين، ولكن الثمن الذي دفعه معاوية كان دائماً أقل مما يمكن دفعه لو لم تستخدَم الاستراتيجيات الوقائية لحماية المجتمع الإسلامي. ومن هذا التشابه في الهدف الخارجي والداخلي

يظهر الانسجام الكامل في تفكير معاوية واجتهاداته، فهو منسجم مع واقعه، منسجم مع تفكيره، متوافق مع الظروف المحيطة به.

ومع هذه الحقيقة يظهر صدق معاوية في إسناد إمارة المسلمين من بعده لابنه يزيد، وحرصه على العنصر العربي من خلال جمع كلمة المسلمين وإبعاد الخلاف عنهم. ومن المحتمل أن يكون معاوية قد تأثر بالنظام الوراثي في امبراطورية الروم، فوجده طريقة مناسبة لتحقيق هدف مزدوج: الإبقاء على وحدة العالم الإسلامي، وتعزيز مكانة بني أُمية التقليدية بين العرب. ووجد أن هذا النظام لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية، إذا ما حكمت بالشورى، فتبنّاه وعمل له. وقد يكون الأمر مغايراً لذلك، ولكن ليس بالإمكان الحكم على النوايا، وإنما يمكن الحكم على الظواهر، وقد برهنت الظواهر كلها على حرص معاوية على العنصر العربي، دعامة الإسلام.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

وجَّه معاوية قوات المسلمين لغزو القسطنطينية عن طريق البرِّ والبحر، وكان معاوية يوجه الصوائف والشواتي لغزو ما وراء الدروب عن طريق الثغور الشامية والثغور الجزرية، نسبة إلى الجزيرة الشامية، وكان يناوب بين هذه الغزوات، ويكثفها على شكل غزوات متتالية؛ لتكون أكثر من صائفة وأكثر من شاتية في سنة واحدة، فكان يعيق الروم عن تجميع قواتهم، أو تنظيم مقاوماتهم على جبهة معينة أو على محور محدد. وعندما انتهت موقعة صفين؛ وجَّه معاوية خمس مجموعات قتالية إلى أطراف الشام والعراق والجزيرة العربية، وبذلك أمكن لقواته تحقيق النجاح في تنفيذ أعمالها القتالية.

ولقد كان من الواضح لمعاوية أن هدفه من استراتيجية الحرب التشتيتية هو عدم تمكين القيادات المعادية له من اتخاذ القرارات المناسبة وإعاقتها عن استخدام القوات بشكل صحيح، فكان يستخدم الخداع والتمويه على نطاق واسع، وكان يعتمد على السر والكتمان وتدابير الحيطة الضرورية، ويظهر ذلك بوضوح في كل أموره العامة وحتى الخاصة، ونتيجة لذلك كان من السهل عليه تطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية لانسجامها مع طبيعته وتوافقها مع تكوينه. ولقد كان للعامل النفسي دوره الحاسم في دعم هذه الاستراتيجية، وضمان الظروف المناسبة لنجاحها. وإذا كان الصراع السياسي والمسلح هو حوار

للإرادات المتصارعة، وإذا ما كان الصراع حول الإرادات هو أساس النجاح، فإنه من الطبيعي أن يحاول كل طرف التشبث بقناعاته وفرضها على خصمه. وتظهر سيرة معاوية أنه كان متفوقاً في هذا المجال، فقد استطاع تحقيق النجاح وبلوغ أهدافه في كل صراعاته وحروبه، وكانت استراتيجية الحرب التشتيتية هي إحدى الاستراتيجيات الأساسية لمعاوية الذي كان يفرضها على قوات خصمه وقياداتها فيحرمها من حرية العمل السياسي والعسكري.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

ما كان لمثل معاوية، مع ما عرف عنه من الكفاءة القيادية والحرص على المسلمين، أن ينتظر هجمات العدو، أو أن يقعد حتى يتمكن العدوُّ من تهديده في قاعدته، ولهذا فقد عمل معاوية على تطوير الأعمال القتالية لكي يشغل العدو بنفسه، وظهر ذلك من خلال الاستراتيجية البحرية وغزوات ما وراء الدروب.

ولم تكن الهجمات الوقائية لمعاوية بمثابة ضربات في الفراغ، وإنما كانت موجهة ضمن إطار توسيع أعمال الفتوح. وقد استطاعت الاستراتيجية البحرية، على سبيل المثال، تنظيم الوقاية ضدَّ غزوات أسطول الروم لسواحل البلدان الإسلامية في الشام ومصر وليبيا. وجاءت عملية انتزاع الجزر البحرية وتحريرها من هيمنة البحرية البيزنطية ضمن هذا الإطار ذاته. ولكن هذه الاستراتيجية كانت الأساس لتطوير أعمال الفتوح في البر والبحر؛ إذ لولا تطوير الاستراتيجية البحرية لما أمكن، فيما بعد، إكمال تحرير السواحل الإفريقية الشمالية، ولما كان بالمستطاع أيضاً فرض الهمنة الإسلامية على جزائر البحر في غرب المتوسط، وهكذا كانت مثل هذه الاستراتيجية هي الأساس في تطوير الأعمال اللاحقة.

وتظهر أعمال قادة العرب المسلمين جميعهم أنهم كانوا يعتمدون بالدرجة الأولى على استراتيجية الهجمات الوقائية، ولكنهم جميعاً لم يتجاوزوا في أعمالهم حدود مسارح عملياتهم، في حين تجاوز معاوية متطلبات مسرح العمليات، فوضع هذه الاستراتيجية في إطارها الشامل؛ سواء عن طريق الربط بين العمليات البرية والبحرية، أو عن طريق تنسيق هذه الاستراتيجية للعمل على جبهات مختلفة.

لقد كان معاوية مجتهداً، مبدعاً، لا في مجال التشريع والإدارة وبناء الدولة فحسب، وإنما أيضاً، وقبل كل شيء، في مجال فنّ الحرب، ولعل إبداعه في مجال استراتيجية الهجمات الوقائية يزيد في أهميته وفي نتائجه على كل ما عداه من إبداع شمل كل مجال من بناء دولة بني أُمية.

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة

ما من مبدأ أكثر لصوقاً بالعقيدة القتالية الإسلامية من مبدأ المباغتة، سواء ما كان منها على مستوى المباغتة الاستراتيجية أو المباغتة في العمليات، وسواء أيضاً أخذت هذه المباغتة شكل مباغتة زمنية أو مكانية أو تنظيمية أو مباغتة مركبة. ونظراً لما عرف عن معاوية من تقنين في استخدام الصراع المسلح ضمن حدود هدف السياسة الاستراتيجية، فقد أخذت المباغتة عنده طابع المباغتة الاستراتيجية، ويظهر ذلك في التنظيمات القتالية التي وضعها معاوية، كما يظهر في إدارة الحرب، مما وضع عاصمة البيزنطيين تحت رحمة العرب المسلمين، وهذا مما ساعد معاوية على وضع خصومه باستمرار تحت وطأة ذهول المباغتة.

وكانت المباغتة أحد أسلحة معاوية في إدارة الدولة، وفي الحروب الأهلية، وهل كان رفع المصاحف في صفِّين وقضية التحكيم أكثر من مباغتة للخروج من مأزق الحرب؟ ثم هل كان ظهور الأسطول الإسلامي القوي في ذات الصواري أكثر من مباغتة أذهلت الروم وأرغمتهم على الانتقال لغرب المتوسط؟ وهل كان توجيه عمرو بن العاص لإعادة فتح مصر وانتزاعها من قبضة محمد بن أبي بكر أكثر من مباغتة أيضاً حرمت أمير المؤمنين علي ﷺ من أقوى الأقاليم التي كان يعتمد عليها؟

ولكن، إذا كان اهتمام معاوية مركَّزاً على المباغتة الاستراتيجية أو المباغتة في العمليات، فإنه لم يكن أقل اهتماماً بالمباغتة التعبوية ـ التكتيكية، وتبرهن العمليات الصغرى التي كان يوجهها لتحقيق أهداف محدودة، ذات طابع نفسي على الأغلب، أنه كان يهتم بالمباغتة التعبوية قدر اهتمامه بالمباغتة الاستراتيجية.

٢ ـ أمن العمل

كان من الطبيعي أن يهتم معاوية بأمن العمل، نظراً لمعرفته بأهمية المباغتة،

ولقد أخذ مبدأ أمن العمل عند معاوية أشكالاً مختلفة بحسب المواقف التي كان يجابهها، وقد يكون من المناسب عرض أهم الأُسس التي استخدمها معاوية لضمان أمن العمل:

١ ـ دعم الثغور وإقامة الحاميات القوية، وقد كانت أول مشكلة جابهت معاوية هي مشكلة منطقة الفراغ التي أقامها البيزنطيون على امتداد السواحل الشمالية لبلاد الشام، فعمل معاوية على نقل الحاميات والقوات من الداخل ورمم الحصون وأقام القلاع ونظم تدابير الأمن حتى لا تباغت قوات الروم المدن الإسلامية.

٢ ـ اتخاذ تدابير الأمن المشددة عند التوغل في بلاد الروم، وبصورة خاصة عند عبور المضائق الجبلية فيما وراء الحدود، حيث يظهر احتمال المباغتات الكثيرة بسبب احتلال قوات الروم للمغائر والكهوف (المطامير)، وقد حدد معاوية أساليب العمل لمجابهة كل احتمال من الاحتمالات.

٣ ـ التوسع في أعمال الاستطلاع واستخدام الجواسيس (العيون) بحيث كان معاوية على معرفة تامَّة بنوايا أعدائه الخارجيين وخصومه الداخليين، وبحيث كان من الصعب مباغتته بأمر غير متوقع.

٤ ـ المحافظة على السرِّ، وكان أسلوب معاوية المعروف هو أن يجمع قادته ليستشيرهم بعد أن يكون قد درس الموقف بعناية، وجمع من المعلومات ما يساعده على اتخاذ قراره. فإذا ما ناقش هذا القرار مع قادته، فذلك من أجل مشاركتهم في مسؤولية اتخاذ القرار، ثم من أجل تنفيذه على أفضل وجه ممكن، وكان معاوية لا يكشف من أسراره إلا ما يريد كشفه لخدمة الهدف الذي حدَّده.

٥ ـ وضع خطة خداعية إلى جانب الخطة الأساسية، ويظهر ذلك في أعماله السياسية قدر ما يظهر في إدارته للحرب، وكثيراً ما كانت أساليبه في الحرب التشتيتية هي الخطة الخداعية لخطته الأساسية.

بهذه الوسائل والطرائق أمكن لمعاوية وقاية قواته من المباغتات، وضمن لها الظروف المناسبة لتنفيذ مهماتها في إطار من حرية العمل المطلقة.

٣ ـ الحركيـة

كانت الواجبات الملقاة على جند الشام واجبات ثقيلة، منها حماية المدن والعواصم والثغور ومجابهة الاحتمالات المختلفة، ومنها الغزوات البعيدة لما

وراء الدروب والتي وصل بعضها باب الأبواب «باكو» شمالاً على بحر «قزوين» و«تفليس»، وحتى القسطنطينية غرباً، كما كان على جند الشام أيضاً حماية السواحل عند انطلاق القوات البحرية للغزو، وتنسيق التعاون مع بقية الأجناد في حمص وفلسطين. وكان من المحال على جند الشام الاضطلاع بهذه الأعباء كلها إن لم تتوفر له قدرة حركية عالية، وكانت قوة الفرسان هي التي تمثل تلك القدرة الحركية، وجاء التطور البحري ليزيد من القدرة الحركية للقوات وليلقي عليها في الوقت ذاته أعباءً إضافية. ولهذا يظهر جند الشام في عهد معاوية، وكأنه جيش من الفرسان فقط عليه التحرك باستمرار ما بين المواقع المختلفة، والمدن المتباعدة.

وهكذا، فليست الطبيعة الجغرافية، والحاجة لاجتياز آلاف الأميال ـ الكيلومترات ـ هي التي أرغمت جيش الشام ليكون قدرة حركية تعتمد على الفرسان، وإنما عامل السرعة في التدخل أيضاً هو الذي ألقى بثقله لمصلحة القدرة الحركية، وهو الذي ساعد على تطوير عمل جيش الفرسان. ثم جاءت عملية متابعة الفتوح في مصر وأفريقية وفارس وخراسان بعد عام الجماعة (٤٠هـ)، فأصبح جيش الشام هو الاحتياطي العام لكل الجبهات، وهذا ما فرض تطويراً جديداً يتمثل بزيادة حجم الجيش وزيادة قدرته الحركية في الوقت ذاته. ولئن كانت جيوش العرب المسلمين كلها مميزة باعتمادها على القدرة الحركية باعتبارها جيوش تحرير وجهاد، فإن ظهور عاملي الاتساع الجغرافي، وأهمية العامل الزمني قد فرضا إجراء تطور واسع في دعم القدرة لجيوش المجاهدين في سبيل الله.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

تعتمد العقيدة القتالية الإسلامية على مجموعة من العوامل التي تتناسب وواجبات قوات المسلمين وتتوافق مع تكوينها وطبيعتها، كالضعف في القدرة البشرية والنقص في التسلح، ولهذا فقد عمل قادة العرب المسلمين على التمسك بالمبادأة باستمرار، واستخدام القوة الهجومية على أوسع نطاق، وضمن هذا الإطار يمكن إدراك الحافز الذي دفع معاوية على الإلحاح في طلبه إلى أن تمكن من وضع أساس القوة البحرية. وضمن هذا الإطار أيضاً يمكن إدراك السبب الذي دفع معاوية إلى تصعيد أعمال القتال في الشمال وتطوير الصوائف والشواتي لتصبح حملات حقيقية مستمرة ومنتظمة.

وتظهر سيرة معاوية أنه كان شديد الحرص على المبادأة، وأنه لم يتخلَّ عنها إلا نادراً، فكان هو الذي يفرض المعركة على أعدائه وخصومه، وهو الذي يعمل على تصعيد القتال وتطويره. ولقد فرضت الظروف في بعض الأحيان ذاتها، كالحروب الأهلية، فاضطر معاوية لمهادنة الروم والتخلي عن المبادأة، إلا أنه ما كاد يفرغ لقتال عدوه حتى زاد من قوة الحملات التي يتهدد بها عاصمة أعدائه، وعندما حاول هرقل الروم مهادنة معاوية وأغراه بدفع أضعاف ما كان يدفعه معاوية له، رفض معاوية ذلك وصمَّم على متابعة الصراع المرير بدون هوادة.

لقد اكتسب قادة المسلمين من تجاربهم في عهد الرسول ﷺ **أهمية استخدام القوة الهجومية وفائدتها**؛ سواء من أجل إنقاص حجم الخسائر، وسواء من أجل فرض المعركة على العدو بعيداً عن قواعد المسلمين وحدودهم، أو من أجل تحميل العدو أعباء الحرب كلها، أو من أجل حسم الصراع المسلح لمصلحة جند المجاهدين رغم نقاط ضعفهم المعروفة في العدد والعدَّة، علاوة على ما يتوفر للمهاجم من رصيد معنوي ضخم، ولقد أفاد معاوية كثيراً من هذه التجارب واستوعبها بما عُرف عنه من عقل تحليلي تركيبي، فعمل على تطوير مبدأ المبادأة وعمل على استخدام القوة الهجومية على أوسع نطاق، فكان في ذلك بعض عوامل نصره.

٥ ـ الاقتصاد بالقوى

«**لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني**»؛ قالها معاوية، فوصف بها أهمية الاقتصاد بالقوى، وعبَّر بها عن التقنين المحكم لاستخدام وسائط الصراع. وقد يذهل الباحث في الواقع عند متابعة الأعمال الضخمة التي أنجزها معاوية في مجال الحروب والصراعات المستمرة، رغم ما عُرف عن العرب المسلمين من ضعف في القدرة البشرية بالقياس مع حجم الأعباء وبالمقارنة مع حجم الفتوحات، ولقد كان لبقية الأُسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب دورها في تحقيق التوازن بين الأعمال والواجبات المختلفة وبين حجم القوى والوسائط المخصصة للصراع المسلح، ولكن يبقى مبدأ الاقتصاد بالقوى في طليعة المبادىء التي ساعدت معاوية على إنجاز ما حقَّقه، وإكمال ما بدأ به.

لقد كانت حروب معاوية كلها حروب عقل أكثر منها حروب ذراع وقوة، وكانت معاركه معظمها معارك تخطيط طويل ودراسة متأنية وبحث محكم دقيق، ولهذا فقد كان عامل القوة موجهاً ومقنَّناً بإحكام رائع. ولقد جابه معاوية تحدِّيات الروم منذ بداية ولايته، وجاء ردُّه الحاسم بإنشاء القوة البحرية بعد أكثر من عشر سنوات. وأرسل عليٌّ ﷺ إلى معاوية أمراً بعزله، وطلب البيعة منه، فمكث معاوية ثلاثة أشهر قبل أن يردَّ على رسالة علي، وهو لم يرسل ردَّه يقيناً إلا بعد أن استعدَّ لمجابهة احتمال الصراع المسلح، وهو أيضاً لم يُلْقِ بثقل قوته في معركة الجمل إلى جانب عائشة ﷺ، وانتظر حتى ينتهي الصراع المسلح بينها وبين علي، فاستطاع بذلك تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى. كما أنه لم يوجه عمرو بن العاص إلى مصر حتى تمَّ له إنهاء الحرب الأهلية في صفين، وكذلك فعل مع الروم، حيث أنه لم يوجِّه ثقل هجماته ضدَّهم إلا بعد أن ضمن الاستقرار الداخلي، وإلا بعد أن أعدَّ الظروف المناسبة لحشد كل القوى في اتجاه الضربة الحاسمة.

وكذلك، فإن أعمال معاوية في نقل القبائل من العراق إلى السواحل أو من الداخل للدفاع عن الثغور قد أخذت طابع الاقتصاد بالقوى؛ ذلك أنه ضمن بذلك وجود قوة يمكن لها التعامل مع الهجمات المباغتة للروم، وضمن بذلك الاحتفاظ بكامل قوته للقيام بالأعمال الهجومية.

ويظهر من خلال متابعة أعمال معاوية القتالية؛ أنه لم يتورط أبداً في التعامل مع أكثر من جبهة رئيسية واحدة، فاستطاع بذلك تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى على أفضل وجه ممكن. ثم هل كانت أعمال الثغور وحملات الصوائف والشواتي أكثر من ممارسة عملية لمبدأ الاقتصاد بالقوى؟ وهل كان باستطاعة معاوية التعامل مع بقية الجبهات لولا ثقته بعدم وجود أي تهديد يأتيه من هذه الجبهة؟

٦ ـ المحافظة على الهدف

لقد وقف الحظ إلى جانب معاوية، بدون ريب، ولكن هل كان باستطاعته الوصول إلى ما يريده لولا قدرته الرائعة في المحافظة على الهدف؟... لقد جابهت معاوية في الواقع، وخلال حياته القيادية، مجموعة غير محدودة من التحديات الثقيلة، وكان كل واحد منها على درجة كافية من القوة لتُحْرفه عن هدفه أو لتُبعده عنه، ولكنه كان يفيد من كل موقف فيعمل على تحويله

لمصلحته، ويعمل على استثماره لخدمة الهدف البعيد الذي يطمح إليه، ومن هنا يظهر عامل التنسيق والتكامل في جهود معاوية، حيث يتم تقسيم الهدف إلى أهداف ثانوية، وحيث يتم تقسيم المرحلة إلى مراحل متتالية. وكانت كل معركة من معارك معاوية، وكل حدث من أحداث قيادته الطويلة إنما يسير في الاتجاه العام للهدف النهائي، وبذلك أمكن الخروج من كل مأزق وتجاوزه لمتابعة السير في الاتجاه ذاته للوصول إلى الهدف ذاته؛ هدف بناء الدولة الإسلامية المتقدمة، وتعزيز مكانة العرب المسلمين في الداخل والخارج.

يمكن بعد ذلك تجاوز العقبات الكبرى التي جابهت معاوية في مجال السياسة الاستراتيجية، والانتقال إلى تلك العقبات الصغرى التي كانت تعترض طريق ابن أبي سفيان، حيث تظهر مهارة معاوية أيضاً في إزالة كل الصعوبات التي تقف دون الهدف، ويظهر ذلك؛ سواء في مجال تصفية جيوب الخوارج أو في إخضاع المناوئين لمعاوية عند أخذ البيعة لابنه يزيد. ولقد كانت إزالة هذه العقبات عملية صعبة بدون شك، ولكن معاوية سلك إليها الطريق السهل، فقد عمل على اكتساب دعم المؤيدين والأنصار، ثم بدأ بممارسة الضغوط المعنوية إلى أن تم له الوصول إلى الهدف. وتبرهن هذه الأُمثولات على أسلوب معاوية في التعامل مع العقبات التي تُجابهه، فهو يعمل دائماً على وضع هدفه ويحدده بدقة، ثم يحدِّد الأساليب المتاحة لبلوغ الهدف، ويعمل بعد ذلك على إزالة العوائق؛ كل ذلك بتخطيط دقيق، وبهدوء، وبدهاء لا نظير له. وهو لن تعوزه الحجة أبداً لإقناع أصدقائه وأعدائه على السواء بعدالة قضيته، وما يمكن أن تحققه هذه القضية من فائدة للجميع؛ سواء كانت هذه الفائدة مادية، تتعلق بأمور الدنيا، أو كانت معنوية تتعلق بأمور الآخرة.

٧ ـ حماية المؤخرات

يمكن التمييز بوضوح بين نوعين من المؤخرات في المواقف التي كان يعالجها معاوية:

الأول: المؤخرات الاستراتيجية والتي كانت تمثلها تلك الحدود المفتوحة على الجبهات البحرية والقارية ـ البرية.

والثاني: مؤخرات القوات، سواء في حالات التحرك، المسير، أو في حالات الاشتباك وخوض المعارك

وتظهر سيرة معاوية القيادية أنه كان شديد الاهتمام بالنوعين معاً، ولو أنه كان يعطي مؤخرات الجبهات الاستراتيجية الأفضلية الأولى في عملياته. فقد ركَّز جهده منذ البداية لتأمين جبهاته البحرية والبرية في الغرب والشمال، ثم انتقل لمعالجة الأساليب المتوفرة لحماية مؤخرات القوات في الحرب، ولم يكن هدف معاوية في الحالات جميعها سوى حماية قاعدته القوية والمأمونة، وضمان الاستقرار، وإبعاد الخطر الذي قد يتهدَّد قوات المسلمين فيعيقها عن تنفيذ واجباتها والاضطلاع بأعمالها.

ويبرهن ذلك على أن معاوية قد أدرك أهمية مبدأ حماية المؤخرات وفق المفهوم الحديث، فهو كمنظم ومؤسس لدولة متقدمة لم يفصل بين عمل القوات المقاتلة وبين قاعدتها في المؤخرة، وهو أيضاً قد أدرك أن أمن المؤخرات يتجاوز في أهميته كل ما عداه من أُمور، ونظراً لأن العامل المعنوي في المؤخرات يقفز إلى مرتبة المقدمة في مجال الأمن، فهو قد حرص على حماية المؤخرات وتأمينها ضد كل تهديد مباغت.

وعرف جند الشام اهتمام معاوية بأمن قاعدتهم وبحماية مؤخراتهم، فانطلقوا إلى واجباتهم بثقة تامة. وعرف معاوية أيضاً أن أمن المؤخرات وحمايتها لا يتوقف عند الاهتمام بالقاعدة الجغرافية أو القاعدة البشرية، وإنما يتجاوزها إلى القاعدة الاقتصادية، ولهذا حرص معاوية على إقامة علاقات جيدة في المجتمع الجديد مما أتاح للجميع فرصة العمل لبناء الدولة. والأمثلة بعد ذلك كثيرة وواضحة عن اهتمام معاوية بالمؤخرات والعمل على ضمان أمنها، ويكفي هنا الإشارة إلى ما حدث خلال الحرب الأهلية.

فعندما علم معاوية بتحرك قوات علي ﷺ إلى العراق؛ أسرع إلى صفين واحتل المواقع المناسبة التي تضمن له حماية مؤخرة القوات في العمليات، وهو بذلك ضمن أيضاً حماية قاعدته في الشام وأبعد عنها الحرب، وعندما انتهى من ذلك عجَّل بإرسال عمرو بن العاص لفتح مصر من أجل حماية جبهته الغربية، وضمان أمن المؤخرات، وكان خطر هذه الجبهة مصدر قلق حقيقي لمعاوية، حيث كان يخشى باستمرار تنسيق التعاون بين قوات علي في العراق وقواته في مصر، مما كان يضع جند الشام بين خطر فكَّي كماشة، ولكن ذلك لم يحدث، وأفاد معاوية من ذلك، فعمل على إزالة الأخطار بصورة متتابعة.

الفصل الثالث

أ ـ معاوية وفنُّ القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية.

٢ ـ العنف في القضاء على الأعداء.

٣ ـ التحريض على الجهاد.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين.

ب ـ معاوية وقوات العرب المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ معاوية والجهاد في سبيل الله.

٥ ـ معاوية وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.

أ ـ معاوية وفـنُّ القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية

نزل المسلمون في جزيرة رودس، وزرعوا، واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها، وكان معاوية يدرُّ عليهم الأرزاق والعطاء، وعندما نقض أهل قبرص صلحهم مع معاوية؛ وجَّه إليهم جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، ونقله إلى قبرص، وكان معاوية يغدق عليهم الأموال والأرزاق. وعندما وجد معاوية أن كافة الحصون بين أنطاكية وطرطوس خالية؛ نقل إليها المقاتلين من الشام والجزيرة، وأغدق عليهم الأعطيات.

وتتكرر مثل هذه المقولات في سيرة معاوية القيادية، وكلها تبرز اهتمام معاوية بالتأمين الإداري لقواته. ولعلَّ ما عُرف عن جيش الشام من الانضباط والطاعة، إنما يعود في قسم كبير منه إلى ما كان يبذله معاوية للجند من الأعطيات السخية، وما كان يظهره لجنده من اهتمام، وما كان يحوطهم به من رعاية. ولقد كان معاوية يمنح جنده كل شيء، فيحرِّرهم من كل الأعباء، ويفرغهم للقتال والجهاد، فكانوا يبادلونه عطاءً بعطاء، ويبادلونه الثقة بثقة مماثلة.

ومن المعروف عن قادة العرب المسلمين جميعهم اهتمامهم بجندهم، وتأمينهم إدارياً، ولكن معاوية تجاوز في اهتمامه كل ما هو معروف، ويعود ذلك على ما يظهر لعاملين:

١ ـ طبيعة معاوية وما عُرف عنه من السخاء والكرم؛ إذا أعطى أغنى.

٢ ـ معرفة معاوية للأعباء الثقيلة التي يضطلع بها جنده، وحاجته لهم مثل حاجتهم له، حتى إذا حارب أفنى.

وتبرز من خلال التنظيم الإداري لجيوش معاوية ظاهرة هامة، وهي اعتماد الجيوش على نفسها في تأمينها الإداري. فقد كانت تعمل بمجرد استقرارها في

أي إقليم أو منطقة على زرع الأرض وتربية المواشي، مستخدمة في ذلك ما كان يغدقه عليها معاوية من أموال لتأمين متطلباتها من دون أن تضطر إلى تأمين متطلباتها من منطقة عملها بالإكراه أو بالقوة. ويرتبط هذا الإجراء في الواقع بالعقيدة الدينية الإسلامية التي تفرض على المجاهدين في سبيل الله نوعاً محدداً من العلاقات الاجتماعية مع أبناء البلاد التي يفتحها المسلمون. وقد كان لهذا الأسلوب فاعليته وأهميته عند التعامل مع أهل الجزر البحرية، حيث يقيم جند المسلمين على بعد من قواعدهم البرية، وعلى غير اتصال مباشر بها، فكان نظام التعايش الإسلامي هو أحد العوامل التي قاربت بين المسلمين وبين أبناء الجزر والأقاليم المختلفة وحببت الإسلام إلى قلوبهم، فجعلتهم يُقبلون للتعرف إليه واعتناقه، وبذلك أمكن تحقيق هدف الحرب.

لقد كان معاوية يعرف أنه يبني دولة توازن بين غاية السِّلم وبين هدف الحرب، وأن للقوات المسلَّحة دورها الأساسي والحاسم في تحقيق هذا التوازن، ومن هنا جاء اهتمام معاوية بتجهيز الجيوش وتنظيمها وإعدادها، وكان اهتمامه بالشؤون الإدارية في طليعة اهتماماته لبناء القوات المسلَّحة.

٢ ـ العنف في القضاء على الأعداء

علم معاوية أن علياً ﷺ قد عيَّن الأشتر النخعي لولاية مصر، فعظم ذلك عليه نظراً لما يعرفه من شدة الأشتر وقوته، فبعث إلى المسؤول عن خراج مصر ـ الجايستار ـ وقال له: «إن الأشتر قد وُلِّي مصر، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتُ وبقيتَ». وخرج الجايستار حتى وصل القلزم (السويس)، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم استقبله ذلك الرجل، فعرض عليه النزول، فنزل عنده، فأتاه بطعام فلما أكله أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سمّاً فسقاه إياه، فلما شربها مات.

وفي مدينة حمص من بلاد الشام، عظم شأن عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، ومال إليه أهل الشام لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه في بلاد الروم ولشدَّة بأسه، فخافه معاوية وخشي على نفسه منه، وأمر ابن أثال النصراني أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمٰن من بلاد الروم دسَّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص، فوفى له معاوية بما ضمن به.

ومن المعروف عن معاوية أنه كان يردِّد: «**إن لله جنوداً من عسل**»، وذلك كلما تخلص من خصم من خصومه عن طريق شربة العسل. ترى كم هو عدد أولئك الذين ذهبت بهم شربة العسل؟ إنهم من دون ريب بضعة أفراد لا أكثر، وهم في جميع الأحوال أقل عدداً ممن ذهبت بهم أي معركة من المعارك أو الذين سقطوا من قوة أي طرف في الحروب الأهلية. ومن الواضح أن لجوء معاوية لعملية الاغتيال السياسي قد سبق دائماً ما كان يتوقعه معاوية من أخطار تتهدد مشاريعه لبناء المستقبل، ولعل قتل حجر بن عدي وما قاله لمالك بن هبيرة السكوني: «من أنه قد أسرع لقتله ولم يقبل به شفاعة إلا من أجل تجنب فتنة قد يقودها حجر ويورِّط بها قبائل اليمنية».

لقد عُرف عن معاوية الخُلُق الكريم، كالحلم والأناة والصبر والتسامح، وقد عفا في مرات كثيرة عن خصومه وأعدائه، وفي ذلك ما يتناقض مع سلوك معاوية وأسلوبه في التصفية الجسدية، وفي استخدام العنف لتصفية أعدائه وخصومه، ولكن هذا التناقض ظاهري في الواقع، فقد كان معاوية قاسياً وعنيفاً في تصفية أعدائه على نحو ما ظهر منه في الحرب الأهلية وفي موقعة صفِّين.

لقد كان معاوية مخلصاً شديد الإخلاص لمن تبعه، وكان قاسياً شديد القسوة على مَن عاداه، وليست المسألة هي مسألة الدفاع عن معاوية، ولا مسألة إيجاد المسوغات لما قام به، ولكن الشواهد المتوفرة تبرهن على أن شربة العسل التي كان يستخدمها معاوية في الحالات النادرة؛ كانت آخر سلاح يلجأ إليه للوصول إلى أهدافه، وهو لم يكن يلجأ إليه إلا عندما يوازن بين الخطر الناتج عن الاغتيال السياسي وبين الخطر الكبير الذي يتهدده لو لم يستخدم هذا السلاح.

٣ ـ التحريض على الجهاد

قال رسول معاوية إلى علي ﷺ: «**تركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق**». وتمثل هذه الصورة أسلوب معاوية في الحضِّ على القتال والتحريض على الجهاد. إنه أسلوب استثارة العاطفة وشحن النفوس بالغضب. وفي الواقع، فإن هذا الأسلوب لم يكن سوى جزء من أسلوب معاوية، أما الجزء الثاني، فيعتمد على الإقناع بعدالة القضية التي كان معاوية يزج بجنده في الحرب من أجلها. وقد لا تكون هناك حاجة للإقناع أو لاستثارة العاطفة عند خوض المعارك ضد أعداء المسلمين، فالجهاد

هنا فريضة يتسابق المسلمون لأدائها ويندفعون بحماسة للقتال فيها، ولكن الصعوبة هي في توجيه الحرب ضد المسلمين أنفسهم، وهذا ما يفسر سبب الإعداد البطيء والتمهيد الطويل لخوض الحرب الأهلية ضد أمير المؤمنين علي.

ويأخذ التحريض على الجهاد عند معاوية أيضاً شكل الأمثولة والقدوة الحسنة، فقد كان معاوية شجاعاً، يتقدَّم الصفوف ويقود قواته بنفسه، وهو إن لم يفعل ذلك يرسل لقيادة القوات أقرب الناس إليه، أو يختار من بين الرجال أكثرهم شجاعة وكفاءة، وكانت هذه الأمثولة تثير الحماسة في صفوف المقاتلين وتدفع بهم لطلب إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

وواضح بعد ذلك أن معرفة معاوية بالرجال هي معرفة عميقة، فهو يتوغل إلى أعماق نفوسهم ليشدَّها إليه بوسائل مختلفة، فإذا ما استثارها ثارت، وإذا ما حرضها إلى الجهاد اندفعت إليه، لا يسألون أين يذهبون ولا مَن يقاتلون، ومن خلال هذه العلاقة بين القائد ومقاتليه ظهرت تلك النماذج الفريدة في ولائها، الغريبة في طاعتها، فكان في ذلك بعض عوامل النصر لمعاوية.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر

كان معاوية موهوباً للقيادة، تجمعت فيه كل الخصائص المطلوب توفرها في شخص القائد، وكانت الشجاعة إحدى فضائله، وقد جابه في حياته كثيراً من مواطن الخطر، ما ضعفت نفسه عند مجابهتها، ولا تخاذلت إرادته عند اقتحامها، وكان إلى ذلك إنساناً مؤمناً مسلماً، والإيمان يمنح صاحبه، كما هو مُسَلَّمٌ به، قدراً من الشجاعة لا حدود له.

لقد كان معاوية أول مَن اقتحم البحر، من جند الصحراء، والبحر فراغ، والفراغ مرعب، ولكن معاوية تجاوز الخطر الذي يجابهه من خلال إيمانه بأهمية العمل الذي هو مُقْدم عليه، ومن خلال معرفته بما يحققه ذلك من نصر للمسلمين على أعدائهم. ومعاوية يعتمد في شجاعته على العقل أكثر مما يعتمد على العاطفة، ويعتمد على الإيمان أكثر مما يعتمد على الإثارة، ولهذا فقد كانت استجابته للتحديات بطيئة مما كان يحمل خصومه على اتهامه بالقصور أو الخوف، فيرد عليهم معاوية:

ومستعجب مما يرى من أناتنا ... ولو زبنته الحرب لم يترمرم

أي: لم يتحرك.

ويتذكر معاوية في مواطن الخطر ما يجب أن يكون عليه قائد مثله؛ لا سيما عندما تضعف نفسه، فيقول:

أبَتْ لي عفتي وحياء نفسي وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

ومعاوية بعد ذلك يخشى شماتة الأعداء، ويعرف هو أن له أعداء بقدر ما اكتسب من أصدقاء، ولذا فهو يتمثل، وحتى نهاية حياته بقول الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

ولكن رغم شجاعة معاوية، فإنه، كإنسان، قليل الاحتمال للألم، يفضل الموت على ألم يصيبه أو ينزل به، وهو يعرف ذلك عن نفسه، فيقول عندما يصاب بطعنة مسمومة لطبيبه: «لي في يزيد ما يكفيني»، ويفضل عدم إنجاب الأولاد على احتمال ألم الحديد المحمي (الكيّ)، وكذلك فإنه يخشى العذاب، فيخاطب ربَّه وهو مقبل للقائه في آخر ساعة من ساعاته:

إن تناقشْ يكن نقاشك يا ربِّ عذاباً لا طوق لي بالعذاب

ومعاوية بعد ذلك يظهر كإنسان لا يخاف على نفسه مواطن الخطر، ولكنه يخشى على المسلمين أنفسهم، فيقول لأصحاب الفتنة ممن وجههم إليه والي الكوفة، سنة (٣٣هـ): «أما والله إن لله سطوات ونقمات، وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلَّكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمٰن دار الهوان».

وبعد، ففي رسائل معاوية لقادته وولاته وأُمرائه شواهد لا حصر لها، وكلها تبرهن على شجاعة معاوية في مواجهة الخطر، ولقد كان معاوية رجلاً قوياً كما وصفهُ أعرف الرجال بالرجال، عمر رضي الله عنه، وقد يكون من الصعب الفصل بين القوة والشجاعة في معظم الأحيان.

٥ ـ القرارات الصحيحة

ما هي القرارات غير الصحيحة التي اتخذها معاوية؟ إن الإجابة على هذا السؤال هي التي تبرز صحة القرارات عند معاوية. وفي الواقع، فقد يكون من الصعب جداً إيجاد قرارات غير صحيحة في سيرة معاوية؛ لا سيما عند الإحاطة الشاملة بمجموعة الظروف التي حفزت معاوية ودفعته لاتخاذ قراراته الحاسمة

في كثير من المواقف، إن لم يكن في كلها، ولعل أبرز القرارات الصحيحة عند معاوية هي تلك المتعلقة بالسياسة الاستراتيجية؛ سواء في مجال التعامل مع أعداء المسلمين، أو في مجال بناء الدولة الأموية. وتبرز سيرة معاوية العوامل التي كان يعتمدها عند اتخاذه لقراراته، وكان من أبرزها جمع المعلومات الصحيحة عن الموقف الذي يجابهه، واستخدام كل الوسائل الممكنة لذلك.

كان معاوية إنساناً يجيد الاستماع والإصغاء، وكانت لديه ذاكرة جيدة تساعده على اختزان المعلومات وتحليلها ومقارنتها، ثم كانت لديه قدرة على الانتظار والصبر الطويل؛ الأناة والتمهل. فإذا واجه موقفاً لم يكن يتوقعه؛ اتخذ ما هو ضروري من تدابير وقائية، ثم انصرف لمعالجة هذا الموقف، وتركه ينضج بحسب ما يريده له، كل ذلك مع تعديل مخططاته بحسب ما يظهر له من تطورات، فإذا ما جاءت اللحظة المناسبة؛ اتخذ قراره مع تحديد كل الوسائل الضرورية لتنفيذ هذا القرار. ولا يكتفي معاوية بذلك، وإنما يتابع تنفيذ قراره، ثم هو يتابع أيضاً ما ينتج عن القرار من نتائج سلبية أو إيجابية، فيعمل على تصفية النتائج السلبية ويعزز النتائج الإيجابية، فتظهر قرارات معاوية وهي متكاملة بصورة مذهلة، وكان هذا الأسلوب يضمن لمعاوية اتخاذ القرارات المباغتة باستمرار؛ ذلك أنه كان يستبق الأحداث، ويمهد لها عند الضرورة، مما كان يضمن له عدم الوقوع في المآزق. ويظهر ذلك أن طريق معاوية للنجاح لم يكن ممهداً أو سهلاً، وأن انتصاراته لم تكن أكثر من جهد مستمر وعمل دؤوب، يتحكم به تخطيط دقيق لا يترك مجالاً للصدفة أو الحدث الطارىء، ولو أن ذلك لم يكن بعيداً عن الحظ.

٦ ـ حماية المرؤوسين

عندما خاض معاوية أول حروبه في قيسارية حصل على مجموعة من الأسرى، وحصل ميخائيل، قائد جند الروم، على بعض الأسرى من المسلمين، فحرص معاوية على الاحتفاظ بأسراه، وقال: «ما صنع ميخائيل بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله»، وهذا ما أرغم ميخائيل على معاملة جند المسلمين من الأسرى معاملة جيدة حتى لا يدفع معاوية إلى قتلهم أو الإساءة إليهم، فكان في ذلك حماية من معاوية لمرؤوسيه.

وفي صفين، وقع عدد من الأسرى في قبضة الخصمين المتنافسين، علي

ومعاوية، رضي الله عنهما، وحاول بعض أنصار معاوية وقادته دفعه لقتل الأسرى، فرفض ذلك حتى أطلق عليٌّ أسراه، ففعل معاوية، بالمقابل، مثل ما فعل علي، وكان في ذلك حماية للمرؤوسين.

وتابع معاوية أسلوبه في حماية المرؤوسين، منطلقاً من دائرته الصغرى في حماية القوات المقاتلة إلى الدائرة الكبرى في حماية المسلمين عموماً، فيكون في تطوير قوات المسلمين حمايةً لهم، ويكون في تطوير السياسة الاستراتيجية حماية لكل المسلمين، ويكون في استباق الأحداث والقضاء على المحرِّضين حماية للمسلمين.

ويتجاوز معاوية ذلك كله إلى دائرة علاقاته الخاصة مع أنصاره وولاته وأُمرائه وقادته، فيظهر وكأنه خاضع لهم، منقاد لرغباتهم، ليِّن لهم، يبسط عليهم جناح حمايته، في حين يظهر شديد الوطأة على خصومه، عنيداً في تعامله مع منافسيه، لا تأخذه رأفة بمن يناصبونه العداء. ولقد كان زياد ابن أبيه من خصومه يوم تولى إمارة المؤمنين، ولم يلبث به حتى تألفه، ثم ألحقه بنسبه، وهو لم يفعل ذلك عن ضعف، أو عن قلة في الأنصار. ولكنه فعل ذلك لإظهار مدى دعمه لمرؤوسيه إن هم أخلصوا له، وإن هم برهنوا على ذلك. وقد يقال في ذلك أن حماية معاوية لمرؤوسيه هي حماية لنفسه، أو أنها نوع من الوفاء لمخططاته وأهدافه، وربما كان ذلك صحيحاً في حدود معينة، إلا أن ذلك لا يتعارض أبداً مع مبدأ حماية معاوية لمرؤوسيه، والتزامه بالدفاع عنهم، ضمن حدود متطلبات بناء الدولة. وهل في حماية القائد لمرؤوسيه ما يعيبه أو ينتقص من قدره وكفاءته إن هو ضمن لمرؤوسيه الحماية التي يحتاجونها حتى يستطيعوا الاضطلاع بواجباتهم، وحتى يتمكنوا من تنفيذ أعمالهم؟ ثم هل يمكن تحقيق العدالة بغير أسلوب الثواب والعقاب؛ الثواب لمن أحسن واتقى، والعقاب لمن كفر وأنكر؟. وتتحقق هذه العدالة عند معاوية من خلال إنذاره لمعارضيه وأعدائه، وتعريفهم بما ينتظرهم إنْ هم خرجوا على إرادته، فيكونوا في ذلك أهلاً لتحمُّل كل المسؤولية.

ب ـ معاوية وقوات العرب المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

الاستعداد الدائم للقتال هو في جملة فضائل قوات العرب المسلمين، وقد أفاد معاوية من هذه الفضيلة حتى أبعد الحدود، فوجَّه قواته للفتوح شرقاً وغرباً، في البر والبحر، وأعاد إخضاع الأقاليم المتمردة في فارس وخراسان. ويُظهر حجم هذه الأعمال القتالية أن جيش العرب المسلمين كان على درجة كبرى من القوة، وأنه يمتلك قدرة بشرية ضخمة، ولكن الواقع مناقض لذلك، فقوات العرب المسلمين كانت أبداً دون حجم قوات أعدائها في حجمها وقواتها، إلا أن استعدادها الدائم للقتال قد عوض عن نقصها العددي. لقد كانت قوات العرب المسلمين في حركة دائمة، وقد أتقن معاوية تنظيمها، فكان يصرفها عن أعمال البحر إلى قتال البر وينقلها للعمل من إقليم لإقليم. ولقد كان من المحال على قوات العرب المسلمين تحقيق ما حقَّقته وإنجاز ما أنجزته لولا توفر مجموعة من الفضائل الأخرى، كالتجهيز والتأمين الإداري للقوات، والقدرة الحركية العالية، والروح المعنوية العالية، والثقة الكبرى المتبادلة بين المقاتلين وقياداتهم، والكفاءة العالية للقادة في قيادة المجاهدين في سبيل الله.

وهكذا يظهر الاستعداد الدائم للقتال كمحصلة تضم مجموعة من العوامل والمعطيات، بحيث إن ضعف أيِّ عامل من هذه العوامل يؤدي إلى ضعف الاستعداد القتالي. وهنا يظهر الدور الحاسم الذي كان يمارسه قادة العرب المسلمين بصورة عامة، والذي كان يمارسه معاوية بن أبي سفيان، في أيامه، خاصة. فلقد كان جيش الشام في عهده يقيم في مواقع متباعدة، وفي أماكن متفرقة، وقد يكون من المذهل متابعة طريقة معاوية لحشد القوات، وتنظيمها وإطلاقها إلى أهدافها البعيدة، ثم إعادة تنظيمها بعد عودتها من واجباتها لتكليفها بواجبات جديدة، كلُّ ذلك مع تنظيم دقيق لمتطلبات القوات، ومتابعة

أعمالها القتالية، وتأمين الدعم عند الضرورة. فإذا ما أُضيف إلى ذلك ما كان يضطلع به معاوية من أعباء داخلية، ومن إعادة تنظيم شامل للدولة، ومن متابعة للأحداث على مختلف الجبهات، فسيظهر العمل الجبار الذي كان يضطلع به معاوية، ويظهر معه أيضاً الاستعداد الدائم للقتال لدى القوات التي كانت على استعداد لمجابهة كل احتمال، والاضطلاع بتنفيذ كل ما يُطلب إليها تنفيذه.

ويبقى السلاح القوي الذي حقَّق التوازن بين أعباء القائد في التخطيط وأعباء المجاهدين في التنفيذ هو في التنظيم الرائع وفي التوافق التامِّ بين المخططين والمنفِّذين، بين القادة والمقاتلين، ولقد أفادت القوات المقاتلة، من دون شك، من التنظيم الشامل الذي وضعه معاوية للدولة، وفي طليعته تنظيم البريد، وتنظيم الاستعلامات، مما زاد من كفاءة القوات واستعدادها الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

بات الناس، في ليلة معركة ذات الصواري، وهم يصلُّون ويدعون الله، ثم إنهم دنوا من الروم وربطوا السفن بعضها ببعض. وقاتل المسلمون أشد قتال، ووثب الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن، ويتواجؤون بالخناجر، وظهر الساحل وعليه كمثل التل العظيم من جثث الرجال، وإن الدم لغالب على الماء، ولقد قُتل من المسلمين بشر كثير، وقُتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام.

وكان أحد المجاهدين، وهو عبد العزيز الكلابي، يثير الحماسة أثناء حصار القسطنطينية، وهو يندفع في القتال، ويُقتَل عبد العزيز على أبواب العاصمة البيزنطية، ويبلغ ذلك معاوية فيقول: «هلك والله فتى العرب»، ويسأل زرارة الكلابي، أبو عبد العزيز: «مَن؟ ابنك أو ابني؟» فيجيبه معاوية: «ابنك، وأجرك على الله»، فيردُّ الأب بافتخار: «كل فتى شاربٌ كأسه».

ويندفع أبو أيوب الأنصاري في قتاله طلباً للشهادة على أبواب عاصمة الروم، فيستشهد بعد أن يوصي بدفنه في موضعه؛ في أسفل الأسوار المحيطة بالعاصمة.

وكان الغزاة من المسلمين يردِّدون: «لأن نموت بحرستا أحب إلينا من أن نموت بدمشق، ولأن نموت بدوما أحب إلينا من أن نموت بحرستا». ومعروف

أن المتجة إلى الشمال ينطلق من دمشق فيمرُّ بـ«حرستا» ثم بـ«دوما»، وهذا يعني أن شرف الشهادة يتعاظم في أنظارهم كلما استشهدوا على مسافة أقرب من عاصمة الروم.

تلك هي بعض الصُّوَر التي تبرز الروح المعنوية لجيش الشام، إنه جيش لا يطلب إلا الشهادة، ولا يسعى إلا من أجل الحصول عليها، وتعبِّر هذه الروح عن الإيمان العميق الذي توغل في قلوب المجاهدين في سبيل الله، فحملهم على اقتحام الأخطار، والبحث عن المهالك؛ ابتغاءً لمرضاة الله وطلباً لرضوانه.

لقد كانت الروح المعنوية العالية هي السلاح الأول في جيش الغزاة المجاهدين، وكان الإيمان العميق هو أساس هذه الروح المعنوية وهو عمادها، ولكن معاوية استطاع تعزيز الروح المعنوية ودعمها بطرائق مختلفة، بعضها مادي، كالتأمين الإداري، وبعضها معنوي، كالثقة المتبادلة، وبذلك استطاع اكتساب الولاء المطلق للقوات، وتمكن من توجيههم إلى حيث يريد، محققاً بذلك المثل الأعلى للقيادة وهو الربط بين أهداف الحرب وبين القائد المسؤول عن تحديد هدف الحرب، وكان في هذا الربط دعم غير محدود للروح المعنوية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

جند الصحراء يركبون البحر، وجند البحر ينزلون البر، فيسيرون في الصحاري والجبال، ويقاتلون في الليل والنهار؛ لا يُتعبهم السير، ولا يرهقهم القتال، ولا يؤثر فيهم تغيُّر المناخ، والانتقال من الصحراء الجافة القاسية إلى مناخ الجبال البارد أو العمل في مناطق الجليد، ولقد كان يتم ذلك في تناوب سريع، وتبادل قصير في عمر الزمن. وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان بعد ذلك على الكفاءة البدنية العالية لجيش المسلمين، وعلى قدرته على تحمل الصعاب والمكاره، ولم يكن هذا الجيش يعتمد على النخبة من الشبان الذين قسا عودهم، وإنما كان يضمُّ الشيوخ والشبان، الصغار والكبار، وأحياناً النساء والأطفال، وكلهم يحتملون أعباء الطبيعة وكره القتال، وكلهم يشتركون في شرف الجهاد.

وقد يكون بالمستطاع تصور مدى الصعوبات، عند وضع تلك الأعمال والواجبات القتالية في ظروفها الزمنية أو المكانية، حيث الحرمان من كل

الوسائط، إلا ما تقدمه الطبيعة، وحيث الصعوبات في كل شيء؛ بدايةً من وسائط النقل الصعبة، ونهايةً بطبيعة القتال الشاقة. ورغم ذلك كله، فقد كانت جيوش الغزاة المجاهدين تصل أهدافها البعيدة وهي على استعداد كامل للقتال، ثم هي تخوض الحرب، وهي بعد ذلك تعمل لإعمار الأرض وتنظيم المواقع واتخاذ تدابير الحيطة. ولقد كانت هذه الأعباء أكثر صعوبة بسبب ضعف القدرة البشرية، مما يجعل تلك الأعباء مرفوعة إلى قوة تتعاظم بحسب هدف الحرب. ولكن مقابل ذلك، كان هناك رصيد معنوي ضخم يمارس عمله كوسيلة للتعويض عن كل ضعف مادي أو عددي، ويظهر من هنا أنه من الصعب فصل ما كانت عليه جيوش الغزاة المجاهدين من فضائل، في طليعتها الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب، وبين الرصيد المعنوي الضخم الذي كانت تمتلكه تلك الجيوش.

ولقد عرف تاريخ فن الحرب في القديم والحديث جيوشاً كثيرة توفرت لها الكفاءة البدنية العالية، والقدرة على تحمل الصعاب، كما توفرت لها روح معنوية عالية؛ ولكن مقارنة مجموعة الظروف والإمكانات التي توفرت لتلك الجيوش مع ما كان عليه جيش الغزاة المجاهدين، ثم مقارنة النتائج التي أنجزتها تلك الجيوش مع ما أنجزته جيوش الغزاة المجاهدين، سيظهر الفضائل الحقيقية لجيش المسلمين وفي طليعتها الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب والمكاره. ولقد كان للهدف العظيم الذي حمله جيش المجاهدين دورٌ أساسي وحاسم في الصمود أمام التحديات المختلفة والاستجابة لها بما يناسبها.

٤ ـ معاوية والجهاد في سبيل الله

ما كان باستطاعة معاوية، ولا باستطاعة غيره من قادة العرب حشد القوى وتنظيمها لولا فرض الجهاد الذي فرضه الله تعالى على المسلمين، وكان التزام القادة بتنفيذ هذا الغرض والاجتهادات في أساليب تطبيقه هي الفوارق المميزة بينهم، وقد نجح معاوية نجاحاً كبيراً في إثارة الحماسة للجهاد، وبدأ ذلك بنفسه حيث تولّى قيادة القوات في مرات كثيرة، وكان يحشد في جيش الغزاة المجاهدين في سبيل الله كل قادر على حمل السلاح من أهله، ولعل قصته مع ابنه يزيد الذي تخلف في «دير مران» عن اللحاق بجيش حصار القسطنطينية هو أفضل شاهد على التطبيق الشديد والحازم لفرض الجهاد.

فقد كان معاوية يعدُّ العدة لتولية ابنه يزيد الخلافة من بعده، ولكنه ما أن يعلم بفرح يزيد لتخلفه عن جيش الجهاد الذي عانى من صعوبات كثيرة حتى أسرع بتنظيم الدعم، وكلف ابنه يزيد بمرافقة الجيش. وكان احتمال القتل كبيراً في ظروف القتال الصعبة، ولكن معاوية وضع فرض الجهاد فوق كل اعتبار، وفضَّله على كل ما عداه بما في ذلك ولاية العهد. وكان معاوية يعرف ما بين القبائل العربية من منافسة، فأفاد من ذلك لإثارة حماستها للجهاد، ودفع أهل اليمن لركوب البحر، فقال لهم: «إني أيمن بكم وأعرف طاعتكم، وقيس فيهم خلاف ونكد في غزو البحر». ورأى القيسية ذلك، فاندفعوا لركوب البحر، وأخذ معاوية في تنظيم التناوب بينهم للجهاد في البر والبحر. ولقد اتسعت جبهات القتال في عهد معاوية، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على المتطوعين فقط، فنظم ديوان الجند، وفرض الأعطيات للمجاهدين، فكان في ذلك تطور كبير نحو احتراف مهنة الجندية، ولكن هذا الاحتراف لم يكن بديلاً عن فرض الجهاد، وإنما تطويراً له بما يتوافق مع المتطلبات الجديدة.

لقد اشترط أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه على معاوية، يوم أذن له بركوب البحر أن يصطحب معه زوجته، وعندما توجَّه معاوية لغزو قبرص ركب البحر ومعه زوجته، كما ركب معه عبادة بن الصامت وزوجته أُمُّ حرام، وتبرز هذه الصورة الملامح المتقدمة لما يطلق عليه حديثاً اسم الجيش الشعبي، ويكون جيش المجاهدين في سبيل الله قد سبق العالم بأكثر من ثلاثة عشر قرناً في مجال التطبيق العملي لأساليب الحرب الشعبية، ولم يكن ذلك سوى نتيجة لفرض الجهاد الذي حملته العقيدة الدينية الإسلامية، فكان فيها كل أبعاد العقيدة القتالية للعرب المسلمين، وقد عمل معاوية كما عمل قادة المسلمين جميعاً، على تطبيق هذا الفرض وتطويره بما يتناسب مع متطلبات الظروف الزمنية والمكانية لكل إقليم.

٥ ـ معاوية وحرية العمل

لم يكن باستطاعة معاوية إنجاز كل ما أنجزه لولا إفادته من حرية العمل المطلقة في مجال بناء المجتمع الجديد، وفي مجال توطيد دعائم الإسلام ثم في مجال السياسة الخارجية. ولقد كان على معاوية أثناء ولايته الرجوع لأمير المؤمنين عمر، ومن بعده عثمان، واستئذانهما في الأُمور الهامة، وكان عليه

أيضاً الالتزام بتعليماتهما وأوامرهما. ولكن رغم ذلك، فقد كان لدى معاوية من قوة الحجة والبرهان ما يقنع به أمير المؤمنين للحصول على ما يريده، وكان معاوية أيضاً على درجة كافية من الدهاء الذي يمكِّنه من إرضاء أمير المؤمنين باستمرار، وكانت قاعدة عمله باستمرار الحصول على رضى المسلمين وتأييدهم، فكان بذلك جامعاً لتأييد أمير المؤمنين ودعم المسلمين في وقت واحد، وهو ما لم يحصل عليه إلا عدد قليل من الولاة والأُمراء، ويظهر ذلك من خلال إجماع كل المخلصين لـ«عليٍّ»، ونصحه بالإبقاء على معاوية والياً لجند الشام.

دخل عليٌّ على نسوة النبيِّ ﷺ، فقلن له: «بأن يدع معاوية، فإنما أمَّره أميرٌ قبلك، وإنه مصلح لأرضه، راضٍ به جنده».

وكان معاوية قد نصح عثمان بأن يرافقه للشام، وقال له: «أُشير عليك أن تأمر أُمراء أجنادك، فيكفيك كل رجل منهم ما قِبَله، وأكفيك أنا أهل الشام، فقد ولَّيتني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير».

لقد كان معاوية يعتمد على قاعدة قوية وصلبة هي قاعدة المسلمين المجاهدين في سبيل الله، وكان اعتماده على هذه القاعدة هو الذي يضمن له حرية العمل السياسي وحرية العمل العسكري، وكانت حرية العمل هذه تدعم من مكانته وتزيد من هيبته، فكان كل توسع في حرية العمل يساعد على زيادة قوة معاوية، وكانت زيادة قوته تدعم حرية عمله، مثل ذلك كمثل معادلة متكافئة؛ كل زيادة في أحد طرفيها يزيد من قوة الطرف الآخر. ويمكن التساؤل: هل كان باستطاعة معاوية قيادة جنده لو لم تتوفر له تلك القاعدة الصلبة من الولاء؟ ثم هل كان باستطاعته التوجه للحرب الأهلية لو لم يتوفر له قدرٌ كافٍ من حرية العمل؟

لقد كان عمر رضي الله عنه شديد الوطأة على ولاته، شديد الحساب على قادة جنده، ورغم ذلك فقد استطاع معاوية أن يجد الطريق المناسب للتوسع في حرية العمل، وقد تعتبر العلاقة بين عمر ومعاوية هي النموذج الصحيح لأسلوب معاوية في توسيع حرية عمله، لقد كان كل ما يطلبه عمر من ولاته العدل، وإقامة مجتمع المسلمين، وحقق معاوية ما يريده عمر، وحصل هو على ما يريده من حرية العمل، فكان في ذلك أساس بناء الدولة الأُموية.

٦ ـ الانضباط والطاعة

بايع رجال من أهل الشام معاوية على الموت، فعقلوا أنفسهم بالعمائم. في معركة صفين رفع معاوية قبة عظيمة، وبايعه معظم الناس من أهل الشام على الموت. وعندما أراد معاوية أخذ البيعة لابنه؛ وقف رجل من أهل الشام ليقول: «إنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف». ووقف يزيد بن المقنع العذري ليقول: «هذا أمير المؤمنين ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ ومَن أبى فهذا ـ وأشار إلى سيفه ـ». والأمثلة بعد ذلك غير محدودة عن طاعة أهل الشام وانقيادهم لمعاوية، وكذلك ما تميَّز به جند الشام من الانضباط والطاعة. ومن الأمثال السائرة والمتناقلة ما يردده أهل الشام عن رسالة معاوية إلى علي، وفيها: «**لقد جئتك بمائة ألف مقاتل لا يميزون بين الناقة والجمل**»، وليس ذلك سوى برهان على قدرة معاوية وعلى كفاءته في فرض الانضباط والطاعة.

وبعد، فسيرة معاوية تبرز طريقة معاوية لفرض الانضباط والطاعة.

قال رجل لمعاوية: «والله لتستقيمن بنا يا معاوية، أو لنقومنَّك»، فيقول معاوية: «بماذا؟» فيجيبه محدثه: «بالخشب»، فيقول: «إذن نستقيم». ويقول معاوية: «إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم؛ ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

ويظهر من ذلك أن الانضباط والطاعة في مفهوم معاوية خاضعة لهدفه، وقد عرف معاوية بحكم ممارسته الطويلة مع أهل الشام الأسلوب المناسب لفرض الانضباط الذي يريده. ولقد التزم معاوية ذاته بهذا الانضباط، فقد كانت علاقاته مع أميرَي المؤمنين عمر وعثمان رضي الله عنهما، هي علاقات محكومة بنوع من الانضباط الطوعي، المستند إلى الشرعية، فعندما اغتيلت تلك الشرعية، وجد معاوية لنفسه حجة لتفضيل حرية العمل على الانضباط من أجل تحقيق الهدف الذي يعمل به، وهو بناء الدولة الإسلامية وتحقيق الاستقرار في مجتمع المسلمين، والقضاء على الفتن، وتحقيق السيادة لعنصر العرب المسلمين.

كان معاوية نموذجاً فريداً بين قادة العرب المسلمين، وكانت له أساليبه المميَّزة وطرائقه الخاصة في كل ما يتعلق بأُمور الدولة والسياسة والحرب. وقد يكون من الصعب مقارنته بقائد آخر ـ غير معاوية ـ فهو عالم وحده، ومهما كان عليه الموقف منه، فإنه ليس هناك خلاف في أنه واحد الدنيا، وهو مؤسس دولة تمثلت فيها كل عزَّة العرب المسلمين وكل أمجادهم، وبما فيه يفخرون حتى آخر الدنيا.

الخاتمة

ويبقى الجدل قائماً فيما حققه معاوية من جلائل الأعمال، ولكن مما لا جدال فيه هو أن أعمال معاوية ستبقى منارة مضيئة في عالم الإسلام وفي دنيا الحرب والسياسة، وسيبقى ذكر دولة بني أمية قائماً ما قام المسجد المحراب فيها، وسيبقى «بستان هشام» أغنية حلوة ترددها الأجيال، ويتناقلها الأحفاد عن الأجداد.

وقد مضى معاوية إلى ربِّه، حاملاً معه أعماله، يحاسبه ويثيبه بما هو أهل له، وتعفي ذاكرة الزمن عما وقع له في دنياه، ولا يبقى في ذكره سوى كل رائع، وكل خالد.

وتبقى الدنيا والآخرة لله جميعاً، والله وليُّ الأمر من قبل ومن بعد.

وتلك هي بعض ما في «سيرة معاوية»، والله وليُّ التوفيق.

البَابُ الخَامِسُ

قتيبة بن مسلم الباهلي

(٤٩ ـ ٩٦هـ/٦٦٩ ـ ٧١٥هـ)

من خطاب قتيبة بن مسلم الباهلي في التحريض على الجهاد[1]

أما بعد... إن الله أحلَّكم هذا المحل ليُعزَّ دينه، ويذُبَّ بكم عن الحُرُمات ويزيدَ بكم المال استفاضة، والعدو وَقَماً (ذلّاً)، ووعد نبيَّه ﷺ النصر بحديثٍ صادق، وكتاب ناطق، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف/ ٩].

ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخْر عنده، فقال:

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٢٠ و١٢١].

ثم أخبر عمن قُتل في سبيله أنه حيٌ مرزوق، فقال:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران/ ١٦٩].

فتنجزوا موعود ربِّكم، ووطِّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإيايَ والهوينى.

---

(١) عندما تولى قتيبة ولاية خراسان، ألقى هذا الخطاب ـ أحداث سنة (٨٦هـ) في تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ١٠٥.

مقدمة

هذا رِفد جديد لمجموعة «**مشاهير قادة الإسلام**» يعالج أعمال قائد من أبرز قادة الدنيا، هو قتيبة بن مسلم الباهلي.

لقد اشتهر خلال عمليات فتح المشرق (فارس) مجموعة من القادة البارزين قد يصعب حصرهم، بداية من القعقاع بن عمرو التميمي، وجرير بن عبد الله البجلي، وضرار بن الخطاب الفهري، وحرملة بن مريطة التميمي، وسُلمى بن القين التميمي، وجَزْء بن معاوية التميمي، مروراً بالعلاء بن الحضرمي، وحرقوص بن زهير السعدي، والنعمان بن مقرن المزني، ونهايةً بـ«أبو موسى الأشعري»، وسويد بن مقرن المزني، والأحنف بن قيس التميمي، وعاصم بن عمرو التيممي، والحكم بن عمير التغلبي.

هؤلاء وأمثالهم كانوا هم الشُّهب التي أضاءت لهم سماء المشرق، وانفتحت أمام عزيمتهم أبواب الدنيا، ولكن أحداً منهم لم يتمكن من الوصول إلى ما أنجزه قتيبة بن مسلم الباهلي. وقد يكون من الصعب، دائماً، مقارنة قائد بقائد، أو موازنة أعمال رجل برجل آخر؛ وذلك لتغير الظروف والمواقف. فقد فتح هؤلاء فارس وأزالوا امبراطورية كانت ملء سمع الدنيا وبصرها، في حين جاء قتيبة في وقتٍ لاحق، ولم يكن عليه إلا مواصلة منجزات أسلافه، ولكن أمام هذه الصورة تقف صورة مضادَّة تماماً. فقد باغت العرب المسلمون الدولة الفارسية بدينهم الجديد، وتكوينهم الإسلامي الحديث، وشدة بأسهم وصلابتهم بعد أن خلقهم القرآن خلقاً جديداً، ولم يكن لهم قِبَلٌ بمجابهة القوة الجديدة، فانهارت الدولة العريقة تحت سنابك جند المسلمين، ولكن عندما جاء قتيبة؛ كان هناك عدد كبير من أهل فارس قد دخل الإسلام في قلوبهم، وكان هناك مَن قالوا «أسلمنا» ولما يقر الإسلامُ في قلوبهم، فكان هؤلاء هم الطابور الخامس ضد العرب المسلمين، وكان هؤلاء أيضاً قد تمرسوا بأساليب قتال العرب المسلمين، وعرفوا عنهم أساليب حربهم وفنون قتالهم، فكان على قتيبة مجابهة هذه التطورات كلها بمزيد من الإبداع، وبمزيد من تطوير فن الحرب، حتى

يمكن إنجاز ما طمح إليه، وحتى يمكن له تحقيق أهدافه.

إذا أمكن تجاوز ذلك كله إلى تقويم المنجزات في حدِّ ذاتها، فعندئذ تظهر الصورة الحقيقية لأعمال قتيبة وفتوحاته؛ إذ استطاع أن يفتح أقاليم واسعة تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم، ويزيد الأمر أهمية طبيعة الأقاليم الصعبة، ومناخها القاسي، وطبيعة سكانها المقاتلين الأشدّاء، كما عرفهم تاريخ الحروب منذ زمن بعيد.

لقد حاول عدد من القادة، قبل قتيبة، وضع استراتيجيات تتناسب والتطورات الجديدة في المواقف، أمثال المهلب بن أبي صفرة، وعبد الرحمٰن بن الأشعث؛ ولكنهم لم يوفّقوا في تحقيق أهدافهم، وإنجاز تطلعاتهم، **وفشلوا في التوفيق بين الهدف والوسيلة**.

رغم ذلك، فهناك تشابه في حجم المنجزات وفي الكفاءة القيادية، بين قائدين عاشا في زمن واحد وأنجزا أهدافهما في فترة واحدة، ومضيا إلى ربِّهما من دون فاصل كبير بينهما، وهما: قتيبة وموسى بن نصير؛ أولهما أخضع المشرق، وثانيهما أخضع المغرب، ولكن رغم هذا التشابه في البدايات فهناك ثمة اختلاف في النهايات، فقد قَبِلَ موسى بن نصير عزله، واستسلم لقضاء ربِّه، في حين تمرَّد قتيبة، وأعلن ثورته من دون أن ينتظر حقيقة الموقف، فكان في ذلك قضاؤه وقدره. ومضيا إلى ربهما تاركين المشرق والمغرب لله جميعاً، وبقيت أعمالهما منارات تضيء أعماق التاريخ، وترسل بظلالها إلى نهاية التاريخ.

قد يكون من التسرع هنا التعرض للمسيرة الطويلة التي سلكها قتيبة في حياته، أو العمل على تحليل معطياتها، ولكن قد يكون من الضروري التنويه بأنني استخدمت أسلوب السِّيَر، أسلوب التأريخ القديم، وذلك بهدف إثارة عَبَق الماضي وتذوق نكهته، ثم العمل على تحليل ذلك كله وفقاً للأسلوب الحديث، وأن الهدف من ذلك هو التعود على قراءة أسلوب أصبح في ظل التطور الحديث هجيناً وغريباً، رغم أصالته ودقته.

كلمة أخيرة في الهدف والوسيلة: إنَّ محاولة التعرف على تاريخ أُمتنا وأمجادها ليست لمجرد المعرفة، أو المعرفة المجرَّدة؛ بمعنى أن القضية ليست قضية عبادة للتاريخ، وإنما هي قضية الإفادة من هذا التاريخ لاكتساب خبرة مادية ورصيد معنوي، في فترة نحن أحوج ما نكون لذلك، ومن هنا يبقى الأسلوب والهدف محدَّدين بحدَّيْ الخبرة والرصيد المعنوي، ويفقد المعنى والمبنى كل أهميته إن لم يلتزم بهذين الحدَّيْن.

أما بالنسبة لنهاية قتيبة، فأفضل ما يمكن الاستشهاد به قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى/ ٣٠].

الفصل الأول

شخصية قتيبة وحروبه

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي

١ ـ الموقف العام.

٢ ـ طبيعة الإقليم.

٣ ـ الفتوح.

٤ ـ غزو بيكند.

٥ ـ فتح بخارى (٩٠هـ/ ٧٠٩م).

٦ ـ غزو شومان وكس ونسف (٩١هـ).

٧ ـ صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه، وفتح خام جرد (٩٣هـ).

٨ ـ يوم سمرقند (٩٣هـ).

٩ ـ غزو الشاش وفرغانة (٩٤ و٩٥هـ).

١٠ ـ نهاية فتوح قتيبة: فتح كاشغر، وغزو الصين (٩٦هـ).

١١ ـ تمرد قتيبة ومصرعه.

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي

(٤٩ ـ ٩٦هـ/٦٦٩ ـ ٧١٥م)

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة/ ١٤]

ما من أُمة أنتجت في عددٍ من الأجيال المتعاقبة نخبة قيادية وطليعة رائدة في فن الحرب مثل أُمة العرب المسلمين، وإذا كانت هذه الظاهرة برهاناً قوياً على عمق الأثر الذي تركه الإسلام في الأُمة العربية، فإنها في الوقت ذاته برهان على استعداد الأُمة العربية للاضطلاع بأعباء رسالة الإسلام، وحمل الأمانة لتعريف الناس أجمعين بما تضمنته الرسالة لما فيه خير الناس، كل الناس. وإذا ما أمكن تجاوز المرحلة الأولى لظهور الإسلام، من أجل الوصول إلى ما بعد جيلين من ظهور الإسلام، فسيظهر بوضوح استمرار عطاء الإسلام بكامل قوته، ويتجلى ذلك بظهور قائدين كبيرين في جيل واحد، أولهما أخضع المغرب وفتح الأندلس وهو موسى بن نصير، وثانيهما أخضع المشرق، وفتح من المساحات الجغرافية ما يعادل مساحة الأندلس وقد يزيد عليها، وليس المهم بعد ذلك تحديد المساحات الجغرافية للمقارنة بين إنجازات القائدين العظيمين، بقدر ما يهمُّ تقويم التشابه في السياسة الاستراتيجية والطرائق العملياتية وحتى التكتيكية (التعبوية) للرجلين الخالدين. ووفقاً لهذا المضمون يقف قائد المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي ليحتل في التاريخ ذات المرتبة التي احتلها قائد فتح المغرب والأندلس.

وُلد قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، أبو حفص، في عهد معاوية، عام (٤٩هـ/ ٦٦٩م)، وكان أبوه عظيم القدر عند يزيد بن معاوية، ونشأ هو في الدولة المروانية، فوُلِّي الري في أيام عبد الملك بن مروان، ووُلِّي خراسان في أيام ابنه الوليد، ووثب لغزو ما وراء النهر، فتوغل فيها وافتتح كثيراً

من المدائن؛ كخوارزم وسجستان وسمرقند، وغزا أطراف الصين، وفرض عليها الجزية، وخضعت له بلاد ما وراء النهر كلها، واشتهرت فتوحاته فاستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة، وهو عظيم المكانة مرهوب الجانب. ومات الوليد واستخلف سليمان بن عبد الملك، وكان هذا يكره قتيبة، فأراد قتيبة الاستقلال بما في يده، وجاهر بنـزع الطاعة، واختلف عليه قادة جيشه، فقتله وكيع بن حسان التميمي بفرغانة، وكان مع بطولته، دمث الأخلاق، داهية، طويل الروية، راويةً للشعر عالماً به.

تلك هي الملامح العامة لحياة قتيبة بن مسلم، وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً يمكن العودة إلى عام (٧٧هـ/ ٦٩٦م). ففي هذه السنة كان الحجاج بن يوسف الثقفي يعمل على إخماد الفتن في العراق الثائر، وكانت ثورة شبيب بن عتاب بن ورقاء قد استفحلت بدخول شبيب الكوفة، وانتصاره على كتائب الحجاج، فأرسل الحجاج إلى وجوه القوم يستشيرهم، وأذن لهم فدخلوا عليه في مجلسه الذي يبيت فيه، وهو على سرير عليه لحاف، فقال: «إن هذا الرجل قد تبحبح بحبوحتكم، ودخل حريمكم، وقتل مقاتلتكم، فأشيروا عليَّ»، فأطرقوا، وفصل رجل من الصف بكرسيه، فقال: إن أذن الأمير لي تكلَّمت، فقال: تكلَّم. فقال: «**إن الأمير والله ما راقب الله، ولا حفظ أمير المؤمنين ولا نصح للرعية**»، ثم جلس بكرسيه في الصف. قال (الراوي): **وإذا هو قتيبة**. قال: فغضب الحجاج، وألقى اللحاف، ودلى قدميه من السرير، فقال: من المتكلم؟ قال: فخرج قتيبة بكرسيه من الصف، فأعاد الكلام، قال الحجاج: فما الرأي؟ قال: أن تخرج إليه فتحاكمه، قال: فارتد لي معسكراً ثم اغدُ لي[1].

صلّى الحجاج الصبح من اليوم التالي، ثم دخل، فجعل رسوله يخرج ساعةً بعد ساعة، فيقول: أجاء بعد؟ أجاء بعد؟ ولم يعرف الناس من يريد، وقد أفعمت المقصورة بالناس. فخرج الرسولُ، فقال: أجاء بعد؟ وإذا بقتيبة يمشي في المسجد عليه قباء هروي أصفر، وعمامة خزٍّ أحمر، متقلداً سيفاً عريضاً قصير الحمائل حتى كأنه في إبطه، قد أدخل بركة قبائه في منطقته، والدرع يصفق ساقيه، ففُتح له الباب، فدخل ولم يحجب. فلبث طويلاً ثم خرج،

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٢٧٢، ٢٧٣، والكامل في التاريخ ٤/ ٦٠.

وأخرج معه لواءاً منشوراً، فصلى الحجاج ركعتين، ثم خرج يتبع قتيبة. وركب الناس وركب قتيبة، فأخذ طريق دار السقاية حتى خرج إلى السبخة وبها عسكر شبيب، وأتى الموضع الذي كان قتيبة قد استطلعه (ارتاده) فقيل له: ها هنا؟ إنه لموضع قذر. فقال: ما تدعونني إليه أقذر، الأرض تحته طيبة والسماء فوقة طيبة. ونزل قتيبة، فصف الناس. وما أن نشب القتال، حتى تسلل خالد بن عتاب ومعه نفر حتى وصل إلى ما وراء معسكر شبيب فأضرم أخصاصهم[1] بالنار، فلما رأوا ضوء النار وسمعوا معمعتها؛ التفتوا فرأوها في منازلهم، فولوا إلى خيلهم، وتبعهم الناس، وكانت الهزيمة

لقد كانت هذه أول تجربة، اختبر فيها الحجاج كفاءة قتيبة بن مسلم. وكانت مجابهة الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين من العمر، لوالي العراق، الحجاج، الذي عُرف بالبأس والقوة برهاناً على صلابة هذا الشاب، فاعتمد الحجاج رأيه من دون الناس جميعاً، وكان النصر في ركابه، مما رفعه في أعين الحجاج والناس جميعاً. ولكن قبل المضيِّ في متابعة حياة قتيبة، قد يكون من المفيد استعراض الأحداث الرئيسية في حياة قائد المستقبل.

مسيرة الأحداث في حياة قتيبة بن مسلم الباهلي

السنة (هـ)	السنة (م)	وجيز الأحداث
٤٩	٦٦٩	ولادة قتيبة بن مسلم في الشام.
٧٧	٦٩٦	اشتراك قتيبة مع والي العراق، الحجاج بن يوسف، في القضاء على ثورة شبيب.
٨٣	٧٠٢	قتيبة يتولى إمارة الري من قِبل الحجاج لإخماد ثورة عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث.
٨٦	٧٠٥	وفاة عبد الملك بن مروان، وانتقال إمارة المسلمين للوليد بن عبد الملك.
٨٦	٧٠٥	قتيبة يتولى إمارة خراسان من قِبل الحجاج بن يوسف.
٨٧	٧٠٦	صلح قتيبة ونيزك وغزو قتيبة لبيكند.
٨٨	٧٠٧	غزو قتيبة نومشكت ورامثينة.

(١) جمع خص، وهو البيت المصنوع من شجر أو قصب.

السنة (هـ)	السنة (م)	وجيز الأحداث
٨٨	٧٠٧	فتح حصن طوانة من بلاد الروم.
٨٩	٧٠٨	غزو قتيبة لبخارى.
٨٩	٧٠٨	هجوم البحرية الإسلامية على جزر الباليئار في غربي المتوسط واحتلالها.
٩٠	٧٠٩	فتح قتيبة لبخارى والصلح مع السغد وفتح الطالقان.
٩١	٧١٠	غزو شومان وكس ونسف وفتحها.
٩١	٧١٠	توجيه موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد لفتح الأندلس.
٩٢	٧١١	فتح الأندلس بقيادة موسى بن نصير.
٩٢	٧١١	غزو جزيرة سردينية.
٩٣	٧١٢	صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه وفتح خام جرد وغزو سمرقند ثم فتحها
٩٣	٧١٢	فتح طليطلة بالأندلس.
٩٤	٧١٣	غزو قتيبة الشاش وفرغانة.
٩٥	٧١٤	فتح الشاش.
٩٥	٧١٤	وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي (أمير العراق للوليد).
٩٦	٧١٥	موت الوليد بن عبد لملك وولاية أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك.
٩٦	٧١٥	فتح قتيبة كاشغر وغزو الصين.
٩٦	٧١٥	تمرد قتيبة بن مسلم ومصرعه.
٩٧	٧١٦	موت موسى بن نصير.

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي

١ ـ الموقف العام

حدثت معركة القادسية[١] في عام (١٤هـ/ ٦٣٥م)، واستمر صراع المسلمين مع الفرس على الجبهة الشرقية حتى عام (١٩هـ) أو (٢١هـ)، عندما وقعت معركة نهاوند (فتح الفتوح)، وأصدر الخليفة عمر ﷺ أوامره إلى المسلمين بالانسياح وفتح فارس. وأمكن خلال أعوام ثلاثة الإحاطة بالهضبة الفارسية، بدايةً من جبال الأهواز ومروراً بهمذان والري وأصبهان وأبهر وقزوين وقومس وجرجان وطبرستان وإصطخر، ونهايةً بأقاليم مكران في الجنوب وسجستان في الشرق. لكن حجم القوات الإسلامية لم يكن يتناسب أبداً مع اتساع المساحات الجغرافية التي تمَّ فتحها، ثم جاء بعد ذلك التمزق السياسي لوحدة العالم الإسلامي، أيام الخليفة علي ومعاوية، فزاد الأمر سوءاً، وأخذت أقاليم فارس في إعلان تمردها وخروجها على المسلمين، وعندما استقر الأمر لمعاوية؛ بذل جهده لإعادة الاستقرار إلى بلاد فارس، وحقق بعض النجاح في ذلك، إلا أن بلاد فارس بقيت باستمرار تهدد كيان الدولة الأُموية، وتقلق أُمراءها؛ إذ تحولت إلى قاعدة دائمة لكل طامع بالدولة الأموية، ولكل ثائر ضدها، وبقي الأمر كذلك حتى وُلِّي الحجاج بن يوسف الثقفي حكم العراق، فأخذ يبذل كل اهتمامه لتحصين الثغور، واختار أكفأ القادة، فكان محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وحقق اختياره نجاحاً رائعاً؛ إذ لم تلبث القيادة الماهرة لقتيبة أن فرضت وجودها في صنع الأحداث، فلم تتوقف أعمال قتيبة على تحقيق الأمن والاستقرار، وإنما تجاوزت ذلك لضمِّ إقليمين جديدين يعادلان في مساحتهما ما يزيد على نصف مساحة دولة فارس كلها، ويزيدان في أهميتهما على فارس ذاتها، وهما إقليم السغد (الصغد) بين نهري سيحون وجيحون (سيراداريا ـ وأموداريا حديثاً) وإقليم خراسان جنوبي نهر جيحون.

---

(١) لدراسة معركة القادسية راجع كتاب: «القادسية»، أحمد عادل كمال، منشورات دار النفائس.

لقد كانت الثورات المناوئة في فارس تجد لها دعماً قوياً وقاعدة خلفية صلبة في هذين الإقليمين، وكان إخضاعهما يشكل القضية الأساسية لتحقيق الاستقرار الكامل في الأقاليم التي تم افتتاحها. وعلاوة على ذلك، فقد كان موقع الإقليمين يشكل عقبة أمام توغل كل قوات المسلمين، سواء في شمالي الهند أو للاقتراب من الصين. وإذا أضيف إلى ذلك طبيعة السكان، وهم من المقاتلين الأشدّاء الذين تمرسوا بالحرب، والذين أطلقوا غزوات التتار التي هاجمت أوروبا في القرون الأربعة الأولى للميلاد؛ ظهرت المهمة الصعبة التي جابهت قتيبة بن مسلم الباهلي.

٢ ـ طبيعة الإقليم

يشكل العامل الجغرافي عاملاً شبه ثابت في دراسة الحروب. فالطبيعة الجغرافية لم تتبدل كثيراً منذ قام المسلمون بفتوحاتهم وحتى اليوم، رغم ما تعرضت له من هزات أرضية. وتتكون الطبيعة الجغرافية لإقليمي السغد وخراسان من مناطق جبلية (امتداد الهضبة لتيبت وجبال آلاي) مع وجود عوائق نهرية. وتتميز جبال الإقليمين بوعورتها وصعوبة مسالكها، وتنفرج هذا الجبال عن سهول خصبة تؤمن للسكان مواردهم الحياتية. أما مدن الإقليمين، فكانت عبارة عن قلاع محصنة؛ إذ كانت هذه المدن تتعرض للغزوات باستمرار مما حمل أهلها على تحصينها وتنظيم الدفاع عنها.

تقع أقاليم السغد وخراسان في المناطق الباردة، حيث تغمرها الثلوج في الشتاء، ولهذا فقد كان النجاح في العمليات يرتبط بتأمين حسم الصراع خلال فترة محدودة، هي فترة الربيع والصيف، وكان من المحال على قوات المسلمين القيام بأعمال قتالية في غير هذين الفصلين، وهذا ما كان يفرض تحديد هدف واضح لكل سنة ثم الانتقال في السنة التالية لتحقيق هدف آخر، وهكذا.

لقد تعاونت مجموعة من العوامل الجغرافية والإقليمية والبشرية لتجعل من إقليمي الصغد وخراسان مناطق يصعب ارتيادها، وهذا ما حمل قادة العرب المسلمين على تجنب التورط في أعمال قتالية ضمن هذه الأقاليم، وأفاد سكان هذه الأقاليم من هذا الموقع لتغذية الثورة على المسلمين والكيد لهم والنكاية

بهم. وهكذا، فعندها تولى قتيبة القيادة كان أمام خيارين، إما اقتحام المجازفة وفتح مناطق لم يجرؤ قادة المسلمين من قبل على اقتحامها، أو الاكتفاء بما فتحه المسلمون وفرض حصار قوي يمنع التسلل بين الأقاليم التي فتحها المسلمون، وتلك التي لم يصلوا إليها.

ولم تكن لدى قتيبة الإمكانات الكافية لإقامة ستار حديدي، فقوَّة العرب المسلمين لم تصل في أوج قوتها إلى (٥٠) ألف مقاتل، وهي قوة قليلة لا تكاد تُذكر بالنسبة لاتساع الإقليم وصعوبته، ولهذا لجأ قتيبة إلى الحل الأول، واقتحم المجازفة.

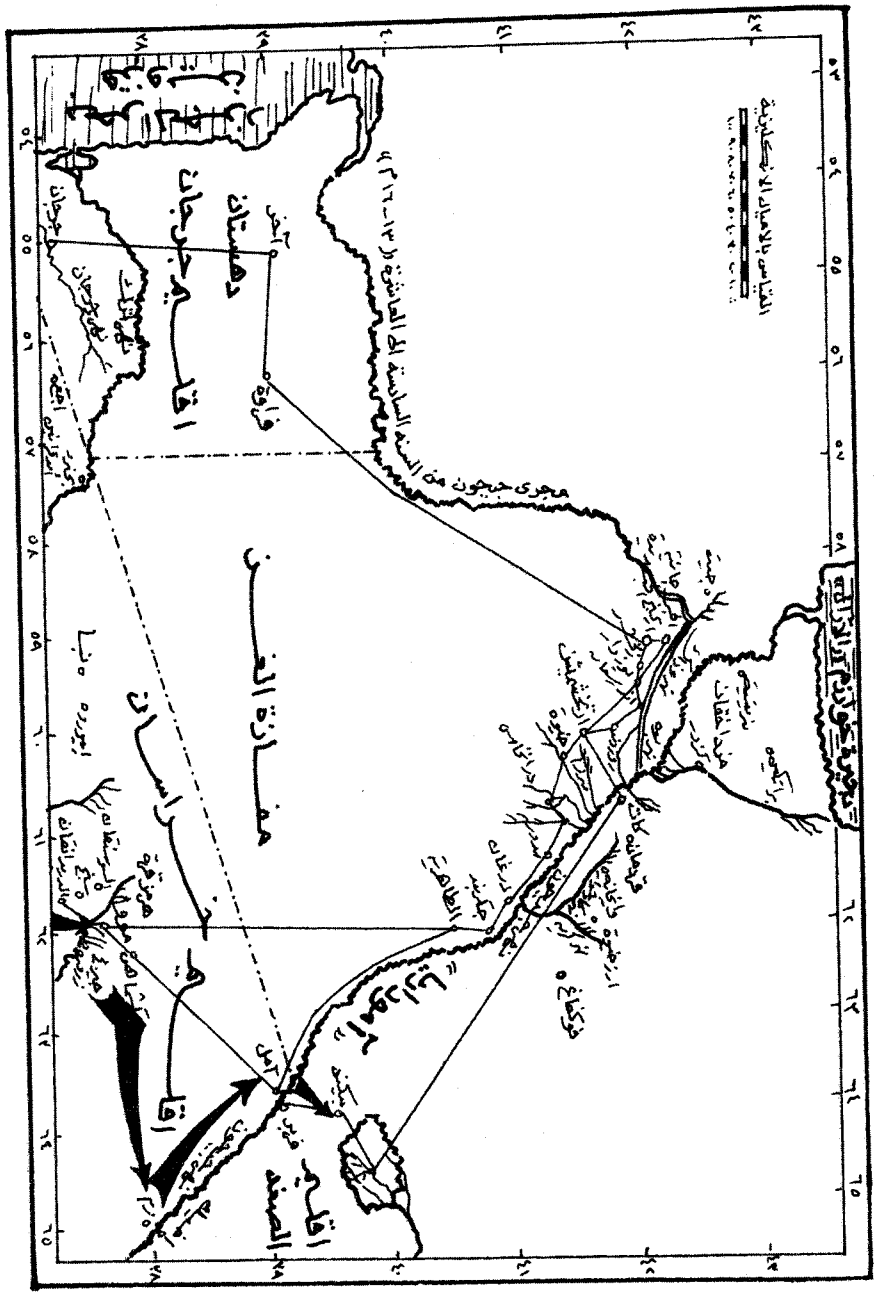
لقد فرضت مجموعة العوامل الجغرافية والإقليمية، المناخية والبشرية، على عمليات قتيبة خصائص معينة، مثل اللجوء إلى استخدام المنجنيق، واستخدام وسائط للوقاية المضادة لأعمال الحصار، بالإضافة إلى استخدام كل وسائط الإبداع والخيال لحل المشكلات الطارئة والمتجددة؛ سواء كانت هذه المشكلات تتعلق بالسياسة الاستراتيجية للفتوح، أو تتعلق بالطرائق العملياتية، وحتى مستوى التنفيذ التكتيكي، ولعلَّ هذا الطابع هو أبرز السمات المميزة لعمليات قتيبة بن مسلم الباهلي.

٣ ـ الفتوح

كانت الريُّ، وكل بلاد فارس، تضطرم ناراً، ما أن تهدأ ثورة حتى تندلع ثورة أقوى وأكبر، وكانت أقوى الثورات حين تولى قتيبة بن مسلم إمارة الريِّ[(١)]، ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث، فانصرف قتيبة إلى إخماد الفتن، وتحقيق الأمن والاستقرار وبناء القاعدة القوية، حتى ينطلق لغزواته الكبرى وفتوحاته الواسعة. وكان الحجاج، وقد ضاق ذرعاً بالموقف المتدهور على الجبهة الشرقية، قد أخذ في تركيز اهتمامه على إخضاع الأقاليم المتمردة، فدعا الناس يوم قضى على ثورة الأشعث: **من لحق بقتيبة بن مسلم بالري، فهو أمان له**؛ فلحق ناس كثير بقتيبة.

---

(١) **الري**: جنوب بحر قزوين وشمال شرق همذان، في موقع طهران العاصمة الإيرانية حالياً. كانت مدينة مشهورة وهي قصبة (عاصمة) بلاد الجبال. ولمعرفة المزيد عنها يمكن الرجوع إلى: آثار البلاد وأخبار العباد (ص٦٧٥)، والمسالك والممالك للإصطخري (ص١٢٢)، ومعجم البلدان (٤/ ٣٥٥).



أقاليم خوارزم... عمليات قتيبة سنة ٨٧هـ

كان المهلب بن أبي صفرة قد تولى إمارة خراسان، فأحسن إدارتها، وسدَّ ثغورها، وافتتح أقاليمها، ولكن المنية عاجلته في سنة (٨٢هـ/ ٧٠١م)، فتولّى يزيد بن المهلب إمارتها ريثما يقرِّر أمير المؤمنين في الشام من يولِّيه على ثغرها. ثم أن الحجاج بن يوسف كتب إلى عبد الملك بن مروان، يذمُّ يزيد وآل المهلب بسبب تأييدهم السابق للزبيرية، وانتصارهم لهم. فأجاب عبد الملك: إني لا أرى نقصاً بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير، بل أراه وفاء منهم لهم، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي. فكتب إليه الحجاج يخوِّفه غدرهم؛ استناداً إلى المعلومات التي توافرت له عن قوتهم وقدراتهم. فكتب إليه عبد الملك: قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسمِّ لي رجلاً يصلح لخراسان. فسمّى له مجاعة بن سعر السعدي، فكتب إليه عبد الملك: إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مجاعة بن سعر، **فانظر لي رجلاً صارماً، ماضياً لأمرك. فسمّى قتيبة بن مسلم.** فكتب إليه: وَلِّه؛ أي: أسند إليه إمارة خراسان. فتمَّ ذلك، وتسلم قتيبة إمارة خراسان في سنة (٨٥هـ/ ٧٠٤م).

قدم قتيبة خراسان سنة خمس وثمانين، فجمع الناس، وحضَّهم على الجهاد في كلمته المثبتة في مقدمة هذا الباب، ثم إنه عرض الجند في السلاح والكراع، فكان جميع ما أحصوا من الدروع في جند خُراسان ثلاثمائة وخمسين درعاً. وبعد أن أتمَّ تنظيمه، غادر مرو، واستخلف على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان بن السعدي. وعندما وصل الجيش إلى نهر جيحون، المعروف حالياً باسم أمودريا؛ توقف في بلخ[1] لأن بعضها كان منتقضاً عليه، وقد ناصب المسلمين، فحارب أهلها. ثم أن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة، فأمر قتيبة بردِّ السَّبي، ثم مضى إلى الطالقان[2]، بعد أن استقبل دهاقين بلخ وبعض عظمائهم الذين ساروا معه، فلما

---

(١) **بلخ**: مدينة قديمة ومشهورة بخراسان، تقع على نهر جيحون (أمودريا حالياً) اكتسبت أهميتها لوقوعها على مفترق الطرق شرقاً إلى السند والهند وشمالاً إلى بلاد الترك. لمعرفة مزيد من المعلومات عن تاريخها القديم يمكن الرجوع إلى: المسالك والممالك (١٥٤)، وتقويم البلدان (٤٦٠)، وأحسن التقاسيم (٢٩٥)، ومعجم البلدان (٢/ ٢٦٣)، وآثار البلاد (٣٣١)، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٣٢٢).

(٢) **الطالقان**: بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ. ويمكن الرجوع إلى: آثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٢)، ومعجم البلدان (٦/ ٧).

قطع نهر جيحون تلقاه ملك الصغانيان[1]، بهدايا ومفتاح من ذهب، فدعاه إلى بلاده، فأتاه وأتى كفتان بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده، فمضى إلى الصغانيان، وكان ملك (أخْرون وشومان)، وهما من طخارستان، قد أساءا جوار ملك الصغانيان، فغزا قتيبة أخرون وشومان، فجاءه ملكها (غيسلشنان) فصالحه على فدية أدّاها إليه، فقبلها قتيبة، ثم قفل فركب السفن، فانحدر إلى بلدة آمل، وخلف الجند بقيادة أخيه صالح بن مسلم.

وتقدم قتيبة جنده فسبقهم إلى مرو، وفتح صالح وهو في طريقه مدينة (باسارا)، ثم تابع طريقه إلى بلخ، فمرو، وعندما بلغ الحجاج ذلك؛ كتب إلى قتيبة يلومه، ويعجز رأيه في تخليف الجند، وكتب إليه: «**إذا غزوت فكن في مقدم الناس، وإذا قفلت فكن في أُخرياتهم وساقتهم**».

أمضى قتيبة عام (٨٦هـ/ ٧٠٥م) في تنفيذ هذه العمليات التي كانت بمثابة استطلاع ميداني للموقف أكثر منها عمليات قتالية. وعندما رجع إلى مقر عملياته ومركز إدارته لإقليم خراسان[2]؛ انصرف إلى إدارة ولايته استعداداً للمرحلة القتالية التالية، في سنته القادمة.

٤ ـ غـزو بيكند[3]

علم قتيبة بوجود أسرى للمسلمين في قبضة نيزك، ملك طرخان، فكتب إليه طالباً إطلاق سراح الأسرى، وتهدَّده في كتابه، فخاف نيزك، فأطلق الأسرى وبعث بهم إلى قتيبة. فوجه إليه قتيبة من يدعوه إلى الصلح، وإلى أن يؤمنه، وكتب إليه كتاباً يحلف فيه بالله: «لئن لم يقدم عليه ليغزونه، ثم ليطلبنه حيث كان؛ لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك».

---

(١) **الصغانيان**: ولاية عظيمة فيما وراء نهر جيحون متصلة الأعمال بترمذ. معجم البلدان ٥/ ٣٦١.

(٢) **خراسان**: بلاد واسعة تتاخم العراق العجمي من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها، وتمتد في الشمال إلى أقصى تخوم إيران. من مدنها الرئيسية: نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ، وقد فتحت بلاد خراسان سنة (٢٢هـ)، في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم تمردت وأُعيد فتحها. معجم البلدان ٣/ ٤٠٧، المسالك والممالك للإصطخري (١٤٥ ـ ١٦٠)، تاريخ الطبري وابن الأثير، أحداث سنة (٢٢هـ).

(٣) **بيكند**: أدنى مدائن بخارى إلى نهر جيحون، يقال لها: مدينة التجار، على رأس المفازة من بخارى. تاريخ الطبري ٦/ ٤٣٠، ومعجم البلدان، ب.

وتوجه سفير قتيبة إلى نيزك والكتاب بيده، وكان يستنصحه، فقال نيزك للسفير: «ما أظن عند صاحبك خيراً، كتب إليَّ كتاباً لا يُكتب إلى مثلي»! فقال له السفير: «**يا أبا الهياج! إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر، فلا يمنعك من غلظة كتابه إليك**، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر»، فقدم نيزك مع السفير على قتيبة، فصالحه أهل باذغيس في سنة (٨٧هـ/ ٧٠٦م) على ألا يدخل باذغيس.

بعد أن أمن قتيبة شرَّ نيزك وصالحه؛ أقام إلى وقت الغزو، ثم سار من مرو وأتى مرو الروذ[١]، ثم أتى زم، ثم مضى إلى آمل فقطع نهر جيحون وسار إلى بيكند[٢].

عندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة؛ استنصروا الصغد، واستمدّوا مَن حولهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطريق (قطعوا عليهم محاور اتصالهم الخلفية)، فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول، ولم يجر له خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجاج، فأشفق الحجاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم.

كان لقتيبة جاسوس (عين) يقال له تـنذر، من الفرس (العجم)، فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يصرف عنهم قتيبة، فأتى تـنذر إلى قتيبة، وطلب الاجتماع به على انفراد، فنهض الناس وانصرفوا، واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضبي حتى يحضر المقابلة. فقال تـنذر: «هذا عامل يقدم عليك، وقد عُزل الحجاج، فلو انصرفت بالناس إلى مرو!». فدعا قتيبة سياه، مولاه، فقال: «اضرب عنق تـنذر» فقتله، ثم قال لضرار: «لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري

---

(١) هناك بلدتان تحملان اسم مرو، الأولى في الشمال عند منتصف المسافة ما بين نيسابور وبخارى وتُعرف بمرو الشاهجان، والثانية تسمى مرو الروذ؛ لتمييزها، وتقع إلى الجنوب من الأولى. والروذ معناها (بلغة خراسان): النهر، ومرو (حجارة بيضاء)، ويصبح معنى مرود الروذ: نهر الحجارة البيضاء. أما مرو الشاهجان، فمعنى الشاه: ملك، وجان: الروح أو النفس، فيصبح الاسم: روح الملك. وقد فتح المسلمون مرو صلحاً في عام (٢٨هـ). معجم البلدان، الحموي، (٥/ ١١٢)، والمسالك والممالك (١٤٧، ١٥٢)، وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) في رواية الطبري (٦/ ٤٣٠) أن قتيبة توجه إلى آمل ثم إلى زم، وهو أمر بعيد الاحتمال، نظراً لاختلاف محور التحرك، لا سيما وأن آمل تقع جنوب بيكند مباشرة.

وغيرك، وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به، فاملك لسانك، فإن انتشار هذا الحديث يفتُّ في أعضاد الناس». ثم أذن قتيبة للناس بالدخول عليه، وعندما دخلوا راعهم قتل تنذر، فوجموا وأطرقوا، فقال قتيبة: «ما يروعكم مِن قتل عبد أحانه الله!»، قالوا: «إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين»، قال: «بل كان غاشاً، فأحانه الله بذنبه، فقد مضى لسبيله، فاغدوا على قتال عدوكم، وألقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به». فغدا الناس متأهبين، وأخذوا مصافهم.

ومشى قتيبة، فَحَضَّ أهل الرايات، فكان بين الناس قتال بالرماح ثم تزاحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها، وأنزل الله على المسلمين الصبر، فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم منح الله المسلمين أكتافهم، فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول، فتفرقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة، وهم قليل، فوضع قتيبة الفعلة (المهندسين) للعمل في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح، فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة. ثم ارتحل عنهم يريد الرجوع، فلما سار مرحلة أو اثنتين، وكان منهم على خمسة فراسخ (١٥ ميلاً)؛ نقضوا وكفروا، فقتلوا العامل وأصحابه، وجدعوا أنوفَهم وآذانهم، وبلغ قتيبة الخبر، فرجع إليهم وقد تحصَّنوا، فقاتلهم شهراً، ثم وضع الفعلة في أصل المدينة، فعلقوها بالخشب، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم، فسقط الحائط وهم يعلقونه، فقتل أربعين من الفعلة، فطلبوا الصلح، فأبى، وقاتلهم حتى ظفر بهم عنوة. فقتل من كان فيها من المقاتلة، وكان فيمن أُخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش (استثار) الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي، وسألوه: «ما تبذل؟» قال: «خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف»، فقال قتيبة: «ما ترون؟» قالوا: «نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟» قال: «لا والله لا تروع ـ لا تخاف ـ بك مسلمة أبداً»، وأمر به فقُتل.

لما فتح قتيبة بيكند؛ أصاب المسلمون فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى، وصار في أيدي المسلمين شيء لم يصيبوا مثله بخراسان، ورجع قتيبة إلى مرو، وقوي المسلمون فاشتروا السلاح والخيل، وجُلبت إليهم الدواب، وتنافسوا

في حسن الهيئة والعدة، وغالوا بالسلاح حتى بلغ الرمح سبعين ديناراً[1]. وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة، فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفع ذلك السلاح إلى الجند، فأذن له، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عدَّة الحرب وآلة السفر، فقسمه في الناس، فاستعدوا، فلما كان أيام الربيع؛ ندب الناس وقال: «إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء من البرد». فسار في عُدَّة حسنة من الدواب والسلاح، فأتى آمل، ثم عبر من زم إلى بخارى، فأتى نومشكت، وهي من بخارى، وذلك بعد أن استخلف على مرو بشار بن مسلم.

كان التحرك المبكر لقتيبة غير متوقع، فبوغت أهل نومُشَكَت، مما حملهم على استقبال قتيبة وعقد الصلح معه، في عام (٨٨هـ/٧٠٧م)، ثم سار قتيبة إلى رامثينة، فصالحه أهلها أيضاً، فانصرف عنهم. وزحف إليه الترك، ومعهم السغد وأهل فرغانة، فاعترضوا المسلمين في طريقهم، فلحقوا عبد الرحمٰن بن مسلم الباهلي وهو على الساقة (المؤخرة)، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل واحد، فلما قربوا منه أرسل رسولاً إلى قتيبة يخبره، وغشيه الترك، فقاتلوه، وأتى الرسول قتيبة فرجع بالناس، فانتهى إلى عبد الرحمٰن وهو يقاتلهم، وقد كان الترك يُلحقون بهم الهزيمة، فلما رأى الناس قتيبة ارتفعت روحهم المعنوية، وصبروا، واستمرَّ القتال حتى الظُّهر، وأبلى يومئذ نيزك، وهو مع قتيبة، بلاءً حسناً، فهزم الله الترك وفضَّ جمعهم. ورجع قتيبة إلى قاعدته مرو، وقطع النهر من الترمذ إلى بلخ ثم إلى مرو، وقال الباهليون: لقي التركُ المسلمينَ عليهم

---

(١) ولى قتيبة، لقسمة الغنائم، عبد الله بن وألان العدوي (أحد بني مَلَكان، وكان قتيبة يسميه الأمين ابنَ الأمين) ومعه إياس بن بيهس الباهلي، فأذابا الآنية والأصنام فرفعاه إلى قتيبة، ورفعا إليه خَبَثَ ما أذابا من بقية الذهب غير النقي والأوشاب، فوهبه لهما، فأعطيا به أربعين ألفاً، فأعلماه، فرَجَع فيه وأمرهما أن يذيباه، فأذاباه، فخرج منه خمسون ألف مثقال. وفي كثرة غنائم هذا اليوم، قال الشاعر الكميت:

ويومَ بِيكَنْدَ لا تُحْصَى عجائبهُ ... وما بُخارَاءُ ممّا أخطأ العَدَدُ

ساعدت وفرة الغنائم قتيبة على شراء (١٢) ألفاً من جياد الخيل، و(١٢) ألف هجين، ودفع ثمن كل راحلة (٤) آلاف درهم وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء، وعندما أخذ في الاستعداد لغزو نومشكت ورامينة؛ قيَّد الخيول، وأضمرها حتى تذوب شحومها وتصبح أكثر خفة لتجاوز الأنهار وقفز الحواجز والسير في المسالك الوعرة، ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان الذين يدفعهم في الطلائع (المقدمات).

(كوربفانون) التركي، ابن أخت ملك الصين، في مائتي ألف، فأظهر الله المسلمين عليهم.

بدأ قتيبة عملياته في السنة التالية (٨٩هـ/٧٠٨م) مع إطلالة الربيع، وعبر نهر جيحون عند زم، وتجمع بقوات الصُّغْد[١] وكش ونسف عند بداية المفازة الصحراوية، وبعد معركة ضارية انتصر المسلمون على الترك. ومضى قتيبة بالمسلمين حتى نزل بخرقانة السفلى عن يمين وردان، فلقوه بجمع كبير، فقاتلهم يومين وليلتين حتى ظفر عليهم. ثم أن قتيبة غزا وردان خذاه، ملك بخارى، فلم يتمكن من حسم الصراع معه، ولم يظفر من البلد بشيء، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج: «أن صَوِّرْها لي»، فبعث إليه بصورتها (مخططها)، فكتب إليه الحجاج: «أن كس بكش، وانسفْ نسَف، وَرِد وَرْدان، وإياك والتحويط، ودعني من بنيات الطريق، وارجع إلى مراغتك، فتب إلى الله مما كان منك، وأتِها من مكان كذا وكذا»[٢].

٥ ـ فتح بخارى (٩٠هـ/٧٠٩م)

لم تكن أعمال السنوات السابقة في حياة قتيبة بن مسلم أكثر من غزوات استطلاعية ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية، وأساليب القتال الملائمة.

وجاءت رسالة الحجاج، وفيها انتقاص من كفاءة قتيبة وتحذيره له من نقاط ضعف لا يجوز لقائد كقتيبة الوقوع فيها، فخرج قتيبة لغزاته في عام (٩٠هـ) وهو أكثر تصميماً على بلوغ هدفه.

وكان وردان، ملك بخارى، قد استعدَّ لمجابهة احتمال هجوم قتيبة، فأرسل

---

(١) **الصغد**: ولاية كبيرة عاصمتها سمرقند، وهي ولاية وعرة المسالك، اشتهر أهلها بأنهم مقاتلون أشداء. ولمزيد من المعرفة يمكن الرجوع إلى: آثار البلاد وأخبار العباد (ص٥٤٣)، ومعجم البلدان (٥/ ٣٦٢)، والمسالك والممالك (١٥٢).

(٢) انسف نسف (بمعنى دمر بلدة نسف) وإياك والتحويط (بمعنى احذر من التردد أو اللجوء إلى الأهداف الثانوية، وركز على المواقع الهامة) وحوط بمعنى: طوِّق أو ابنِ حوله حائطاً. وإياك وبنيات الطريق، (أي اسلك الطريق المستقيم الذي لا تعريج فيه، وابتعد عن الطرق الفرعية) وارجع إلى مراغتك (أي: ارجع إلى بخارى واجعلها هدفاً لك) والمراغة في الأصل: متمرغ الدابة. وأراد الحجاج من قتيبة أن يفتح بخارى ويجعلها قاعدة له، ويتقلب فيها كما تتقلب الدابة في مراغتها. الطبري، وابن الأثير، أحداث سنة (٨٩هـ).

في طلب الدعم من الصغد والترك ومَن حولهم. وسبق قتيبة وصول الدعم، فحصر بخارى وطوَّق قوات وردان.

عندما وصلت قوات الدعم؛ خرجت قوة من المسلمين لقتالها، فقالت قبيلة الأزد، وقد أرادت شرف مجابهة قوات الدعم وحدها: «اجعلونا على حِدَة ـ ناحية ـ وخلُّوا بيننا وبين قتالهم»، فوافق قتيبة، وتقدَّمت قبيلة الأزد للقتال، وقتيبة جالسٌ، عليه رداء أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعاً في معركة طاحنة كان التفوق فيها لصالح قوات الدعم، ولم تلبث هذه القوات أن حطَّمت صمود الأزد، واندفعت في تقدُّمها حتى دخلت معسكر قتيبة وجاوزته إلى منطقة الشؤون الإدارية ومعسكر النساء، **فخرجت النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو، حتى ضرب النساء وجوه الخيل، وعندئذٍ تدخَّل قتيبة، فأمر المجنبتين** بتطويق قوات الترك وإبادتها. وأسرع هؤلاء بالانسحاب إلى منطقة مرتفعة، فقال قتيبة: «من يزيلهم لنا عن هذا الموضع؟» فلم يقدم عليهم أحد، والأحياء من العرب كلهم وقوف، فمشى قتيبة إلى بني تميم، وحضَّهم على القتال بقوله: «يوم كأيامكم». وتقدَّم وكيع من تميم فحمل الراية، واستثار قومه، وسلم الراية لقائد فرسان تميم (هريم بن أبي طلحة المجاشعي)، في حين تولّى وكيع قيادة قوة المشاة.

وصلت قبيلة تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهرٍ واسع، وتقدم الفرسان بقيادة هريم حتى خاضوا النهر وعبروه إلى الصفة المقابلة، فيما كان وكيع يجمع الخشب حتى أقام جسراً على النهر، وقال لأصحابه: «من وطَّن نفسه على الموت فليعبر؛ ومَنْ لا، فليثبت مكانه هنا»، وعبر الجسر ثمانمائة مقاتل. وسار بالقوة بعد ذلك حتى اقترب من العدو، فأعطى جنده المشاة فترة استراحة قصيرة، ومضى لتنظيم قواته، فجعل الخيل على مجنبتيه لحمايتهما، ثم قال لهريم: «إني مُطاعن القوم، فاشغلهم عنا بالخيل». وقال للناس: شدّوا. فحملوا فما انثنَوْا حتى خالطوهم، وحمل هريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح، فما كفوا عنهم حتى حَدَروهم عن موقفهم، ونادى قتيبة: «أما ترون العدو منهزمين»، فأتبعهم الناسُ، ونادى قتيبة: «من جاء برأس فله مائة». وانطلق الجند يعبرون النهر، وأسرعت قوات الخصم بإخلاء ميدان المعركة والانسحاب بسرعة قبل أن تصلهم قوات المسلمين.

كان من نتيجة الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيشي الصغد وبخارى، وإصابة

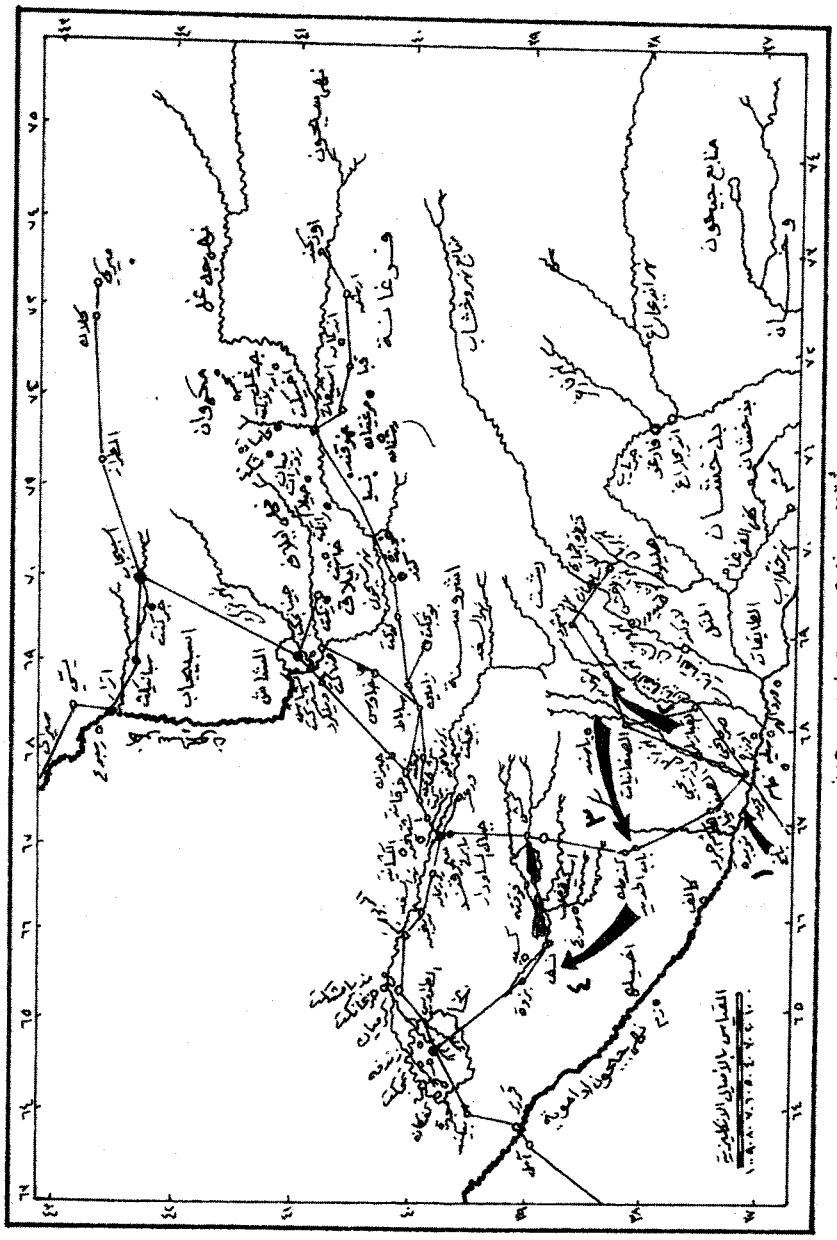
خاقان الترك وابنه في المعركة؛ أن تقدَّم ملك السند (طرخون) حتى وصل الضفة المقابلة من نهر جيحون، وعرض على قتيبة الصلح، فوافقه قتيبة، ووقعا اتفاقية الصلح، وعندما رجع طرخون إلى بلاده؛ رفض أهل مملكته قبول الصلح، وخلعوه عن الملك ونصبوا ابن أخيه مكانه، وشعر طرخون بالألم لهذا الموقف المتمرد، فاتّكأ على سيفه وانتحر.

وأرسل الملك الجديد رسولاً يعلن رفضه لاتفاقية الصلح المعقودة مع عمه، وفي الوقت ذاته، كان قتيبة ينظم أمور بخارى، حتى إذا فرغ منها؛ رجع إلى مرو، ومعه نيزك، وقد أذهله ما شهده من فتوح، وأصبح يخاف بأس قتيبة، فقال لأصحابه وخاصته: «... مُتَّهَمٌ أنا مع هذا، ولست آمنه، وهو شديد السطوة فاجر، فلو استأذنته ورجعتُ كان الرأي». قالوا: «استأذنه»، فلما كان قتيبة بآمل؛ استأذنه في الرجوع إلى تخارستان، فأذن له، فلما فارق عسكره متوجهاً إلى بلخ قال لأصحابه: «أغذوا السير»، فساروا سيراً شديداً حتى أتوا النوبهار، حيث قال لأصحابه: إني لا أشك أن قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لي، وسيقدم الساعة رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي، فأقيموا ربيئة (نقطة مراقبة) للنظر، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة، وخرج من الباب، فإنه لا يبلغ البروقان حتى نبلغ تخارستان، فيبعث المغيرة رجلاً فلا يُدركنا حتى ندخل شعب خُلُم. ففعلوا. ولم تمضِ سوى فترة قصيرة، حتى أقبل رسولٌ من قِبَل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك، فلما مرَّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبرُوقان، ومدينة بلخ يومئذ خراب، ركب نيزك وأصحابه فمضوا، وقدم الرسولُ على المغيرة، فركب بنفسه في طلبه، فوجده قد دخل شعب خُلُم، فانصرف المغيرة، وأظهر نيزك الخلع، وكتب إلى إصبهبذ بلخ والي باذام ملك مرو الروذ وإلى سهرب (أو سهرك) ملك الطالقان[1] يدعوهم إلى خلع قتيبة، فأجابوه، وواعدهم الربيع أن يجتمعوا ويغزو قتيبة[2].

---

(١) **الطالقان**: بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ. آثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٢)، ومعجم البلدان (٦/ ٧).

(٢) أراد نيزك تأمين قاعدته في حال الفشل، فاتصل بملك كابل (كابول) وبعث إليه بأمواله وكنوزه، وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه ويؤمنه في بلاده. فأجابه ملك كابل إلى ذلك، وضم كنوزه وأمواله. تاريخ الطبري وابن الأثير، أحداث سنة (٩٢هـ).



عمليات قتيبة بن مسلم سنة ٩١هـ

كان ملك تخارسان، واسمه جبغويه، ضعيفاً، فأخذه نيزك، فقيَّده بقيد من ذهب مخافة أن يشغب عليه، وجبغويه ملك تخارستان ونيزك من عبيده جعله قائداً لقواته، فلما استوثق منه وضع عليه حراسة قوية، وأخرج عامل قتيبة من تخارستان. وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء، وقد تفرق الجند فلم يبق مع قتيبة إلا أهل مرو، فبعث عبد الرحمٰن، أخاه، إلى بَلْخ في (١٢) ألف مقاتل، وكلفه بالتوجه إلى البروقان وقال له: «**أقم بها، ولا تحدث شيئاً، فإذا حسر الشتاء، فعسكر وسر نحو تخارستان، واعلم أني قريب منك**». فسار عبد الرحمٰن فنزل البروقان، وأمهل قتيبة حتى إذا كان آخر الشتاء؛ كتب إلى أبرشهر وبيورد وسرخس وأهل هراة ليقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يَقْدمون عليه فيه للغزو والحرب.

كان أول من استجاب لنيزك طرخان، ملك الطالقان، واتفق معه على حرب قتيبة، فلما هرب نيزك من قتيبة ودخل شِعَب خُلم الذي يصل إلى طخارستان؛ علم أنه لا طاقة له بقتيبة، فهرب، وسار قتيبة إلى الطالقان، فأوقع بأهلها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وصلب منهم على امتداد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً) في نظام واحد.

مضى فصل الشتاء، وجاء العام الجديد (٩١هـ/ ٧١٠م)، وقدم أهل أبرشهر وبيورد وسرخس وهراة بجيوشهم على قتيبة، فسار بالناس إلى مرو روذ، واستخلف على الحرب حماد بن مسلم، وعلى الخراج عبد الله بن الأهتم. وبلغ مرزبان مرو روذ إقباله إلى بلاده، فهرب إلى بلاد الفرس، وقدم قتيبة مرو روذ، فأخذ ابنين له فقتلهما وصلبهما، ثم سار إلى الطالقان، فقام صاحبها، ولم يحاربه فكفَّ عنه، وفيها لصوص، فقتلهم قتيبة وصلبهم واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم. ومضى إلى الغارياب، فخرج إليه ملكها مذعناً مقراً بالطاعة، فرضي عنه ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً من باهلة. وبلغ صاحب الجوزجان خبرهم، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هارباً، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين، فقبل منهم، فلم يقتل فيها أحداً، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني. ثم أتى بلخ، فلقيه الإصبهبذ في أهل بلخ، فدخلها فلم يقم بها إلا يوماً واحداً.

ثم مضى قتيبة وهو يتبع أخاه عبد الرحمٰن حتى أتى شعب خُلم، وقد مضى نيزك فعسكر ببغلان، بعد أن ترك مجموعة من المقاتلين لحماية مضيق الوادي

(فم الشعب) وللدفاع عن مداخله وحراستها. كما وضع نيزك حامية من المقاتلين في قلعة حصينة من وراء مضيق الوادي. فأقام قتيبة أياماً يقاتلهم عند مدخل الوادي من دون أن ينال منهم أو ينتصر عليهم، ولم تكن المعلومات المتوافرة لقتيبة تشير إلى وجود محاور للاقتراب سوى طريق الوادي، وسوى مفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاختراقها، فوقف في موقعه محاولاً إيجاد مخرج من هذا المأزق. وفي تلك الفترة، قدم عليه ملك (الروب وسمنجان)، فاستأمنه على أن يدلَّه على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب، فآمنه (أعطاه الأمان) وبعث معه رجالاً في الليل، فانتهى بهم إلى القلعة التي من وراء مدخل الوادي، فباغتوهم بالهجوم وأبادوا حامية القلعة، وهرب من بقي منهم، ومن كان في الشِّعب (مدخل الوادي)، فدخل قتيبة والناس الوادي، وأتى القلعة، ثم مضى إلى سمنجان، ونيزك ببغلان عند نبع يُعرف باسم (فنج جاه)، ولم تكن المفازة بين سمنجان وقرية بَغْلان شديدة الوعورة أو صعبة المسالك.

أقام قتيبة بسمنجان أياماً، ثم سار إلى نيزك، وقدم أخاه عبد الرحمٰن، وبلغ نيزك ذلك، فارتحل من منزله حتى قطع وادي فرغانة، ووجَّه ثقله وأمواله إلى ملك كابول، ومضى حتى نزل الكرز، وعبد الرحمٰن بن مسلم يتبعه، فنزل عبد الرحمٰن وأخذ بمضائق الكرز، ونزل قتيبة أسكيمشست؛ بينه وبين عبد الرحمٰن فرسخان، فتحصن نيزك في الكرز، وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد، وكان ذلك الوجه صعباً لا يمكن للفرسان الوصول إليه، فحاصره قتيبة مدة شهرين كاملين، حتى نفد التموين عند نيزك، وأصاب جنده الجدري. وخاف قتيبة الشتاء، فدعا سُليماً الناصح، وقال له: «**انطلق إلى نيزك، واحتل لأن تأتيني به بغير أمان، فإن أعياك وأبى فآمنه، واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك صلبتك، فاعمل لنفسك**». فقال سُليم الناصح: «فاكتب لي إلى عبد الرحمٰن لا يخالفني». قال قتيبة: «نعم». وكتب إلى عبد الرحمٰن بذلك.

وعندما وصل سليم إلى عبد الرحمٰن؛ طلب إليه إرسال مجموعة من الفرسان للتمركز عند مدخل الوادي، وقال له: «إنَّ على هؤلاء الفرسان إعاقتنا عن الوصول إلى مدخل الوادي إذا ما خرجنا أنا ونيزك». وبعث عبد الرحمٰن قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سليم، ومضى سليم وقد حمل معه من الأطعمة

ما يكفي أياماً، حتى أتى نيزكاً، ونصحه بتسليم نفسه إلى قتيبة ومحاولة إزالة غضبه «وأن قتيبة لن يبرح موضعه، وقد صمَّم على قضاء الشتاء في موقعه؛ هلك أو سلم». وبعد مناقشة طويلة استطاع سليم إقناع نيزك بالتسليم، لا سيما بعد أن برهن له عن مدى حاجة جنده للطعام عندما عرض ما يحمله عليهم، وقَبِل نيزك في النهاية مرافقة سليم.

وتدخلت قوة الفرسان، فحالوا بين الأتراك والخروج، ورافقوا نيزكاً حتى قدموا به إلى عبد الرحمٰن بن مسلم، فأرسل رسولاً إلى قتيبة يعلمه، فأرسل قتيبة بطلبهم، فقدم بهم عبد الرحمٰن عليه، فحبس أصحاب نيزك، ودفع نيزكاً إلى ابن بسام الليثي، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك. وفي انتظار ذلك؛ جعل ابن بسام نيزكاً في خيمته (قبته) وحفر حول القبة خندقاً، ووضع عليه حراسة قوية، وجاء كتاب الحجاج بعد أربعين يوماً يأمر بقتل نيزكٍ[1].

عمل قتيبة بعد ذلك على إعادة تنظيم الإدارة في تخارستان، وأطلق سراح ملكها جبغويه، وأرسله إلى الوليد، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد، ورجع قتيبة إلى مرو، واستعمل أخاه عبد الرحمٰن على بلخ، وأرسل إلى الحجاج بالخراج وبأخبار الفتح، فكان ما يردِّده الحجاج دائماً: «**بعثت قتيبة فتىً غِراً، فما زدته ذراعاً إلا زادني باعاً**».

ما أن استقر قتيبة في مرو، حتى وصله طلب أمان من ملك الجوزجان، وكان قد هرب عن بلاده تأييداً لنيزك، ثم تراجع عن موقفه عندما علم بمصرعه، فآمنه

---

(١) عندما جاء أمر الحجاج، استدعى قتيبة نيزكاً للمثول بين يديه، وقال له: هل لك عندي عقد أو عند عبد الرحمٰن أو عند سليم؟ قال: لي عند سليم، قال: كذبت. وقام، وردَّ نيزكاً إلى حبسه. ومكث قتيبة ثلاثة أيام لا يظهر للناس. وقام المهلب بن إياس العدوي، وتكلم في أمر نيزك، فقال بعضهم: ما يحل له أن يقتله، وقال بعضهم: ما يحل له تركه. وخرج قتيبة في اليوم الرابع، فجلس وأذن للناس فقال: ما ترون في قتل نيزك؟ فاختلفوا، فقال قائل: اقتله، وقال قائل: أعطيته عهداً فلا تقتله، وقال قائل: ما نأمنه على المسلمين. ودخل ضرار بن حصين الضبي، فقال: ما تقول يا ضرار؟ قال: «إني سمعتك تقول: أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله، فإن لم تفعل لا ينصرنك الله عليه أبداً»، فأطرق قتيبة طويلاً، ثم قال: والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات، لقلت اقتلوه، اقتلوه، اقتلوه. وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وقتل أصحابه. فقال المغيرة بن حبناء كلمة طويلة في مديح عمل قتيبة مطلعها:

لَعَمْري لَنَعِمَتْ غَزْوةُ الجند غزوة ... قضتْ نحبها من نيزك وتعلَّت

قتيبة على أن يأتيه فيصالحه، فطلب رهناً يكونون في يديه ويعطي رهائن مقابل ذلك، فأعطى قتيبة حبيب بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته. فخلَّف ملك الجوزجان حبيباً بالجوزجان في بعض حصونه، وقدم على قتيبة فصالحه، ثم رجع فمات بالطالقان مسموماً، وقتل أهل الطالقان حبيباً، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرُّهُن الذين كانوا عنده[1].

٦ ـ غزو شومان وكس ونسف (٩١هـ)

أفاد ملك شومان (قيسلشتان) من الاضطراب الذي أثاره غدر نيزك، فطرد عامل قتيبة، ومنع الفدية التي كان قد صالح عليها قتيبة، فبعث إليه قتيبة رسولاً، وهو عياش الغنوي، ومعه رجلٌ من نُسّاك أهل خُراسان يدعوان ملك شومان إلى أن يؤدي الفِدية على ما صالح عليه قتيبة، فقدما البلد، فخرجوا إليهما فرموهما، فانصرف الرجل، وأقام عياش الغنوي، فقال: «أمَا ها هنا مسلمٌ!» فخرج إليه رجلٌ من المدينة فقال: «أنا مسلم، فما تريد؟» قال: «تُعينني على جهادهم»، قال: نعم. فقال له عيّاش: «كن خَلْفي لتمنعَ لي ظهري»، فقام خلفه، وكان اسم الرجل: المهلب، فقاتلهم عياش، فحمل عليهم، فتفرقوا عنه، وحمل المهلب على عياش من خلفه فقتله، فوجدوا به ستين جراحة، فغمَّهم قتله وقالوا: «قتلنا رجلاً شجاعاً».

بلغ قتيبة ما فعل أهل شومان بسفيريه، فسار إليهم بنفسه ولما تكد قواته تأخذ قسطها من الراحة بعد قتال نيزك، وأخذ طريق بلخ بعد أن دفع أخاه عبد الرحمٰن لقيادة مقدمته. وكان ملك شومان صديقاً لصالح، أخي قتيبة، فأرسل إليه صالح رجلاً يأمر بالطاعة، ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح، فأبى وقال: «ما تخوفني به من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً؛ أرْمي

---

(١) وفي ذلك قال نهار بن توسعة:

أراد اللهُ في الأتراك حكماً ... كحُكْمٍ في قُرَيْظَة والنَّضير
قضاءً من قتيبة غَيْرُ جوْر ... به يُشْفَى الغليل من الصدور
فإن يَرَ نيزك خزياً وذُلاً ... فكم في الحرب حُمَّقٌ من أمير

وقريظة والنضير: قبيلتان يهوديتان، غدرتا بالرسول ﷺ بعد ميثاقهما، فعاقبهما الرسول قبل غزوة الأحزاب (الخندق)، وذلك بإخراجهما من المدينة، وإبادة المقاتلين ممن آذوا المسلمين. أحداث سنة (٨هـ).

أعلاه، وأنا أشد الناس قوساً، وأشد الناس رمياً، فلا تبلغ نشابتي نصف حصني، فما أخاف من قتيبة».

فمضى قتيبة من بلخ، فعبر النهر، ثم أتى شومان وقد تحصن ملكها، فوضع عليه المجانيق، ووضع منجنيقاً كان يسميها (الفحجاء) فرمى بأول حجر، فأصاب الحائط، ورمى بآخر فوقع في المدينة، ثم تتابعت الحجارة حتى دمر الحصن. وخاف ملك شومان من الوقوع في قبضة قتيبة، ورأى ما نزل به، فجمع ما كان عنده من مال وجوهر، فرمى به في عين في وسط القلعة لا يدرك قعرها، ثم جمع قواته، وفتح أبواب القلعة، وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قُتل.

ودخل قتيبة القلعة بعد أن فتحها عنوة، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، ثم رجع إلى كِس ونسف، ثم مضى إلى بخارى، ثم سار إلى طرخون بالصغد ليقبض منه ما كان صالحه عليه، فلما أشرف على وادي الصغد، توقف هناك، وقبض من طرخون صلحه، وعاد متبعاً محور: بخارى ـ آمل ـ مرو.

كانت عمليات السنة التالية، سهلة هيِّنة، فقد غزا قتيبة سجستان[1]، يريد رُبتيل الأعظم والزابل، فلما نزل سجستان؛ استقبلته رسل رُبتيل بالصلح، فقبل ذلك وانصرف، واستعمل عليهم ربة بن عبد الله بن عمير الليثي، وعاد إلى مرو.

٧ ـ صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه[2] وفتح خام جرد (٩٣هـ)

كان ملك خوارزم (الآرال حالياً) ضعيفاً، فغلبه أخوه خرذاذ على أمره ـ وخرذاذ أصغر منه ـ فكان إذا بلغه أن عند أحد من مواطني مملكته جارية أو دابَّة أو متاعاً فاخراً أرسل فأخَذَه، أو بلغه أن لأحدهم منهم بنتاً أو أختاً أو امرأة جميلة أرسل إليه فغصبه، وأخذ ما شاء، وحبس ما شاء، لا يمتنع عليه

---

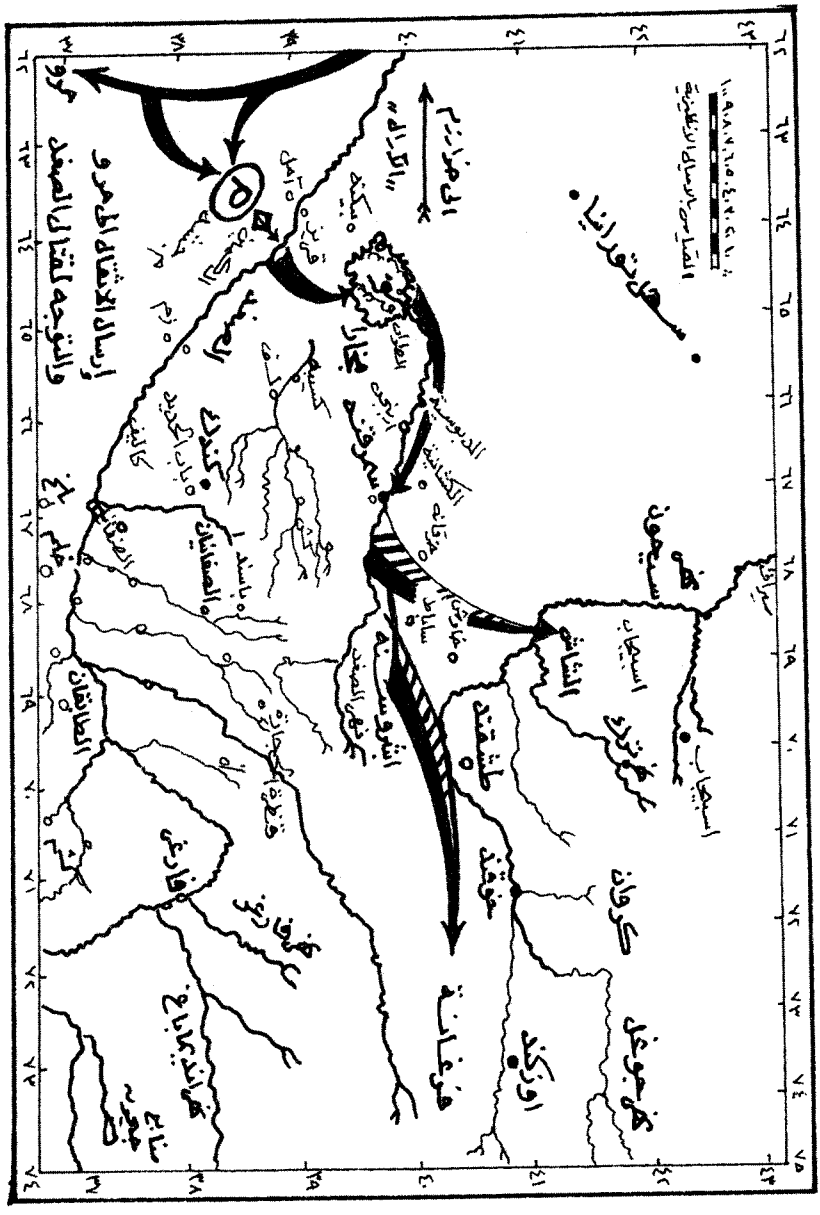
(١) **سجستان**: ناحية كبيرة، وولاية واسعة، يحدُّها شرقاً صحراء ـ مفازة ـ بين مكران وأرض السند واللتان، وتقع خراسان والهند إلى غربها. كما يحدها جنوباً الصحراء الممتدة بين سجستان وفارس وكرمان. لمزيد من المعلومات راجع: آثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١)، وتقويم البلدان (٣٤٠)، والمسالك والممالك للإصطخري (١٣٩)، ومعجم البلدان (٥/ ٣٧).

(٢) **خوارزم (الآرال)**: اسم إقليم يحده من الشمال والغرب: الغزية، ومن الجنوب والشرق خراسان وما وراء النهر. المسالك والممالك للإصطخري (ص١٤٥)، ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٧).

أحد، ولا يستطيع الملك منعه أو تأديبه، وكثيراً ما رفع الناس ظلاماتهم للملك، فكان يقول: «لا أقوى عليه».

وزاد الأمر على الملك حتى ملأه غيظاً، فلما طال الأمر عليه؛ كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه حتى يسلِّمها له، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خُوارزم، وهي ثلاثة مفاتيح من ذهب، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه، وكلَّ من يضاده أو يقاومه، ليحكم فيه بما يرى، وبعث في ذلك رسلاً، ولم يطلع أحداً من معاونيه ومستشاريه (مرازبته ودهاقينه) على ما كتب به إلى قتيبة، فقدمت رسله على قتيبة في آخر الشتاء ووقت الغزو، وقد تهيَّأ للحرب واستعد لها، فأظهر قتيبة أنه يريد التوجه إلى الصغد. ورجع سفراء خوارزم شاه إليه بما يحب من قِبل قتيبة، وسار بعد أن استخلف على مرو، ثابتاً الأعور مولى مسلم، وجمع ملك خوارزم ملوكه، وأحباره ـ كهنته ـ ومستشاريه، وخدعهم بقوله: «إن المعلومات المتوافرة له تؤكد أن قتيبة يريد الصغد، ولا يريد الهجوم على خوارزم شاه»، فانصرف أهل خوارزم عن الاستعداد للحرب، ولم يشعروا باقتراب الخطر منهم إلا عندما نزلت قوات المسلمين في هزارسب، دون النهر.

واجتمع أصحاب الملك لمناقشة الموقف، وطالبوا بالتعرض لقتال قتيبة، ولكن الملك قاوم هذا الاتجاه عندما قال لهم: «إني لا أرى ذلك، فقد عجز عنه من هو أقوى منّا وأشدُّ شوكة، ولكنني أرى أن نصرفه بشيء نؤديه إليه، فنصرفه عامنا هذا، ونرى رأينا»، فوافقوه على رأيه. فأقبل خوارزم شاه، فنزل في مدينة الفيل من وراء النهر. وكانت مدائن خوارزم الرئيسية ثلاثة، لكن فيل كانت أكثرهنّ منعة وقوةً وتحصيناً، وبقي نهر بلخ هو الفاصل بين مواقع قوات قتيبة في هزارسب، ومكان نزول ملك خوارزم في فيل، وتمَّ الصلح على (١٠) آلاف رأس وعين ومتاع، بشرط أن يساعده على ملك خام جرد، وأن يفي له بما كتب إليه، فقبل ذلك منه قتيبة، ووفى له؛ إذ بعث قتيبة أخاه إلى ملك خام جرد، الذي كان يناصب خوارزم شاه العداء، فقاتله، فقتله عبد الرحمٰن واجتاح حدود بلاده، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير، فقتلهم. ودفع قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه، فقتلهم وصادر أموالهم، وبعث بها إلى قتيبة. ودخل قتيبة مدينة فيل، فقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ثم رجع إلى هزارسب.



أقاليم نهري سيحون وجيحون «سيرداريا وأمودايا»
مخطط عمليات قتيبة بن مسلم الباهلي في إقليم بين النهرين «أزبكستان من تركستان»

٨ ـ يـوم سمرقند (٩٣هـ)[١]

ما أن أمضى قتيبة الصلح مع حاكم خوارزم (ملكها) حتى تقدم إليه المجشر بن مزاحم السلمي وطلب التحدث إليه على انفراد، وعندما تمَّ له ذلك قال المجشر لقتيبة: «إن أردت السغد يوماً من الدهر، فالآن؛ فإنهم آمنوا من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام». وسأله قتيبة: «هل أشار بهذا عليك أحد؟» وأجابه المجشر بالنفي. وعاد يسأله: «وهل أعلمته أحداً؟» فأجاب المجشر بالنفي أيضاً. وعندها قال له قتيبة: «والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك». ثم أن قتيبة أقام يومه، فلما أصبح من الغد دعا عبد الرحمٰن، فقال: «سِرْ في الفرسان والمُرامية، وقدِّم الأثقال إلى مَرْو». ومضى عبدُ الرحمٰن يتبع الأثقال يريد مَرْو يومَه كله، فلما أمسى كتب إليه: «إذا أصبحتَ فوجِّه الأثقال إلى مَرْو، وسِرْ في الفرسان والمُرامية نحو السُّغد، واكتم الأخبار، فإني بالأثر أتبعك». ولما وصلت الرسالة؛ أمر عبد الرحمٰن أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مَرْو، وسار حيث أمره.

وخطب قتيبة الناس فقال: «إن الله قد فتَحَ لكم هذه البلدة في وقت الغَزْوُ فيه ممكن. وهذه السغد شاغرة برجلها (رجالها) قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، ومنعونا ما كان صالَحْنا عليه طرخون، وصنعوا به ما بلغكم. وقال الله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، فسيروا على بركة الله، فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة. وقال الله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح/٢١]. ووصل قتيبة إلى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمٰن بن مسلم في (٢٠) ألفاً، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبُخارى بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمٰن بهم، فقال: إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات/١٧٧]، وبدأت مرحلة حصار السغد التي استمرت شهراً؛ حدثت خلاله مجموعة من المعارك والاشتباكات في قطاع واحد.

---

(١) كانت سمرقند عاصمة إقليم السغد (أزبكستان حالياً) وهي تقع في موقع متوسط من الإقليم، تستند إلى جبال آلاي المتفرعة عن هضبة التيبت، وقد عني بها ملوك السغد فحصَّنوها تحصيناً جيداً. ونظراً لوعورة مسالكها وصعوبة الوصول إليها، فإنه لم يفكر أحد من قادة المسلمين باحتلالها قبل قتيبة، ورضي الولاة والقادة بالصلح معها. وكانت سمرقند تصالح وتنتقض باستمرار، وبقيت مركزاً رئيسياً من مراكز الثورة على المسلمين، ومحوراً أساسياً في كل تحالف عسكري ضد جيوش العرب المسلمين.

اشتد الحصار على أهل السغد، وخافوا طول الحصار، فكتب غَوْزَك، ملك السغد، رسائل إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة وخاقان الترك؛ جاء فيها: «إنا نحن دونكم، فيما بينكم وبين العرب؛ إن ظفروا بنا عادوا فأغاروا عليكم بمثل ما أتونا به، وأصبحتم أضعف وأذل، فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها».

واستجاب الملوك لدعوة غوزك ملك السغد، وطلبوا إليه مقاومة العرب وخداعهم حتى يباغتوا العرب. واجتمع هؤلاء الملوك، فقالوا: «إنما نؤتى من سَفَلتنا، وإنهم لا يجدون لوَجْدنا، ونحن معشر الملوك المعنيون بهذا الأمر، فانتخبوا أبناء الملوك وأهل النجدة من فتيان ملوكهم، فليخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة، مباغتة، فلإنه مشغول بحصار السغد». وانتخبوا فرساناً من أبناء المرازبة، والأساورة الأشدّاء الأبطال، وولّوا عليهم ابناً لخاقان ملك الترك، وأمروهم أن يباغتوا قتيبة بهجوم ليليٍّ.

وبلغ قتيبة ذلك، فانتخب أهل النجدة والبأس حتى بلغ عددهم أربعمائة، ثم جمعهم وقال لهم: «**إن عدوَّكم قد رأوا بلاء الله عندكم، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومُكاثرتكم، كلُّ ذلك يُفلجكم (لينصركم) الله عليهم، فأجمعوا على أن يحتالوا عزَّتكم وبَيانكم (ليباغتوكم بهجوم ليليٍّ)، واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضَّلكم الله بدينه، فأبلوا الله بلاءً حسناً تستوجبون به الثواب، مع الذَّبِّ عن أحسابكم**». ووضع قتيبة عيوناً (جواسيس) على العدو حتى إذا قربوا منه قدر ما يصلون إلى عسكره من الليل؛ دفع الذين انتخبهم، بعد أن حضَّهم على القتال، واستعمل عليهم صالح بن مسلم. فخرجوا من المعسكر عند المغرب، فساروا ونزلوا على فرسخين من العسكر عن طريق القوم الذين وُصفوا لهم، ففرَّق صالح خيله، وأكمن كميناً عن يمينه، وكميناً عن يساره، وأقام مع مجموعة من الفرسان على قارعة الطريق، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه؛ جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة، ولم يعلموا بمكان صالح حتى اصطدموا به، حتى إذا اختلفت الرماح، واشتدَّت المعركة؛ خرج الكمينان عن يمين وشمال فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى قال أحد الذين اشتركوا في قوة الكمين: «حصرناهم، فما رأيت قط قوماً كانوا أشدَّ قتالاً من أبناء أولئك الملوك، ولا أصبر، فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا نفر يسير وحَوَيْنا سلاحهم،

واحتززنا رؤوسهم، وأسرنا منهم أسرى، فسألناهم عمن قتلنا؟ فقالوا: ما قتلتم إلا ابن ملك، أو عظيماً من العظماء، أو بطلاً من الأبطال، ولقد قتلتم رجالاً إنْ كان الرجل ليعدل بمائة رجل». وقال مقاتل آخر: «إنا لنختلف عليهم بالطعن والضرب؛ إذ تبينت تحت الليلة قتيبة، وقد ضربت ضربة أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة، فقلت: كيف ترى بأبي أنت وأُمي! قال: اسكت دقَّ الله فاك. قال: فقتلناهم وأقمنا نَحْوي (نجمع) الأسلاب ونحترُّ الرؤوس حتى أصبحنا. ثم أقبلنا على المعسكر، فلم أرَ جماعة قط جاؤوا بمثل ما جئنا به؛ ما منا رجل إلا معلق رأساً معروفاً باسمه وأسيراً في وثاقه، مع ما سلبنا من جيد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودواب فُرَّهة، فنفلنا قتيبة ذلك كله، وقال: جزاكم الله عن الدين والأعراض خيراً. وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باحَ لي بشيء، وقرن بي في الصلة والإكرام حيانَ العدوي وحُلياً الشيباني، فظننت أنه رأى منهما مثلَ الذي رأى مني. وكسر ذلك أهل السغد، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية، فأبى، وقال: أنا ثائر بدم طَرْخون، كان مولاي، وكان من أهل ذمَّتي».

استمرَّت الحرب، وأخلص أهل بخارى وأهل خوارزم القتال إلى جانب قتيبة، فأرسل غوزك، ملك السغد، إلى قتيبة يقول له: «إنما تقاتلني بإخوتي، وأهل بيتي من العَجَم، فأَخْرجْ إليَّ العرب». فغضب قتيبة ودعا الجدلي، فقال: «اعرض الناس ومَيِّز أهل البأس»، فجمعهم، ثم جلس قتيبة يعرضهم بنفسه، ودعا العُرَفاءَ فجعل يدعو برجل رجل، فيقول: ما عندك؟ فيقول العريف شجاع. ويقول: ما هذا؟ فيقول: مختصر، ويقول: ما هذا؟ فيقول: جبان. فسمى قتيبة الجبناء الأنتان وترك لهم رثَّ السلاح، ثم زحف بهم فقاتلهم بهم فرساناً ورجالاً. واستمر الصراع بين الفرسان في حين برز قتيبة بسريره، وقعد عليه ليتابع المعركة. وحمل السغد على المسلمين حملة حطموهم حتى جازوا عسكرهم، وقتيبة محتبٍ بسيفه ما حَلَّ حَبْوته، وانطوت مجنبتا المسلمين على الذين هزموا القلب، فهزموهم حتى ردّوهم إلى عسكرهم، وقتل من المشركين عدد كبير. ودخلوا مدينة سمرقند وتحصَّنوا بها، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق، فثَلَم ثلمة، فسدوها بغرائز الدخن، وأطال قتيبة المقام، واستمر في رمي سمرقند بالمنجنيق، فثلم فيها ثلمة.

وقال قتيبة: «ألحوا عليها حتى تعبُروا الثلمة»، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة. ورماهم السغد بالنشاب، فوضعوا ترسهم، فكان الرجل يضع ترسه

على عينه ثم يحمل حتى صاروا على الثلمة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غداً. وأجاب قتيبة: «لا نصالحهم إلا ورجالُنا على الثلمة، ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم». وفشل اقتحام الثغرة (الثلمة) ووقف عليها رجل وهو يشتم قتيبة بالعربية الفصحى، وأسرع المسلمون نحو الرجل وهو ملح بالشتم، في حين كان قتيبة مُحتبٍ بشملة وهو يردد كالمناجي لنفسه: «حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان! أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية». وسمعه أحد القادة، فانصرف عن قتيبة، وانضم إلى أصحابه ليقول لهم: «كم من نفس أبيَّة ستموت غداً منا ومنهم!». ثم أن قتيبة التفت إلى من حوله، وقال لهم: اختاروا منكم رجلين. فاختاروا، فقال: أيكما يَرمي هذا الرجل، فإن أصابه فله عشرة آلاف، وإن أخطأه قطعت يده؟ فتلكأ أحدهما، وتقدَّم الآخر، فرماه، فلم يخطىء عينه، وقال هذا الرامي، وهو خالد بن باب، مولى مُسلم بن عمرو: «كنت في رماة قتيبة، فلما افتتحنا المدينة صعدت السور، فأتيت مُقام ذلك الرجل الذي كان فيه، فوجدته ميتاً على الحائط؛ ما أخطأت النُّشابة عينه حتى خرجت من قفاه». ثم أصبح المسلمون من غد فرموا المدينة، فثلموا فيها. وقال قتيبة: ألحوا عليها حتى تعبروا الثلمة (الثغرة).

وحمل المسلمون بقوة، فدخلوا مدينة سمرقند، فصالحهم أهلها. واشترط قتيبة أن يسلمه أهل سمرقند (٣٠) ألف كرهينة في قبضته ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب، كما اشترط إخلاء المدينة من كل مقاتل، وأن يُبنى له فيها مسجد فيدخل ويصلي، ويوضع له فيها منبر فيخطب، ويتغدى ويخرج. ونفَّذ أهل سمرقند شروط قتيبة، فقال: «الآن ذلُّوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم». ودخل قتيبة سمرقند فصلى وخطب ثم تغدَّى، وأرسل إلى أهل السغد: «من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه، فإني لست خارجاً منها، وإنما صنعت هذا لكم، ولستُ آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه؛ غير أن الجند يقيمون فيها». وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحلية الأصنام، فكانت كالقصر العظيم حين جُمعت، فأمر بتحريقها، فقالت الأعاجم: إن فيها أصناماً من حرقها هلك. فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي. ودعا قتيبة بالنار، وأخذ شعلة بيده، وخرج فكبَّر، ثم أشعلها، وأشعل الناس، فاضطرمت، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال، وتلا قتيبة: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم/ ٥٠ و٥١].

ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو، واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم، وخلف عنده جنداً كثيفاً، وآلة من آلات الحرب كثيرةً، وقال: «لا تدعنَّ مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد، وإن جفَّت الطينة قبل أن يخرج فاقتله. وإن وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه، فاقتله. وإن أغلقت الباب ليلاً، فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله»[1].

كان قتيبة قد عيَّن إياس بن عبد الله بن عمرو لقيادة القوات المحاربة في خوارزم، كما عيَّن على خراجها عبيد الله بن أبي عُبيد الله، مولى بني مسلم، وقد وجد أهل خوارزم في إياس ضعفاً أطمعهم فيه، فجمعوا له، فكتب عبيد الله إلى قتيبة يستنجده، فبعث قتيبة عبد الله بن مسلم في الشتاء عاملاً، وقال له: «اضرب إياس بنَ عبد الله وحيَان النبطي مائة مائة، واحلقهما، وضمَّ إليك عبيد الله بن أبي عبيد الله، مولى بني مسلم، واسمع منه، فإن له وفاءً». فمضى حتى إذا كان من خوارزم على مسافة قريبة؛ أرسل إلى إياس من يُنذره للتنحِّي عن السلطة، وقَدِمَ فأخذ حيان فضربه مائة وحَلَقه. ثم وجه قتيبة، بعد عبد الله، المغيرةَ بن عبد الله في الجنود إلى خوارزم، فبلغهم ذلك، فلما قَدِم المغيرةُ اعتزل أبناء الذين قتلهم خوارزم شاه، وقالوا: لا نُعينك. فهربوا إلى بلاد الترك، وقدم المغيرة فسبى وقَتَل وصالحه الباقون، فأخذ الجزية، وقَدِم على قتيبة، فاستعمله على نيسابور.

٩ ـ غزو الشاش وفرغانة (٩٤ و٩٥هـ)

انطلق قتيبة لمتابعة فتوحاته في بداية فصل الربيع كعادته، عام (٩٤هـ)، ولما

---

(١) لما فتح قتيبة سمرقند، وقف على جبلها فنظر إلى الناس متفرقين في مروج السغد، فتمثل قول طرفَة بن العبد:

وأَرْتَعَ أقوام ولولا مَحَلُّنا ... بمخشِيةٍ ردُّوا الجمال فَقَوَّضُوا

ودعا قتيبة نهارَ بن توسعة حين صالح أهلَ السغد، فقال: يا نهار! أين قولك:

ألا ذهب الغزو المُقرِّبُ للغنى ... ومات النَّدى وَالجودُ بعد المهلب

أقاما بِمَرو الرُّوذ رهن ضريحه ... وقد غُيِّبا عن كل شرق ومغرب

أفغزوٌ هذا يا نهار؟ قال: لا، هذا أحسن. إن الذي أنت فيه ليس بالغزو ولكنه الحرب، وأنا الذي أقول:

وما كان مُذ كنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مُسلم

أعمَّ لأهل الترك قتلاً بسيفِه ... وأكثر فينا مَقْسِماً بعدَ مقسم

الشعر والشعراء (٥٢٣).

أن عبر نهر سمرقند فرض على أهل بخارى وكِس وخوارزم تقديم ٢٠ ألف مقاتل، ثم سار بهم إلى السغد ودفعهم إلى الشاش[١]، في حين تابع تقدُّمه بقواته إلى فرغانة، وعندما وصل خجندة؛ اصطدم بمقاومة قوية نظمها أهل خجندة، ودارت معارك مستمرة كانت قوات المسلمين تخرج كل يوم منها بانتصارات جزئية من دون الوصول إلى نصر حاسم. وفرغ الناس من قتالهم ذات يوم، فركبوا خيولهم وانتشروا في كل مكان، فوصل منهم رجل إلى موقع مرتفع يشرف على السهل، ونظر فيما حوله، فقال لصاحب له: «تالله ما رأيت كاليوم غرة، لو كان هيج (قتال) اليوم ونحن على ما أرى من الانتشار لكانت الفضيحة، فقال له صاحبه: كلا، نحن كما قال عوف بن الجزع:

نؤم البلاد لحب اللِّقا ... ولا نتَّقي طائراً حيث طارا
سنيحاً ولا جارياً بارحاً ... على كل حال نلاقي النسارا

ثم أتى قتيبة كاشان (مدينة تابعة لفرغانة)، وأتاه الجنود الذين وجَّههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها، وانصرف قتيبة إلى مرو.

كان والي العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي، يتابع عمليات قادته في أقصى الشرق، حيث كان محمد بن القاسم الثقفي قد فتح السند (باكستان) وأخذ في فتح الهند، وقد عرف الحجاج أن قتيبة في حاجة لمزيد من الدعم حتى يستطيع متابعة فتوحاته، فأرسل الحجاج إلى محمد بن القاسم أمراً جاء فيه: «وجِّه مَنْ قبلك من أهل العراق إلى قتيبة، ووجِّه عليهم جَهْم بن زحر بن قيس، فإنه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام». ومضى جهم بن زَحْر إلى قتيبة، وأصبحت فتوح قتيبة من نصيب أهل العراق، فيما بقيت فتوح السند والهند من نصيب أهل الشام.

وصل جيش العراق بقيادة زَحْر إلى مرو في عام (٩٥هـ)، وقتيبة يستعد لهجومه السنوي. وانطلق قتيبة حتى وصل الشاش (أو بكشُماهن)، وهناك بلغه

---

(١) إقليم **الشاش** هو الإقليم الذي يقع شمالي نهر سيحون (سيرداريا حالياً) وهو إقليم جبلي يعتبر امتداداً لسلسلة جبال تيان شان، وتقع طاشقند في مركز الإقليم. أما **فرغانة**، فهو اسم مدينة واسم الإقليم أيضاً الذي يمتد فيما وراء نهر سيحون ويتاخم التركستان، وهذا الإقليم بدوره جبلي ويتفرع عن التيبت ويعرف حالياً باسم جبل آلاي، وتشكل فرغانة حالياً القسم الشرقي من أزبكستان. لمزيد من المعلومات الجغرافية والتاريخية يمكن الرجوع إلى: آثار البلاد وأخبار العباد (٢٣٥)، والمسالك والممالك (ص١٦٦)، ومعجم البلدان (٦/٣٤٦).

موت الحجاج، فَغَمَّهُ ذلك وقفل راجعاً[1]، ووزع قواته فترك قوة في بخارى، ووجه قوة أخرى إلى كس ونسف، ثم أتى مرو فأقام بها، ومكث ينتظر تعليمات أمير المؤمنين، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى جاءه كتاب الوليد بن عبد الملك يحضُّه على متابعة الجهاد، وفيه: «**قد عرف أميرُ المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعُك وصانع بك كالذي يجب لك، فالمم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيِّب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه**». وهكذا أقر الوليد العمال الذين كان الحجاج قد عيَّنهم، وكان ذلك حافزاً لقتيبة حتى يتابع فتوحه.

١٠ ـ نهاية فتوح قتيبة: فتح كاشغر، وغزو الصين (٩٦هـ)

غادر قتيبة بجيشه قاعدة عملياته في مرو، وعندما وصل إلى فرغانة بلغه موت أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وانتقال الإمارة إلى أخيه سليمان، فتوجس قتيبة شراً لوجود بغضاء بينهما، وقرَّر اتخاذ ما هو ضروري من تدابير لتأمين عائلته، خوفاً من البطش بهم، فنقلهم إلى سمرقند، ووضع على نهر جيحون رجلاً من مواليه يقال له الخوارزمي، وكلفه بإقامة مركز مراقبة عند مقطع النهر، ومنع المرور إلا لمن يحمل إذناً بالعبور من قِبل قتيبة، ثم أنه أرسل قوة استطلاع لارتياد شعب عصام، وتمهيد الطريق للتقدم نحو كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين. ومضى قتيبة بعد ذلك، فأوغل في تقدمه حتى قرب من الصين، فكتب إليه ملك الصين: «أن ابعث إلينا رجلاً من أشراف مَنْ معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم». فانتخب قتيبةُ من عسكره اثني عشر رجلاً من أبناء القبائل، لهم جَمالٌ وأجسام وألسن وشعور وبأس، بعدما سأل عنهم، فوجدهم من أفضل الرجال الذين يمكن اعتمادهم. وتحدث إليهم، فتأكد من صحة انتقائهم، رجولة ورجاحة عقل، فأمر لهم بعدَّة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخزِّ والوَشي واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر، وحملهم على خيول مطهَّمة تقاد معهم، ودواب يركبونها. وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مفوهاً، زلق اللسان،

---

(١) حزن قتيبة لموت الحجاج حتى تمثل قول الشاعر الحطيئة في رثاء علقمة بن علاثة:

لعمري لنِعْمَ المرءُ من آل جعفر ... بحوران أمسى أعلقته الحبائِلُ

فإن تحيا لا أملل حياتي وإن تمت ... فما في حياة بَعْدَ موتك طائلُ

ديوان الحطيئة (١٠٠)، وتاريخ الطبري (٦/ ٤٩٢).

فقال: يا هبيرة! كيف أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير! قد كُفيت الأدب وقل ما شئت أقله، وآخذ به. قال: «سيروا على بركة الله، وبالله التوفيق؛ لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه، فأعلموه أني قد حلفتُ ألا أنصرِف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكَهم، وأجبي خراجَهم».

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة بن المشمرج، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاء تحتها الغلائل، وتطيَّبوا بالبخور والعطور ولبسوا النعال الرقيقة، وارتدوا الأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلِّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه، فنهضوا، فقال الملك لمن حضر المجلس: «كيف رأيتم هؤلاء؟» قالوا: «رأينا قوماً ما هم إلا نساء». فلما كان الغد أرسَل إليهم، فلبسوا الوشي وعمائم الخزِّ والمطارف، وغدوا عليه. فلما دخلوا عليه، قيل لهم: ارجعوا. فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى، وهم أولئك. فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم، ولَبسوا البيض والمغافِرَ، وتقلَّدوا السيوف، وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي، وركبوا خيولَهم، وغدوا، فنظر إليهم صاحب الصين، فرأى أمثال الجبال، فلما دنوا ركَّزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين وقد أثاروا الفزع، مما حمل الصينيين على منعهم والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس الملك، فانصرفوا، وركبوا خيولهم، واختلجوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط.

فلما أمسى؛ أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلكم، فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: «قد رأيتم عظم مُلكي، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني، وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمرٍ، فإن لم تصدقني قتلتكم». قال: «سلْ». قال ملك الصين: «لِمَ صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟» قال هبيرة: «أما زيُّنا الأول، فلباسنا في أهلنا وريحنا عندهم. وأما يومنا الثاني، فإذا أتينا أمراءنا. وأما اليوم الثالث، فزيُّنا لعدوِّنا، فإذا هاجنا هيج أو فزع كنا هكذا...». قال الملك: «ما أحسن ما دبرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني عرفتُ حرصه وقلَّة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه». قال له هبيرة: «كيف يكون قليل الأصحاب مَن أوَّل خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف

يكون حريصاً من خلَّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرههُ ولا نخافُه». قال: «فما الذي يرضي صاحبك؟» قال: «إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطى الجزية». قال: «فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها». ثم دعا ملك الصين بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمة وردَّهم، ووطىء التراب[1]. وأوفد قتيبة هبيرة للاتصال بأمير المؤمنين في دمشق، فمات بقرية من فارس

كان قتيبة إذا رجع من غزاته كل سنة؛ اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل، واثني عشر هجيناً، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى موعد الحرب، فإذا تأهب لذلك، وأقام معسكره؛ قُيِّدت الخيول وأُضمرت، فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخفَّ لحومُها، فيحمل عليها من يحمله في الطلائع. وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الأشراف، ويبعث معهم رجالاً من العجم، ممن يستنصح على تلك الهجن، كأدلاء، وكان إذا أمر بطليعة؛ أمر بلَوْح فنقش، ثم يشقُّه شقتين، فيعطي شقة إلى قائد الطليعة، ويحتفظ بالشق الآخر، ويأمره أن يدفن الشقَّ في موضع يحدِّده له، من مخاضة معروفة، أو تحت شجرة معلومة، أو خربة مميَّزة، ثم يبعث بعده من يسترجعها ليتأكد من صحة تنفيذ الطليعة لواجبها الاستطلاعي.

١١ ـ تمرد قتيبة ومصرعه

كان الوليد بن عبد الملك قد أراد جعل ابنه عبد العزيز وليَّ عهده، وأوعز بذلك إلى الشعراء[2] والقادة لمعرفة رأيهم، فكان أن بايعه الحجاج بن يوسف،

---

(١) وفي ذلك قال سوادة بن عبد الله السَّلولي:

لا عيب في الوفد الذينَ بَعَثْتَهُمْ ... للصين إن سَلَكوا طريقَ المنهَج
كسروا الجفون على القذى خوفَ الرَّدى ... حاشا الكريم هبيرة بن مُشَمْرَج
لم يرض غير الخَتْم في أعناقِهم ... ورهائِن دُفِعَتْ بِحَملِ سَمَرَّج
أدَّى رسالتك التي استرعَيْتَهُ ... وأتاك من حِنْثِ اليمين بمخرج

(٢) وقال جرير في ذلك: (ديوان جرير ٣٥٧): =

وقتيبة بن مسلم على خلع أخيه سليمان، ثم هلك الوليد، وقام سليمان بن عبد الملك أميراً للمؤمنين، وكان الحجاج قد توفي قبل الوليد، فنجا من غضبة سليمان، وخاف قتيبة شرَّه، ووضع في تقديره أن يعمل الخليفة سليمان على تعيين يزيد بن المهلب على خراسان فينتقم منه. وتعجل قتيبة في الأمر، فكتب إليه كتاباً يهنّئه بالخلافة، ويعزيه على الوليد، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد، وأن له مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان، ولم ينسَ تذكيره بغدر يزيد بن المهلب وكفره وقلَّة شكره. ثم كتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم، وهيبته في صدورهم، وعظم صوته فيهم، ويذمُّ المهلب وآل المهلب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنَّه. ثم أنه كتب كتاباً ثالثاً جاء فيه: «**لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنَّك خلع النعل، ولأملأنها عليك خيلاً ورجالاً**».

وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة (أهله)، وقال له: ادفع إليه هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً، فقرأه ثم ألقاه عليه، فادفع إليه الكتاب الثاني، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد فادفع إليه هذا الكتاب (الثالث). أما إذا قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد، فاحتبس الكتابين الآخرين.

ومضى الباهلي، رسول قتيبة، حتى دخل على سليمان، وعنده يزيد بن المهلب، فدفع إليه الكتاب، فقرأه، ثم ألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثاني، فقرأه ثم رمى به إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثالث، فقرأه، فتمعَّر، أي: تغيَّر، لونُه ثم وضعه بين مثالين من المُثُل التي تحته، ثم أمر برسول قتيبة أن ينزل، فحوِّل إلى دار الضيافة، حتى إذا كان المساء؛ دعا به سليمان، فأعطاه صرة فيها دنانير، وقال له: «هذه جائزتك، وهذا عهد صاحبك على خُراسان، فسِرْ، وهذا رسولي معك بعهده».

وخرج الباهلي ومعه رسول سليمان، من عبد القيس يدعى صعصعة أو مصعب، فلما كان بحلوان من العراق، تلقّاهم الناس بخلع قتيبة، فرجع مصعب

= إذا قيل أيُّ الناس خير خليفة ... أشارت إلى عبد العزيز الأصابعُ
رأوه أحق الناس كلِّهم بها ... وما ظلموه، فبايعوه وسارعوا

ودفع العهد إلى رسول قتيبة وقد خُلع، واضطرب الأمرُ، فدفع إليه عهده، فاستشار إخوته، فقالوا: لا يثق بك سليمان بعد هذا...

كان قتيبة بعد أن وجَّه رسوله إلى دمشق، قد عمل على جمع إخوته لاستشارتهم **وقد همَّ بخلع أمير المؤمنين**، فقال له عبد الرحمٰن: «اقطع بعثاً فوجِّه فيه كل من تخافه، ووجه قوماً إلى مرو، وسر حتى تنزل سمرقند، ثم قل لمن منعك: من أحب المقام فله المواساة، ومن أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فلا يقيم معك إلا مناصح». وقال له عبد الله: «اخلعه مكانك، وادع الناس إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان». فأخذ برأي عبد الله، فخلع سليمان، ودعا الناس إلى خلعه، وقام فيهم خطيباً في محاولة لتحريضهم[1]. ولكن الناس التزموا منه موقف الحذر، ولم يستجب لدعوته أحد، فغضب قتيبة، وألقى خطاباً آخر قرَّعهم به وشتمهم وأهانهم[2]، فأثار

---

(١) وكان فيما قاله قتيبة: «إني قد جمعتكم من عين التمر، وفيض البحر، فضممت الأخ إلى أخيه، والولد إلى أبيه، وقسمت بينكم فيأكم، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدرة ولا مؤخرة، وقد جربتم الولاة قبلي: أتاكم أمية ـ بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية، عامل عبد الملك على خراسان حتى سنة (٧٨هـ) ـ فكتب إلى أمير المؤمنين إن خراج خراسان لا يقوم ـ لا يكفي ـ بمطبخي، ثم جاءكم أبو سعيد ـ المهلب بن أبي صفرة ـ فدوم بكم ثلاث سنين لا تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية! لم يجب فيئاً، ولم ينكأ عدواً، ثم جاءكم بنوه بعده، يزيد، فحل تبارى إليه النساء، وإنما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي ـ المضروب به المثل في الحمق ـ». تاريخ الطبري (٦/ ٥٠٩).

(٢) وكان مما قاله لهم: «لا أعز الله من نصرْتم، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرنها، يا أهل السافلة، ولا أقول أهل العالية. يا أوباش الصَّدَقة، جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب. يا معشر بكر بن وائل! يا أهل النفخ والكذب والبُخل، بأي يوميكم تفخرون؟ بيوم حربكم أو بيوم سلمكم! فوالله لأنا أعز منكم. يا أصحاب مسيلمة، يا بني ذميم، ولا أقول تميم. يا أهل الخَوَر والقصف والغَدْر، كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان. يا أصحاب سجاح، يا معشر عبد القيس القساة، تبدلتم بإبر النَّحل أعنة الخيل. يا معشر الأزد، تبدلتم بقُلُوس السفن أعنة الخيل الحُصُن؛ إن هذه لبدعة في الإسلام. والأعراب، وما الأعراب! لعنة الله على الأعراب! يا كناسةَ المصرَيْن، جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم ومنابت القِلْقِل، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوانَ، حتى إذا جمعتكم كما تجمع قزع الخريف، قلتم كَيتَ وكَيْتَ! أما والله إني لابن أبيه! وأخو أخيه، أما والله لأعصبنكم عَصْبَ السَّلمة. إن حول الصليان (نبت من أفضل المرعى) الزمزمة (صوت الفرس). يا أهل خراسان، هل تدرون من وليكم؟ وليكم يزيدُ بن ثروَان، كأني بأمير مزجاء، وحَكَمٌ قد جاءكم فغلبكم على فيئكم وإظلالكم. إن ها هنا ناراً ارْموها أرْم معكم، ارموا غرضكم الأقصى. قد استُخْلف عليكم أبو نافع ذو الوَدَعات. إن الشأم أبٌ مبْرور، وإن العراق أبٌ مكفور، حتى متى يتبطح أهل الشام =

بذلك حقدهم وضغينتهم، ثم إنه نزل فدخل منزله وأقبل عليه أهل بيته، وعنَّفوه على موقفه ووجَّهوا له اللَّوْم[1].

وغضب الناس، وكرهوا خلع سليمان، وغضبت القبائل من شتم قتيبة لها، فأجمعوا على خلافه وخلعه، واتفقوا على إسناد إمارتهم إلى وكيع (من بني تميم). وكان في خراسان يومئذ من المقاتلة من أهل البصرة، من أهل العالية (٩) آلاف، وبكر (٧) آلاف رئيسهم الحضين بن المنذر، وتميم (١٠) آلاف وعليهم ضرار بن حصين الضبي، وعبد القيس (٤) آلاف عليهم عبد الله بن علوان عوذي، والأزد (١٠) آلاف رأسهم عبد الله بن حوزان، ومن أهل الكوفة (٧) آلاف عليهم جهم بن زجر ـ أو عبيد الله بن علي ـ. والموالي (٧) آلاف عليهم حيان النبطي ـ من الديلم ـ. فكان مجموعهم (٥٤) ألفاً، وقفوا جميعاً ضد قتيبة، فيما لم يبق معه سوى بعض من أهله. وعندما عرف قتيبة تحالف كل القوى ضدَّه؛ أدرك نهايته الحتمية. وفي جوٍّ من التآمر المتبادل بين عقبة ووكيع؛ استطاع وكيع مجابهة قتيبة وقتله وقتل إخوته الخمسة مع ولده وعدد من أهله. وأرسل وكيع رأس قتيبة إلى أمير المؤمنين سليمان الذي أمر بدفنه، وقال: «ما أردت هذا كله».

عندما بلغ الأصبهبذ (ملك الترك) مصرع قتيبة، قال لرجال كانوا عنده: «يا معشرالعرب! قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيدا العرب!». قيل له: فأيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ قال: **لو كان قتيبة بالمغرب، بأقصى جحر به في**

= بأفنيتكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان، انسبوني تجدوني عراقي الأم، عراقي الأب، عراقي المولد، عراقي الهوى والرأي والدين، وقد أصبحتم اليوم فيما تَرَون من الأمن والعافية، قد فتح الله لكم البلاد، وأمن سبلكم، فالظعينة تخرج من مَرْوَ إلى بَلَخ بغير جواز، فاحمدوا الله على النعمة، وسلوه الشكر والمزيد».

(١) كان مما قاله أهل بيت قتيبة وهم يلومونه: «ما رأينا كاليوم قط، والله ما اقتصرت على أهل العالية وهم شعارك ودثارك، حتى تناولت بكراً وهم أنصارك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت تميماً وهم إخوتك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت الأزد وهم يدك!». فقال قتيبة: «لما تكلمت فلم يجبني أحدٌ غضبت، فلم أدر ما قلت: إن أهل العالية، كإبل الصدقة قد جمعت من كل صوب. وأما بكر، فإنها أمة لا تمنع يد لامس (كالمومس أو العاهرة) وأما تميم فجمل أجرب، وأما عبد القيس فما يضرب العير بذنبه، وأما الأزد فأعلاج، شرارُ من خَلَق الله، لو ملكت أمرهم لوسمتهم». البيان والتبيين (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٥)، الكامل، ابن الأثير، وتاريخ الطبري، أحداث سنة (٩٦هـ).

الأرض، مكبلاً بالحديد، ويزيد معنا في بلادنا، والٍ علينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد.

وجاء رجل إلى قتيبة يوم قُتل، فقال: اليوم قُتل ملك العرب. وكان قتيبة عند أهل فارس وخراسان يُعرف بملك العرب.

الفصل الثاني

قتيبة بن مسلم وفن الحرب

موقع قتيبة من فن الحرب

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد.

٣ ـ وضوح الهدف.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام.

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية.

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة.

٢ ـ أمن العمل.

٣ ـ القدرة الحركية.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى.

٦ ـ المحافظة على الهدف.

موقع قتيبة من فن الحرب

«اغزوهم قبل أن يغزوكم، فما غُـزِي قوم في عُقر دارهم إلّا ذَلُّوا»

(علي بن أبي طالب)

جاء قتيبة إلى عالم فن الحرب عند العرب المسلمين في وقت متأخر، فكان من جيل القادة اللاحقين وليس من جيل القادة السابقين، وكان بينه وبين روّاد الفتح الأوائل، أبو عبيدة، وخالد، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وأضرابهم فترة تزيد على نصف قرن. وخلال هذه الفترة، كانت أسس فنِّ الحرب عند العرب المسلمين قد أصبحت مكينة الأركان، ثابتة الجذور. وحتى يصبح بالإمكان تحديد موقع قتيبة من فنِّ الحرب عند العرب المسلمين، فإنه من الضروري استعراض المعالم البارزة لمعطيات هذا الفن وتحديد أسس العقيدة القتالية الإسلامية.

لقد كانت عقيدة القتال الإسلامية؛ **هجومية** قبل كل شيء، يلخِّصها قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اغزوهم قبل أن يغزوكم، فما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذَلُّوا». وكان الهدف الأول من الحرب هو نشر الإسلام، ومن الصعب تصور إمكان تحقيق النجاح في نشر الرسالة بدون حملها إلى أرجاء الدنيا وتعريف العالم بها، كما أنه من الصعب أيضاً تصور قبول الرسالة من دون مقاومة على الإطلاق، فكانت الحرب، والحالة هذه، البديل الطبيعي لقبول انتشار الإسلام سلماً؛ ولكن نظراً لأن حرب المسلمين كانت **ذات أهداف إنسانية، فقد كانت من الحروب العادلة، ومن عدالة قضية الحرب، كان سلوك قادة العرب المسلمين عادلاً**، إلا أنه سيظهر واضحاً من خلال مطالعة سيرة قتيبة أنَّ سلوكه قد تميَّز بالقسوة والعنف، ويكمن هذا العنف والقسوة، في الواقع، بردود الفعل الشرسة التي كان يجابَه بها المسلمون في أقصى الشرق، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه القسوة كانت محدَّدة بشرط النكث ونقض العهود، وهذا أمرٌ مشروع يتوافق مع منطق الحرب ومع طبيعة الحرب ذاتها. ولقد لجأ الرسول الأعظم، ولجأ القادة من العرب المسلمين، وبصورة خاصة خالد بن الوليد وعقبة بن نافع، لمثل هذا الأسلوب في عدد من الظروف الصعبة التي كانت تفرض استخدام العنف والقسوة، ونتيجة لذلك كله، فقد تميَّزت حروب العرب المسلمين بأنها (**حرب حركة**) لا تعرف حرب الخنادق، ولا حرب الثبات، ولا حرب التحصينات إلا في حدود متطلبات الأمن؛ ولئن لجأ العرب المسلمون في عهود متأخرة إلى التخلي عن حرب الحركة، فإن ذلك لم يكن سوى نتيجة لمجموعة من الظروف بعضها يتعلق بالسياسة الاستراتيجية، كتمزُّق وحدة العالم الإسلامي السياسية، وبعضها نتيجة لضعف العنصر العربي أمام حجم الفتوحات واستنزاف قوته بالصراعات الداخلية والحروب الخارجية.

ونظراً لأن حروب المسلمين كانت (**حروب حركة**)، فإنها حملت جميع خصائص حرب الحركة، سواء في مجال التنظيم للقتال، أو في إدارة الحرب، أو حتى في تنظيم مجتمع ما بعد الحرب. ولم تكن المهارة في المحافظة على المبادأة، أو تحقيق المباغتة، أو المحافظة على الأمن؛ سوى بعض متطلبات حرب الحركة.

إن حرب الحركة تتطلب حشد القوى والوسائط وتوجيهها باتجاه الضربة الرئيسية، ويتطلب ذلك بالضرورة توافر كفاءة قيادية عالية، كما يتطلب مهارة كبرى في التنفيذ، ومرونة رائعة في تحرك القوات ونقلها. وتكون المعادلة ثلاثية الأطراف: (قيادة + قوات + وسائط). وقد استطاع العرب المسلمون توفير هذه الشروط كلها، فكان نجاحهم رائعاً في تنفيذ حرب الحركة، وفي حشد القوى والوسائط الضرورية باتجاه الجهد الرئيسي. وتعتبر عمليات قتيبة في هذا المجال نموذجاً رائعاً لتطوير حرب الحركة، وضمان شروط نجاحها.

هنا تبرز نقطة حاسمة في قضية اتصال المعرفة العسكرية عند قادة العرب المسلمين، وتطورها؛ بحيث أنها تحافظ على خصائصها الأساسية وميزاتها رغم تباعد العهد بين الرعيل الأول من جيل قادة الفتح الإسلامي وبين أجيال القادة التابعين. ومن المعروف أنه لم تكن في تلك الفترة كليات عسكرية أو معاهد اختصاصية تعمل على تحليل المعارك واستخلاص نتائجها وتعميمها في إطار مبادىء ثابتة تدعم العقيدة القتالية للعرب المسلمين، وتعمل على تطويرها.

لقد حدَّدت العقيدة الإسلامية الأسس والمبادىء الخاصة بالعقيدة القتالية، ثم أخذ القادة في ممارسة أدوارهم القيادية وفقاً للمواقف التي يجابهونها، وبحسب مبادأتهم الشخصية، فتكوَّنت من ذلك حصالة واسعة من الخبرات والتجارب، وكانت هذه الخبرات والتجارب، وقفاً، أو مشاعاً، ينهل منه كل قائد بحسب طموحاته وقابلياته. وهنا يبرز الدور الفردي للقائد في اتجاهين: الأول: الالتزام بالمعصيات الثابتة التي برهنت التجارب المتتابعة على صحتها. والثاني: تطوير هذه المعطيات الثابتة بما لا يتناقض وأسس العقيدة القتالية للعرب المسلمين، وبما يمنح هذه المعطيات قدراً من المرونة يكفل لها مجابهة المواقف المختلفة والانتصار عليها.

يصبح بالإمكان بعد ذلك تحديد موقع قتيبة بن مسلم الباهلي من فن الحرب عند العرب المسلمين، فعلى الرغم من انتماء قتيبة لجيل القادة اللاحقين، **إلا أنه أعطى العقيدة القتالية الإسلامية أبعاداً جديدة**، لا تتمثل في اكتساب المساحات الجغرافية بقدر ما تتمثَّل بالتراث الفكري الذي أضافه قتيبة إلى فن الحرب الإسلامي.

وليست القضية مجرد مبادىء ثابتة وقوالب جامدة، يمكن لها إذا ما طُبِّقت إحراز النصر، ولو كان الأمر كذلك، لأصبح باستطاعة جميع القادة على اختلاف مراتبهم الاضطلاع بالأدوار القيادية، ولظهر جيل كامل كلهم قتيبة بن مسلم، وأن عدم ظهور أكثر من قتيبة، وأكثر من موسى بن نصير، وأكثر من محمد بن القاسم الثقفي؛ إنما هو برهان على أن القضية أكثر من مجرد معرفة مبادىء، إنها قضية كفاءة قيادية ومهارة في انتقاء ما هو صالح من المبادىء لمجابهة المواقف المختلفة، والتي تظهر بصورة طارئة ومباغتة

ومن هنا تتأكد المعادلة الأساسية لنجاح فن الحرب عند العرب المسلمين، وهي معادلة صنعتها طبقة قيادية على درجة عالية من الكفاءة، وأُسس صحيحة صاغتها عقيدة العرب المسلمين القتالية، وجنود مقاتلون لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في تصميمهم وعنادهم وصلابتهم واحتمالهم لكره القتال.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

اتخذ قتيبة من مرو قاعدة لعملياته ومركزاً متقدماً لإدارته، فكان ينطلق في كل عام منها لمتابعة فتوحاته، حتى إذا حقق أهدافه عاد إلى مرو. وكان إذا ما غادر القاعدة؛ عيَّن من يقوم على الحرب أثناء غيابه ويترك حامية قوية للدفاع عنها، وبذلك كان باستطاعته تنفيذ عملياته من دون أن تتعرض مؤخرته للخطر، وبدون أن يفقد الاتصال مع قواعده التموينية. ولقد كان باستطاعة قتيبة البقاء في القواعد المتقدمة التي افتتحها، واختصار الجهد عند متابعة العمليات في السنة التالية، ولكن إصراره على اتخاذ مرو قاعدة له؛ ضمن له توافر شروط أخرى. فقد كانت مرو تقع في وسط إقليم أمكن له ضمان الاستقرار فيه، وعلاوة على ذلك، فقد كان موقع مرو، يضمن له حرية التحرك والعمل على محاور متباعدة وجبهات مختلفة، سواء رغب في العمل على اتجاه الشمال أو الشرق. وهكذا، فإن الموقع المتوسط لمرو، إضافة إلى قوة هذه القاعدة وضمان الأمن فيها، هو الذي حمل قتيبة على إبقائها قاعدة للعمليات. وبذلك يكون قتيبة قد طوَّر مفهوم الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، وأضاف إليه ضرورة وجود هذه القاعدة في موقع متوسط يسمح للقائد بمزيد من حرية العمل، ومزيد من حرية الحركة.

إذا أمكن الانتقال بعد ذلك إلى تطبيق هذا المبدأ على المستوى العملياتي، فسيظهر ذلك من خلال تعليمات قتيبة لقادته بعد فتح المواقع المهمة، وإقامة الحاميات القوية فيها، ثم تجهيز هذه الحاميات بأدوات الحرب وتجهيزات الحصار الضرورية، وبذلك يكون قتيبة أيضاً قد طوَّر مفهوم أمن قاعدة العمليات بإقامة مجموعة من القواعد العملياتية المتقدمة التي تضمن مجابهة كل عملية مباغتة وإحباطها ريثما تتوافر الفرصة المناسبة لتدخل القوة الرئيسية، ويصبح أمن القاعدة الرئيسية غير مرتبط بشروط الحيطة للقاعدة ذاتها، وإنما بمجموع القلاع

والحصون المتقدمة التي تحمي قاعدة العمليات الرئيسية، وهي مرو هنا.

هناك ثمة تطوير آخر، أضافه قتيبة إلى شروط القاعدة القوية والمأمونة، وهو أن تكون القاعدة في وسط مركز يضمن للقوات التأمين الإداري؛ فلقد كانت جيوش المسلمين في بداية الفتوح صغيرة الحجم نسبياً، بحيث أنها لم تتجاوز في المعارك الحاسمة الأولى: (القادسية، اليرموك، نهاوند، الفيوم) قوة ثلاثين ألفاً على أكثر تقدير؛ كما أن الإمداد الإداري لتلك القوات كان بسيطاً، وكذلك تسلُّحها، أما في عهد قتيبة، فقد أصبحت الجيوش تتجاوز الخمسين ألفاً أو ستين ألفاً، وهي مسلحة بالوسائط الثقيلة (المنجنيق) وأدوات الحصار، وبذلك كان باستطاعة الجيوش الأولى الاعتماد على قاعدتها الخلفية في الجزيرة العربية، في حين لم يعد باستطاعة قتيبة الاعتماد إلا على الموارد المتوافرة في الإقليم، مع تأمين التعايش من منطقة العمليات ومن قاعدة العمليات ذاتها، **ولهذا كان قتيبة يعمل إذا رجع من حربه على توزيع قواته، بحيث لا يبقى لديه إلا القليل منها، ثم إنه يواعدها على الاجتماع في موعد الغزو من السنة التالية.** وعلى الرغم من ارتباط هذا المبدأ بالتأمين الإداري للقوات، إلا أنه أصبح منذ عهد قتيبة شرطاً أساسياً من شروط إقامة القواعد القوية والمأمونة.

٢ ـ بناء المجتمع الجديد

عندما تولى قتيبة ولاية الري، ثم انتقل منها إلى خراسان؛ كان قد مضى على وجود المسلمين فيها ما يزيد على نصف قرن، وكانت أقاليم فارس وخراسان قد عقدت اتفاقيات للصلح مع المسلمين ثم نقضتها، ثم عادت للتأرجح بين الإبرام والنقض، ولم تعد القضية قضية تعريف الناس هناك برسالة السماء، بقدر ما أصبحت قضية ضمان الشروط المناسبة لاستقرار الإسلام، وردع المرتدِّين، والقضاء على أوكار التآمر المضادة للمسلمين وتصفيتها. وعلى هذا، فقد عمل قتيبة على تطوير الوسائط، وتنويع الأساليب بما يتوافق وهذا الهدف، وكان من ذلك:

أ ـ الدفاع عن المسلمين وحمايتهم: فعندما علم قتيبة بوجود أسرى للمسلمين في قبضة نيزك، ملك طرخان؛ طلب إليه إطلاق سراحهم، وتهدَّده في كتابه، فخاف نيزك وبعث بهم إلى قتيبة. وعندما فتح سمرقند؛ استخلف عليها عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً، وآلة من آلات الحرب كثيرة، وقال: «لا تدعن

مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد، وإن جفَّت الطينة قبل أن يخرج فاقتله. وإن وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه، فاقتله. وإن أغلقت الباب ليلاً، فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله».

ب ـ **حماية حلفاء المسلمين**: كان من أحد أسباب غزو سمرقند غدر أهلها بملكهم لتحالفه مع المسلمين. وعلى هذا، فعندما أقبل قتيبة بجيشه فحاصر المدينة؛ طلب أهل السغد الصلح، فكان ردُّ قتيبة: «أنا ثائر بدم طرخون، كان مولاي، وكان بذمَّتي»، «أنا لا أصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة، ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم».

وعندما طلب ملك خوارزم شاه دعم قتيبة له، من أجل التغلب على خصومه؛ أسرع قتيبة بجيشه، وانتصر للملك، وأعانه، ودخل مدينة فيل، إحدى المدائن الرئيسية الثلاثة في مملكة خوارزم، وصالح ملكها. وتلك هي بعض النماذج كلها، وهي علاوة على توافقها مع التعاليم الإسلامية، إلا أن تصميم قتيبة على الالتزام بها، هو الذي ساعده على تحقيق هدفه.

جـ ـ **القسوة في معاملة المرتدِّين وعدم الرأفة بهم**: فعندما غدر نيزك بعهده مع قتيبة، وأثار القوة ضدَّه؛ أقسم قتيبة على قتله، وما زال به حتى اعتقله ونفذ فيه حكمه. وعندما غدر أهل الطالقان بعامل قتيبة، حبيب بن حصين الباهلي، وقتلوه؛ عمل قتيبة على قتل الرهائن الذين كان يحتجزهم من أهل الطالقان. ثم لم يلبث حتى فتح الطالقان ونكَّل بأهلها، حتى شبَّه المسلمون فعل قتيبة بهم كفعل رسول الله ﷺ في يهود بني قريظة وبني النضير، عندما غدروا بالرسول.

د ـ **الوفاء بالعهد**: عندما فتح قتيبة سمرقند، وجمع كنوزها وأصنامها وأحرقها؛ تكوَّن لديه ما يزيد على الجزية المفروضة، ولهذا جمع أهل سمرقند وأعلمهم قراره بترك حامية للمسلمين فيها، وطلب إليهم حمل ما يزيد على الجزية: «من أراد منكم أن يأخذ متاعه... فلست آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه».

وليست تلك كل الأساليب التي اتبعها قتيبة لبناء المجتمع الجديد في ولايته وإنما هي أبرزها، ولعل أبرز ما في هذه الأساليب توافقها مع خلق الإنسان العربي، وصدق إيمان الإنسان المسلم.

٣ ـ وضوح الهدف

ما أن وصل قتيبة إلى خراسان، والتقى بالمقاتلين من المسلمين حتى حدثهم بقوله:

«أما بعد... إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعزَّ دينَه، ويذُبَّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقماً (ذلّاً)، ووعد نبيَّه ﷺ النصر، بحديثٍ صادق، وكتابٍ ناطق، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف/٩]». وعندما حاصر قتيبة سمرقند، واشتدَّ عليه أمرها؛ أخذ يردد كالمناجي لنفسه: «حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان؟ أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية». وعندما فتح سمرقند، كان أول ما فعله هو أنه جمع ما تحتويه بيوت النيران وحلية الأصنام، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت، فأمر بتحريقها، فقال الأعاجم: إنَّ فيها أصناماً من أحرقها هلك، فقال قتيبة: «أنا أحرقها بيدي». ودعا قتيبة بالنار وأخذ شعلة بيده، وخرج فكبَّر ثم أشعلها، وأشعل الناسُ، وتلا قتيبة: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾، واشترط في الصلح أن يبنى له فيها مسجد فيدخل ويصلي. وعندما خرج هبيرة بن مُشَمْرِج للقاء ملك الصين وهدَّد قتيبة؛ كان ردُّ هبيرة: «**كيف يكون حريصاً من خلَّف الدنيا قادراً عليها وغزاك**»، وعندما تولّى الوليد بن عبد الملك إمارة المؤمنين وجَّه رسالته المعروفة إلى قتيبة: «إن أمير المؤمنين قد عرف بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين».

وتلك هي بعض الشواهد التي تُبرهن على أن قتيبة قد وضع هدفه الدائم للحرب، وهو نشر الإسلام وقتال أعداء المسلمين. وفي هذا المجال يشترك قتيبة مع المسلمين جميعاً في وضوح الهدف، فقد خلَّفوا الدنيا وهم قادرين عليها، وأسرعوا إلى حسن ثواب الآخرة. ولكن قتيبة أفاد من وضوح الهدف هذا في تحديد الهدف لينقله على المستوى العملياتي إلى أهداف متتابعة يتم تنفيذها على مراحل متلاحقة. ففي كل سنة يتمُّ تحديد هدف للحرب بحسب المواقف، وكانت هذه الأهداف جميعاً تخدم الهدف العام وتلتقي عنده، وقد كانت الأهداف السنوية محددة بدقة كبيرة وواضحة تماماً بفضل وضوح هدف الحرب.

لقد كان الوضوح في الهدف العام، ومن ثم الأهداف العملياتية؛ إحدى

الخصائص المميزة لعقيدة القتال الإسلامية. وعلى الرغم من ذلك، فإن رؤية القادة لم تكن واحدة أو متساوية، فقد تولّى خراسان المهلب بن أبي صفرة، وعبد الرحمٰن بن الأشعث قبل أن يتولّاها قتيبة، ولم يتمكَّنا من ترجمة الوضوح في الهدف العام إلى أهداف عملياتية واضحة على نحو ما فعله قتيبة. وهنا يبرز الدور الفردي في إدراك أبعاد الموقف ومعرفته، والعمل بأساليب صحيحة تستجيب لها هذه المعرفة وتخدمها.

وكان وضوح الهدف العملياتي عند قتيبة هو الذي ساعده على التوفيق بين حجم الهدف وبين القوى والوسائط الضرورية لإنجاز هذا الهدف، فكان نجاحه الدائم في جميع الأعمال القتالية، التي قادها على امتداد عقد من الزمن، لم تنتكس له خلال ذلك راية، ولا هُزِم له جيش، ولا نكب المسلمون معه بنكبة، وهو يقف عند تنفيذ هذا المبدأ موازياً تماماً لقائد مسلم آخر كان يعمل في أقصى الغرب، هو موسى بن نصير، وليس من الغريب بعد ذلك أن يحققا نجاحاً متساوياً، فقد دوَّخ قتيبة المشرق، ودوَّخ موسى المغرب، وأضاف الاثنان لتاريخ المسلمين أمجاداً خالدة.

٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٢٨].

كان ذلك هو مبدأ القادة السياسيين والعسكريين منذ جاء الإسلام، الحرص على المسلمين، ولقد حمل العرب أعباء الرسالة إلى الدنيا، وكانوا قلَّة، فكان حرص أُمراء المؤمنين وقادة الجيوش كبيراً للمحافظة على العنصر العربي، دعامة الإسلام. ولقد ظهر حرص قتيبة على العنصر العربي من خلال الممارسة العملية لإدارة الحرب، **فكان يفرض على المسلمين من غير العرب المشاركة في حمل أعباء الجهاد**، والإسهام بهذا الغرض الذي يقع على عاتق كل مسلم، فكان في ذلك تخفيف عن العرب، ودعم لهم. ولقد كان أول ما فعله قتيبة عندما تولى خراسان؛ أنْ صالح نيزك وحمله على الاشتراك معه في القتال، وأبلى نيزك بلاءً حسناً، وهو مع قتيبة.

وعندما أراد قتيبة غزو السغد؛ استعان بأهل خوارزم وبخارى، ثم أنه فرض على أهل بخارى وكس ونسف وخوارزم، تقديم (٢٠) ألف مقاتل للاشتراك معه

في غزو الشاش وفرغانة، ولكن حرص قتيبة على الإنسان العربي بقي محدَّداً بتنفيذ الواجب، فعندما أراد فتح بخارى، ترك أمر مجابهة الصدمة الأولى لقبيلة الأزد العربية، وعندما انتصر الترك عليها، توجه قتيبة إلى قبيلة تميم التي اشتهرت ببأسها وصلابتها واستثارها بقوله: «يوم كأيامكم».

وعندما وجَّه إليه ملوك الشاش وأخشاذ وفرغانة، قوة قتالية تمَّ انتخاب أفرادها من بين أفضل المقاتلين من أبناء الملوك؛ عمل قتيبة على انتقاء المقاتلين من بين أشجع الفرسان العرب، وخاطبهم بقوله: «أنتم دهاقين العرب وفرسانهم».

وعندما أرسل غوزك ملك الترك إلى قتيبة يستثيره بقوله: «إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العَجم، فأخْرِج إليَّ العرب»، كانت استجابة قتيبة الفورية أن اختار شجعان العرب وفرسانهم وكلَّفهم بمجابهة تحديات الترك والتصدِّي لهم. وإذا أمكن بعد ذلك، تجاوز الممارسة العملية في إشراك العرب وغير العرب بشرف الجهاد، فإنه يصعب استخلاص ولو برهان واحد على تمييز العرب على غيرهم أو الحرص عليهم بأكثر مما كان يحرص على المسلمين جميعاً بدون استثناء. ولقد كان قتيبة، في جميع خطبه وأحاديثه منسجماً مع هذه الحقيقة، حقيقة المساواة بين المسلمين من عرب وغيرهم، في حمل واجب الرسالة والجهاد دونها حتى يظهرها الله على الدين كله.

وإذا ما شرَّف الله تعالى أُمة العرب بشرف الجهاد في سبيله، فليس باستطاعة قتيبة، ولا غير قتيبة من أُمراء المسلمين وقادتهم، مخالفة هذا المبدأ أو التنكر له. ويبقى الحرص على العنصر العربي مقيداً بحدود تنفيذ الواجب، ومع ضمان الشروط التي تضمن توافر فرص النجاح لهذا الواجب. فإذا أمكن ضمان تنفيذ هذه الشروط مع تحقيق الحدِّ الضروري، للحفاظ على العنصر العربي، تم تنفيذ ذلك، أما إذا تطلب الموقف تقديم تضحية تتناسب مع أهمية الهدف تصبح التضحية مشروعة ومقبولة، ولقد التزم قادة المسلمين جميعاً بهذا المبدأ، فكان حرصهم على العنصر العربي وسيلة لتمكين العرب من متابعة رسالتهم، لا هدفاً في حدِّ ذاته، وهناك فارق كبير في أن يكون الحرص على العنصر العربي مجرد وسيلة، وبين كونه هدفاً قائماً في ذاته.

٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

كانت استراتيجية الحرب التشتيتية من الاستراتيجيات المميزة لعقيدة الإسلام

القتالية، وقد طبقت استراتيجية الحرب التشتيتية بطرائق مختلفة، بداية من العمل على محاور مختلفة (محوري الشام والعراق في البداية، والعمل على أربعة محاور في مسرح عمليات الشام ذاتها، وعلى محورين في مسرح عمليات العراق) مروراً بعد ذلك إلى حشد القوى على محور جهد رئيسي واحد، والمناورة على بقية المحاور، كل ذلك بالإضافة إلى إرسال مجموعات قتالية لتنفيذ عمليات مستقلة، مما كان يترك قوات الخصم، وقياداتها في حالة من الضياع التام، وفقد المبادأة، مما كان يحرمها من تقديم ردود فعل منظمة في مجابهة قوات العرب المسلمين. ولقد جاء قتيبة إلى عالم الفتوح، وقد أصبح هذا المبدأ من المبادىء الثابتة واستراتيجية من الاستراتيجيات الراسخة في عقيدة الإسلام القتالية، ولهذا فقد عمل قتيبة على استخدام هذا المبدأ وتطبيقه بشكل متطور يتناسب والمواقف المستجدَّة.

لقد ظهرت الحروب التشتيتية في مخططات قتيبة عندما فتح خام جرد، ثم انتقل منها مباشرة إلى سمرقند، فسُمِّي فتح قتيبة هذا (عادي عَيْرين)، وتسمي الأعراب الفارس (عادي عيرين) إذا صرع في طلق واحد عيرين (حمارين وحشيين) اثنين. كما ظهرت هذه الحروب التشتيتية أيضاً عندما عمل قتيبة على توجيه إخوته إلى أقاليم مختلفة، في حين توجه هو إلى أقاليم أخرى. وعلى الرغم من هيمنة طابع المباغتة على هذه العمليات إلا أن أسلوب الحرب التشتيتية هو الأسلوب المميز لها، ويُظهر ذلك أن الأعمال القتالية في تصميم قتيبة قد أصبحت على درجة عالية من التعقيد حيث تتحكَّم في تخطيطها وتنفيذها مجموعة من مبادىء الحرب، ويظهر ذلك بصورة واضحة في التنظيم للقتال وفي إدارة المعركة.

فقد أخذ قتيبة في تكوين القوات تكويناً جديداً، إذ كانت الطلائع أو المقدمة التي يدفع بها قتيبة تضم (١٨) حتى (٢٠) ألفاً من المقاتلين، ومعنى ذلك أن هذه المقدمة كانت تعادل ثلث قوة حجم الجيش. ونظراً لحجم هذه القوة الكبير فقد كان باستطاعة قتيبة أن يدفعها أمامه لمدة يومين أو ثلاثة أيام، **وتأخذ الحرب التشتيتية هنا طابع الهجوم على موجات متتالية وبأنساق متعاقبة، وقد كان هذا الأسلوب المميز لعمليات قتيبة هو التطوير الكبير الذي حملته تجارب الحرب الطويلة للعرب المسلمين** في صراعهم منذ غادروا جزيرتهم حاملين لواء الجهاد.

إن هذا الشكل من التطور يختلف تماماً عن أساليب الدعم الذي اتبع في عمليات الفتوح الحاسمة، إذ كان يتم زج القوة الرئيسية هناك في المعركة، ويتم بعد ذلك إرسال موجات من الدعم، عادة ما تكون بقوات صغيرة من الفرسان، كما أن هذا الشكل يختلف أيضاً عن عمليات زج الأنساق المتتالية في المعركة الحديثة بما يضمن القدرة على الاستمرار في القتال، ولهذا يمكن اعتباره شكلاً مبتكراً ومتطوراً اختص به قادة العرب المسلمين، ونجد له صورة مشابهة في معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) حيث قاد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين قواته من المغرب إلى الأندلس لنصرة المعتمد بن عباد، وقد خاض المعتمد معركته بقواته، وعندما وصلت المعركة إلى النقطة الحاسمة تدخل يوسف بن تاشفين فحسم الصراع لمصلحة المسلمين. وهكذا فإن تقسيم الجيش إلى مجموعتين قتاليتين قويتين قد ظهر بوضوح وللمرة الأولى من خلال تنظيم قتيبة بن مسلم للعمليات القتالية، ثم ظهرت أهميته خلال مسيرة الحروب بعد ذلك.

٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

تبرز استراتيجية الهجمات الوقائية في أعمال قتيبة القتالية وهي أكثر وضوحاً من كل ما عداها من الاستراتيجيات. فما أن وصل قتيبة إلى خراسان، حتى بدأ في تنظيم قواته، وانطلق من مرو إلى بلخ المتمردة فأخضعها، وأخذ في الانتقال عبر الأقاليم في إطار من التظاهر بالقوة، وضمن محاولة استطلاعية لدراسة الموقف على الطبيعة، ثم هو ينطلق إلى بيكند في السنة التالية فخاض معارك ضارية لمدة شهرين، حتى تمَّ له فتح المدينة. وفي السنة التالية تحرك في وقت مبكر مما ساعده على فتح عدد من الأقاليم صلحاً (نومُشكت ورامثينة). وعندما علم بتجمع القوى المعادية بقيادة بخارى عام (٩٠هـ/ ٧٠٩م) **تحرك بقواته ليسبق قوات التجمع إلى بخارى** وقد ساعده ذلك على خوض معركة تشتيتية من جهة، كما ساعده على تنظيم الهجمات الوقائية قبل أن تتجمع القوات المعادية فتشكل خطراً قد يصعب عليه مجابهته من جهة أخرى. وعندما غدر نيزك بعد ذلك، لم ينتظر طويلاً حتى يتمكن نيزك من تجميع القوى المضادة بل أسرع إليه وما زال به حتى حاصره واستنزله وقتله. وبذلك نجحت استراتيجية الهجمات الوقائية في تحقيق أهدافها الأساسية وهي حرمان العدو من حرية العمل، ونقل المعركة إلى أرضه، والقضاء على قوات الخصم قبل إكمال تجمعها وإنهاء استعدادها.

وعندما تمردت تخارستان، بعد انتهاء عمليات قتيبة في عام (٩٠هـ)، ولم يبق مع قتيبة سوى أهل مرو، عمل على إرسال أخيه عبد الرحمٰن في جيش من (١٢) ألف مقاتل، وكلفه بالتوجه إلى البروقان، وقال له: «أقم بها، ولا تحدث شيئاً، فإذا حسر الشتاء فعسكر، وسِر نحو تخارستان، واعلم أني قريب منك». وهكذا يكون قتيبة قد وضع قوة دفاعية لإحباط كل محاولة قد يقوم بها أهل تخارستان لتوجيه هجوم وقائي مسبق، وكلف هذه القوة بالتحرك مع نهاية الشتاء للقيام بالهجوم الوقائي، مع اتخاذ ترتيباته للوصول إلى هذه القوة في الوقت المناسب.

وما تجدر ملاحظته هنا هو أن الأقاليم المفتوحة للمسلمين كانت تُتْرك لتقوم بإدارتها الذاتية، وكان كل ما يطلب إليها العمل على الالتزام بشروط صلح المسلمين، وتأمين انتشار الدين الإسلامي أو دفع الجزية، وكثيراً ما كانت هذه الأقاليم مجردة من كل قوة للعرب المسملين، سوى بعض العمال أو الرسل، وكان باستطاعة الأقاليم نتجة لذلك إعلان تمردها في كل وقت، وهذا ما كان يحدث في كثير من الأحيان بتأثير التحريض الخارجي بصورة خاصة. وعلاوة على ذلك، فقد كان من المحال على قتيبة، وعلى كل قائد سواه، أن يعمل على توزيع القوات وإقامة الحاميات في جميع الأقاليم التي كان يتم افتتاحها، نظراً لاتساع الأقاليم ولقلة حجم قوات العرب المسلمين. وعلى هذا فإنه لم يبق أمام قتيبة سوى اعتماد استراتيجية الهجمات الوقائية وتطويرها لتحقيق هدف مزدوج، الأول الاحتفاظ بالأقاليم التي سبق فتحها، والثاني هو فتح أقاليم جديدة. وقد تمثل تطوير قتيبة لاستراتيجية الهجمات الوقائية في مجموعة من النقاط أبرزها:

١ ـ سبق العدو باستمرار إلى مواقعه، وإلى أماكنه الحصينة، من دون إتاحة الفرصة له حتى يكمل تنظيمه واستعداده.

٢ ـ عزل الأقاليم المتمردة وإخضاعها للحروب التشتيتية بهدف حرمانها من كل دعم خارجي.

٣ ـ اختيار التوقيت المناسب لتنفيذ الهجوم الوقائي.

٤ ـ حرمان العدو من فرصة شن هجوم وقائي مسبق، وذلك بإرسال قوات كافية للتمركز دفاعياً على حدود الإقليم المتمرد ريثما يتم توجيه القوة الرئيسية.

وبذلك يكون قتيبة قد حدد للهجمات الوقائية جميع الشروط الواجب توافرها لضمان نجاح الأعمال القتالية.

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المبـاغتة

لم يكن باستطاعة قتيبة تحقيق أهدافه الاستراتيجية لولا اعتماده على مجموعة من المبادىء التي تضمن له حداً مناسباً من فرص النجاح. وقد كان مبدأ المباغتة في طليعة مبادىء الحرب أهمية عند قتيبة، ولهذا فقد عمل على تطويره. وكان العرب المسلمون قد عرفوا أهمية مبدأ المباغتة منذ بداية صراعهم مع المشركين، ولكن المباغتة كانت تكتسب عندهم طابع المباغتة الزمانية أو المباغتة المكانية. وفي جميع الأحوال، وباستثناء بعض العمليات الخاصة، فإن المباغتة طبقت في المجالين التكتيكي أو العملياتي في أفضل الظروف. وعندما أخذ قتيبة في ممارسة قيادته، **ظهرت المباغتة عنده بشكل مركب ومعقد. فهي مباغتة زمانية** قبل كل شيء، إذ كان يعتمد في عملياته إما على بدء العمليات في وقت مبكر من نهاية فصل الشتاء، أو بالانتقال من إقليم لإقليم بسرعة، مما يحمل على ظهور قواته بشكل مباغت وغير متوقع، وكانت **(المباغتة المكانية)** ترافق غالباً **(المباغتة الزمانية)**.

كما عمل قتيبة على تنظيم قواته تنظيماً مبتكراً بزيادة حجم المقدمة (الطليعة) مما كان يحمل الخصم على اعتبارها القوة الرئيسية فيزج ضدها قواته الرئيسية في الوقت الذي يكون فيه قتيبة بعيداً عن مسرح العمليات، مما يسمح له بزج كتلة قواته في الوقت المناسب ويضمن له الحرية الكاملة في العمل، ويحقق أيضاً مباغتة جديدة عن طريق زج قوى ووسائط جديدة في المعركة.

ويأتي بعد ذلك نقله للقوات من محور إلى محور جديد، والتحرك من إقليم إلى إقليم ليحقق مباغتة استراتيجية كاملة كانت تضمن له النصر في كثير من الأحيان، على الرغم من تفوق خصومة وقوة تحصيناتهم ووعورة المسالك للوصول إليهم.

لقد ظهرت هذه المباغتة المركبة في كثير من العمليات التي قادها قتيبة، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في عملية سمرقند. فقد وجه قتيبة قوة المقدمة بقيادة أخيه عبد الرحمٰن بعد أن انصرف من خوارزم وقطع مرحلة من المسير في اتجاه مرو، ثم دفع بالأثقال وأخذ اتجاهه الجديد نحو سمرقند ووقف فخطب في جنوده فقال لهم: «إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السغد شاغرة برجالها، قد نقضوا العهد الذي بيننا... الخ». وهذا يبرهن على أن قتيبة قد أدرك أن تحركه الجديد سيكون مباغتاً، وسيكون الفتح ممكناً بالتالي. وقد تحقق تقدير قتيبة للموقف، وأمكن له، رغم قوة المواقع، ورغم النجدات وقوات الدعم التي أسرعت لنجدة السغد، فتح سمرقند والاستيلاء عليها.

وكان من المحال الوصول إلى هذا الهدف الاستراتيجي لولا تأثير عامل المباغتة المركبة، حتى أن بعض العرب اعتبروا هذا النوع من المباغتة بمثابة غدر لم يألفوه في حروبهم أو يعرفوه، ولكن حتى لو كان ذلك غدراً، في قوانين العرب المسلمين فقد كانت الحجة أنه غدرٌ بغدرٍ. ثم أن قادة العرب المسلمين **قد لجؤوا من قبل إلى مثل هذه المباغتة الاستراتيجية عندما تحرك خالد من العراق إلى الشام قبل معركة اليرموك**[1]، ولكن تلك المباغتة أخذت أهميتها من طابع التحرك الطويل والصعب أكثر مما أخذته من طابع المباغتة ذاتها، في حين اكتسب تحرك قتيبة طابع المباغتة الاستراتيجية، لارتباطه بالهدف الكبير من جهة وهو فتح سمرقند، ثم لارتباطه من جهة أخرى بطبيعة العمليات ذاتها، علاوة على الحجم الكبير للقوى والوسائط مما تمَّ زجُّه في المعركة. ومهما كان عليه الموقف، فإن طبيعة الحرب لا تحتمل مناقشة الأساليب المتبعة للوصول إلى الهدف. وبذلك يكون قتيبة رائداً في هذا المجال، وتكون المباغتة هي العامل الأساسي في نجاح مخططاته الاستراتيجية[2].

---

(١) راجع: «الطريق إلى المدائن»، أحمد عادل كمال، دار النفائس.

(٢) تذكر المصادر العربية أن المراسل الذي بعث به قتيبة لإعلام الحجاج بن يوسف بفتح سمرقند، هو ذاته الذي بعث به الحجاج إلى الخليفة الوليد، وقد روى هذا المراسل ما يلي: «قدمت دمشق قبل طلوع الفجر، فدخلت المسجد، فإذا إلى جنبي رجل ضرير، فسألني: من أين أنت؟ فقلت: من خراسان، وأخبرته خبر سمرقَند، فقال: والذي بعث محمداً بالحق، ما افتتحتموها إلا غدراً. وإنكم يا أهل خراسان للذين تسلبون بني أمية ملكهم، ثم تنقضون دمشق حجراً حجراً».
الكامل في التاريخ لابن الأثير، وتاريخ الطبري، فتح سمرقند (٩٣هـ).

٢ ـ أمـن العمل

عندما فتح المسلمون خوارزم، تقدم المجشر بن مزاحم السلمي من قتيبة وطلب إليه التحدث على انفراد، وعندما تم له ذلك قال المجشر لقتيبة: «إن أردت السغد يوماً من الدهر، فالآن، فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام». وسأله قتيبة: «هل أشار بهذا أحد عليك؟»، وأجاب مجشر بالنفي، وعاد يسأله: «وهل أعلمته أحداً؟» فأجاب المجشر بالنفي أيضاً، وعندها قال قتيبة: «والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك».

تمثل هذه المحاورة مفهوم أمن العمل عند قتيبة. فهو يضع مخططاته، ويتخذ تدابيره ويقود قواته، وهي جاهلة بأهدافها حتى يحين الوقت المناسب، وذلك حفاظاً على سرية مخططاته وأهدافه من جهة وحتى يستطيع تحقيق المباغتة. ويظهر مفهوم أمن العمل أيضاً من تدابير قتيبة العملياتية، وإكثاره من الاستطلاع واستخدام الجواسيس (العيون). ويظهر ذلك بصورة واضحة من خلال متابعة قتيبة لتحرك قوات العدو من أجل دعم السغد أثناء حصار سمرقند، وإعداد قتيبة قوة كافية قامت بنصب كمين على محور تحرك القوات المعادية، وتمكنت من إبادتها. وإن متابعة هذه العملية هي برهان على **تنظيم قتيبة الدقيق لشبكة استطلاع واسعة**، كانت تمدُّه بالأخبار الدقيقة عند كل مرحلة، كما تضمن له وصول المعلومات بصورة كافية وفي الوقت المناسب لاتخاذ التدابير المضادة.

وبذلك استطاع قتيبة ممارسة عملياته في إطار من أمن العمل المطلق مع ضمان حماية قوات المسلمين من كل مباغتة مضادة. وإذا تجاوزنا ذلك إلى وصية قتيبة لقائد الحامية التي تركها في سمرقند، فستظهر مرة أخرى تدابير الحيطة الكافية للوقاية من كل مباغتة وضمان أمن العمل لقوات المسلمين: «لا تدعنَّ مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد، وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله. وإن وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه فاقتله. وإن أغلقت الباب ليلاً فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله». وبذلك ضمن قتيبة تحقيق الاستقرار في قواعده المتقدمة مما كان يضمن له قدراً كافياً من أمن العمل، وهو في قاعدته الخلفية في مرو.

لقد قاد قتيبة قوات المسلمين على امتداد فترة عشرة أعوام، لم يُنكب المسلمون خلالها، ولا بوغتوا بأمر غير متوقع، ولا انتكست لهم راية، ولا

مزّق لهم جمع، مع العلم أنهم كانوا يعملون في أقاليم صعبة، أصبح التمرد عادة من عادتها، وأصبح الغدر بالمسلمين غير غريب عليها، وذلك برهان في حدِّ ذاته على نجاح قتيبة في توفير جميع الشروط الضرورية لتحقيق أمن العمل. ولعل النقطة البارزة في تطوير قتيبة لمفهوم أمن العمل إنما تكمن في تجاوز مجال المخططات العملياتية إلى الأفق الخاص بالسياسة الاستراتيجية. فقد استطاع قتيبة ربط الأقاليم المجاورة، باتفاقات ومعاهدات للسلام، ومنها اتفاقية مع الصين، بهدف منع كل عدوان على حدود المسلمين، كما تبرز هذه الظاهرة أيضاً من خلال تجريد المتمردين من أنصارهم عن طريق إلزامهم بتنفيذ اتفاقيات الصلح المعقودة معهم، كل ذلك مما ضمن لقتيبة تحقيق أهدافه على مستوى العمليات وعلى مستوى السياسة الاستراتيجية لإدارة الأقاليم الشرقية بكاملها.

٣ ـ القدرة الحركية

غنم قتيبة من بيكند غنائم كثيرة، فاشترى (١٢) ألفاً من جياد الخيل و(١٢) ألف هجين، ودفع ثمن كل راحلة (٤) آلاف درهم، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء، وعندما أخذ في الاستعداد للغزو، وهو يريد نومشكت ورامثينة، قيَّد الخيول، وأضمرها حتى تذوب شحومها، وتصبح أكثر خفة لتجاوز الأنهار، وقفز الحواجز والسير في المسالك الوعرة، ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان ممن كان يدفعهم في الطلائع.

وكان قتيبة إذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل، واثني عشر هجيناً، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى موعد الحرب فيحمل عليها من يدفعه في الطلائع.

لقد كان الاهتمام بتأمين القدرة الحركية لجيوش العرب المسلمين سنَّة متبعة منذ بداية فتوح المسلمين، وكان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أول من خصص من فضول أموال المسلمين مبلغاً لشراء خيول في كل إقليم على قدره، فكان في الكوفة منها أربعة آلاف، ثم تابع القادة العمل بهذا المبدأ، ولكن قتيبة وصل بهذا المبدأ حتى نهايته، بحيث جهز قوات المسلمين لتكون بكاملها من القوات الراكبة، وذلك ليضمن بها سرعة التحرك، وقد كان ذلك استجابة لمتطلبات العمليات في أقاليم متباعدة، ومناطق صعبة، هذا بالإضافة إلى أن تعاظم قوة الجيش قد فرض بالضرورة توزيع قواته على عدد من المناطق والمدن، فكان من

الصعب والحالة هذه حشد القوات في كل عام وزجها في المعارك وقيادتها إلى مناطق العمليات البعيدة والصعبة، لولا توافر قدرة حركية عالية.

وقد يكون من الضروري هنا إضافة عامل جديد فرض نفسه على العمليات وهو عامل المناخ والأحوال الجوية. فقد عُرف فصل الشتاء في خراسان وفرغانة وسمرقند (مناطق السغد) ببرودته الشديدة في الشتاء وثلوجه مما كان يعيق كل أعمال قتالية، وعلى هذا فإن مدة العمليات بقيت محددة بفصلي الربيع والصيف، ولذلك فقد كان عامل الوقت من العوامل الحاسمة في تنفيذ العمليات، وإذا قورن العمل المطلوب مع المهلة الزمنية ظهرت ضرورة توافر القدرة الحركية العالية للقوات حتى تستطيع الانطلاق من قواعد تمركزها إلى مناطق حشدها، ثم لتقوم بعملياتها وتعود بعد ذلك إلى قواعدها في حدود فترات زمنية معينة.

ويكون تطوير قتيبة للقدرة الحركية استجابة لهذه المتطلبات كلها، علاوة على أن طبيعة حروب العرب المسلمين هي حروب حركة مما فرض الاهتمام بتأمين متطلبات هذه الحرب. ويبقى أخذ قتيبة بمجموعة العوامل هو الطابع المميز لأسلوبه القيادي. وقد يكون من المناسب هنا مقارنة اهتمام قتيبة بمجموعة العوامل وفي طليعتها العامل الجغرافي والمناخي مقابل إهمال هتلر لهذا العامل في الحرب العالمية الثانية، وعلى نحو ما أهمله نابليون بونابرت من قبل، مما تسبب بهزيمتهما على الجبهة الشرقية (الروسية)، فقد كانت طبيعة الحرب في هذه الحالات كلها نوعاً من نوع الحركة، ولكن قتيبة اتبع من الأساليب ما لم يطبقه الآخرون فانتصر قتيبة وفشل غيره، وبقي المسلمون هم سادة الدنيا على الإطلاق في حرب الحركة، وبقي قتيبة رائداً في طليعة روادها.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

تتطلب حروب الحركة والحروب التشتيتية والحصول على أمن العمل، وكذلك تحقيق المباغتة، الحصول على المبادأة قبل كل شيء، ووضع العدو تحت تأثير مواقف متطورة باستمرار مما يحرمه من فرصة تنظيم ردود فعل مناسبة أو تقديم مقاومات قوية. وتُظهر مطالعة مسيرة العمليات التي قادها قتيبة، أنه لم يترك المبادأة لخصمه إلا في ظروف قليلة نادرة، وأنه كان حتى في مثل هذه الظروف يتخذ من التدابير السريعة ما يضمن انتزاع المبادأة المحدودة التي قام بها العدو، لحرمانه من نتائج هذه المبادأة.

كان الأسلوب الرئيسي الذي كان يستخدمه قتيبة، بصورة خاصة، هو تطوير المواقف القتالية باستمرار لخلق المواقف المستجدَّة التي يعجز العدو عن مجابهتها، ويقصر عن التعامل معها، وعلى سبيل المثال: فعندما أنهى قتيبة صلح نومشكت، قام الترك بالهجوم على مؤخرته، فما كان منه إلا أن قام بهجوم بالكتلة الرئيسية مما ساعده على تدمير قوة العدو التي تزيد على مائتي ألف مقاتل بقيادة كوربفانون التركي، ابن أخت ملك الصين. ويمكن متابعة مسيرة عمليات قتيبة بعد ذلك حتى نهايتها فيظهر حرصه على الإمساك بالمبادأة في كل عملية من العمليات.

ولقد كان إمساكه بالمبادأة يقترن، كما هو مفروض، باستخدام القوة الهجومية، **فقد كان قتيبة يعتمد باستمرار على تجنب حرب المواقع والتحصينات**، وقد اضطر في بداية حياته القيادية إلى ترك بعض المقاومات من دون تصفيتها نهائياً، ومن دون الوصول إلى الحسم في الصراع المسلح من أجل تجنب حرب المواقع التي تستنزف قوته ولا تضمن له الحسم، ثم عدل بعد ذلك عن هذا الأسلوب، فأصبح أكثر تصميماً على تدمير المقاومات مهما كانت قوية، وذلك بعد اتخاذ ما يكفي من تدابير إدارة الحرب حتى يضمن النجاح. ولقد كان التوازن الرائع والحساب الدقيق في تقدير الموقف، بين الحرص على المبادأة وبين استخدام القوة الهجومية من جهة، وبين إنجاز الواجب القتالي في حدود زمنية محكمة من جهة أخرى هو الطابع المميز لعمليات قتيبة.

ويبقى بعد ذلك ما هو أكثر أهمية في أسلوب قتيبة القيادي، وهو إعطاء المبادأة المضمون السياسي، وأبرز صورة لهذه المبادأة السياسية، اتصاله بنيزك، وتهديده بالقوة الهجومية لحمله على الرضوخ، من دون قتال، وكذلك إرساله وفداً إلى الصين لعقد اتفاقات صلح سياسية. ورغم ظهور الملامح المبادأة السياسية واستخدام القوة الهجومية في عدد من المناسبات أثناء فتح اليرموك والقادسية ونهاوند، وسواها من أعمال الفتوح البارزة، إلا أن المبادأة السياسية لم تكن أكثر وضوحاً مثلما ظهرت في عهد قيادة قتيبة لعمليات فتوح الشرق.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

لقد تمثل مبدأ الاقتصاد بالقوى عند قتيبة بتجنب مهاجمة العدو في أقوى نقاطه، والتركيز على «**هدف واحد**» مما يضمن له التفوق الساحق على نقطة

ضعف العدو. ومن الملاحظ أن عمليات قتيبة تمركزت، في كل عام، لتحقيق هدف رئيسي واحد أو مجموعة أهداف ثانوية، وبذلك أمكن له المحافظة على قواته بدون تبديدها في هجمات عديدة، أو مجابهة قوات متفوقة قد تدمر قواته وتستنزفها، هذا كما أن تجنبه للاصطدام بالقلاع كان نوعاً من «**الاقتصاد بالقوى**»، ويظهر ذلك عندما هاجم نيزكاً بعد امتناعه في المناطق الصعبة، فلم يحاول قتيبة زجَّ قواته بالقوة، وإنما اعتمد على مشاغلة قوات خصمه ريثما توافرت له فرصة للقيام بعمليات تسلل إلى ما وراء التحصينات المسيطرة على مدخل الوادي، أي: فم الشعب، ثم تكررت هذه العملية مرة أخرى عند حصاره لقوات نيزك ذاتها، فلم يلجأ إلى الدخول معها في معركة جبهية، وإنما اكتفى بتطويقها وإحكام الحصار حولها، وعندما شعر أن الوقت قد حان لاستنزال خصمه، أرسل إليه من يقنعه بالاستسلام من دون قيد أو شرط، حتى لا يلزم نفسه بعهد لا يستطيع إلا الوفاء به، وأمكن له حمل خصمه على التسليم وإنهاء المعركة من دون قتال.

يلاحظ هنا أن الوصول إلى مبدأ الاقتصاد بالقوى قد حمل قتيبة على استخدام مجموعة من المبادىء، أولها المزج بين الهدف السياسي والهدف العسكري، مما ضمن له تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى عن طريق استراتيجية الهجوم غير المباشر، وكذلك استخدام مبدأ الحصار الاقتصادي والعزل عن الموارد الحياتية واتباع طرائق الإرهاب النفسي، مما ساعد على تحقيق الهدف بحد أدنى من الخسائر. أما في مجال مهاجمة القلاع والحصون، فقد استخدم قتيبة مبدأ التركيز على نقطة ضعف واحدة لتحقيق الاقتصاد بالقوى، ويظهر ذلك بوضوح عند حصار سمرقند، وحشد القوى كلها ضد الثلمة (الثغرة) وزجِّ الجنود حتى أمكن لهم اقتحامها. أما النقطة الأكثر أهمية في حرص قتيبة على تحقيق مبدأ الاقتصاد في القوى، فتظهر من خلال منع قيام كل تحالف ضدَّه، وإسراعه لضرب قوى التحالف قبل تجمعها، وبذلك كان يضمن لنفسه التفوق الساحق ضد قوات العدو المتفرقة.

وقد كان لزاماً على قتيبة القيام بمناوراته على خطوط متباعدة، مع إجراء حركات التفاف طويلة حتى يضمن الوصول إلى أهدافه، بدون أن تفقد قواته حماستها أو قدرتها القتالية، ويظهر من ذلك كله الإطار العام لعمليات قتيبة المتميِّز بشدة تعقيده، واشتباك عدد من مبادىء الحرب لتحقيق استراتيجية

واحدة أو عدد من الاستراتيجيات تلتقي كلها عند الهدف السياسي.

وقد يكون من المناسب هنا تجاوز ألف سنة من عمر الزمن للقفز مرة واحدة **من حروب قتيبة إلى الحروب النابوليونية، حيث نجد تشابهاً بين هذه العمليات وبين تصدي نابليون لعمليات غزو فرنسا في موقعتي فالمي، وجيماب عام (١٧٩٢)، ومعارك الراين عام (١٧٩٦)، وإذا ما وضعت نوعية الوسائط وحجم القوى المستخدمة جانباً فثمة تشابه كبير** في المخططات العملياتية والأسس الاستراتيجية لعمليات اجتياح الألمان للغرب، ويأتي التشابه بصورة خاصة من تشابه أساليب حركة الحركة ومن تشابك مبادىء الحرب في مخطط واحد، **وبذلك تصبح عمليات قتيبة ذات ظلال متقدمة تتجاوز حدود الزمن بأكثر من ألف عام.**

٦ ـ المحافظة على الهدف

كان الهدف السياسي الذي ركز قتيبة جهده لإنجازه هو ضمان الأمن وتحقيق الاستقرار في فارس وخراسان. وكان هذا الهدف السياسي يتطلب تحقيق مجموعة من الأهداف العملياتية التي بدأها بالأقاليم التي سبق فتحها ثم انتقضت على المسلمين، وارتدت عن ولائها وتمردت ضد الدولة الإسلامية، ثم أخذ قتيبة بعد ذلك في توسيع دوائر عملياته عاماً بعد عام، مثل استراتيجية بقعة الزيت أو استراتيجية تقشير الخرشوفة، كل ذلك ضمن إطار الهدف السياسي الواحد، وهو المحافظة على الهدف. وقد أدرك قتيبة، بدون ريب، أن تحقيقه لهذا الهدف يفرض عليه القضاء على قواعد العدوان التي كانت مراكز تحريض قوية فيما وراء النهر، وكان عمله للقضاء على هذه القواعد، هو الذي ضمن له تحقيق بقية منجزاته العملياتية والاستراتيجية، ويظهر ذلك مرة أخرى التكامل في الأسس الاستراتيجية ومبادىءالحرب مما اعتمده قتيبة في حروبه المتصلة والمستمرة.

يظهر بعد ذلك **المحافظة على الهدف عند قتيبة من خلال إصراره على تحقيق أهدافه التكتيكية والعملياتية وعدم الانتقال إلى غيرها قبل إنجازها.** فقد حاصر قتيبة نيزكاً ولم ينصرف عنه حتى استنزله وقضى على تمرده، ووقف أمام بخارى ولم ينصرف عنها حتى أخضعها، وحاصر سمرقند ولم يغادرها حتى فتحها عنوة ووضع حامية للدفاع عنها، وكان إنجازه لهذه الأهداف المرحلية هو الذي ضمن

له تحقيق هدفه السياسي. وقد ظهرت خلال ذلك مجموعة من العوامل كحصول أعمال تمرد، أو القيام بهجمات غير متوقعة، ولكنها لم تتمكن كلها من صرف قتيبة عن هدفه الأساسي أو تحويل هذا الهدف إلى أهداف تبادلية أخرى قد تبتعد به عن هدفه الأول. وقد حاول الترك أهل بيكند خداع قتيبة، وتحويله عن هدفه بإرسال جاسوس اسمه (تنذر) كان قتيبة يستخدمه عيناً له، وقد أدرك قتيبة هذه الخديعة وقتل تنذر، وغيَّر من أساليبه القتالية، من دون أن ينصرف عن هدفه أو يتحول عنه، مما أضعف إرادة القتال عند أهل بيكند، وحملهم على الاستسلام لإرادة قتيبة، والخضوع للعرب المسلمين.

ويظهر تصميم قتيبة في بلوغ هدفه السياسي والمحافظة عليه بشكل واضح أيضاً من خلال إصراره على الشروط التي وضعها للصلح مع ملك الصين، وقد تظهر هذه الشروط للوهلة الأولى أنها شروط معنوية، أكثر منها مادية، وأنها شروط بسيطة لا تتطلب مثل هذا التصميم، ولكن إذا وضعت هذه الشروط في إطار الهدف السياسي، فستظهر أهميتها بشكل واضح. فقد كان هدف قتيبة تأمين حدوده في أقصى الشرق، وحمل الصين على عدم تقديم أي دعم للقوى المضادة، ولهذا كان حجم الشروط يتوافق مع حجم الهدف. وتتعاظم أهمية التوازن بين الشروط والهدف عند معرفة أن هذا الاتصال كان هو الاتصال الأول مع ملك الصين، فكان ذلك بمثابة احتكاك أو تماس أولي من أجل سبر الموقف، وقد حدث ذلك في فترة صعبة بعد موت الحجاج، وموت الخليفة الوليد، فلم يكن باستطاعة قتيبة التورط في صراع لا يضمن نتيجته، فكان تحديد أهداف متواضعة والتصميم على تنفيذها هو المخرج الوحيد لمجموعة المواقف التي جابهها قتيبة خلال أحرج فترة من ولايته، ولعل ذلك أروع ما في موقف قتيبة من مبدأ المحافظة على الهدف.

الفصل الثالث

قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي

أ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك).

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين.

٣ ـ التحريض والحض على القتال.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين.

ب ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال.

٢ ـ الروح المعنوية العالية.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ قتيبة وما يُعرف حديثاً باسم (الحرب الشعبية).

٥ ـ قتيبة وحرية العمل.

٦ ـ الانضباط والطاعة.

أ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك)

عندما أراد قتيبة غزو نومشكت، عام (٨٨هـ/ ٧٠٧م) ندب الناس في وقت مبكر من بداية الربيع وقال لهم: «إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء». وعندما فتح قتيبة بيكند وجد في خزائنها، أي: مستودعاتها، سلاحاً وآلة حرب كثيرة، فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفع ذلك السلاح إلى الجند، فأذنَ له، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عدَّة الحرب وآلة السفر، فقسمه في الناس، فاستعدوا للحرب.

وكانت غنائم قتيبة في بيكند وفيرة، فاشترى (١٢) ألفاً من جياد الخيل و(١٢) ألف هجين، ودفع ثمن كل راحلة (٤) آلاف درهم، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء. وتظهر هذه الشواهد اهتمام قتيبة الكبير بالشؤون الإدارية، وتجهيز القوات المسلحة بما هو ضروري من الوسائط. ومما يجتذب الانتباه هنا تركيز الاهتمام بتجهيز الجيش بوسائط النقل مما تتطلبه حرب الحركة، ثم اتباع الطرائق العملياتية التي تضمن للقوات ما هو ضروري للتأمين الإداري من مسرح العمليات، والقيام بالعمليات في الوقت الذي تتوافر فيه إمكانات التعايش من الأقاليم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن توزيع القوات على مناطق مختلفة كان يضمن لهذه القوات ما هو ضروري للتعايش من وسط الإقليم، بالإضافة إلى توفير متطلبات الأمن.

وتبقى القضية الأساسية هنا قضية زيادة حجم الجيوش، فقد أصبحت قوات العرب المسلمين، تقوم بعملياتها، وهي تزيد على (٦٠) ألفاً، حسبما تتضمنه الشواهد التاريخية، بحسب ما تتطلبه طبيعة مسرح العمليات، وأصبحت هذه القوات راكبة على الأغلب، فكان حجم قوة الفرسان يعادل نصف تعداد القوات أو يزيد. وعلاوة على ذلك، **فقد ظهر التخصص في عمليات الجيوش** كاستخدام

الفعلة، المهندسين لتدمير التحصينات والتغلب على العوائق، بالإضافة إلى استخدام وسائط القتال الجماعية (كالمنجنيق) وقد تطلب هذا التطور زيادة حجم الإمداد الإداري، وزيادة الأعباء الإدارية الملقاة على عاتق القائد. وهنا يبرز الدور الكبير للقائد قتيبة بن مسلم، في تطوير مفهوم التأمين الإداري وإمداد القوات بمتطلباتها، ووضع مخطط العمليات لتحرك القوات من دون أن يشكل الذيل الإداري أيَّ عائق يعيق حرب الحركة. ولقد برهن التاريخ، حتى قبل ظهور العرب المسلمين، في عالم فن الحرب، على اهتمام عدد من القاعدة، كالإسكندر الكبير، بموضوع تأمين التوافق بين المتطلبات الإدارية والضرورات العملياتية، ولكن الاختلاف في حجم القوات من جهة، حيث أصبح حجم القوات المسلحة في عهد قتيبة أكبر مما كان عليه من قبل، بالإضافة إلى تحقيق التوازن بين طرفي معادلة الشؤون الإدارية والمتطلبات العملياتية هو الذي منح قتيبة ميزة السبق على كل من سبقه، ووضعه في مرتبة الريادة بين قادة حرب الحركة المتفوقين في التنظيم الإداري. وأن إقدام قتيبة على إرسال الغنائم والأثقال بصورة مستقلة عن تحرك القوات، لا تعني في الواقع أكثر من تحرير القوات من أعباء الذيل الإداري وتوفير الفرصة للتحرك بمرونة وفق متطلبات العمليات. وعلى هذا يبقى الاعتبار الأول عند قتيبة هو الاعتبار العملياتي والتكتيكي، وذلك من دون إهمال للمتطلبات الإدارية أو الانتقاص من أهميتها في التأثير على المتطلبات العملياتية، وأن هذا التوازن الرائع هو من أفضل منجزات قتيبة في فن الحرب.

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

عندما أراد تنذر الغدر بالمسلمين، والتعاون مع أهل بخارى للكيد لهم وصرفهم بحجة عزل الحجاج، وأدرك قتيبة كذب تنذر، أمر بقتله. وعندما فتح المسلمون بخارى، أراد الذي استثار أهلها وحرَّضهم على قتال المسلمين، فداء نفسه، وقدم نفسه لقتيبة قائلاً: «أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف»، فكان ردُّ قتيبة: «لا والله! لا تروع بك مسلمة أبداً»، وأمر بقتله.

وعندما تمرد ملك مرو الروذ، ثم أدرك أنه لا قِبَل له بمجابهة قتيبة، بعد أن علم بزحف قتيبة إليه، فرَّ إلى الجبال، ووصل قتيبة إلى مرو الروذ، وأخذ ابنين لملك مرو الروذ وقتلهما. وعندما تمرد نيزك وغدر بالمسلمين، وألقى قتيبة

القبض عليه قتله ومعه عدد من أصحابه. ثم غدر ملك الجوزجان برَهن، أي: رهائن، قتيبة وقتلهم، فكان ردُّ قتيبة أن قتل رهن ملك الجوزجان.

تلك هي بعض الشواهد على أسلوب قتيبة في القضاء على أعداء المسملين. **وقد تأخذ بعض أعمال قتيبة طابع القسوة، ولكن هذه القسوة لا تتجافى أبداً مع العدالة أو تتناقض معها**. ذلك أنه عندما كان يمضي قتيبة صلحاً مع أهل إقليم من الأقاليم، كان ينصرف عن أهلها من دون أن ينزل بهم أو يقترب منهم، كما أنه عندما كان يمضي صلحاً مع أهل إقليم بعد تمرُّدهم، لم يكن يتعرض لغير المقاتلين بسوء أو ينال منهم بأذى. واضح من ذلك أنه إنما كان يستخدم القسوة كعامل ردع، حتى يتمكن من السيطرة على الموقف، وحتى لا يفكر أحد بالنيل من المسلمين أو إلحاق الأذى بهم، ويتأكد ذلك من نص رسالة قتيبة إلى نيزك، التي هدده فيها بالحرب إن هو لم يقدم للقاء قتيبة، كما يتأكد ذلك أيضاً من إجراء قتيبة في الطالقان، حيث جمع اللصوص فقتلهم وصلبهم. وأخيراً يتأكد ذلك أيضاً من خلال شروط قتيبة للصلح مع ملك الصين، حيث يطغى العاملُ المعنوي على العامل المادي في الشروط المحددة للصلح.

وهنا قد يصعب تفسير سلوك قتيبة من دون العودة إلى ظروف العمل في الإقليم. فقد تعرَّف أهل الإقليم على الإسلام والمسلمين طوال أكثر من نصف قرن، وأسلم أكثرهم ورضي الصلح بقيتُهم، ولم يبق إلا جيوب متمردة تعمل على تحريضها فئات قليلة ممن لم يدخل الإسلام في قلوبهم، **فكان أسلوب الردع هو الأسلوب الأفضل والأمثل مع مثل هذه الفئات**. وعلاوة على ذلك، فقد كانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لاتساع الإقليم وبالنسبة لحجم الفتوحات، فكان من الضروري والحالة هذه تحقيق الاستقرار حتى يتم بناء المجتمع الجديد في مناخ من الأمن والطمأنينة. وعلى هذا كان أسلوب القضاء على أعداء المسلمين هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن اتباعه لمعالجة مثل تلك المواقف. ويظهر بعد ذلك كله، وبوضوح تام الشكل المميز لأسلوبين من أساليب التعامل، أولهما مع المسالمين من أهل البلاد المدنيين، وثانيهما المقاتلين من أعداء المسلمين، حيث يتبع مع الأولين اللين والتساهل ومع الآخرين البطش والقسوة. ولعل هذا التمييز الذي يرتبط أصلاً بعقيدة الإسلام القتالية هو أروع ما في صورة عدالة حرب المسلمين، وهي صورة ظهرت بأبعادها الكاملة في حروب قتيبة بن مسلم الباهلي. ووفقاً لهذا المضمون، فإن القسوة مرتبطة

بقوانين الحرب، ويصبح القضاء على أعداء المسلمين بعضاً من هذه القسوة التي تتطلبها الحروب، وبعضاً مما تفرضه شرائعها منذ عرف التاريخ الحرب.

٣ ـ التحريض والحض على القتال

يعتبر الإسلام أول عقيدة دينية حرضت على القتال وحضَّت عليه، وهذه هي إحدى السمات المميزة التي تربط العقيدة الدينية بالعقيدة القتالية عند العرب المسلمين، وقد برزت هذه الرابطة القوية في جميع حروب المسلمين ومعاركهم، فإذا تجاوزنا ذلك إلى طبيعة الإنسان العربي، وجدناه يرتجز شعر الحرب لإثارة الحماسة والتحريض على القتال، والتذكير بقيم الإنسان العربي من شجاعة وإقدام وفروسية وكرم وتضحية للدفاع عن المثل التي يؤمن بها الإنسان العربي ويعتنقها. وقد تبدلت أكثر القيم بظهور الإسلام، فحلَّ الفخر بالعرب المسلمين محل الفخر بالقبيلة، وحلت قيم الإسلام محل القيم الجاهلية، وأصبح للجهاد مضامين تتجاوز النزعات الفردية والحوافز القبلية الضيقة، وانفتح الإسلام على العالم، فكان الدفاع عن هذه القيم يحمل في مضامينه أبعاداً إنسانية واجتماعية شاملة.

وقد سحرت لغة القرآن عقول العرب، وطغت بلاغة القرآن على كل شعر الرجز، وأخذ القادة العرب يستثيرون حماسة المقاتلين بتذكيرهم بما جاء به القرآن الكريم من الهدى، وظهر ذلك على لسان قتيبة في أول حديث له مع المقاتلين عندما جمعهم في خراسان، وهي الكلمة المثبتة في مقدمة هذا الباب. وقد انتقى قتيبة في حديثه مجموعة الآيات التي توضح حجة القتال وذريعته ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف/٩]، ثم هو يذكرهم بحسن ثواب الآخرة: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة/١٢١]. وقد يكون من المحتمل أن يأتي استشهاد قتيبة بهذه الآية عفوياً ودونما عمد للحض على القتال. ولكن ذكر هذه الآية في منطقة عمليات تكثر فيها الأودية الصعبة والمناطق الوعرة، إنما هو أمر كاف لإثارة الحماسة، ودفع المقاتلين إلى احتمال كره القتال مع ما في ذلك من نَصَبٍ ومشاق. ثم يتابع قتيبة أسلوبه في التحريض على القتال معتمداً على صلابة العقيدة الدينية. فهو في مسيره، وبعد اتخاذ كل الترتيبات الضرورية يخاطب جنده بقوله: «سيروا على بركة الله». وهو يحض على قتال المرتدين

وفقاً لمضمون الآية الكريمة ونصها: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح/١٠]، وهو يربط بين غدر المرتدين في خراسان، وغدر يهود النضير وقريظة بما كانوا قد عاهدوا الرسول ﷺ، ويذكرهم بالآية: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح/٢١]، وهو يطالب جنده بتصفية جيوب التمرد على نحو ما سبق تنفيذه في الحكم على يهود النضير وقريظة. ويظهر ذلك كله عمق العقيدة الدينية في نفس قتيبة، واستلهامه الشواهد من نصوص القرآن الكريم للحض على القتال، ثم هو ينهج أسلوب القرآن ذاته في محاولة إثارة المقاتلين وتحريضهم على الجهاد.

وبعد، قد يكون أسلوب التحريض على القتال وكذلك مضمونه واحداً أو متشابهاً عند القادة من العرب المسلمين جميعاً، بحيث يصعب إعطاء قتيبة طابعاً مميزاً، أو أسلوباً خاصاً، ولكن اعتماد قتيبة رغم ذلك لهذا الأسلوب إنما يعني عدم إهمال قتيبة لأي عامل أو أي مبدأ من مبادىء عقيدة القتال الإسلامية، وهذا في حد ذاته برهان على تكامل المؤهلات القيادية عند قتيبة بن مسلم الباهلي، القائد الرائد، والإنسان المسلم، والرجل المؤمن، **والمقاتل الصلب الذي ما عرف السكون أو الراحة على امتداد أكثر من عشر سنين**، وكانت تلك الصفات بمجموعها هي التي ضمنت له النجاح الرائع في ممارسة قيادته.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر

خلال مطالعة سيرة قتيبة يتكرر، أكثر من مرة، وصف موقفه عندما يحتدم القتال ويشتدُّ الصراع، وذلك من خلال العبارات التالية: برز قتيبة بسريره، وقعد عليه ليتابع المعركة، وحمل السغد على المسلمين حملة حطموهم حتى جازوا عسكرهم، وقتيبة مُحتبٍ بسيفه، ما حلَّ حبْوته، وانطوت مجنبتا المسلمين على الذين هزموا القلب، فهزموهم حتى ردّوهم إلى عسكرهم، وهكذا. ورغم خطورة الموقف وانتصار أعداء المسلمين وتدميرهم لقوَّة القلب في المرحلة الأولى من المعركة، فإن قتيبة ما حلَّ حبْوة سيفه، وإنما بقي هادئاً يتابع المعركة، ويصدر أوامره إلى المجنبتين بتطويق القوات المتوغلة في أثر القلب، والعمل على تدميرها. وليس المطلوب من القائد في مثل هذا الموقف أن يجرد سيفه، بقدر ما هو مطلوب منه المحافظة على رباطة جأشه لإدارة المعركة بصورة صحيحة والإفادة من أخطاء العدو، وهي هنا التوغل وراء قوات القلب

المنهزمة، وتحويل الموقف بصورة جذرية، وهذا ما فعله قتيبة، وبذلك تجاوز مرحلة استخدام قوته الجسدية ليستخدم بصورة صحيحة قوته الفكرية، وتلك هي أعلى مراحل الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر.

وهناك صورة أخرى تبرز هذه القدرة وذلك من خلال متابعة عملية الكمين الليلي الذي وجهه قتيبة بقيادة أخيه عبد الرحمٰن لمجابهة قوات دعم العدوِّ المتوجهة لنصرة السغد. فخلال هذه المعركة، ظهر قتيبة على غير ما هو متوقع، واشترك في القتال، مع العلم أنه لم يكن في حاجة إلى ذلك بعد أن اتخذ من التدابير ما هو ضروري لمجابهة الموقف، ولكنه فضل العمل مع القوة التي تقوم بواجب رئيسي في ظروف صعبة، فوقف مع قوة الكمين، واشترك في قتالها، وبُوغت أحد المقاتلين عندما عرفه فسأله، وقد وجَّه ضربة أعجبته: «كيف ترى بأبي أنت وأمي؟» ولكن قتيبة لم يرغب في افتضاح أمر اشتراكه وأراد تعليم المقاتل بمبادىء القتال الليلي، وأولها الصمت، فقال له: «اسكت، دق الله فاك». ثم يعود قتيبة إلى معسكره من دون أن يفطن لوجوده أحد، فيستقبل المقاتلين، ويمنحهم ما غنموه، ويجزل العطاء لمن أبلى بلاءً حسناً، من دون أن يذكر أنه عرف بلاءهم وحسن جهادهم، ومن دون أن يذكر حتى سبب إكرامه لمن أظهروا شدة بأس في القتال، فكان هذا التصرف كافٍ حتى يشعر جميع المقاتلين أن قتيبة معهم باستمرار وأنه يتابع أعمالهم جميعاً، ويعرف المقاتل القوي، ويميِّزه عن سواه، فيندفع الجميع للتجاوب مع شجاعة قائدهم في مواجهة مواقف الخطر، وتتحول قوة المسلمين بكاملها إلى كتلة من الشجاعة التي تجابه الأخطار وتتحداها، وبذلك أيضاً يكون قتيبة قد تجاوز مرحلة الشجاعة الفردية في مواجهة مواقف الخطر، وحوَّلها إلى شجاعة إجماعية قادرة على مجابهة كل الأخطار.

لقد كان قتيبة يستمد من إيمانه العميق مورد الشجاعة التي تُعينه على مجابهة مواقف الخطر، شأنه في ذلك شأن قادة العرب المسلمين جميعاً، وعلى هذا فإنه لم يكن يقدِّر قيمة الخطر إلا بقدر أداء الواجب، ويظهر ذلك من وصف صورة قتيبة خلال حصار سمرقند، حيث وقف مقاتل من جند الأعداء ليشتم قتيبة باللغة العربية الفصحى، وهنا لم يعتبر قتيبة أن الشتائم موجَّهة لشخصه بقدر ما هي موجهة له كقائد للمسلمين. ويقترب أحد القادة المسلمين من قتيبة فيجده وهو مُحتبٍ بشملة، ويردد كالمناجي لنفسه: «**حتى متى يا سمرقند يعشش فيك**

الشيطان، أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية». وهو هنا لم يعتبر الذي شتمه فرداً، وإنما اعتبره ناطقا بلسان المشركين، فصمم على إزالة الشرك من سمرقند، وبذلك كانت نظرته لدوره كواحد من المسلمين، ونظر لمن شتمه كواحد من المشركين، ومن خلال هذا التصميم كانت تتوحد عند قتيبة عقيدة المسلمين وقوتهم القتالية وإمكاناتهم الفردية في إطار المجموع. ومن خلال هذا الكل المتكامل كان قتيبة يستمد شجاعته، ولكن ذلك لا يعني حرمان قتيبة من موارد الشجاعة، بمقدار ما يعني توجيه هذه الشجاعة الفردية لتكون جزءاً من شجاعة المجموع في خدمة القضية التي يقاتل المسلمون من أجلها، فيَقْتُلون ويُقْتَلون، بدون إعطاء أهمية في ميدان المعركة لمن قَتَل أو قُتِلَ بقدر إعطاء الأهمية لإنجاز الواجب وتحقيق النصر، وتلك هي شجاعة القائد الحقيقية في مواجهة الخطر.

٥ ـ القرارات الصحيحة

ربما كانت انتصارات قتيبة الكبرى وفتوحاته الواسعة هي أوضح برهان على صحة قراراته، ولكن رغم ذلك فقد يكون من الضروري تجاوز هذه المقولة الشمولية، في محاولة لمعرفة المعطيات التي كان يستند إليها قتيبة من أجل اتخاذ قراراته.

إن أول المعطيات التي كان يعتمدها قتيبة هي الاستطلاع الجيد لمعرفة شؤون العدو ونواياه، وتنظيم شبكة محكمة من الجواسيس (العيون) مع المحافظة على السر، واتخاذ تدابير الحيطة القوية، ويظهر ذلك من خلال مجموعة الأحداث التي أحاطت بعمليات قتيبة ورافقتها. فعندما حاول قتيبة فتح بيكند، وشدَّد قبضته على أهلها، حاول هؤلاء خداع قتيبة باستخدام أحد جواسيسه، وهو تنذر الفارسي، وجعله عميلاً مزدوجاً يعمل للطرفين، المسلمين وأعدائهم، وعندما جاء تنذر إلى قتيبة، وطرح عليه مقولته، استدعى قتيبة مولاه سياه وأمره بضرب عنق تنذر، مما يشير بوضوح إلى توافر معلومات كافية عند قتيبة أنقذته من شراك الخداع، ثم أنه هدد ضرار بن حصين الضبي الذي عرف القصة بكاملها، وطلب إليه المحافظة على السر، وكان مما قاله له: «**لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك، وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به، فاملك لسانك**»، وكذلك عندما استأذن نيزك من قتيبة

الانفصال عنه، سمح له بذلك، ثم أدرك بسرعة أن نيزكاً إنما يريد الغدر بالمسلمين، فاتخذ الإجراءات الكافية لإحباط كل محاولة قد تنال من المسلمين غرَّة أو تباغتهم بما هو غير متوقع.

وكان تقديره للأمور صحيحاً عندما حاصر نيزكاً، وعرف أن قدرته القتالية قد استُنزفت، فبعث إليه من يفاوضه على الاستسلام غير المشروط. وكان أكثر قراراته صحة توجهه إلى سمرقند بعد فتح خوارزم مباشرة، مما ضمن له الظروف المناسبة لتحقيق النجاح. وتظهر قرارات قتيبة الصحيحة بعد ذلك في أسلوب تنظيمه للقوات، وفي طريقة تحركها على شكل مجموعتين قتاليتين متتابعتين، وتحديد الفواصل بين المجموعتين بحسب الموقف مما ضمن له تجنُّب المباغتة والإمساك بالمبادأة. كما تظهر قراراته الصحيحة في إقامة الكمائن لقوات العدو على محور اقترابها، وتحديد المكان المناسب لإقامة الكمين، بحيث يمكن الإفادة من مجموعة الظروف؛ الليل، والمكان الوعر، ووجود القوات في مكان لا يتوقعه العدو.

وتظهر صحة قرارات قتيبة بعد ذلك في معالجة المواقف جميعها من خلال هدف السياسة الاستراتيجية للحرب، ولم يكن إرسال الوفد إلى الصين، وانتقاء أفراده سوى نتيجة لهذه القرارات الصحيحة. كما تظهر صحة قراراته أيضاً من خلال مجابهة أعمال العدو بردود فعل مناسبة. فعندما انتقى ملوك الشاش وإخشاذ وفرغانة أقوى فرسانهم لدعم أهل السغد، عمل قتيبة على انتقاء أشجع الفرسان وزجهم في مواجهة خصومهم. وعندما طلب غوزك ملك السغد إلى قتيبة قتاله بقوات العرب المسلمين فقط، حتى لا يقاتله بأبناء عمومته وأهله وعشيرته؛ استجاب قتيبة لهذا الموقف ولكنه عمل على انتقاء المقاتلين الأشداء حتى استطاع إحراز النصر.

وهنا لا يمكن إهمال عامل دراسة الأرض من بين مجموعة العوامل التي اعتمدها قتيبة عند اتخاذه لقراراته؛ إذ لم يكن إرساله للطلائع، مع تحديد أسلوب عملها وتنظيم واجباتها، إلا لمعرفة المزيد من الطبيعة الجغرافية للإقليم، واتخاذ القرارات المناسبة بحسب المواقف. وعلاوة على ذلك، فإن تحديد توقيت العمليات في كل سنة للإفادة من فصلي الربيع والصيف، إنما هو برهان أيضاً على أخذ قتيبة بجميع العوامل التي تساعده على اتخاذ قراراته الصحيحة.

وهكذا يمكن من خلال هذا العرض الوصول إلى نتيجة محددة وواضحة وهي أن عوامل تقدير الموقف الحديثة؛ العدو، الأرض، القوات الصديقة، الأحوال الجوية، قد وجدت لها مرتكزات ثابتة عند القائد قتيبة، وقد كانت هذه المرتكزات هي الأساس فيما كان يتخذه من قرارات صحيحة.

٦ ـ حماية المرؤوسين

ليس بالإمكان فصل تدابير حماية المرؤوسين عن مبدأ أمن العمل، وفقاً لما سبق ذكره، كما أنه من المتعذر أيضاً عزله عن بقية المبادىء أو المعطيات الواردة في فقرات الحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام، أو مبدأ الاقتصاد بالقوى، ولكن أول ظاهرة تستحق الوقوف عندها في مجال الممارسة العملية هي التعليمات المشدَّدة إلى حكام المدن والأقاليم لاتخاذ تدابير الحيطة بما يكفل حماية المرؤوسين. والظاهرة الثانية، هي الاحتفاظ بالرهائن (الرهن) مقابل من يتم إرسالهم من المراسلين، والعمل على قتل الرهن فور تعرض المرؤوسين المسلمين للقتل أو الأذى. والظاهرة الثالثة هي الانتقام لكل مرؤوس أو حليف للمسلمين يغدر أعداؤه به.

لقد عيَّن قتيبة لقيادة القوات المحاربة في خوارزم أحد قادته، وهو إياس بن عبد الله بن عمرو، كما عيَّن لجباية خراجها، عبيد الله بن أبي عبيد الله، مولى بني مسلم، وقد أظهر الرجلان ضعفاً أغرى أهل خوارزم بالتمرد، فما كان من قتيبة إلا أن بعث أخاه، عبيد الله بن مسلم، وطلب إليه ضرب قائد القوات المحاربة، ولم يكن هدف قتيبة من إجرائه، على ما فيه من قسوة، سوى حماية المرؤوسين. وقد برهن هذا التدبير على فاعليته، بحيث لم يجابه قائد القوات التي وجهها قتيبة لقتال أهل خوارزم المتمردين، المغيرة بن عبد الله، أيَّ مقاومة، نظراً لتخاذل أهل خوارزم وعدم نصرتهم لزعماء التمرد، بعد أن عرفوا بطش قتيبة وحرصه على حماية مرؤوسيه. وعندما غدر أهل سمرقند بملكهم طرخون، حليف قتيبة، زحف قتيبة بجيشه، وشعر أهل سمرقند بالخطر المحدق بهم، فحاولوا عقد صلح جديد مع قتيبة، ولكنه رفض عقد أي صلح قبل الانتقام لطرخون وأكد ذلك بقوله: «أنا ثائر بدم طرخون، كان مولاي وكان من أهل ذمتي». وعندما استسلمت سمرقند، رفض قتيبة دفع رجاله لاقتحامها قبل الحصول على عدد معين من الرهن، وعندما حصل على ما يريد، قال لرجاله:

«الآن ذلوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم»، ثم سمح بدخول مرؤوسيه إلى المدينة. ولم يكن إخلاء سمرقند من أهلها بعد ذلك، سوى تدبير وقائي هدفه حماية المرؤوسين من كل غدر بعد أن تكرر تمرد المتمردين فيها وعصيان العصاة في إقليمها.

تلك هي بعض الشواهد، لا كلها، إلا أن هناك نقطة مهمة لا يمكن تجاوزها في مجال حماية المرؤوسين، وهي وقوف قتيبة دائماً في مركز القيادة الأكثر خطورة. فقد تكررت الشواهد حول وقوف قتيبة أمام الثغرة (أو الثلمة) أو في قلب المعركة، أو في موقع يشرف على ميدان القتال، أو حتى في اشتراكه مع القوة التي تنفذ واجباً خطراً، كقوة الكمين الليلي عند حصار سمرقند، وهو هنا لا يحمي مرؤوسيه بنفسه فقط، وإنما يقف في الموقع الذي يسمح له بمتابعة تطورات الموقف حتى يستطيع اتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب ويشرف على تنفيذها بنفسه، فيضمن النجاح في تنفيذ الواجب من جهة، ويؤمن حماية مرؤوسيه من جهة ثانية. وتتكرر هنا مرة أخرى قضية التوازن بين تحقيق الواجب وبين حماية المرؤوسين؛ إذ أن حماية المرؤوسين ليست هدفاً في حدِّ ذاتها وإنما هي وسيلة لتحقيق الهدف وهو تحقيق النصر. فإذا ما تطلب الأمر، بعد اتخاذ جميع تدابير الحيطة، زج القوات في المعركة، فإن قتيبة لم يكن ليتردد في إلقاء الكتلة الرئيسية لقواته وزجِّها في المعركة حتى يتم له النصر.

وكثيراً ما كان قتيبة يربط بين تنفيذ الواجب وبين حماية مرؤوسيه، حتى في تنفيذ الواجبات الخاصة. فعندما أرسل رسولاً إلى نيزك لمفاوضته كان مما قاله له: «انطلق إلى نيزك... واحتل لأن تأتيني به... واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك صلبتك، فاعمل لنفسك». وعندما اختار قتيبة رجلين من مهرة الرماة لرمي ذلك الذي كان يشتم قتيبة من فوق أسوار سمرقند، قال قتيبة للرماة: «أيكما يرمي هذا الرجل، فإن أصابه فله عشرة آلاف، وإن أخطأه قطعت يده». ولا حاجة للقول إن حرص قتيبة على حماية مرؤوسيه كان من العوامل الأساسية التي ضمنت له إخلاص هؤلاء المرؤوسين واندفاعهم لتأييده، والإخلاص في تنفيذ الواجبات المنوطة بهم. ومقابل ذلك، فقد تأكدت ثقة المعاهدين بقتيبة، واعتمدوا على تأييده لهم مما ضمن تحقيق الاستقرار في الأقاليم، وساعد بالتالي على انصراف المسلمين نحو بناء المجتمع الجديد، مجتمع المسلمين.

ب ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

نؤمُّ البلاد لحب اللِّقا ء ولا نتقي طائراً حيث طارا
سنيحاً ولا جارياً بارحاً على كل حال نلاقي النسارا

تلك هي المقولة التي استشهد بها مقاتل في جيش قتيبة، وهو يردُّ على مقاتل أفزعه ما رأى من انتشار المسلمين، وخاف أن ينالهم أعداؤهم وهم على مثل هذه الحالة بمباغتة، فكان الرد هو أنه لا خوف على المسلمين، مهما كان موقفهم ومهما كان تنظيمهم، فهم في جميع الأحوال على استعداد دائم للقتال، وهم لم يقطعوا المفاوز، ويخترقوا الفيافي، ويحتملوا الصعاب إلا من أجل حب اللقاء، وإلا من أجل مجابهة كل احتمال حتى لو كان طائراً جارحاً أو نساراً يخترق حجب السماء للانقضاض على المسلمين. فهم في استعدادهم الدائم للقتال يضعون جميع الاحتمالات، لا تفزعهم مباغتة، ولا تلحق بهم مكيدة، ولا ترهبهم قوة مهما بلغت من البأس طالما أنها لا تتناقض مع حبهم للحرب ولقاء الأعداء، ولا يعني ذلك بالضرورة إهمال تدابير الحيطة، ولكن هذه التدابير من عمل القادة، فالمقاتلون هنا على ثقة تامة بتدابير قائدهم، وليس عليهم إلا أن يكونوا على استعداد دائم للقتال من أجل تنفيذ ما يُطلب إليهم تنفيذه بأسرع ما يمكن، وقد عرف المقاتلون في جيش قتيبة هذه الحقيقة، واستجابوا لها، فكانوا كتلة متحركة، وعاصفة قوية، لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار، ولا السكون أو الراحة، ما تفرغ من حرب حتى تأخذ استعدادها للحرب التالية، ولا تنتهي من معركة حتى تنتقل إلى موقع معركة جديدة، لا يهمها الخصم الذي تجابهه، ولا تحاول معرفة الاتجاه الذي ستسلكه، فتلك هي واجبات القائد قتيبة، أما واجبها، فهو السير في البلاد لحب اللقاء.

ولعل أبرز صورة لهذه المواقف هي صورة عبد الرحمٰن بن مسلم، وهو يقود

(١٢) ألف مقاتل تنفيذاً لأمر أخيه: «سر إلى البروقان، وأقم بها، ولا تُحدث شيئاً، فإذا حسر الشتاء فعسكر وسر نحو تخارستان، واعلم أني قريب منك». ولا يحاول عبد الرحمٰن معرفة مخططات أخيه، ولا معرفة احتمالات تطور الموقف، فثقته كبيرة بأخيه القائد، ويكفيه أنه قريب منه عند اللقاء. كما تبرز مثل هذه الصورة أيضاً عند تحرك قتيبة من خوارزم في اتجاه مرو، ثم توجيه الأثقال نحو مرو بعد مسيرة يوم واحد، وإصدار الأمر إلى أخيه عبد الرحمٰن: «إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى مرو، وسر في الفرسان والمرامية نحو السغد واكتم الأخبار، فإني بالأثر أتبعك». ويمضي عبد الرحمٰن إلى هدفه، ويتبعه قتيبة بجيشه الذي لم يكد يفرغ من معركة حتى وجد نفسه موجهاً نحو معركة أخرى، وهو في ذلك كله، لم يفقد قوته، ولم تضعف قدرته، وبقي كعهده دائماً على استعداد للقتال.

وبعد، فإذا كان الاستعداد الدائم للقتال هو من طبيعة الإنسان العربي، وإذا كان الانضباط الطوعي هو من صلب العقيدة الإسلامية الدينية والقتالية، فإن كفاءة قتيبة القتالية إنما هي في الإفادة من كافة المعطيات لصهر القوة المقاتلة وتوجيه هذه القوة نحو أهداف واضحة، ومحددة، وليست العملية في جميع الأحوال هي عملية مزج قوة عددية، لتطبيق مبادىء ثابتة، بقدر ما هي خلق الحوافز لتكوين نوعية مميزة تمنح للقوة العددية القدرة على التفوق وفق مبادىء تكتسب من المرونة عند التطبيق ما يتوافق مع الهدف، وذلك هو سر عبقرية قتيبة وتفوقه القيادي.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

وقف رسول قتيبة أمام ملك الصين الذي خاطبه بقوله: «انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه». فقال له هبيرة بن مشمرج، رسول قتيبة: «كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً مَنْ خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك. وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه». وتوضح هذه المقولة، ما كان عليه كل عربي مسلم من الروح المعنوية العالية، فهو يقف أمام ملك الصين، ويقارعه الحجة، بإيمان ثابت، وإرادة قوية، تعتمد في أساسها

على قوة المسلمين جميعاً في تماسكهم «كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟»، والمسلمون هنا يشكلون وحدة قتالية واحدة تبدأ من فلسطين والشام حيث منابت الزيتون، وتنتهي بحدود الصين. ولا ريب أن هذه الوحدة كافية لتكوين روح معنوية لا تتراجع ولا تتزعزع أو تهتز مهما كانت التحديات التي تجابهها.

وتأتي الدعامة الثانية للروح المعنوية من هدف الحرب، فالعرب المسلمون قد انطلقوا إلى دنيا الفتوح بدون طمع في خيرات هذه الدنيا أو بسبب الحاجة إليها، فهم قادرون على تأمين متطلباتهم الحياتية من مواطنهم لو أرادوا ذلك، ولكن حمل الرسالة فرض عليهم ترك الدنيا وهم قادرون عليها والقيام بالغزو والفتوح. ويأتي بعد ذلك الإيمان بالعقيدة الإسلامية، وبما تحمله من مضامين الخلود للشهداء والصالحين والمجاهدين لتشكل العامل الأساسي في إزالة الخوف ولترفع الروح المعنوية حتى ذروة حب الشهادة والاستشهاد «**إن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه أو نخافه**»، وتأتي بعد ذلك الثقة المتبادلة بين القائد قتيبة وجنوده لتدعم هذه الروح المعنوية وتعززها. فثقة هبيرة بن مشمرج بقتيبة، ومعرفته بصدق وعيده وتهديده، هي من جملة العوامل التي لا يمكن إنكارها فيما تميَّز به موقف هبيرة من الصمود للتهديد، والتحلي بالروح المعنوية العالية.

وتتكرر مثل هذه الصورة في قصة عياش الغنوي، الذي بعث به قتيبة إلى ملك شومان ليقنعه بدفع الفدية التي كان قد صالح قتيبة عليها، وعندما وصل عياش إلى شومان خرج إليه أهلها، فصرخ عياش: «أما ها هنا مسلم! فخرج إليه رجل من المدينة، فقال: أنا مسلم، فما تريد؟ فقال عياش: تُعينني على جهادهم. قال: نعم. فقال له عياش: كن خلفي لتمنع لي ظهري». فقاتلهم عياش، فحمل عليهم، فتفرقوا عنه، وحمل الرجل الذي ادعى أنه مسلم على عياش من خلفه فقتله، فوجدوا به ستين جراحة، فغمَّهم قتله، وقالوا: «قتلنا رجلاً شجاعاً». ولا حاجة للقول إن هذه الشجاعة إنما كانت تمثل الصورة الحقيقية للروح المعنوية العالية عند جند المسلمين في كل مرة تتوحد فيها جميع المعطيات من قيادة حكيمة مؤمنة، وتطبيق صحيح للعقيدة القتالية الإسلامية، مع وحدة في الهدف تلتقي عندها إرادة المقاتلين جميعاً، وقد استطاع قتيبة تمثيل المعطيات جميعها، فكان نجاحه الخالد في إخضاع الأقاليم المتمردة، والقضاء على جيوب

المقاومة، وافتتاح أقاليم جديدة لم يصلها المسلمون من قبله. وتبقى الروح المعنوية العالية هي الأساس في ذلك كله، ذلك أن المسلمين لم يكونوا يزحفون إلى أعدائهم بقوتهم العددية، وإنما بتفوقهم المعنوي الذي كان يساعدهم دائماً على تدمير التفوق العددي لأعدائهم والانتصار عليهم.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

اتخذ قتيبة من مرو عاصمة له، وقاعدة لعملياته، ثم انطلق بالمسلمين إلى بيكند ثم إلى نومشكت ورامثينة وبخارى والطالقان وشومان وكِس ونسف وخوارزم وخام جرد وسمرقند والشاش وفرغانة وكشغر. وليست هذه كلها مجرد أسماء، وإنما هي مواقع على امتداد آلاف الأميال في مناطق مختلفة، فيها السهل وفيها الجبل، وفيها الطريق الممهَّد وفيها الطريق الوعر. ولم تكن المسيرة الطويلة على امتداد عقد من الزمن مجرد مسيرة عادية، وإنما كانت ملاحم متصلة من الصراع المرير، في الليل والنهار، مع ما يرافق ذلك من حرٍّ وقرٍّ، لهيب وصقيع، وذلك وحده برهان على الكفاءة البدنية التي ميَّزت جيوش المسلمين وتأكيد على قدرتهم الفائقة على تحمل الصعاب.

ولقد عُرف الإنسان العربي بالقسوة التي منحتها له الطبيعة، والتي لا زالت رواسبها تعيش معه حتى في أيامه هذه حتى لو ستر هذه القسوة بأجمل الثياب الغربية، ولكن الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب في أيام مضى عليها ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، وفي جيش مثل جيش قتيبة، إنما تعني نوعاً مميزاً آخر من الصفات الجسدية والنفسية. إنها تعني وببساطة تجاوز حدود الذات وإنكار كل المصاعب التي تحتملها طاقة الإنسان وقدرته، وذلك من أجل تحقيق هدف عادل، وبذلك تتحول الكفاءة البدنية العالية من النطاق الفردي إلى نطاق الجيش بكامله، فتدفعه إلى احتمال الصعاب التي قد يصعب على الفرد النهوض بها أو احتمالها. وفي الحقيقة، **فإن الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب لم تكن وقفاً على جيش قتيبة، بل كانت صفة عامة وميزة بارزة لجيوش العرب المسلمين في كل مكان عملت فيه هذه الجيوش.** وإذا أمكن تجاوز كل الأعمال القتالية السابقة والفتوحات المتتالية للوصول إلى عهد قتيبة، فسيظهر أن هناك أكثر من قائد كان يمارس عملياته بأسلوب مشابه اعتماداً على كفاءة جند المسلمين البدنية وقدرتهم على تحمل الصعاب.

فقد كان محمد بن القاسم الثقفي يقود جنده خلال الفترة ذاتها ليعمل إلى جنوب منطقة عمليات قتيبة، وليضمن فتح باكستان حالياً ومناطق الهند الغربية، وفي هذه الفترة ذاتها كان موسى بن نصير يقود عمليات مشابهة في أقصى المغرب لينطلق بعدها إلى الأندلس، في حين كانت جيوش أخرى للمسلمين تتوغل في بلاد الروم (بيزنطة) من أجل تأمين الحدود الشمالية لبلاد الشام، هذا بالإضافة إلى تلك العمليات البحرية في شرق المتوسط (سردينية) وغربه (جزر الباليئار)، وكانت هذه الموجة القوية من المقاتلين الأشداء هي التي أبرزت أسماء مجموعة من القادة الخالدين. ولكن مهما كان عليه الأمر، فهناك حقيقة أخرى لا يمكن التنكر لها أو إنكارها أيضاً، وهي أن جيل هؤلاء القادة قد أفاد من صفات المقاتل العربي المسلم، ليحقق منجزاته الرائعة؛ إذ لولا وجود قادة من أمثال قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وموسى بن نصير، وطارق وعقبة بن نافع وغيرهم؛ لما استطاعت كتلة المقاتلين القوية والشديدة البأس أن تصل إلى ما وصلت إليه، في فتح العالم القديم شرقه وغربه، ويبقى توجيه الكفاءة البدنية العالية، والقدرة على تحمل الصعاب، هو من عمل القادة وحدهم، ومن خلال هذا التفاعل المشترك ظهرت أروع صفحات فن الحرب عند العرب المسلمين.

٤ ـ قتيبة وما يُعرف حديثاً باسم (الحرب الشعبية)

كثيراً ما تتردد في كتب التاريخ العربية عبارة «واستخلف على حربها»، وهي تعني بدقة ترك حامية واجبها الأول الدفاع عن المدينة تحت قيادة ذلك الذي تمَّ استخلافه للقيادة والحرب، ويظهر بوضوح أن قوات المسلمين قد نُظِّمت من قِبل قادة العرب المسلمين تقسيماً يتوافق والواجبات الدفاعية أو الهجومية. فالقوات الدفاعية أو الحاميات هي التي تتلقّى الصدمة عند كل هجوم مباغت للعدو، وتؤمن حماية المدينة أو الإقليم الذي تدافع عنه. أما القوات الهجومية، فهي تلك التي تتحرك لمجابهة العدو وتعمل على إخضاع الإقليم المتمرد أو فتح الأقاليم التي لم يسبق للمسلمين فتحها، ولا حاجة للقول إن هذا التقسيم قد ضمن استخدام جميع القوى والوسائط المتوافرة من دون إهمال لأيِّ إمكانات أو قدرات. وعلاوة على ذلك، فقد تكررت أكثر من مرة، في سيرة قتيبة، العبارة التالية: «واندفعت قوات العدو، في تقدمها، حتى دخلت معسكر قتيبة،

وجاوزته إلى معسكر النساء، **فخرجت النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو حتى ضرب النساء وجوه الخيل»**.

وهذا التقليد الإسلامي الذي سار عليه قتيبة إنما هو اتباع لسنَّة الرسول ﷺ، وللقادة مِن بعده، حتى خلال المعارك الحاسمة، كاليرموك والقادسية وفتح الفتوح، حيث كان للنساء دور كبير في إثارة الحماسة والاشتراك في الحرب. وتعتبر هذه الظاهرة أوضح برهان على تطبيق قادة العرب المسلمين لمبدأ الحرب الشعبية بمفهومها الحديث. وإذا كان استخدام هذا المبدأ قد ارتبط بالعقيدة القتالية الإسلامية، فإن قتيبة لم يكن مجرد متتبع لتقليد معروف، وإنما كان مبدعاً ومطوِّراً؛ إذ أن تقسيم القوات بحسب الواجبات إنما كان أكثر وضوحاً عند قتيبة منه عند بقية القيادة. وعلاوة على ذلك، فإن تطبيق هذا المبدأ قد اكتسب مرونة خاصة عند تطبيقه في الشرق بسبب قلة عدد المسلمين، وبالنسبة لاتساع الأقاليم، وبالنسبة للواجبات التي حددها قتيبة في عملياته أيضاً، ولهذا عمل على اتباع أسلوب الفرض على الأقاليم المحالفة للمسلمين أو المعاهدة لهم، وذلك كإجراء تكميلي لتطوير أسلوب الجهاد وإشراك أكبر قوة ممكنة تحت راية العرب المسلمين، وهذا ما حمل غوزكاً، ملك السغد، على التقدم بطلب من قتيبة عندما قال له: «إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم، فأخرِج إليَّ العرب»، وقد استجاب قتيبة للطلب وقاتله بفرسان العرب وحدهم، وانتصر عليه، ولكن ذلك يثبت تطوير مفهوم الجهاد وتطبيقه بمضمونه لا بحرفيته، علاوة على ما سبق ذكره من حيث تحقيق مبدأ الحرص على العنصر العربي، دعامة الإسلام.

ولعل تقسيم قتيبة لقوات العرب المسلمين إلى قوات دفاعية، حاميات، وإلى قوات هجومية، إنما كان استجابة للإمكانات المتوافرة، فضرورة ترك حاميات في المدن والأقاليم، علاوة على عدم توافر إمكانات لتأمين القدرة الحركية للجيش بكامله هي التي فتحت المجال لاستخدام جميع العناصر المتوافرة في الحرب. فالمقاتلون الذين لا يستطيعون مرافقة المسلمين في حرب حركتهم لأسباب مادية أو مرضية أو طارئة، علاوة على أولئك الذين يتطلب الموقف تركهم تحت السلاح لتأمين الدفاع، يستطيعون جميعاً تنظيم حاميات قوية برهنت الأحداث على توافر القدرة لها لمجابهة كل ما هو غير متوقع، وضمنت بذلك اشتراك المسلمين جميعاً في أداء فريضة الجهاد، وهو أكثر الأشكال تطوراً في المفهوم الحديث للحرب الشعبية.

٥ ـ قتيبة وحرية العمل

عندما أراد عبد الملك بن مروان تعيين والٍ على خراسان، كتب إلى الحجاج: «انظر لي رجلاً صارماً، ماضياً لأمرك»، فسمى قتيبة بن مسلم، فكتب إليه عبد الملك: «وَلِّه»، أي: أسند إليه ولاية خراسان. وعندما توفي عبد الملك وخلفه الوليد بن عبد الملك أميراً للمؤمنين، كتب إلى قتيبة: «قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذي يجب لك، فالمم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تُغيِّب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه». وتشير كتب التكليف في الحالتين إلى ضمان نوع من القيود، وهي في الحالة الأولى: الإذعان والانقياد، وأن يكون منفِّذاً لأمر الحجاج ماضياً لأمره. وفي الحالية الثانية: إطلاع أمير المؤمنين على كل تطور في الموقف، حتى كأن أمير المؤمنين يراقب الموقف عن كثب. ولكن هذه القيود المفروضة لا تشكل أي قيد في حرية عمل القائد، فالمقياس الذي يقيده في البداية والنهاية هو مقياس النجاح أو الفشل، فهو مطلق الحرية في قيادة قواته، وحشدها، وتجهيزها بالوسائط الضرورية، ووضع مخططات العمليات، ولكن ذلك لم يكن ليمنع القائد الأعلى، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي هنا، من توجيه النصح إذا ما لمس خطأ أو علم بمخالفة تتناقض ومبادىء الحرب. وها هو الحجاج، وقد علم بتوجه قتيبة إلى مرو قبل جنوده، وذلك في السنة الأولى من ممارسته لقيادته، فكتب له: «**إذا غزوت فكن في مقدم الناس، وإذا قفلت فكن في أُخرياتهم وساقتهم**»، وهو يحدد له أن يكون دائماً مع القوة التي تقوم بتنفيذ الواجب الرئيسي، ويقرر له المبدأ الثابت في مكان القائد من تنظيم القتال. وفي مرة أخرى ينصرف قتيبة إلى التعامل مع أهداف قليلة الأهمية، فيكتب له الحجاج: «إياك والتحويط ودعني من بنيات الطريق، وارجع إلى مراغتك، فتب إلى الله مما كان منك. وأتِها ـ بمعنى هاجمها ـ من مكان كذا... وكذا...».

تلك هي الحدود الواضحة التي ظهرت في مسيرة العلاقات بين القائد قتيبة وقيادته العليا، وهي حدود لا تشكل أي قيد في مجال حرية العمل بقدر ما تساعد على تبادل الرأي وتنسيق التعاون، ويظهر ذلك من خلال توجيه قوات الدعم التي فصلها الحجاج عن قوات محمد بن القاسم الثقفي ووجهها لدعم قتيبة. ويمكن بعد ذلك، ومن خلال متابعة سيرة قتيبة على امتداد ولايته، إدراك مدى

ما كان يتمتع به من حرية العمل المطلقة، فقد كان يتخذ قراراته بحرية مطلقة، ولو أنه كان يستشير أصحابه في بعض المواقف ويأخذ بها عندما تتوافر له القناعة بصحتها، ولكن هذه الاستشارة لم تكن تشكل حداً من حريته في العمل، بقدر ما كانت دعماً لوجهات نظره أو ترجيحاً لموقف يحتمل التردد أو المفاضلة. ولقد كانت حرية العمل طابعاً مميزاً يرتبط بجذور العقيدة القتالية الإسلامية. ثم يأتي بعد ذلك انتقاء القائد ضمن شروط الكفاءة والولاء، والكفاءة قبل الولاء، ويمنح القائد بعدها قدراً من حرية العمل، تتناسب والواجب الملقى على عاتقه، وتتوافق مع كفاءته القيادية وقدراته، وأن هذا القدر من حرية العمل هو الذي يمنح القادة فرص إبراز كفاءاتهم وإمكاناتهم، ولعل حرية العمل هذه هي التي أخرجت للدنيا أجيالاً متتابعة من القادة، أشرقت لهم الدنيا، وأضاءت لهم صفحات فن الحرب عبر التاريخ.

٦ ـ الانضباط والطاعة

تظهر شخصية قتيبة القوية والحازمة من خلال أقواله وأعماله. فأوامره وسلوكه، وممارسته القيادية كلها براهين على الانضباط القوي الذي كان يفرضه قتيبة على مرؤوسيه وجنده. ولقد فرض الإسلام الانضباط والطاعة على المرؤوسين في حدود طاعة الخالق، وطالما أن الأمر يتعلق بفرض من فروض الإسلام، وهو الجهاد في سبيل الله، فتصبح الطاعة هنا نتيجة طبيعية متوافقة مع التعاليم الدينية وأساساً من أساس العقيدة القتالية، ولكن مجال الاجتهاد، مفتوح في العقيدة الإسلامية لتأويل الطاعة وتحديد حدودها، وهذا سبب ظهور حركات الخوارج وتكرر الثورات. وهنا يظهر الدور الفردي للقائد في التزامه هو نفسه بقواعد الانضباط، ثم في إلزام قادته ومرؤوسيه بهذه القواعد ذاتها، وأن قدرة قتيبة الرائعة في فرض انضباطه إنما تبرهن لا على شخصيته القيادة المهيمنة فحسب، وإنما تبرهن أيضاً على التزامه بأسس الانضباط.

وقد يكون من المناسب هنا التعرض لبعض العوامل التي كان يستخدمها قتيبة من أجل دعم قدرته على فرض الانضباط والطاعة. **فقد كان قتيبة كثير الاهتمام بمرؤوسيه في إطار الحرص على العصنر العربي، دعامة الإسلام.** وكانت شجاعة قتيبة في مواجهة مواقف الخطر تضمن له القوة التي تدعم قدرته لفرض الانضباط، كما كانت كفاءته البدنية العالية وقدرته على تحمل الصعاب، وكذلك

روحه المعنوية العالية بالإضافة إلى تطبيقه السليم لمبادىء الحرب، وكفاءته القيادية، كل ذلك مما خلق المناخ المناسب لقبول كل ما يصدر عن قتيبة من أوامر وتعليمات، من دون التفكير حتى بمناقشتها أو إبداء الرأي فيها في كثير من المناسبات. وكان قتيبة يحرص في الوقت ذاته على إعطاء مرؤوسيه قدراً من حرية العمل تضمن له التأكيد على التزامهم بقواعد الانضباط وأسس الطاعة.

لقد كانت العدالة في معاملة المرؤوسين هي في جملة الأسباب التي ساعدت قتيبة على تعميق مفهوم الانضباط والطاعة، وإن متابعة أسلوب القيادة عند قتيبة يبرهن على أنه كان يجزل العطاء لمن يحسنون البلاء بقدر ما كان يشدد العقاب على من يقصرون في أداء الواجب، وكانت هذه العدالة في الثواب والعقاب كافية لتثبيت مضمون الانضباط والطاعة.

هنا تبرز نقطة على جانب كبير من الأهمية في تأكيد الارتباط الوثيق بين التزام القائد بالانضباط وقدرته على فرضه. فقد استمر قتيبة على امتداد ولايته وهو مرهوب الجانب، قوي السيطرة، قادراً على فرض طاعته حتى في أصعب الظروف وأقساها، ولكنه عندما تمرَّد على أمير المؤمنين، فتح المجال الواسع لتمرد مرؤوسيه عليه، وكانت في ذلك نهايته المأساوية. ورغم أن هذه النقطة تحتاج إلى مزيد من الإيضاح لظروف نهاية قتيبة، إلا أن ملامحها العامة كافية للبرهان على الرباط القوي الذي يضمن التوازن بين الالتزام بقواعد الانضباط والطاعة، وبين القدرة على فرضهما وإلزام المرؤوسين بهما.

خاتمة

عودة إلى قتيبة وفن الحرب

«**بعثت قتيبة فتىً غراً، فما زدته ذراعاً إلا زادني باعاً**». لقد كانت تلك الجملة، التي قالها الحجاج بن يوسف الثقفي في ذكر قتيبة، إنما تمثل في الحقيقة موقف قتيبة من فن الحرب.

لقد وُلِّي قتيبة بلاد خراسان وهو فتى غر، ذو خبرة محدودة في إدارة الحرب وممارسة القيادة، ويظهر ذلك من الأخطاء التي ارتكبها في بداية حياته القيادية، والتي زجره الحجاج عن الوقوع فيها، مثل قوله له: «**إذا غزوت فكن في مقدم الناس، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم**»، ومثل قوله له ايضاً: «إياك والتحويط ودعني من بنيات الطريق، وارجع إلى مراغتك، فتب إلى الله مما كان منك، وأتِها من مكان كذا وكذا...». وتبرهن هذه المقولات على تعلم قتيبة من ممارساته ما ساعده على تطوير فن الحرب وتطوير فن القيادة، ولكنه لم يكن لينجح في ذلك يقيناً لولا قدراته الموهوبة، ولولا توافر حصالة كافية من المعلومات عن مبادىء فن الحرب وأسسه. فقد أظهر تفوقاً في مجال المعرفة النظرية منذ بداية علاقته بالحجاج، ثم جاءت مدرسة فن الحرب العملياتية لتساعد على إغناء هذه المعرفة وتطويرها، ولعل النقطة البارزة هي عدم الوقوع في أي خطأ كان قد ارتكب في بداية ممارسة قتيبة لقيادته، فكان قتيبة بعد ذلك يحرص وباستمرار على التوجه مع القوة التي تنفذ الواجب الأكثر أهمية، أو تقف في الموقع الأكثر خطورة، ثم يعمل بعدها على اتخاذ القرار المناسب ويشرف على تنفيذه حتى يضمن تحقيق النصر، ويظهر ذلك بوضوح من خلال متابعة أعمال قتيبة القيادية.

ولقد استطاع قتيبة تطوير فن الحرب، ونجح في تطبيق مبادىء الحرب وأسسها بحسب متطلبات الواقع، وبحسب المواقف الطارئة. وهكذا كان قتيبة

تلميذ فن الحرب الناجح وأستاذه في وقت واحد، شأنه في ذلك شأن قادة العرب المسلمين جميعاً، فقد أنضجتهم خبرات الحرب، وصقلت مواهبهم ميادين القتال، وكانت لديهم استعداداتهم القيادية لممارسة أدوارهم بشكل رائع ومذهل. هنا يمكن الانتقال إلى نقطة أخرى لا بدَّ من الإشارة إليها، فإذا كان قتيبة تلميذ الحرب وأستاذها، فقد كان هناك فوقه من يساعده على ممارسة دوره القيادي، ويحدد له الأهداف ويقدم له متطلباته من الدعم الإداري ومن القوى والوسائط، مع تنسيق التعاون بين مختلف محاور العمليات وجبهات القتال. ولعل هذا الدور الذي اضطلع به الحجاج بن يوسف الثقفي لا ينقص من أهمية دور قتيبة بقدر ما يعزز من أهميته؛ إذ تظهر من خلال ذلك وحدة القيادة على مسارح العمليات المختلفة مما كان يضمن تعزيز كل نجاح وإحباط عوامل كل فشل، قبل أن تتحول هذه إلى كوارث أو انتكاسات تؤثر على مجموع مسارح العمليات. وتتكرر هذه الصورة ذاتها بعد غياب الحجاج، ثم وصول رسالة أمير المؤمنين الوليد، مع ما تتضمنه هذه الرسالة من تأكيد على استمرار الدعم، ومتابعة تنسيق التعاون، بالإضافة إلى طلب البقاء على اتصال وثيق مع أمير المؤمنين لإطلاعه على تطورات الموقف. ولقد كانت وحدة القيادة في طليعة العوامل التي ساعدت قادة العرب المسلمين على تحقيق أهدافهم العملياتية والاستراتيجية في وقت واحد.

إن هذه النقطة تقود إلى نقطة بارزة أيضاً، ذلك أنه عندما كان قتيبة يندفع في فتوحاته شرقاً وشمالاً، كان هناك قائد آخر يعمل إلى جنوبه ويضمن له مجنبته الجنوبية من أن تتعرض لأي عدوان قد يفسد عليه مسيرة أعماله القتالية، وكان ذلك القائد هو **محمد بن القاسم الثقفي**، ابن السابعة عشرة من عمره عندما تولى القيادة، والذي فتح الأقاليم الواسعة من الديبل، إقليم باكستان الشرقية حالياً، ثم اندفع شرقاً عبر أقاليم الهند (برهمناباز، وساوندري والرور وبغرور وسرست وغيرها). وقد حققت هذه العمليات أهدافاً مزدوجة. فعلاوة على تأمينها المجنبة الجنوبية لفتوحات قتيبة، استطاعت حرمان المقاومات من التجمع، وكان العمل على جبهتين في تواقت واحد ضماناً لنجاح استراتيجية الحروب التشتيتية، لا على مستوى محور العمليات فقط، وإنما على مستوى الجبهة بكاملها. وتظهر مرة أخرى عوامل النجاح الأساسية في فتوح العرب المسلمين، **وحدة متكاملة في القيادة على درجة عالية من الكفاءة، ووضوح كامل في مبادىء**

العقيدة القتالية الإسلامية، وجنود على درجة نادرة من الصبر، والقدرة على احتمال كره القتال.

وتظهر هذه الصورة بصورة أكثر وضوحاً عند متابعة مسيرة العمليات على مختلف جبهات القتال. ففي تلك الفترة ذاتها، حيث كان قتيبة ومحمد بن القاسم يندفعان في فتوحاتهما نحو الشرق، كان مسلمة بن عبد الملك يندفع شمالاً ومعه أسطول بحري في عمليات مشتركة برية ـ بحرية، لحصار عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية). وفي تلك الفترة ذاتها أيضاً كان موسى بن نصير وطارق بن زياد يمارسان دورهما القيادي لإكمال فتح المغرب، بدعم من الأسطول البحري أيضاً، وعندما ينجح موسى في تحقيق الاستقرار، ينهي استعداده لمتابعة فتوحاته في الأندلس، فكانت تلك الفترة، فترة ثورة حقيقية، إذا صح التعبير، تجتاح دولة المسلمين، وأمكن خلال فترة وجيزة إخضاع مساحات جغرافية تزيد على حجم جميع الفتوحات السابقة.

ولقد كانت إدارة الحرب على هذه المساحات الشاسعة، في زمن لم تكن تتوافر فيه وسائط الاتصال السريعة، تتطلب قدراً كبيراً من حرية العمل. وهنا تبرز قضية الموازنة بين كفاءة القيادة العليا، وكفاءات القيادات التابعة، وهذا هو السبب الذي حمل أمير المؤمنين عبد الملك على التركيز في انتقاء القادة من بين الأكفاء عندما كتب إلى الحجاج يطلب إليه انتقاء قائد لقيادة عمليات خراسان بقوله: «أنظر لي رجلاً صارماً، ماضياً لأمرك»، فسمى له قتيبة، فأصدر أمره بتوليته، ولا حاجة للقول إن الصفات الأساسية التي طلبها عبد الملك هي الحزم، والانضباط، وليس بالإمكان تصور قائد تتوافر له مثل هذه الصفات بدون أن تتوافر فيه كفاءات تكميلية أخرى، مثل السرعة في اتخاذ القرار والإشراف على تنفيذه، ومثل توافر القدرة على فرض الانضباط وقيادة العمليات بقبضة قوية. ومن خلال هذا التكامل في وحدة القيادة، وفي التطبيق السليم لمبادىء الحرب، وفي توافر جيوش من الجند المخلصين لهدف الحرب؛ ظهر جيل من القادة أعطى الدنيا تطوراً في فن الحرب لا زالت أسسه نابتة الجذور وارفة الظلال لكل من أراد التعلم من مدرسة الحرب التقليدية.

قتيبة واستراتيجية الهجوم غير المباشر

لقد كان لكل قائد من قادة العرب المسلمين أسلوبه الخاص في ممارسة

عملياته، ضمن إطار حرية العمل المتوافر له، وفي حدود القوى والوسائط التي كانت تؤمنها له قيادته، أو التي يستطيع تأمينها من مسرح عملياته للوصول إلى **هدف الحرب**، ومن هنا يظهر **الطابع المميز** لفتوحات كل قائد من القادة، رغم كل نقاط التشابه. ولقد تميزت حروب قتيبة بمجموعة من الخصائص على نحو ما سبق ذكره، وتبقى هناك نقطة لم تأخذ أبعادها في الدراسة، وهي **استراتيجية الهجوم غير المباشر**.

إن قضية الصراع المسلح، هي قضية موازنة بين القوى والوسائط من جهة وبينها وبين هدف الحرب من جهة أخرى، ولقد كان هدف حروب المسلمين جميعها هدفاً كبيراً هو حمل الرسالة إلى أرجاء الدنيا وتعريف الناس بها، وكانت قوى العرب المسلمين أقل بكثير من حجم هذا الهدف، فكانت حروب المسلمين، نتيجة لذلك، حروب إرادات مارست فيها الإرادة الصلبة دورها في التغلب على الإرادات الضعيفة، فأصبح دور القوى والوسائط تكميلياً وليس أساسياً، وانطبقت مقولة **كلاوزفيتز «بأن الحرب هي استمرار للسياسة، لكن بوسائل أخرى»** انطباقاً تاماً على حروب المسلمين. ولقد حقق العرب المسلمون نجاحاتهم الرائعة بفضل تطبيقهم الدقيق لهذه الاستراتيجية منذ البدايات المبكرة لانطلاقهم من الجزيرة العربية، سواء في صراعهم ضد البيزنطيين أو ضد الفرس. وكانت انتصارات اليرموك والقادسية تتويجاً لهذه الاستراتيجية، ثم جاءت الحروب السهلة بعد ذلك تأكيداً لنجاح هذه الاستراتيجية ودعماً لها.

وقد استمر العمل بهذه الاستراتيجية بعد ذلك في جميع فتوحات المشرق والمغرب، والتزم القادة جميعهم في العمل بأسسها، ويظهر واضحاً **أن هدف استراتيجية الهجوم غير المباشر عند العرب المسلمين هو الوصول إلى هدف الحرب بأقل جهد ممكن، وضمن حدود القوى والوسائط المتوافرة.** ولا يعني اصطلاح «بأقل جهد» هنا عدم زج القوى والوسائط جميعها في المعارك الحاسمة، بقدر ما يعني إقناع الخصم بعدم جدوى مقاومته وحمله على الاستسلام بعد وضعه بمواقف يصعب عليه الخروج منها، ويصبح دور **«إرادة الحوار»** و**«الروح المعنوية العالية»** و**«التصميم على القتال»** وبقية العوامل والمبادىء هو لإقناع الخصم معنوياً بقصوره عن مجابهة تيار الفتوح.

تظهر هذه الصورة من استراتيجية الهجوم غير المباشر، بكل أبعادها، في فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي، فقد حشد كل ما يمكنه حشده من قوى

ووسائط، ثم أخذ في استخدام هذه القوى والوسائط بمهارة عالية في صراع الإرادات حتى يحقق مبدأ الاقتصاد بالقوى، وحتى لا يستنزف قوته بأي صراع عقيم، فكان ينفذ من خلال النقاط الضعيفة لتدمير النقاط القوية، وكان يستخدم استراتيجية الهجوم غير المباشر لحمل خصمه على ترك نقاط قوته. ولقد ظهرت هذه الاستراتيجية في إقناع نيزك بالاستسلام لقتيبة، بعد أن تم تحريره من إمكانات المقاومة. وكانت هذه الاستراتيجية قد ظهرت من قبل عند غزو الصغانيان، حيث حمل له ملكها مفاتيح الذهب لبلاده، كما ظهرت أيضاً عندما تم إقناع نيزك بالاستسلام لقتيبة منذ تولى قتيبة إمارة خراسان، وذلك عندما قال رسول قتيبة إلى نيزك: «إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر».

وتتكرر ظواهر استراتيجية الهجوم غير المباشر بعد ذلك في جميع الأعمال القتالية لقتيبة ومن خلال عملياته السنوية، حيث كان حكام الأقاليم وملوكها يسرعون إليه بطلب الصلح، ما أن يبلغهم اقتراب جيوش قتيبة من حدود بلادهم. ولم تكن حرب الحركة والمباغتة والمبادأة إلا من بعض المبادىء التي كان يستخدمها قتيبة للوصول إلى تحقيق النجاح في استراتيجيته غير المباشرة، ويظهر ذلك عند فتح سمرقند بصورة خاصة، كما تظهر أيضاً في الاتصالات السياسية مع ملك الصين، حيث لجأ رسل قتيبة إلى وسيلة الإقناع لحمل خصومهم على النزول عند إرادة قتيبة والوصول إلى هدف الحرب من دون اللجوء إلى الحرب.

لقد كان نجاح قادة العرب المسلمين في تطبيق استراتيجية الهجوم المباشر يعتمد على إحباط إرادة القتال عند العدو، عن طريق تظاهرة القوة المسلحة، وبذلك يتحقق هدف الإقناع. وكثيراً ما كان يأتي نجاح الاستراتيجية بعد معركة حاسمة، مثل فتوح الشام بعد اليرموك، وفتوح العراق بعد القادسية، وفتوح فارس بعد فتح الفتوح نهاوند، ومثل فتح مصر بعد معركة نابليون وفتح الأندلس بعد معركة وادي لكة، ولكن معارك قتيبة جاءت في وقت متأخر، ولهذا لم تكن استراتيجية الهجوم غير المباشر تكميلية، وإنما كانت مقترنة بالأعمال القتالية ذاتها، ذلك أن المقاومات التي كان ينظمها حكام الأقاليم المجاورة لبلاد المسلمين قد عرفت قوة المسلمين، لكثرة الاحتكاك بها والتعامل معها، ولم تعد استراتيجية الردع النفسي وحدها كافية لتحقيق هدف الحرب، فكان من الطبيعي

أن تتطور الأساليب القتالية بحسب المواقف المستجدَّة، ولهذا عمل قتيبة على دمج العامل النفسي ضمن أسلوب القتال ذاته، فكان كثيراً ما يستخدم القوة المادية لإقناع عدوه بعجزه عن مجابهة قوة العرب المسلمين، ثم يقوم باتصالاته السياسية بهدف عدم زجِّ قواته أو استنزافها في معارك طويلة قد لا تنتهي بالحسم على المستوى العملياتي. أما عندما كانت تتوافر القناعة لقتيبة بقدرته على حسم الصراع المسلح، في حدود الخسارة الدنيا بالقوى والوسائط، فإنه لم يكن يتردد أبداً عن حسم الصراع المسلح مما كان يعطي استراتيجية الهجوم غير المباشر قوة دفع كبرى تقنع الخصوم الآخرين بعدم اللجوء إلى الصراع المسلح. وكان استثمار النصر في كثير من الأحيان يأتي تكميلياً لتعزيز استراتيجية الهجوم غير المباشر، ويظهر ذلك كله أن حروب قتيبة في معظمها كانت نموذجاً رائعاً لحوار الإرادات يمارس فيها الذكاء الدور الأول والحاسم في تحقيق النصر.

نتيجة لذلك، **عُرفت حروب قتيبة بأنها حروب خدعة**، ولا حاجة للقول إن الخداع في الحرب كان أحد أساليب قادة العرب والتي طبقها الرسول الأعظم ﷺ في حروبه، **ولكن هذه الخدعة لم تكن تعني أبداً الغدر؛ إذ كانت حروب العرب المسلمين جميعها حروب فروسية**، وحروب قيم ومبادىء، فكان الغدر بعيداً عنها. ولقد كان التمييز الدقيق بين الخداع على المستوى التكتيكي والعملياتي وبين الغدر واضحاً تماماً، وهذا ما يدحض المقولات التي أُطلقت على قتيبة يوم فتح سمرقند، بأنه فتحها غدراً. وتتأكد هذه الحقيقة من خلال مفاوضات رسول قتيبة مع نيزك، حيث اشترط قتيبة عدم قطع أي عهد أو الالتزام بوعد من شأنه تقييد المسلمين، وحرمان قتيبة من التصرف بحرية في تقرير مصير نيزك وأصحابه، وتعتبر هذه الصورة المشرقة هي النموذج الأعلى لنجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر على أسس من القيم والمبادىء التي ميَّزت عقيدة الإسلام القتالية.

نهاية قتيبة وفن الحرب

تثير نهاية قتيبة مجموعة من التساؤلات، نظراً لتناقض سلوكه في مرحلة ولايته الأخيرة مع ما عُرف عنه طوال قيادته للحرب في خراسان. فقد أظهر قتيبة تسرعاً وطيشاً في تعامله مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، كما ارتكب حماقته الكبرى في خلع سليمان وإعلان تمرده قبل أن يأتيه ردُّ سليمان، وتكتمل هذه

الحماقة في أسلوب تعامل قتيبة مع زعماء العرب وتقريعه لهم، وشتمهم مما زاد من نفورهم وحملهم على التجمع ضده ونبذه ومقاومته، مما أدى إلى مصرع ملك العرب على أيدي وكيع التميمي.

إن تلك النهاية المأساة، التي غيَّبت سيفاً من أمضى سيوف العرب المسلمين، تثير التساؤل حول التناقض بين كفاءة قتيبة القيادية، وضياع تلك الكفاءة. وقد تكون القضية أكثر تعقيداً مما يظهر للوهلة الأولى؛ إذ من الممكن القول إن قتيبة **قد فقد قدرته على فرض الانضباط عندما تخلى هو نفسه عن ذلك الانضباط وأعلن تمرده، ففتح المجال لأعمال التمرد المضادة**، ولكن القضية ليست بمثل هذه البساطة، فقد ابتليت الدولة الأموية بأعمال تمرد كثيرة قادها على الأغلب ولاة خراسان وقادتها، وكان مصير هذه الثورات الفشل الذريع مع ما تركته هذه الثورات من جراح عميقة في جسم الأُمة الأُموية، وعلى هذا، فإن الأرضية لم تعد، في عهد قتيبة على الأقل، مؤهلة لقبول ثورة جديدة. ومهما كان عليه الموقف، فإن ثورة قتيبة وتمرده إنما تقترن في الواقع بمجموعة من الأحداث المشابهة التي حدثت خلال تلك الفترة ذاتها.

فقد توفي الحجاج بن يوسف في سنة (٩٥هـ/ ٧١٤م) وولي يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند، فأخذ محمد بن القاسم الثقفي وقيده وحمله إلى العراق ثم قتله، ولا ريب أنه كان لهذا الحدث أثر عميق في نفس قتيبة، ولهذا فعندما توفي الوليد في السنة التالية، عرف أن في ذلك نهايته الحتمية، لا سيما وأنه كان من أنصار عزل سليمان وتولية ابن الوليد، كما كان قتيبة يعرف العلاقة الوثيقة التي تصل بين سليمان وبين منافسه على ولاية خراسان، يزيد بن المهلب، ولهذا صمم على إعلان تمرده، مع معرفته الوثيقة بنهايته الحتمية، وقد فضل ذلك على الاستسلام لنهاية سيئة كتلك التي لقيها محمد بن القاسم الثقفي. وعلى هذا، فإن قتيبة قد اتخذ قراره بإعلان التمرد، لا نزقاً، ولا طيشاً؛ وإنما استناداً لمعطيات ثابتة لم تترك له سوى خيار أمر من اثنين: إما الاستسلام، مع احتمال الذل والهوان ثم الموت في النهاية، وإما إعلان التمرد والموت قتلاً بإباء وشرف من دون فكرة الاستسلام، ويتوافق الخيار الثاني مع طبيعة الإنسان العربي الأبية، أكثر مما يتوافق الخيار الأول، وهو الاستسلام.

هنا يظهر سؤال آخر، وهو: **ألم يكن لقتيبة أسوة حسنة بالشيخ موسى بن**

نصير الذي استسلم لقدره، وآثر الله ورسوله والتزم بالطاعة حرصاً على وحدة المسلمين، رغم معرفته بمصيره الحتمي؟

لقد كان موسى بن نصير، عندما تم استدعاؤه إلى الشام بعد فتوحاته قد بلغ من الكبر ما أكسبه معرفة جيدة بطبيعة الحكم في الشام وأخلاق أمراء المؤمنين من الأُمويين، كما أنه لم يكن يعرف أن الأُمور ستصل إلى مثل ما انتهى إليه أمره، ولهذا فإنه لم يتردد في تلبية الدعوة للمثول أمام الوليد، والاستسلام لإرادته.

يتبين من ذلك أن الموقف لم يكن يتعلق بكفاءة قيادية، أو بتطبيق لمبادىء الحرب، بقدر ما كان يتعلق بموقف سياسي من الدولة الأموية، فرضته مجموعة من المعطيات التي تتعلق بالإدارة أكثر مما تتعلق بالظروف المحيطة بالقائد قتيبة. ولقد توفي الحجاج بن يوسف، وهو من أكثر ولاة بني أمية كفاءة وقدرة، قبل موت الوليد، وكان قد دعمه في موقفه من نقل الخلافة إلى ابنه، وهنا يمكن التساؤل عما كان عليه موقف الحجاج لو لم يباغته الأجل، وعاش حتى ولي سليمان الخلافة، أكان من المحتمل أيضاً أن يعلن الحجاج تمرده أم يستسلم لسليمان مع ما بينهما من النفور والشقاق؟.

مهما كان عليه الموقف، فإنه من المحال افتراض احتمالات للحكم على حقائق تاريخية أو إجراء محاولة لتقويمها بعيداً عن تلك الظروف كلها، ولكن مما لا ريب فيه هو أن أعمال تمرد القادة باستمرار، هي التي أرغمت أمراء الأُمويين على اتخاذ المواقف الحازمة تجاه قادتهم، والعمل على استبدالهم بصورة مستمرة قبل أن يشتد أمرهم ويقوى ساعدهم على شق عصا الطاعة والخروج على الجماعة، وقد كان لهم في مواقفهم حجج قوية وذرائع أكيدة في مقدمتها المحافظة على وحدة الدولة والإبقاء على هيبتها. ورغم ذلك، فعندما أُلقي برأس قتيبة أمام سليمان بن عبد الملك، لم يتردد في إظهار تأثره فقال: «ما أردت هذا كله!»، ولا ريب أن سليمان كان صادقاً في سلوكه، سواء عندما أرسل لقتيبة يعلمه موافقته على الاستمرار في توليته على خراسان، أو عندما بلغه قتله، ويتأكد الصدق في سلوكه من خلال ما عُرف عنه في حياته من العدل، ونفاذ البصيرة، والحرص على دعم قوة دولة المسلمين وتحقيق الاستقرار لها، **ويؤكد ذلك اختياره لعمر بن عبد العزيز خليفة له.**

تبقى الحقيقة الثابتة بعد ذلك في خسارة الدولة الأموية لثلاثة من أفضل

سيوفها على التتابع، فقد قُتل محمد بن القاسم في عام (٩٥هـ)، وقُتل قتيبة في سنة (٩٦هـ)، كما كان موسى بن نصير قد عُزل منذ عام (٩٥هـ) وتوفي عام (٩٧هـ). وهكذا كانت كل سنة من هذه السنوات تمضي ومعها قائد من أفضل قادة العرب المسلمين، وبغيابهم توقفت أعمال الفتوح الرائعة، ووصلت حدود المسلمين من الصين شرقاً حتى حدود بلاد الغال (فرنسا) غرباً، وأخذ المدُّ الإسلامي ذروته على أيدي هؤلاء القادة الذين ظهروا للدنيا في تواقت واحد، ومارسوا أعمالهم خلال فترة واحدة تقريباً.

ولا ريب أن ظهور هؤلاء القادة في جيل واحد، مع ما حققوه، إنما يعود إلى تلك المنجزات الرائعة التي حققها عبد الملك بن مروان ثم من بعده ابنه الوليد، حيث شهدت الدولة الأموية بعضاً من الاستقرار الذي كانت تفتقده، وأصبح بالإمكان انتقاء أفضل الرجال لقيادة الرجال والانطلاق بهم نحو آفاق الدنيا الواسعة لحمل رسالة الإسلام، وكان هؤلاء الرجال هم الذين أضاءت لهم الدنيا، واستجابت لإرادتهم، فتركوا للعرب المسلمين دولة فريدة في التاريخ، وبقيت أسماء قادة الفتح رغم نهاياتهم المأساة، منارات مضيئة في سماء فن الحرب عبر التاريخ.

بعد قتيبة

تولى يزيد بن المهلب خراسان في عام (٩٧هـ/ ٧١٦م)، وبدأ عملياته بإعادة فتح جرجان وطبرستان، ولكن يزيداً لم يحقق من العدل ما أراده عمر بن عبد العزيز، فأمر بعزله وتقييده وإرساله إليه، فهرب يزيد وأعلن تمرده حتى تم قتله في عام (١٠٢هـ)، وخلال ذلك توالى على خراسان عدد من الولاة، وأفاد أنصار الدعوة العباسية من هذا الموقف لنشر دعوتهم، وبقي الأمر كذلك حتى ولي هشام بن عبد الملك إمارة المسلمين (١٠٥ ـ ١٢٥هـ). وكانت فترة الاستقرار التي حققها هشام تخفي تحتها رماد الفتنة، وقد أدرك ذلك والي خراسان، نصر بن سيار، منذ ابتلي بولاية خراسان عام (١٢٥هـ)، حيث أخذ في قتال أصحاب الدعوة العباسية إلى أن توفي (١٣١هـ). ثم انتصر أصحاب الأعلام السوداء على آخر خلفاء الأُمويين في معركة على نهر الزاب، حيث قُتل مروان وانتقلت الدولة الإسلامية من أيدي الأمويين إلى أيدي العباسيين

وهكذا كانت تربة خراسان هي التي احتضنت الدعوة العباسية، وهي التي

أزالت دولة العرب المسلمين التي صنعها الأمويون، وتبع ذلك انقسام وحدة العالم الإسلامي، باستقلال الأندلس بعد دخول عبد الرحمٰن الداخل إليها (١٣٧هـ)، وأخذت في التشكل محاور جديدة. فقد وجدت الدولة البيزنطية حليفاً لها في أقصى المغرب ممثلاً بدولة الأندلس، كما وجدت بغداد حليفاً لها في الدولة الكارولنجية (شارلمان وحلفاؤه) الذين أخذوا يعملون من بلاد الغال (فرنسا) للتنكيل بمسلمي الأندلس والنكاية بهم. وقد ظهرت هذه المحاور بصورتها الواضحة في أيام هارون الرشيد وعبد الرحمٰن الناصر. وأخذت دولة العرب المسلمين في تبديد قوتها والتحول تدريجياً إلى الاستقرار، والابتعاد عن الصراع المسلح إلا في حدود الدفاع عن النفس. وتغيرت أسس الاستراتيجية العربية ـ الإسلامية، فلم تعد استراتيجية هجومية، تعتمد على الحسم في الصراع المسلح بقدر اعتمادها على الاتفاقات السياسية المرحلية.

ومقابل ذلك أخذ ميزان القوى المضادة للدولة الإسلامية في التحول التدريجي، إلى أن بلغ الأمر ذروته في الحروب الصليبية، ثم تبع ذلك غزوات التتار، فزالت الدولة العباسية بدورها من الوجود (١٢٥٨م). ولقد كان تمزق الوحدة السياسية للعالم الإسلامي هو نقطة البداية في هذه التحولات كلها، وهي التحولات التي كان من أبرزها الانتقال من السياسة الاستراتيجية الهجومية إلى السياسة الاستراتيجية الدفاعية.

ثبت المصادر والمراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد.
- الاستيعاب.
- أسد الغابة: ابن الأثير.
- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، مطبعة دار السعادة، مصر، ١٣٢٣هـ.
- الأغاني.
- الإمامة والسياسة: ابن قتيبة.
- البداية والنهاية: ابن كثير.
- تاريخ الأمم والملوك: الطبري.
- تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان.
- تاريخ الخلفاء: السيوطي، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٥١هـ.
- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.
- تهذيب ابن عساكر.
- جوامع السيرة: ابن حزم.
- السيرة الحلبية.
- السيرة النبوية: ابن هشام.
- الشعر والشعراء.
- الطبقات الكبرى: ابن سعد.
- عبقرية خالد: العقاد.
- فتح الباري بشرح البخاري.
- فتوح البلدان: البلاذري.
- فتوح الشام: الواقدي.
- القادسية: أحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت، سنة ١٩٧٣م.
- قاموس الجغرافيا القديمة: أحمد زكي باشا.

- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار الكتاب العربي.
- المسالك والممالك: الإصطخري.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي.
- المغازي: الواقدي.
- المقدمة: ابن خلدون، دار الكتاب العربي.
- اليعقوبي.
- Encyclop. of Islam.
- La vie de Mahomet: E. Dermengham.

فهرس الخرائط

مخطط تحرك قوات المسلمين لفتح الشام (١٣هـ/ ٦٣٤م) ٢٤

مخطط العمليات الذي وضعه الخليفة عمر لمجابهة هجوم الروم ووصولهم حمص (١٧هـ/ ٦٣٨م) ٢٩

أبو عبيدة بن الجراح وفتح الشام ٤٢

خالد في حروب الردة ١٥٤

خالد وفتح العراق ١٨٠

فتوحات خالد في بلاد الشام ٢٠٤

تنظيم الجيش الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب ٢٩٢

معركة القادسية ٢٩٤

تنظيم الجيشين، العربي والفارسي، عند بدء المعركة ٢٩٩

مسرح عمليات معاوية الأمير ٤٠٩

مسرح عمليات معاوية بعد عام الجماعة (٤٠هـ) ٤٥٠

أقاليم خوارزم. . . . عمليات قتيبة سنة ٨٧هـ ٥١٦

عمليات قتيبة بن مسلم سنة ٩١هـ ٥٢٥

مخطط عمليات قتيبة بن مسلم الباهلي في إقليم بين النهرين ٥٣٢

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٥
الباب الأول: أبو عبيدة بن الجراح	
أبو عبيدة في كلمات	١٣
الوجيز في حياة «أبو عبيدة بن الجراح»	١٥
* الفصل الأول: شخصية «أبو عبيدة» وحروبه	١٧
أبو عبيدة بن الجراح	١٩
١ ـ الموقف العام	٢٣
٢ ـ الطبيعة الجيو ـ استراتيجية	٢٦
٣ ـ موقف الروم «البيزنطيين»	٢٨
٤ ـ أبو عبيدة في الشام	٣٠
٥ ـ وقعة «مرج الروم»	٣٤
٦ ـ فتح بعلبك وحمص وقنسرين	٣٥
٧ ـ فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم	٤١
٨ ـ فتوح الساحل	٤٣
٩ ـ هجوم الروم حتى حمص وإحباطه	٤٤
١٠ ـ فتح الجزيرة	٤٦
١١ ـ غزوات «ما وراء الدروب»	٤٨
١٢ ـ النهاية	٤٨
* الفصل الثاني: أبو عبيدة بن الجراح وفن الحرب	٥١
موقع «أبو عبيدة بن الجراح» من فن الحروب	٥٣
أ ـ في الاستراتيجية العليا	٥٧
١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة	٥٧
٢ ـ بناء المجتمع الجديد	٦٠
٣ ـ وضوح الهدف	٦٣
٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام	٦٦
٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية	٦٩
٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية	٧٢

الموضوع	الصفحة

ب ـ في مبادئ الحرب ٧٥
١ ـ المباغتة ٧٥
٢ ـ أمن العمل ٧٨
٣ ـ القدرة الحركية ٨١
٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية ٨٤
٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى ٨٦
٦ ـ المحافظة على الهدف ٨٩
٧ ـ وحدة القيادة ٩٠
* الفصل الثالث: قيادة «أبو عبيدة بن الجراح» ٩٣
أ ـ أبو عبيدة بن الجراح وفن القيادة ٩٥
١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية «اللوجستيك» ٩٥
٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين ٩٨
٣ ـ التحريض والحض على القتال ٩٩
٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر ١٠٢
٥ ـ القرارات الصحيحة ١٠٥
٦ ـ حماية المرؤوسين ١٠٧
ب ـ أبو عبيدة وقوات المسلمين ١٠٩
١ ـ الاستعداد الدائم للقتال ١٠٩
٢ ـ الروح المعنوية العالية ١١٠
٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب ١١٢
٤ ـ أبو عبيدة وما يُعرف حديثاً بالحرب الشعبية ١١٣
٥ ـ أبو عبيدة وحرية العمل ١١٥
٦ ـ الانضباط والطاعة ١١٧
جـ ـ ما بعد «أبو عبيدة بن الجراح» ١١٩
* ملاحق ١٢١
١ ـ اتفاقية صلح «أبو عبيدة» مع أهل دمشق ١٢٣
٢ ـ ما قيل في فتح دمشق ١٢٥
٣ ـ إسلام جبلة بن الأيهم الغساني وارتداده ١٢٧
٤ ـ رحيل هرقل عن سوريا ١٣٠
٥ ـ لجوء قبيلة إياد إلى الروم وإخراجهم بتهديد من عمر ١٣١

الباب الثاني خالد بن الوليد

من أقوال خالد بن الوليد ١٣٥
. . . وقالوا في خالد ١٣٧
بعض ما قاله المستشرقون في خالد ١٣٩
المقدِّمة ١٤١

الموضوع	الصفحة

موجز حياة خالد بن الوليد ١٤٤
* الفصل الأول: خالد بن الوليد ١٤٥
خالد بن الوليد ١٤٧
أ ـ خالد بن الوليد في الجاهلية ١٤٩
١ ـ الوراثة والبيئة ١٤٩
٢ ـ في موقعة أُحد ١٥٠
٣ ـ في غزوة الأحزاب (الخندق) ١٥١
٤ ـ في الحديبية ١٥١
ب ـ خالد بن الوليد في الإسلام ١٥٥
١ ـ غزوة مؤتة ١٥٥
٢ ـ خالد في فتح مكة ١٥٧
٣ ـ غزوة هوازن بـ«حنين» ١٥٨
٤ ـ خالد مع بني المصطلق ١٦٠
٥ ـ في دومة الجندل ١٦٠
٦ ـ في نجران ١٦١
٧ ـ خالد في اليمن ١٦٢
جـ ـ خالد بن الوليد وحروب الردة ١٦٣
١ ـ تمهيد ١٦٣
٢ ـ خالد مع أم زمل ١٦٦
٣ ـ مع مالك بن نويرة ١٦٧
٤ ـ خالد ومسيلمة وأهل اليمامة ١٦٧
د ـ خالد على جبهة العراق ١٧٧
١ ـ ذات السلاسل ١٧٨
٢ ـ وقعة المذار «الثني» وتسمى أيضاً معركة النهر ١٨١
٣ ـ وقعة الولجة ١٨٢
٤ ـ خبر أليس، وهي على صلب الفرات ١٨٣
٥ ـ فتح الحيرة ١٨٦
٦ ـ فتح الأنبار ١٩١
٧ ـ عين التمر ١٩٣
٨ ـ في دومة الجندل ١٩٥
٩ ـ الإغارة على المصيخ «مصيخ بني البرشاء» ١٩٦
١٠ ـ الثني والزميل ١٩٨
١١ ـ حديث الفراض ١٩٩
١٢ ـ حجة خالد ٢٠٠
هـ ـ خالد في الشام ٢٠٢

الموضوع	الصفحة

١ ـ خالد في اليرموك ٢٠٥
٢ ـ موقعة أجنادين ٢٠٧
٣ ـ في اليرموك ٢٠٩
٤ ـ من اليرموك إلى دمشق ٢١٦
٥ ـ خالد بعد دمشق ٢١٧
٦ ـ عزل خالد بن الوليد ٢١٩
*** الفصل الثاني: خالد بن الوليد وفن الحرب** ٢٢٣
أ ـ في الاستراتيجية العليا ٢٢٥
١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر ٢٢٥
٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة ٢٢٦
٣ ـ بناء المجتمع الجديد ٢٢٧
٤ ـ وضوح الهدف ٢٢٨
٥ ـ الحرص على العنصر العربي (دعامة الإسلام) ٢٢٩
٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية ٢٣٠
٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية ٢٣١
ب ـ في مبادئ الحرب ٢٣٣
١ ـ المباغتة ٢٣٣
٢ ـ أمن العمل ٢٣٣
٣ ـ القدرة الحركية ٢٣٥
٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية ٢٣٦
٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى ٢٣٧
٦ ـ المحافظة على الهدف ٢٣٨
٧ ـ المؤخرات، والشؤون الإدارية ٢٣٩
*** الفصل الثالث: قيادة خالد بن الوليد** ٢٤١
أ ـ خالد بن الوليد وفن القيادة ٢٤٣
١ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين ٢٤٣
٢ ـ التحريض على الجهاد ٢٤٤
٣ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر ٢٤٥
٤ ـ القرارات الصحيحة ٢٤٧
٥ ـ حماية المرؤوسين وإدارة الحرب ٢٤٨
ب ـ خالد بن الوليد وقوات العرب المسلمين ٢٤٩
١ ـ الاستعداد الدائم للقتال ٢٤٩
٢ ـ الروح المعنوية العالية ٢٥٠
٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب ٢٥١
٤ ـ الانضباط والطاعة ٢٥٢

الموضوع	الصفحة
٥ ـ خالد، وحرية العمل	٢٥٣
خالد وفن الحرب	٢٦٠
الباب الثالث: سعد بن أبي وقاص	
من أقوال سعد في القادسية	٢٦٥
مقدمة	٢٦٧
* **الفصل الأول: عموميات**	٢٦٩
١ ـ سعد بن أبي وقاص	٢٧١
٢ ـ الجهاد مع الرسول الأعظم	٢٧٥
٣ ـ الموقف على جبهة العراق قبل الفتح	٢٧٦
٤ ـ الأعمال التمهيدية للفتح	٢٧٩
٥ ـ سعد يتولى القيادة	٢٨٣
٦ ـ سعد في القادسية	٢٩١
٧ ـ ما بعد القادسية	٣٠٣
* **الفصل الثاني: سعد بن أبي وقاص وفنُّ الحرب**	٣٠٩
سعد بن أبي وقاص وفن الحرب	٣١١
أ ـ في الاستراتيجية العليا	٣١٥
١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر	٣١٥
٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة	٣١٨
٣ ـ بناء المجتمع الجديد	٣٢١
٤ ـ وضوح الهدف	٣٢٤
٥ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام	٣٢٧
٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية	٣٢٨
٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية	٣٣٠
ب ـ في مبادئ الحرب	٣٣٢
١ ـ المباغتة	٣٣٣
٢ ـ أمن العمل	٣٣٥
٣ ـ الحركية	٣٣٦
٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية	٣٣٨
٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى	٣٣٩
٦ ـ المحافظة على الهدف	٣٤١
* **الفصل الثالث: قيادة سعد بن أبي وقاص**	٣٤٣
أ ـ سعد بن أبي وقاص وفن القيادة	٣٤٥
١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك)	٣٤٥
٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين	٣٤٧
٣ ـ التحريض على الجهاد	٣٤٨

الموضوع	الصفحة
٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر	٣٥١
٥ ـ القرارات الصحيحة	٣٥٢
٦ ـ حماية المرؤوسين	٣٥٤
ب ـ سعد بن أبي وقاص وقوات العرب المسلمين	٣٥٦
١ ـ الاستعداد الدائم للقتال	٣٥٧
٢ ـ الروح المعنوية العالية	٣٥٩
٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب	٣٦٠
٤ ـ سعد والجهاد في سبيل الله	٣٦٢
٥ ـ سعد وحرية العمل	٣٦٤
٦ ـ الانضباط والطاعة	٣٦٥
خاتمة	٣٦٨
١ ـ عودة سعد وفن الحرب	٣٦٨
٢ ـ قراءات	٣٧١
الباب الرابع: معاوية بن أبي سفيان	
من أقوال معاوية بن أبي سفيان	٣٨١
بعض ما قيل في معاوية	٣٨٣
*** الفصل الأول: معاوية بن أبي سفيان الأموي: «عوامل التكوُّن والنشأة»**	٣٨٥
معاوية بن أبي سفيان الأموي: «عوامل التكوُّن ـ النشأة»	٣٨٧
١ ـ صانعة الرجال	٣٨٨
٢ ـ صخر بن حرب، أبو سفيان	٣٩٢
٣ ـ في الطريق إلى القيادة (فتح قيسارية والغزوات)	٣٩٨
٤ ـ أبو البحرية	٤٠٢
٥ ـ معاوية والصراع السياسي	٤٢١
٦ ـ معاوية... ومتابعة الفتوح	٤٤٨
٧ ـ من الإمارة إلى الملك	٤٥٢
٨ ـ معاوية... وما قبل الرحيل	٤٥٧
*** الفصل الثاني: معاوية بن أبي سفيان وفن الحرب**	٤٦١
معاوية بن أبي سفيان وفن الحرب	٤٦٣
أ ـ في الاستراتيجية العليا	٤٦٥
١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر	٤٦٥
٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة	٤٦٦
٣ ـ بناء المجتمع الجديد	٤٦٨
٤ ـ وضوح الهدف	٤٧٠
٥ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام	٤٧١
٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية	٤٧٣

الموضوع	الصفحة

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية ٤٧٤
ب ـ في مبادئ الحرب ٤٧٦
١ ـ المباغتة ٤٧٦
٢ ـ أمن العمل ٤٧٦
٣ ـ الحركية ٤٧٧
٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية ٤٧٨
٥ ـ الاقتصاد بالقوى ٤٧٩
٦ ـ المحافظة على الهدف ٤٨٠
٧ ـ حماية المؤخرات ٤٨١
*** الفصل الثالث** ٤٨٣
أ ـ معاوية وفنُّ القيادة ٤٨٥
١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية ٤٨٥
٢ ـ العنف في القضاء على الأعداء ٤٨٦
٣ ـ التحريض على الجهاد ٤٨٧
٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر ٤٨٨
٥ ـ القرارات الصحيحة ٤٨٩
٦ ـ حماية المرؤوسين ٤٩٠
ب ـ معاوية وقوات العرب المسلمين ٤٩٢
١ ـ الاستعداد الدائم للقتال ٤٩٢
٢ ـ الروح المعنوية العالية ٤٩٣
٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب ٤٩٤
٤ ـ معاوية والجهاد في سبيل الله ٤٩٥
٥ ـ معاوية وحرية العمل ٤٩٦
٦ ـ الانضباط والطاعة ٤٩٨
الخاتمة ٤٩٩

الباب الخامس: قتيبة بن مسلم الباهلي

من خطاب قتيبة بن مسلم الباهلي في التحريض على الجهاد ٥٠٣
مقدمة ٥٠٥
*** الفصل الأول: شخصية قتيبة وحروبه** ٥٠٧
قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي ٥١٣
١ ـ الموقف العام ٥١٣
٢ ـ طبيعة الإقليم ٥١٤
٣ ـ الفتوح ٥١٥
٤ ـ غزو بيكند ٥٢٢
٥ ـ فتح بخارى (٩٠هـ/ ٧٠٩م) ٥٢٢

الموضوع	الصفحة

٦ ـ غزو شومان وكس ونسف (٩١هـ) ٥٢٩
٧ ـ صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه، وفتح خام جرد (٩٣هـ) ٥٣٠
٨ ـ يوم سمرقند (٩٣هـ) ٥٣٣
٩ ـ غزو الشاش وفرغانة (٩٤ و٩٥هـ) ٥٣٧
١٠ ـ نهاية فتوح قتيبة: فتح كاشغر، وغزو الصين (٩٦هـ) ٥٣٩
١١ ـ تمرد قتيبة ومصرعه ٥٤١
*** الفصل الثاني: قتيبة بن مسلم وفن الحرب** ٥٤٧
موقع قتيبة من فن الحرب ٥٤٩
أ ـ في الاستراتيجية العليا ٥٥٢
١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة ٥٥٢
٢ ـ بناء المجتمع الجديد ٥٥٣
٣ ـ وضوح الهدف ٥٥٥
٤ ـ الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام ٥٥٦
٥ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية ٥٥٧
٦ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية ٥٥٩
ب ـ في مبادئ الحرب ٥٦١
١ ـ المباغتة ٥٦١
٢ ـ أمن العمل ٥٦٣
٣ ـ القدرة الحركية ٥٦٤
٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية ٥٦٥
٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى ٥٦٦
٦ ـ المحافظة على الهدف ٥٦٨
*** الفصل الثالث: قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي** ٥٧١
أ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وفن القيادة ٥٧٣
١ ـ الاهتمام بالشؤون الإدارية (اللوجستيك) ٥٧٣
٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين ٥٧٤
٣ ـ التحريض والحض على القتال ٥٧٦
٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر ٥٧٧
٥ ـ القرارات الصحيحة ٥٧٩
٦ ـ حماية المرؤوسين ٥٨١
ب ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وقوات المسلمين ٥٨٣
١ ـ الاستعداد الدائم للقتال ٥٨٣
٢ ـ الروح المعنوية العالية ٥٨٤
٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمُّل الصعاب ٥٨٦
٤ ـ قتيبة وما يُعرف حديثاً باسم (الحرب الشعبية) ٥٨٧

الموضوع	الصفحة
٥ ـ قتيبة وحرية العمل	٥٨٩
٦ ـ الانضباط والطاعة	٥٩٠
خاتمة	٥٩٣
ـ عودة إلى قتيبة وفن الحرب	٥٩٣
ـ قتيبة واستراتيجية الهجوم غير المباشر	٥٩٥
ـ نهاية قتيبة وفن الحرب	٥٩٨
ـ بعد قتيبة	٦٠١
ثبت المصادر والمراجع	٦٠٣
فهرس الخرائط	٦٠٥
محتوى الكتاب	٦٠٧

رقم: 557 - 12

يشمل هذا المجلد دراسة شخصيات القادة:

أبو عبيدة بن الجرَّاح ـ خالد بن الوليد ـ سعد بن أبي وقاص ـ معاوية بن أبي سفيان ـ قتيبة بن مسلم الباهلي. وتهدف دراسة شخصيات هؤلاء القادة إلى الآتي:

ـ إعطاء فكرة عامة عن الشخصية موضوع الدراسة بلغة سهلة، وأسلوب شائق، يجعل القارئ يعيش معها ويتابعها في أعمالها.

ـ الانطلاق من دراسة الماضي بعظمته إلى المستقبل المنشود، بالتوفيق بين فنِّ الحرب في عهد وسائل القتال البدائية، وفنِّ الحرب في عصر الوسائط المتقدِّمة (ضمن إطار الحرب التقليدية).

ـ برمجة الأحداث التاريخية بأسلوب يتلاءم مع روح العصر، ثم تحليلها والخروج منها بالعبر والعظات، وهو ما يسمى بالتعبير العسكري بـ «الدروس المستفادة».

ـ إبراز التكامل والتطور في عقيدة القتال عند العرب المسلمين من خلال منجزات قادتهم، والبرهنة على قدرة هذه العقيدة على تكوين قاعدة سياسية واستراتيجية تتوافق مع متطلبات العصر، ومع طبيعة التحديات مهما كان مصدرها أو شكلها أو زمانها.

ـ إبراز التفاعل بين عقيدة القتال عند العرب المسلمين، وبين مجموعة الظروف التي أحاطت بكل منهم في الإطارين الزماني والمكاني، ما يبرهن على دورهم الكبير في فن الحرب.

والقائم بهذه الدراسات مؤرخ، وكاتب عسكري، غني عن التعريف، فقد صدر له عشرات الكتب، ومئات المقالات والدراسات في مختلف الصحف والمجلات، واشتهر بتحليله الدقيق، ونظرته الاستراتيجية العميقة، وأسلوبه السهل الممتنع.

الناشر



ISBN 978-9953-18-485-2